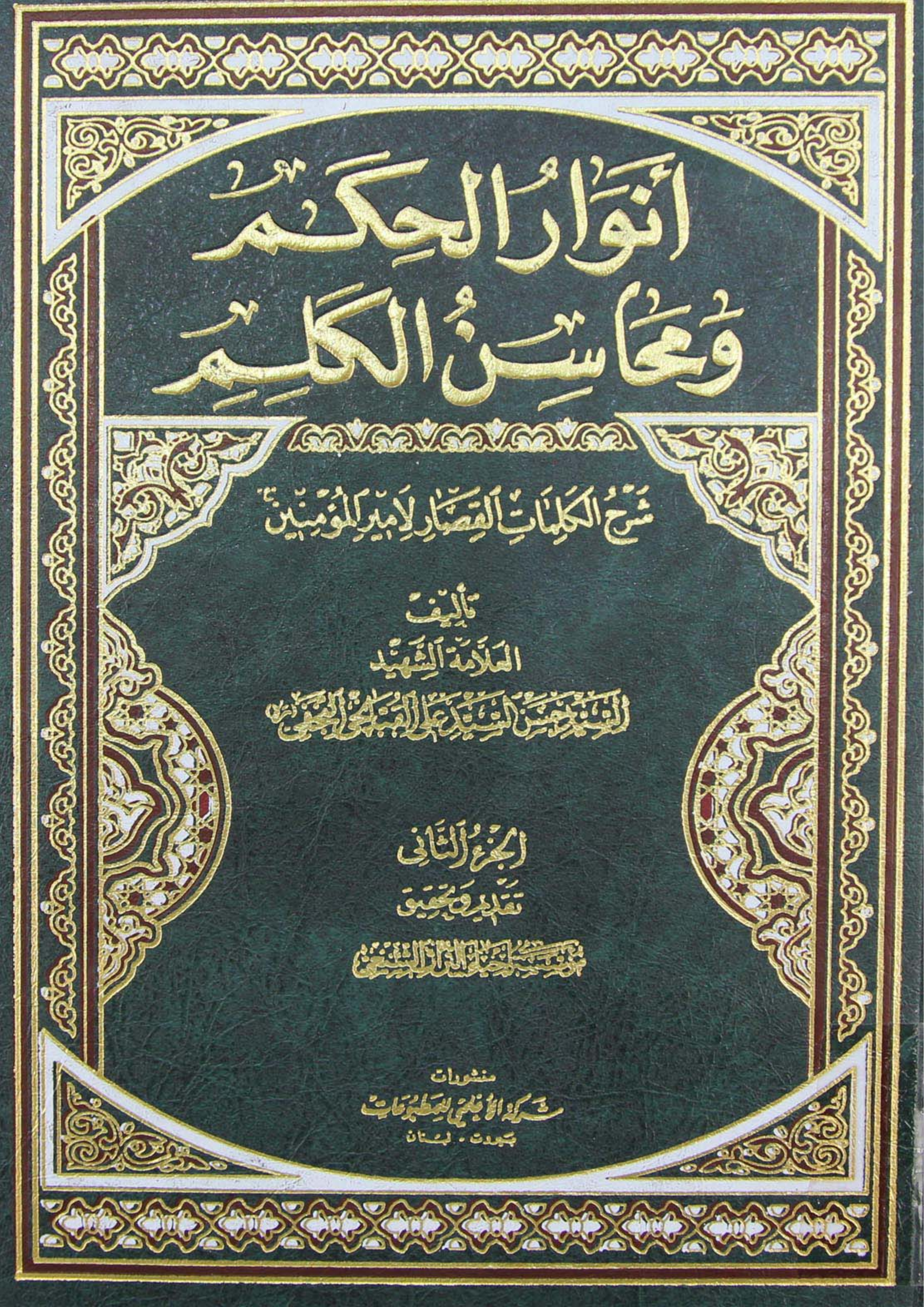
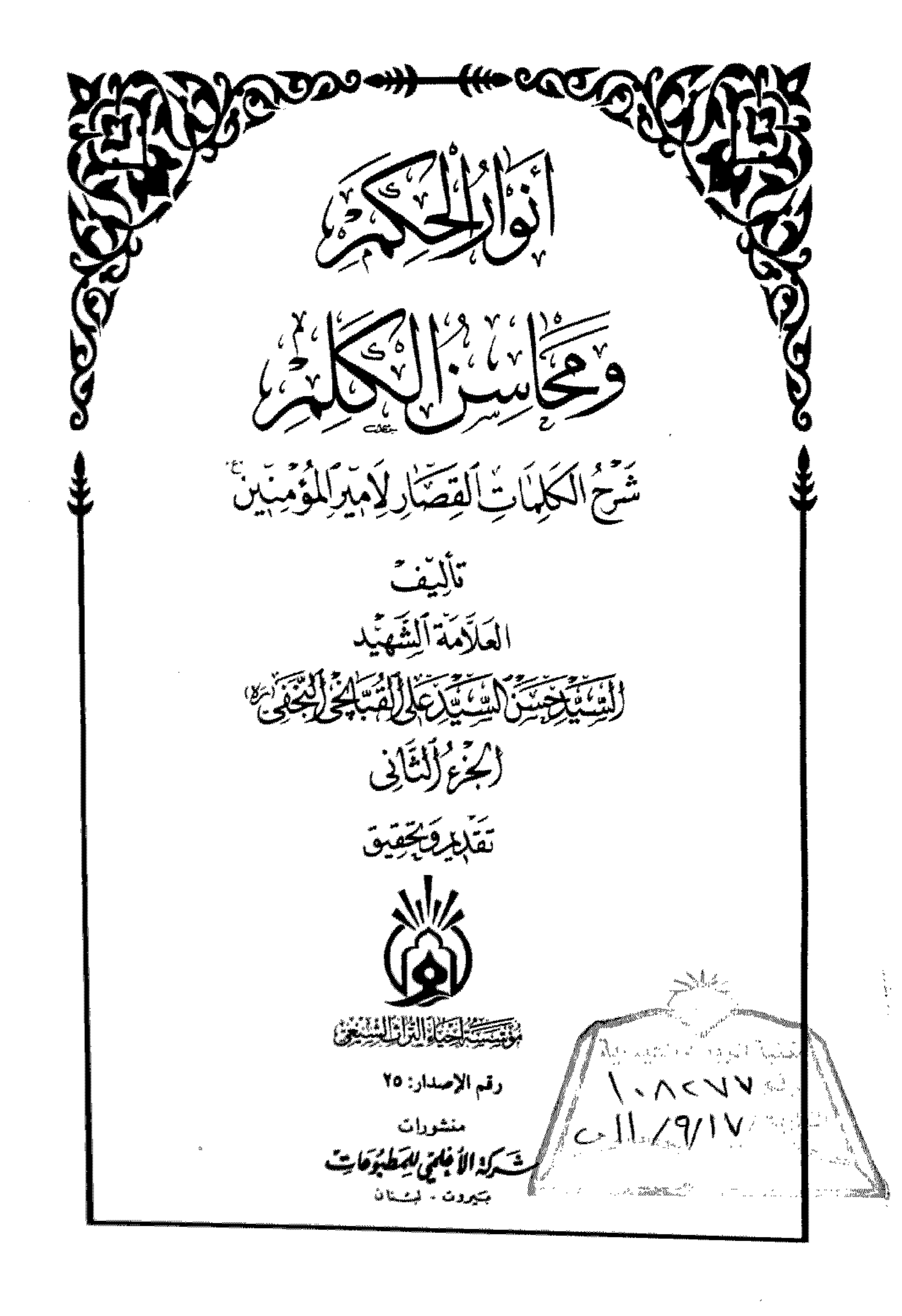

أنوار الحكم
ومحاسن الكلم
شرح الكلمات القصار لأمير المؤمنين
تأليف
العلامة الشهيد
الشيخ حسن السيد علي القبانچي النجفي
الجزء الثاني
تقديم وتحقيق
مؤسسة إحياء التراث الشيعي
منشورات
شركة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان



أنوار الحكم

ومحاسن الكلم

شرح الكلمات القصار لأمير المؤمنين (ع)

تأليف

العلامة الشهيد

السيد حسن السيد علي القبانچي النجفي (ره)

الجزء الثاني

تقديم وتحقيق

مؤسسة إحياء التراث الشيعي

رقم الإصدار: ٢٥

منشورات

شركة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م





شركة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - طريق المطار - قرب سنتر زعرور

هاتف:٤٥٠٤٢٦ / ٠١ - فاكس:٤٥٠٤٢٧ / ٠١

صندوق بريد:٧١٢٠

Published by Aalami Est.

Beirut Airport Road

Tel:01/450426 Fax:01/450427

P.O.Box.7120

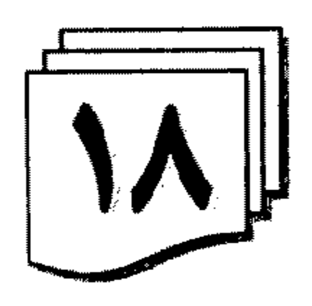
E-mail:alaalami@yahoo.com

http://www.alaalami.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة الدائمة على سيّد رسله وخاتم أنبيائه محمّد ﷺ نبي الرحمة وسيّد الأمّة وعلى أهل بيته المعصومين الطاهرين النجباء قادة الحقّ وسادة الخلق الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

وبعد: فيقول العبد الجاني الراجي عفو ربّه ولطفه حسن السيد عليّ القبانجي: هذا هو المجلّد الثاني من كتابنا (أنوار الحِكَم ومحاسن الكَلِم) نسأله تعالى أن يوفّقنا لإتمامه وكماله.



قوله عليه السلام:

أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتِهِمْ فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلاّ وَيَدُ اللّهِ بِيَدِهِ يَرْفَعُهُ.

(نهج البلاغة ٢: ١٤٦)

[المروءة والتفاضل الاجتماعي]

قال ابن أبي الحديد:

قد رويت هذه الكلمة مرفوعة ذكر ذلك ابن قتيبة في عيون الأخبار: وأحسن ما قبل في المروءة، قولهم: اللذّة ترك المروءة، والمروءة ترك اللذّة. وفي الحديث أنّ رجلاً قام إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألست أفضل قومي؟ فقال: «إن كان لك عقل فلك فضل، وإن كان لك خُلق فلك مروءة، وإن كان لك مال فلك حسب، وإن كان لك تقى فلك دين». وسئل الحسن عن المروءة فقال: جاء في الحديث المرفوع إنّ الله تعالى يحب معالي الأمور ويكره سفافها، وكان يقال من مروءة الرجل جلوسه بباب داره، وقال الحسن: لا دين إلاّ بمروءة، وقيل لابن هبيرة: ما المروءة؟ فقال: إصلاح المال والرزانة في المجلس، والغداء والعشاء بالفناء، وجاء أيضاً في الحديث المرفوع: حسب الرجل ماله وكرمه دينه ومروءته خلقه، وكان يقال: ليس من المروءة كثرة الإلتفات في الطريق، ويقال: سرعة المشي تذهب بمروءة الرجل، وقال معاوية لعمرو: ما ألذّ الأشياء؟ قال: مر فتيان قريش أن يقوموا، فلما قاموا قال: إسقاط المروءة، وكان عروة بن الزبير يقول لبنيه: يا بنيّ العبوا فإن المروءة لا تكون إلاّ بعد اللعب، وقيل للأحنف ما المروءة؟ قال: العفة والحرفة، تعف عما حرّم الله، وتحترف فيما أحلّ الله، وقال عمران بن محمّد التيمي: لا أشدّ من المروءة وهي: أن لا تعمل في السر شيئاً تستحي منه في العلانية. وسئل النظام عن المروءة فأنشد بيت زهير:

السّــــرُ دون الفاحشــــات ولا يلقــاك دون الخيــر مــن ســرّ

وقــال عمــر بــن الخطــاب: تعلّمــوا العربيــة فانهــا تزيــد فــي المــروءة، وتعلموا النسب فرب رحم مجهولة وقد وصلت به.

وقــال ميمــون بــن مهــران: أوّل المــروءة طلاقــة الوجــه، والثــاني التــودد إلـى النـاس والثالـث قضـاء الحـوائج، وقـال مسـلمة بـن عبـد الملـك مروءتـان ظاهرتـان: الريـاش والفصـاحة، وكـان يقـال: تعـرف مـروءة الرجـل بكثـرة ديونـه، وكـان يقـال: العقـل يـأمرك بـالأنفع، والمـروءة تـأمرك بالأجمـل. لام معاويـة يزيـد ابنـه علـى سـماع الغنـاء وحـبّ القينـات وقـال لـه: سـقطت مروءتك، فقال يزيد: أتكلـم بلسـاني كلمـة قـال نعـم: وبلسـان أبـي سـفيان بـن حـرب وهنـد بنـت عتبـة مـع لسـانك، قـال: والله لقـد حـدّثني عمـرو بـن العـاص واستشـهد علـى ذلـك ابنـه عبـد الله يصـدّقه إنّ أبـا سـفيان كـان يخلـع علـى المغنـي الفاضـل والمضـاعف مـن ثيابـه، ولقـد حـدّثني أن جـاريتي عبـد الله بـن جـدعان غنّتـاه يومـاً فأطربتـاه، فجعـل يخلـع عليهـا أثوابـه ثوبـاً ثوبـاً حتّـى تجـرّد تجـرّد العيـر، ولقـد كـان هـو وعفّـان ابـن أبـي العـاص ربمـا حمـلا جاريـة العـاص بـن وائـل علـى أعناقهمـا فحـرّا بهـا علـى الأبطـح وجلـة قـريش ينظـرون إليهـا مرّة علـى ظهـر أبيك، ومـرة علـى ظهـر عفـان، فمـا الـذي تنكـر منـي. فقـال معاويــة: اســكت لحــاك الله والله مــا أحــد ألحــق بأبيــك هــذا إلاّ ليُغّــرك ويفضــحك، وإن كــان أبــو ســفيان مــا علمــت لثقيــل الحلــم يقظــان الــرأي عازب الهوى طويل الاناة بعيد القعر، وما سوّدته قريش إلاّ لفضله.[1]

* * *

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٢٨ - ١٣٠.

وقال ابن ميثم:

رغب عليه السلام في إقالة ذوي المروآت عثراتهم التي يتفق وقوعها نادراً، كبيعهم لما يلحقهم الندم عليه ونحوه بذكر كون يد الله بأيديهم يرفعهم، واستعار لفظ العثرات لما يقع منهم خطأ ومن غير تثبّت، ولفظ اليد لعناية الله وقدرته، وكنى عن تعلّقاته وتدارك حاله بكون يده بيده يرفعه، وذلك أن المروءة فضيلة عظيمة يستجلب همم الخلق وقلوبهم ومساعداتهم بحسب ذلك، يكون استعداد العاثر من ذوي المروآت لعناية الله وقيامه من عثرته.(١)

* * *

وقال ابن مغنية:

المراد بذوي المروآت كل من يأنف من القبيح، وينزّه نفسه عما يشين، ويتغافل عن زلل الإخوان، وقال بعض السلف: رأيت المعاصي مذلة، فتركتها مروءة. أما العثرات فالمراد بها بعض الهفوات والسقطات التي لا يخلو منها إلاّ من عصم ربّك، والمعنى: تجاهلوا هفوة من كريم... وأي الرجال المهذب؟ ولا يقيم الحد من كان لله عليه حدّ، كما قال الإمام أمير المؤمنين، وقال السيد المسيح: «من كان منكم بريئاً فليرمها بحجر»، يريد الزانية، «ويد الله بيده يرفعه» أي أنه تعالى يتداركه برحمته، وذلك بأن يهيئ له أسباب التكفير عن هفوته وعثرته بالتوبة أو بأية فضيلة من الفضائل. «إن الحسنات يذهبن السيئات».(٢)

* * *

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٤٩٩.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٢٧.

وفي (منهاج البراعة):[١]

(المروءة) كمال الرجولية، العثرة جمع عثرات السقطة.

أصحاب المروءة محبوبون عند الله والناس؛ لأن المروءة خلق حسن وسماح وعفّة وخدمة واعانة للناس. قيل للأحنف ما المروءة؟ قال: العفة والحرفة، تعف عما حرّم الله، وتحترف فيما أحلّ الله. وفي حديث رسول الله ﷺ: «إن كان لك خلق فلك مُروُءة».

* * *

أقول: جاء في (محاضرات الأدباء) للراغب الإصفهاني:

قال معاوية لقرشي: ما المروءة؟ قال: إطعام الطعام وضرب الهام، وقال ذلك لثقفي؟ فقال: هي تقوى الله، وإصلاح المعيشة، فقال لعمرو إقض بينهما، فقال: أما ما قال القرشي فهو المروءة، وقد أجاد الثقفي ولم يصب، ولكن من بدأ بكلام حسن زيّن بذلك سائر كلامه، وإن المروءة أن تعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك.

وقال عبد الله بن عبّاس: المروءة أن تحقق التوحيد، وتركب المنهج السديد، وتستدعي من الله المزيد. وقيل: جماع المروءة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢] وقيل لعمرو بن العاص ما المروءة؟ فقال: العفة عما حرم، وقيل للأحنف ذلك فقال: أن لا تعمل في السر ما يستحيا منه في العلانية، وقيل له مرة أخرى: فقال: اجتناب الريب

(١) ج ٢١: ٣٦.

(٢) النحل: ٩٠.

فإنه لا ينبل مريب، وإصلاح المال فلا مروءة لمحتاج والقيام بحوائج الأهل، فلا مروءة لمن يحتاج قومه إلى غيره. وقيل لآخر: فقال: مواطاة القلب اللسان. وقيل الحسب إحصاء المكارم، والنسب إحصاء الآباء.

* * *

وجاء في (عيون الأخبار) لابن قتيبة: قال جعفر بن محمّد عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «وَرّوا ـ أي تجاوزوا ـ لذوي المروءآت عن عثراتهم، فو الذي نفسي بيده إنّ أحدكم ليَعثِر وإن يده لفي يد الله...» قال الأصمعي: ثلاثة تحكم لهم بالمروءة حتّى يَعرفوا: رجل رأيَته راكباً، أو سمعته يُعرب، أو شممتَ منه رائحةً طيّبة، وثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتّى يعروا: رجل شممت منه رائحةَ نبيذ في مَحفَل، أو سمعته يتكلم في مصرٍ عربيّ بالفارسيّة، أو رأيتَه على ظهر الطريق ينازع في القَدَر.

* * *

وفي الجزء الأوّل من (العقد الفريد): قال ربيعة الرأي: المروءة ست خصال: ثلاثة في الحضر، وثلاثة في السفر، فأما التي في السفر: فبذل الزاد، وحسن الخلق، ومداعبة الرفيق، وأما التي في الحضر: فتلاوة القرآن، ولزوم المساجد، وعفاف الفرج.

وقدم وفد على معاوية فقال لهم: ما تعدّون المروءة؟ قالوا: العفاف واصلاح المعيشة، قال: اسمع يا يزيد. وقيل لأبي هريرة: ما المروءة؟ قال: تقوى الله وتفقّد الضيعة. وقال عبد الله بن عمر: إنا معشر قريش لا نعد الحلم والجود سؤدداً، ونعد العفاف واصلاح المال مروءة. وقال الأحنف: لا مروءة لكذوب، ولا سؤدد لبخيل، ولا ورع لسيء الخلق.

وقال العتبي عن أبيه: لا تتم مروءة الرجل إلاّ بخمس: أن يكون عالماً، صادقاً، عاقلاً، ذابيان، مستغنياً عن الناس، قال الشاعر:

وما المرء إلاّ حيث يجعل نفسه ففي صالح الأخلاق نفسك فاجعل

وقيل لعبد الملك بن مروان: أكان مصعب بن الزبير يشرب الطلاء؟ فقال: لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ما شربه. وقالوا: من أخذ من الديك ثلاثة أشياء، ومن الغراب ثلاثة أشياء، تم بها أدبه ومروءته، من أخذ من الديك سخاءه وشجاعته وغيرته، ومن الغراب بكوره لطلب الرزق وشدة حذره، وستر سفاده.

* * *

وقرأت في سنة (١٤٠٦هـ) في كتاب (الأخلاق في حديث واحد) لمؤلفه العلامة الشيخ عبد الصاحب مظفر: جاء في الحديث: «المروّة إصلاح المال» وهي آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات، وقد تتحقق بمجانبة النفس من المباحات، كالأكل في الأسواق حيث يمتهن فاعله.

وفي (الدروس):[1] المروّة تنزيه النفس عن الدناءة التي لا تليق بأمثاله كالسخريّة وكشف العورة التي يتأكد وجوب سترها في الصلاة، والأكل في الأسواق غالباً، ولبس الفقيه لباس الجندي بحيث يسخر منه.

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «المروّة والله أن يضع الرجل خوانه بفناء داره» ثمّ قال عليه السلام: «والمروّة مروءتان: مروّة في الحضر، ومروّة في السفر، أما مروّة الحضر وهي تلاوة القرآن، ولزوم

---

(١) ج ٢: ١٢٥.

المساجد، والمشي مع الإخوان في الحوائج، والنعمة تُرى على الخادم فإنها تسرّ الصديق، وتكبد العدو، وأما في السفر فكثرة الزاد وطيبه وبذله إن كان معك، وكتمانك على القوم أمرهم بعد مرافقتك إياهم، وكثرة المزاح في غير ما يسخط الله تعالى».(١)

* * *

وفي سفينة البحار في حديث آخر عنه عليه السلام قال: «المروّة مروءتان: مروّة في الحضر، ومروّة في السفر، أمّا مروّة الحضر فتلاوة القرآن، وحضور المساجد، وصحبة أهل الخير والنظر في الفقه. وأما مروّة السفر فبذل الزاد، والمزاح في غير ما يسخط الله، وقلّة الخلاف على من صحبك، وترك الرواية عليهم إذا فارقتهم».(٢)

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تتمّ مروّة الرجل حتّى يتفقه في دينه، ويقتصد في معيشته، ويصبر على النائبة إذا نزلت به، ويستعذب مرارة إخوانه».(٣)

وسئل عليه السلام: ما المروّة؟ قال: «لا تفعل شيئاً في السرّ تستحي منه في العلانية».(٤)

وعن الحسن بن عليّ عليه السلام في جواب من سأله عن المروّة قال: «شحّ الرجل على دينه، وإصلاحه ماله، وقيامه بالحقوق».(٥)

* * *

---

(١) أمالي الصدوق: ٦٤٦.

(٢) أنظر: مستدرك سفينة البحار ٩: ٣٦٤.

(٣) بحار الأنوار ٧٥: ٦٣.

(٤) نفس المصدر.

(٥) بحار الأنوار ٧٣: ٣١٢.

وفي (معاني الأخبار)[١] عن عمرو بن عثمان التيمي القاضي، قال: خرج أمير المؤمنين عليه السلام على أصحابه وهم يتذاكرون المروّة، فقال: «أين أنتم من كتاب الله؟» قالوا: يا أمير المؤمنين في أيّ موضع؟ فقال: «في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾[٢] فالعدل الإنصاف، والإحسان التفضل».

وفيه سأل معاوية الحسن بن عليّ عليه السلام عن المروّة قال: «شح الرجل على دينه، وإصلاحه ماله، وقيامه بالحقوق» فقال معاوية: أحسنت يا أبا محمّد، أحسنت يا أبا محمّد قال: فكان معاوية يقول: بعد وددت أنّ يزيد قالها.

وفيه: عن أيمن بن محرز، عن معاوية بن وهب، عن أبي عبد الله عليه السلام: كان الحسن بن عليّ عليه السلام في نفر من أصحابه عند معاوية فقال: يا أبا محمّد أخبرني عن المروّة قال: «حفظ الرجل دينه، وقيامه في إصلاح ضيعته، وحسن منازعته، وإفشاء السلام، ولين الكلام، والكف، والتحبب إلى الناس».

وفيه: عن الحارث الأعور، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام للحسن ابنه: «يا بني ما المروّة؟» قال: «العفاف وإصلاح المال».

وفيه: عن أبان بن تغلب، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المروّة استصلاح المال».

[المروءة استصلاح المال]:

المال الذي تنصّ هذه الأخبار في اصلاحه هو أن يكون آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح وموصل إلى سعادة الآخرة، وذلك أخذه من حلّه، ووضعه في حقه فينحصر على نوعين:

---

(١) معاني الأخبار: ٢٥٧/ باب معنى المروءة/ ح ١ – ٦.

(٢) النحل: ٩٠.

النوع الأوّل: أن ينفقه على نفسه في عبادة أو استعانة على العبادة، أما العبادة هو دفع ما يجب عليه من الحقوق الواجبة في ماله، والتوصل إلى حج بيت الله الحرام، وأما الاستعانة على العبادة هو ما يقويه على ذلك، وهو المطعم والملبس والمنكح فإنّ هذه الضرورات لا بدّ منها، فإذا تيسّرت صار القلب منصرفاً إلى العبادة والذي لا يتوصل إلى العبادة إلاّ به فهو عبادة، فحينئذٍ أخذ الكفاية من المال للإستعانة على الدين من الفوائد الدينية.

النوع الثاني: الإنفاق فيما يستحب في وجوه الخير أو الإستخدام، أما وجوه الخير كالصدقة والضيافة والحق المعلوم وغير ذلك... وأما الانفاق في الإستخدام: هو أن ينفق على الاستخدام في الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان التي تشغله عن العبادة، فإذا تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذر عليه سبيل الآخرة بالفكر والذكر؛ لأن أصل العبادة ذكر لله تعالى، والفكر في جلاله ومصنوعاته، ويحتاج ذلك إلى قلب فارغ، فعليه الاستخدام بالانفاق الذي توصل به إلى العبادة؛ لأن المال مادة الحياة وآلة للمكارم، وعون على الدين، وإلا لم يستقم له دين ولا دنيا، ولحقه الوهن في نفسه ومروءته وأخلاقه.

قيل: الدرهم عقرب فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمّه قبل ما رقيته.[١] ويجب أن يؤدي شكره، ويلتمس به سبيل الخير، ويصطنع به المعروف، فإن فعل ذلك أصاب موضعه.

وروي أن بعضهم أصاب مالاً كثيراً، فقيل له لو إدخرته لولدك من بعدك فقال: ولكني ادخرته لنفسي عند ربي وادخرت ربي لولدي.[٢]

---

(١) أنظر: بحار الأنوار ٦٤: ٣٠٨.

(٢) أنظر: سير أعلام النبلاء ٥: ٦٨.

وقال آخر: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته قيل: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كله ويسأل عنه كله.(١)

والمصيبة العظمى فيما إذا كان تحصيله للمال لملاذه وشهواته، أو بذخ في صرفه مباهاةً، أو لسوء التدبير بأن ينفقه في غير ضرورة، أو يدّخره لولده مع التقصير وعدم إخراج الواجب، أو يجمع المال لكنزه وادخاره والإمساك عن انفاقه بسبب الشح، فهناك يدعو بالويل والثبور.

ألا يا جامع الأموال حرصاً ... على الدنيا الم تَخِف السؤالا
أتجمعها وتكسبها حراماً ... وتتركها لوارثها حلالا
فيسعد من جمعت له وتشقى ... ألا أقبح بذاك المال مالا

* * *

وفي مجموعة ورام: كتب سلمان الفارسي رضي الله عنه إلى أبي الدرداء: يا أخي إياك أن تجمع من الدنيا ما لا تؤدي شكره، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يجاء بصاحب الدنيا الذي أطاع الله فيها وماله بين يديه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله: امض فقد أديت حق الله فيَّ، ثمّ يجاء بصاحب الدنيا الذي لم يطع الله فيها وماله بين كتفيه كلما تكفأ به قال له ماله: ويلك ألا أديت حق الله فيَّ؟ فما يزال كذلك حتّى يدعو بالويل والثبور».(٢)

وأحسن أحوال الإنسان أن يترك التنعم بالدنيا، لما يعلم من سرعة انقضائها، فإذا صار التنعّم مألوفاً عنده ومحبوباً لديه، واشتدّ أنسه به، ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال، فيقتحم الشبهات ويخوض

---

(١) أنظر: إحياء علوم الدين ٣: ٢٣٤.

(٢) تنبيه الخواطر (مجموعة ورام) ١: ١٥٦.

في المرآت والمداهنة، والكذب والغش، وسائر الأخلاق المردية، لينتظم له أمر ديناه ويتيسر له تنعّمه، وقبيح بالحر المكتسي ثوب الفضائل أن يتهافت على المال بأكثر مما يحتاج إليه؛ لأن الله سبحانه أوجد أعراض الدنيا بلغة، وما في أيدي الناس عارية.

فإذا توصل إلى المال بالكسب الحلال فلا أقل من أن يليه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى، وكلما شغل عن ذكر الله تعالى فهو خسران ويكون حسرة عليه.

سُئِل أمير المؤمنين عليه السلام: من أعظم الناس حسرة؟ قال: «من رأى ماله في ميزان غيره وأدخله الله به النار، وأدخل وارثه به الجنّة».[١]

جاء عن أحد الصادقين عليهما السلام في معنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾[٢] قال: «الرجل يكسب مالاً فيحرم أن يعمل فيه خيراً فيموت فيرثه غيره فيعمل فيه عملاً صالحاً فيرى الرجل ما كسب حسنات ماله في ميزان غيره».[٣]

وفي مجموعة ورام: قال عيسى عليه السلام: في المال ثلاث خصال: أن يأخذه من غير حله، فقيل: إن أخذه من حلّه؟ فقال: يضعه في غير حقه. فقيل: إن وضعه في حقه؟ فقال: يشغله إصلاحه عن ذكر الله تعالى وقال بعضهم: إن المروّة بكثرة المال.[٤]

وأنشد ابن الأعرابي:

---

(١) بحار الأنوار ٧٠: ١٤٢.

(٢) البقرة: ١٦٧.

(٣) أمالي المفيد: ٢٠٥.

(٤) تنبيه الخواطر (مجموعة ورام) ١: ١٥٧.

رزقت لباً ولم أرزق مروءته ... وما المروّة إلاّ كثرة المال[١]

وقال بعضهم:

نعم المعين على المروّة للفتى ... مال يصون عن التبذل نفسه

لا شيء أنفع للفتى من ماله ... يقضي حوائجه ويجلب أنسه[٢]

وقال بعضهم:

احتل لنفسك أيها المحتال ... فمن المروّة أن يُرى لك مال

إني رأيت الأغنياء أعزّةً ... والمقترين عليهم الاذلال[٣]

وقال أبو عبيد الله الكاتب: الصبر على حقوق المروّة أشد من الصبر على ألم الحاجة، وذلّة الفقر مانعة من عزّ الفقر، كما أن عزّ الغنى مانع من كرم الإنصاف.[٤]

وقال بعضهم: ذو المروّة يكرم وإن كان معدماً كالأسد يهاب وإن كان رابضاً، ومن لا مروّة له يهاب وإن كان مؤسراً كالكلب وإن طوّق وحلّي.

وبالتالي قال محمّد أحمد جاد المولى بك في كتابه (الخلق الكامل):

المروءة حلية النفوس، ودليل على الفضل والكرم، وهي تقتضي مراعاة الأحوال وأتباع أفضلها، حتى لا يظهر منها قبيح متعمد، ولا يوجّه إليها لوم باستحقاق.

وأوّل ما نذكره في هذا الباب قول النبي ﷺ: «من عامل الناس

---

(١) البيان والتبيين ١: ٤٨٨.

(٢) مجمع الحكم والأمثال ١: باب المال.

(٣) روضة العقلاء ١: ٢٣٣.

(٤) نفس المصدر.

فلم يظلمهم، وحدّثهم فلم يكذّبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوّته».

وقول بعض البلغاء: من شرائط المروّة التعفف عن الحرام والآثام، والإنصاف في الحكم والكف عن الظلم، وعدم الطمع فيما لا يستحق، أو اعانة قوي على ضعيف، أو إيثار دنيء على شريف.

وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة؟ فقال: العقل يأمرك بالأنفع، والمروءة يأمرك بالأجل فالمراعاة هي المروءة لا ما انطبع عليه الإنسان من فضائل الأخلاق؛ لأن غرور الهوى وتنازع الشهوة يصرفان النفس أن تركب الأفضل من أخلاقها، والأجمل من طرائفها، إلاّ من استكمل شرف الأخلاق طبعاً، واستغنى عن تهذيبها تكلفاً وتطبعاً، ثمّ لو استكمل الفضل طبعاً ـ وفي المعوز أن يكون مستكملاً ـ لكان في المستحسن من عادات دهره من حقوق المروءة وشروطها مالاً يتوصل إليه إلاّ بالمعاناة، ولا يوقف عليه إلاّ بالتفقّد والمراعاة، ومن هذا ثبت أن مراعاة النفس لأفضل أحوالها هي المروءة، وإذا كانت كذلك فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها إلاّ من تسهلت عليه المشاق رغبة في الحمد، وكانت عليه الملاذ عذراً من الذم، ولذلك قيل: سيد القوم أشقاهم، وقال أبو تمام الطائي:

والحمد شهد لا يرى مشتاره ... يجنيه إلاّ من نقيع الحنظل
غَل لحامله ويحسبه الذي ... لم يوه عاتقه خفيف المحمل

وقد لحظ المتنبي ذلك، فسجله في قوله:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والإقدام قتال

[دواعي المروءة]:

وفي قوله:

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت في مرادها الأجسام

والداعي إلى استسهال ذلك شيئان: علو الهمة وشرف النفس: أما علوّ الهمة فلأنه يدعو إلى التقدم، ويبعث على استنكار الضعة والمهانة، ولذلك قال النبي ﷺ: «إنّ الله يحبّ معالي الأمور وأشرفها، ويكره دنيّها وسفافها» وقال بعض العلماء: إذا طلب رجلان أمراً ظفر به أكثرهما مروءة.

وأما شرف النفس: فهو الذي يغري الإنسان بقبول التأديب والتقويم؛ لأن النفس قد تجمح عن الأفضل وهي به عارفة، وتنفر عن التأديب مع استحسانها له؛ لأنها عليه غير مطبوعة، وله غير ملائمة، ولهذا قيل: ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه.

ومتى عرفت النفس قيمة الشرف رغبت في الفضائل، وأما من مني بعلوّ الهمة ولم يعرف قدر نفسه، فقد صار عرضة لأمر أعوزته آلته، وأفسدته جهالته، فأصبح كغرير يروم تعلم الكتابة، وأخرس يريد الخطابة، فلا يزيد الاجتهاد إلاّ عجزاً، وفي ذلك قال النبي ﷺ: «ما هَلَكَ امرؤ عرف قدره».

وقيل لبعض الحكماء: من أسوأ الناس حالاً؟ قال: من بعدت همته واتسعت أمنيته، وقصرت آلته وقلّت مقدرته.

وقال بعض الحكماء: تجنّبوا المنى، فإنها تذهب ببهجة ما خوّلتم، وتستصغرون بها نعمة الله عليكم.

فأما معرفة قدر النفس إذا تجرد عن علوّ الهمة، فإن الفضل به عاطل، وما أشبهه بالسلاح في يد الجبان الفشل.

قال شاعر حكيم:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها   هواناً بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن   عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا

على أن معرفة قدر النفس مع صغر الهمة أولى وأفضل من علوّ الهمة مع دناءة النفس، ولعمري لا يختلف إثنان في أن السلاح القاطع في يد الجبان خير من سلاح أقل مضاء في يد السفاح الشرير، كذلك من علت همته مع دناءة نفسه فإنه يطلب مالا يستحقه، ويطمع فيما هو أهل له، أما الشريف النفس مع صغر الهمة فإنه يترك ما يستحقه، ويقصر عما يجب له، وفضل ما بين الأمرين ظاهر، وإن كان لكل منهما من الذم نصيب.

قال الحصين بن المنذر الرقاشي:

إن المروءة ليس يدركها امرؤ   ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناء والخنا   ونهته عن سبل العلا فأطاعها

وحقوق المروءة من الكثرة بحيث لا تحصى، ومن الخفاء بحيث لا تظهر في كل الحالات: فمنها ما يقوم في الوهم حساً، ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدساً، ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل.

[حقوق المروءة]:

قال الماوردي في كتابه (أدب الدنيا والدين):

واعلم أن حقوق المروءة أكثر من أن تحصى، وأخفى من أن تظهر؛ لأنّ منها ما يقوم في الوهم حساً، ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدساً، ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل، فلذلك أعوز أعوزا إستيفاء شروطها إلاّ جملاً يتنبه

الفاضل لها ليقظته ويستدل العاقل عليها بفطرته، وإن كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها، وإنما نذكر في هذا الفصل الأشهر من قواعدها وأصولها، والأظهر من شروطها وحقوقها، محصوراً في تقسيم جامع وهو ينقسم قسمين:

أحدهما شروط المروءة في نفسه. والثاني شروطها في غيره:

فأمّا شروطها في نفسه بعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه، فيكون بثلاثة أمور: وهي العفة، والنزاهة، والصيانة.

فأما العفة فنوعان: أحدهما العفة عن المحارم، والثاني العفة عن المآثم، فأما العفة عن المحارم فنوعان: أحدهما العفة ضبط الفرج عن الحرام، والثاني كفّ اللسان عن الأعراض.

فأما ضبط الفرج عن الحرام؛ فلأنّ عدمه مع وعيد الشرع وزاجر العقل، معرة فاضحة وهتكة واضحة، ولذلك قال النبي ﷺ: «مَن وَقِيَ شرّ ذَبذَبِهِ ولَقلَقِهِ وقَبقَبِه فقد وَقِيَ» يريد بذَبذَبه الفرج وبلقلقه اللسان وبقبقبه البطن، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أحب العفاف إلى الله تعالى، عفاف الفرج والبطن».

قال أنوشروان لابنه هرمز: الكامل المروءة من حصن دينه، ووصل رحمه، وأكرم إخوانه. وقال بعض الحكماء: من أحب المكارم، واجتنب المحارم. وقيل: عار الفضيحة يكدّر لذتها. وقد أنشدني بعض أهل الأدب للحسن بن عليّ رضي الله عنهما:

الموت خير من ركوب العار ... والعار خير من دخول النار

والله ما هذا وهذا جاري

والداعي إلى ذلك شيئان: أحدهما إرسال الطرف، الثاني إتباع الشهوة، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال لعليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: «يا عليّ لا تتبع النظرة النظرة، فإنّ الأولى لك والثانية عليك» وفي قوله: «لا تتبع النظرة النظرة» تأويلان: أحدها لا تتبع نظر عينيك نظر قلبك، والثاني: لا تتبع الأولى التي وقعت سهواً بالنظرة الثانية التي توقعها عمداً، وقال عيسى بن مريم عَلِيَّالِهِ: «إياكم والنظرة بعد النظرة، فإنها تزرع في القلب الشهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة» وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: «العيون مصائد الشيطان» وقال بعض الحكماء: من أرسل طرفه استدعى حتفه. وقال بعض الشعراء:

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً ... لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وأما الشهوة فهي خادعة العقول، وغادرة الألباب، ومحسنة القبائح، ومسؤولة الفضائح، وليس عطب إلاّ وهي له سبب وعليه ألب، ولذلك قال النبي ﷺ: «أربع من كنّ فيه وجبت له الجنّة وحفظ من الشيطان: من ملك نفسه حين يرغب، وحين يرهب، وحين يشتهي، وحين يغضب» وقهرها عن هذه الأحوال يكون بثلاثة أمور:

أحدها غض الطرف عن إثارتها، وكفه عن مساعدتها، فإنه الرائد المحرك والقائد المهلك، روى سعيد بن سنان عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «تقبّلوا إليّ بست أتقبل إليكم بالجنّة»، قالوا: يا رسول الله وما هي؟ قال: «إذا حدّث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا أوتمن فلا يخون، غضّوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم، وكفّوا أيديكم».

والثاني: ترغيبها في الحلال عوضاً، وإقناعها بالمباح بدلاً، فإنّ الله ما حرّم شيئاً إلاّ وأغنى عنه بمباح من جنسه، لما علمه من نوازع الشهوة وتركيب الفطرة، ليكون ذلك عوناً على طاعته وحاجزاً عن مخالفته؛ لأن الله تعالى ما أمر بشيء إلاّ وأعان عليه، ولا نهى عن شيء إلاّ وأغنى عنه.

والثالث: إشعار النفس تقوى الله تعالى في أوامره واتقاؤه في زواجره، وإلزامها ما ألزم من طاعته وتحذيرها ما حذر من معصيته، وإعلامها أنه لا يخفى عليه ضمير ولا يعزب عنه قطمير، وأنه يجازي المحسن ويكافيء المسيء، وبذلك نزلت كتبه وبلغت رسله، روى ابن مسعود أن آخر ما نزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[1] وآخر ما نزل من التوراة: (إذا لم تستح فاصنع ما شئت) وآخر ما نزل من الزبور: (من يزرع خيراً يحصد زرعه غبطة).

فإذا أشعرها ما وصفت انقادت إلى الكف وأذعنت بالاتقاء، فسلم دينه وظهرت مروءته، فهذا شرط.

وأما كفّ اللسان عن الأعراض فلأن عدمه ملاذ السفهاء وانتقام أهل الغوغاء، وهو مستسهل الكلف، وإذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف وزاجر صادّ تلبط بمعارة وتخبط بمضارّة، وظن أنه لتجافي الناس عنه حمى يتقى ورتبة ترتقى فهلك وأهلك، فلذلك قال النبي ﷺ: «ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم» فجمع بين الدم والعرض لما فيه من إيغار الصدور وإبداء الشرور وإظهار البذاء واكتساب الأعداء، ولا يبقى مع هذه الأمور وزن لمرموق ولا مروءة لملحوظ، ثمّ هو بها موتور موزور ولأجلها مهجور.

---

(١) البقرة: ٢٨١.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «شرّ الناس من أكرمه الناس إتقاء لسانه» وقال بعض الحكماء: إنما هلك الناس بفضول الكلام وفضول المال، وما قدح في الأعراض من الكلام نوعان: أحدهما ما قدح في عرض صاحبه ولم يتجاوزه إلى غيره، وذلك شيئآن: الكذب وفحش القول. والثاني: ما تجاوزه إلى غيره وذلك أربعة أشياء: الغيبة والنميمة والسعاية والسب بقذف أو شتم، وربما كان السب أنكاها للقلوب وأبلغها أثراً في النفوس، ولذلك زجر الله عنه بالحدّ تغليظاً وبالتفسيق تشديداً وتصعيباً، وقد يكون ذلك لأحد شيئين أما انتقام يصدر عن سفه أو بذاء يحدث عن لؤم، وقد روى أبو سلمة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «المؤمن غرّ كريم والفاجر رخبّ لئيم». وقال ابن المقفّع: الإستطالة لسان الجهالة. وكفّ النفس عن هذه الحال بما يصدّها من الزواجر أسلم وهو بذي المروءة أجمل فهذا شرط.

[أنواع العفة]:

وأما العفة عن المآثم فنوعان: أحدهما الكف عن المجاهرة بالظلم، والثاني زجر النفس عن الإسرار بخيانة، فأما المجاهرة بالظلم فعتو مهلك وطغيان متلف، وهو يؤول إن استمر إلى فتنة أو جلاء، فأما الفتنة في الأغلب فتحيط بصاحبها وتنعكس على البادي بها، فلا تنكشف إلاّ وهو بها مصروع كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الفتنة نائمة فمن أيقظها صار طعاماً لها» وقال جعفر بن محمّد: «الفتنة حصاد للظالمين»، وقال بعض الحكماء: صاحب الفتنة أقرب شيء أجلاً وأسوء شيء.

وقال بعض الشعراء:

وكنت كعنز السوء قامت لحتفها إلى مدية تحت الثرى تستثيرها

وأما الجلاء فقد يكون من قوة الظالم وتطاول مدته، فيصير ظلمه مع المِكنة جلاء وفناء كالنار إذا وقعت في يابس الشجر فلا تبقي معها مع تمكنها شيئاً حتّى إذا أفنت ما وجدت اضمحلت وخمدت، فكذا حال الظالم مهلك ثمّ هالك.

والباعث على ذلك شيئآن: الجرأة والقسوة، ولذلك قال النبي ﷺ: «اطلبوا الفضل والمعروف عند الرحماء من أمتي تعيشوا في أكنافهم» والصاد عن ذلك أن يرى آثار الله تعالى في الظالمين فإنّ له فيهم عبراً، ويتصور عواقب ظلمهم فإن فيها مزدجراً، وقد روي عن النبي ﷺ: «يا عليّ اتق دعوة المظلوم فإنه إنما يسأل الله حقه وإنّ الله لا يمنع ذا حق حقه». وقيل في منثور الحكم: ويل للظالم من يوم المظالم، وقال بعض البلغاء: من جار حكمه أهلكه ظلمه، وقال بعض الشعراء:

وما من يد إلاّ يد الله فوقها ولا ظالم إلاّ سيُبلى بظالم

وأما الإسرار بالخيانة فضعة؛ لأنه ببذل الخيانة مهين ولقلة الثقة به مستكين، وقيل في منثور الحكم: من يخن يهن، وقال خالد الربعي: قرأت في بعض الكتب السالفة أن مما تعجل عقوبته ولا تؤخَر، الأمانة تخان والإحسان يكفر، والرحم تقطع والبغي على الناس، ولو لم يكن من ذم الخيانة إلاّ ما يجده الخائن في نفسه من المذلّة لكفاه زاجراً، ولو تصوّر عقبى أمانته وجدوى ثقته لعلم أن ذلك من أربح بضائع جاهه وأقوى شفعاء يقدمه مع ما يجده في نفسه من العز ويقابل عليه من الإعظام.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»، وروى سعيد بن جبير قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾(١) يعنون أن أموال العرب حلال لهم لأنهم من غير أهل الكتاب، قال رسول الله ﷺ: «كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلاّ وهو تحت قدمي إلاّ الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر».

ولا يجعل ما يتظاهر به من الأمانة زوراً ولا ما يبديه من العفة غروراً، فينهتك الزور وينكشف الغرور فيكون مع هتكه للتدليس أقبح ولمرّة الرياء أفضح، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال أمّتي بخير ما لم تر الأمانة مغنماً والصدقة مغرماً». وقال بعض الحكماء: من التمس أربعاً بأربع التمس ما لا يكون: من التمس الجزاء بالرياء التمس ما لا يكون، ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون، ومن التمس وفاء الاخوان بغير وفاء التمس ما لا يكون، ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون.

والداعي إلى الخيانة شيئآن: المهانة وقلة الأمانة، فإذا حسمها عن نفسه بما وصفت ظهرت مروءته. فهذا شرط قد استوفينا فيه أقسام العفة.

[أنواع النزاهة]:

وأما النزاهة فنوعان: أحدهما النزاهة عن المطامع الدنية، والثاني النزاهة عن مواقف الريبة، فأما المطامع الدنية فلأن الطمع ذل والدناءة لؤم، وهما أدفع شيء للمروءة، وقد كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع»، وقد قال بعض الشعراء:

---

(١) آل عمران: ٧٥.

لا تخضعنّ لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك في الدين
واسترزق الله مما في خزائنه ... فإنما هو بين الكاف والنون

والباعث على ذلك شيئآن الشره وقلة الأنفة، فلا يقنع بما أوتي وإن كان كثيراً لأجل شرهه، ولا يستنكف مما منع وإن كان حقيراً لقلة أنفته، وهذه حال من لا يرضى لنفسه قدراً ويرى المال أعظم خطراً، فيرى بذل أهونَ الأمرين لأجلهما مغنماً، وليس لمن كان المال عنده أجل ونفسه عليه أقل إصغاء لتأنيب ولا قبول لتأديب.

وروي أن رجلاً قال: يا رسول الله أوصني، قال: «عليك باليأس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وإذا صليت صلاة فصلّ صلاة مودّع، وإياك وما يعتذر منه» وقال بعض الشعراء:

ومن كانت الدنيا مناه وهمّه ... سبته المنى واستعبدته المطامع

وحسم هذه المطامع شيئان: اليأس والقناعة، وقد روى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتّى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم ابطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله تعالى، فإنّ الله ﷻ لا يدرك ما عنده إلاّ باطاعته» فهذه شرط.

وأما مواقف الريبة فهي التردد بين منزلتي حمد وذم والوقوف بين حالتي سلامة وسقم، فتتوجه إليه لائمة المتوهمين وينالـه ذلة المريبين، وكفى بصاحبها موقفاً إن صحّ افتضح وان لم يصح امتهن، وقد قال النبي ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

وسئل محمّد بن عليّ (الباقر) عن المروءة فقال: «ألاّ تعمل في

السر عملاً تستحي منه في العلانية». وقال حسان بن ثابت: ما وجدت شيئاً هو أهون من الورع، قيل له: وكيف قال: إذا ارتَبتُ بشيء تركته. والداعي إلى هذه الحال شيئآن: الحياء والحذر، وربما انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة.

وحكي عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه رآه بعض الحواريين وقد خرج من منزل امرأة ذات فجور، فقال: يا روح الله ما تصنع هنا؟ فقال: الطبيب إنما يداوي المرضى. ولكن لا ينبغي أن يجعل ذلك طريقاً إلى الاسترسال، وليكن الحذر عليه أغلب وإلى الخوف من تصديق التهم أقرب، فما كل ريبة ينفيها حسن الثقة، وهذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو أبعد خلق الله من الريب وأصونهم من التهم، وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب المسجد يحادثها وكان معتكفاً، فمرّ به رجلان من الأنصار فلما رأياه أسرعا، فقال لهما: على رسلكما إنها صفية بنت حيي، فقالا: سبحان الله أوفيك شك يا رسول الله فقال: «مَه إن الشيطان يجري من أحدكم مجرى لحمه ودمه فخشيت أن يقذف في قلبكما سوءاً».

فكيف من تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه الظنون، فهل يعرى في مواقف الريب من قادح محقق ولائم مصدّق، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إذا لم يشق المرء إلاّ بما عمل فقد سعد» وإذا استعمل الحرام وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومظان التهم، ولم يقف موقف الاعذار ولا عذر لمختار، لم يختلج في نزاهته شك ولم يقدح في عرضه إفك، وقد قال الشاعر:

أصونك أن أدل عليك ظناً ... لأن الظن مفتاح اليقين

وقال سهل بن هارون: مؤنة المتوقف أيسر من تكلف المتعسف.

وقال بعض الحكماء: من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع. وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر الصولي:

أحسنت ظني بأهل دهري   فحسن ظني بهم دهاني
لا آمن الناس بعد هذا   ما الخوف إلاّ من الأمان

فهذا شرط استوفينا فيه نوعي النزاهة.

وأمّا الصيانة وهي الثالث من شروط المروءة فنوعان: أحدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقديم مادتها، والثاني صيانتها عن تحمل المنى والإسترسال في الإستعانة.

فأما التماس الكفاية وتقدير المادة، فلأن المحتاج إلى الناس كَلٌّ مهتضَم وذليل مستثقَل، وهو لما فطر عليه محتاج إلى ما يستمدّه ليقيم أوَدَ نفسه ويدفع ضرورة وقته، ولذلك قالت العرب في أمثالها: كلب جَوال خير من أسد رابض. وما يستمدّه نوعان: لازم وندب، فأما اللازم فما قام بالكفاية وأفضى إلى سدّ الخلة، وعليه في طلبه ثلاثة شروط: أحدها استطابته من الوجوه المباحة وتوقي المحظورة، فإنّ المواد المحرّمة مستخبثة الأصول ممحوقة المحصول إن صرفها في برٍ لم يؤجَر وإن صرفها في مدح لم يشكر، ثم هو لأوزارها محتقب وعليها معاقب. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يعجبك رجل كسب مالاً من غير حلّه فإن أنفقه لم يقبل منه، وإن أمسكه فهو زاده إلى النار». وقال بعض الحكماء: شر المال ما لزمك إثم مكسبه وحرمت إجر إنفاقه. قال عليّ بن الجهم:

سر من عاش ماله فإذا ما   سبه الله سرّه الإعدام

والثاني طلبه من أحسن جهاته التي لا يلحقه فيها غض ولا يتدنس

له بها عرض، فإنّ المال يراد لصيانة الأعراض لا لابتذالها، ولعز النفوس لا لإذلالها. وقال أبو بشر الضرير:

كفى حزناً أني أروح وأغتدي ... وما لِيَ من مال أصون به عرضي

وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبا ... وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضي

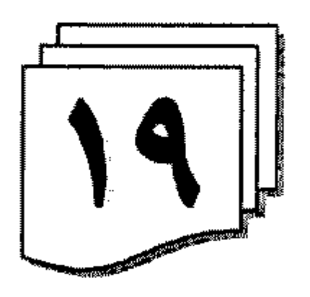
والثالث أن يتأنى في تقدير مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يناله زلل، فإنّ يسير المال مع حسن التقدير وإصابة التدبير أجدى نفعاً وأحسن موقعاً من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير.

وقال محمّد بن عليّ (الباقر) رضي الله عنه: «الكمال في ثلاثة: العفة في الدين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير في المعيشة». فإذا استكمل هذه الشروط فيما يستمده من قدر الكفاية، فقد أدّى حق المروءة في نفسه. وسئل الأحنف عن المروءة فقال: العفة والحرفة.

وأما الندب فهو ما فضل عن الكفاية، وزاد على قدر الحاجة، فإنّ الأمر فيه معتبر بحال طالبه، فإن كان مما تقاعد عن مراتب الرؤساء وتقاصر عن مطاولة النظراء وانقبض عن منافسة الاكفاء فحسبه ما كفاه، فليس في الريادة إلاّ شره ولا في الفضول إلاّ نَهَم وكلاهما مذموم، وقد قال النبي ﷺ: «خير الرزق ما يكفي، وخير الذكر الخفي»، وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: «الدنيا كَلٌ على العاقل» وقال عبد الله بن مسعود: المستغني عن الدنيا بالدنيا كمطفئ النار بالتبن. وقال بعض الحكماء: اشتر ماء وجهك بالقناعة، وتسل عن الدنيا بتجافيها عن الكرام.

فهذا ما اقتضاه هذا الفصل من شروط المروءة، وإن كان كل كتابنا هذا من شروطها وما اتصل بحقوقها.

* * *



قوله عليه السلام:

قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ فَانْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ.

(نهج البلاغة ٤: ٦)

[الخوف والخجل مدعاة للتأخر]

ضبط الألفاظ اللغويّة:

(الهيبة): المخافة، ضدّ الأنس خاب خيبة، لم يظفر بما طلب، (الحياء): الحشمة، انقباض النفس تركه خوفاً من اللوم. (المنجد).

قال ابن أبي الحديد:

في المثل: من أقدم لم يندم. وقال الشاعر:

ليس للحاجات إلاّ من له وجه وقاح
ولسان طرمذي وغدو ورواح
فعليه السعي فيها وعلى الله النجاح

وكان يقال: الفرصة ما إذا حاولته فأخطأك نفعه لم يصل إليك ضرّه، ومن كلام ابن المقفع: انتهز الفرصة في احراز المآثر، واغتنم الإمكان باصطناع الخير، ولا تنتظر ما يعامل، فتجازى عنه مثله، فإنك إن عوملت بمكروه واشتغلت ترصداً، وإن المكافاة عنه قصّر العمر بك عن اكتساب فائدة واقتناء منقبة، وتصرّمت أيامك بين تعد عليك، وانتظار للظفر بادراك الثار من خصمك، ولا عيشة في الحياة أكثر من ذلك.

كانت العرب إذا أوفدت وافداً، وقالت له: إيّاك والهيبة فانها خيبة، ولا تبت عند ذنب الأمر وبت عند رأسه.[1]

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٣١.

قال ابن ميثم:

أراد بالهيبة الخوف من المقابل، وظاهر أن ذلك يستلزم عدم قضاء الحاجة منه والظفر بالمطلوب لعدم الإنبساط في القول معه، وهو معنى اقترانها بالخيبة، وكذلك الحياء بالحرمان لاستلزام الحياء ترك الطلب والتعرض له، وهو تنفير عن الهيبة والحياء المذمومين، ثمّ أمر عليه السلام بانتهاز فرص الخير أي المبادرة إلى فعله عند حضور وقت إمكانه، ورغب في ذلك بضمير صغراه.

قوله عليه السلام: «الفرصة تمر مرّ السحاب» أي أنها سريعة الزوال، وتقدير الكبرى، وكلما كان كذلك فواجب أن يبادر إليه ويغتنم وقت امكانه.[1]

* * *

وقال في (منهاج البراعة):[2]

الهيبة والحياء صفتان عامتان ممدوحتان في محلّهما، ومن أهلهما، ومن مذمومتان في غير موقعهما، وكلامه عليه السلام هذا بيان للمذموم منهما، وذلك أنه في الغالب تتولّد الهيبة من العجب، فكثير من الناس يهابون دخول أمور تعدّ من وظائفهم وتوجب اكتساب المنافع لهم بسبب العجب، فلم تقض حوائجهم ولا يصلون إلى مآربهم ولو كانت حقاً، كما أن الحياء في الشباب ناشيء عن نوع من الخمول والإنكماش يحول دونهم ودون فوائدهم وحقوقهم، وربما أداء ما يجب عليهم من أمور

(١) شرح نهج البلاغة / ابن ميثم ٢: ٥٠٠.
(٢) ج ٢١: ٣٧.

الدين والسؤال عن واجباتهم، وتلك الصفتين موجبتان لفوت الفرص التي ربما لا يمكن تداركها، فنبّه عليه السلام إلى معالجتها، وحفظ الفرص التي لو فاتت لا يمكن تداركها بسهولة وربما يتعذّر.

* * *

وقال ابن مغنية في (في ظلال نهج البلاغة):[١]

الخوف من الله حتم، وهو مقام الربانيين، والخوف من القول والفعل بلا علم حسن وجميل، وهو من صفات العلماء والمتقين، وكل خوف ما عدا هذين فهو جبن وخور، فأقدم على ما يطمئن إليه قلبك، وإن قال الناس وقالوا: وإن أحجمت خوفاً من قيلهم وقالهم عشت حياتك سلبياً فاشلاً، على أنك لا تسلم من السنة الناس وان حذِرت منها ومنهم.

(والحياء بالحرمان) الحياء من فعل ما لا يقرّه عقل ولا دين، وتأباه الكرامة والمروءة هو من الدين في الصميم، وسُنّة من سنن الأنبياء والمرسلين، وخلق من خلق الأباة والسراة، أما الحياء من الحلال، وبخاصة ما ينفع الناس فهو عجز وخوف، وخنوع واستكانة، وخلق من خلق الضعفاء والجبناء، وهذا النوع من الخوف هو مراد الإمام ومن أقواله: «تكلموا تعرفوا» ومن الأمثال العامة: لا ينجب أولاداً من يستحي من زوجته.

وبهذه المناسبة نشير إلى ما قيل في تفسير هذا الحديث: مما أدرك الناس من كلام النبوّة: «إذا لم تستح فافعل ما شئت».

---

(١) ج ٤: ٢٢٨.

قيل في تفسيره: إذا لم تستح من الله والناس فافعل ما بدا لك من حلال وحرام، وحسن وقبيح، وهذا المعنى معروف بين الناس، وقيل معناه إذا لم يكن في الفعل ما تستحي منه فافعله، ولا بأس عليك، وكل من المعنيين صحيح يتحمله لفظ الحديث...

* * *

أقول: قال الراغب الاصفهاني: «الحياء انقباض النفس عن القبيح، وهو من خصائص الإنسان ليرتدع عن ارتكاب كل ما يشتهي، فلا يكون كالبهيمة وهو مركب من جبن وعفة، فلذلك لا يكون المستحي فاسقاً، وقلما يكون الشجاع مستحياً، وقد يكون لمطلق الانقباض كما في بعض الصبيان»[١].

أجل إذا كان الحياء تغيراً نفسياً، وخلقاً باطنياً، يحول بين المرء والقبائح، أو يمنعه من عمل ما يعاب به ويذم، أو ينقد عليه ويعنف، كان لا شك خلقاً محموداً، لا ينتج إلا خيراً، فالذي يمرّ بخياله فعل الفاحشة فيمنعه حياؤه من اجتراحها، أو يسبه شخص فيمنعه الحياء من مقابلة السيئة بمثلها، أو يسأله سائل فيحول حياءه دون حرمانه، أو تقابله فتاة جميلة فيغض الحياء بصره، أو يستبرئه مدين معسر من دينه، فيأبى عليه حياؤه إلاّ الابراء، أو يضمه مجلس فيمسك الحياء بلسانه عن الكلام فيما لا يعنيه، أو الخوض فيما لا يجيده.

والذي يكون للحياء في نفسه هذه الآثار الحسنة، والأعمال الطيبة ذو خلق محمود.

---

(١) أنظر: فيض القدير ٣: ٥٦٦. نقلاً عن الراغب.

وفي حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ مرّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإن الحياء من الإيمان».[١]

وأعلى درجات الحياء ما كان ناشئاً عن الشعور برقابة الله وعظم حقه عليه، فإن هذا يقيم المرء على صراط الحق، لا يلتوي عنه يمنة أو يسرة.

وفي حديث عبد الله بن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «استحيوا من الله حق الحياء»، قلنا: إنا نستحي من الله يا رسول الله، والحمد لله، قال: «ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ـ كالسمع والبصر واللسان ـ والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ـ لم يفتتن بها حتّى تشغله عن الواجبات، وآثر الآخرة على الأولى، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء».[٢]

وعن بعض السلف: رأيت المعاصي مذلّة فتركتها مروءة فصارت ديانة، وقد يتولد الحياء من الله تعالى من التقلب في نعمه، فيستحي العاقل أن يستعين بها على معصيته.[٣]

وليس من أثر الحياء قعودك عن مواجهة من يرتكب إثماً، ونهيه عن ذنبه، ولا عدم مطالبتك بحق أنت في حاجة إليه، ولا تركك السؤال لأستاذك عن مسألة خفيت عليك، أو ترى فيها غير ما يرى خجلاً منه أو من إخوانك، أو خشية أن تكون مخطئاً في رأيك، ولا تركك القول في مجلس رفع الباطل فيه أو الخطأ رأسه، وأنت بالحق والصواب عليم.

---

(١) مسند أحمد٢: ٥٦.

(٢) مسند أحمد ١: ٣٨٧.

(٣) فتح الباري ١: ٧٠.

كل ذلك وأشباهه ليس من أثر الحياء المحمود، إنما ذلك أثر العجز والمهانة، والجبن والحقارة، واطلاق الحياء عليه للشبه بينه وبين الحياء الحقيقي، ولقد كان الرسول ﷺ أشد حياءً من البكر في خدرها، وما ترك النهي عن المنكر، ولا أقرّ باطلاً ولا سكت على خطأ.

مفاسد من حرموا الحياء:

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ ممّا أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت».[1]

من يوم أن خلق الله الإنسان، أوجد النزاع بين بنيه، بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، فكان فيه الحكم البالغة، والنصائح القيّمة، وكان منها ما سار في الناس مسير الأمثال، فبقي على ممر الحقوب والأجيال، ومن ذلك «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» أي إذا لم يكن لدى المرء حياء يحول بينه وبين الشرور، ويجنّبه غشيان الزور، فليغفل ما بدا له من خير أو شر، حق أو باطل، طيّب أو خبيث، معروف أو منكر، يجر إليه الذم والملام، والعيب والعار، أم لا يجر، فإنّ الله تعالى محصٍ عليه ما يصنع، مقيّد ما يعمل، وسيجزيه الجزاء العادل على ما كسبت يداه.

فالأمر في العبارة للتوبيخ والتهديد، وفيه إشعار بأن الحياء هو الذي يحول بين المرء ومواقعة السوء، وأن من حرمه هدى في بؤرة الفساد لا محالة، حتّى كأنه مأمور بارتكاب كل ضلالة، ومقارفة كل سيئة.

وقيل: إن الأمر هنا للإباحة، وأن معنى العبارة: إذا كنت في فعلك

---

(١) مسند أحمد ٥: ٢٧٣.

آمناً من أن تستحي منه لجريانك فيه على سنن الصواب فاصنع ما بدا لك، لا حرج فيه عليك، والمعنى الأول هو المتبادر إلى الفهم.

نرى في هذا العالم شراراً لئاماً، وفسقة فجّاراً، يعتدون على الحرمات، فيسفكون الدماء، ويسلبون الأموال، ويهتكون الأعراض، لا يقدّسون حقاً، ولا يحترمون رأياً، تقرع آذانهم قوارع الناصحين، وعظات المخلصين، وكأن لم تكن قارعة، وكأن لم يسمعوا عظة، في سبيل المحافظة على جاههم، وبقاء سلطانهم، يجترحون كل فاحشة، ويقترفون كل مظلمة، وتخنق الحرّيات وتصدع الجماعات، ثمّ يعجب صوافي النفوس، وطهرة القلوب؛ كيف لا ترعوي هذه عن غيها؟ أليس لها قلب؟ أليس فيها عاطفة؟ أليس فيها من الإنسانية بقية؟ ولو سمعوا هذه الكلمة الخالدة، وفقهوا هذه الحكمة البالغة لعرفوا السبب، وبطل العجب، ذلك أنهم فقدوا خلق الحياء فصنعوا ما شاؤا، واقترفوا ما أرادوا وإن كان في ذلك هلاك العباد وخراب البلاد، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هادٍ﴾.[1]

* * *

أقول: جاء في (الرياض الخزعلية):[2]

ومن ثمرات الروحانية الحياء والخجل، وهما من خصائص

(١) الرعد: ٣٣.

(٢) (الرياض الخزعلية في السياسة الإنسانية) كتب باسم خزعل خان الكعبي العامري حاكم خوزستان والملقب من ناصر الدين شاه بالسردار الأرفع. طبع بمصر (١٣١٩هـ) في (٧٣٩) صفحة في جزئين، في جزئه الأوّل أربع عشرة روضة. ألّفه الشيخ محمّد ابن الشيخ عيسى النجفي وهو من ترتيب الفاضل الأديب الشيخ عبد المجيد البصري... مرتب على أربعة موارد: ١- الطبايع اللازمة للنفس ٢- العقل وأحكامه ٣- السياسة العقلية ٤- السياسة النفسية . (الذريعة ١١: ٣٢٤).

الإنسان لا يوجدان في غيره من سائر الحيوانات، وأوّل ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان الحياء.

قال بعض الحكماء: الحياء انقباض النفس عن القبائح، وهذا تعريفه، متى قصد به الإنقباض فهو مدح للصبيان دون المشايخ، ومتى قصد به ترك القبيح فهو مدح لكل أحد، وباعتبار الأوّل قيل الحياء بالأفاضل قبيح، وبالاعتبار الثاني ورد أن الله يستحي من ذي شيبة في الإسلام أن يعذبه، أي يترك تعذيبه ويستقبح لكرمه ذلك.

وأما الخجل: فحيرة تلحق النفس لفرط الحياء، ويحمد في النساء والصبيان، ويذّم بالإتفاق في الرجال، فأمّا القحة فمذمومة بكل إنسان، إذ هي انسلاخ من الإنسانية، وحقيقتها لجاج النفس في تعاطي القبيح، وما أصدق قول الشاعر:

صلابة الوجه لم تغلب على أحد ... إلاّ تكامل فيه الشر واجتمعا

والحياء خلق مركب من جبن وعفة، فلا يكون المستحي فاسقاً، ولا الفاسق مستحياً، لتنافي اجتماع العفة والفسق، وقلما يكون الشجاع مستحياً والمستحي شجاعاً، لتنافي اجتماع الجبن والشجاعة.

[أسباب الحياء]:

وأسباب الحياء كثيرة وأشدها تأثير سببان: الأمل والإستعظام، أما الأمل فقد قيل: من أملّ أحداً هابه. قال الباقر عليه السلام: «من أملّ رجلاً هابه، ومن قصر من شيء غابه».

وقال الهيثم: ربّما يبلغني عن الرجل يقع فيّ، فأذكر استغنائي عنه فيهون ذلك عليّ، وأمّا الإستعظام فإن الإنسان متى استعظم أحداً استحى

منه، ولو لم يحتج إليه فيكبر في نفسه أن يطلع على عيبه، ولذلك لا يستحي من الحيوان الغير الناطق، ولا من الأطفال الذين لا يميزون، ويستحي من العالم أكثر مما يستحي من الجاهل، ومن الجماعة أكثر مما يستحي من الواحد، والذين يستحي منهم الإنسان ثلاثة: البشر، ونفسه، والله تعالى.

أما البشر فهم أكثر من يستحي منهم الإنسان في غالب الناس، ثمّ نفسه، ثمّ خالقه، وذلك لقلة توفيقه وسوء اختياره، واعلم أن من استحى من الناس ولم يستح من نفسه فنفسه عنده أحسن من غيره، ومن استحى منهما ولم يستح من الله فليس عارفاً بالله تعالى؛ لأنه لو كان عارفاً به لما استحى من المخلوق دون الخالق، ألا ترى أن الإنسان لا بدّ أن يستحي من الذي يعظمه، ويعلم أنه يراه أو يسمع بخبره فيبكته من لا يعرف الله، فكيف يستعظمه، وكيف يعلم أنه يطلع عليه.

قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء» أمر ﷺ في ضمن كلامه هذا بمعرفته سبحانه وتعالى، وحث عليها وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾[1] تنبيهاً على أن العبد إذا علم أن ربّه يراه استحي من ارتكاب الذنب.

وسئل بعض العلماء عما يتولد منه الحياء من الله تعالى؟ فقال: أن يرى العبد آلاء الله ونعمه عليه، ويرى تقصيره في شكره. فإن قال قائل: فما معنى قول النبي ﷺ: «من لا حياء له لا إيمان له» قيل له: لأن الحياء أوّل ما يظهر من إمارة العقل في الإنسان، وأما الإيمان فهو آخر المراتب،

---

(١) العلق: ١٤.

ومحال حصول المرتبة الآخرة لمن لم يحصل ذلك للإنسان فإذا تكلم في جمع من الناس وأدركه الخجل حُصر ولم يأت بما يريد، وليس لذلك سبب إلاّ الخجل.

روى أبو الحسن المدائني قال: صعد ابن سعيد بن أرطاة المنبر فلما رأى الناس حُصر فقال: الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويسقيهم، وصعد روح ابن حاتم المنبر فلما رأى الناس قد رشقوه بأبصارهم وصرفوا أسماعهم نحوه، قال: نكسوا رؤسكم وغضوا أبصاركم فإن المنبر أوّل مركب صعب فإذا يسّر الله ﷻ فتح قفلاً ثمّ نزل. وخطب مصعب ابن حيان أخو مقاتل ابن حيّان خطبة نكاح فحصر، فقال: لقّنوا موتاكم لا إله إلاّ الله، فقالت أمّ الجارية: عجل الله موتك الهذا دعوناك.

ومن ثمرات الحياء المنع من القبيح فقد جعله الله في الإنسان ليرتدع به عمّا تنزع إليه نفسه من القبيح فلا يكون كالبهيمة، ومن كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه.

لا تسأل المرء عن خلائقه   في وجهه شاهد عن الخبر

وقال الشاعر:

ورب قبيحة ما حال بيني   وبين ركوبها إلاّ الحياء
إذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً   تقلّب في الأمور كما يشاء

[مكارم الأخلاق]:

وقيل: مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم والمكافاة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الذمار للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهن الحياء. وقال رسول الله ﷺ:

الحياء شعبة من الإيمان. وقال: إن مما أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت. وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «من كسا بالحياء ثوبه لم ير الناس عيبه». وعن زيد بن عليّ عن آبائه يرفعونه: من لم يستح فهو كافر. وقال بعضهم: الوجه المصون بالحياة كالجوهر المكنون في الوقاء. وقال الخواص: إن العباد عملوا على أربع منازل: على الخوف، والرجاء والتعظيم والحياء، فأرفعها منزلة الحياء، لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال قالوا: سواء علينا رأيناه أو رآنا، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه.

ويقال: القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله.

قال الراغب الاصفهاني في كتابه (محاضرات الأدباء):

قال النبي صلى الله عليه وآله: «الحياء شعبة من الإيمان، ومن لا حياء له فلا إيمان له»، وفُسّر قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾[1] بالحياء، وقال أبي: عليك بالحياء والأنفة، فإنك إن استحييت من الغضاضة اجتنبت من الخساسة، وإن أنفت من الغلبة لم يتقدمك أحد في مرتبة، وقيل: أحي حياءك بمجالسة من يستحى منه، وقيل: من جمع بين الحياء والسخاء فقد أجاد الحلة أزارها ورداءها.

الممدوح بالحياء:

في وصف النبي صلى الله عليه وآله أنه كان شديد الحياء، وكان أشد حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه. وسأل يحيى ابن خالد رجلاً

(١) الأعراف: ٢٦.

عن ابنه؟ فقال: تركته وماء الحياء يتحدر من أسارير وجهه، وسيول الجود سائلة من فروج أنامله، ولآليء العلم متناثرة من ميازيب منطقه.

قال المتنبئ: ترك الحياء بها رداء سقيم.

وقال آخر:

وأوجـه فتيـان حيـاء تلثمـوا ... عليهن لا خوفاً من الحر والبـرد
وليس حياء الوجه في الذئب شيمة ... ولكنـه مـن شـيمة الأسـد الـورد

مروان ابن أبي حفصة:

يكـاد يخـرج فـي ديبـاج أوجههـم ... خـوف المذلـة حتّـى ينفطـرن دمـا

من مدح بالحياء في السلم والوقاحة في الحرب قال الشاعر:

كـريم يغـض الطـرف فـرط حيائـه ... ويـدنو وأطـراف الرمـاح دوان

وقال آخر:

يتلقـى النـدى بوجـه حيـي ... وسـيوف العـدا بوجـه وقـاح

الموسوي:

يجري الحياء الغض من قسماتهم ... فـي حين يجري فـي أكفهـم الـدم

من يستحي من الناس دون نفسه وربه:

قال كعب: استحيوا من الله في سرائركم كما تستحيون من الناس في علانيتكم. وقيل: من يستحي من الناس ولا يستحي من نفسه فلا قدر لنفسه عنده. قال رجل للنعمان أوصني: فقال: استح من الله كما تستحي من رجل من عشيرتك.

* * *

وفي (عيون الأخبار)[1] لابن قتيبة:

قال الشعبي: تَعايَشَ الناسُ زماناً بالدين والتقوى، ثمّ رُفع ذلك فتعايشوا بالحياء والتذمم، ثمّ رُفِع ذلك فما يتعايش الناس إلاّ بالرغبة والرهبة، وأظنه سيجيء ما هو أشد من هذا.

* * *

[أقسام الحياء]:

وفي المجلد الأوّل من كتاب آداب النفس (ص ٣٠٨):

قال بعض العلماء: إن الحياء على أربعة أوجه:

حياء الجناية: كآدم عليه السلام نودي: أفرار منّا؟ قال: بل حياء منك.

ورئي بعض الصالحين يصلّي بخارج المسجد، فقيل له: لم لا تدخل المسجد فتصلي فيه؟ فقال: أستحي أن أدخل بيته وقد عصيته.

وحياء التقصير: كالملائكة يقولون: سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك.

وقال بعضهم: ربّما أصلي فأنصرف عنها، وأنا بمنزلة من ينصرف من السرقة من الحياء.

وكان بعضهم يقول عند رؤية الآلاء والتقصير يتولّد بينها حال للعبد يسمّى الحياء، وأنشد:

لولا الحياء وأن الستر من سمتي ... إذا قعدت عليك الدهر لم أقم

أليس عندك شكر للتي جعلت ... ما ابيضّ من قاد مثل الرأس كالحجم

---

(١) عيون الأخبار: ١٨٧.

وحياء الإجلال: وذلك كحياء إسرافيل يتغطّى بجناحه حياءً، وحتّى يصير من الحياء كالوصع، وهو طائر كأصغر ما يكون، ولهذا يقال: إن الحياء يوجب التذويب. ويقال: الحياء ذوبان الحشا لاطلاع المولى.

وقد كنت قبل الذنب أحسب أنني ... ذلول لأيام الزمان حبيب
فأشرفت يوماً في البقاع فشاقني ... وذو الشوف من أعلى البقاع طروب
فما برحت نفسي تساقط أنفساً ... وتخمد روحي للحيا وتذوب
وأبلست في حال الرجاء وباعدت ... إلى النفس حاجات وهنّ قريب

وحياء الكرم: وذلك كما استحى النبي ﷺ من صحابته أن يقول: أخرجوا، وقد كانوا يؤذونه بطول حديثهم، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾[1] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾[2] فإنما لأنها دعته إلى الضيافة، وصفة المضيف إذا كان كريماً الإستحياء، ومنه قوله تعالى، فيما أخبر عنه رسول الله ﷺ: «الشيب نور من أنواري وأنا أستحي أن أحرق نوري بناري». وكان يحيى بن معاذ يأخذ بلحيته البيضاء ويناجي: سبحان الله؛ يذنب العبد ويستحي هو!

[الحياء مقسم على أربعة]:

وقيل: إن الحياء مقسوم بين أربعة أشياء:

النفس وحياؤها من العصيان، إذا كان ذلك بمرءى من الرحمن، قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾.[3]

---

(١) الأحزاب: ٥٣.

(٢) القصص: ٢٥.

(٣) المجادلة: ٧.

ويروى أن شاباً على عهد عمر دعته امرأة إلى نفسها، فلما قدر عليها استحيا من الله فغشي عليه فحملوه إلى منزله، فبقي أيّاماً بأسوء حال، ثمّ مات وجاء عمر إلى قبره فقال: ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾[١] فسمع: أعطاهما الله.

وحكي أنّ بدويّاً خلا بامرأة، فلما جلس معها مجلس الرجال من النساء فرّ هارباً، فقالت له: لِمَ فررت؟ فقال: إنّ رجلاً باع جنّة عرضها السماوات والأرض بإصبعين من بين فخذيك لقليل العلم بالمساحة!

وقيل: أشدّ الحياء حياء النفس من قلّة الحياء يوم كشف الغطاء.

اليوم ينكشف القناع المسبل ... ليس التجمّل كل حين يجمل

اليوم لا يرفع غير ذيلي ... ليلي نهاري ونهاري ليلي

ليلي نهاري سهاداً ... ونهاري ليلي سواداً

والثاني: حياء الروح، وذلك من كثرة الإحسان، قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾[٢] وقالوا: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ﴾[٣] إن ذلك للحياء من عيوب الطاعات، وما كان من القيام بالليل.

ويروى أنّ الله تعالى يعاتب عبداً من عباده فيقول العبد: يا ربّ مر بي إلى عذابك، فإنّ عذابك أهون من عتابك.

وسئل بعض العارفين: أي الأعمال أفضل؟ فقال:

إذا محاسني اللاتي أدلّ بها ... كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر

أرخى للسائل الخضوع وللقارف ذنباً ... غضاضة الإعتذار

واستعذ منهما فبئس المقامان ... لأهل الحياء والأخطار

---

(١) الرحمن: ٤٦.

(٢) القصص: ٧٧.

(٣) آل عمران: ١٧.

والثالث: حياء العقل، وهو من النسيان، وذلك كما حكى الله عن قوم قولهم: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾[1].

تناسيت عهدي واطرّحت حقوقي ... وخالفت أمري واصطفيت عقوقي
وما ذاك إلاّ أنني سهم نصرة ... فنحوى العَدى نَصلي ونحوك فُوقي
ولاحت بروق منك أخلف ودقها ... على أنني ما أخلفتك بروقي

والرابع: حياء السر، من الإلتفات إلى كل من على وجه الأرض، خاطب الله تعالى الخاص فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾[2] ثمّ قال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾[3] مخاطب العام فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[4] وقال: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[5] فكم بين من ينظر إلى ربّه وبين من ينظر إلى غيره، وقال في حال الحربين (ولعل الصحيح الحزبين): «قل الله ثمّ ذرهم».

قال رسول ﷺ لأبي بكر: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[6] حيث إن هذا الرفيق لم يكن على يقين من أن الباري جلّ وعلا مع نبيّه ﷺ فكأنّه قال له: استح من الله وانته عن هذا الجزع والفزع.

---

(١) طه: ١٢٦.
(٢) الفرقان: ٤٥.
(٣) قريش: ٣.
(٤) البقرة: ١٥٠.
(٥) الغاشية: ١٧.
(٦) التوبة: ٤٠.

وقال موسى عليه السلام: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾.(١)

وحكى بعضهم قال: خرجنا ليلة فمررنا بأجمةٍ فإذا رجل نائم وفرسه عند رأسه يرعى، فحركّناه وقلنا له: يا فتى ألا تخاف تنام في مسبعة، فرفع رأسه وقال: أنا أستحي منه أن أخاف غيره.

هممت بطرفي يمنة ثمّ يسرة ... فلم أر غير الله يأمله قلبي
وإني لأستحيي وكل الذي أرى ... لربي أن أرجو وأخشى سوى ربي

وقال بعض شعراء الجاهلية:

وإني لأستحيي من الله أن أرى ... أطوف بحبل ليس فيه بعير
وأن أسأل المرء اللئيم بعيره ... وبُعران ربي في البلاد كثير
فلليل أن آواني الليل حكمة ... وللشمس إن غابت عليّ تدور
عوى الذئب فاستأنست بالذئب إن عوى ... وصوّت إنسان فكدت أطير
رأى الله أني للأنيس لشاني ... وتبغضهم لي مقلة وضمير

وربما زاد حياء السر على الإلتفات إلى الغير، وأوجب الحياء من الإقبال على الحبيب والنظر إليه، كما قال مضرّس بن قرطة الهلالي:

أردّ سوام الطرف عنك وما له ... على أحد إلاّ إليك طريق
يهيجني للوصل أيّاما الأولى ... مررن علينا والزمان وَريق
تتوق إليك النفس ثمّ أردّها ... حياءاً ومثلي بالحياء حقيق
على كل حال أستحيك وأتقي ... وإن طار من قلبي إليك فريق

وقد جاء في الحياء من الأخبار والآثار، حديث: بأن عليه النور،

(١) الشعراء: ٦٢.

وأيّد بالحق، واستخلص من التقوى، يجمع لك الأدب والتأديب، ويدلّك على الصلاح والتسديد، وهو لك إن وُفقت للعمل به مادة في الباطن وجمال في الظاهر، وعمدة في الخيرات وعُدّة في النائبات، وهو قوله ﷺ: «الإيمان كالحياء، ولا حسب كالتواضع، ولا شرف كالعلم، ولا مال أعود من العقل، ولا وحدة أوحش من العجب، ولا عيش كالتدبير، ولا كرم كالتقوى، ولا قرين كحسن الخلق، ولا ميراث كالأدب، ولا فائدة كالتوفيق، ولا نجاة كالعمل الصالح، ولا ربح كثواب الله، ولا ورع كالوقوف عند الشبهة، ولا زهد كالزهد في الحرام، ولا علم كالتفكّر، ولا عبادة كأداء الفرائض، ولا مظاهرة أوفق من المشورة، واحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، واذكر الموت وطول البلى».

وذكر بعض الصالحين القرون الماضية والأسلاف الخالية، وقال: تعامل القرن الأوّل فيما بينهم بالدين حتّى رقّ ثوب الدين، ثمّ تعامل القرن الثاني بالوفاء حتّى ذهب الوفاء، ثمّ تعامل القرن الثالث بالمروءة حتّى ذهبت المروءة، ثمّ تعامل القرن الرابع بالحياء حتّى ذهب الحياء، ثمّ صار التعامل بالرغبة والرهبة.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري أعنّي أصحابك، فكتب إليه الحسن أما بعد فإنه من كان من أصحابي يريد الدنيا فلا حاجة لك فيه، ومن يريد الآخرة فلا حاجة له فيما قِبلك، ولكن عليك بذوي الأحساب، فإنهم ان لم يتقّوا استحيوا، وان لم يستحيوا يكرموا.

وقال صاحب المنطق (أرسطو) المعلم الأوّل: من لم يستح من نفسه واستحيا من الناس، فلا قدر لنفسه عند نفسه.

وقال: من الحياء ترك التجنّي والبحث عن باطن القلوب.

وقال: الحياء فرع من التخلّف عن الجميل وهو بالأحداث حسن، وأحسن منه أن لا يفعل ما يستحيا منه، وافتقاده عند وجوبه في غاية القبح.

وقال: الصبر صبران فأعلاهما أن تصبر عما ترجو فيه الغُنم في العاقبة، والحلم حلمان فأشرفهما حلمك عمن دونك، والصدق صدقان فأعظمهما صدقك فيما يضرك، والوفاء وفاءآن فأسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه، والحياء حياءان فأولاهما أن لا تفعل ما تستحي منه.

وقال بعضهم: معنى الحياء من الله حصر القلب عن الإنبساط، والامتناع من ظنون لا يرضاها الله، وعلامة المستحي أن لا يرى في مكان يستحيا من مثله.

وقال: حقيقة الحياء من الله حسن المراقبة في السرّ والعلانية.

وقال: الحياء ينهى عن كل ما يحتاج أن يعتذر منه، وعن كل ما إذا غاب علمه عن غيرك أحشمك ذكره في نفسك.

وقيل له: بماذا يأمر الحياء؟ فقال: يأمر بكل ما يحمد في الذَرى أثره، ويطيب عند الكشف خبره.

وكان يقول: لا أزال الحياء عن قلوب الأولياء سرور الخدمة، وسلب الحياء عن لسان المذبذبين عذر الخطيئة.

وقال أبو عثمان الخازين: من تكلّم في الحياء ولا يستحي من الله فيما تكلّم منه فهو مستدرج ـ أي خادع ـ.

ودخل الحسن الحدّاد على عبد الله بن المبارك فقال عبد الله: من أين؟ فقال: من مجلس أبي القاسم، قال: فيما ذا كان يتكلم؟ قال: في الحياء، قال عبد الله: وأعجباه لمن لم يستح من الله كيف يتكلم في الحياء!

وقال: الحبّ ينطق، والحياء يسكت، والخوف يقلق.

وأنشد:

ومغض عن معاتبتي حياءً ... وإنْ لسانه السيف الصقيل
أطلت عتابه عنتاً وظلماً ... فدمّع ثمّ قال: كما تقول

* * *

ينوي العتاب له من قبل رؤيته ... فإن رآه فدمع العين منسكب
لا يستطيع كلاماً حين تبصره ... كلّ اللسان ونار القلب تلتهب

قال بعضهم: أحبوا الحياء بمجالسة من يستحيا منه.

قال محمّد بن معاذ: دم على الصفاء إن كنت تطمع في الوفاء، والزم الحياء إن كنت ترغب في العطاء.

وكان عمرو المكّي يقول: واحزناه من عهد لم تقم له بوفاء، ومن خلوة لم تصحب بحياء، ومن مسألة ما الجواب فيها غداً، ومن أيّام تفنى ويبقى ما كان فيها أبداً.

وكان معروف الكرخي يقول: حقيقة الوفاء إقامة السرّ مَن رقدة الغفلات، وحقيقة الحياء فراغ الهم عن فضول الآفات.

وقال محمّد بن الفضل: الحياء يتولد من النظر إلى إحسان المحسن، ثمّ من النظر إلى جفائك مع المحسن.

تسيئ بنا ليلى ونحسن جهدنا ... فحتّى متى ليلى تسيئ ونحسن
واني لأستحيي لها من فعالها ... كأنّي في ليلى المسيئ المخون

ويحكى أن معروف الكرخي، كان خاله والي البلد، فدخل معروف يوماً خربة ومعه رغيف، وفي الخربة كلب وكان يأكل لقمة ويلقي إلى الكلب لقمة، فمرّ خاله بباب الخربة مع رجله وخيله، فأخبر بحال معروف، فدخل عليه، فقال:

أما تستحي تؤاكل الكلاب؟ فالتفت معروف إلى طائر فأتاه الطائر فسقط على يده وغطّى عينيه بجباحيه، فعجب خاله من حاله وقال: هذا خير مما نحن فيه، ثم قال: هبك دعوته فأجابك فما ما له غطّى عينيه بجناحيه؟ فقال معروف: استحييت من الله فاستحيا مني كل شيء.

وهذا من الحياء الذي يدعو إلى الصدود والإعراض، ويحمل على الغضّ الإغماض، وقد ذكره الأعرابي النميريّ في شعره فقال:

وقد زعم الواشون أن لا أحبّكم ... بلى وستور الله ذات المحارم

أصد وما الصّد الذي تعلمينه ... عن انباء إلاّ اجتراع العلاقم

حياء وتقياً أن تشيع نميمة ... بنا وبكم أفّاً لأهل النمائم

وإنّ دماً لو تعلمين جنيته ... على الحي جاني مثله غير نائم

أما إنّه لو لا الهوى لا عشت له ... صدور القنا بالراغبات اللهازم

ولكنه والله ما ظل مسلماً ... كبيض الثنايا واضحات المباسم

إذا هنّ ساقطن الأحاديث للفتى ... سقوط حصى المرجان من كفّ ناظم

رَمَين فأقصدن القلوب فلا ترى ... ذماماً يرى إلاّ جرى في الحيازم

قال رسول الله ﷺ: «إنّ زيادة شهوة النساء على الرجال زيادة العشرات على الآحاد، ولكن الله صانهن بزيادة حيائهنّ».

وقيل للشعبي: ما أحسن براعة الإماء؟ فقال: تردد ماء الحياء في وجه الحرّة أحسن من ذلك، وأنشد في مرثية امرأة:

يا نار صدري على ثلاثة درجوا ... امرأة في التراب والمدر

ويا شباب ونعمة مزجا ... بماء ذلك الحياء والخفر

وقال آخر:

يا بدر تم بنيشابور مطلعه ... وبحر جود لأهل الفضل مشرعه
سقيت باغي ماء فيه أربعه ... من المياه وخير الماء أنفعه
ماء الحياء وماء الوجه يتبعه ... ماء الشباب وماء الورد يشفعه

* * *

ومما أنشد في قلة الحياء:

إذا قلّ ماء الوجه قلّ بهاؤه ... ولا خير في وجه إذا قلّ ماؤه
حياءك فاحفظه عليك فإنما ... يدلّ على فضل الكريم حياؤه

معانيها أدخل في الحكمة وأبلغ في الفصاحة إذا لم يضاد بعضها بعضاً.

أوجه الحياء:

واعلم أن الحياء في الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه: أحدها: حياؤه من الله تعالى، والثاني: حياؤه من الناس، والثالث: حياؤه من نفسه.

فأما حياؤه من الله تعالى، فيكون امتثال أوامره والكف عن زواجره، روى ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «استحيوا من الله ﷻ حق الحياء»، فقيل: يا رسول الله فكيف نستحي من الله ﷻ حق الحياء؟ قال: «من حفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وترك زينة الحياة الدنيا، وذكر والموت والبلى فقد استحيا من الله ﷻ حق الحياء». وهذا الحديث من أبلغ الوصايا.

وقال أبو الحسن الماوردي مصنف الكتاب: رأيت رسول الله ﷺ في المنام ذات ليلة، فقلت: يا رسول الله أوصني فقال: «استح من الله ﷻ حق الحياء»،

ثمّ قال: «تغيّر الناس»، قلت: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «كنت أنظر إلى الصبي فأرى في وجهه البشر والحياء، وأنا أنظر إليه اليوم فلا أرى ذلك في وجهه»، فلم يبدأ بشيء ﷺ قبل الوصية بالحياء من الله ﷻ، وجعل ما سلبه الصبي من البشر والحياء سبباً لتغيّر الناس، وخصّ الصبي لأن ما يأتيه بالطبع من غير تكلف، فصلى الله عليه وسلم، على من هدى أمّته وتابع إنذارها وقطع اعذارها وواصل تأديبها وحفظ تهديبها، وجعل لكل عصر حظاً من زواجره ونصيباً من أوامره، أعاننا الله على قبولها بالعمل وعلى استدامتها بالتوفيق.

وقد روي أن علقمة بن علاثة قال: يا رسول الله عظني، فقال رسول الله ﷺ: «استح من الله تعالى استحياءك من ذوي الهيبة من قومك» وهذا الحياء يكون من قوة الدين وصحة اليقين ولذلك قال النبي ﷺ: «قلة الحياء كفر» يعني من الله لما فيه من مخالفة أوامره، وقال ﷺ: «الحياء نظام الإيمان فإذا انحلّ نظام الشيء تبدّد ما فيه وتفرّق».

وأما حياؤه من الناس: فيكون بكفّ الأذى وترك المجاهرة بالقبيح، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من تقوى الله اتقاء الناس»، وروي أن حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكّب الطريق عن الناس وقال: لا خير فيمن لا يستحي من الناس، وقال بشّار بن برد:

ولقد أصرف الفؤاد عن الشيء ... حياء وحبّه في السواد

أمسك النفس بالعفاف وأمسي ... ذاكراً في غدٍ حديث الأعادي

وهذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة وحبّ الثناء، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له» يعني والله أعلم لقلّة مروءته وظهور شهوته، وروى الحسن عن أبي هريرة قال:

قال ﷺ: «إنّ مروءة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه وإلفه وجليسه» وقال بعض الشعراء:

وربّ قبيحة ما حال بيني ... وبين ركوبها إلاّ الحياء

إذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً ... تقلّب في الأمور كما يشاء

وقال آخر:

إذا لم تَصُن عرضاً ولمْ تخشَ خالقاً ... وتستح مخلوقاً فما شئت فاصنع

وأمّا حياؤه من نفسه: فيكون بالعفة وصيانة الخلوات، قال بعض الحكماء: ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحياءك من غيرك. وقال بعض الأدباء: من عمل في السرّ عملاً يستحي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر.

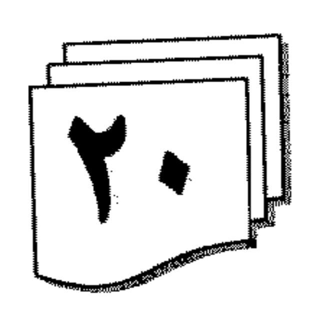
وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة، فمتى كمل حياء الإنسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه أسباب الخير وانتفت عنه أسباب الشر، وصار بالفضل مشهوراً بالجميل مذكوراً، وقال بعض الشعراء:

واني ليثنيني عن الجهل والخنا ... وعن شتم ذى القربى خلائق أربع

حياء وإسلام وتقوى وانني ... كريم ومثلي من يضرّ وينفع

وإن أخلّ بأحد وجوه الحياء لحقه من النقص بإخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله.

* * *



قول عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام:

يَا بُنَيَّ احْفَظْ عَنِّي أرْبَعاً وأرْبَعاً لا يَضُرُّكَ مَا عملْتَ معَهُنَّ إنَّ أغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ، وَأكْبَرَ الْفَقْرِ الْحُمْقُ، وأوْحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ، وَأكْرَمَ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ، يَا بُنَيَّ إيَّاكَ ومُصَادَقَةَ الأحْمَقِ، فَإنَّهُ يُرِيدُ أنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ، وَإيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْبَخِيلِ فَإنَّهُ يَقْعُدُ عَنْكَ أحْوَجَ مَا تَكُونُ إلَيْهِ، وَإيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْفَاجِرِ فَإنَّهُ يَبِيعُكَ بِالتَّافِهِ، وَإيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْكَذَّابِ فَإنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقَرِّبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدَ وَيُبَعِّدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ.

(نهج البلاغة ٤: ١١/ رقم ٣٨)

[وصية عليّ لولده الحسن ﴿عليهما السلام﴾]

قال ابن أبي الحديد:

هذا الفصل يتضمّن ذكر العقل، والحمق، والعجب، وحسن الخلق، والبخل، والفجور، والكذب، وقد تقدم كلامنا في هذه الخصال أجمع، وقد أخذت قوله ﴿عليه السلام﴾: «إيّاك ومصادقة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك». فقلت في أبيات لي:

في حياتك لا تصحبنّ الجهول ... فلا خير في صحبة الأخرق

يظن أخو الجهل أن الضلال ... في عين الرشاد فلا يتقي

ويكسب صاحبه حقه ... فيسرق منه ولا يسرق

وأُقسم أن العدو اللبيب ... خير من المشفق الأحمق[1]

* * *

[سبب التقسيم الرباعي]:

وقال ابن ميثم البحراني:

إنما قال ﴿عليه السلام﴾: «أربعاً وأربعاً»، لأن الأربع الأولى من باب واحد، وهو اكتساب الفضائل الخلقيّة والنفسانية، والأربع الثانية من باب المعاملة مع الخلق، وقيل: لأن الأولى من باب الإثبات، والثانية من باب النفي.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٥٧.

أمّا الأربع الأولى فالعقل، وأراد بالمرتبة الثانية من مراتب العقل النظري المسمّى عقلاً بالملكة وهو أن يحصل لنفسه من العلوم البديهيّة والحسيّة والتجربيّة، قوّة أن يتوصل بها إلى العلوم النظريّة، وغاية ذلك أن يحصل على ما بعد هذه المرتبة من مراتب العقل، ورغب فيه بكونه أغنى الغنى، وذلك أن به يحصل الدنيا والآخرة، فهو أعظم أسباب الغنى وفيه الغنى.

الثانية الحمق: وهو رذيلة الغباوة وطرف التفريط من العقل المذكور وتفرعُنه بكونه أكبر الفقر؛ لأنه سبب للفقر من الكمالات، خصوصاً النفسانية التي بها الغنى التام فكان أكبر فقر.

الثالثة العجب: وهو رذيلة الكبر وتضاد التواضع، وتفرعنها بكونها أوحش الوحشة، وظاهر كونها أقوى أسباب الوحشة ونفرة الأنيس؛ لأن تواضع المتواضع لما استلزم أنس الخلق به وشدّة ميلهم إليه كان ضدّه مستلزماً لنفرتهم وتوحّشهم التام منه.

الرابعة حسن الخلق: ورغّب فيه بكونه أكرم الحسب، لكونه أشرف الكمالات الباقية، وهذه المنفّرات والمرغّبات صغريّات فيما يروى.

أما الأربع الثانية: فالأولى الحذر من مصادقة الأحمق، ونفّر عنه بما يلزم حمقه من وضع المضرّة موضع المنفعة عند إرادتها لعدم الفرق بينهما.

الثانية الحذر من مصادقة البخيل، ونفر عنه بما يستلزم بخله من قعوده عن صاحبه عند الحاجة.

الثالثة الحذر من مصادقة الفاجر، والفجور رذيلة الإفراط من فضيلة العفة، ونفر عنه بما يلزم فجوره من قلّة وفائه وبيعه بالتافِه وهو القليل من المال.

الرابعة الحذر من مصادقة الكذّاب، ونفر عنه بتشبيهه بالسراب وأشار إلى وجه الشبه بقوله عليه السلام: «يقرّب...» إلى آخره وبيانه أنّ الكذاب يوهم حقيقة ما يقول، فيسهّل الأمور العسرة البعيدة ويجعلها قريبة المتناول بحسب أغراضه وكذبه مع أنه ليس كذلك في نفس الأمر كالسّراب الذي يظنّ ماءً وليس به والتنفيرات الأربع المقرونة بقوله: فإنه صغريات ضمائر تقدير كبرياتها، وكلّما كان كذلك فيجب أن يُحذر صحبته ويجتنب مصادقته.[1]

* * *

وفي منهاج البراعة (مجلد ٢١ ص ٧٣):

ذكر عليه السلام في هذه الجمل من الكلام فصلين:

أحدهما في تدبير النفس، ومن أهمّ مسائل الحكمة العملية، والثاني في آداب المعاشرة وتدبير الاجتماع، ولهذا فصّل أحدهما عن الآخر وقال: «أربعاً وأربعاً».

عرّف وفور العقل بأنه أغنى العقل، والمقصود من غنى العقل أن يكون تعقّل الإنسان مضيئاً يوضح له كافة جوانب حياته، وجميع نواحي حوائجه، فيهديه في كل شأن من الشؤون إلى ما هو صلاحه، ويحفظه عن ارتكاب ما يضرّه ولا يحتاج إلى من يكفّله ويحافظه كالقيّم عليه، ومن نواحي الحياة درك لزوم التعلّم عند العالم فيما كان جاهلاً، والرجوع إلى المشير إذا كان الأمر عليه مبهماً، فلا يكون المراد من غنى العقل التفرّد بكل شيء والإستغناء عن التعليم والإستشارة، كيف؟ والنبي صلى الله عليه وآله مع كونه كل العقل وغير محتاج إلى المعلّم،

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم: ٥٨٥/ ط: الأولى.

مأمور بالإستشارة مع أمّته في الأمور، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾.(١)

وتبين من ذلك أن أكبر الفقر الحمق؛ لأن الأحمق لا يهتدي إلى أن يرجع إلى العالم فيما يجهل، ولا إلى المشاور فيما لا يفهم ولا يعقل.

والعجب يوجب الترفع وتوقع الاحترام من الأنام، فالمعجب يرى نفسه في مقام لا يرى معه غيره، فيبتلي بالوحشة، ويمنع ترفعه من الانس والخلطة مع أبناء جنسه، فيزيد بذلك وحشة، فالعجب أوحش الوحشة.

والحسب هو الإنتماء إلى بيت رفيع يختلف إليه الناس ويحبّون ذويه، فإذا كان الإنسان صاحب خلق حسن مع أبناء جنسه وبني نوعه يجتمعون إليه ويحبّونه.

والمصادقة رابطة وديّة بين الصديقين تقتضي المعاونة في الأمور والمشاركة في دفع المحذور، فإذا كان الصديق أحمقاً لا يميّز النفع من الضر، ولا الخير من الشر، وتجلبه رابطة الصداقة إلى ايصال النفع إلى صديقه ولكن غباوته وحمقه يجرّه إلى ايصال الضرر إليه كما حكي في اسطورة رجل صادق دباً فنام واجتمع على وجهه الذبان، فأراد الدب دفعها فألقى على وجهه حجراً قتله به.

ومن أثر الصداقة الاعتماد على الصديق عند حدوث حاجة ماسة تقتضي الإستعانة المالية أو العملية، ولكن إذا كان الصديق بخيلاً فربما يمنع اعانته أحوج ما يكون الصديق، ولم يعتمد عليه، فربما لجأ بقضاء حاجته إلى غيره ممن كان يقضيها.

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

والفاجر المنهمك في الشهوة قد خرق ستر الحياء وخلع العفة، فلا يبالي بما يصدر منه ولو كان بيع صديقه بأنجس ثمن، فلا يصلح للصداقة، ويجب الحذر منه وسلب الاعتماد عليه.

وأما الكذّاب فهو الذي صار الكذب عادة له ويحكي عمّا لا واقع له، فشبهه عليه السلام بالسراب يتلألأ في البريّة كأنه ماء قريب المكان، وكلما أسرع نحوه العطشان يبعد عنه فلا يصل إليه أبداً، والكذّاب يعد الإنسان فيخلفه، ويقرب إليه المقاصد ويجلب الإنسان نحوها، ولكن لا يصل الإنسان إلى تلك المقاصد.

* * *

وقال ابن مغنية:

وتسأل: لماذا قال: «أربعاً وأربعاً»، ولم يقل ثمان وصايا؟

وأجاب بعض الشارحين بأن الأربع الأولى تعود إلى ذات الإنسان من حيث هو، والثانية من حيث سلوكه مع الناس!... وهذا مجرد حدس وتكهّن، والأقرب حمل الكلام على التوكيد والتحقيق، ومهما يكن فالمعنى واحد، والوصايا الثمان هي:

[ثمان وصايا]:

١ ـ العقل: وليس المراد به هنا عقل اينشتاين وأديسون وغيرهما من العقول الرياضيّة؛ بل المراد العقل الذي يقدّر العواقب، ويدفع بصاحبه إلى التواضع وفعل الخيرات، ويبتعد به عن الرذائل والملكات كالكذب والظلم والعجب، وما إلى ذلك.

٢ ـ الحمق: وهو ضد العقل الذي أشرنا إليه، والأحمق أفقر

الفقـراء، لا ينتفـع بعظـة، ولا يسـتفيد مـن تجربـة، ويتعجّـل الأمـر بـلا رويـة، ولا يدرك عواقبها إلاّ بعد الفوات.

٣ ـ العجـب: وهـو جهـل وصـلافة، والمعجـب بنفسـه ثقيـل علـى كـل قلـب، ولـذا يعـيش غريبـاً بـين قومـه، قـال الإمـام عليه السلام: «الغريـب مـن لـم يكـن له حبيب».

٤ ـ حسـن الخلـق: وأساسـه الصـبر والرفـق وسـعة الصـدر، والبعـد عمـا يشين الكرام وأهل المروءات.

٥ ـ مصـادقة الأحمـق: لأنهـا تضـرّ ولا تنفـع... انـه ينصـحك بصـدق وإخلاص ولكن بلا عقل ولا علم.

٦ ـ مصـادقة البخيـل: لأنـه ضـنين بـالحق والوفـاء... يأخـذ منـك ولا يعطيك إلاّ التجاهل والخذلان.

٧ ـ مصـادقة الفـاجر: لأنـه لا يعـرف ولا يتعـرّف إلاّ علـى صـكوك البيع والشراء، ويعقـد الصـفقات مع الشيطان علـى دينـه ووطنـه، فـلا بـدع إذا باع صديقه بأنجس الأثمان.

٨ ـ مصـادقة الكـذاب: لأنهـا نفـاق وريـاء، وتلبـيس وتضـليل، تُريـك الممكن مستحيلاً، والمستحيل ممكناً.(١)

* * *

[أكبر الفقر الحمق]:

أقول: قوله عليه السلام: «وأكبر الفقر الحمق».

قـال بعـض الحكمـاء: العاقـل مـن كـان عقلـه فـي إرشـاد، ورأيـه فـي

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٣٩.

إحداد، فقوله سديد، وفعله حميد، والأحمق الجاهل كاسد العقل والرأي، فقوله: «... سقيم، وفعله ذميم».

قال الأصمعي: رأيت بالبصرة شيخاً له منظر حسن، وعليه ثياب حسنة، وحوله حاشية وهرج ومرج، وعنده دخل، فأردت أن أختبر عقله فسلمت فرد عليَّ السلام، فقلت له: ما كنية سيدنا؟ قال: أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين! قال الأصمعي: فقلت له: مرحباً يا ابن نصف القرآن، وضحكت منه وعلمت قلة عقله وكثرة جهله، ولم يدفع ذلك عنه غزارة خرجه ودخله، وقد يكون الرجل موسوماً بالعقل مرموقاً بعين الفضل، فتصدر منه حالة تكشف حقيقة حاله وتشهد بحمقه، وقلة عقله واختلاله.

قال ابن الأعرابي: الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت، فإنه كاسد العقل، فلا يشاور ولا يلتفت إليه في أمر من الأمور، والحمق غريزة رذيلة لا تنفع فيها الحيلة، فهي داء ودواؤه الموت، قال الشاعر:

لكل داءٍ دواء يستطب به ... إلاّ الحماقة أعيت من يداويها

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الأحمق أبغض الخلق إلى الله إذ أحرمه أعز الأشياء عليه وهو العقل.

وقال عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «إياك وصحبة الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك».

وقال عيسى عليه السلام: «عالجت الأبرص والأكمه، فابرأتهما، وعالجت الأحمق فأعياني».[1]

* * *

(١) أنظر: المستطرف ١: ٣٨ – ٤٠.

وفي كتاب (الكنى والألقاب) تأليف الشيخ عبّاس القمي، في ترجمة (ذو الودعات):

روي عن عيسى بن مريم عليه السلام قال: «داويت المرضى فشفيتهم بإذن الله، وأبرأت الأكمه والأبرص بإذن الله، وعالجت الموتى فأحييتهم بإذن الله، وعالجت الأحمق فلم أقدر على اصلاحه»، فقيل: يا روح الله وما الأحمق؟ قال: «المعجب برأيه ونفسه الذي يرى الفضل كله له لا عليه ويوجب الحمق كله لنفسه، ولا يوجب عليها حقاً، فذلك الأحمق الذي لا حيلة في مداواته».

وعن الصادق عليه السلام قال: «إذا أردت أن تختبر عقل الرجل في مجلس واحد، فحدّثه في خلال حديثك بما لا يكون فإن أنكر فهو عاقل، وإن صدقه فهو أحمق».[1]

قيل: اصطحب أحمقان في طريق، فقال أحدهما للآخر: تعال نتمنّى على الله فإن الطريق ينقطع بالحديث، فقال أحدهما: أتمنّى قطائع غنم انتفع بلحمها ودرّها وصوفها ونسلها، فقال الآخر: وأنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتّى لا تترك منها شيئاً، فقال: ويحك أين حق الصحبة وحرمة العشرة، فتصايحا وتخاصما واشتدت بينهما الخصومة وتماسكا بالأطواق، فرضيا بأوّل من يطلع عليهما ليكون حكماً بينهما، فطلع عليهما رجل بحمارين حامل عليهما زقّين من عسل، فحدّثاه بحديثهما، فأنزل زقي العسل وفتحهما حتّى سال العسل جميعه على التراب، ثمّ قال: صَبّ الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين، فقالا له: الأحمق من سيّب بضاعته.

---

(١) الكنى والألقاب ٢: ٢٦١.

ويستدل على الأحمق من حيث الصورة، بطول لحيته؛ لأن مخرجها من الدماغ، فمن أفرط في طول لحيته قل دماغه، ومن قلّ دماغه قلّ عقله فهو أحمق.

وأما صفته من حيث الأفعال: فترك نظره في العواقب، وثقته بمن لا يعرفه، والعجب، وكثرة الكلام، وسرعة الجواب من غير تأمل، وسرعة الإلتفات، والخلوّ من العلم، والعجلة، والخفة، والسفه والظلم، والغفلة.

ومن علامة الأحمق إنه إذا استغنى بطر، وإن افتقر قنط، وإن قال أفحش، وإن سُئِل بخل، وإن سأل ألح، وإن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وإن بكى صرخ، وإن ضحك قهقه.[1]

نوادر الحمقى:

كان ذو الودعات من الحمقى وكان ذا لحية طويلة، فسئل عن ذلك فقال: لأعرف بها نفسي لئلا أضل.

فبات ذات ليلة وأخذ أخوه قلادته فتقلدها، فلما أصبح ورأى القلادة في عنق أخيه، قال: أخي أنت أنا فمن أنا.

ويحكى من حمقه أيضاً أنه شرد له بعير، فقال: من جاء به فله بعيران، فقيل له: اتجعل في بعير بعيرين، فقال: إنكم لا تعرفون حلاوة الوجدان فنسب إلى الحمقى لهذا السبب وسارت به الأشعار وله حكايات في الحمق.[2]

---

(١) أنظر: أخبار الحمقى والمغفلين ١: ٩.

(٢) الكنى والألقاب ٢: ٢٦٠.

في المجلد الثاني من (معادن الجواهر) قال هشام بن عبد الملك يوماً لأصحابه: إن حمق الرجل يعرف بخصال أربع: طول لحيته وبشاعة كنيته ونقش خاتمه وافراط نهمه، فدخل شيخ طويل العثنون، فقال هشام أما هذا فقد جاء بواحدة فانظروا أين هو من الباقي، قالوا له: ما كنية الشيخ؟ قال: أبو الياقوت، فسألوه عن نقش خاتمه فقال: ﴿وَجَاؤُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، فقيل له: أي الطعام تشتهي قال: الدبا بالزيت، فقال هشام: إن صاحبكم قد كملَ.(١)

وصف بعضهم إنساناً أحمقاً فقال: والله للحكمة أزل عن قلبه من المداد عن الأديم الدهين.(٢)

حمقى قريش:

ومن حمقى قريش معاوية بن مروان بن الحكم بينما هو واقف بباب دمشق ينتظر أخاه عبد الملك على باب طحّان وحمار الطحان يدور بالرحى وفي عنقه جلجل، فقال: يا طحان لم جعلت في عنق هذا الحمار جَلجلاً؟ فقال: ربما أدركتني نعسة أو سأمة فإذا لم أسمع صوت الجلجل علمت أنه قد قام فصحت به، فقال: أرأيته إن نام وحرك رأسه ما علمك به أنه قائم؟ فقال: ومن لحماري بمثل عقل الأمير.

وضاع له بازي فقال: اغلقوا أبواب المدينة لا يخرج البازي.

من حمقى قريش سليمان بن يزيد بن عبد الملك، قال يوماً لعن الله أخي الوليد فلقد كان فاجراً: أرادني على الفاحشة فقال له قائل من أهله: اسكت ويحك فو الله إن كان همّ لقد فعل.

---

(١) أنظر كذلك: شرح نهج البلاغة ١٨: ١٦٠.

(٢) أنظر: شرح نهج البلاغة ١٨: ١٦٥.

دخل كعب البقر الهاشمي على عبد الله بن طاهر يعزيه بأخيه، فقال له: أعظم الله مصيبة الأمير، فقال: ما فيك فقد فعل، والله لقد هممت أن أحلق لحيتك، فقال: إنما هي لحية الله ولحية الأمير فليفعل ما أحب.(١)

القبائل المشهورة بالحمق:

من القبائل المشهورة بالحمق الأزد، كتب مسلمة بن عبد الملك إلى يزيد بن المهلب لما خرج عليهم، إنك لست بصاحب هذا الأمر إن صاحبه مغمور موتور وأنت مشهور غير موتور، فقام إليه رجل من الأزد فقال: قدّم ابنك مخلداً حتّى يقتل فتصير موتوراً.

وقام رجل من الأزد إلى عبيد الله ابن زياد (لعنه الله) فقال: أصلح الله الأمير إن امرأتي هلكت وقد أردت أن أتزوج أمّها وهذا عريفي فأعني في الصداق، فقال: في كم أنت من العطاء؟ فقال: في سبعمائة، فقال: حطوا من عطائه أربعمائة يكفيك ثلاثمائة.

ومدح رجل منهم المهلب فقال:

نعم أمير الرفقة المهلب　　　أبيض رضاح كَتَيس الحَلَب

فقال المهلب: حسبك يرحمك الله. والحَلَب نبت تأكله الظباء.(٢)

حمقى العرب ومن اشتهر بالحمق منهم:

من حمقى العرب وجهلائهم كلاب بن صعصعة، خرج اخوته يشترون خيلاً، فخرج معهم فجاء بعجل يقوده، قالوا: ما هذا؟ فقال: فرس

---

(١) أنظر: شرح نهج البلاغة ١٨: ١٦١.

(٢) أنظر: شرح نهج البلاغة ١٨: ١٦٣.

اشتريته فقالوا: يا مائق هذه بقرة أما ترى قرنيها؟، فرجع إلى منزله فقطع قرنيها ثمّ قادها فقال لهم: قد أعدتها فرساً كما تريدون، فأولاده يدعون بني فارس البقرة.[١]

ومن حمقى العرب الأخوص بن جعفر بن عمرو بن حريث، قال له يوماً مجالسوه: ما بال وجهك أصفر أتشتكي شيئاً؟، فرجع إلى أهله وقال: يا بني الخيبة أنا شاك ولا تعلموني، اطرحوا عليَّ الثياب وابعثوا إلى الطبيب.[٢]

ومنهم عجل بن لجيم، ارسل ابن له فرساً في حلبة فجاء سابقاً فقال لابنه: سمه باسم يعرف به، ففقأ عينه وقال: سميته الأعور، فقال شاعر يهجوه:

رمتني بنو عجل بداء أبيهم ... وأي عباد الله أنوك من عجل
أليس أبوهم عار عين جواده ... فأضحت به الأمثال تضرب في الجهل[٣]

ومن حمقى بني عجل حسان بن الغضبان من أهل الكوفة، ورث نصف دار أبيه، فقال: أريد أن أبيع حصتي من الدار وأشتري بالثمن النصف الآخر، فتصير الدار كلها لي.[٤]

نوادر الأعراب:

كان الربيع العامري والياً باليمامة فأتي بكلب قد عقر كلباً، فأقاده

---

(١) أنظر: شرح نهج البلاغة ١٨: ١٦٥.
(٢) أنظر: شرح نهج البلاغة ١٨: ١٦٢.
(٣) مجمع الأمثال ١: ٢١٧.
(٤) أنظر: شرح نهج البلاغة ١٨: ١٦٥.

فقال فيه الشاعر:

شهدت بأن الله حق لقاؤه ... وإن الربيع العامري رفيع
أقاد لنا كلباً بكلب فلم يدع ... دماء كلاب المسلمين تضيع[١]

رأى بعضهم أعرابياً يبكي فسأله عن سبب بكائه فقال: بلغني أن جالوت قُتل مظلوماً.[٢]

استعمل معاوية عاملاً من كلب فخطب يوماً فذكر المجوس فقال: لعنهم الله ينكحون أمهاتهم، والله لو أعطيت عشرة آلاف درهم ما نكحت أمّي، فبلغ ذلك معاوية فقال: قبّحه الله أترونه لو زادوا فعل وعزله.[٣]

سرق لأعرابي حمار فقيل له: أسُرق حمارك؟ قال: نعم وأحمد الله، فقيل له: على ماذا تحمد؟ فقال: حيث لم أكن عليه.[٤]

ومما يناسب المقام ما يحكى أنه جاء شاب من الريف إلى الجامع الأزهر لطلب العلم، وبعد أيام كتب إلى أهله كتاباً وكتب فيه نخبركم لا خبرتم بمكروه، انني غسلت ثيابي ونشرتها على السطح فهبت ريح ألقت قميصي إلى صحن الدار والحمد لله إذ لم أكن فيه وإلاّ لتكسرت.

ومما يناسبه إنه دعا بعض أمراء العجم خادمه ليلاً، وكان نائماً، فقام مدهوشاً فسقط، فلما جاء قال له: ما هذا الصوت الذي سمعته؟، قال: عباءتي وقعت، فقال: لم يكن الصوت صوت عباءة، قال: أنا كنت في جوفها.

---

(١) البيان والتبيين ١: ٣٤٢.

(٢) أنظر: شرح نهج البلاغة ١٨: ١٦٤.

(٣) أنظر: شرح نهج البلاغة ١٨: ١٦٦.

(٤) نفس المصدر.

خرج قوم من قريش إلى أرض لهم ومعهم أعرابي فأصابتهم ريح عاصفة يئسوا معها من الحياة ثمّ سلموا، فأعتق كل منهم مملوكاً شكراً لله على سلامتهم، فقال الأعرابي: اللهم لا مملوك لي فأعتقه، ولكن امرأتي طالق ثلاثاً لوجهك.

جاء أعرابي إلى المسجد يصلي فسُرقت نعله، فلزم المؤذن وقال: أنت دعوت الناس حتّى سرقوا نعلي.

عضّ ثعلب أعرابياً فأتى راقياً فقال له: ما عضّك؟ فاستحيا أن يقول ثعلب وقال: كلب، فجعل يرقيه فقال له الأعرابي: وأخلط بها شيئاً من رقية الثعالب.[1]

نوادر أهل حمص:

يحكى أن رجلاً غريباً دخل حمص، فسمع المؤذن يقول أهل حمص يشهدون أن محمّداً رسول الله، فتعجب من ذلك فلما وصل إلى باب المسجد وجد رجلاً يبيع الخمر وبجانبه مصحف وهو يحلف به إن هذا الخمر ما دخله ماء ولا غش، فدخل المسجد فوجد الإمام يصلي على رجل واحدة ورجله الثانية مرفوعة وعليها نجاسة، فازداد عجباً فذهب ليخبر القاضي بما رأى فوجد على ظهره غلاماً، فرفع صوته بالشتم فسمعه القاضي فقال له: ما شأنك؟ فأخبره بما رأى، فقال له: لا تعجل فإن جميع الذي رأيته له وجه صحيح، أما المؤذن فإن مؤذننا مريض ولم نجد صيّتاً غير يهودي، وهو لا يشهد أن محمّداً رسول الله، وأما الخمر فإن في المسجد شجرة عنب لا يصلح ثمرها لغير الخمر، وأما

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ١: ١١٦.

الإمام فإنه لما دخل في الصلاة تلوثت رجله فرفعها لئلا يصلي بالنجاسة، وأما الغلام فإنه كان صغيراً وله مال فجاء الآن وادعى البلوغ فأردت اختباره.[١]

وذهب رجل من حمص ليشتري زيتاً، فلم يسع الإناء فقلبه وقال للزيات: صب الفاضل هاهنا فأريق الزيت وصب له الزيات الباقي على أسفل الإناء، فلما رجع إلى امرأته أراد أن يحكي لها القصة، فقال لها: قلبت الإناء هكذا ليصب لي الباقي فأريق الجميع.

حكي عن بعض القراء قال: دخلت مسجداً بحمص، فرأيت رجلاً مكشوف الرأس، فقلت: سلام عليكم فلم يرد عليّ جواباً فكررت عليه السلام فنظر إليّ مغضباً وقال: لعلك من هؤلاء الصفاعنة الذين يأتون من أسفل الشام؟ قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم يقرأون السبع الطوال ويبغضون أبا بكر الصناديقي وعمر القواريقي ابن عثمان وعثمان بن أبي سفيان ومعاوية ابن الخطاب أحد حملة العرش، قلت: ومن معاوية؟ قال: هو رجل أرسله الله إلى قوم يعلمهم أن عصى موسى كانت من شجر التوت فلقيه محمود النبي فزوّجه ابنته عائشة فولدت له الحسن والحسين في أيام الحجاج بن المهدي، فقلت له: أراك خبيراً بالتواريخ وأنا قد أفنيت عمري في هذا الفن وما عرفت هذا، أتحفظ القرآن؟ قال: أقرأ باللغات السبع، قلت: اقرأ لي شيئاً منه فقال: بسم الله الرحمن الرحيم وكانوا إذا جاءهم بشير أو نذير استغششوا استغشاشاً وقاموا إلى ناقة الله فذبحوها ومكروا مكراً كبّارا فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان، فقلت له: يا شيخ كيف

---

(١) المستطرف ٢: ٥١٨.

ترضى بهذه الحالة مع حوزك هذه الفضائل، هل سكنت بغداد ليعرفوا قدرك وفضلك؟، فقال: بغداد دار الجهلة والمجانين ما أصنع بها، فقلت: صدقت وتركته وانصرفت.[(١)]

عن مصمّر قال: دخلت مسجد حمص فإذا قوم لهم رواء، فظننت فيهم الخير فجلست إليهم، فإذا هم ينتقصون عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقمت عنهم فإذا شيخ يصلي فجلست إليه فلما سلم قلت: ما ترى هؤلاء ينتقصون عليّاً ويشتمونه وجعلت أحدّثه بمناقبه، وإنه زوج بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وأبو الحسنين وابن عم الرسول، فقال: يا عبد الله ما لقي الناس من الناس لو أن أحداً نجا من الناس لنجا منهم أبو محمّد رحمه الله هو ذا يشتم وحده، قلت: ومن أبو محمّد؟ قال: الحجاج بن يوسف وجعل يبكي فقمت عنه وقلت: لا يحل لي أن أبيت في هذه البلدة فخرجت من يومي.[(٢)]

تذاكر جماعة من حمص في الأعضاء ومنافعها، فقالوا: الأنف للشم، والفم للأكل، واللسان للكلام، ولم يهتدوا إلى فائدة الأذنين، فقصدوا القاضي فوجدوه في شغل، فجلسوا على باب داره، وإذا خياط فتل خيوطه ووضعها على أذنه، فقالوا أتانا الله بما جئنا نسأل عنه القاضي إنما خلقت للخيوط.[(٣)]

قال الجاحظ: مررت بحمص فمرّ عنز يتبعه جمل، فقال رجل لآخر: هذا الجمل من هذا العنز. قال: لا ولكنه يتيم في حجرها.[(٤)]

---

(١) الأنساب ١: ٣٥.

(٢) أخبار الحمقى والمغفلين ١: ١٤٧.

(٣) أخبار الحمقى والمغفلين ١: ١٧٦.

(٤) نفس المصدر.

عرض هشام بن عبد الملك الجند، فأتاه حمصي بفرس كلما قدمه نفر، فقال هشام: ما هذا؟ قال: يا سيدي هو جيد لكنه شبهك ببيطار كان يعالجه فنفر.[١]

أوفد أهل حمص شيخاً لهم لم يكن فيهم أعقل منه ولا أكمل مع ابنين له معروفين عندهم بالعقل، إلى الرشيد لمظلمة كانت بهم، فلما دخل الشيخ قال: السلام عليك يا أبا موسى فعلم أنه أحمق، ثمّ قال: أحسبك يا شيخ طلبت العلم وجالست العلماء؟ قال: نعم قال: من جالست منهم؟ قال: أبي قال: ما كان يقول في عذاب القبر؟ قال: كان يكرهه، فضحك الرشيد ومن حضر، ثمّ قال: من حفر البحار؟ فقال: أحد ولديه حفرها موسى حين استطرف البحر، قال: فأين ترابها؟ فقال: أخوه الجبال، ففرح الشيخ بحسن جواب ولديه وقال: والله ما علمتهما ما هو إلاّ إلهام من الله تعالى وله الحمد.[٢]

* * *

قوله عليه السلام: «وإياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسّراب يقرّب عليك البعيد ويبعّد عليك القريب».[٣]

لا يشك أحد بأن الكذب محرّم شرعاً، وممقوت صاحبه؛ لأنه يسقط منزلته ويحط ولا يرى المجتمع له وزنا ولا كرامة، وهو من أقبح الذنوب وأفحشها وأخبث العيوب وأشنعها، وقد وردت في حرمته وذمه آيات وأخبار كثيرة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام. جاء في جامع السعادات للنراقي:

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نهج البلاغة ٤: ١١.

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[١] وقال سبحانه: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.[٢]

وقال رسول الله ﷺ: «إيّاكم والكذب، فإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار».[٣]

وقال ﷺ: «المؤمن إذا كذب من غير عذر لعنه سبعون ألف ملك، وخرج من قلبه نتن حتّى يبلغ العرش فيلعنه حملة العرش...».[٤]

وسُئل ﷺ: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم»، قيل: ويكون بخيلاً؟ قال: «نعم»، قيل: ويكون كذّاباً؟ قال: «لا».[٥]

وقال ﷺ: «كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثاً هو لك به مصدّق، وأنت له به كاذب».[٦]

وقال ﷺ: «الكذب ينقص الرزق».[٧]

وقال ﷺ: «ويل للذي يحدّث فيكذب ليضحك به القوم، ويل له ويل له».[٨]

وقال ﷺ: «رأيت كأن رجلاً جاءني فقال لي: قم فقمت معه، فإذا أنا

---

(١) النحل: ١٠٥.

(٢) التوبة: ٧٧.

(٣) مسند أحمد ١: ٤٣٢.

(٤) بحار الأنوار ٦٩: ٢٦٣.

(٥) الدر المنثور ٣: ٢٩١.

(٦) كنز العمال ٣: ٦٢٠.

(٧) كنز العمال ٣: ٦٢٣.

(٨) أمالي الطوسي: ٥٣٧.

برجلين أحدهما قائم والآخر جالس، وبيد القائم كلاّب من حديد يلقمه في شدق الجالس فيجذبه حتّى يبلغ كاهله، ثمّ يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمدّه فإذا منه رجع الآخر كما كان، فقلت للذي أقامني: ما هذا؟ فقال: هذا رجل كذّاب، يعذّب في قبره إلى يوم القيامة».[١]

وقال صلى الله عليه وآله: «ألا أخبركم بأكبر الكبائر: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور» أي الكذب.[٢]

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يجد العبد طعم الإيمان حتّى يترك الكذب هزله وجدّه».[٣]

وقال عليه السلام: «أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب، وشرّ الندامة ندامة يوم القيامة».[٤]

وقال عليّ بن الحسين عليه السلام: «اتقوا الكذب الصغير منه والكبير في كل جدّ وهزل، فإنّ الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير».[٥]

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «إنّ الله عزّ وجلّ جعل للشر أقفالاً، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شرّ من الشراب».[٦]

وقال عليه السلام: «الكذب هو خراب الإيمان».[٧]

---

(١) جامع السعادات ٢: ٢٤٨.

(٢) مسند أحمد ٥: ٣٦.

(٣) الكافي ٢: ٢٤٠.

(٤) كتاب الصمت وآداب اللسان: ٢٣٩.

(٥) الكافي ٢: ٣٣٨.

(٦) الكافي ٢: ٣٣٩.

(٧) السابق.

وقال الإمام الزكي العسكري عليه السلام: «جُعلت الخبائث كلها في بيت وجعل مفتاحها الكذب».(١)

وأشدّ أنواع الكذب إثماً ومعصية الكذب على الله وعلى رسوله وعلى الأئمّة، وكفاه ذماً أنه يبطل الصوم ويوجب القضاء.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن الكذبة لتفطّر الصائم» قال الراوي: وأيّنا لا يكون ذلك منه، قال عليه السلام: «ليس حيث ذهبت، إنما الكذب على الله تعالى وعلى رسوله وعلى الأئمّة عليهم السلام».(٢)

وقال عليه السلام: «الكذب على الله وعلى رسوله وعلى الأوصياء عليهم السلام من الكبائر»(٣) إلى كثير وكثير من أمثال ذلك.

* * *

ومما جاء في كتاب (المحاسن والمساوي) للبيهقي في ذم الكذب:

قيل: إنه وجد في كتب الهند: ليس لكذوب مروءة، ولا لضجور رياسة، ولا لملول وفاء، ولا لبخيل صديق».

وقال قتيبة بن مسلم لبنيه: لا تطلبوا الحوائج من كذوب فإنه يقرّبها وإن كانت بعيدة، ويبعّدها وإن كانت قريبة، ولا إلى رجل قد جعل المسألة مأكلة؛ فإنه يقدّم حاجته قبلها، ويجعل حاجتك وقاية لها، ولا من أحمق؛ فإنه يريد نفعك فيضرّك.

وقيل: أمران لا ينفكان من كذب: كثرة المواعيد، وشدّة الاعتذار. وقيل: كفاك موبخاً على الكذب علمك بأنك كاذب.

---

(١) بحار الأنوار ٦٩: ٢٦٣.

(٢) أنظر: الكافي ٢: ٣٤٠.

(٣) بحار الأنوار ٧٦:١٣.

وفي المثل هو اكذب من أسير السند، وذلك أنه يؤخذ الخسيس منهم فيزعم أنه ابن الملك. ويقال: هو اكذب من الشيخ الغريب؛ وذلك أنه يتزوج في الغربة وهو ابن سبعين سنة، فيظن أنه ابن أربعين سنة. وقيل: هو أكذب من مسيلمة.

ومما قيل في ذلك من الشعر:

حَسبُ الكذوب من البليّة ... بعض ما يُحكى عليه
ما إن سَمِعتَ بكذبةٍ ... من غيره نُسِبت إليهِ

* * *

وقال آخر:

لقد أخلَفتني وحلفتَ حتّى ... إخالُكَ قد كذبتَ وان صدَقتا
ألا لا تحلفنَ على يَمينٍ ... فأكذب ما تكونُ إذا حلفَتا

* * *

وقال آخر:

كلامُ أبي خلَفٍ كلُّهُ ... نِداء الفواخِتِ جاء الرُطَب
وليس وان كنّ يُشبِهنَهُ ... يُقاربنه أبداً في الكذِب

* * *

وقال آخر:

قد كنتُ أنجزُ دهراً ما وَعدَتُ إلى ... أن أتلفَ الوعدُ ما جمّعتُ من نَشَبِ
فإن أكن صرتُ في عدي أخا كذِبٍ ... فنُصرةُ الصدقِ أفضت بي إلى الكذب

* * *

وفي (المجلد الثاني)[1] من كتاب (المستطرف في كل فَنٍّ مستظرف) تحت عنوان:

[الكذب في منظور الإسلام]:

الفصل الثاني من هذا الباب في الكذب وما جاء فيه:

قال الله تعالى في الكاذبين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والكذب فإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وتحرّوا الصدق فإنّ الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنّة»، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كذب العبد كذبة، تباعد الملكان عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به». ويقال: رأس المآثم الكذب، وعمود الكذب البهتان. وقيل: أمران لا ينفكّان من الكذب: كثرة المواعيد، وشدّة الإعتذار. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[4] وهي لكل واصف كذب إلى يوم القيامة، قال الأصمعي: قلت: لكذّاب أصدقت قط؟ قال: لولا أني أخاف أصدق في هذا لقلت لك لا فتعجب، قال محمود بن أبي الجنود:

لي حيلة فيمن ينمّ ... وليس في الكذّاب حيلَه
من كان يخلق ما يقول ... فحيلتي فيه قليله

---

(١) ص ١٦.

(٢) البقرة: ١٠.

(٣) الزمر: ٦٠.

(٤) الأنبياء: ١٨.

ويقال: فلان أكذب من لمعان السراب، ومن سحاب تموز، وكان بفارس محتسب يعرف بجراب الكذب، وكان يقول: إن منعت الكذب انشقّت مرارتي، وإني والله لأجد به ما يلحقني من عاره من المسّرة ما لا أجده بالصدق مع ما ينالني من نفعه، وقال فيلسوف: من عرف من نفسه الكذب لم يصدّق الصادق فيما يقول له.

وقال الفضيل: ما من مُضغة أحبّ إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقاً، ولا مضغة أبغض إلى الله تعالى من اللسان إذا كان كذوباً، وعن ابن مسعود مرفوعاً: أعظم الخطايا اللسان الكذوب، قال الشاعر:

لا يكذب المرء إلاّ من مهانته ... أو فعله السوء أو من قلة الأدب

لبعض جيفة كلب خير رائحة ... من كذبة المرء في جدّ وفي لعب

ولما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد، أقعده في قبة حمراء وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثمّ يسلّمون على يزيد حتّى جاء رجل ففعل ذلك ثمّ رجع إلى معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين أعلم أنك لو لم توَل هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف ساكت، فقال معاوية: ما لك لا تقول يا أبا بحر، فقال: أخاف الله تعالى إن كذبت وأخافكم إن صدقت، فقال: جزاك الله خيراً عما تقول، ثمّ أمر له بألوف فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب فقال له: يا أبا بحر إني لأعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال فلسنا نطمع في إخراجها إلاّ بما سمعت، فقال له الأحنف: يا هذا أمسك فإنّ ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهاً.

قال يحيى بن خالد: رأينا شارب خمر نزع، ولصّاً أقلع، وصاحب فواحش رجع، ولم نر كذّاباً صار صادقاً.

* * *

وفي المجلد الخامس من (إحياء الإحياء):

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صام وصلّى، وزعم أنه مسلم: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

وقال عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كنّ فيه كان منافقاً: ومن كانت فيه خلّة منهنّ كانت فيه خلّة من خلال النفاق حتّى يدعها: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وقال ﷺ: «إن التجار هم الفجّار»، فقيل: يا رسول الله أليس الله قد أحلّ البيع؟ فقال: «نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون، ويحدّثون فيكذبون».

وقال ﷺ: «ثلاثة لا يكلّمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذّاب، وعائل مستكبر».

وقال ﷺ: «لو أفاء الله تعالى علي نعماً عدد هذه الحصى لقسّمتها بينكم، ثمّ لا تجدوني بخيلاً، ولا كذّاباً، ولا جباناً».

وقال ﷺ: «تقبّلوا لي بست أتقبّل لكم بالجنّة»، فقالوا: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: «إذا حدّث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا ائتمن فلا يَخُن، وغضّوا أبصاركم، وكفّوا أيديكم، واحفظوا فروجكم».

وقال موسى عليه السلام: «يا ربي أيّ عبادك خير عملاً؟ قال: من لا يكذب لسانه، ولا يفجر قلبه، ولا يزني فرجه».

وقال مالك بن دينار: قرأت في بعض الكتب: ما من خطيب إلاّ وتعرض خطبته على عمله، فإن كان صادقاً صدّق وإن كان كاذباً قرضت شفتاه بمقراض من نار كلما قرضتا نبتتا.

مسوّغات الكذب:

ففي (المجلد الثاني)(١) من (جامع السعادات):

الكذب حرام، لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره، أو لإيجابه اعتقاد المخاطبَ خلاف الواقع، فيصير سبباً لجهله، وهذا القسم مع كونه أهون الدرجات وأقلها إثما محرم أيضاً، إذ إلقاء خلاف الواقع على الغير وسببيته جهله غير جائز، إلاّ أنه إذا كان مما يتوقف عليه تحصيل مصلحة مهمّة ولم يكن التوصّل إليها بالصدق زالت حرمته وارتفع إثمه، فإن كانت المصلحة مما يجب تحصيلها كانقاده مسلم من القتل والأسر، أو حفظ عرضه أو ماله المحترم كان الكذب فيه واجباً، وإن كانت راجحة غير بالغة حدّ الوجوب، فالكذب لتحصيلها مباح أو راجح مثلها، كالاصلاح بين الناس والغلبة على العدو في الحرب، وتطييب خاطر امرأته واسترضائها.

وقد وردت الأخبار المتكثرة بجواز الكذب إذا توقف عليه تحصيل هذه المقاصد الثلاثة، كما روي: أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يرخّص في شيء من الكذب إلاّ في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدّث امرأته والمرأة تحدّث زوجها.

وقال صلى الله عليه وآله: «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً».

وقال صلى الله عليه وآله: «كل الكذب يكتب على ابن آدم، إلاّ رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما».

---

(١) ص ٢٥٠.

وقال ﷺ: «كل الكذب مكتوب كذباً لا محالة، إلاّ أن يكذب الرجل في الحرب، فإن الحرب خدعة، أو يكون بين رجلين شحناً فيصلح بينهما، أو يحدّث امرأته يرضيها».

وقال ﷺ: «لا كذب على المصلح».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «كل كذب مسؤول عنه صاحبه يوماً إلاّ كذباً في ثلاثة: رجل كايد في حروبه فهو موضوع عنه، أو رجل أصلح بين اثنين يلقى هذا بغير ما يلقى به هذا، يريد بذلك الإصلاح بينهما، أو رجل وعد أهله شيئاً وهو لا يريد أن يتم لهم».

وقال عليه السلام: «الكلام ثلاثة: صدق وكذب واصلاح بين الناس»، قيل له: ما الاصلاح بين الناس؟ قال: «تسمع في الرجل كلاماً يبلغه فيخبث نفسه، فتلقاه وتقول: قد سمعت من فلان فيك من الخير كذا وكذا خلاف ما سمعت منه».

وهذه الأخبار وإن اختصت بالمقاصد الثلاثة إلاّ أن غيرها من المقاصد الضرورية التي فوقها أو مثلها في المصلحة يلحقها من باب الأوّلية أو اتحاد الطريق.

والأخبار التي وردت في ذمّ هتك الستر وكشف العيوب والفواحش تفيد وجوب القول بعدم الإطلاع، وإن كان مطلقاً مع كونه كذباً، فلا إثم على أحد بصدور الكذب عنه إذا كان وسيلة إلى شيء من المقاصد الصحيحة الضرورية له أو لغيره من المسلمين، فإن أخذه ظالم وسأله عن ماله فله أن ينكر، وإن أخذه سلطان وسأله عن فاحشة ارتكبها بينه وبين الله فله أن ينكر، وإن سئل عما يعلمه من غيب أخيه أو سره فله أن ينكر، ولو وقع بين اثنين فساد فله أن يكذب توسلاً إلى الإصلاح

بينهما، وكذا يجوز له للإصلاح بين الضرات من نسائه أن يظهر لكل واحدة أنها أحبّ إليه، وإن كانت امرأته لا تطيعه إلاّ بوعد ما لا يقدر عليه يجوز أن يعدها في الحال تطييباً لقلبها، وإن لم يكن صادقاً في وعده، ويلحق بالنساء الصبيان، فإنّ الصبي إذا لم يرغب فيما يؤمر به من الكتابة وغيرها إلاّ بوعد أو وعيد وتخويف كان ذلك جائزاً، وإن لم يكن في نيته الوفاء به، وكذا لو تكدّر منه إنسان كان لا يطيب قلبه إلاّ بالاعتذار إليه بإنكار ذنب وإظهار تودد كان ذلك جائزاً، وإن لم يكن صدقاً. والحاصل أنّ الكذب لدفع ضرر أو شر أو فساد جائز بشرط صحة القصد.

وقد ورد أن الكذب المباح يكتب ويحاسب عليه لتصحيح قصده، فإن كان قصده صحيحاً يعفى عنه، وإلاّ يؤاخذ به، فينبغي أن يجتهد في تصحيح قصده، وأن يحترز عنه ما لم يضطر إليه، ويقتصر فيه على حدّ الواجب، ولا يتعدّى إلى ما يستغنى عنه.

ولا ريب في أن ما يجب ويضطر إليه هو الكذب لأمور في فواتها محذور وإضرار، وليس كل الكذب لزيادة المال والجاه وغير ذلك مما يستغنى عنه، فإنه محرّم قطعاً، إذ فواته لا يوجب ضرراً وفساداً وإعداماً للموجود، بل إنما يوجب فوات حظ من حظوظ النفس، وكذلك فتوى العالم بما لا يحققه، وفتوى من ليس له أهلية الافتاء إظهاراً للفضل أو طلباً للجاه والمال، بل هو أشدّ أنواع الكذب إثماً وحرمة؛ لأنه مع كونه كذباً لما يستغنى عنه كذب على الله وعلى رسوله.

فالكذب إذا كان وسيلة إلى ما يستغنى عنه حرام مطلقاً، وإذا كان وسيلة إلى ما لا يستغنى عنه ينبغي أن يوازن محذور الكذب مع محذور الصدق، فيترك

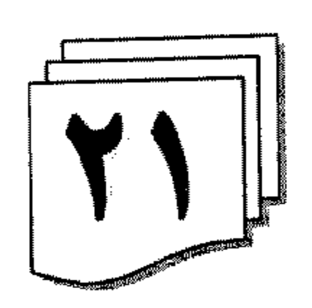
أشدّهما وقعاً في نظر الشرع، وبيان ذلك أن الكذب في نفسه محذور، والصدق في المواضع المذكورة يوجب محذوراً، فينبغي أن يقابل أحد المحذورين بالآخر، ويوازنها بالميزان القسط، فإن كان محذور الكذب أهون من محذور الصدق فله الكذب، وإن كان محذور الصدق أهون وجب الصدق، وقد يتقابل المحذوران بحيث يتردد فيهما، وحينئذٍ فالميل إلى الصدق أولى إذ الكذب أصله الحرمة، وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمّة، وإذا شك في كون الحاجة مهمة لزم الرجوع إلى أصل التحريم.

علاج الكذب:

طريق معالجة الكذب أوّلاً، أن يتأمل في ما ورد في ذمه من الآيات والأخبار، ليعلم أنه لو لم يتركه لأدركه الهلاك الأبدي، ثمّ يتذكر أن كل كاذب ساقط عن القلوب في الدنيا ولا يعتني أحد بقوله، وكثيراً ما يفتضح عند الناس بظهور كذبه، ومن أسباب افتضاحه أن الله سبحانه يسلط عليه النسيان، حتّى أنه لو قال شيئاً ينسى أنه قاله، فيقول خلاف ما قاله فيفتضح، وإلى ذلك أشار الصادق عليه السلام بقوله: «إنّ مما أعان الله به على الكذابين النسيان».

ثمّ يتأمل في الآيات والأخبار الواردة في مدح ضده أعني الصدق، وبعد ذلك لم يكن عدواً لنفسه، فليقدّم التروي في كل كلام يريد أن يتكلم به فإن كان كذباً يتركه، وليجتنب مجالسة الفسّاق وأهل الكذب، ويجالس الصلحاء وأهل الصدق.

* * *



قوله عليه السلام:

لا غِنَى كَالْعَقْلِ، وَلا فَقْرَ كَالْجَهْلِ، وَلا مِيرَاثَ كَالأَدَبِ، وَلا ظَهِيرَ كَالْمُشَاوَرَةِ.

(نهج البلاغة ٤: ١٤)

[العقل أساس الغنى]

قال ابن أبي الحديد المعتزلي:

روى أبو العبّاس في (الكامل) عن أبي عبد الله عليه السلام إنه قال: «خمس من لم تكن فيه كثير مستمتع: العقل، والدين، والأدب، والحياء، وحسن الخلق».

وقال أيضاً: «لم يقسم بين الناس شيء أقل من خمس: اليقين، والقناعة، والصبر، والشكر، والخامسة التي يكمل بهذا هذا كله العقل».

وعنه عليه السلام: «أوّل ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر، فقال: ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ منك، لك الثواب، وعليك العقاب».

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله ليبغض الضعيف الذي لا زبر له، قال: الزبر العقل».

وعنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما قسّم الله للعباد أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وفطر العاقل أفضل من صوم الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، وما بعث الله رسولاً حتّى يستكمل العقل، وحتّى يكون عقله أفضل من عقول جميع أمّته، وما يضمره في نفسه أفضل من اجتهاد جميع المجتهدين، وما أدّى العبد فرائض الله تعالى حتّى عقل عنه، ولا يبلغ جميع العابدين في عباداتهم ما

يبلغه العاقل، والعقلاء هم أولوا الألباب الذين قال الله عنهم: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[(١)]».

قالَ أبو العبّاس: وقال رجل من أصحاب أبي عبد الله عليه السلام له وقد سمعه يقول ـ بل يروي مرفوعاً ـ: «إذا بلغكم عن رجل حسن الحال فانظروا في حسن عقله، فإنما يجازى بعقله»، يا ابن رسول الله إن لي جاراً كثير الصدقة كثير الصلاة، كثير الحج لا بأس به، فقال: «كيف عقله؟» فقال: ليس له عقل، فقال: «لا ترتفع بذاك منه».

وعنه عليه السلام: «ما بعث الله نبيّاً إلاّ عاقلاً، وبعض النبيين أرجح من بعض، وما استخلف داود سليمان عليه السلام حتّى اختبر عقله، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فمكث في ملكه ثلاثين سنة».

وعنه عليه السلام مرفوعاً: «طريق كل امرئ عقله وعدوّه جهله».

وعنه عليه السلام مرفوعاً: «إنا معاشر الأنبياء نكلم الناس على قدر عقولهم».

قال أبو العبّاس: وسئل أبو عبد الله عليه السلام ما العقل؟ فقال: «ما عبد به الرحمن، واكتسب به الجنان».

قال: وقال أبو عبد الله: «سئل الحسن ابن عليّ عليه السلام عن العقل؟ فقال: التجرّع للغصّة، ومداهنة الأعداء».

قلت: هذا كلام الحسن عليه السلام وأنا أقطع بذل.

قال أبو العبّاس: وقال أبو عبد الله عليه السلام: «العاقل لا يحدّث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يثق بمن يخاف غدره، ولا يرجو من لا يثق برجائه».

---

(١) البقرة: ٢٦٩.

قال أبو العبّاس: وروي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كان موسى عليه السلام يدني رجلاً من بني إسرائيل لطول سجوده، وطول صمته، فلا يكاد يذهب إلى موضع إلاّ وهو معه، فبينا هو يوماً من الأيام إذ مرّ على أرض معشبة تهتزّ، فتأوّه الرجل، فقال له موسى: على ماذا تأوّهت؟ قال: تمنّيت أن يكون لربي حمار وأرعاه ههنا، فأكبّ موسى طويلاً ببصره إلى الأرض اغتماماً بما سمع منه، فانحط عليه الوحي فقال: ما الذي أنكرت من مقالة عبدي إنما آخذ عبادي على قدر ما آتيتهم».

وروي عن عليّ عليه السلام: «هبط جبرائيل عليه السلام على آدم عليه السلام بثلاث ليختار منها واحدة ويدع اثنين: وهي العقل والحياء والدين، فاختار العقل، فقال جبرائيل: للحياء والدين انصرفا، فقالا: إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، فقال: فشأنكما ففاز بالثلاث».

فأما قوله عليه السلام: «ولا ميراث كالأدب».

فإني قرأت في حكم الفرس عن بزرجمهر: ما ورثت الآباء أبناءها شيئاً أفضل من الأدب؛ لأنها إذا ورثتها الأدب اكتسبت بالأدب المال، فإذا ورثتها المال بلا أدب أتلفتها بالجهل وقعدت صفراً من المال والأدب. قال بعض الحكماء: من أدّب ولده صغيراً سُرّ به كبيراً، وكان يقال: من أدّب ولده أرغم حاسده، وكان يقال: ثلاثة لا غربة معهنّ: مجانبة الريب، وحسن الأدب، وكف الأذى، وكان يقال: عليكم بالأدب فإنه صاحب في السفر، ومؤنس في الوحدة، وجمال في المحفل، وسبب إلى طلب الحاجة، وقال بزرجمهر: من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان قبل وضيعاً، وبعد صيته وإن كان خاملاً، وساد وإن كان غريباً،

وكثرت الحاجة إليه وإن كان مقلاً. وقال بعض الملوك لبعض وزرائه: ما خير ما يرزقه العبد؟ قال: عقل يعيش به، قال: فإن عدمه قال: أدب يتحلّى به، قال: فإن عدمه؟ قال: مال يستتر به، قال: فإن عدمه؟ قال: صاعقة تحرقه فتريح منه العباد والبلاد، وقيل لبعض الحكماء: متى يكون العلم ستراً من عدمه؟ قال: إذا كثر الأدب ونقصت القريحة ـ يعني بالقريحة العقل ـ.[١]

* * *

قال ابن ميثم البحراني:

وقال عليه السلام أربع كلمات: إحداها: «لا غنى كالعقل»، ولما سبق أنه أغنى الغنى، وأنه يكون لا غنى مثله، الثانية: «ولا فقر كالجهل»، وذلك لما مَرَّأن: «أكبر الفقر الحمق»، والمراد بالجهل هنا ما يقابل العقل بالملكة وهو الحمق أو ما يلازمه. الثالثة: «ولا ميراث كالأدب» الأدب هو التحلّي بمكارم الأخلاق وهو أفضل من كل موروث من مال وقُنية وأراد المعونة، الرابعة: «ولا ظهير كالمشاورة» لما كانت المشاورة تنتج في غالب الأحوال الرأي الصحيح فيما يراد من الأمور، والرأي الصحيح أنفع في التدبير من القوّة وكثرة العدة، كما قال أبو الطيب:

الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو أوّلٌ وهي المحل الثاني

لا جرم لم يكن للمشاورة التي هي مظنته فيساويها في المعونة على المنفعة من الأمور التي يستظهر بها ويستعان.[٢]

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٨٥ - ١٨٨.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٥١٣.

وجاء في (منهاج البراعة):[١]

قد سبق مفاد الجملتين الأولتين في ضمن وصاياه لابنه الحسن عليه السلام في الحكمة السابعة والثلاثين. (والأدب) هو التحلّي بمكارم الأخلاق كما فسّره ابن ميثم وقد سبق الكلام فيه، والمشاورة هي طلب الرأي بالشور عمن هو أهلها...

* * *

قال ابن مغنية في (في ظلال نهج البلاغة):[٢]

لا جدوى من مال ولا سلطان بلا عقل، إن العقل مصدر العلم والمال والجاه وكل خيرات الدنيا والآخرة، وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «العقل ما عبد به الرحمن، واكتسب به الجنان»، فقيل له: والذي عند معاوية؟ قال: «تلك النكراء _ أي الدهاء _ تلك الشيطنة».

ولا يعرف التاريخ ديناً كالإسلام أشاد بالعقل، واعتمد عليه في مبادئه وتعاليمه، وقد جاء ذكر العقل والعلم ومشتقاتهما في القرآن الكريم، مرّة للدلالة على إحقاق الحق وابطال الباطل، هذا ما عدا الآيات المشتملة على ذكر الهدى والنور، وهنا يكمن السر في تقدّم المسلمين وحضارتهم التاريخية، وإذا انحطوا وتخلّفوا اليوم، فلأنهم تركوا الجهاد المقدّس الذي أمرهم به الإسلام، وانقسموا على أنفسهم، فالذنب ذنبهم لا ذنب الإسلام.

«ولا فقر كالجهل» لأنه أصل كل رذيلة، وإنه يُلحق الإنسان بالحيوان.

---

(١) ج ٢١: ٩٣.

(٢) ج ٤: ٢٤٩.

وفي أصول الكافي قال رسول الله ﷺ: «يا عليّ لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أعود من العقل... إذا رأيتم كثير الصلاة كثير الصيام فلا تباهوا به حتّى تنظروا كيف عقله».

«ولا ميراث كالأدب» المراد بالميراث ما يتركه المرء من الأحدوثة، وبالأدب حسن السيرة.

«ولا ظهير كالمشاورة» الظهير المعين، والمراد بالمشاورة مشاورة العاقل الناصح، قال رسول الله ﷺ: «ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قبل له به أن يستشير عاقلاً له دين وورع».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «للمشاورة حدود: الأوّل: أن يكون المشير عاقلاً، الثاني: أن يكون متورعاً، الثالث: أن يكون صديقاً، الرابع: أن تطلعه على سرّك حتّى يكون علمه به كعلمك بنفسك، فإن كان عاقلاً انتفعت بمشورته، وإن كان متورعاً جهد نفسه في النصيحة، وإن كان صديقاً كتم سرّك، وإذا اطلعته على سرّك كملت النصيحة».

* * *

[أهمية العقل]:

أقول: العقل مركز التفاهم والتخاطب، وبه انتظام النوع البشري، وهو علة تشريع الأحكام، وناموس الأديان، وعليه مدار الخطاب من الله سبحانه في محكم آياته المنزلة، والعقلاء هم أولوا الألباب، قال سبحانه: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.(١)

العقل سبب الفوز بالنعيمين أو بأحدهما، فالسعيد من توجّه بعقله

(١) البقرة: ٢٦٩.

لنيل السعادة الباقية والحياة الخالدة، ثمّ نال من الدنيا الفانية ما فيه البلاغ إلى تلك الحياة الدائمة (ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا) والشقي من توجه بعقله إلى هذه الحياة الفانية، فلم يكن له من الآخرة نصيب، وأشقى منه من خسر الدارين ولم يفز بأحد النعيمين (ما أقبح الكفر والإفلاس في الرجل).

العقل مقترن بالدين والحياء وهما ناموس المحاسن والفضائل، رأيت في الكافي، كتاب ثقة الإسلام وعلم الأعلام محمّد بن يعقوب الكليني عليه الرحمة عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: «هبط جبرائيل عليه السلام على آدم عليه السلام فقال: يا آدم إني أمرتُ أن أخيرك واحدة من ثلاث فاخترها ودع اثنتين، فقال له آدم: وما الثلاثة؟ فقال: العقل، والدين، والحياء، فقال آدم: قد اخترت العقل، فقال جبرائيل: للحياء والدين انصرفا ودعاه، فقالا: يا جبرائيل إنا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان قال: فشأنكما وعرج».[1]

* * *

[إشكال وجواب]:

جاء في (مناهل الأشواق)[2] وربما يتوجه من هذا الإشكال فيقع بعض البسطاء في شركه:

وحاصله أنه إذا كان الدين والحياء مع العقل حيث كان، فإمّا أن يكون من لا دين له فاقد العقل، وهذا في غاية البعد، أو يكون جميع

---

(١) الكافي ١: ١١.

(٢) للسيد محمّد حسين صفي الدين المعاصر، قاضي الجعفرية بلبنان... (الذريعة ٢٢: ٣٥٣).

العقلاء لهم دين وهذا لا يمكن، لأن الدين هو معرفة الله سبحانه وشكره بالنحو الذي قام عليه البرهان، وهو واحد لا تعدد فيه، وقد اختلفت المسالك وتعددت الأديان كما نشاهد ذلك بالوجدان، (وكل يدّعي وصلاً بليلى)، وكذلك الحال في الحياء، وإن كان أمره أسهل.

والجواب عن هذا الإشكال: أن العقل الذي لا يفارقه الدين والحياء، هو العقل السليم الذي لم تتغلب عليه الشهوات، هو ذلك الجوهر الفرد، هو ذلك النور الوهاج الذي لم توجد في سمائه غياهب الظلمات، ولا تنازعت أشلاءه أيدي الشبهات، وقلنا قبل هذا إن العقل يوصل إلى الجهة المطلوبة، والطلب على وفق الرغبة وهي ثمرة الشهوة، فحبّ الشهوات يحسّن البخل، والدين والحياء يقبّحانه، ويحسّن الكذب إذا وافق الشهوة وهما يقبحانه، ويحسّن الظلم وهما يقبّحانه، ولو راجعت المحسوسات تجد أن جميع الصفات الخسيسة تحسنها الشهوات ويقبّحها الدين والحياء، وهذا بعد التدبر تجده مما لا يتنازع فيه إثنان.

وللعقل جنود وأعوان، وللجهل كذلك جنود وأعوان، ويحسن بنا في المقام أن نذكر ما جعله الله سبحانه للعقل من الجند والأعوان، ونذكر ما اختص به الجهل.

[جنود العقل]:

ففي أصول الكافي جاء عن سماعة بن مهران: قال: كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام وعنده جماعة من مواليه، فجرى ذكر العقل والجهل، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «اعرفوا العقل وجنده، والجهل وجنده تهتدوا»، قال سماعة: قلت: جعلت فداك لا نعرف إلاّ ما عرفتنا، فقال أبو عبد الله عليه السلام:

«إن الله عزّ وجلّ خلق العقل، وهو أوّل خلق من الروحانيين عن يمين العرش من نوره، فقال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال له: أقبل فأقبل، فقال الله تعالى: خلقتك خلقاً عظيماً، وكرمتك على جميع خلقي، ثمّ خلق الله الجهل من بحر أُجاج ظلمات، فقال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال له: أقبل فلم يقبل فقال له: استكبرت فلعنه، ثمّ جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً، فلما رأى الجهل ما أكرم به العقل، وما أعطاه الله أضمر له العداوة: وقال: يا ربي هذا خلق مثلي خلقته وكرمته وقوّيته، وأنا ضدّه ولا قوة لي به فاعطني من الجند مثل ما أعطيته، فقال نعم: فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك وجندك من رحمتي، قال: قد رضيت، فأعطاه خمسة وسبعين جنداً، فكان مما أعطى العقل من الخمسة والسبعين جنداً:

(الخير) وهو وزير العقل، وجعل ضده الشر وهو وزير الجهل. (والإيمان) وضده الكفر (والتصديق) وضدّه الجحود، (والرجاء) وضده القنوط (والعدل) وضده الفجور (والرضا) وضده السخط (والشكر) وضده الكفران (والطمع) وضده اليأس (والتوكل) وضده الحرص (والرأفة) وضدها القسوة (والرحمة) وضدها الغضب (والعلم) وضده الجهل (والفهم) وضده الحَمَق (والعفة) وضدها التهتك (والزهد) وضده الرغبة (والرفق) وضده السفه (والصمت) وضده الهذر (والإستسلام) وضده الإستكبار (والتسليم) وضدّه الشك (والصبر) وضدّه الجزع، (والصفح) وضده الإنتقام (والغنى) وضده الفقر (والتذكر) وضده السهو (والحفظ) وضده النسيان (والتعطف) وضده القطيعة (والقنوع) وضده الحرص (والمواساة) وضدها المنع (والمودة) وضدها العداوة (والطاعة) وضدها المعصية (والخضوع) وضده التطاول (والسلامة) وضدها البلاء

(والحب) وضده البغض (والصدق وضده الكذب (والحق) وضده الباطل (والأمانة) وضدها الخيانة (والإخلاص) وضده الشوب، (والشهامة) وضدّها البلادة (والفهم) وضده الغباوة (والمعرفة) وضدها الانكار (والمداراة) وضدها المكاشفة (وسلامة القلب) وضدها المماكرة (والصلاة) وضدها الإضاعة (والصوم) وضده الإفطار (والجهاد) وضده النكول (والحج) وضده نبذ الميثاق (وصون الحديث) وضدّه النميمة (وبرّ الوالدين) وضده العقوق (والحقيقة) وضدها الرياء (والمعروف) وضده المنكر (والستر) وضده التبرج (والتقية) وضدها الإذاعة (والإنصاف) وضده الحمية (والمهنة) وضدها البغي (والنظافة) وضدها القذارة (والحياء) وضده الخلع (والقصد) وضده العدوان (والراحة) وضدها التعب (والسهولة) وضدها الصعوبة (والبركة) وضدها المحق (والعافية) وضدها البلاء (والقوام) وضده المكاثرة (والحكمة) وضدها الهوى (والوقار) وضده الخفة (والسعادة) وضدها الشقاوة (والتوبة) وضدها الإصرار (والاستغفار) وضده الإغترار (والمحافظة) وضدّها التهاون (والدعاء) وضده الاستنكاف (والنشاط) وضده الكسل (والفرح) وضده الحزن (والإلفة) وضدها الفرقة (والسخاء) وضده البخل.

ولا تجتمع هذه الخصال كلها من جنود العقل إلاّ في نبيّ أو وصي نبيّ، أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان، وأما سائر ذلك من موالينا فإن أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود حتّى يستكمل وينقى من جنود الجهل، فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء، وإنما يدرك ذلك بمعرفة العقل وجنوده، وبمجانبة الجهل وجنوده، وفقنا الله وإياكم لطاعته ومرضاته».

أقول: هذا كلام ملوك الكلام، وأئمّة الأحكام، وهداة الأنام، ومن جعلهم الله في أرضه حججاً على بريته، هذا كلام الصادق جعفر بن محمّد عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

هذا أساس انتظام العقلاء في معاشهم ومعادهم، وقيامهم بشكر المنعم، فهلمَّ أيها الإنسان العاقل إلى خدمة العقل كي نرى عظمة العقل وشرفه ونوره وجوهره، وخيره وعدله، ورضاه وزهده، وتواضعه وسلامته، ومواساته وأمانته، وإخلاصه وشهامته وحلمه وعافيته، ونشاطه وصبره، ومحافظته وحفظه، إلى آخر هاتيك السجايا الشريفة والطبائع الكريمة.

وكن معي في موقف بعيداً عن الجهل، وأنظر بعين البصيرة، أو فضع على عينيك منظرة مضيئة لترى مراتع الجهل الوخيمة، وشرّه وكفره، وجوره وطمعه، وشكه ونسيانه، وغدره وقطيعته، وخيانته وكذبه، وغباوته وإصراره وقذارته وكسله وبخله، ويأسه واستنكافه، وتكبره، إلى آخر صفاته الخسيسة وجنوده الخبيثة التي لا يرتضي أحد العقلاء واحدة منها، فما ظنك بمن اجتمع فيه شطر منها أو جلها أو كلها، ونعوذ بالله من ذلك.

[القرآن يشير إلى أهمية العقل]:

وبالتالي: العقل مركز التفاهم والتخاطب، وبه انتظام النوع البشري، وهو علة تشريع الأحكام، وناموس الأديان، وعليه مدار الخطاب من الله سبحانه في محكم آياته المنزلة، والعقلاء هم أولوا الألباب قال سبحانه: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[1] فالتذكر محصور بنصّ هذه الآية الشريفة بالعقلاء، وبذلك يحكم الوجدان، وبشّر سبحانه أهل العقل والفهم فقال

---

(١) البقرة: ٢٦٩.

سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾(١).

وقد احتجّ سبحانه وتعالى على عباده بما تدركه عقولهم، ودلهم على ربوبيته ووحدانيته بالأدلة الواضحة فقال سبحانه:

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٢).

وبيّن سبحانه ما سخّره لنا من عجائب خلقه، وانتظام آيات ملكه وعظيم قدرته فقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٣).

وأقام سبحانه برهان التسلسل بمراتب تكوين وجود الإنسان، وإخراجه من كتم العدم إلى الوجود الكافي في البرهان على وجود واجب الوجود ووجوب شكره فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٤).

---

(١) الزمر: ١٧ – ١٨.

(٢) البقرة: ١٦٣ – ١٦٤.

(٣) النحل: ١٢.

(٤) غافر: ٦٧.

وجعل بقدرته اختلاف الموجودات وتصرّف العلويّات، لتبادل احياء السفليّات، برهاناً كمياً ودليلاً حسياً على احتياج العوالم بعد الإيجاد إلى دوام فيوضات إنعامه فقال سبحانه:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١].

وقال سبحانه على نحو البرهان على الحياة بعد الموت، ليعرف ذلك العقلاء:

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢].

وأنعم الله سبحانه بنعم ظاهرة في وجودها، وجعلها على اتحاد أسبابها مختلفة في شكلها متميّزة في طعمها ولونها، لتكون عند العقلاء منظراً ومخبراً آية على إثبات من أوجدها بعد العدم بصور مختلفة، ولذّات متنوّعة فقال سبحانه:

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣].

وبيّن ما عليه الإنسان من الرغبة والرهبة عند نزول آيات ملكه، وعلامات سلطانه وأدلة قدرته فقال سبحانه:

---

(١) البقرة: ١٦٤.

(٢) الحديد: ١٧.

(٣) الرعد: ٤.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.(١)

وأرشد سبحانه العقلاء إلى توحيده، وحرّم عليهم الشرك وكفران نعمته، وأوجب عليهم شكر المنعم، ونهاهم عن قتل أولادهم خوف الفقر، وعن الفواحش وقتل النفس المحترمة، وفي ذلك سلامتهم في معاشهم ومعادهم فقال سبحانه:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.(٢)

ورغب العقلاء في الدار التي أعدّها لمن أطاعه؛ لأنها دار الحق الباقية وفيها الحياة الدائمة والنعيم الخالد فقال سبحانه:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.(٣)

وخوّف سبحانه الذين لا يعقلون عقابه ولا يتدبرون آياته بما كان من تنكيله وتدميره من كفر بنعمته وضلّ سواء الطريق فقال سبحانه:

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.(٤)

---

(١) الروم: ٢٤.

(٢) الأنعام: ١٥١.

(٣) الأنعام: ٣٢.

(٤) الصافات: ١٣٦ - ١٣٨.

وقال سبحانه:

﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.(١)

وقد ذم سبحانه الذين لا يتدبّرون ولا يعقلون عظيم آياته ونيّر بيّاته الذين يرسفون في قيود التقليد والضلالة وراء سلفهم وإن كانوا لا يهتدون، ولا ريب بأن العقل يذمّهم، فإن الإنقياد مع الضلالة قبيح فقال سبحانه:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.(٢)

ولا يتنازع العقلاء في صمم من ينادي لينعم عليهم ولا في عماه إذا أعرض عمن أحسن إليه وهو يحسن له على إعراضه، فكفران النعمة عميٌ وبكمٌ وصممٌ، وقال سبحانه:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.(٣)

وقال سبحانه:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾.(٤)

ولا ريب أن ترك شكر المنعم فيه الحرمان من نعمه، قال سبحانه: موبّخاً لمن اتصف بهذا:

﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.(٥)

---

(١) العنكبوت: ٣٤ و٣٥.

(٢) البقرة: ١٧٠.

(٣) البقرة: ١٧١.

(٤) يونس: ٤٢.

(٥) البقرة: ٤٤.

وإنما حسن توبيخهم وذمّهم بأنهم نسوا أنفسهم؛ لأنهم غفلوا عن حق أنفسهم في الدار الآخرة التي فيها النعيم الدائم، نعم انتبهوا إلى لذة زائلة يشاركهم فيها كل حيوان في هذه الدار الفانية، فأين العقل الذي كان به امتيازهم عن الحيوان، فجدير بهم انطباق هذه الآية الشريفة عليهم حيث قال سبحانه:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾.(١)

فأين ذلك العقل الفعّال، ذلك الجوهر، ذلك النور، كيف انطمست أعلامه واندرست آثاره، أجل احتفت به الشهوات، وغلبت عليه اللذات، وخمرة الجهل مسكرة، فبعد إنعامه سبحانه على الإنسان بالعقل، وإعطاءه نوراً يتخطى به عن وهده الجهل، ليعرف المنعم ويشكره حق شكره إذا لم يكن عارفاً شاكراً، فهو كالأنعام بل أضل سبيلا، فالعقل يوجب الإنتباه من الغفلة، والفائز من انتبه من غفلته وتدبّر عاقبة الأمور، وهذا لعمري هو القليل كما قال سبحانه: ﴿اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ﴾.(٣)

وقال سبحانه: ﴿وَما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾.(٤)

فالسعداء هم العارفون بالله، العاملون بأمره، وهم القليل، وأهل الشقاء وأصحاب البلاء في الآخرة هم الكثير في كل شعب وزمن،

---

(١) الفرقان: ٤٤.

(٢) سبأ: ١٣.

(٣) ص: ٢٤.

(٤) هود: ٤٠.

والشاهد بذلك الوجدان والقرآن، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[(١)].

وقال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)].

وقال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[(٣)].

فلا ينبغي من العاقل الركون والإذعان إلى الكثير بلا برهان، فضلاً عن القليل، بل العقل السليم يلزم بالتدبر والتعقل، ورفع حجاب الغفلة وكشف ستار التمويه،ولزوم السعي وراء الحقيقة بعين مبصرة وقلب غير مقلوب. وبذلك يدرك عظمة الخالق وعظيم إنعامه، فيخلص في توحيده، ويجزم بعدله، ويقر ببعثة رسله وأنبيائه، ويذعن بولاية أوليائه وحججه، ويجزم بالحياة بعد الفناء، ويعلم أن في الدار الآخرة إما نعيم دائم للعارفين بالله العاملين بطاعته، وإما عذاب خالد للغافلين الجاحدين العاصين لأمر الله ونهيه، المغترين بملاذهم الزائلة، ونصب أعينهم مصارع السلف، أفلا يتدبرون أفلا يتذكرون مصارع الآباء والأمهات، فأين من شاد وساد وبنى إرم ذات العماد أين الفراعنة والتبابعة والأكاسرة والقياصرة، وأين وأين وأين، فاستمع أحسن ما قيل في ذلك:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فلم تمنعهم القلل
واستنزلوا بعد عزّ من معاقلهم ... وأسكنوا حضراً يابئس ما نزلوا

---

(١) الأنعام: ١١٦.

(٢) لقمان: ٢٥.

(٣) العنكبوت: ٦٣.

ناداهم صارخ من بعد ما نزلوا   أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة   من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين سائلهم   تلك الوجوه عليها الدود ينتقل

* * *

ومما جاء في (الرياض الخزعلية) تحت عنوان:

[فضل العقل وثمراته وبيان حقيقة أقسامه]:

الروض الأوّل في فضل العقل وثمراته، وبيان حقيقة أقسامه:

فصل: العقل أيدك الله سلطان القرائح، ومصباح الحوائج، ومفتاح المصالح، ورأس العلوم، سبب إدراك المعلوم، ومادة الفهم.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العقل نور في القلب يفرق بين الحق والباطل» وأهل العقل هم المخاطبون وهم المكلّفون قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ...﴾ إلى قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.(١)

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾.(٢)

وقال: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾.(٣)

وهذا كثير في كلام الله، وبالعقل استظهر المرء على كثير مما غاب منه، واستطلع على جمل مما يحتجب عنه، مما يمكن عرفانه،

---

(١) البقرة: ١٦٤.

(٢) طه: ٥٤.

(٣) الفجر: ٥.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «لكل شيء دعامة، ودعامة عمل المرء عقله، فبقدر عقله تكون عبادته لربه».

أما سمعتم قول الفجّار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.(١)

قالت الحكماء: بنور العقل تظهر الحقائق وتنكشف السرائر، وتلوح خفيّات الأمور، فيعبد الله تعالى على حقيقة العلم به. وحكى الأصمعي قال: قلت لغلام حدث من أولاد العرب كان يحادثني فأمتعني بفصاحة وملاحة: أيسرّك أن تكون لك مائة ألف درهم وأنت أحمق؟ قال: لا والله، قلت ولم؟ قال: أخاف أن يجني عليّ حمقي جناية تذهب بمالي ويبقى عليّ حمقي.

فانظر إلى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه، واستنبط بجودة قريحته ما لعله يدقّ على ما هو أكبر منه سناً وأكثر تجربة.

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «لا مال أعود من العقل» وذلك لأن الأحمق ذا المال طالما ذهب ماله بحمقه فعاد أحمقاً فقيراً، والعاقل الذي لا مال له طالما اكتسب المال بعقله، وبقي عقله عليه، وخطب رجلان إلى ديماروس الحكيم ابنته، وكان أحدهما فقيراً والآخر غنياً، فزوجها من الفقير، فسأله الاسكندر عن ذلك فقال: لأن الغني كان أحمقاً فكنت أخاف عليه الفقر، والفقير كان عاقلاً فرجوت الغنى. وقال بعض الأدباء: صديق كل امرئ عقله، وعدوّه جهله، وقال بعض البلغاء: خير المواهب العقل، وشر المصائب الجهل.

---

(١) الملك: ١٠.

وقال بعض الشعراء:

يزين الفتى في الناس صحة عقله　　وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله　　وإن كرمت أعراضه ومناسبه
يعيش الفتى بالعقل في الناس إنه　　على العقل يجري علمه وتجاربه
وأفضل قسم الله للمرء عقله　　فليس من الأشياء شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله　　فقد كملت أخلاقه ومآربه

وبالعقل تعرف حقائق الأمور، ويفصل بين الحسنات والسيئات، ومن كلام لأمير المؤمنين عليه السلام: «ما استودع الله امرئً عقلاً إلا ليستنقذه به يوما مّا».

قال الشارح: لا بدّ أن يكون للباري تعالى في إيداع العقل قلب زيد مثلاً غرض، ولا غرض إلاّ أن يستدل به على ما فيه نجاته وخلاصه، وذلك هو التكليف فإن قصّر في النظر وجهل وأخطأ الصواب فلا بدّ أن ينقذه عقله من ورطة من ورطات الدنيا، وليس يخلو أحد عن ذلك أصلاً؛ لأنّ كل عاقل لا بدّ أن يتخلص من مضرّة سبيلها أن تنال بأعمال فكرته وعقله في الخلاص منها، فالحاصل إن العقل إما أن ينقذ الإنقاذ الديني، وهو الفلاح والنجاح على الحقيقة، أو ينقذ من بعض مهالك الدنيا وآفاتها، وعلى كل حال فقد صحّ قول أمير المؤمنين عليه السلام.

وعن أنس قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الرجل يكون حسن العقل كثير الذنوب؟ فقال: «ما من بشرٍ إلاّ وله ذنوب وخطايا يقترفها، فمن كان سجيّته العقل وغريزته اليقين لم تضرّه ذنوبه»، قيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «كلما أخطأ لم يلبث أن يتدارك ذلك بتوبة وندامة على ما فرط منه فيمحو ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنّة».

أثنى قوم على رجل عند رسول الله ﷺ بالصلاة والعبادة وخصال الخير حتّى بالغوا، فقال: «كيف عقله؟» قالوا: يا رسول الله نخبرك باجتهاده في العبادة وضروب الخير، وتسأل عن عقله. فقال: «إن الأحمق ليصيب بحمقه أعظم مما يصيبه الفاجر بفجوره، وإنما يرتفع العباد غداً في درجاتهم وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقلوهم» فالعقل نفعه في الدنيا والآخرة ظاهر.

حكي أن نصيباً دخل على عبد الملك بن مروان، فتغدّى معه، فلما رأى عبد الملك ظرفه وأدبه قال له: هل لك فيما تتنادم عليه؟ قال: يا أمير المؤمنين لوني حائل، وشعري مفلفل، وخلقي مشوّه، ولم أبلغ ما بلغت من اكرامك إياي لا لشرف أبٍ ولا لكرم أمّ، وإنما بلغته بعقلي ولساني، فأنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تحول بيني وبين ما بلغت به هذه المنزلة عندك فأعفاه.

وبالجملة فقد أوجب الله الدين بكماله، وجعل الدنيا مدبَرة بأحكامه، وألّف بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم، وتباين أغراضهم ومقاصدهم.

روي عن النبي ﷺ إنه قال: «ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى وبرده عن ردى».

قال المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أوّل وهي المحل الثاني
واذاهما اجتمعا لنفس مرةً ... بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طعن الغنى أقرانه ... بالرأي قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان أدنى ضيغم ... أدنى إلى شرف من الإنسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت ... أيدي الكماة عوالي المران

[تعريف العقل وأقسامه]:

عُرّف العقل بتعاريف عديدة، ولنقتصر منها على أحسنها: فأمّا تعريفه بالمعنى الشرعي: فهو ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان، روى الأشعري عن محمّد بن عبد الجبار عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ما العقل؟ قال: «ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان». قال: قلت له: فالذي كان في معاوية قال: «تلك النكران تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل وليست بعقل».

وأمّا بالمعنى العرفي: فهو المعرفة المستعملة في تحريّ النفع وتجنب الضرر، وبعبارة أخرى ملكة وحالة في النفس تدعو إلى اختيار النفع واجتناب الشرور والمضار، وبها تقوى النفس على زجر الدواعي الشهوانية والغضبية والوساوس الشيطانية.

ولأهل اللغة والمتكلمين في اشتقاقه ومعناه أقوال كثيرة، قيل: اشتق من عقل الناقة إذا شدّ وطفها مع ذراعها بحبل يمنعها من الشراد، فكأنه يمنع الإنسان مما يميل إليه من الهوى. وقيل اشتق من العقل وهو الملجأ، يقال عقل الوعل إذا التجأ إلى الجبل الذي يمنعه، فكأن الإنسان يلتجئ إليه في أحواله، وأما انقسامه: فقد قيل ينقسم العقل إلى قسمين: غريزي ومكتسب، وهذا مأخوذ عن أمير المؤمنين عليه السلام وقد ينسب إليه:

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

ثمّ كل واحد من القسمين يختلف بالأشد والأضعف: أما القسم الأوّل وهو الغريزي فقد يكون في الناس من لا يحتاج في النظر إلى

ترتيب المقدمات؛ بل تنساق النتيجة النظرية إليه سوقاً من غير احتياج فكر وتدبر، ويسمّى ذكاءاً وصاحبه ذكياً، وقد يكون فيهم من هو دون ذلك، وقد يكون من هو دون الدون. وأما القسم الثاني فقد يكون في الناس من لا يجدي فيه التعليم بل يكون كالصخرة الجامدة بلادة وغباوة، ومنهم من يكون أقل تبلّداً وجنوح ذهن من ذلك، ومنهم من يكون الوقفة عنده أقل فيكون ذا حال متوسطة، وبالجملة فاستقراء أحوال الناس يشهد بصحة ذلك، وأصل نقصان المكتسب من نقصان الغريزة، كما قال عليه السلام: «ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع»، وقد شاهدنا مثل هذا في حق أشخاص كثيرة اشتغلوا بالعلم الدهر الطويل فلم ينجح معهم العلاج وفارقوا الدنيا وهم على الغريزة الأولى في الساذجيّة.

واعلم أن العقل المكتسب نتيجة العقل الغريزي، وهو نهاية المعرفة وصحّة السياسة، وليس له حدّ لأنه ينمو ان استعمل وينقص إن أهمل، واكتسابه من وجهين: أما بالتعلم من العقلاء ما عقلوا، وأما بالتجربة لما تمر من الحوادث، فقد قيل في منثور الحكم: من طال عمره نقص قوة بدنه وزادت قوة عقله، وقيل: لا تدع الأيام جاهلاً إلاّ أدبته، وقال بعض الحكماء: كفى بالتجارب تؤدباً، وبتقلب الأيام عظة، وقال بعض البلغاء: التجربة مرآة العقل، والغرّة ثمرة الجهل.

وقال بعض الأدباء:

كفى مخبراً عما بقى ما مضى ... عبراً لأولي الألباب ما جرّبوا

وقال بعض الشعراء:

ألم تر أن العقل زين لأهله ... ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر:

إذا طال عمر المرء في غير آفة   أفادت له الأيام في كَرّها عقلا

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «لم يذهب من مالك ما وعظك»، ومثل هذا قولهم: إن المصائب أثمان التجارب، وقيل لعالم فقير بعد أن كان غنياً: أين مالك؟ قال: اتجرت فيه فابتعت فيه تجربة الناس والوقت، فاستفدت فيه أشرف العوضين». ومن المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

كلّما أدّبني الدهر   أراني نقص عقلي

وإذا ما ازددت علماً   زادني علماً بجهلي

واعلم أنّ من نقصت غريزته، أو فقدها لا تنجع فيه التجربة، إذ التجربة نتيجة الغريزة، والغريزة أساس للتجربة، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أجهل الجهال من عثر بحجر مرتين».

[قصة من كتاب كليلة ودمنة]:

ومن أمثال كليلة ودمنة، زعموا أنه كان أسد في أجمة، وكان معه ابن آوى يأكل من فواضل طعامه، فأصاب الأسد جرب وضعف شديد وجهد فلم يستطع الصيد، فقال له ابن آوى: ما بالك يا سيّد السباع قد تغيرت أحوالك؟ قال: هذا الجرب الذي قد أجهدني، وليس له دواء إلاّ قلب حمار وأذناه، قال ابن آوى: ما أيسر هذا وقد عرفت بمكان كذا حماراً مع قصّارٍ يحمل عليه ثيابه وأنا آتيك به، ثمّ دلف إلى الحمار فأتاه وسلم عليه، فقال له: ما لي أراك مهزولاً؟ قال: ما يطعمني صاحبي شيئاً، قال: وكيف ترضى المقام معه على هذا؟ قال: فما لي حيلة في الهرب منه، فلست أتوجه إلى طرف إلاّ أضرني إنسان فكدني وأجاعني، قال ابن آوى: فأنا أدلك على مكان معزول عن الناس لا يمرّ به إنسان،

خصب المرعى فيه أتان لم تر عين مثلها حسناً وسمناً، وهي محتاجة إلى الفحل، قال الحمار وما يحبسنا عنها فانطلق بنا إليها، فانطلق به ابن آوى نحو الأسد، وتقدم ابن آوى ودخل الغابة على الأسد فأخبره بمكان الحمار، فخرج إليه فأراد أن يثب عليه فلم يستطع لضعفه، وتخلص الحمار منه فأفلت هلعاً على وجهه، فلما رأى ابن آوى أن الأسد لم يقدر على الحمار قال: أعجزت يا سيد السباع إلى هذه الغاية؟ فقال: إن جئتني به مرّة أخرى فلن ينجو مني أبداً، فمضى ابن آوى إلى الحمار فقال له: ما الذي جرى عليك؟ إن الأتان لشدة غلمتها وهيجانها وثبت عليك ولو ثبت لها للأنت لك، فلما سمع الحمار بذكر الأتان هاجت غلمته ونهق وأخذ طريقه إلى الأسد، فسبقه ابن آوى إلى الأسد وأعلمه بمكانه وقال له استعد فقد خدعته لك فلا يدركنك الضعف في هذه النوبة فإنه إن أفلت فلن يعود معي أبداً، فجاش جأش الأسد لتحريض ابن آوى له، وخرج إلى موضع الحمار فلما بصر به عاجله بوثبة افترسه فيها، ثمّ قال قد ذكرت الأطباء: إنه لا يؤكل إلاّ بعد الغسل والطهور، فاحتفظ به حتّى أعود، فآكل قلبه وأذنيه وأترك ما سوى ذلك قوتاً لك، فلما ذهب الأسد ليغتسل عمد ابن آوى إلى الحمار فأكل قلبه وأذنيه رجاء أن يتطيّر الأسد منه فلا يأكل منه شيئاً.

ثمّ إن الأسد رجع إلى مكانه فقال لابن آوى: أين قلب الحمار وأذناه؟ قال ابن آوى: ألم تعلم أنه لو كان له قلب وأذنان لم يرجع لك بعد ما أفلت ونجى من الهلكه؟».

وهذا المثال إنما ذكرناه توضيحاً لما حررناه من أن فاقد الغريزة لا تنفعه التجربة».

ومما جاء في المجلد الأوّل من كتاب (المستطرف في كل فنّ مستظرف)، تحت عنوان:

في العقل والذكاء والحمق وذمه:

نصّ الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز ومنزل خطابه الوجيز على شرف العقل، وقد ضرب الله سبحانه وتعالي الأمثال وأوضحها وبيّن بدائع مصنوعاته وشرحها، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أوّل ما خلق الله تعالى العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر فقال عز من قائل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعزّ عليَّ منك، بك آخذ وبك أعطي وبك أحاسب وبك أعاقب».

وقال أهل المعرفة والعلم: العقل جوهر مضيء خلقه الله تعالى في الدماغ وجعل نوره في القلب، يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة.

واعلم أن العقل ينقسم إلى قسمين: قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وقسم يقبلهما، فأمّا الأوّل فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء، وأمّا الثاني فهو العقل التجريبي، وهو مكتسب، وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع، وباعتبار هذه الحالة يقال إن الشيخ أكمل عقلاً وأتم دراية، وإن صاحب التجارب أكثر فهماً وأرجح معرفة، ولهذا قيل من بيضت الحوادث سواد لمته، وأخلقت التجارب لباس جدّته، وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته تصاريف أقداره وأقضيته كان جديراً برزانة العقل ورجاحة الدراية، وقد يخص الله تعالى بألطافه الخفية من يشاء من عباده فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل وزيادة معرفة تخرجه عن حدّ الإكتساب ويصير بها راجحاً على ذوي التجارب والآداب.

---

(١) النحل: ١٢.

ويدلّ على ذلك قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله تعالى به في محكم كتابه العزيز حيث يقول: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ فمن سبقت له سابقة من الله تعالى في قسم السعادة وأدركته عناية أزلية أشرقت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية، فاتصف بالذكاء والفطنة قلبه، وأسفر عن وجه الإصابة ظنه، وإن كان حديث السن قليل التجربة، كما نقل في قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبي حيث ردّ حكم أبيه داود عليه السلام في أمر الغنم والحرث.

وشرح ذلك فيما نقله المفسرون: أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم والآخر صاحب حرث، فقال أحدهما: إن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثي فأهلكته وأكلته ولم تبق لي فيه شيئاً، فقال داود عليه السلام: الغنم لصاحب الحرث عوضاً عن حرثه، فلما خرجا من عنده مرّا على سليمان عليه السلام وكان عمره إذ ذاك على ما نقله أئمّة التفسير إحدى عشرة سنة، فقال لهما: ما حكم بينكما الملك؟ فذكرا له ذلك، فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فعاد إلى داود عليه السلام وقالا له ما قاله ولده سليمان عليه السلام فدعاه داود عليه السلام وقال له: ما هو الأرفق بالفريقين؟ فقال سليمان: تسلّم الغنم إلى صاحب الحرث ــ وكان الحرث كرماً قد تدلّت عناقيده في قول أكثر المفسري، فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها وينتفع بدرّها ونسلها ويسلّم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به، فإذا عاد الكرم إلى هيئته وصورته التي كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه سلّم صاحب الكرم الغنم إلى صاحبها وتسلّم كرمه كما كان بعناقيده وصورته، فقال له داود عليه السلام القضاء كما قلت وحكم به كما قال سليمان عليه السلام. وفي هذه القصة نزل قوله تعالى إلى داود وسليمان ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[1].

---

(١) الأنبياء: ٧٨ و٧٩.

فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة؛ بل حصلت بعناية ربانية وألطاف إلهية، وإذا قذف الله تعالى شيئاً من أنوار مواهبه في قلب من يشاء من خلقه اهتدي إلى مواقع الصواب، ورجح على ذوي التجارب والإكتساب في كثير من الأسباب.

ويستدل على حصول كمال العقل في الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه، فإن العقل معنى لا يمكن مشاهدته فإن المشاهدة من خصائص الأجسام. فأقول: يستدل على عقل الرجل بأمور متعددة: منها ميله إلى محاسن الأخلاق وإعراضه عن رذائل الأعمال ورغبته في إسداء صنائع المعروف، وتجنبه ما يكسبه عاراً ويورثه سوء السمعة، وقد قيل لبعض الحكماء: بمن يعرف عقل الرجل؟ فقال: بقلة سقطه في الكلام وكثرة إصابته فيه، فقيل له: فإن كان غائباً؟ فقال: بإحدى ثلاث: أما برسوله وأما بكتابه، وأما بهديته، فإن رسوله قائم مقام نفسه، وكتابه يصف نطق لسانه، وهديته عنوان همّته، فيقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها. وقيل: من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس، ويكفي أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إيّاه، فإنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق».

فمقتضاه أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق، وقالوا: العاقل الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه.

وقال رسول الله ﷺ: «الجنّة مائة درجة، تسعة وتسعون منها لأهل العقل وواحدة لسائر الناس».

وقال عليّ بن عبيدة: العقل ملك والخصال رعيته، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها، فسمعه أعرابي فقال: هذا كلام يقطر عسله.

وقيل: بأيدي العقول تمسك أعنة النفوس، وكل شيء إذا كثر

رخص إلأ العقل فإنه كلما كثر غلا، وقيل: لكل شيء غاية وحدّ، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار في المروج.

[ماهية العقل]:

واختلف الحكماء في ماهيته، فقال قوم: هو نور وضعه الله طبعاً وغريزة في القلب كالنور في العين، وهو يزيد وينقص ويذهب ويعود، وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور وكذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور، وعمي القلب كعمى البصر، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

وقيل: محل العقل الدماغ، وذهب جماعة إلى أنه في القلب، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[١] وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[٢] أي عقل.

وقالوا: التجربة مرآة العقل، ولذلك حمدت آراء المشايخ حتّى قالوا: المشايخ أشجار الوقار، لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم فهم، وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة، قال الشاعر:

ألم تر أنّ العقل زين لأهله ... ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر:

إذا طال عمر المرء في غير آفة ... أفادت له الأيام في كرّها عقلا

وقال عامر بن عبد قيس: إذا عقلك عقلك عمّا لا يعنيك فأنت

---

(١) الحج: ٤٦.

(٢) ق: ٣٧.

عاقل، ويقال: لا شرف إلاّ شرف العقل، ولا غنى إلاّ غنى النفس، وقيل: يعيش العاقل بعقله حيث كان كما يعيش الأسد بقوّته حيث كان، قال الشاعر:

إذا لم يكن للمرء عقل فإنه وإن كان ذا بيت على الناس هيّن
ومن كان ذا عقل أجلّ لعقله وأفضل عقل عقل من يتدين

وقالوا: العاقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدّت عليه الريح، والجاهل تبطره أدنى منزلة كالحشيش يحركه أدنى ريح.

وقيل لعليّ ﵁: صف لنا العاقل، قال: «هو الذي يضع الشيء مواضعه»، قيل: فصف لنا الجاهل، قال: «قد فعلت» يعني الذي لا يضع الشيء مواضعه.

وقال المنصور لولده: خذ عني ثنتين: لا تقل من غير تفكير، ولا تعمل بغير تدبير.

وقال أردشير: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودّة، والعقل إلى التجربة.

وقال كسرى أنوشروان: أربعة تؤدي إلى أربعة: العقل إلى الرياسة، والرأي إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوفير.

وقال القاسم بن محمّد: من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه، كان حتفه من أغلب الخصال عليه، وقيل أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه، وقيل: ثلاثة هنّ رأس العقل: مداراة الناس، والاقتصاد في المعيشة، والتحبب إلى الناس.

وقيل من أعجب برأي نفسه بطل رأيه، ومن ترك الاستماع من ذوي العقول مات عقله.

وقيل: العاقل المحروم خير من الجاهل المرزوق.

وقيل: لا ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة حتّى تموت، ولا طعاماً حتّى يستمرئه، ولا يثق بخليل حتّى يستقرضه.

وسئل بعضهم أيما أحمد في الصبا الحياء أم الخوف؟ قال: الحياء لأن الحياء يدلّ على العقل، والخوف يدلّ على الجبن.

وقيل غضب العاقل على فعله، وغضب الجاهل على قوله.

وقال أبو الدرداء: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عويمر ازدد عقلاً تزدد من الله تعالى قرباً»، قلت: بأبي أنت وأمي ومن لي بالعقل؟ قال: «اجتنب محارم الله تعالى، وأدِ فرائض الله تعالى تكن عاقلاً، ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزدد في الدنيا عقلاً وتزدد من الله قرباً وعزاً».

وحكى بعض أهل المعرفة قال: حياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة القلب بالعقل، وحياة العقل بالعلم.

ويروى عن عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه أنه كان ينشد هذه الأبيات ويترنم بها:

إن المكارم أخلاق مطهرة ... فالعقل أوّلها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والعرف ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها ... والشكر تاسعها واللين عاشيها
والعين تعلم من عيني محدّثها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها
والنفس تعلم أني لا أصدقها ... ولست أرشد إلاّ حين أعصيها

وقال بعض الحكماء: العاقل من عقله في إرشاد، ورأيه في إمداد، فقوله سديد، وفعله حميد، والجاهل من جهله في اغراء، فقوله سقيم

وفعله ذميم، ولا يكفي في الدلالة على عقل الرجل الإغترار بحسن ملبسه، وملاحة سمته، وتسريح لحيته، وكثرة صلفته، ونظافة بزته، إذ كم من كنيف مبيض، وجلد مغضض.

وقد قال الأصمعي: رأيت بالبصرة شيخاً له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة، وحوله حاشية وهرج وعنده دخل وخرج، فأردت أن أختبر عقله، فسلمت عليه وقلت له: ما كنية سيدنا؟ فقال: أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين. قال الأصمعي: فضحكت منه وعلمت قلة عقله وكثرة جهله، ولم يدفع ذلك عنه غزارة خرجه ودخله.

وقد يكون الرجل موسوماً بالعقل، مرموقاً بعين الفضل، فتصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله، وتشهد عليه بقلة عقله واختلاله.

[قصة إياس بن معاوية القاضي]:

وقيل: إن إياس بن معاوية القاضي كان من أكابر العقلاء، وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد إليها، فكان من جملة الوقائع التي صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر القادح، إنه كان في زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة، فاتفق أن رجلاً أراد أن يحج فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيساً فيه جملة من الذهب، ثمّ حج فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره وجحده، فجاء إلى القاضي إياس وقصّ عليه القصة، فقال له القاضي: هل أخبرت بذلك أحداً غيري؟ قال: لا، قال: فهل علم الرجل أنك أتيت إليّ؟ قال: لا قال: فانصرف واكتم أمرك ثمّ عد إليَّ بعد غد، فانصرف، ثمّ إن القاضي دعا ذلك الرجل المستودع، فقال له: قد حصل عندي أموال كثيرة ورأيت أن أودعها عندك، فاذهب وهيئ لها موضعاً حصيناً،

فمضى ذلك الرجل، وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل، فقال له القاضي إياس امض إلى خصمك واطلب منه وديعتك فإن جحدك فقل له امض معي إلى القاضي أياس أتحاكم أنا وأنت عنده، فلما جاء إليه دفع إليه وديعته، فجاء إلى القاضي وأعلمه بذلك، ثمّ إنّ ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضي طامعاً في تسليم المال فسبّه القاضي وطرده، وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره.

ولمّا مات بعض الخلفاء اختلفت الروم، واجتمعت ملوكها فقالوا: الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض فتمكننا الغرة منهم والوثبة عليهم وعقدوا لذلك المشورات وتراجعوا فيه بالمناظرات، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر، وكان رجل منهم من ذوي العقل والمعرفة والرأي غائباً عنهم، فقالوا: من الحزم عرض الرأي عليه، فلما أخبروه بما أجمعوا عليه، قال: لا أرى ذلك صواباً فسألوه عن علة ذلك، فقال: في غدٍ أخبركم إن شاء الله تعالى، فلما أصبحوا أتوا إليه وقالوا: قد وعدتنا أن تخبرنا في هذا اليوم بما عوّلنا عليه، فقال: سمعاً وطاعة، وأمر باحضار كلبين عظيمين كان قد أعدّهما، ثمّ حرّش بينهما وحرّض كل واحد منهما على الآخر فتواثبا وتهارشا حتّى سالت دماؤهما، فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلبين ذئباً كان قد أعده لذلك، فلما أبصراه تركا ما كانا عليه وتألّفت قلوبهما ووثبا جميعاً على الذئب فقتلاه، فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال: مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب لا يزال الهرج بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدّو من غيرهم فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتألّفوا على العدو. فاستحسنوا قوله واستصوبوا رأيه فهذه صفة العقلاء.

* * *

ومما جاء في المجلد الأوّل من كتاب (الأخلاق في حديث واحد):

[خلق العقل من النور]:

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله تعالى خلق العقل من نور مخزون في سابق علمه، الذي لم يطلع عليه نبي مرسل، ولا ملك مقرّب، فجعل العلم نفسه، والفهم روحه، والزهد رأسه، والحياء عينه، والحكمة لسانه، والرأفة همّته، والرحمة قلبه، ثمّ إنه حشّاه وقوّاه بعشرة أشياء: اليقين، والإيمان، والصدق والسكينة، والوقار والرفق، والتقوى والإخلاص، والعطيّة والقنوع، والتسليم والرضا والشكر، ثمّ قال له: أقبل فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال: تكلم فتكلم، فقال: الحمد لله الذي ليس له ضدّ ولا مثيل ولا شبه ولا كفو، ولا عديل، الذي كل شيء لعظمته خاضع ذليل، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحسن منك، ولا أطوع لي منك، ولا أرفع ولا أشرف منك، ولا أعزّ عليّ منك، بك أوحدّ، وبك أعبد، وبك أدعى، وبك أرتجى، وبك أبتغى، وبك أحذر، وبك الثواب، وبك العقاب، فخرّ العقل ساجداً، وكان في سجوده ألف عام، فقال تعالى: ارفع رأسك وسلْ تُعطى، واشفع تشفع، فرفع العقل رأسه، فقال: إلهي أسألك أن تشفعني فيمن جعلتني فيه، فقال الله تعالى للملائكة: أشهدكم إني قد شفّعته فيمن خلقته فيه».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يكون المؤمن عاقلاً، حتّى تجتمع فيه عشر خصال: الخير منه مأمول، والشر منه غير مأمول، يستكثر قليل الخير من غيره، ويستقل كثير الخير من نفسه، لا يسأم من طلب العلم طول

عمره، ولا يتبرم لطلب الحوائج من قبله، الذل أحبّ إليه من العز، والفقر أحب إليه من الغنى نصيبه من الدنيا القوت والعاشر لا يرى أحداً إلاّ قال: هو خير مني وأتقى».

وقيل: لكل أدب ينبوع، وينبوع الأدب العقل، جعله الله لمعرفته وللدين أصلاً، وللملك والدنيا عماداً، وللسلامة من المهلكات معقلاً، فأوجب الله لهم التكليف بإكماله وجعل أمر الدنيا مدراً به، وألّف به بين خلقه مع اختلافهم، ومتباين أغراضهم ومقاصدهم، وما استودع الله أحداً عقلاً إلاّ استنقذه به يوماً، والعقل أصدق مشير وأنصح خليل، وخير جليس، ونعم الوزير، وخير المواهب العقل، وشرها الجهل.

إذا تمّ عقل المرء تمت أموره وتمت أياديه وتمّ ثناؤه

[أحاديث في مدح العقل]:

وعن أبي حمزة السعدي عن أبيه قال: أوصى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى الحسن بن عليّ عليه السلام قال: «يا بني لا فقر أشد من الجهل، ولا عدم أشد من عدم العقل، ولا وحشة أوحش من العجب، ولا حسب كحسن الخلق، ولا ورع كالكفّ عن محارم الله، ولا عبادة كالتفكّر في صنعة الله ﷻ، يا بني، العقل خليل المرء، والحلم وزيره، والرفق والده، والصبر من خير جنوده، يا بني لا بدّ للعاقل أن ينظر في شأنه، فليحفظ لسانه، وليعرف أهل زمانه، يا بني إن من البلاء الفاقة، وأشدّ من ذلك مرض البدن، وأشدّ من ذلك مرض القلب، وإن من النعم سعة المال، وأفضل من ذلك صحة البدن، وأفضل من ذلك تقوى القلوب، يا بني، للمؤمن ثلاث ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة

يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بين نفسه ولذّتها فيما يحلّ ويحمد، وليس للمؤمن بدّ من أن يكون شاخصاً في ثلاث: مرمّة لمعاش، أو خطوة لمعاد، أو لذة في غير محرم».

ومن أقوال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق».

«لا مال أعود من العقل، ولا عقل كالتدبير».

«الحلم غطاء سائر، والعقل حسام باتر، فاستر خلل خلقك بحلمك، وقاتل هواك بعقلك».

«لا عدّة أنفع من العقل، ولا عدوّ أضرّ من الجهل».

«زينة الرجل عقله».

«قطيعة العاقل تعدل صلة الجاهل».

«من لم يكن أكثر ما فيه عقله، كان أكثر ما فيه قتله».

«الجمال في اللسان، والكمال في العقل، ولا يزال العقل والحمق يتغالبان على الرجل إلى ثمانية عشر سنة، فإذا بلغها غلب عليه أكثرهما».

«العقول أئمّة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمّة الحواس، والحواس أئمّة الأعضاء».

وقال النبي صلى الله عليه وآله: «لكل شيء آلة وعدّة، وآلة المؤمن وعدّته العقل، ولكل شيء مطيّة، ومطيّة المرء العقل، ولكل شيء غاية وغاية العبادة العقل، ولكل قوم راعي، وراعي العابدين العقل، ولكل تاجر بضاعة، وبضاعة المجتهدين العقل، ولكل خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل، ولكل سفر فسطاط يلجأون إليه، وفسطاط المسلمين، العقل».

وقال صلى الله عليه وآله: «استرشدوا العقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا».

وقال ﷺ: «سيد الأعمال في الدارين العقل، ولكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته لربّه».

ومن كلام سيد البلغاء، إمامنا عليّ عليه السلام:

«العقول ذخائر، والأعمال كنوز».

«من صحب جاهلاً نقص عقله».

«التثبت رأس العقل، والحدّة رأس الحمق».

«غضب الجاهل في قوله، وغضب العاقل في فعله».

«العقول مواهب، والآداب مكاسب».

«فساد الأخلاق معاشرة السفهاء، وصلاح الأخلاق معاشرة العقلاء».

«العاقل من وعضته التجارب».

«رسولك ترجمان عقلك».

«من ترك الاستماع من ذوي العقول، مات عقله».

«من جانب هواه صحّ عقله».

«من أعجب برأيه ضلّ، ومن استغنى بعقله ذلّ، ومن تكبر على الناس ذلّ».

«إعجاب المرء بنفسه، دليل على ضعف عقله».

«عجباً للعاقل كيف ينظر إلى شهوة يعقبها النظر إليها حسرة».

«همّة العقل ترك الذنوب، وإصلاح العيوب».

الاستدلال على عقل الإنسان:

منها: ميله إلى محاسن الأخلاق، وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته في ابتداء صنائع المعروف، وتجنبه عما يكسب عاراً، ويورثه شناراً.

وقال أحد الحكماء: العاقل من عقله في إرشاد، ورأيه في امداد، فقوله سديد، وفعله حميد، والجاهل من جهله في إغراء، فقوله سقيم، وفعله ذميم.

[كرم العجوز ورجاحة عقلها]:

ومنها ما يدل على تمام العقل، ما روي عن تميم بن عدي اليربوعي، إذ قال: كنت مع عبد الله بن العبّاس عند منصرفه من دمشق، فسألته في بعض الأيام وقلت له: بماذا يتم عقل الرجل؟ فقال: إذا صنع المعروف مبتدءاً به، وجاد بما هو محتاج إليه، وتجاوز عن الزلة، وجازى على المكرمة، وتجنب مواطن الإعتذار، فقد تمّ عقله، فحفظت ذلك منه وألصقته بقلبي، ثمّ بعد أيام نزلنا منزلاً، فطلبنا طعاماً فلم نجده، ولا قدرنا عليه، فإن زياداً قد نزل بذلك المنزل قبلنا، بأيام قليلة، في جمع كثير، فأتوا على ما كان فيه من الطعام، فقال عبد الله لوكيله: أُخرج إلى هذه البريّة فلعلك تجد فيها راعياً معه طعام، فمضى الوكيل ومعه غلمان فطالوا التوقف، ولما كادوا يرجعون لاح لهم خباء فأمّوه، فوجدوا فيه عجوزاً، فقالوا لها: هل عندك طعام نبتاعه منك؟ فقالت: أما طعام بيع فلا، ولكن عندي أكلة لي وبأولادي إليها أمسّ حاجة، قالوا: وأين أولادك؟ قالت: في رعيهم، وهذا وقت عودهم، قالوا: فما أعددتِ لهم؟ قالت: خبزة تحت ملئتها _ والملئة الرماد الحار _ انتظر بها أن يجيئوا، قالوا لها: فجودي لنا بنصفها، قالت: لا ولكن بكلها، قالوا: ولِمَ مَنعتِ النصف وجدتِ بالكل ولا خبز عندك غيرها؟! قالت: إن إعطاء الشطر من خبزة نقيصة، وإعطاء الكل فضيلة، فأنا أمنع ما ينقصني وأجود بما يرفعني، فأخذوا الخبزة لفرط حاجتهم إليها.

فلما اتوا عبد الله أخبروه خبر العجوز، قال: ارجعوا إليها فاحملوها في دعة واحضروها، فرجعوا إليها وقالوا لها: إن صاحبنا أحبّ أن يراك، قالت: ومن هو

صاحبكم؟ قالوا: عبد الله بن العبّاس: قالت: ما أعرف هذا الاسم! قالوا: العبّاس بن عبد المطلب، وهو عم النبي ﷺ قالت: والله هذا الشرف العالي، قَومي أنصارُهُ قالوا: نعم، قالت: فما يريد مني؟ قالوا: يريد أن يكافئك على ما كان منك، قالت: لقد أفسد الهاشمي ما أثل له ابن عمه، والله لو كان ما فعلت معروفاً، ما أخذت عليه ثواباً، وإنما هو شيء يجب على كل إنسان أن يفعله، قالوا: فإنه يحب أن يراك، ويسمع كلامك، قالت: أصير إليه، لأني أحب أن أرى رجلاً من جناح النبي ﷺ وعضواً من أعضائه، فلما سارت رحّب بها وأدنى مجلسها، وقال: ممن أنت؟ قالت: من كلب بن وبره، قال: كيف حالك؟ قالت: لم يبق من الدنيا ما يفرح إلاّ وقد بلغته، وإني الآن أعيش بالقناعة وأصون القرابة، وأنا أتوقع مفارقة الدنيا صباحاً ومساءاً، قال: أخبريني ما الذي أعددت لأولادك عند انصرافهم بعد أخذناه الخبزة؟ قالت: أعددت لهم قول العربي:

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتّى أنال به كريم المأكل

فاعجبه قولها، فقال لأحد غلمانه: انطلق إلى خبائها، فإذا أقبل بنوها فجئني بهم، فقالت للغلام: انطلق وكن بفناء البيت، فإنهم ثلاثة، فإذا رأيتهم تجد أحدهم دائم النظر نحو الأرض، عليه شعار الوقار، فإذا تكلم أفصح، وإذا طلب أنجح، والآخر حديد النظر كثير الحذر، إذا وعد فعل وإذا ظلم قتل، والآخر كأنه شعلة نار، كأنه يطلب بثار، فذاك الموت المائت والداء الكابت، فإذا رأيت هذه الصفة فيهم، فقل لهم عني لا تجلسوا حتّى تأتوني، فانطلق الغلام فأخبرهم الخبر، فما بعد أمده حتّى جاؤوا، فأدناهم عبد الله وقال: إني لم أبعث إليكم وإلى والدتكم، إلاّ لأصلح من أمركم، وأصنع ما يجب لكم، فقالوا: إنّ هذا لا يكون إلاّ عن مسألة أو مكافاة فعل جميل تقدم، ولم تصدر منا واحدة منهما، فإن

كنت أردت التكرم مبتدءاً فمعروفك مشكور وبرك مقبول مبرور، فأمر لهم بسبعة آلاف درهم وعشر من النوق، فقالت لهم العجوز: ليقل كل واحد منكم بيتاً من قوله:

فقال الأكبر:

شهدت عليك بحسن المقال ... وصدق الفعال وطيب الخبر

وقال الأوسط:

تبرعت بالبذل قبل السؤال ... فعال كريم عظيم الخطر

وقال الأصغر:

وحقّ لمن كان ذا فعله ... بأن يسترق رقاب البشر

وقالت العجوز:

فلله درك من ماجد ... ووقيت ما عشت شرّ القدر

ثمّ دعوا له وانصرفوا. قال تميم اليربوعي: فالتفت إليّ وقال: يا تميم وددت لو وجدت مزيداً في ابتداء المعروف إلى هذه المرأة وبنيها، وجعل يتأوه من تقصيره عن مراده في ذلك، فقلت له: لقد أحسنت وأرجحت، وقد شهد فعلك بما سبق من قولك، فأنت أتمّ الناس عقلاً وأكملهم مروّة.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «العاقل من كان ذلولاً عند إجابة الحق، منصفاً بقوله، جموحاً عند الباطل، خصماً بقوله، يترك دنياه ولا يترك دينه، ودليل العقل شيئآن: صدق القول وصواب الفعل، والعاقل لا يتحدّث بما ينكره العقل، ولا يتعرض للتهمة، ولا يدع مداواة من ابتلى به، ويكون العلم دليله في أعماله، والحلم رفيقه في أحواله، والمعرفة

تعينه في مذاهبه، والهوى عدو العقل، ومخالف الحق، وقرين الباطل، وقوة الهوى من الشهوة، وأصل علامات الشهوة أكل الحرام، والغفل عن الفرائض والإستهانة بالسنن، والخوض في الملاهي».

وقال عليه السلام: «أفضل طبائع العقل العبادة، وأوثق الحديث له العلم، وأجزل حظوظه الحكمة، وأفضل ذخائره الحسنات».

قال صاحب حكمة القلوب، عن شيخ السالكين وزين العابدين، وقدوة المؤمنين، الشيخ الزاهد، أحمد بن فهد قدس سره:

[مثل المؤمن كالمدينة تحوطها أسوار]:

مثل المؤمن كمثل مدينة وحولها أسوار، أحاطت بها، وقلبه في تلك المدينة كالقصر للملك، والإيمان في قلبه كمثل الملك في ذلك القصر، وللملك سرير وهو التوحيد، وله تاج وهو المحبة، وله وزير وهو العقل، وله حاجب وهو التقوى، وله صاحب وهو العلم، وله نديم وهو الزهد، وله صاحب سرٍّ وهو الذكر، وله علم وهو الأنس، وله سراج وهو الحكمة، وله سيف وهو الحق، وله درع وهو التوكل، وله رسول وهو الصدق، وله منار وهو الاقرار، وله سجن وهو الخوف، وله دليل وهو الفراسة، وله بواب وهو المراقبة، وله غلق على باب المدينة وهو الصبر، وتحته جنان الشكر، وله جنود ينصحونه، وأصحاب لا يخالفونه.

فبينما هو في قصره معتكفاً على أمره ونهيه، إذ أقبل بعض جماعته المشفقين عليه، وقالوا له: أيها الملك الكريم، إن الشيطان الرجيم قد أقبل وتوجّه إليك في جيش عظيم، فاحترس في قصرك، واستعد في مدينتك، فأنا نظنه في غداة غدٍ إليك واصل، وعلى مدينتك نازل، وعن حربك غير ناكل، فنادى الملك

في جماعته وأهل النصح من خاصته، وهو العقل الخطير، وقال له: بماذا تشير؟ فقال: نحفر حول مدينتنا خندقاً من الزهد، فإنه لبأس عدوّنا يصدّ، ولكيده يرد، فسارعوا بحفره بمعاول القلق، وأطلقوا في مجاريه دموع الأرق، فلما أحاط الخندق بالمدينة أنشأ الملك في الحال شعراً:

ولما أحاطت بي جنود وساوسي ... حفرت لزهدي حول قصري خندقا
حفرناه في أرض التودد والصفا ... وأجريت فيه دمع عيني تدفقا
وصابرت وجدي واعترفت بخالقي ... وأصبحت من أسر المكاره مطلقا

فبينما هو كذلك إذ علت غارة الباطل، وأقبل العدو بين فارس وراجل، فنزل الهوى عن يمين المدينة، وضرب خيامه ودقّ طبوله، ونشر أعلامه، وكانت جنوده عشرة: وهي: الحسد والكبر والعجب والتجبّر، والغل والمخالفة، والبغض والحقد والغدر، والوسوسة في الصدر، ونزلت النفس عن شمال المدينة، وكانت جنودها عشرة وهي: الحرص والشهوة، والرغبة والقسوة، والزيغ والشح والبخل، والطمع والأمل والكسل، ونزل حب الدنيا أمام المدينة، وكانت جنوده عشرة وهي: الرياء والتفاخر والتكاثر، والبطر واللهو، واللعب والزور والكذب والغش، والخديعة والتفريط في الشريعة، ونزل إبليس (لعنه الله) من وراء المدينة وكانت جنوده عشرة، وهي: الظلم والخيانة، وترك ردّ الأمانة، والكفر والنفاق، والإفك والشقاق، والعداوة بين الأهل والجيران، وحب الزينة والمال، ومعصية ذي الجلال، فقال الملك لما أبصر وارتاع وتحيّر شعراً:

إني بليت بأربع ما سلّطوا ... إلاّ لعظم بليتي وشقائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... والله ينصرني على أعدائي

إبليس يسعى في سبيل مهالكي والنفس تأمرني بكل بلائي
وجنودهم حاطوا بحول مدينتي يا عدتي في شدتي ورجائي

فأجابه وزيره وهو يقول:

لا تجزعن لما أبصرتَ حلّ بنا فحول بلدتنا القرآن يحرسنا
ونحن في ستره من كل ناحية فنسأل الله أن للخير وفقنا
فمذ عرفناه صافانا مودته لكن ينكّرنا من ليس يعرفنا
ومن يكن ناسياً إبليس يؤتيَه ونحن نذكره والله يذكرنا

ثمّ إن الملك نادى يا غياث المستغيثين، ويا أمان الخائفين، ويا صريخ المكروبين، ويا رجاء المنقطعين، ويا دليل المتحيرين، ويا منقذ الهالكين، ويا إله العالمين فثبت الله جنانه وشدّ أزاره وأركانه، وقال للوزير وهو العقل: كن أنت في مقابلة الهوى، واطلب النصر من المولى، وقد سلّمت مدينتي إليك، واعتمدت في حفظها عليك، فقال: انتدب لي اخواناً ليكونوا لي على العدو أعواناً، فضمّ إليه من جنوده عشرة، وهي: محبة الخلق والتواضع، وحسن الخلق والتيقظ، والإيثار والنصيحة، والوفاء والثبات، والتجنّب عن الخلق والذكر، وسلّم الجانب الثاني إلى حاجبه وهو التقوى، وقال له: كن أنت في مقابلة النفس، وسلّم إليه من جنوده عشرة، وهي: التوكل والعفاف، والصفاء والبذل، وغضّ الطرف عن المأثم، وذكر الموت والسكينة، والوقار والقناعة، والمبادرة إلى الطاعة، وسلّم الجانب الثالث إلى نديمه وهو الزهد، وقال له: كن أنت في مقابلة الدنيا، وضمّ إليه من جنوده عشرة، وهي: الاخلاص وطلب الحلال، والاقتصاد والشكر، والخوف من عذاب الله تعالى، والتوبة والصدق، ونصيحة الخلق، والأدب والوفاء ورفض هذه الدنيا.

وسلّم الجانب الرابع إلى صاحب سرّه وهو الذكر، وقال له: كن أنت في مقابلة الشيطان، وضمّ إليه من جنوده عشرة، وهي: العدل والديانة، والأمان والأمانة، والإحسان والحلم، والتواضع والإستغفار، وترك الإصرار والتهجد بالأسحار، وحفظ الملك باب المدينة واستغاث بحول الله وقوته، فلما استتم قراره، نادى إبليس (لعنه الله) في خيله ورجاله، ونصب على المدينة منجنيقات البهتان، وعرّادات الجحود والطغيان، فقابلوها بمنجنيقات التوحد، وعرّادات التحميد، وزحف العدو إلى الخيام ورشقوا جنود الملك بالسهام، فخرج إليهم من القوم مرهجة الظلام، وأشعلوا مشاعل الحكمة بالأحكام، وأقام على أبراج المدينة حرّاس الزهد، وقدّموا عليها وقاية التوبة، فلما بدا صفو الصباح، وهزوا الرماح، وتدانوا للكفاح، فعند ذلك رفع الملك يده إلى السماء وابتهل إلى الله في الدعاء وقال شعراً:

وقد بلغ الأمر منتهاه وحلّ في مثل ما تراه
من لم يكن له غيره فكيف أشكو إلى سواه
يا لائمي في هواي هواه لذ بالمقام الذي تراه
ما بال سقمي أذاب جسمي شوقي وجسمي كما تراه

ثمّ قال لجنوده: أبرزوا إليهم فإن الله ينصركم عليهم، فما أنتم أقلّ منهم عدداً، ولا أضعف منهم مدداً، وفتحت أبواب المدينة، وبادر كل قرين إلى قرينه فأيدهم الله بالنصر والسكينة، وألقى في قلوب الأعداء الرعب والهلع، فولوا مدبرين، ومما أملوه خائبين، وسرت جنود الملك في أثرهم مجهزين ولهلاكهم طالبين، فمنهم من قتلوه ومنهم من أسروه

فالتجأت النفس إلى حصن المدينة، فأحاطوا بها ونازلوها، وحاصروها وضايقوها، وأنشدوا في هذا المعنى شعراً:

أتى العقل في جيش عظيم عرمرم فوافق من أهل الهوى كل مقرم

ونادى أحاد العسكرين كلاهما ألا فاسلمي يا أيها النفس تسلم

فما سلمت خوفاً عليها ولالها فقال التقى يا ويكِ توبي وسلم

فعند ذلك دخلت في الطاعة والتسليم، ونزلت على الرغم في حكم العزيز الحكيم.

وصايا في العقل:

في المجلد الأوّل من (أصول الكافي) عن أبي عبد الله الأشعري، عن بعض أصحابنا، رفعه عن هشام بن الحكم، قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: «يا هشام إن لكل شيء دليلاً، ودليل العقل التفكر، ودليل التفكر الصمت، ولكل شيء مطيّة ومطيّة العقل التواضع، وكفى بك جهلاً أن تركب ما نهيت عنه.

يا هشام، ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلاّ ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

يا هشام، إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة عليهم السلام، وأما الباطنة فالعقول.

يا هشام، من سلّط ثلاثة على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله، من أظلم نور تفكّره بطول أمله، ومحا طرائق حكمته بفضول كلامه،

وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه.

يا هشام، الصبر على الوحدة علامة قوة العقل، فمن عقلَ عن الله اعتزلَ أهل الدنيا والراغبين فيها، ورغب فيما عند الله، وكان الله أنسه في الوحشة، وصاحبه في الوحدة، وغناه في العيلة، ومعزّه من غيرعشيرة.

يا هشام، نُصبَ الحق لطاعة الله، ولا نجاة إلاّ بالطاعة، والطاعة بالعلم، والعلم بالتعلّم، والتعلّم بالعقل، ولا علم إلاّ من عالم ربّاني، ومعرفة العلم بالعقل.

يا هشام، قليل العمل من عالم مقبول مضاعف وكثير العمل من أهل الهوى والجهل مردود.

يا هشام، إن العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة، ولم يرضَ بالدون من الحكمة مع الدنيا، فلذلك ربحت تجارتهم.

يا هشام، إن العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف الذنوب، وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض.

يا هشام، إن العاقل نظر إلى الدنيا وإلى أهلها، فعلم أنها لا تنال إلاّ بالمشقة، ونظر إلى الآخرة فعلم أنها لا تنال إلاّ بالمشقة، فطلب بالمشقة أبقاهما.

يا هشام، إن العقلاء زهدوا في الدنيا، ورغبوا في الآخرة؛ لأنهم علموا أن الدنيا طالبة ومطلوبة، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتّى يستوفي منها رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة فيأتيه الموت فيفسد عليه دنياه وآخرته.

يا هشام، من أراد الغنى بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين، فليتضرع إلى الله ﷻ في مسألته بأن يكمل عقله، فمن عَقلَ قنع بما يكفيه، ومن قنع بما يكفيه إستغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه إستغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبداً.

يا هشام، إن الله حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا: ﴿رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهّابُ﴾[١] حيث علموا أن القلوب تزيغ، وتعود إلى عماها ورداها.

يا هشام، إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: إن من علامة العاقل أن تكون فيه ثلاث خصال: يجيب إذا سئل، وينطق إذا عجز القوم عن الكلام، ويشير بالرأي الذي يكون فيه صلاح أهله، فمن لم يكن فيه من هذه الخصال الثلاث شيء فهو أحمق.

وقال عليّ بن الحسين عليه السلام: مجالسة الصالحين داعية إلى الصلاح، وآداب العلماء زيادة في العقل، وطاعة ولاة العدل تمام العز، واستثمار المال تمام المروّة، وإرشاد المستشير قضاء لحق النعمة، وكفّ الأذى من كمال العقل، وفيه راحة البدن عاجلاً وآجلاً.

يا هشام، إنّ لقمان قال لابنه: تواضع للحق تكن أعقل الناس، وإن الكيس لدى الحق يسير، يا بني إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيها عالم كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل، وقيّمها العقل، ودليلها العلم، وسكّانها الصبر».

[الجهل هو الداء العضال]:

قوله عليه السلام: «لا فقر كالجهل».

الجهل هو الداء العضال، وإزالته في غاية الصعوبة، وقد اعترف أطباء النفوس بالعجز عن معالجته، وهو رأس الفضائح، ومعدن القبائح،

---

(١) آل عمران: ٨.

ومضمار العثار، وهو الدليل على غلظ الطبع وجمود الخاطر، وفساد التركيب، واعتلال الذهن، وكذب النفس، وخبث الطوية.

* * *

وفي (الرياض الخزعلية):

قال بعض الحكماء: عمى الجهل أشد من عمى العين؛ لأن الأعمى يتوقّع أن يعثر فيما ارتفع من الأرض، أو يسقط فيما انخفض منها، والجهل ربما عثر فيما لا يستقيل منه ووقع فيما لا يخرج له عنه.

كان الخليل بن أحمد يحب أن يرى ابن المقفّع، وكان ابن المقفّع يحب ذلك، فجمعهما عبّاد بن عبّاد المهلبي، فتحادثا ثلاثة أيام ولياليهنّ، فقيل للخيل: كيف رأيت عبد الله؟ قال: ما رأيت مثله علمه أكثر من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ قال: ما رأيت مثله عقله أكثر من علمه. قال المغيرة: فصدقا، أدّى عقل الخليل إلى أن مات أزهد الناس، وجهل ابن المقفع أداه إلى أن كتب أماناً لعبد الله ابن عليّ، فقال فيه: ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق، ودوابه حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حلٍّ من بيعته، فاشتّد ذلك على المنصور جداً، وخاصة أمر البيعة، فكتب إلى سفيان بن معاوية المهلبي، وهو أمير على البصرة من قبله بقتله فقتله.

وقيل: إن أعرابياً وليّ قضاء بلدة، فخطب وقال: لا والله إني لا أوتى بظالم أو بمظلوم إلا أوجعتهما ضرباً، فأنصف الناس بعضهم بعضاً، وتراضوا بينهم ولم يرفعوا إليه أمورهم خوفاً من عقوبته وظلمه وشرّه وسخوفة عقله وضيعة لبّه، وجهله في عامة الأحكام.

وقال الجاحظ: بلغني أن شيخاً من الوراقين خثرت عليه الدواة وغلظت، فبال في المحبرة وكتب منها في المصحف، والماء غير بعيد منه.

[أقسام الجهل]:

وكما ينقسم العقل إلى غريزي ومكتسب فالجهل أيضاً ينقسم إلى بسيط ومركّب:

أما القسم الأوّل: وهو البسيط: فهو نقصان العقل المكتسب، وفقدان التجربة، ويطلق عليه التغفل، ومنه البله وأمثاله، والجاهل البسيط إذا نبّه على خطأه عَلِمَهُ، وذلك لسلامة الغريزة.

قيل في المثل: أبله من باقل، هو رجل من ثعلبة اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً، فسئل عن ثمنه ففتح يديه وأخرج لسانه، يريد بذلك أحد عشر درهماً فهرب الظبي من يده، ونظير ذلك أن رجلاً من أهل الشام مضى إلى نجار يصنع له باباً، فقال: ائتني بمقدار العرض، فقدّره بباعه وفتح يديه وأتى إلى النجار وهو في عرض الطريق يدفع الناس بصدره ويقول: تنحوا عن الإندازة، فدفعه رجل من قفاه فوقع إلى الأرض ويداه مبسوطتان، فقال لرجل يا أخي اقبضني من ذقني وأقمني حتّى لا تخرب الإندازة، فقبضه من لحيته وأقامه.

ومن ذلك أن هشام ابن عبد الملك عرض الجند، فتقدم رجل جيئ بفرس كلما قدّمه يتأخر، فقال له هشام: ما هذا؟ قال: يا سيدي فاره ولكنه شبّهك ببيطار كان يعالجه فنفر.

وتغدّى أبو السريان عند سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ وليّ عهد أبيه، فقدم أمامه جدياً وقال: كل من كليته فانها تزيد في الدماغ، فقال: لو كان كما يقول الأمير لكان رأسه مثل رأس البغل.

وأهدى ابن الجصاص إلى العبّاس ابن الحسين الوزير نبقاً وكتب معه:

تفيّلت بأن تبقى   فأهديت لك النبقا

فكتب له الوزير ما تفيّلت ولكن تبقّرت.

وتولى بعض المتفقهين القضاء، فأرسل إلى من ولاه هدية وأسل معها مكتوباً مضمونه بعد السلام على مولانا، الواصل لكم هدية خروفين وسرموجتين، الوالي خروف، وسرموجة، والنائب خروف وسرموجة، فلما وصل الوالي مكتوبه أمر بعزله وتحقيره واخراجه من القرية.

ورأى بعض البلهاء بالنجف رجلاً يشتكي فكّه، فقال له: أداويك بالكي، فقال له الرجل: من أين علمت ذلك؟ فقال: عندنا حمار قد ورم فكه فكويته بحديدة فعافاه الله تعالى.

وقيل: إن رجلين من طلبة العلم سافرا فنزلا على رجل من الأعراب، وكان اسم كل منهما الشيخ محمّد، فسأل الرجل صاحب المكان أحدهما عن اسمه؟ فقال: محمّد، ثمّ سأله عن اسم صاحبه فقال كذلك، فجعل صاحب المكان إذا خاطبهما يقول لأحدهما يا شيخ محمّد ويقول للآخر يا شيخ كذلك.

ومن الحمقى: الأحوص بن جعفر بن عمرو بن جريث، قال يوماً مجالسوه: ما بال وجهك أصفراً تشتكي شيئاً؟ فرجع إلى أهله فقال: يا بني الخيبة أنا شاكٍ ولا تُعلمونني، اطرحوا عليَّ الثياب وابعثوا إلى الطبيب.

وقيل لرجل عند موته: قل لا إله إلاّ الله، فأعرض، فأعادوا عليه، فقال لهم: أخبروني عن النعمان بن المنذر ملك الحيرة أقالها عند موته؟ فقيل له: وما أنت والنعمان؟ فقال: أرغب لنفسي عن ذلك الشريف.

وقال رجل: لا كاره إذا زرعت القطن فأزرعه محلوجاً، وأزرع معه شيئاً من الصوف.

وسمع بعض المغفلين رجلاً يقرأ بيتاً من قصيدة للمهيار في رثاء الرضي وهو:

بكر النعى فقال أودى خيرها   إن كان يصدق فالرضي هو الردى

فقال المغفّل إنما الردي هو وأبوه.

ومثل ذلك أن بعض المغفلين سمع رجلاً ينشد:

وكان بنو عمي يقولون مرحباً   فلما رأوني معدماً مات مرحبا

فقال: كذب الشاعر مرحب قتله عليّ بن أبي طالب، ولم يمت إلاّ قتلاً.

وعن ابن الجوزي قال: كان لبعض المغفلين حمار، فمرض الحمار فنذر إن عوفي حماره صام عشرة أيام، فعوفي وصام، فلما انقضى صيامه مات حماره، فقال: يا رب أهكذا تفعل لما تم صيامي أمتّ حماري، ولكن دع رمضان يأتي فأخذ منه عشرة أيام لا أصومها.

قرأ بعض المغفلين «في بيوت أذن الله» بالرفع، فقال: شخص إنما هو بالجر، فقال له: يا جاهل إذا كان الله تعالى يقول في بيوت أذن الله أن ترفع تجرها أنت لماذا؟

دخل بعض الأعراب المدينة، فحصره البول والغائط، فسأل عن خلاء يتخلاّ فيه، فدلّ على جامع، فدخل يريد بيت الخلاء وقد دخل وقت الصلاة، فرأى الناس مزدحمين في بيوت الأخلية فوقف على باب كنيف يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة ما هو فيه من الحصر، فطال عليه الوقوف واشتد به الأمر، فهجم على الرجل الذي في الكنيف وقبض على أطوافه ورفع ثيابه وجلس

بجانبه، وقال له: هي نقرة طويلة أخري أنا وإياك فيها كل واحد من جانب ولم يزل قابضاً على الرجل حتّى قضى حاجته وقام يجري من غير استنجاء والناس يضحكون عليه حتّى غاب عنهم.

[حكايات لبعض الجهلاء]:

ومن المعروفين بالحماقة ونقص العقول، معلمو المكاتب، وقلما يوجد معلم إلاّ وفيه نقص وإن أعجبك ظاهره، قيل لمعلم من أهل المكاتب: ما اسم أم موسى؟ فقال: فارغاً، فقيل له: من أين ذلك؟ قال من قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾[1].

وحكي أن معلماً أتاه صبي من أهل مكتبه، فقال: يا معلم إن في بطن الجب صبي يلعب في الماء، ولما نظرت إليه خفت وأخذ مني خبزة كانت في يدي، فأتى المعلم إلى الجب ونظر إلى الماء فيه فقال: هذا الذي رأيته أنت في الجب هو رجل شيخ والظاهر أنه سارق.

وحكي أن امرأة غاب ولدها فأتت معلماً وقالت: تفأل لابني في المصحف فإنه قد طالت غيبته عني، فطلع فاله «وحسن مات» فقال لها: ابنك حسن؟ قالت: نعم فما يدريك بذلك؟ قال: هذا القرآن يقول: «وحسن مات»، فصرخت وشقت أثوابها ومضت إلى بيتها حزينة كئيبة، فاجتمع أهله فأقاموا مأتماً عليه.

قال أحمد بن دليل: مررت يوماً بمعلم يعلم صبياناً وبين يديه صبي وهو يقول: الإنجيل من خلقه؟ قال: موسى ابن عمران، قال: فالبعير من دوّر البعرة في أسته؟ قال: شيطان يقال له الخرا قال: أحسنت، وآدم من أبوه؟ قال: نوح، قلت:

---

(١) القصص: ١٠.

إنما نوح من أولاد آدم، قال: تعرّفني بآدم وأنا أبو عبد الله المعلم، يا صبيان كرفسوه فكرفسوني وضربوني حتّى صرت أبلقاً فحلفت أن لا أقف على معلم.

وقيل لمعلم ابن معلم: ما لك أحمق؟ فقال: لو لم أكن أحمقاً لكنت ولد زنا، ونعم ما قال فإن الولد على سر أبيه.

قال الجاحظ: مررت بمعلم وعنده عصاة طويلة، وعصاة قصيرة، وصولجان، وطبل، وبوق، فقلت له: ما هذه العدة؟ قال: عندي صغار في المكتب فأقول لأحدهم اقرأ لوحدك فيصفر لي بضرطةٍ فأضربه بالعصاء القصيرة، فيتأخر فأضربه بالعصاء الطويلة، فيفرّ من بين يدي فأضع الكرة في الصولجان وأضربه فأشجّه، فتقوم إليّ الصغار كلهم بالألواح، فأعلق الطبل في عنقي والبوق في فمي، فأضرب الطبل وأنفخ في البوق فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إليّ ويخلّصوني منهم.

وحكى الجاحظ قال: أتت امرأة إلى معلم بابنها، قالت: إن ابني لا يطيعني فأحب أن تَفزَعه، وكان المعلم طويل اللحية، فأخذ لحيته وحطها في فمه وحرّك رأسه وصاح صيحة فضرطت المرأة من الفزع فقالت: إنما قلت لك فزّع الصبي ما قلت لك فزعني، فقال لها: يا حمقاء أما علمت أن العذاب إذا نزل بقوم هلك الصالح والطالح.

وعنه عليه السلام: «لا تستشر الحوكة ولا المعلمين فإن الله سلبهم عقولهم» يعني به نقصان عقولهم.

وذكر العالم الرباني الشيخ كمال الدين ميثم البحراني في توجيهه: إن المعلم عقله وحواسه متفرقة إلى التوجه إلى تدبير أمور الصبيان، فلم يبق له من العقل والتدبير ما يصرفه في غيرهم، وكذلك الحائك بالنسبة إلى الخيوط المختلفة وصرف الفكر فيها.

[الجهل المركب]:

وأما القسم الثاني: وهو نقصان أصل الغريزة، ويطلق عليه الجهل المركب والحماقة، والفرق بين الجهل البسيط والمركب: أن الجاهل البسيط إذا نبه تنبّه، والمركب إذا نبّه على خطأه يزداد جهلاً. وسأل رجل بعض المغفلين فقال له: ما أفضل معاوية أم عيسى؟ فقال له: ما رأيت رجلاً أجهل منك ولا سمعت أحداً قاس كاتب الوحي بنبي النصارى. وأتى بعض القصاص بنصراني يريد أن يسلم، فقال: قم عني أتريدون أن توقعوا الخصومة بيني وبين عيسى بن مريم يوم القيامة. وسئل بعض القصاص عن لوط عليه السلام؟ فقال كان رجل لوطياً نعوذ بالله من فعله، فأنكروا عليه ولامه بعض أصحابه بعد انصرافهم، وأعلمه أن لوطاً نبي مرسل، بعث إلى قوم ذلك لقبيح فعلهم، وإن لوطاً نهاهم عنه، فندم على ما قاله، فلما كان في مجلس آخر سئل عن فرعون، فقال دعونا من حديث الأنبياء واسألوا الله السلامة، قوم لا رأيناهم ولا رأونا كيف نتكلم في أعراضهم.

قال ابن هشام في (المغني) في باب إحراز المبتدأ عن الخطأ ما صورته: قيل لبعضهم: ما فعل أبوك بحماره؟ فقال: باعِهِ بالجر، فقيل له: لم قلت باعِهِ بالجر؟ فقال: ولم قلت أنت بحماره؟ فقال: إني جررته بالباء فقال: ولم بائك يجر وبائي لا يجر؟، وسأل رجل شريحاً: ما تقول في رجل مات وخلّف أبوه وأخوه، فقال شريح: قل أباه وأخاه، قال الرجل: كم لأباه وأخاه، فقال شريح: قل لأبيه وأخيه، فقال الرجل: أنت علمتني... وقيل: جاء رجل إلى سيبويه ليصلح له شعراً، فقال أنشدني فأنشد:

ما العيش إلاّ مع الحبيب ... إذا تلقّاك من قريب

فقال له سيبويه: جيّد، قال:

إذا تأملته طويلاً ... أكاد من حبّه أموت

فقال سيبويه: ويحك البيت الأوّل آخره باء، والثاني آخره تاء كيف يكون هذا؟ فقال: يا سيدنا لا تنقط فلا أحد يدري ما هو، فقال سيبويه: فآخر الأوّل مجرور، وآخر الثاني مرفوع، فقال: ما أجهلك أنا أقول لك لا تنقطه وأنت تشكّله.

وقيل: إن رجلاً من أهل الشام عزم على لقاء المأمون، فاستشار بعض أصحابه، قال: على أي وجه أصلح أن ألقى أمير المؤمنين؟ قال: على الفصاحة، قال: ليس عندي منها شيء وإني لألحن في كلامي كثيراً، قال: فعليك بالرفع فإنه أكثر ما يستعمل، فدخل على المأمون وقال: السلامُ عليك ورحمة الله وبركاته، فقال: يا غلام اصفعه فصفعه، فقال: باسمُ الله، فقال المأمون: ويلك من دلّاك على الرفع؟ قال: وكيف لا أرفع من رفعه الله، فضحك وقضى حاجته.

وكان لرجل ولد اسمه حمزة، فبينما هو يوماً يمشي مع أبيه إذا رجل يصيح بشاب: يا عبد الله فلم يجبه ذلك الشاب، فقال: ألا تسمع؟ فقال: يا عم كلنا عبيد الله فأي عبد الله تعني، فالتفت أبو حمزة إليه وقال: ألا تنظر إلى بلاغة هذا الشاب؟، فلما كان الغد إذا برجل ينادي: يا حمزة، فقال حمزة بن الأعرابي: كلنا حماميز الله فأي حمزة تعني، فقال أبوه: ليس يعنيك يا من أخمد الله به ذكر أبيه.

ونظير ذلك ما حكي عن بعض الأدباء، أن رجلاً من أقاربه من أهل الشام أتى إليه إلى اصفهان، قال: فأتيت به إلى الحمام وفيه خلق كثير، ثمّ إنه ضرط في ذلك الحمام فصحت عليه فقال: يا أخي نحن نضرط بلسان العربي وهؤلاء أعجام ما يفهمون لغاتنا كما اننا نحن لا نعقل كلامهم.

[استحالة علاج الجهل المركب] :

والجهل المركب لا علاج له، إذ القول في العقل كالقول في الطبع، فكما أنه طبّع على الشر وغلبت شهوانيته على روحانيته لا يتغير إلى الخير كل من نقصت غريزته أو فقدها لا يرفع منه التعليم جهلاً ولا تزيده التجربة عقلاً، قيل: إن الحمق يتولد غريزة ولا يتغير، أنشد بعضهم:

وعلاج الأبدان أيسر خطباً   حين تعقل من علاج العقول

روي عن المسيح عليه السلام قال: «عالجت الأكمه والأبرص فأبرأتهما، وعالجت الأحمق فأعياني». فأخذ بعضهم هذا المعنى فقال:

لكل داء دواء يستطب به   إلاّ الحماقة أعيت من يداويها

وإذا انضم إلى الجهل المركب عجب نفساني فذاك الداء العضال، وإذا شِيبَ بمعارف ومسموعات جزئية يسمعها ممن يعظم في نفسه ولو كانت خطأ، فذلك المصيبة العظمى لاخلاص منه إلاّ بالسكوت عنه أو الفرار منه. وقال بعضهم: لأن أزاول أحمقاً، أحب إليّ من أن أزاول نصف أحمق ـ أعني الجاهل المتعاقل ـ.

[حكاية عجيبة] :

ومن الحكايات العجيبة: أن بعض الأطباء دخل على مريض وجسّ نبضه وشاهد تفسرته، فقال له: لعلك تناولت شيئاً من الفواكه؟ قال المريض: نعم، فقال الطبيب: لا ترجع تأكله فإنه يضرك، فتعجب الناس من حذق الطبيب وكان للطبيب ابن، فقال له: يا أبت كيف عرفت تناول الفاكهة والفرّوج؟ قال: يا بني ما عرفت ذلك بالطب وحده؛ بل بالطب والفراسة، فقال له: كيف عرفت بالفراسة؟ فقال: إني لما دخلت دار المريض رأيت على سطح الدار سقاطات الفواكه، ثمّ

رأيت في وجه المريض انتفاخاً وفي النبض ليناً، وفي التفسرة غلظاً وفجاجة، وعلمت أن الفاكهة إذا حضرت عند المريض لا يصبر عنها، فظهر لي من هذه الشواهد أنه تناول الفاكهة، وما جزمت بها بل قلت: لعلك أكلت، وفي اليوم الثاني رأيت على باب الدار ريش الفرّوج، وفي النبض امتلاء وفي الرسوب غلظاً فعلمت أن الفروج لا يأكله إلاّ المريض غالباً، فظهر بيده الشواهد، وما جزمت به بل قلت: لعلك فعلت هذا، فسمع ابنه هذا الكلام فأحب أن يسلك مسلك أبيه، فدخل على مريض وجسّ نبضه وشاهد تفسرته، وقال: لعلك أكلت لحم حمار، فقال المريض: حاشا وكلاّ كيف يؤكل لحم الحمار أيها الطبيب، فخجل ابن الطبيب وخرج، فانتهى ذلك إلى أبيه، فحضّره وسأله: كيف عرفت أنه أكل لحم حمار؟ فقال: لأني رأيت في دارهم برذعة فعلمت أنها لا تكون إلاّ للحمار، ثمّ قلت: لو كان الحمار حياً لكان برذعته عليه وإذا لم يكن حياً فإنهم ذبحوه وأكلوه، فقال أبوه: لو كان شيء من هذه المقدمات صحيحاً لرجوت فيك النجابة، ولكن المقدمات كلها فاسدة وطبع النجابة فيك محال ونعم ما قال:

فلا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع

وحكي أن بعضهم ضمّ ولده إلى رَمّالٍ ليعلمه فبقي عنده مدّة حتّى علّمه أصول الرَمِل، فجاء والده وسأل الأستاذ عن ابنه، فقال: علمته فامتحِنهُ، فقبض الأب على نملة وضمّ يده عليها وقال لولده: اعرف ما في يدي امتحاناً له، فحسب ولدهُ وقال: في يدك حيوان أسود اللون محزوز من سطه، فقال له: ما هو؟ فقال الولد: جاموسة، فلما رأى أبوه أن ولده يخطئ مع دلالة القرائن الحالية على خلاف ما يقول لامَ معلّمه، فقال المعلم: أنا أعلمه علماً ولم أعطه عقلاً.

[**قصة الملك مع الوزير**]:

ونظير ذلك أن بعض الملوك خرج هو ووزيره للتنزه، فمرّ على رجل فلاّح يحرث وقد اسود قفاه من الشمس وتشقّقت قدماه من الحفا وشدة البرد وهو في حالة مكربة، فقال الملك لوزيره: ما حال هذا الرجل؟ فقال له: هذا من خلاً حين الرساتيق ينشأ الشخص منهم على التعب والنصب وقلة الدين والجهل فيصير في هذه الحالة، فقال الملك لوزيره: أترى إنا إذا أخذناه وعلمناه الآداب وأشغلناه بالعلم، فهل يتغير عما هو عليه؟ فقال الوزير: لا أيها الملك، فقال الملك: لا بدّ من أخذه وتعليمه، فأخذ الفلاح وأنعم عليه وقيّد له من يعلّمه الكمالات النفسانية، فبقي على ذلك سنين متطاولة وبرع في كل فَنٍّ من الفنون الغريبة، فأحضره الملك يوماً بمشهد من الوزير، فقال للوزير: قد اخطأت فراستك في الفلاّح، قال الوزير: امتحنه أيها الملك قال الملك للفلاح: بلغني أنه صارت لك قوة في العلوم الغريبة فأي شيء تعلّمت؟ قال: الرمل والجفر والحساب وغير ذلك مما تحب، ولي ملكة في إخراج الضمير، قال: فنزع الملك خاتمه وضمّ عليه يده، فقال: انظر ما في يدي، فضرب رملاً وولد أشكالاً وقال: في يدك شيء مدوّر، قال: نعم، قال: وهو خالي الوسط، قال: صدقت فما هو؟ فسكت ساعة وقال أظن والله الأعلم أنه حجر طاحون، فضحك الوزير وغضب الملك وسلب نعمته ورده إلى حالته الأولى.

وحكي أن بعض الملوك قال لصاحب خيله: قدّم الفرس الأبيض، فقال له الوزير: لا تقل الفرس الأبيض فإنه عيب يخل بهيبة الملوك ولكن قل الفرس الأشهب، فلما أحضر السماط قال لصاحب سماطه: قدم

الصحن الأشهب، فقال له الوزير: قل ما شئت فما في تقويمك حيلة، قال المتنبي:

ومن البلية عذل من لا يرعوي　　　عن غيه وخطاب من لا يفهم

[أمثال كليلة ودمنة]:

ومن أمثال كليلة ودمنة: إن جماعة من القرود كانوا سكاناً في جبل، فالتمسوا في ليلة باردة ذات أمطار ورياح ناراً يصطلون بها فلم يجدوا شيئاً، فرأوا يراعة تطير كأنها شرارة نار، فجمعوا حشيشاً وألقوه عليها وجعلوا ينفخون طمعاً أن يوقدوا ناراً، وكان بالقرب منهم طائر على شجرة ينظر إليهم، فجعل يناديهم فيقول: لا تتعبوا فإن الذي رأيتموه ليس بنار، ثمّ إنه عزم على القرب منهم لينهاهم عما هم فيه، فمرّ به رجل وقال له: لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم فإن العود الذي لا ينحني لا يعمل منه القوس، فأبى الطائر أن يطيعه وتقدم إلى القرود ليعرفهم أن اليراعة ليست بنار فتناوله بعض القرود فمات من ساعته.

ومن حمقاء العرب وجهلائهم كلاب ابن صعصعة، خرج أخوته يشترون خيلاً، فخرج معهم فجاء بعجل يقوده، فقيل له: ما هذا؟ فقال: فرس اشتريته، قالوا: يا مائق هذه بقرة أما ترى قرنيها، فرجع إلى منزله فقطع قرنيها ثمّ قادها، فقال لهم: قد أعدتها فرساً فما تريدون، فأولاده يدعون بني فارس البقرة.

قوله عليه السلام: «ولا ظهيرَ كالمشاورة».

ومما جاء في (الرياض الخزعلية)، تحت عنوان:

الإستشارة وقبول قول الناصح:

فإن قول الناصح كاشف، قال بعضهم:

وإن باب أمرٍ عليك التوى ... فشاور لبيباً ولا تعصه

وقال بعض البلغاء: إذا أنكرت من عقلك شيئاً، فاقدحه بعاقل، وقال بزرجمهر: العاقل الحازم إذا أشكل عليه أمر بمنزلة من أضل لؤلؤة، فجمع ما حول مسقطها من التراب، ثمّ التمسها حتّى وجدها، وكذلك العاقل يجمع وجوه الرأي في الأمر المشكل، ثمّ يضرب بعضها في بعض حتّى يستخلص الرأي الأصوب، وقالوا: اجعل سرك إلى واحد ومشورتك إلى ألف.

ومن شرف المشاورة، وعموم نفعها، وعلوّ درجتها، وعظم وقعها، إن الله تعالى أمر نبيّه ﷺ بها مع استغنائه عنها، فقال عز من قائل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾(١) وقال تعالى يمدح من وصفهم في كتابه العزيز بصفات حميدة، لا يحوزها إلاّ الموفقون: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾(٢) وكفى ذلك في فضيلة المشورة دليلاً، وإلى نهج فضلها سبيلاً، وقد قال رسول الله ﷺ في مواطن كثيرة لأصحابه: «أشيروا عليّ»، وقد شاور أصحابه في قصص كثيرة وقضايا متعددة: منها لما أراد مصالحة عتبة بن حصين والحارث ابن عوف، حين قصده الأحزاب يوم الخندق أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة ويرجعان عنه بمن معهما من غطفان، فقال ﷺ: «حتّى أشاور السعود» يعني سعد ابن معاذ

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) الشورى: ٣٨.

أو سعد ابن عبادة، وسعد ابن فزارة، فشاورهم فأشاروا عليه أن لا يعطيهم شيئاً، فعمل بمشورتهم، ومنها نزل ببدر بأدنى ماء هناك، قال له الحباب ابن المنذر: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل، منزل أنزلكه الله تعالى، ليس لنا متقدم ولا متأخر أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ: «بل الرأي والحرب والمكيدة»، فقال الحباب: فإن هذا ليس بمنزل فانهض يا رسول الله بالناس حتّى تأتي أدنى منزل من القوم، فتنزل على مائة ثمّ تغير ما ورائه من القلب والآبار، ونعمل لك حوضاً فتملؤه ماءاً، ثمّ فقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «ولقد أشرتِ بالرأي»، ونهض ﷺ ومن معه وسار حتّى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه وعمل ما أشار به الحباب بن المنذر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فوائد:

منها: الإقتداء به ﷺ في المشورة، ومنها أن حلوم الناس متفاوتة فلا يبعد أن يخطر ببال الإنسان من المصالح ما لم يخطر الآخر، لاسيّما في أمور الدنيا، وعنه ﷺ: «أنتم اعلم بدنياكم وأنا أعلم بآخرتكم»، ومنها أنه لما شاورهم في الخروج إلى أُحد فأشاروا عليه بذلك، فحصل ما حصل من فرارهم، فلو لم يشاورهم لتوهموا أن في قلبه ﷺ من تلك المشورة شيئاً، فدفع الله تعالى ذلك التوهم بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ وقالوا: مادة العقل من العقول، كمادة الأنهار من السيول، ومن كلامهم: ينبغي للعاقل أن يجمع إلى عقله عقل العقلاء وإلى رأيه رأي الحكماء، فإن الرأي الفذ ربما زل، وإن العقل الفرد ربما ضل، وقال شبيب ابن شيبة: إني لا أعرف أمراً لا يتلاقى به إنسانان إلاّ وجب النجح بينهما، قيل

له: وما ذاك؟ قال: العقل فإن العاقل لا يطلب ما لا يمكن ولا يرد عما يمكن، ومن أمثال العرب: علمان خير من علم، وأصله أن رجلاً وابنه سلكا طريقاً فقال الرجل: يا بني أستبحث لنا عن الطريق؟، فقال: إني عالم به، فقال: يا بني علمان خير من علم، يضرب في مدح المشاورة والحث عليها.

قيل لرجل من بني عبس: ما أكثر صوابكم في مباشرة ما تأتونه، ومجانبة ما تعرضون عنه؟ قال: نحن ألف رجل وفينا رجل واحد حازم ذو رأي ومعرفة، فنحن نشاوره في الجليل والحقير، ونعمل برأيه فكأننا إذا صدرنا عن رأيه ومشورته في ألف حازم، وجدير بألف حازم أن يصيبوا، وقديماً قيل:

تمسّك بأهداب المشورة واستعن ... بحزم نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فريش الخوافي قوة للقوادم

[**من أمثال العرب في المشورة**]:

ومن أمثال العرب، أوّل الحزم المشورة، وهو من جيّد ما قيل في المشورة، وقال بعضهم: المستشير بين خيرين: صواب يصيبه أو خطأ يشارك فيه، وهذا من أجود ما قيل في المشورة أيضاً. وقيل للأحنف بن قيس: بأي شيء يكثر صوابك ويقل خطؤك فيما تأتيه من الأمور وتباشره من الوقائع؟ قال: بالمشورة لذي التجارب، ومحض زبدة الآراء. وقال لقمان لابنه: يا بني اجعل عقل غيرك لك فيما تدعوك الحاجة إلى فعله، فقال ابنه: كيف أجعل عقل غيري لي؟ قال: تشاوره في أمرك. وقال أعرابي: ما عثرت قط حتّى عثر قومي، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لا أفعل

شيئاً حتّى أشاورهم. قال بعض النبلاء: الناس ثلاثة: فرجل رجل، ورجل نصف رجل، ورجل لا رجل، فأما الرجل فذو الرأي والمشورة، وأما الرجل الذي هو نصف رجل فالذي له رأي ولا يشاور. وأما الرجل الذي هو ليس برجل فالذي ليس له رأي ولا يشاور. وقال بعضهم: الرجال ثلاثة: رجل ينظر في الأمور قبل أن تقع فيصدرها مصادرها، ورجل متوكل لا يتأمل فإذا نزلت به نازلة شاور أصحاب الرأي وقبل قولهم، ورجل طائر بائر لا يأمّ راشداً ولا يطيع مرشداً.

واعلم أن المستشير وإن كان أفضل رأياً من المشير فإنه يزداد برأيه رأياً كما تزداد النار بالسليط ضوءاً، فلا يقذفن في روعك أنك إذا اسشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك، فيمنعك عن المشاورة فإنك لا تريد الرأي للفخر به ولكن للانتفاع به، فإن أردت الذكر كان أفخر لذكرك وأحسن عند ذوي الألباب لسياستك أن يقولوا: لا ينفرد برأيه دون ذوي الرأي من اخوانه، ولا يمنعك عزمك على إنفاذ رأيك وظهور صوابه لك عن الإستشارة، ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام أمر بذبح ولده عزمة لا مشورة فيها، فحمله حسن الأدب وعلمه بموقعه في النفوس على الإستشارة فيه، فقال عليه السلام: ﴿يا بُنَيَّ إِنِّي أرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى﴾ وهذا من أحسن ما يرسم في هذا الباب.

وفي الحكم المرفوعة: المستشير على طرف النجاح، والمستبد تلعب به الرياح، وبالجملة فكما يجلي البيان المتشابه كذلك تجلي المشورة العمى والحيرة، والسبب في وجوبها عقلاً غلبة الهوى. قال بعض الحكماء: إنما خصّ علم المشاورة لأن رأي المشير صرف ورأي المستشير مشوب بالهوى، فإن رأي غير ذي الحاجة أسلم، وهو من

الصواب أقرب لخلوص فكره وخلوّ خاطره، مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة. وقد سئل بعض العلماء ما بال العاقل ذو اللب لا تصيب مشورته على نفسه وتقصر عن اصابة الصواب وإدراك المطلوب، ومشورة غيره له تظفره بذلك؟ فقال: إن مشورة الإنسان لنفسه ممزوجة بالهوى، ومشورة غيره له سالمة من ذلك، ولا إصابة مع الهوى.

وفي هذا المعنى قال بعضهم:

إذا عنّ أمر فاستشر فيه صاحباً   وإن كنت ذا رأي تشير على الصحب
فاني رأيت العين تجهل نفسها   وتدرك ما قد حلّ في موضع الشهب

وقال الأرجائي:

شاور سواك إذا نابتك نائبة   يوماً وإن كنت من أهل المشورات
فالعين تلقى كفاحاً ما نأى ودنا   ولا ترى نفسها إلاّ بمرآة

وقلما رغب أحد في المشورة: وعمل بها إلاّ غنم، ولا زهد فيها وأعرض عن قبولها إلاّ ندم.

[مخالفة الأمين العبّاسي للمشورة]:

حكى المؤرخون: أن محمّد الأمين لما قصده عبد الله ابن طاهر بعساكر المأمون، وحصر بغداد واشتد عليه الأمر وضاق بين يديه المسلك للنجاة، قال: من استشار ذا رأي ومعرفة وخالفه وقع فيما يكره، وندم على التفريط، فإنه لما حصل عندي من أخي حاله، أحضرت الشيخ أبا الحسن القطيفي، وكان ذا رأي ومعرفة بموارد الحوادث ومصادرها، فحادثته في أخي المأمون وما الذي اعتمده حتّى يقع في يدي، واطلعته على حقيقة الحال واستشرته في كيفية العمل في ذلك، فقال لي: إن استعجلت لم

تنتفع برأي ولا فعل، وإن تمهّلت وقبلت مشورتي وعملت بما أقوله تمكنت من أخيك وبلغت ما تأمله، وذلك إنك تدعو حجاج خراسان إذا قدموا بغداد وتجلس لهم مجلساً عاماً، وتقول لهم: إن أخي كتب إليَّ يمدحكم ويظهر حسن طاعتكم وجميل انقيادكم وحميد مذاهبكم، وتجزيهم خيراً، ثمّ تقول لهم: قد أطلقت عنكم الخراج سنة، وأخوك في خراسان وهي بلاد رجال بلا مال، وليس له في ردّ قولك حيلة، وسيناله من ذلك خلل عظيم، ثمَ ينتقض عليه أكثر أمره، ثمّ تفعل في السنة المقبلة مثل ذلك وتسقط عنهم خراج سنتين، فإن لم يؤت في السنة الثالثة بأخيك في وثاق وإلاّ فاضرب عنقي إن كنت حياً، فخالفته وما قبلت مشورته وعجلت إلى خلع المأمون وعقدت الأمر لابني حتّى وقع ما وقع، فمن خالف المشير ندم على التقصير.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركهم في عقولهم».

واعلم أن من ترك المشورة وعدل عنها فلم يظفر بحاجة، صار هدفاً لسهام اللائمين، ومضغة في افواه العاذلين، والمثل لمالك بن عمرو بن عوف محلم، وذلك أن أخاه ليث بن عمرو تزوج إمرأة جماعة بنت فلان فتحمل المنجعة بها، فنهاه مالك وقال: إني أخاف عليك أن بعض مقانت العرب أن يصيبك، فأبى وسار بأهله وماله، فلم يلبث إلاّ يسيراً حتّى جاء وقد أخذ أهله وماله.

وقد قيل ما أعرض أحد عن قبول قول المشير إلاّ واشتغشى اليأس الندم على التقصير، ومن بعض كتب الهند من التمس الرخصة من الاخوان عند المشاورة، ومن الأطباء عند المرض، ومن الفقهاء عند الشبهة، أخطأ منافع الرأي وازداد فيما وقع فيه تورطاً وحمل الزور.

[نجاح من يستشير]:

من استشار ذوي الرأي والمعرفة في فعل ما عناه، فقبل المشورة منهم واقتدى بآرائهم فيها، ولم يعدل عنها وعن قويم نهجها، قلّ أن يخفق مسعاه ويفوت مطلبه؛ فإن أعجزه القدر فهو معذور غير ملوم.

[قصة المنصور العباسي]:

وحكي عن الخليفة المنصور أنه كان صدر من عمه عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس أمور مؤلمة لا تحتملها حراسة الخلافة ولا تتجاوز عنها سياسة الملك، فحبسه عنده، ثمّ بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن عليّ، وكان والياً على الكوفة ما أفسد عقيدته فيه وأوحشه فيه، وصرف وجه ميله إليه عنه، فتألم المنصور من ذلك وساء ظنه وتأرق جفنه وقلّ أمنه وتزايد خوفه وحزنه، فأدته فكرته إلى أمر دبّره، وكتمه عن جميع حاشيته وسره، واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى وأجراه على عادة اكرامه، ثمّ أخرج من كان بحضرته، وأقبل على عيسى، وقال له: يا ابن العم إني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله، ولا أرى سواك مساعداً لي على حمل ثقله، فهل أنت في موضع ظني بك، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي؟ فقال له عيسى بن موسى: أنا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع أمره ونهيه، فقال: إن عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته، واعتمد على ما بعضه يبيع دمه، وفي قتله صلاح ملكنا، فخذه إليك واقتله سراً، ثمّ سلّمه إليه، وعزم المنصور على الحج مضمراً أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص وسلّمه إلى أعمامه، أخوه عبد الله ليقتلوه به قصاصاً، فيكون قد استراح من الاثنين عبد الله وعيسى.

قال عيسى: فلما أخذت عمي وأفكرت على قتله رأيت من الرأي

أن أشاور في قضيته من له رأي عسى أن أصيب الصواب في ذلك، فأحضرت يونس بن قرة الكاتب، وكان لي حسن ظنٍ في رأيه وعقيدة صالحه في معرفته، فقلت له: إن أمير المؤمنين دفع إليَّ عمه عبد الله وأمرني بقتله واخفاء أمره فما رأيك في ذلك وما تشير به؟ فقال لي يونس: أيها الأمير احفظ نفسك بحفظ عمك وعم أمير المؤمنين، فإني أرى لك أن تدخله في مكان داخل دارك وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك، وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه، وتجعل دونه مغالق وأبواباً، وأظهر لأمير المؤمنين أنك قتلته وأنفذت أمره فيه، وانتهيت إلى العمل بطاعته، فكأني به إذا حقق منك أنك فعلت ما أمرك به وقتلت عمه، أمرك بإحضاره على رؤوس الأشهاد، فإن اعترفت أنك قتلته بأمره أنكر أمره لك وأخذك بقتله وقتلك. قال عيسى بن موسى: فقبلت مشورة يونس وعملت بها وأظهرت لأمير المؤمنين أني أنفذت أمره.

ثمّ حج المنصور فلما قدم من حجه وقد استقر في نفسه أني قتلت عمه عبد الله، دسّ إلى عمومته أخوة عبد الله وحثهم على أن يسألوه في عبد الله، فقال نعم: إن حقوقكم تقتضي إسعافكم بحاجتكم، كيف وفيها صلة رحم وإحسان إلى من هو في مقام الوالد، ثمّ أمر بإحضار عيسى بن موسى فأُحضر لوقته، فقال: يا عيسى كنت دفعت إليك قبل خروجي إلى الحج عمي عبد الله ليكون عندك في منزلك إلى حين رجوعي، فقال عيسى: قد فعلت يا أمير المؤمنين، فقال المنصور: قد سألني فيه عمومتك وقد رأيت الصفح عنه وقضاء حاجتهم وصلة الرحم باجابة سؤالهم فيه فآتنا به الساعة، قال عيسى: فقلت: يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله والمبادرة إلى ذلك، قال: كذبت لم آمرك بذلك ولو أردت قتله

لأسلمته إلى من هو بصدد ذلك، ثمّ أظهر الغيظ وقال لعمومته قد أقر بقتل أخيكم مدعياً أني أمرته بقتله وقد كذب عليَّ، قالوا: يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به ونقتص منه، فقال: شأنكم به، قال عيسى: فأخذوني إلى الرحبة واجتمع الناس عليَّ فقام واحد من عمومتي إليَّ وسل سيفه ليضربني به، فقلت: يا عم أفاعل أنت؟ قال: أي والله كيف لا أقتلك وقد قتلت أخي، فقلت لهم: لا تعجلوا أو ردوني إلى أمير المؤمنين فردوني إليه، فقلت له: يا أمر المؤمنين إنما أردت قتلي بقتله والتي عليَّ عصمني الله تعالى من فعله، وهذا عمك باق حي سوي، فإن أمرتني بدفعه إليهم دفعته إليهم الساعة، فأطرق المنصور وعلم أن ريح فكره صادفت إعصاراً وأن انفراده بتدبيره صار خساراً، ثمّ رفع رأسه وقال: ائتنا به، فمضى عيسى وأحضر عبد الله، فلما رآه المنصور قال لعمومته: أتركوه عندي وانصرفوا حتّى أرى فيه رأياً، قال عيسى: فتركته وانصرفت وانصرف أخوته فسلمت روحي وزالت كربتي وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته والعمل بها، ثمّ إن المنصور أسكن عبد الله في بيت أساسه قد بني على الملح، ثمّ أرسل الماء حوله ليلاً فذاب الملح وشط البيت فمات عبد الله ودفن بمقابر باب الشام وسلم عيسى من هذه المكيدة ومن سهام مرام البعيدة.

[قصة الأسلمي]:

وقد ورد من مستحسنات ما يطرب عن بعض ساكني يثرب يعرف بالأسلمي، قال: ركبني دين أثقل كاهلي وطالبني به مستحقوه واشتدت حاجتي إلى ما لا بدّ منه، فضاقت الأرض عليَّ ولم اهتد إلى ما أصنع، فشاورت من أثق به من ذوي المودّة والرأي فأشار عليَّ بقصد المهلب

بن أبي صفرة بالعراق، فقلت له: يمنعي بعد المشقة وتيه المهلّب، ثمّ إني عدلت عن ذلك المشير إلى استشارة غيره فلا والله ما زادني على ما ذكره لي الصديق الأوّل، فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها، فركبت ناقتي وصحبت رفقة في الطريق وقصدت العراق، فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه وقلت له: أصلح الله الأمير إني قطعت إليك الدهناء وضربت بكباء الإبل من يثرب فإنه أشار عليّ ذوو الحجى والرأي بقصدك لقضاء حاجتي، فقال: هل أتيتنا بوسيلة أو قرابة أو عشيرة؟ فقلت: لا، ولكن رأيتك لحاجتي أهلاً فإن قمت بها فأنت أهل لذلك، وأن يحل دونها حائل لم أذمم يومك ولم أيئس من غدك، فقال المهلب لحاجبه: اذهب به وادفع إليه ما في خزانة مالنا الساعة، فأخذني معه فوجدت في خزانته ثمانين ألف درهم، فدفعها إليّ فلما رأيت ذلك لم أملك نفسي فرحاً وسروراً وأعادني إليه مسرعاً، فقال: هل وصلك ما يقوم بدفع حاجتك؟ فقلت: نعم أيها الأمير وزيادة، فقال: الحمد لله على نجح سعيك واجتنائك جني مشورتك وتصديق ظن من أشار عليك بقصدنا. قال الأسلمي: فلما سمعت كلامه وقد أحرزت صلته أنشدته:

يا من على الجود صاغ الله راحته ... فليس يحسن غير البذل والجود
عمت عطاياك أهل الأرض قاطبة ... فأنت والجود مخلوقان من عود
من استشار فباب النجح منفتح ... لديه في مبتغاه غير مسدود

ثمّ عدت إلى المدينة فقضيت ديني ووسعت على أهلي وجزيت المشيرين عليّ، وعاهدت الله أني لا أترك الإشارة في جميع أمري ما عشت.

[الشروط المتوفرة في المستشار]:

ويشترط في المستشار شرائط أربعة وهي: النصح، والشفقة، والعقل، والتجربة، ولذلك لقول أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: «أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب، تورث الحسرة وتعقب الندامة» وهذه القيود الأربعة من صفات المشير معتبرة في حسن الرأي ووجوب قبوله وقد نظم بعض الأدباء بعضاً منها:

خصائص من تشاوره ثلاثاً ... فخذ منها جميعاً بالوثيقه

وداد خالص ووفور عقل ... ومعرفة بحالك في الحقيقه

ولعلَّه جمع النصح والإشفاق في الوداد فتأمل، ونعود إلى بيان الشرائط الأربعة:

أما كونه ناصحاً، فلأن الناصح يصدق في الفكر، ويمحضّ الرأي، وغير الناصح فربما يشير بالرأي الفطير فيوقع بالمضرة، وأما كونه شفيقاً فلأن الشفقة تحمل على النصح، فتحمل على حسن التروي في الأمر وإيقاع الرأي من تثبت واجتهاد، والباعث على هذين أما الدين أو محبة المستشير، وفي أمثال العرب، اسمع ممن لا يجد منك بداً، يعني اقبل نصيحة من يطلب نفعك كالأبوين، ومن لا يستجلب بنصحك نفعاً إلى نفسه بل إلى نفسك، وقيل شعراً:

إذا ما عرى خطب ورمت ودوده ... فشاور فكم نجح هدمة المشاوره

وأنفع من شاورت من كان ناصحاً ... شفيقاً فأبصر بعده من تشاوره

وأما كونه عالماً: ففائدته إصابته لعلمه وجه المصلحة في الأمر، فإن الجاهل في الأمر أعمى لا يبصر وجه المصلحة فيه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا». وقال عبد الله بن الحسين لابنه

محمّد: احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً، كما تحذر عداوة العدو العاقل، فإنه كما يوشك أن يقع بك مكر العاقل كذلك يوشك أن يورطك شور الجاهل.

وأمّا كونه مجرّباً: فلأنه لا يتم رأي العالم ما لم تنضم إليه التجربة؛ وذلك أنّ العالم وإن علم وجه المصلحة في الأمر إلاّ أن ذلك الأمر قد يشتمل على بعض وجوه المفاسد ولا يطلع عليها إلاّ بالتجربة مرة ومرة، فالمشورة من دون تجربة مظنة الخطأ، وقيل في منثور الحكم: كل شيء محتاج إلى العقل، والعقل محتاج إلى التجارب، أو كان يقال: إياك ومشاورة رجلين: شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غيره، وكبير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه، وقال لقمان لابنه: يا بني شاور من جرّب الأمور فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلا وتأخذه أنت بالمجّان.

وإذا عرفت أنّ طاعة المشير الموصوف بالصفات المذكورة، مستلزمة في أغلب الأحوال للسرور بحسن ثمرة رأيه والفوز بها، لا جرم كان معصيته ومخالفة رأيه مستلزمة للحسرة مستعقبة للندامة.

ومما جاء في (المجلد الأوّل)[1] من كتاب (المستطرف في كل فَنٍ مستظرف):

[بيان قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾]:

وقال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾.[2]

واختلف أهل التأويل في أمره بالمشاورة مع ما أمدّه الله تعالى من التوفيق، على ثلاثة أوجه:

---

(١) صفحة: ١٦٦ - ١٧٠.

(٢) آل عمرن: ١٥٩.

أحدها: أنه أمره بها في الحرب ليستقر له الرأي الصحيح فيعمل عليه، وهذا قول الحسن.

ثانيها: أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل، وهذا قول الضحاك.

ثالثها: أنه أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون وإن كان في غنية عن مشورتهم وهذا قول سفيان.

وقال ابن عيينة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أمراً شاور فيه الرجال، وكيف يحتاج إلى مشاورة المخلوق مَن الخالق مدبر أمره، ولكنه تعليم منه ليشاور الرجل الناس وإن كان عالماً.

وقال ﷺ: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا افتقر من اقتصد».

وقال: «من أعجب برأيه ضلّ، ومن استغنى بعقله ذل».

وكان يقال: ما استنبط الصواب بمثل المشاورة.

وقال حكيم: المشورة موكّل بها التوفيق لصواب الرأي.

وقال الفضل: المشورة فيها بركة، وإني لأستشير حتّى هذه الحبشية الأعجمية، وقيل: من بدأ بالاستخارة وثنى بالإشارة فحقيق أن لا يخيب رأيه، وقيل الرأي السديد أحمى من البطل الشديد.

قال أبو القاسم النهروندي:

وما ألف مطرور السنان مسدّد ... يعارض يوم الروع رأياً مسدّدا

وقال عليّ عليه السلام: «خاطر من استغنى برأيه».

وجمع محمّد بن داود وزير المأمون قول القائل:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن يتردّدا

فأضاف إليه قوله:

وإن كنت ذا عزم فأنفذه عاجلاً فإنّ فساد العزم أن يتقيّدا

ولمحمّد بن إدريس الطائي:

ذهب الصواب برأيه فكأنما آراؤه اشتقت من التأييد
فإذا دجا خطب تبلج رأيه صبحاً من التوفيق والتسديد

ولمحمّد الوراق:

إنّ اللبيب إذا تفرّق أمره فتق الأمور مناظراً ومشاورا
وأخو الجهالة يستبدّ برأيه فتراه يعتسف الأمور مخاطرا

وقال الرشيد حين بدا له تقديم الأمين على المأمون في العهد:

لقد بان وجه الرأي لي غير أنني عدلت عن الأمر الذي كان أحزما
فكيف يردّ الدرّ في الضرع بعدما توزّع حتّى صار نهباً مقسّما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه وأن ينقض الحبل الذي كان أبرما

وقال آخر:

خليلي ليس الرأي في جنب واحد أشيرا عليّ اليوم ما تريان

وقال أردشير بن بابك: لا تستحقر الرأي الجزيل من الرجل الحقير، فإنّ الدرّة لا يستهان بها لهوان غائصها.

وقال جعفر بن محمّد عليه السلام: «لا تكوننّ أوّل مشير، وإيّاك والرأي الخطير، وتجنب إرتجال الكلام، ولا تشيرن على مستبدّ برأيه، ولا على متلوّن، ولا على لحوح».

وقيل: ينبغي أن يكون المستشار صحيح العلم، مهذّب الرأي،

[**الشروط المتوفرة في المستشار**] :

ويشترط في المستشار شرائط أربعة وهي: النصح، والشفقة، والعقل، والتجربة، ولذلك لقول أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: «أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب، تورث الحسرة وتعقب الندامة» وهذه القيود الأربعة من صفات المشير معتبرة في حسن الرأي ووجوب قبوله وقد نظم بعض الأدباء بعضاً منها:

خصائص من تشاوره ثلاثاً   فخذ منها جميعاً بالوثيقه
وداد خالص ووفور عقل   ومعرفة بحالك في الحقيقه

ولعلَّه جمع النصح والإشفاق في الوداد فتأمل، ونعود إلى بيان الشرائط الأربعة:

أما كونه ناصحاً، فلأن الناصح يصدق في الفكر، ويمحضّ الرأي، وغير الناصح فربما يشير بالرأي الفطير فيوقع بالمضرة، وأما كونه شفيقاً فلأن الشفقة تحمل على النصح، فتحمل على حسن التروي في الأمر وإيقاع الرأي من تثبت واجتهاد، والباعث على هذين أما الدين أو محبة المستشير، وفي أمثال العرب، اسمع ممن لا يجد منك بداً، يعني اقبل نصيحة من يطلب نفعك كالأبوين، ومن لا يستجلب بنصحك نفعاً إلى نفسه بل إلى نفسك، وقيل شعراً:

إذا ما عرى خطب ورمت ودوده   فشاور فكم نجح هدمة المشاوره
وأنفع من شاورت من كان ناصحاً   شفيقاً فأبصر بعده من تشاوره

وأما كونه عالماً: ففائدته إصابته لعلمه وجه المصلحة في الأمر، فإن الجاهل في الأمر أعمى لا يبصر وجه المصلحة فيه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا». وقال عبد الله بن الحسين لابنه

محمّد: احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً، كما تحذر عداوة العدو العاقل، فإنه كما يوشك أن يقع بك مكر العاقل كذلك يوشك أن يورطك شور الجاهل.

وأمّا كونه مجرّباً: فلأنه لا يتم رأي العالم ما لم تنضم إليه التجربة؛ وذلك أنّ العالم وإن علم وجه المصلحة في الأمر إلاّ أن ذلك الأمر قد يشتمل على بعض وجوه المفاسد ولا يطلع عليها إلاّ بالتجربة مرة ومرة، فالمشورة من دون تجربة مظنة الخطأ، وقيل في منثور الحكم: كل شيء محتاج إلى العقل، والعقل محتاج إلى التجارب، أو كان يقال: إياك ومشاورة رجلين: شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غيره، وكبير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه، وقال لقمان لابنه: يا بني شاور من جرّب الأمور فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلا وتأخذه أنت بالمجّان.

وإذا عرفت أنّ طاعة المشير الموصوف بالصفات المذكورة، مستلزمة في أغلب الأحوال للسرور بحسن ثمرة رأيه والفوز بها، لا جرم كان معصيته ومخالفة رأيه مستلزمة للحسرة مستعقبة للندامة.

ومما جاء في (المجلد الأوّل)[1] من كتاب (المستطرف في كل فَنٍّ مستظرف):

[بيان قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾]:

وقال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾.[2]

واختلف أهل التأويل في أمره بالمشاورة مع ما أمدّه الله تعالى من التوفيق، على ثلاثة أوجه:

---

(١) صفحة: ١٦٦ - ١٧٠.

(٢) آل عمرن: ١٥٩.

أحدها: أنه أمره بها في الحرب ليستقر له الرأي الصحيح فيعمل عليه، وهذا قول الحسن.

ثانيها: أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل، وهذا قول الضحاك.

ثالثها: أنه أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون وإن كان في غنية عن مشورتهم وهذا قول سفيان.

وقال ابن عيينة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أمراً شاور فيه الرجال، وكيف يحتاج إلى مشاورة المخلوق مَن الخالق مدبر أمره، ولكنه تعليم منه ليشاور الرجل الناس وإن كان عالماً.

وقال ﷺ: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا افتقر من اقتصد».

وقال: «من أعجب برأيه ضلّ، ومن استغنى بعقله ذل».

وكان يقال: ما استنبط الصواب بمثل المشاورة.

وقال حكيم: المشورة موكّل بها التوفيق لصواب الرأي.

وقال الفضل: المشورة فيها بركة، وإني لأستشير حتّى هذه الحبشية الأعجمية، وقيل: من بدأ بالاستخارة وثنى بالإشارة فحقيق أن لا يخيب رأيه، وقيل الرأي السديد أحمى من البطل الشديد.

قال أبو القاسم النهروندي:

وما ألف مطرور السنان مسدّد ... يعارض يوم الروع رأياً مسدّدا

وقال عليّ عليه السلام: «خاطر من استغنى برأيه».

وجمع محمّد بن داود وزير المأمون قول القائل:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن يتردّدا

فأضاف إليه قوله:

وإن كنت ذا عزم فأنفذه عاجلاً ... فإنّ فساد العزم أن يتقيّدا

ولمحمّد بن إدريس الطائي:

ذهب الصواب برأيه فكأنما ... آراؤه اشتقت من التأييد

فإذا دجا خطب تبلج رأيه ... صبحاً من التوفيق والتسديد

ولمحمّد الوراق:

إنّ اللبيب إذا تفرّق أمره ... فتق الأمور مناظراً ومشاورا

وأخو الجهالة يستبدّ برأيه ... فتراه يعتسف الأمور مخاطرا

وقال الرشيد حين بدا له تقديم الأمين على المأمون في العهد:

لقد بان وجه الرأي لي غير أنني ... عدلت عن الأمر الذي كان أحزما

فكيف يردّ الدرّ في الضرع بعدما ... توزّع حتّى صار نهباً مقسّما

أخاف التواء الأمر بعد استوائه ... وأن ينقض الحبل الذي كان أبرما

وقال آخر:

خليلي ليس الرأي في جنب واحد ... أشيرا عليَّ اليوم ما تريان

وقال أردشير بن بابك: لا تستحقر الرأي الجزيل من الرجل الحقير، فإنّ الدرّة لا يستهان بها لهوان غائصها.

وقال جعفر بن محمّد عليه السلام: «لا تكوننّ أوّل مشير، وإيّاك والرأي الخطير، وتجنب إرتجال الكلام، ولا تشيرن على مستبدّ برأيه، ولا على متلوّن، ولا على لحوح».

وقيل: ينبغي أن يكون المستشار صحيح العلم، مهذّب الرأي،

فليس كل عالم يعرف الرأي الصائب، وكم ناقدٍ في شيء ضعيف في غيره، قال أبو الأسود الدؤلي:

وما كل ذي نصح بمؤتيك نصحه ... وما كل مؤتٍ نصحه بلبيب

ولكن إذا ما استجمعا عند واحد ... فحق له من طاعة بنصيب

[اليونان والفرس]:

وكان اليونان والفرس لا يجمعون وزرائهم على أمر يستشيرونهم فيه، وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به، لمعانٍ شتى، منها لئلا يقع بين المستشارين منافسة فتذهب إصابة الرأي؛ لأن من طباع المشتركين في الأمر التنافس والطعن من بعضهم في بعض، وربما سبق أحدهم بالرأي الصواب فحسدوه وعارضوه، وفي اجتماعهم أيضاً للمشورة تعريض السر للإذاعة، فإن كان كذلك وأذيع السر لم يقدر الملك على مقابلة من أذاعه للإبهام، فان عاقب الكل عاقبهم بذنب واحد، وإن عفا عنهم الحق الجاني بمن لا ذنب له. وقيل: إذا أشار عليك صاحبك برأي ولم تحمد عاقبته، فلا تجعلن ذلك عليه لوماً وعتاباً بأن تقول: أنت فعلت وأنت أمرتني، ولولا أنت، فهذا كله ضجر ولوم وخفّة، وقال أفلاطون: إذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة؛ لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى موالاتك، وقيل: من بذل نصحه واجتهاده لمن لا يشكره فهو كمن بذر في السباخ، قال الشاعر يمدح من له رأي وبصيرة:

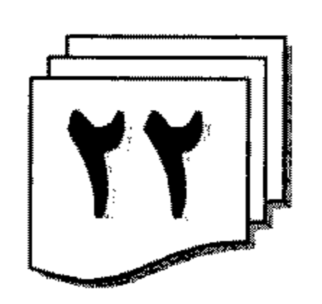
بصير بأعقاب الأمور كأنما ... يخاطبه من كل أمر عواقبه

قال ابن المعتز: المشورة راحة لك وتعب على غيرك، وقال الأحنف: لا تشاور الجائع حتّى يشبع، ولا العطشان حتّى يروى، ولا الأسير حتّى يطلق، والمقل حتّى يجد، ولما أراد نوح ابن مريم قاضي مرو أن يزوج ابنته، استشار جاراً له مجوسياً، فقال: يا سبحان الله الناس يستفتونك وأنت تستفتيني، قال: لا بدّ أن تشير عليَّ، قال: إن رئيس الفرس كسرى كان يختار المال ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال، ورئيس العرب كان يختار الحسب، ورئيسكم محمّد كان يختار الدين فانظر لنفسك بمن تقتدي.

وقيل: إذا استخار الرجل ربه، واستشار صحبه، وأجهد رأيه، فقد قضى ما عليه، ويقضي الله في أمره ما يحب. وقال بعضهم: خمير الرأي خير من فطيره، وتقديمه خير من تأخيره.

وقيل: سبعة لا ينبغي لصاحب لبٍّ أن يشاورهم: جاهل، وعدو، وحسود، ومرائي، وجبان، وبخيل، وذو هوى، فإنّ الجاهل يضل والعدو يريد الهلاك والحسود يتمنى زوال النعمة والمرائي واقف مع رضا الناس والجبان من رأيه الهرب والبخيل حريص على جمع المال فلا رأي له في غيره وذو الهوى أسير هواه فلا يقدر على مخالفته.

* * *



قوله عليه السلام:

إِذَا حُيِّيتَ بِتَحِيَّةٍ فَحَيِّ بِأَحْسَنَ مِنْهَا، وَإِذَا أُسْدِيَتْ إِلَيْكَ يَدٌ فَكَافِئْهَا بِمَا يُرْبِي عَلَيْهَا، وَالْفَضْلُ مَعَ ذَلِكَ لِلْبَادِئِ.

(نهج البلاغة ٤: ١٤)

[تحية الإسلام]

قال ابن أبي الحديد:

اللفظة الأولى من القرآن العزيز، والثانية تتضمن معنى مشهوراً، وقوله: والفضل مع ذلك للبادي، يقال في الكرم والحث على فعل الخير، وروى المدائني، قال: قدم على أسد بن عبد الله القشيري بخراسان رجل قد دخل مع الناس فقال: أصلح الله الأمير، إنّ لي عندك يداً، قال: وما يدك؟ قال: أخذت بركابك يوم كذا، قال: صدقت، ما حاجتك؟ قال: توليني أبيورد، قال: لِمَ؟ قال: لأكسب مائة ألف درهم، قال: فإنا أمرنا لك بها الساعة، فيكون قد بلغناك ما تحب، وأقررنا صاحبنا على عمله، قال: أصلح الله الأمير إنك لم تقض زمامي، قال: ولِمَ وقد أعطيتك ما أملّت؟، قال: فأين الإمارة وأين حبّ الأمر والنهي، قال: قد وليّتك أبيورد، وسوّغت لك ما أمرت لك به وأعفيتك من المحاسبة إن صرفتك عنها، قال: ولِمَ تصرفني عنها ولا يكون الصرف إلاّ من عجز أو خيانة وأنا بريء منهما، قال: اذهب فأنت أميرها ما دامت لنا خراسان، فلم يزل أميراً على أبيورد حتّى عزل أسد.

قال المدائني: وجاء رجل إلى نصر بن سيّار يذكر قرابة، قال: وما قرابتك؟ قال: ولدتني وإياك فلانة، قال نصر: قرابة عورة، قال: إن العورة كالشن البالي يرفعه أهله فينتفعون به، قال: حاجتك؟ قال: مائة ناقة لاقح ومائة نعجة ربى ــ أي معها أولادها ــ، قال: أما النعاج فخذها، وأما النوق فنأمر لك بأثمانها.

وروى الشعبي قال: حضرت زياد وحضره رجل، فقال أمير الأمير: إن لي حرمة أفأذكرها؟ قال: هاتها، قال: رأيتك بالطائف وأنت غُلَيِّمٌ ذو ذوابة وقد أحاط بك جماعة من الغلمان وأنت تَركِض هذا مرة برجلك، وتنطح هذا مرة برأسك، وتكدم مرة بأنيابك، فكانوا مرة ينثالون عليك، وهذه حالهم ومرة ينـدون عنك وأنت تتبعهم حتّى كاثروك واستقووا عليك، فجئتُ حتّى أخرجتك من بينهم وأنت سليم وكلهم جريح، قال: صدقت أنت ذلك الرجل؟ قال: أنا ذاك، قال: حاجتك؟ قال: الغنى عن الطلب، قال: يا غلام أعطه كل صفراء وبيضاء عندك، فنظر فإذا قيمة كل ما يملك ذلك اليوم من الذهب والفضة أربعة وخمسون ألف درهم، فأخذها وانصرف، فقيل له بعد ذلك: أنت رأيت زياداً وهو غلام بذلك الحال؟ قال: أي والله لقد رأيته وقد اكتنفه صبيّان صغيران كأنهما من سخال المعز، فلولا أني أدركته لظننت أنهما يأتيان على نفسه.

وجاء رجل إلى معاوية وهو في مجلس العامة، فقال: يا أمير المؤمنين إن لي حرمة، قال: وما هي؟ قال: دنوت من ركابك يوم صفين وقد قربت فرسك لتنفر، وأهل العراق قد رأوا الفتح والظفر، فقلت لك: والله لو كانت هند بنت عتبة مكانك ما فرت ولا اختارت إلاّ أن تموت كريمة أو تعيش حميدة، أين تفرّ وقد قلدتك العرب أزمة أمورها وأعطتك قياد أعنتها، فقلت لي: اخفض صوتك لا أمّ لك ثمّ تماسكت وثبت، وثابت إليك حماتك وتمثّلت حينئذٍ بشعر أحفظ:

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي

فقال معاوية: صدقت وددت أنك الآن أيضاً خفضت صوتك، يا

غلام أعطه خمسين ألف درهم، فلو كنت أحسنت في الأدب لأحسنا لك الزيادة.(١)

* * *

أقول: قوله عليه السلام: «وإذا حييتم بتحيةٍ فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها».

ليكن ذلك تشجيعاً على إفشاء السلام، وتأليفاً للقلوب، وجزاءاً على المحاسنة بأكثر منها، وليكن للنفوس في هذا أنس من الوحشة.

قال الطريحي: في (مجمع البحرين): اختلفت الأقاويل في معنى (السلام عليك) فمن قائل معناه (الدعاء) أي سلمت من المكاره. ومن قائل: معناه (اسم السلام عليك) ومن قائل: معناه (اسم الله عليك) أي أنت في حفظه، كما يقال: (الله معك). وإذا قلت: (السلام علينا) والسلام على الأموات فلا وجه لكون المراد به الاعلام بالسلامة، بل الوجه أن يقال هو دعاءٌ بالسلامة لصاحبه من آفات الدنيا، ومن عذاب الآخرة.

وضعه الشارع موضع التحية والبشرى بالسلامة، ثمّ إنه اختار لفظ (السلام) وجعله تحية لما فيه من المعاني، أو لأنه مطابق للسلام الذي هو اسم من أسماء الله تعالى تيّمناً وتبرّكاً، وكان يحيى به قبل الإسلام، ويحيى بغيره، بل كان السلام أقل، وغيره أكثر وأغلب فلما جاء الإسلام اقتصروا عليه ومنعوا ما سواه من تحايا الجاهلية، وإيراده على صيغة التعريف أزين لفظاً، وأبلغ معنى.(٢)

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٠١ – ٢٠٣.

(٢) مجمع البحرين ٢: ٤٠٨.

كلام في معنى التحية:

مما ورد في الجزء الخامس من (تفسير الميزان) تحت هذا العنوان:

الأمم والأقوام على اختلافها في الحضارة والتوحش والتقدم والتأخر، لا تخلو في مجتمعاتهم من تحية يتعارفون بها عند الملاقاة، ملاقاة البعض البعض على أقسامها وأنواعها، من الإشارة بالرأس واليد ورفع القلانس وغير ذلك، وهي مختلفة باختلاف العوامل المختلفة العاملة في مجتماعتهم.

وأما إذا تأمّلت هذه التحيات الدائرة بين الأمم على اختلافها وعلى اختلافهم، وجدتها حاكية مشيرة إلى نوع من الخضوع والهوان والتذلل، يبديه الداني للعالي، والوضيع للشريف، والمطيع لمطاعه، والعبد لمولاه، وبالجملة تكشف عن رسم الاستعباد الذي لم يزل رائجاً بين الأمم في أعصار الهمجية فما دونها، وإن اختلفت ألوانه، ولذلك ما نرى أن هذه التحية تبدأ من المطيع وتنتهي إلى المطاع، وتشرّع من الداني الوضيع وتختم في العالي الشريف، فهي من ثمرات الوثنية التي ترتضع من ثدي الإستعباد.

والإسلام ـ كما تعلم ـ أكبر همّه إمحاء الوثنية، وكل رسم من الرسوم ينتهي إليها، ويتولّد منها، ولذلك أخذ لهذا الشأن طريقة سويّة وسنة مقابلة لسنة الوثنية ورسم الاستعباد، وهو إلقاء السلام الذي هو بنحو أمن المسلّم عليه من التعدي عليه، ودحر في حرّيته الفطريّة الإنسانية الموهوبة له، فإن أوّل ما يحتاج إليه الإجتماع التعاوني بين الأفراد هو أن يأمن بعضهم بعضاً في نفسه وعرضه وماله، وكل أمر يؤول إلى أحد هذه الثلاثة.

وهذا هو الإسلام الذي سنَّ الله تعالى إلقاءه عند كل تلاق من متلاقيين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾[١] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

وقد أدّب الله رسوله ﷺ بالتسليم للمؤمنين، وهو سيدهم، فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[٣] وأمره بالتسليم لغيرهم في قوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٤].

والتحية بإلقاء السلام كانت معمولاً بها عند عرب الجاهلية على ما يشهد به المأثور عنهم من شعر ونحوه، وفي لسان العرب: وكان العرب في الجاهلية يحيّون بأن يقول أحدهم لصاحبه: أنعم صباحاً، وأبيت اللعن، ويقولون: سلام عليكم فكأنه علامة المسالمة، وأنه لا حرب هنا لك، ثمّ جاء الإسلام فقصروا على السلام وأمروا بإفشائه. انتهى.

إلاّ أن الله سبحانه يحيه في قصص إبراهيم عنه عليه السلام كثيراً، ولا يخلو ذلك من شهادةٍ على أنه كان من بقايا دين إبراهيم الحنيف عند العرب، كالحج ونحوه، قال تعالى حكاية عنه فيما يحاور أباه: ﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾[٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ

---

(١) النور: ٦١.

(٢) النور: ٢٧.

(٣) الأنعام: ٥٤.

(٤) الزخرف: ٨٩.

(٥) مريم: ٤٧.

بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ﴾.[١] والقصة واقعة في غير مورد من القرآن الكريم. ولقد أخذه الله سبحانه تحيّةً لنفسه، واستعمله في موارد من كلامه قال تعالى: ﴿سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ﴾.[٢] ﴿سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ﴾[٣] وقال: ﴿سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ﴾[٤] وقال: ﴿سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ﴾.[٥]

وقال: ﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾.[٦]

وذكر تعالى أنه تحيّة ملائكته المكرّمين قال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ﴾[٧] وقال: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾.[٨] وذكر أيضاً أنه تحيّة أهل الجنّة قال: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ﴾[٩] وقال تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً * إِلاّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾[١٠][١١].

* * *

ومما ورد في (دائرة معارف البستاني) تحت كلمة:

---

(١) هود: ٦٩.

(٢) الصافات: ٧٩.

(٣) الصافات: ١٠٩.

(٤) الصافات: ١٢٠.

(٥) الصافات: ١٣٠.

(٦) الصافات: ١٨١.

(٧) النحل: ٣٢.

(٨) الرعد: ٢٤.

(٩) يونس: ١١٠.

(١٠) الواقعة: ٢٦.

(١١) تفسير الميزان ٥: ٣١ – ٣٣.

السلام:

قال: السلام هو التحية بالكلام أو الإشارة أو الكتابة، وقولهم: سلام عليكم، والسلام عليكم دعاءٌ بالسلامة من الآفات في الدين والعقل والنفس والعرض والجسم والمال والجاه والولد والأهل، أي كان الله معكم حافظاً لكم، والسلام عند الصوفية تجرد النفس عن المحنة في الدارين.

وتختلف إشارات السلام وعباراته باختلاف أخلاق البشر وعاداتهم ومشار بهم، فالرومان القدماء كانوا يقولون في السلام: كن قويّاً أو كن صحيح الجسم أو ماذا تفعل، واليونان القدماء يقولون: ابتهج أو افرَح، والجرمان: كيف تجد نفسك، والفرنسيون يقولون ما معناه حرفياً: كيف تحمل نفسك أي كيف حالك، والايطاليون: كيف تقف أي كيف حالك، واليونان الحديثون: ماذا تفعل، والهولانديون: كيف حالك، والأسوجيون: كيف تقدر، وفي الصين يقولون: هل أكلت ارزَك وهل معدتك في انتظام، وفي هولاندا سلام نظيره وهو: هل استحسنت طعامك، وفي بولونيا يقولون: هل أنت مسرور، وكيف أنت وحالك، وفي روسيا: كن مبسوطاً، وكيف أنت عائش، وعندهم عبارة... ومعناها الله معك وهم يستعملونها الآن بمعنى الاستعاذة من الشيطان، وكان الإنكليز القدماء يقولون: يخلّصك يا سيدي وهي مختصرة من يخلّصك الله، ويقولون الآن عند الوداع... وهي اختصار لقولهم: الله معك.

ولأكثر الأمم عبارات مخصوصة للسلام في كل أوقات النهار، أي الصباح والظهر والمساء. وأما العرب والأتراك فعبارات السلام عديدة عندهم، فيقولون: صباح الخير، ونهاركم سعيد، ومساء الخير، وليلة

سعيدة، وأوقاتكم سعيدة، والله معكم، وعافاكم الله، وعسى أن تكونوا بخير وعافية، والسلام عليكم، وكيف حالكم، إلى غير ذلك من العبارات المتعارفة، وتختلف عبارات السلام باختلاف البلدان، إلاّ أن المقصود بها كلها واحد، وهو السؤال عن حال المخاطب وحال عائلته وأصحابه ومن لاذ به، وإظهار المودّة والخلوص والإعتبار والوقار، وهو طويل عندهم يستغرق بضع دقائق ويختلف باختلاف الظروف والأحوال ونسبة الأشخاص المتسالمين.

والأتراك يقولون ما معناه: صبحكم أو مسّاكم الله بالخير. والعجم: قرن الله صباحكم ومساءكم بالخير.

وأما عبارات السلام عند أمم العهد القديم العهد الجديد فأكثر من أن تذكر، كقولهم: أنعم الله عليك، ومبارك أنت والرب معكم، ويباركك الرب، والسلام يا سيدي، والسلام لكم وغير ذلك. وقد اصطلحوا في كلامهم سابقة بين المتكلم والمخاطب، وعن رتبة كل منهما، فيتسالم الغريبان والكبير والصغير والرفيع والوضيع، فعابر الطريق يسلّم على الذين يشتغلون في طريقه، والخادم يسلّم على سيّده، وأعضاء العائلة يتسالمون عند النهوض من النوم وعند الوداع واللقاء، وفي (متساه ٤٧٠) يأمر بالسلام على الناس من أي طائفة كانوا كما يسلّم الأخوة، لأن اليهود كانوا يمتنعون في القديم عن السلام على الذين ليسوا من مذهبهم.

وترافق السلام إشارات أو حركات مخصوصة ربما استغني بها عنه، وهي تختلف باختلاف الشعوب والبلدان فالمصافحة بالأيدي بين الأصحاب والمعارف عامة بين العرب، وفي أوربا وأمريكا، أما الأوربيون

والأمركان فيكثرون من التصافح إذا كان المتسالمون أصدقاءاً، وإن كان تعارفهم حديثاً فتقتضي واجبات الأدب أن يقتصروا على السلام البسيط.

أما العرب فربما اكتفوا بعد لمس الأيدي أن يضع المسلّم يده على صدره أو فمه أو رأسه، قيل والمقصود بذلك أن يفهم المسلّم عليه أن المسلم يضع حبه في قلبه، وذكره في لسانه واعتباره فوق رأسه.

وأما عند الأتراك فواجبات الاحترام تقضي بعدم لمس الأيدي، فالأصغر يضع كفه عند السلام تحت يد الأكبر بدون أن يلمسها ثمّ يرفعها نحو جبهته ويكتفي عندهم بالسلام عن بعد برفع اليد نحو الجبهة أو نحو الفم ثمّ الجبهة، ولدى السلام على من كان عالي المقام تقبّل يده أو ذيله _ أي طرف جبّته _ فتلمس باليد ثمّ ترفع وتوضع على الفم، وتقبيل الأيدي تأدّباً كثير عند الشرقيين. وفي أكثر الولايات الألمانية يقتضي الأدب تقبيل يد السيّدات. أما في ايطاليا فلا يستعمل ذلك إلاّ بين الأقارب، وفي روسيا يقبلون يد الخاتون وجبهتها، وفي أوربا والشرق يقبّل الرجال بعضهم بعضاً عند السلام، وأما في أمريكا وانكلترا فهذه العادة عامة بين النساء فقط، وقد أخذها الشرقيون عنهم كما أخذ الأوربيون عادة هزّ الأيدي عن الأمم القديمة التي كان يسلّم رجالها بالأيدي تأميناً لبعضهم من الغدر. والأوربيون يسلمون عن بعدٍ برفع قبعاتهم، والخواتين تجبنَ السلام بانحناء خفيف إلى الأمام.

وفي اصطلاح الشرقيين إن الصغير يبادر الكبير بالسلام، وإذا كان المتلاقيان متساويين في الرتبة، فالمار يسلّم على الجالس، والراكب على الماشي، والراكض على الماشي الهوينا، وأما في المقابلات الرسمية فعلى الأصغر أن ينتظر متأدباً سلام الأكبر عليه وأن يترجل وإن كان راكباً وينتظر مرور الأكبر

أمامه، وفي اليابان ينزع الأصغر نعليه عندما يلتقي بمن هو أكبر منه مقاماً، ويدخل يده اليمنى في كمّه الأيسر ثمّ يدعهما لتسقطا بهدوءٍ على ركبتيه، ويمرّ الأكبر متمهلاً ومرتجفاً بعض الإرتجاف وصارخاً أوغ أوغ أي لا تضربني، وفي سيام يلقي الأصغر نفسه على الأرض عند مرور الأكبر سلاماً عليه فيرسل الأكبر أحد أتباعه ليرى إذا كان الأصغر قد أكل أو إذا كان حاملاً شيئاً ذا رائحة مزعجة، فإذا وجد شيئاً من ذلك رفسه وتركه لشأنه وإلاّ رفعه بيده. وفي سيلان كذلك يلقي الأصغر نفسه على الأرض سلاماً على الأكبر عندما يلقاه، معدّداً اسمه وأوصافه. وأما الأكبر فلا يلتفت إليه.

وفي بعض البلدان يسلّمون بملامسة الأيدي وأعضاء أخرى من الجسد كالكتفين والرجلين، وفي جزر سوسيتي والأصحاب بفرك الأنوف بعضها على بعض ويردّ السلام بأخذ كل منهما يد الآخر وفركها على أنفه وفمه، وفي إحدى الجزر البيليوبه يقبضون على يد أو رجل من يقصدون السلام عليه ويفركون وجوههم عليها، وفي بورما يسلّمون بالتقبيل، وعرب البادية يقبّل صغيرهم كتف كبيرهم.

وأما السلام العسكري فيختلف عن السلام المدني، فالجندي إذا لقي أحد رؤسائه بادأهُ بالسلام بوضع يده على رأسه بدون أن يكشف رأسه، وإذا كان حاملاً سلاحاً سلّم برفعه حسب رتبة المسلّم عليه، وعندما يلتقي جيشان يسلّمان برفع السلام، وكذلك عندما يمرّ جنود أمام موضع حرس يخرج الحرس ويسلّم كما تقدم.

والسفن تسلم بإطلاق الدافع وتحريك الرايات والشراع، فإذا سلّمت بالمدافع فعددها يكون متساوياً إذا كان المسلّمان متساويين في الرتبة، وإلاّ فالأكبر يجيب بعدد أقل.

وأما السلام بالكتابة فكثير الإختلاف بين الأمم، فالشرقيون يضعون السلام في أوّل كتاباتهم فقط؛ أو في أوّلها وآخرها أيضاً، وأما الغربيون فلا يضعونه إلاّ في آخرها فقط، وأما العبارات المستعملة فكثيرة الاختلاف ولها عند العرب ضروب شتّى تختلف باختلاف الظروف والأحوال، وأحسنها ما كان موجزاً مؤدّياً للمقصود بألطف عبارة وأذكاها.

والسلام المريمي واسمه باللاتينية... صلاة كاثوليكية موجّهة إلى مريم العذراء أدخلها إلى فرنسا لويس السادس الكبير ومنع كرومول استعمالها في انكلترا.

* * *

[السلام داعية المحبة]:

السلام داعية المحبة، وآية الاخاء والألفة، وقد أمر به القرآن في عدة مواطن، وبيّن أنه تحية من عند الله مباركة طيبة: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾[١] وكان تحية إبراهيم عليه السلام وضيفه المكرمين لما دخلوا عليه ﴿فقالوا سَلاماً قالَ سَلامٌ﴾[٢] وهو شعار أهل الجنّة، ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ﴾.[٣]

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنّة حتّى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتّى تحابوا، ألا أدلّكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم افشوا السلام بينكم».[٤]

---

(١) النور: ٦١.

(٢) الذاريات: ٢٥.

(٣) إبراهيم: ٢٣.

(٤) مشكاة الأنوار: ٢٢١.

يقسم الرسول ﷺ بمن نفسه بيده وهو الله سبحانه على ثلاث قضايا:

١ ـ دخول الجنّة بالإيمان.

٢ ـ الإيمان بالتحاب.

٣ ـ إفشاء السلام سبيل التحاب.

وإيثار هذه الصيغة في القسم، زيادة تأكيد، لصدقه ﷺ فيما أقسم عليه، وبيان لعظمة المقسم به وسلطانه على المقسم.

أما القضية الأولى: فيدلّ عليها كثير من آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾.(١) وقوله: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾.(٢)

والإيمان هو التصديق القلبي الذي يحرّك الأعضاء بالأعمال الصالحة، فالمؤمن حقاً لا يمسّه عقاب، أما من دنس إيمانه بالأعمال السيئة، فيدخل الجنّة بعد أن يلقى جزاء ما اقترف.

وأما القضية الثانية: فلأنّ الله تعالى وصف المؤمنين بأنهم أخوة في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٣) والمحبة شأن الأخوة، ثمّ المعروف أن الشخص إذا تمكنت العقيدة من نفسه أحب من على شاكلته، فالمؤمن الذي جرت أعماله وأخلاقه على سنن الشريعة يحب من ماثله في ذلك، وها نحن نرى التآلف والتحاب بين من ينتمون لحزب واحد أو يتفقون في المبدأ.

---

(١) المائدة: ٧٢.

(٢) طه: ٧٥ و٧٦.

(٣) الحجرات: ١٠.

وأما القضية الثالثة: فلأن إلقاء السلام يشعر بميل ملقيه إلى من سلّم عليه، فإذا تبادلا ذلك فقد تبادلا المَيل، وإذا تكرر السلام نما الميل فكان محبة، وإذا عمّمه بين الناس اكتسب محبتهم، ولذلك حث الرسول الأكرم على بذله لمن عرفت ومن لم تعرف، قال ﷺ: «يا أنس سلّم على من لقيت، يزيد الله في حسناتك، وسلّم في بيتك يزيد الله في بركتك».(١)

* * *

شرّع الإسلام التحية عند اللقاء وعند المفارقة كمظهر من مظاهر المدنية الصحيحة، إذ أن التحية من شأنها أن تؤلّف القلوب وتقوي الصلات، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان.

قال ﷺ: «أوَلا أدلّكم على أمرٍ إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم».(٢)

وقال ﷺ: «ثلاث يصفّين لك ودّ أخيك: تسلّم عليه إذا لقيته، وتوسّع له في المجلس، وتدعوه بأحبّ أسمائه إليه».(٣)

وقال ﷺ: «أيها الناس افشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا والناس نيام، تدخلوا الجنّة بسلام».(٤)

وقال ﷺ: «إنّ في الجنّة غرفاً يرى ظاهرها من بطانها، وباطنها من ظاهرها، يسكنها من أمّتي من أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأفشى

(١) أمالي الفيد: ٦٠.

(٢) روضة الواعظين: ٤١٨.

(٣) المعجم الأوسط ٨: ١٩٢.

(٤) سنن الترمذي ٤: ٦٥.

السلام، وصلّى بالليل والناس نيام»، ثمّ قال ﷺ: «افشاء السلام أن لا يبخل بالسلام على أحد من المسلمين».(١)

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بخير أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟» قالوا: بلى يا رسول الله فقال: «افشاء السلام في العالم».(٢)

وقال عمّار ابن ياسر رضي الله عنه: ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنفاق من الإقتار، والإنصاف من نفسك، وبذل السلام إلى العالم.(٣)

أتم صيغة للتحية هي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قال الله سبحانه: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾.(٤) أي ليقل بعضكم لبعض السلام عليكم، وهذا السلام تحية شرّعها الله لكم، وكلها الخير والبركة لما فيها من جلب المحبة وتقوية عرى المودّة، قال ﷺ: «إنّ الله جعل السلام تحية لأمّتنا، وأماناً لأهل ذمّتنا».(٥)

وإنما جَعلت تحية المسلمين بهذا اللفظ، وهو لفظ السلام، للإشعار بأن دينهم دين السلام والأمان، وأنهم أهل السلام ومحبّوا السلام.

وإنما كانت هذه الصيغة أتم، لما فيها من مزيد الثواب، وإن كان يكفي لفظ (السلام عليكم ورحمة الله) أو السلام عليكم فقط.

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام، فردّ النبي عليه، ثمّ جلس

---

(١) أنظر نص الحديث في: معاني الأخبار: ٢٥١.

(٢) بحار الأنوار ٧٣: ١٢.

(٣) روضة الواعظين: ٤٥٩.

(٤) النور: ٦١.

(٥) مجمع الزوائد ٨: ٢٩.

فقال النبي ﷺ: عشر ـ أي عشر حسنات ـ ثمّ جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فردّ عليه، ثمّ جلس فقال ﷺ: عشرون، ثمّ جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ عليه ثمّ جلس، فقال ﷺ: ثلاثون.[١] هذه صيغة الإلقاء.

أما الجواب: فهو على هذا الترتيب، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أو عليكم السلام ورحمة الله، أو عليكم السلام، ويصح أن يكون الجواب بصيغة الإقرار، وإن كان الجمع أفضل.

حكم الإسلام في السلام:

السلام سُنّة مؤكدة، وأما ردّه فهو فرض لازم لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[٢] أي إذا سلم عليكم أحد محيياً لكم، فواجب عليكم أن تردّوا التحية بتحية مثلها أو أحسن منها وأفضل، أي إذا قال لكم أحد: السلام عليكم فقولوا له: وعليكم السلام ورحمة الله، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله، فقولوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فيكون ذلك ردّاً للتحية بأحسن منها، أما إذا قال في الرد على التحية الأولى: وعليكم السلام، وفي الثانية: وعليكم السلام ورحمة الله، كان ذلك ردّاً للتحية بمثلها.

ويجزي تسليم الواحد على الجماعة، كما يجزي ردّ الواحد عنهم، فإن الواحد يقوم مقام الجميع، نظراً لتضامن الجماعة واتحادها، قال ﷺ: «يجزي عن الجماعة إذا مرّوا أن يسلّم أحدهم، ويجزي عن

---

(١) أنظر: مسند أحمد ٤: ٤٣٩.

(٢) النساء: ٨٦.

الجلوس أن يردّ أحدهم»[١] وقال ﷺ: «إذا سلم واحد من القوم أجزأ عنهم».[٢]

آداب السلام:

أن يسلّم القادم على من يقدم عليه، والراكب على الماشي، والماشي على القادم، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير، وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «يسلّم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير».[٣]

هذا الحديث بيّن لنا الحق ببدء السلام.

فأوّلاً: الراكب يسلّم على الماشي؛ لأن الغرض من السلام استجلاب المودة، ودفع النفرة، وتآلف القلوب، والراكب أحسن حالاً من الماشي، فالبدء من جهته دليل على تواضعه لأخيه المسلم في حال رفعته، فكان ذلك أجلب لمحبته ومودّته، وحكمة أخرى أنّ السلام تحية الوارد على غيره، والراكب أسرع في السير من الماشي في الأكثر، فكان الوارد عليه، فندب له الإبتداء بالسلام، وإذا تلاقى راكبان أو ماشيان فأيهما أحسن حالاً بدأ أخاه، فإن تساويا بدأ أيهما شاء وللبادي فضل على غيره.

ثانياً: الماشي يسلّم على القاعد؛ لأنّ السلام تحية الوارد عرفاً ووضعاً، والوارد هنا هو الماشي، ثمّ إن القاعد قد يتوقع الشر من القادم عليه، فإذا بدأه بالسلام أزال الخوف عنه.

---

(١) كنز العمال ٩: ١٢٣.

(٢) التحفة السنية (مخطوط): ٣١٩.

(٣) الدر المنثور ٢: ١٨٩.

وحكمة ثالثة: أن القاعد قد يشق عليه مراعاة المارين مع كثرتهم، فسقطت البداءة عنه دفعاً للمشقة، وثالثاً: القليل يسلّم على الكثير، ولعلّ الحكمة في ذلك أنه إذا بدأ الكثير بالسلام على القليل خيف على هذا أن يداخله شيء من الكبر لسلام الكثير عليه، ومن جهة أخرى العدد القليل أسرع مشياً من الجمع الكثير في الغالب، فكان الوارد عليه، والسلام تحية الوارد، ومن جهة ثالثة بدء القليل أيسر كلفة فكان أولى.

السلام قبل الكلام:

وسبب ذلك أنّ السلام أمان، ولا كلام إلاّ بعد الأمان.

قال صلى الله عليه وآله: «من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه».[1]

وقال صلى الله عليه وآله: «لا تدع إلى طعامك أحداً حتّى يسلّم».[2]

ومن الأدب أن يسلّم الإنسان على أهل بيته إذا دخل عليهم، يقول صلى الله عليه وآله: «إذا دخلت على أهلك فسلّم، تكون بركة عليك وعلى أهل بيتك».[3]

ويستحب السلام عند الإنصراف كما يستحبّ عند اللقاء، قال صلى الله عليه وآله: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلّم، فليست الأولى بأحق من الآخرة».[4]

تحية العصاة والمبتدعين:

العصاة الذين لم يتوبوا من معاصيهم، والذين يضيفون إلى دين الله

(١) الكافي ٢: ٦٤٤.

(٢) الخصال: ١٩.

(٣) كنز العمال ٧: ٥٠٤.

(٤) سنن أبي داود ٢: ٥٢٠.

ما ليس منه، ويبتدعون بدعاً ليست من الإسلام في شيء، لا يسلّم عليهم، قال ﷺ: «لا تسلّموا على من شرب الخمر، ولا تعودونهم إذا مرضوا ولا تصلوا عليهم إذا ماتوا».(١)

وفي البحار جاء عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال: «لا تسلّموا على اليهود ولا على النصارى، ولا على المجوس ولا على عبدة الأوثان، ولا على موائد شراب الخمر، ولا على صاحب الشطرنج، ولا على المخنث، ولا على الشاعر الذي يقذف المحصنات، ولا على المصلّي ـ أي وهو في أثناء الصلاة ـ وذلك لأن المصلّي لا يستطيع أن يردّ السلام، لأنّ التسليم من المسلّم تطوّع والرد عليه فريضة، ولا على آكل الربا، ولا على رجل جالس على غائط، ولا على الذي في الحمام، ولا على الفاسق المعلن بفسقه».(٢)

فإن اضطر إلى السلام على الظلمة بأن دخل عليهم وخاف ترتب مفسدة في دينه أو دنياه أو غيرهما إن يسلّم، سلّم عليهم.(٣)

قال العلماء: إن كلمة السلام في التحية اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى، فمعنى السلام عليكم: أنتم في حفظ الله ورعايته، كما يقال: الله معك، والله يصحبك، وقيل: بمعنى السلامة، أي سلامة الله ملازمة لك.(٤)

* * *

قرأت في الجزء الأوّل من (التكامل في الإسلام) لمؤلفه الأستاذ أحمد أمين الكاظمي رحمه الله:

---

(١) فتح الباري ١١: ٣٤.

(٢) بحار الأنوار: ٧٣: ٩.

(٣) الأذكار النووية: ٢٥٥.

(٤) سبل السلام: ١٤٨.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.(١)

ومعنى ذلك، لو أنّ أحداً سلّم عليك بقوله: السلام عليك، فيجب عليك أما أن تقول: (وعليك السلام ورحمة الله)، أو تقول: (وعليك السلام)، فإن قلت: (وعليك) ولم تزد فقد عصيت، كل ذلك لأن الدين الإسلامي يحافظ على حقوق الأفراد غاية المحافظة ويريد بالناس ليكونوا شاكرين مقدرين بعضهم حقوق البعض، فالذي يسلّم أوّلاً هو ذو حق وفضل، فيجب أن يجازى بأحسن ما أتى به، وهذا ما يقرّه العقل ويأمر به الدين الإسلامي، وهل لأحد أن يبين في الدين الإسلامي أمراً أو نهياً أو تكليفاً يخالف العقل المتكامل.

وعن ابن عبّاس في تفسير الآية المتقدمة: إذا قال المسلم: السلام عليكم؛ فقل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فقد حييته بأحسن منها، وهذا منتهى السلام.

وذكر الحسن عليه السلام: «أن رجلاً دخل على النبي صلى الله عليه وآله فقال: السلام عليك، فقال النبي صلى الله عليه وآله: وعليك السلام ورحمة الله، فجاءه آخر، فقال: السلام عليك ورحمة الله، فقال النبي صلى الله عليه وآله: عليك السلام ورحمة الله وبركاته، فجاء آخر فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال النبي صلى الله عليه وآله: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقيل: يا رسول الله: زدت للأوّل وللثاني في التحية ولم تزد في الثالث؟ فقال: إنه لم يبق لي من التحية شيئاً فرددت عليه مثله».

---

(١) النساء: ٨٦.

روى الواحدي بإسناده عن أبي أمامه عن مالك بن التيهان، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: السلام عليكم كتب له عشر حسنات، ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله، كتب له عشرون حسنة، ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كتب له ثلاثون حسنة».

وقال ﷺ: «السلام تطوع، والرد فرض، ثمّ الرد ربما يكون من فرض الكفاية، ومعنى ذلك: لو أن رجلاً دخل مجلساً وسلم لا على شخص معين، فإنّ ردّ عليه السلام شخص من الجالسين أو أشخاص عدّة، سقط التكليف عن الآخرين، وإن خصّ بالسلام أحداً من الحاضرين فقد تعيّن عليه الرد، وقال أيضاً: القليل يبدأون الكثير بالسلام، والراكب يبدأ الماشي، وأصحاب البغال يبدأون أصاب الحمير، وأصحاب الخيل يبدأون أصحاب البغال».

كل ذلك لتعليم الغني التواضع للفقير بما أنعم الله عليه، فقد دلّت الأخبار أن رسول الله ﷺ كان يسلّم على النساء ويرددن عليه، وأن السلام على الشابة مكروه تخوّفاً من استحسان صوتها، فيدخل على المسلم من الأثم أكثر مما يطلبه من الأجر.

وقد مرّ رسول الله ﷺ على صبيان فسلم عليهم.

وأن الشارع قد أوجب ردّ السلام وإن كان المخاطب بالسلام في حالة الصلاة الواجبة أو المستحبة، فإن كنت في صلاة وسلم عليك رجل أو امرأة بأن قال أحدهما: سلام عليكم، وجب أن تقول في الجواب: سلام عليكم، وأن تسمعه، ففي الصلاة تضارب بين حق الله وحق العبد، وهو المسلّم، فالله تعالى لعظيم لطفه آثر حق العبد على حقه، وأمر بأن يردّ المصلّي السلام، وأن يستمر في صلاته من حيث انتهى إليه. وهذا شأن الدين الإسلامي في جميع أحكامه.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «إذا مرت الجماعة بقوم أجزأهم أن يسلّم واحد منهم، وإذا سلّم على القوم وهم جماعة أجزأهم أن يردّ واحد منهم».

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ابدؤا بالسلام قبل الكلام، فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه».

وقال أيضاً: «أولى الناس بالله ورسوله من بدأ بالسلام».

وقال أبو جعفر الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ الله يحب إفشاء السلام».

وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «من التواضع أن تسلّم على من لقيت».

وقال أيضاً: «يسلّم الصغير على الكبير والمار على القاعد، والقليل على الكثير».

هذه آداب أقرّها الدين الإسلامي، احتراماً لحقوق الأفراد مهما كانت مراتبهم، ومع الأسف نرى بعض المسلمين يغفلون عن تطبيق هذا الدستور الإسلامي الرفيع، نرى أناساً يردّون السلام مع شيء من الكبرياء والتبختر، أو لا يردّونه ردّاً تاماً، فيكونون آثمين، نرى قسماً من الناس يردّون السلام بصوت خشن قائلين: (عليك) أو (عليكم)، تكبراً على من تفضل فسلم عليهم، ولا شيء أبغض عند الله من الكبر، فإن الله تعالى يسلب إيمان المتكبر لكبره، فالكبرياء خاص به تعالى، إن الله تعالى يقول: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[1].

وإن الكبر من أصول الكفر ويؤدي إلى ضعف الإيمان بل سلبه. ففي الحديث: «أصول الكفر ثلاثة: الحسد، والبخل، والكبر». وإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، فلا يحسن بالمسلم

(١) الأعراف: ١٤٦.

أن يردّ السلام بامتعاض وخشونة؛ بل يستحب له أن يجازي المحسن مع زيادة لسابق فضله.

* * *

قرأت للأستاذ محمّد عليّ الحوماني مقالاً قبل حوالي خمسة عشر عاماً؛ يقول فيه ما مؤداه:

أنا بينما أسير في طرقات لندن عند الزوال وإذا بي أشاهد رجلاً كبير السن واقفاً على عتبة داره يؤذن لصلاة الظهر، فانتظرت حتّى أنهى الأذان، فسلمت عليه قائلاً: السلام عليكم، فأجاب قائلاً: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، عملاً بالآية المباركة: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[1] ثمّ تعارف معي وطلب إليّ الدخول إلى البيت، فدخلت، فرأيت أنه قام مع عقيلته فصليا صلاة الظهر، ثمّ جلسا على مائدة الطعام وألحا عليّ أن أتناول معهما الطعام، وقد لفت نظري أنهما لم يبدءا بالأكل حتّى قالا: (بسم الله الرحمن الرحيم) ولما انتهيا من الطعام، قالا: (الحمد لله رب العالمين).

إن الشيخ كان أحد كبار الأساتذة في جامعة لندن، قد اعتنق الدين الإسلامي عن تتبع وتنقيب وبحث عميق، وقد من رجال في الغرب: أولئك الذين لم يلوّثوا أنفسهم بالخمور والفجور، والمراقص والمجون، والربا وأكل لحم الخنزير، اعتنقوا الدين الإسلامي وخرجوا من الظلمات إلى النور، ذلك لأنه لا مجال للضوء والنور، ـ وأعني به الإيمان ـ أن يدخل نفوساً مدلهمة حالكة بالمعاصي والآثام، ﴿وَأَقْسَمُوا

(١) النساء: ٨٦.

بِاللَّهِ جَهْدَ أَيمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاّ نُفُوراً * اسْتِكْباراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾.[١]

لاسيّما إذا بلغت النفوس مرتبة من التسافل حتّى صارت ترى الحق باطلاً والباطل حقاً، _ أي بلغت درجة من الإنحطاط حتّى انطفأت آثار الفطرة _ فأمست لا تبصر الحق بل الحقٍ لديها، ما هي عليه من تسافل مرير﴿ فَإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.[٢]

ونرى بعض المسلمين إذا دخلوا مجلساً عند الصباح قالوا: صباح الخير، وقالوا: عند المساء: مساء الخير، أو رفعوا أيديهم كعلامة للتحية، فلا يحيون الحاضرين بتحية السلام، اقتباساً عما جاءنا من الغرب، ما أثر رفع اليد في جلب الخير للمخاطب، وما معنى صباح الخير؟ أي أرجو أن يكون صباحك خيراً، وما قيمة هذا الرجاء إن لم يقترن بمشيئة الله تعالى، وما قيمة الرغبات الشخصية، والأمر كله لله، فقول المسلم: السلام عليكم ورحمة الله، وتعقيب ذلك بـ(صبحكم الله بالخير) هو إرجاع الصحة والسلام والخير إلى الله تعالى، وطلب ذلك كله للشخص المخاطب من الله تعالى...

إن المدنية الحاضرة في تحياتها تمثل الدور الجاهلي، فلا تجد لذكر الله فيها أثراً، وإن تقليد الغرب في الآداب الاجتماعية هو الإرتجاع بالمعنى الصحيح.

---

(١) فاطر: ٤٢ و٤٣.

(٢) الحج: ٤٦.

نعم إنا قد تأثرنا بمدنية الغرب المادية في آدابنا الاجتماعية، وأصبحنا مقلدين حتّى في ما تعودنا عليه منذ ثلاثة عشر قرناً، إذا دخل الرجل منا قال: مرحباً، عوضاً من أن يقول: السلام عليكم ورحمة الله؛ لأنه يرى ذلك أقرب إلى القبول وأطيب إلى القلوب، مع أن الله يريد بنا أن نذكره دائماً كي تتصل أعمالنا وأرواحنا به تعالى، ونستقي من ينبوعه الفياض، جميع الكمالات التي بها يكون الإنسان إنساناً، فإنّ ذكر الله حسن على كل حال، ولم يستثن الشارع موضعاً لا يذكر فيه اسم الله.

ولا ريب أن لذكر الله تعالى أثراً عظيماً في ردع النفس عن غلوائها وشهواتها ونزواتها، فقد جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وجوب التسبيح والتحميد وذكر الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اذكُرُوا اللهَ ذِكراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكرَةً وَأَصِيلاً﴾،[1] وقوله تعالى: ﴿إلا الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرا﴾[2] وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[3]...

وبالتالي: إن الدين الإسلامي قد استوعب كل ما من شأنه إبلاغ البشر إلى أعلى مراتب الكمال، فأعطى حكمه في كل أمر اجتماعي أو خلقي أو حقوقي أو عبادي، حكماً هو غاية الأحكام، حكماً يؤيّده العقل السليم، ذلك العقل الذي لم يتلوّث بالمدنّسات والجرائم، حكماً يصل الإنسان إلى كنهه وحقيقته كلما تكاملت معارفه وسمت نفسه. ومن جملة تلك الأحكام وتلك الآداب: ما يقوم به الإنسان الإجتماعي عندما يلاقي إنساناً آخر...

---

(١) الأحزاب: ٤١ و٤٢.

(٢) الشعراء: ٢٢٧.

(٣) البقرة: ١٥٢.

فيستحب أن يلاقي أخاه المسلم بالتسليم والتصافح، وأن يفارقه بالإستغفار، وإن من يلزم التصافح أعظم أجراً من الذي بدع.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا لقي الرجل فصافحه لم ينزع يده من يده حتّى يكون الرجل هو الذي ينزعها،[١] وقد عظم الله تعالى أجر المؤمن حتّى جعله أعلى منزلة من الملائكة، وقد جاء في الحديث: «مصافحة المؤمن أفضل من مصافحة الملائكة».[٢]

كل هذه الآداب، ليستكمل المؤمن مكارم الأخلاق، ويتكامل في عالم الوجود، وأهمّ أدب يتأدب به المؤمن ويقربه إلى الله؛ بل يجعله أهلاً ليكون من المقربين، هو التواضع وقلع الكبرياء عن نفسه، فإن في كثير من النفوس شيئاً من الزهو والكبر والتبختر والتعجرف، ولا تخضع هذه النفس لله الذي خلقها، ولا تسجد له ولا تطيعه في عالم التكامل، ما لم تقلع داء الكبرياء عنها.

فبالبدء بالسلام والمصافحة وتعظيم أمر الأخ المؤمن ممهّدات لقلع صفة الكبر وقمعها، وإن طرد إبليس عن الساحة القدسية الإلهية لم يكن إلاّ لجبروته وكبريائه فـ«أكثر أهل النار المتكبرون» كما جاء في الحديث.

وفي تحف العقول: إن الكاظم موسى بن جعفر عليهما السلام مرّ برجل من أهل السواد دميم المنظر فسلّم عليه ونزل عنده وحادثه طويلاً، ثمّ عرض عليه نفسه في القيام بحاجة إن عرضت، فقيل: يا بن رسول الله أتنزل إلى هذا ثمّ تسأله عن حوائجه، وهو إليك أحوج، فقال عليه السلام: «عبد

---

(١) أنظر: بحار الأنوار ١٦: ١٨٦.

(٢) الكافي ٢: ١٨٣.

من عبيد الله وأخ في كتاب الله وجار في بلاد الله، يجمعنا وإياه خير الآباء آدم وأفضل الأديان الإسلام، ولعلّ الدهر يرد من حاجتنا إليه فيرانا بعد الزهو عليه متواضعين بين يديه ثمّ قال:

نواصل من لا يستحق وصالنا مخافة أن نبقى بغير صديق»[١]

وكان عليّ بن موسى الرضا عليه السلام إذا خلا ونصبت الموائد أجلس على مائدته مماليكه ومواليه حتّى البواب والسائس، وقد روى الكليني في الكافي أن الرضا عليه السلام دعا يوماً في سفره إلى خراسان بمائدة له، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم، فقال له بعض أصحابه: جعلت فداك لو عزلت لهؤلاء مائدة، فقال عليه السلام: «إن الرب تبارك وتعالى واحد، والأم واحدة، والأب واحد والجزاء بالأعمال».[٢]

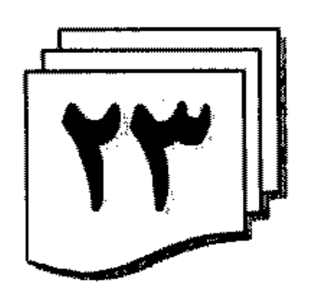
لنتعلم مكارم الأخلاق من أئمّة نوروا الأرض بنور كمالهم، وكانوا مثلاً عليا للفضائل وكمال الصفات، لا في إعطاء الدساتير فحسب؛ بل كانوا في حياتهم العملية فوق ما يملونه من دساتير، فقد روى إبراهيم بن العبّاس أن الرضا عليه السلام ما جفا أحداً بكلام قط، ولا قطع على أحد كلامه حتّى يفرغ منه، وما ردّ واحداً عن حاجة قدر عليها، ولا مدّ رجليه، ولا اتكأ بين يدي جليس له قط، ولا شتم أحداً من مواليه ومماليكه، ولا تفل قط، ولا قهقه في ضحكه بل تبسّم.[٣] انتهى.

* * *

(١) تحف العقول: ٤١٣.

(٢) أنظر: الكافي ٨: ٢٣٠.

(٣) أنظر: مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٦٩.



قوله عليه السلام:

الْغِنَى فِي الْغُرْبَةِ وَطَنٌ، وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ.

(نهج البلاغة ٤: ١٤)

[اليسار نعمة اجتماعية]

قال ابن أبي الحديد:

قد تقدم لنا قول مقنع في الفقر والغنى، ومدحهما وذمّهما على عادتنا في ذكر الشيء ونقيضه، ونحن نذكر ههنا زيادة على ذلك: قال رجل لسقراط: ما أشد فقرك أيها الحكيم؟ قال: لو عرفت راحة الفقر لشغلك التوجع لنفسك عن التوجع لي، الفقر ملك ليس عليه محاسبة، وكان يقال: أضعف الناس من لا يحتمل الغنى، وقيل للكندي: فلان غني، فقال: أنا أعلم أن له مالاً ولكني لا أعلم أغنيّ هو أم لا؛ لأنني لا أدري كيف يعمل في ماله. قيل لابن عمر: توفي زيد ابن ثابت وترك مائتي ألف درهم، قال: هو تركها، لكنها لم تتركه، وقالوا: حسبك من شرف الفقر أنك لا ترى أحداً يعصي الله ليفتقر، أخذه الشاعر فقال:

يا عائب الفقر ألا تزدجر ... عيب الغنى أكبر لو تعتبر

إنك تعصي الله تبغي الغنى ... وليس تعصي الله كي تفتقر

وكان يقال: الحلال يقطر، والحرام يسيل، وقال بعض الحكماء: ألا ترون ذا الغنى ما أدوم نصبه، وأقل راحته، وأخسّ من ماله حظه، وأشد من الأيام حذره، وأغرى الدهر بنقصه وثلمه، ثمّ هو بين سلطان يرعاه وحقوق تسترينه، وأكفاء ينافسونه، وولد يودّون موته، قد بعث الغنى عليه من سلطانه العناء، ومن أكفائه الحسد، ومن أعدائه البغي، ومن ذوي الحقوق الذم، ومن الولد الملالة

وتمني الفقد، لا كذي البلغة قنع فدام له السرور، ورفض الدنيا فسلم من الحسد، ورضي بالكفاف فشكته الحقوق.[(١)]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

استعار لفظ الوطن للغني في الغربة، باعتبار أنه يسكن إليه ويؤنس، فلا يرى أثر الغربة على الإنسان معه، واستعار لفظ الغربة للفقر في الوطن باعتبار ضيق الخلق معهما وتعسير الأمور فيهما.[(٢)]

* * *

وقال صاحب (منهاج البراعة):[(٣)]

(الوطن) تربة مولد الإنسان ومنشؤه، وأوّل أرض مسّ جلده ترابها ووجد فيه نفسه بعد ما لم يكن شيئاً مذكوراً، وفتح عينيه على وجه الوالدين والأقارب، وتلمّس الوداد والمواهب من أيدي الجيران والأحباب، فكان يحبّه ويهواه، ويتوقّع منه كلما يريد ويشتهيه، فقال عليه السلام: «إن فوائد الوطن وما يتوقع منه الإنسان يتحصّل من الغنى والثروة إذا تيسّر في أيّ بلد كان، ولكن إذا ابتلى الإنسان بالفقر فاتته مواهبه، وبعد عنه أقاربه، فيجد نفسه غريباً ولو كان في وطنه».

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٩٠.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٥: ٢٧١.

(٣) ج ٢١: ٣٥.

وقال ابن مغنية:

كلمة الوطن توحي بالقوة والأهل وجمع الشمل، وبالمتعة والراحة والطمأنينة، والغني الواجد تتوافر له هذه الأوصاف؛ لأنّ المال قوة ومتعة، وبه تطمئن النفس وترتاح، وإلى صاحبه تتودد الرجال واخوان الزمان، أما كلمة الغربة فانها توحي بالضعف والوحدة والوحشة، وبالألم والخوف والضياع.

ومعنى هذا أن الغنى وطن بذاته سواء أكان في مكان الولادة أم في غيره، وأن الفقر غربة، وسجن وتشريد أينما كان ويكون حتّى في مسقط الرأس؛ بل هو كفر أيضاً كما قال الرسول صلى الله عليه وآله، والموت الأكبر كما قال الإمام عليه السلام، والوصف بالأكبر يومئ إلى أن الفقر أقسى وأشد من الموت المعتاد.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن مراد الإمام بالغنى أن يملك المرء من أسباب العيش ما فيه الكفاية له ولعياله مع الكرامة أيضاً، وليس المراد به الذهب والفضة والديباج والرياش.[١]

* * *

أقول: ضبط الألفاظ اللغوية:

اللغة: الغنى يقال لعدم الحاجة مطلقاً، وليس ذلك إلاّ لله وحده، فهو الغني عن عباده، وهم الفقراء إليه ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٢] ويقال: لقلة الحاجات كما يقال لكثرة القنيات، والعرَض ما ينتفع به من متاع الدنيا وحطامها، وأما العرْض فهو ما كان من المال غير نقد، وجمعه عروض.

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٥٠.

(٢) فاطر: ١٥.

[الغنى بنظر العرف]:

الغني في عرف الناس من كثر ماله، وعظمت ثروته من ضياع واسعة، وجنّات ناضرة، وعمارات شامخة، وقناطير مقنطرة من الذهب والفضة وخيل مسوّمة، وأغنام راعية، وعروض نامية.

وقد بيّن الرسول ﷺ أن الغنى ليس بسعة الثروة، ووفارة المال، وكثرة المتاع، ولكن الغنى غنى النفس، فمن استغنى بما في يده عما في أيدي الناس، ولم تشرف نفسه عليه، ولم تتطلع إليه، فهو الغني الجدير بلقب الغنى، وإن كان في المال قلاً، إذ رضاه بالقسم وعفته، وزهده وقناعته، جعلته في درجة من الغنى دونها بطبقات أهل الثراء الذين حرموا الرضاء والزهادة؛ بل أولئك ليسوا من الغنى في شيء، وإنّ غني النفس مطمئن القلب، هادئ البال، لا يلحف في سؤال، ولا يحرص على مال، ولا تذهب نفسه حسرة، إذا فاتته صفقة، أو ضاعت عليه فرصة؛ بل ما جاءه رضي به وقنع، وأنفق منه على نفسه وأهله، وبرّ الناس بعفوه وفضله، وهو في الناس ملك مبجّل، وأمير موقّر، وعظيم معزز، إذ لم ينزل بهم حاجته، ولم يملك الحرص عليه منّته، والحاجة مذلّة والحرص معرّة، فإن كان إلى غنى النفس غنى المال، فتلك الدرجة العلياء، والعزة القعساء، أما من كثر ماله، وتشعبت أملاكه، وقلبه موزع بين ضيعته وعمارته، وذهبه وفضته، وفرسه وبقرته، ليس له همّ إلاّ جمع المال، يحرص عليه أشد الحرص، ويتميّز غيظاً إذا فاته القرض، ويتمنى كل ما في أيدي الناس إلى ما في يده، بل يحسدهم على ما رزقوا من نعمة، يخشى عدوى الفقر إن مدّت يده إلى فقير بدرهم، ويحسب الجائحة أن يتبرع لعمل خيري بيسير من وفره، ولم يبق ما يمتع فيه نفسه بثروته، أو

يقوم بواجبه لولده وزوجته، وقرابته وعشيرته، ذلك هو الفقير حقاً، والمحروم صدقاً.

ومن ينفق الساعات في جمع ماله ... مخافة فقر فالذي فعل الفقرُ

وهل يكون غنياً مَن نفسه لما في أيدي الناس متطلعة، وليست بما في يدها راضية قانعة؟ هل يكون غنياً من هذا الحرص من فوته، وأقل من صحته ومنعه، التكالب أن يروي نفسه من منهل العلم، ويغذيها بلبان الحكمة؟

هل يكون غنياً مَن تبغي نفسه طعاماً شهياً، أو تمراً جنياً، أو لباساً رفيعاً، فيأبى عليه حبّه للمال وشغفه بكنزه، إجابتها إلى طلبتها وتحقيق رغبتها؟ هل يكون غنياً مَن أولاده في بؤس، وأهله في ضنكٍ، يعيشون في أحضان الثروة ولكن من التمتع بها محرومون؟ ذلك بلا ريب فقير، وإن عدّه الناس غنياً، وذلك المعدم وإن حسبه الناس ثرياً، وذلك الذميم البغيض، والبائس الفقير الذي جعل الله المال في يده ألماً له وعذاباً، ونكالاً وعقاباً، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾.[1] ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾،[2] ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.[3] واعلم أن السبيل إلى غنى النفس الرضا بما قدّر الله وأعطى، والثقة بأن ما عند خير وأبقى، وأنّ المال في يد الشره البخيل فقر ومذلّة، وفي يد القانع الكريم غنى ومعزة، ﴿وَمَا

(١) المؤمنون: ٥٥ و٥٦.

(٢) الهمزة: ١ – ٤.

(٣) التكاثر: ١ – ٣.

أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلوا وَهُمْ فِي الغُرُفاتِ آمِنُونَ﴾.[١]

* * *

[تعريف الحكماء للغنى]:

ومما جاء في المجلد الأوّل من (الخلق الكامل):[٢]

قوله: يحدّ الحكماء الغنى بأنه قلّة الحاجة، كما يحدّون الفقر بأنه كثرة الحاجة، فأقل الناس حاجة أغناهم، وأكثرهم حاجة أشدّهم فقراً، لذلك كان الله جلّ شأنه أغنى الأغنياء لأنه لا حاجة له إلى شيء من الأشياء.

وكان الملوك أشد الناس فقراً لكثرة حاجتهم، فهم أشقى الناس في الدنيا والآخرة...، وأصل ذلك يرجع إلى توافر رغبات النفس وعدم توافرها، فأعظم الناس غنى هو من لا تطلب نفسه شيئاً ليس في يده، بأن كان قانعاً بما أوتي على قلته، مقبلاً على طاعته، مجملاً في طلب حاجته، مطمئناً كل الإطمئنان إلى حالته، وهذا هو الغنى الحقيقي، أو كان ذا بسطة في المال والحلال فاستطاع أن يحصّل كل ما جال في نفسه من رغبات وآمال في غير إسراف ولا ضياع لحق معلوم للسائل والمحروم؛ بل كان ينفقه في متعة نفسه غير متجاوز به طاعة ربّه، يغيث به الملهوف، ويصطنع به كل معروف، يحب المال حبّاً جماً، ولكنه يطلب في رفق وهواده ويسعى إليه في اطمئنان وتؤدة، وهذا هو الغنى المجازي، والفرق بين الحقيقي والمجازي: أن الأوّل فيه إجمال في الحب وإجمال في

---

(١) سبأ: ٣٧.

(٢) لمحمّد جاد المولى، باحث مصري (١٣٠٠ - ١٣٦٣هـ).

الطلب، واطمئنان ورفق إلى أقصى حد ممكن للبشرية، وقد لا يكون فيه حبّ ألبتة، ولكنه يطلب لأنه عون على الدين وحفظ للكرامة.

وأما الآخر ففيه الحب الجم، والطلب الأوفر، ونصيب هذا من الرفق والإطمئنان أقل بكثير من سابقه، وواضح أن كلا النوعين يمت إلى السعادة بسبب، إلاّ أن الأوّل أقوى سبباً وأقرب نسباً، وأشد الناس عوزاً من يرغب في شيء لا يتيسر له نيله، ولو كثر ماله، وامتد سلطانه، وتعدد أنصاره وأعوانه. والطمع هو تعدد الرغبات والحرص على نيلها، فمن تكثر رغباته يكثر عدد ما يعجز عن الحصول عليه، وهذا هو الفقر الحقيقي الجدير صاحبه بالرثاء له؛ لأنه يائس بآماله، شقي بأمواله.

وعلى هذا لا تكون العبرة بما تملكه اليد من الكثير أو القليل، وإنما بعدم تجاوز الرغبات حدّ الممكن نيله.

الغني والفقير:

ليس ثَم فارق صحيح بين المثري والمعدم في الحياة: فإن الحمّى التي تصيب الفقير مثلاً هي بعينها التي تصيب الغني، وتترك كلاً منهما يتألم ويمرض، فلا الفراش الوثير يخفف من وطأتها على المريض، ولا الخصاصة تخرجها عن نوع المرض، والموت يعدو على الأمير في قصره وهو بين حراسه وحجّابه، فلا يدفعه الحرّاس، ولا يمنعه الحجّاب، ولا يُطيش سهمه لمعانُ الذهب، فيزهق روح ذلك الكبير الخطير، كما يفعل بالفقير الحقير.

فإذا صحّ أن المال لا يدفع ألماً، ولا يمنع مرضاً، ولا يحول دون الموت، كان حظ التعس الفقير في الحياة هو بعينه حظ الوجيه الغني فيها، لا يميّز بينهما غير الطعام والكساء، وما هذه بمميزات صحيحة بين الإنسان وأخيه.

فإذا قيل: إن المال من البواعث على نشاط الفكر، وعلى الذكاء قلنا: إن حظ الفقير من المواهب والفضل والعقل لا يقل عن حظ الغني منها.

والتاريخ يدلّ عن أن فئة عظيمة من مشهوري الرجال الذين امتازوا بالأعمال العظيمة، والفتوحات الباهرة، أو بالعلوم الغزيرة، ومواهب الكتابة والشعر _ نبغوا وظهروا من صفوف الفقراء ومتوسطي الحال، ولا مشاحة في هذا؛ لأن من هؤلاء كل رجال العمل والفنون والصناعات وأصحاب الإختراعات ورجال العلم أيضاً.

إن لراحة البال وهدوء الفكر تأثيراً واضحاً في سعادة الإنسان، بل هو السعادة نفسها، والغني أكثر الناس خوفاً من الطوارئ، وإن كان أقلهم شكوى من تعسّر قضاء الحاجات، ومن الحصول على ما اشتهى من المآكل وطاب من المشارب والمساكن.

ولمّا كان القليل من الزاد يملأ البطن ويدفع الجوع، والبسيط من الثياب يستر العورة، ويدفع عادية الحر والبرد، والكوخ الحقير يكفي لسكن الإنسان عند الضرورة _ لم تكن هذه من أسباب الشقاء، كما أنها ليست من بواعث الهناءة، وكانت متاعب الإنسان ليست من قلة المال وإنما من جشع النفس وعدم القناعة.

* * *

ومما جاء في (عيون الآخبار)[1] لابن قتيبة تحت عنوان:

الشرف والسؤدد بالمال وذم الفقر والحض على الكسب:

---

(١) صفحة: ١٥٧ – ١٦٤.

ديوان الشعر:

أنشد ابن الأعرابي:

ومن يفتقر في قومه يَحمِد الغنى ... وإن كان فيهم ماجد أنعم مُخِولا
يمنّون إن أعطوا ويبخل بعضهم ... ويُحسبُ عجزاً سَكْتُه إن تجمّلا
ويُزرِى بعقل المرء قلّةَ ماله ... وإن كان أقوى من رجال وأحَولا

وقرأت في كتاب للهند: ليس من خَلّةٍ يُمدحُ بها الغني، إلاّ ذُمَّ بها الفقير، فإن كان شجاعاً قيل أهوَجُ، وإن كان وقوراً قيل بليد، وإن كان لَسِناً قيل مهذار، وإن كان زِمّيناً قيل عَيِ. وقال آخر:

الفقر يُزري بأقوام ذَوي حَسَبٍ ... وقد يُسَوِّدُ غيرَ السيِّد المالُ

وأنشد ابن الأعرابي:

رُزِقتُ لُبّاً ولم أرزَق مروءته ... وما المروءة إلاّ كثرةُ المال
إذا أردت مُساماةً يُقعِدُني ... عمّا يُنوّه باسمي رِقّةُ الحال

وقال آخر:

يُغطّي عيوب المرء كثرةُ ماله ... يُصدَّقُ فيما قال وهو كذوبُ
ويُزري بعقل المرء قلّة ماله ... يُحمِقُهُ الأقوامُ وهو لبيبُ

وقال آخر:

كم من لئيم الجدود سوّده المال ... أبوه وأمّه الورَقُ
وكم كريم الجدود ليس له ... عيبٌ سوى أن ثوبه خلقُ
أدّبه سادة كرام فما ... ثوباه إلاّ العفاف والخلقُ

* * *

وأنشد الرياشي:

غضبان يعلم أنّ المال ساق له ... ما لم يَسُقه له دينٌ ولا خلقُ

لولا ثلاثون ألفاً سقتها بَطراً ... إلى ثلاثين ألفا ضاقت الطرقُ

فمن يكن عن كرام الناس يسألني ... فأكرم الناس من كانت له وَرِقُ

* * *

وقال أميمة بن الجَلاح:

استغن أو مُت لا يغمدك ذو نشَبٍ ... من ابن عمّ ولا عمّ ولا خالِ

يلوون ما عندهم من حق أقربهم ... وعن صديقهم والمالُ بالوالي

ولا أزال على الزوراء أعمرها ... إنّ الكريم على الاخوان ذو الحالِ

كل النداء إذاناديتُ يخذلني ... إلاّ ندائي إذا ناديت يا مالي

* * *

وقال حسّان:

ربّ حلم أضاعه عدمُ المال ... وجهل غطّى عليه النعيمُ

* * *

وقال الهَذلي:

رأيت معاشِراً يُثنى عليهم ... إذا شبعوا وأوجَهَهم قِباحُ

يَظَلُّ المُصرمون لهم سجوداً ... ولو لم يَسقَ عندهم ضَياحُ

* * *

قال بعضهم: وددت أن لي مثل أُحد ذهباً لا أنتفع منه بشيء، قيل له: فما تصنع به؟ قال: لكثرة من يخدمني عليه، قال الصّلتان:

إذا قلتَ يوماً لمن قد ترى ... أروني السَرّي أروكَ الغني
وسرّك ما كان عند امرئٍ ... وسرّ الثلاثة غيرُ الخَفي

* * *

وقال آخر:

لا تسأل الناس ما مَجدي وما شرفي ... الشأنُ في فضّتي والشأن في ذهبي
لو لم يكن لِيَ مال لم يَطرُ أحدٌ ... بابي ولم يعرفوا مجدي ومجد أبي

* * *

وقال آخر:

أجلّك قوم حين صِرتَ إلى الغنى ... وكل غنيّ في العيون جليلُ
ولو كنت ذا عقل ولم تؤتَ ثروة ... ذللت لديهم والفقير ذليلُ
إذا مالت الدنيا على المرء رغّبت ... إليه ومال الناسُ حيث يميل
وليس الغنى إلاّ غنىً زيّن الفتى ... عشية يَقري أو غداةً ينيل

* * *

وقال آخر:

وكل مقلّ حين يغدو لحاجةٍ ... إلى كل من يعدو من الناس مذنبُ
وكان بنو عمي يقولون مرحباً ... فلما رأوني مُعدِماً مات مرحبُ

* * *

وقال آخر:

أبا مصلح أصلح ولا تك مفسداً ... فإنّ صلاحُ المال خيرٌ من الفقر
ألم ترَ أن المرء يزداد عزّةً ... على قومه إن يعلموا أنه مُثري

وقال عروة بن الورد:

ذريني للغِنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرّهم الفقيرُ
وأبعدهم وأهونهم عليهم ... وإن أمسى له حسب وخِيرُ
ويقصيه النديّ وتزدريه ... حليلتُه وينهره الصغيرُ
وتُلفي ذا الغنى وله جلالٌ ... يكاد فؤاد صاحبه يطيرُ
قليل ذنبه والذنبُ جَمٌ ... ولكن للغني ربٌ غفورُ

* * *

وقال زيد بن عمرو بن نفيل:

وَيكانّ من يكن له نَشبٌ يُحبب ... ومن يفتقر يَعش عَيشَ ضرّ
ويجنّب سرّ النجيّ ولكنّ ... أخا المال مُحضَرٌ كل سِرّ

* * *

وقال آخر:

ألم ترَ بيت الفقر يُهجَرُ أهلُه ... وبيتَ الغِنى يُهدى له ويُزارُ

* * *

وقال آخر:

إذا ما قلّ مالك كنت فرداً ... وأيّ الناس زُوّار المُقِلّ؟

* * *

وقال عبد العزيز بن زُرارة:

وما لبّ اللبيب بغير حظّ ... بأغنى في المعيشة من فَتيل
رأيت الحظ يستر عيب قوم ... وهيهات الحظوظُ من العقولِ

وقال الطائي:

الصبر كاس وبطن الكف عاريةٌ والعقلُ عارٍ إذا لم يُكسَ بالنَشَب

ما أضيع العقل إن لم يرعَ ضيعته وَفرٌ وأيّ رحىً دارت بلا قطب؟

* * *

وقال آخر:

عِش بجدّ ولا يضرّك نَوكٌ إنما عيشُ من ترى بالجدودِ

عِش بجدّ وكن هَبنقةَ القيسيّ نوكاً أو خالدَ بن يزيدِ

* * *

وقال الطائي:

يَنالُ الفتى من عيشه وهو جاهل وُيكدي الفتى في دهره وهو عالمُ

ولو كانت الأرزاق تجري على الحِجا هَلكنَ إذاً من جهلهن البهائمُ

* * *

وقال المرار:

إذا لم تُرافد في الرفاد ولم تَسُق عدواً ولم تستغنَ فالموت أروحُ

* * *

وقال ابن الدمَينة الثقفي:

أطعت العِرس في الشهوات حتّى أعادتني عسيفاً عبدَ عبدِ

إذا ما جئتها قد بعت عَدقاً تُعانِقُ او تقبّل أو تفدّي

* * *

وقال الأسعر الجعفي:

وخصاصة الجُعفي ما داينته لا ينقضي أبداً وإن قيل انقضى

اخوانُ صدقٍ ما رأوك بغبطة فإن افتقرت فقد هوى بك ما هوى

* * *

وقال آخر:

إذا المرء لم يكسب معاشاً لنفسه شكا الفقر أو لاقى الصديق فاكثرا
وصار على الأدنين كلاً وأوشكت صِلاتُ ذوي القربى له أن تنكَّرا
فسِر في بلاد الله والتمس الغنى تَعش ذا يسارٍ أو تموتَ فتُعذرا
وما طالب الحاجات من حيث تبتغى من الناس إلاَّ من أجدَّ وشمّرا
فلا ترض من عيشٍ بدونٍ ولا تَنمَ وكيف ينام الليل من كان مُعسِرا

* * *

وقال آخر:

من جمع المال ولا يثب به ويترك العامَ لعام جَدبِهِ
يَهنُ على الناس هوانُ طَلِبِهِ

قال الأصمعي: سأل أعرابي عن رجل فقالوا: أحمق مرزوقٌ، فقال: ذاك والله الرجل الكامل. وكان يقال: من حفظ ماله فقد حفظ الأكرَمين: الدِينُ والعِرض. ويقال في بعض كتب الله: أطعني فيما آمرك ولا تُعلِمني بما ينفعُك، وامدد يدك لباب من العمل أفتح لك باباً من الرزق. وكان يقال: من غَلى دماغُه في الصيف، غلت قِدره في الشتاء. ويقال: حفظُ المال أشدُ من جمعه. وقال الحسن: إذا أردتم أن تعلموا من أين أصاب المال فانظروا فيم ينفقه، فإن الخبيث يُنفَقُ سَرَفاً. ونحو قولهم: من أصاب مالاً من نَهاوِش أذهبه الله في نَهابِر.

ويقال في مثل: (الكدّ قبل المد). يراد الطلب قبل العجاجة والعجز.

وقال أبو المعافى:

وإنّ التواني أنكح العَجزَ بنتَه ... وساق إليها حين زوّجها مَهرا
فراشاً وطيئاً ثم قال لها اتّكي ... قصاراهما لا بدّ أن يَلدِ الفقرا

شكا نبيّ من الأنبياء إلى الله شدة الفقر، فأوحى الله إليه: هكذا جرى أمرك عندي، أفتريد من أجلك أن أعيدَ الدنيا.

قال الأصمعي: رأيت أعرابية ذات جمال رائع تسأل بمنى فقلت: يا أمة الله تسألين ولك هذا الجمال؛ قالت: قدّر الله فما أصنع؟ قلت: فمن أين معاشكم؟ قالت: هذا الحاج نتقممهم ونغسل ثيابهم، فقلت: فإذا ذهب الحاج فمن أين؟ فنظرت إليّ وقالت: يا صلب الجبين! لو كنّا إنما نعيش من حيث نعلمُ لما عشنا. وقال الشاعر:

أتُراني أرى من الدهر يوماً ... لي فيه مطيّةٌ غيرُ رِجلي
وإذا كنتُ في جميع فقالوا ... قرّبوا للرحيل قدّمتُ نَعلي
حيثما كنت لا أخلّف رحلاً ... من رآني فقد رآني ورَحلي

* * *

ومما جاء في مدح الغنى وذم الفقر:

قال الراغب الإصبهاني في (المحاضرات):

منفعة المال ديناً ودنياً:

كان النبي ﷺ يقول: «اللّهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفة والغنى».

وقال ﷺ: «نعم العون على تقوى الله المال».

وقال أبو قلابة: الغنى من العافية. نظر أعرابي إلى دينار فقال: ما أصغر مرآك وأكثر منافعك.

ابن رومي:

لم أر شيئاً صادقا نفعه   للمرء كالدرهم والسيف
يقضي له الدرهم حاجاته   والسيف يحميه من الحيف

وقيل: نعم العون على الدين اليسار. شاعر في معناه:

ما أرسل الإنسان في حاجة   أقضى من الدرهم في كمّهِ

* * *

آخر:

إذا ما خليلي صدّ عني بنبوة   فدرهمي المنقوش خير خليل

* * *

أحمد بن أبي طاهر:

ولا يساوي درهماً واحداً   من ليس في منزله درهمٌ

* * *

آخر:

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له   دنانير فيها جمة ودراهمُ

وقيل في قوله: فأرسل حكيماً ولا توصّهِ. إنه الدرهم، وقيل الدرهم هو الأخرس النجيح، قال وهب بن منبه: الدرهم والدينار خواتيم رب العالمين، أينما بعث قضى الحوائج.

محبة الناس للمال:

قال عمرو بن العاص لمعاوية: ما أشد حبك للمال؟ قال: ولم لا أحبّه وأنا أتعبد به مثلك، وأبتاع به مروءتك ودينك.

قال بعض الفرس: من زعم أنه لا يحب المال فهو عندي كاذب حتّى يثبت صدقه، وإذا ثبت صدقه فهو عندي أحمق.

وقيل لابن زياد: لم تحبّ الدراهم وهي تدنيك من الدنيا؟ فقال: هي وإن أدنتني منها، فقد أغنتني عنها.

وقيل: تقليب الدرهم يوقف الشيب، ويزيل الهم والعيب.

وقيل: من نقر درهماً زرع في قلبه شهوة.

تشاحح الناس بالمال:

قال يونس: لو أن الدنيا مملوءة دراهم على كل درهم مكتوب من أخذه دخل النار، لأمست وما على ظهرها درهم يوجد. وقيل: لما ضربت الدراهم والدنانير صرخ إبليس صرخة، وجمع أصحابه، فقال: قد وجدت ما استغنيت به عنكم في تضليل الناس، فالأب يقتل ابنه، والإبن يقتل أباه بسببه.

وصف أنواع المال وتفضيل بعضها على بعض:

سئل أبو كرب عن أصناف الأموال؟ فقال: أما الماشية فإنها تقبل مع السنة إذا أقبلت، وتدبر معها إذا أدبرت، وأما الرقيق فإنه يغدو عليها ضرّها ونفعها، وقليل الضر يأتي على كثير النفع، والصامت مال من لا مال له؛ لأنه إن أنفقه أتلفه، وإن أمسكه أهان به نفسه، وكان كمن لا مال له، وقال: خير المال ما أطعمك ما لا تطعمه. قال عبد الله بن الحسن: غلة الدور مسألة، وغلة النخل

كفاف، وغلة الحب غنى. وقيل للأحنف: أي المال أبقى وأوفى؟ فقال: المساكن والأرضون. وقيل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً﴾[1] إن له غلة شهر بشهر. وقيل لمجنون: لِمَ صار الدينار خيراً من الدرهم، والدرهم خيراً من الفلس؟ فقال: الفلس ثلاثة أحرف، والدرهم أربعة أحرف، والدينار خمسة. وقيل لآخر: لِمَ صار لون الذهب أصفر؟ فقال: لأن طلاّبه كثير. وقيل لآخر؟ فقال: لخوف الدفن. وقيل لرجل: لِمَ فضّل الدينار على الدرهم؟ فقال: لأن الدينار يؤدي إلى النار، والدرهم دارُ هَمٍّ، وعذاب الهَم عاجل، وعذاب النار آجل، وإلى ذلك محيا وممات. ودفع إلى أعرابي دينار فحمله إلى الصراف فملأ له يديه دراهم، فقال: ما أصغر منظرك، وأعظم مخبرك. وقال أنصاري لابن عبد الرحمن بن عوف: ما ترك أبوك لك من المال؟ فقال: ترك أموالاً كثيرة، فقال: ألا أعلمك ما هو خير لك مما ترك أبوك؟، قال: نعم. قال: اعلم أنه لا مال لعاجز، ولا ضياع على حازم، والرقيق جمال وليس بمال، فعليك من المال ما يعولك لا بما تعوله.

وصف الحيوان من المال:

قيل لابنة الحسن: ما تقولين في مائة من المعز؟ قالت: غنى، قيل وفي مائة من الضأن؟ قالت: قنى، قيل: وفي مائة من الإبل؟ قالت: منى، قيل: فما تقولين في الحمار؟ قالت: أخزا والله مال لا يزكّى ولا يذكّى. وقيل لرجل: أي مركب إذا كان أكبر كان أنذل؟ فقال: الحمار. قيل لآخر: أي المال أحب إليك؟ فقال: الذي يقيم بقيامي، ويظعن بظعني، يحملني ومالي وداري، يعني الإبل. وعلى عكسه قول الآخر:

وإنّ اقتناء النوق موق وحرفة ... يبيت على يسر ويغدو على ثكل

---

(١) المدثر: ١٢.

قدر ما يحمد من المال:

قال النبي ﷺ: «نعم المال الأربعون، والكثير الستون، وويل لأصحاب المائتين، إلاّ من أعطى في نجدتها، ونحر سمينها، ومنح لبونها، وأطرق فحلها، وأفقر ظهرها». قال خالد بن صفوان: من كان له مال كفافاً فليس بغني ولا فقير؛ لأنّ النائبة إذا أتت أجحفت بكفافه، ومن كان ماله دون الكفاف فهو فقير، ومن كان ماله فوق الكفاف فهو غني.

وصف درهم أو دينار ثقيل الوزن:

كان المتوكل ضرب دراهم، وزن كل واحد عشرة، وعلى جانب منه مكتوب:

أمازحها فتغضب ثمّ ترضى ... وكل فعالها حسن جميلُ

وعلى الآخر:

فإن غضبت فأحسن ذي دلال ... وإن رضيت فليس لها عديلُ

ووجد في خزانة جعفر بن يحيى دنانير في كل دينار مائة مثقال، ومثقال نقشه:

وأصفر من ضرب دار الملوك ... يلوح على وجهه جعفرُ

يزيد على مائة واحداً ... إذا ناله معسر يوسر

* * *

وأهدى عضد الدولة إلى ركن الدولة دنانير كل دينار منها مائة مثقال ونقشه:

بذكر الله أكرم مستجار ... ضربناه من الذهب النضار

جعلا وزنه مائة فأضحى ... عديم الند مفقود النجار

لنهديه إلى الركن المرجى ... بويه إلى عليّ ذي الفخارِ

وأمر الصاحب أن يضرب دينار من ألف مثقال، وأهداه إلى فخر الدولة وكتب عليه:

وأحمر يحكي الشمس شكلاً وصورة ... وأوصافه مشتقة من صفاتهِ

فإن قيل دينار فقد ذكر اسمه ... وإن قيل ألف كان بعض سماتهِ

بديع فلم يطبع على الدهر مثله ... وإن ضربت أضرابه ببراتهِ

لقد أبرزته دولة فلكية ... أقام بها الأفلاك صدر قناتهِ

وصار إلى شاهان شاه انتسابه ... على أنه مستصغر لعفاتهِ

تأنق فيه عبده وابن عبده ... وغرس أياديه وكافي كفاتهِ

* * *

وصفهما إذا كانا خفيفين:

كان المتوكل أمر أن يضرب له ألف ألف درهم في كل درهم قيراط لينثره مكان الورد، وأمر بأن تصبغ صفراً وحمراً وخضراً، وكان الدرهم يبقى في الهواء بقاء الورد. العبّاس في وصف دينارين خفيفين:

جاء بدينارين لي جعفر ... أصلحه الله وأخزاهما

وكاد لا كانا ولا أفلحا ... عليهما يرجح ظلاّهما

* * *

ابن الرومي في دينار خفيف:

كأنه في الكف من خفة ... مقداره من صفرة الشمس

وقيل لرجل: ما أولاك فلان؟ فقال: درهماً، كأنما عناه الشاعر بقوله:

قربنا والعيون ترمقه ... تجرح منه مواضع القبل

وصف مال بالكثرة:

قيل: هو في خير لا يطير غرابه، ووجد فلان تمرت الغراب وعنده عائرة عير، وله كحل وسواد، والنشب والعوض والطم والرم، وجاء بما صأى وصمت، وبالضح والريح.

كون المال موفياً على الحسب والنسب:

قال النبي ﷺ: «إن أحساب أهل الدنيا الذي يذهبون إليه، هذا المال» وفي المثل: رب حسب دفنه الفقر، شاعر:

وأجهد الناس من بعنصره ... يزهو على يزينه النسبُ

وقف أعرابي من بني فقعس يسأل وهو عريان:

كساني فقعس وكسا بنيه ... عطاف المجد أنّ له عطافا

فقال له بعض الحاضرين: لو كساك خرقة تواريك لكان أصلح لك.

من سوّده ماله:

قيل: المال يسود غير السيد، ويقوي غير الأيد، شاعر:

الفقر يزري بأقوام ذوي حسب ... وقد يسوّد غير السيد المال

حياك من لم تكن ترجو تحيته ... لولا الدراهم ما حياك إنسان

تعظيم الناس لذوي المال:

قيل للحسن رضي الله عنه: ما بال الناس يكرمون أرباب المال؟ فقال: «لأنّ عشيقهم عندهم». ومرّ موسى بالشعبي فتزعزع له، فقيل له في ذلك، فقال: رأيت ذا المال مهيباً، وعوتب ابن أبي ليلى لتخفّره لغني مرّ به، فقال: إن

تعظيم ذوي المال شيء جعله الله في القلوب لا يستطاع دفعه. وقال العطوي:

أقصد إلى أي ودّ شئت معتصماً بحبل ودّ فلا ذئب ولا ضبعُ
المال أعضب سيف عند صولته من أن يعنّ له في منهل سبعُ

* * *

وهذا كقول بعض اللصوص لبعض أصحابه: لا تنقبوا على غني، وكونوا مع الله على المدبر.

مصادقة الناس للأغنياء ومعاداتهم للفقراء:

قيل لبعض العقلاء: كم لك من صديق؟ فقال: لا أعلم ذلك لأن الدنيا مقبلة عليّ، والأموال موجودة عندي، وإنما أعرف ذلك إذا ولّت ألم تسمع قول طريح:

الناس أعداء لكل مدقع صفر اليدين وأخوة للمكثر

ولما استوزر عليّ بن عيسى ورأى اجتماع الناس عليه تمثل بقول أبي العتاهية:

ما الناس إلاّ مع الدنيا وصاحبها فكيف ما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظّمون أخا الدنيا فإن وثبت يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

* * *

وقال آخر:

إذا مالت الدنيا على المرء رغّبت إليه ومال الناس حيث يميلُ

* * *

ومثله لأبي العتاهية:

النـــاس أخـــوة نعمـــة ... لله مـــا دامـــت عليكـــا

* * *

وقول الآخر: إنّ الحبيب إلى الاخوان ذو المال.

وقال آخر: الناس خلاّنك ما لم تفتقر.

وقيـل: إذا أيسـرت فكـل رجـل رحلـك، وإذا افتقـرت أنكـرك أهلـك.
وقيل: العسرة والعشرة لا يجتمعان. وقيل: الناس لذي المال.

قال بشار:

يـــزدحم النـــاس علـــى بابـــه ... والمنهـل العـذب كثيـر الزحـام

وقال آخر: إن الغنى يهدي لك الزوّارا.

آخر: وأيّ الناس زوّار المقلّ.

الفقر مجمع العيوب:

قيـل: الفقـر مجمـع العيـوب، وقـال بعضـهم: وجـدت خيـر الـدنيا والآخـرة فـي شـيئين: وشـرهما فـي شـيئين، خيرهمـا الغنـى والتقـى، وشـرهما الفقر والفجور. قال جرير:

تـــرادفهم فقـــر قـــديم وذلـــة ... وشـرّ الرديفـات المذلـة والفقـر

وقيل: ما روي أجود من قول عروة في ذم الفقر:

ذرينـــي للغنـــى أســـعى فـــإني ... رأيـــت النـــاس شـــرهم الفقيـــر

ومـا مـن خصـلة تكـون للغنـي مـدحاً إلاّ وتكـون للفقيـر ذمـاً، إذا كـان حليمـاً قيـل هـو بليـد، وإذا كـان شـجاعاً قيـل هـو أهـوج، وإذا كـان لسـناً قيـل مهذار، ولقد صدق من قال:

إن ضرط الموسر في مجلس   قالوا له يرحمك الله
أو عطس المفلس في مجلس   سُبَّ وقالوا فيه ما شاءوا
فمضرط الموسر عِرنينه   ومعطس المعسر مفساه

* * *

قال حسان:

رُبَّ حلم أضاعه عدم المال   وجهل غطّى عليه النعيم

* * *

وكان الحسن ﷺ إذا رأى المساكين قال: هؤلاء مناديل الخطأ، وقيل: الخلة تقدح في الذهن، وتغمز في العقل.

خفة الموت في جنب الفقر:

قيل: القبر ولا الفقر.

ولا الموت خير للفتى من قعوده   عديماً ومن مولى تدبّ عقاربه

* * *

وقال آخر:

خير مال الفقير عند ذوي الأ   لباب أن تنطوي عليه القبور

* * *

ابن طباطبا:

قد يصبر الحرّ على السيف   ويجزع الحرّ من الحيف
ويؤثر الموت على حالة   يعجز فيها عن قِرى الضيف

* * *

التعوذ من الفقر وكونه كالكفر:

كان النبي ﷺ يتعوذ من الكفر والفقر، فقال له رجل: أيستويان؟ فقال: «نعم، كاد الفقر أن يكون كفراً»، ودعا رجل لمسروق فقال: جنبك الله الفقر وطول الأمل، وقال سفيان: كان من دعائهم: اللهم زهّدنا في الدنيا ووسعها علينا، ولا تزوها عنا وترغبنا فيها. وقال المجوس: من لا مال له لا عقل له، ومن لا عقل له فلا دنيا له ولا دين.

عدم المجد حيث عدم المال:

كان طلحة يقول: اللهم ارزقني مجداً ومالاً، فلا يصلح المجد إلاّ بالمال، ولا يصلح المال إلاّ بالأفعال. قال المتنبي وقد أخذ هذا المعنى:

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

* * *

وقال هرم بن عمير التغلبي:

إني امرؤ هدم الإقتار مأثرني ... واجتاح ما بنت الأيام من خطري

أرومة عطلتني من مكارمها ... كالقوس عطلها الرامي من الوتر

* * *

ومما يناقض هذا الباب قول جرثومة بن مالك:

فتىً إن تجد معوزاً من تلاده ... فليس من الرأي الأصيل بمعوز

* * *

وقال الأحنف:

وإن المروءة لا تستطاع ... إن لم يكن ماله فاضلا

صعوبة الفقر على ذي همة وجود:

قيل لحكيم: من أشقى الناس؟ فقال: من اتسعت معرفته، وضاقت مقدرته. وقال أعرابي: لا تنظر إلى هيأتي، وانظر إلى همتي.

قال الطرماح:

أرى نفسي تتوق إلى أمور ... ويقصر دون مبلغهنّ مالي

فنفسي لا تطاوعني لبخل ... ومالي لا يبلّغني فعالي

* * *

قال المتنبي:

إلى الله أشكو لا إلى الناس انني ... أرى صالح الأخلاق لا أستطيعها

أرى خلة في اخوة وقرابة ... وذي رحم ما كنت ممن يضيعها

* * *

صعوبة الفقر على متعودي اليسر:

كان النبي ﷺ يتعوذ من الحور بعد الكور، وقال: «ارحموا ثلاثة: عزيز قوم ذل، وغنيّ قوم افتقر، وعالماً بين جهال». وقيل: جهد البلاء أن تزول النعمة، وتبقى العالة، ثمّ لا تعدم صديقاً مؤنبا وعدواً شامتاً، وزوجة مختلفة، وجارية مستبيعة، وعبداً يحقّرك، وولداً ينتهرك. وأتي عبد الله بن معاوية بأسير، فقال: هذا هو جهد البلاء، فقال الأسير: كلا جهد البلاء فقر مدقع بعد غنى موسع.

صعوبة مقاساة الجوع:

قتل رجل بصفين أبا امرأة وأخاها وابنها وعمها وعشرين من أهل بيتها، ثمّ أتت تسأله، فقال: ما أظن على ظهر الأرض أبغض إليك مني، فقالت: بلى إن الذي الجأني إليك أبغض إليّ منك، وهو جوع بطني.

وأخذ رجل بلجام عبد الملك، فقيل له: ما جرأك؟ فقال: الجوع شجاع. وقيل: الجائع فقير ضيق النفس، والشبعان واسع الصدر غني النفس.

ستر الحال في العسر واليسر:

قال عبد الملك للهيثم بن الأسود: كم مالك؟ فلم يخبره به، فقيل له في ذلك؛ فقال: صاحب المال باحدى منزلتين: إن كان كثيراً حسد، وإن كان قليلاً حقّر. وقيل: رضي بالذل من كشف ضرّه، وبالحسد من كشف يسره.

شاك فقره الحاركي:

من كانت الدنيا له شارة ... فنحن من نظارة الدنيا

نرمقها من كثب حسرة ... كأننا لفظ بلا معنى

* * *

قال العطوي:

أنا طرح بين خلا... ... ت حديدات الفصال

بين دين وشناء... ... وعيال واختلال

متعذر لفقره بأن الجود فرّق ماله:

طلب قوم ابن هرمة فلم يجدوه في منزله، فقالوا: لابنته أقرينا، قالت: ما لنا شيء، قالوا: فأين قول أبيك؟

لا أمتع العود بالفصال ولا ... أبتاع إلاّ قصيرة الأجل

فقالت: فذلكم الذي منعكم القرى.

قال دعبل:

قالت سلامة أين المال قلت لها ... المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا

الحمد فرّق مالي في الحقوق فما ... أبقين ذماً ولا أبقت له نشبا

قال جحظة:

جاء الشتاء وما عندي له ورق ... مما وهبت وما عندي له خلعُ
كانت فبددها جود ولعت به ... وللماسكين أيضاً بالندى ولعُ

* * *

من نسي فقره بعد زواله:

قال الشاعر:

يعيش الفتى بالفقر يوماً وبالغنى ... وكل كأن لم يلقَ حين يزايله

وقال آخر:

كأن الفتى لم يعرَ يوما إذا اكتسى ... ولم يكُ صعلوكاً إذا ما تمولا

تأسف من ضيع ماله ثمّ احتاج إليه:

قال الشاعر:

وكان المال يأتينا فكنا ... نبذّره وليس لنا عقولُ
فلما أن تولى المال عنا ... عقلنا حين ليس لنا فضولُ

* * *

تأسف من وجد خيراً لم ينتفع به:

قال القلاّبي: دخلت على الجاحظ في منصرفي من عند السلطان وقد حسنت حاله واشتدّت علته، فسألته، فقال: كنا إذا أردنا لم نجد حتّى إذا وجدنا لم نرد.

الموصوف بالفقر والجهل:

قال الشاعر:

يظل عديم أموال ولبٍ ... يرقّ له المكاشح والمعادي

وسئل أعرابي عن رجل، فقال: ما له حول ولا معقول، ولا مال ولا حال.

النهي عن البطر عند الغنى وذم ذلك:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[1] وقيل: البطر يقتضي الفقر، والنظر يقتضي العبر، وقيل: أكثر شكر الله على نعمه، فالبطر من قلة الشكر، قال الشاعر:

خلقان لا أرضى طريقهما ... خلق الغنى ومذلة الفقر

فإذا غنيت فلا تكن بطراً ... وإذا افتقرت فَتِه على الدهر

* * *

وفي كتاب كليلة ودمنة، لا ينظر العاقل لمنزلة أصابها، كالجبل الذي لا تزلزله الرياح الشديدة، والسخيف تبطره أدنى منزلة، كالحشيش الذي تحركه أدنى الرياح، وقيل سوء حمل الغني أن يكون مرحاً، وسوء حمل الفقر أن يكون الطلب شرهاً، وقيل: حمل الغني أشد من حمل الفقر، مؤونة الشكر أصعب من مشقة الصبر، وقال بعضهم: فيمن لا يبطر ولا يمكنه ستر غناه:

تأبى الدراهم إلاّ كشف أرؤسها ... إن الغنيّ طويل الذيل مياس

* * *

(١) العلق: ٦.



قوله عليه السلام:

الْقَنَاعَةُ مَالٌ لا يَنْفَدُ.

(نهج البلاغة ٤: ١٤)

[القناعة في الفكر الإسلامي]

قال ابن أبي الحديد:

قد ذكرنا نكتاً جليلة الموقع في القناعة فيما تقدم، ونذكر ههنا زيادة على ذلك. فمن ذلك كلام الحكماء: قاوم الفقر بالقناعة، وقاهر الغنى بالتعفف، وطاول عناء الحاسد بحسن الصنيع، وغالب الموت بالذكر الجميل.

وكان يقال: رجلان: واجد لا يكتفي، وطالب لا يجد. أخذه الشاعر فقال:

وما الناس إلاّ واجد غير قانع بأرزاقه أو طالب غير واجدِ

قال رجل لسقراط رآه يأكل الحشيش: لو خدمت الملك لم تحتج إلى أن تأكل الحشيش. فقال له: وأنت لو أكلت الحشيش لم تحتج أن تخدم الملك.[1]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

القناعة هي ضبط قوة النفس عن الإشتغال بما يخرج عن مقدار الكفاية ومبلغ الحاجة، من المعاش والأقوات، وعدم ما يشاهدُ من ذلك

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٩٢.

عند الغير، واستعار لها لفظ يوصف عدم النفاد باعتبار دوام الغنى معها كالمال الموصوف.(١)

* * *

وفي (منهاج البراعة):(٢)

قال: المال متاع يصرفه الإنسان فيما يحتاج إليه من حوائجه وشهواته، وإذا قنع الإنسان بما تيسّر له من الحوائج، وكفّ عن الزوائد مادّة وكيفيّة، وضبط نفسه عن الإشتغال بما يخرج عن مقدار الكفاية ومبلغ الحاجة، فله مال لا ينفد.

* * *

وقال ابن مغنية:

القناعة أن ترضى بما تيسر من الحلال، وتيأس عما في أيدي الناس، ومن البداهة أن من رأى الثروة فيما تيسّر له من حلال يستحيل أن تنفد ثروته؛ لأن المفروض أن الميسور هو الثروة بالذات، وإن غير الميسور لم ينظر إليه على الإطلاق، وكان النبي ﷺ في طعامه لا يردّ موجوداً، ولا يتكلف مفقوداً.(٣)

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٥: ٢٧١.

(٢) ج ٢١: ٣٧.

(٣) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٥١.

أقول: ضبط الألفاظ اللغوية:

في (مجمع البحرين):[(١)]

القناعة بالفتح: الرضا بالقسم، ومنه (القانع) وهو الذي يقنع بما يصيبه من الدنيا وإن كان قليلاً، ويشكر على اليسير.

وفي الحديث: «القناعة كنز لا ينفد» وذلك لأن الإنفاق منها لا ينقطع كلما تعذر عليه شيء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضي.

وفيه: «عز من قنع، وذلّ من طمع» وذلك لأن القانع لا يذلّه الطلب، فلا يزال عزيزاً. ومن أمثالهم: «خير الغنى القُنوع» بالضم، أعني القناعة.

وفي الحديث: «القانع غني وإن جاع وعَري» ومن قنع استراح من أهل زمانه، واستطال على أقرانه، ومن قنع فقد اختار الغنى على الذل، والراحة على التعب. انتهى.

* * *

[تعريف القناعة وعناصرها]:

القناعة هي الإكتفاء باليسير من الخير، ويتصف بها من الناس قليل الطمع، قصير الطموح، ومن مظاهرها أن يشعر القانع بالغبطة والسرور، وأن يكون بمنأى عن المجازفة، وألاّ يطمع إلى نيل بعيد الأماني، وأن يبذل المجهود في الوصول إلى الضروري.

* * *

جاء في المجلد الأوّل من الخلق الكامل (ص ٤١٧):

عناصر القناعة خمسة: الرضا بالكفاف، والإجمال في الطلب،

---

(١) ج ٣: ٥٥٣.

والإطمئنان إلى القدر، والتوكل على الله، والزهد في الدنيا. هذه هي القناعة وهي الغنى الحقيقي.

قال عليه السلام: «ليس الغِنى عن كثرةِ العَرَض، ولكن الغِنى غنّى النفس». أي أن الغنى غنى النفس وشبعها وقله حرصها، لا كثرة المال مع الحرص على الزيادة؛ لأن من كان طالباً للزيادة لم يستغن بما معه، فليس له غنى، ولذلك قال عليه السلام: «القناعة كنز لا يَنفَدُ»، إذ الانفاق منها لا ينقطع؛ لأن صاحبها قد حصر رغباته فيما تحت يده، وكلما تعذر عليه شيء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضي، وهذه هي السعادة التامة.

إذا شئت أن تحيا سعيداً لا تكن ... على حالة إلاّ رضيت بدونها
ومن طلب العليا من العيش لم يزل ... حقيراً وفي الدنيا أسير غبونها

لذلك يجب على من رزق الكفاية، ووجد القصد من السعادة الخارجة ألاّ يشتغل بفضول العيش؛ فإنها بلا نهاية، ومن طلبها أوقعته في مهالك لا نهاية لها؛ إذ الغرض الصحيح من الكفاف والقصد مداواة الآلام، والتحرز من الوقوع فيها، لا التمتع وطلب اللذة فإن ذلك يأتي عرضاً لا قصداً، ومن عالج الجوع والعطش اللذين هما مرضان مؤلمان حادان لا ينبغي له أن يقصد لذة البدن بل صحته، فالعاقل يأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل، ومع ذلك فالذي يقصد صحة البدن سيلتذ لا محالة، وأما من طلب بالعلاج اللذة لا الصحة فلا تحصل له الصحة، ولا تبقى له اللذة، وأما من لم يرزق الكفاية واحتاج إلى السعي والإضطراب في تحصيلها، فيجب ألا يتجاوز القصد وقدر حاجته منها إلى ما يضطره إلى السعي الحثيث والحرص الشديد، والتعرض لقبيح المكاسب أو ضروب

المهالك والمعاطب، بل يجمل في طلبها إجمال العارف بخساستها، العالم بأنه يضطر إليها لنقصانه، فيطلب منها القدر الضروري.

فالاقتصار على الكفاف والسعي إلى القوت لحفظ النفس والبدن أمر لا بدّ منه، وأما الإيغال في ذلك والإفراط فيه فمشغلة لا حدّ لها وعناء لا غاية له، ومدعاة إلى الخروج عن جادة الشريعة، روي عن النبي ﷺ أنه خطب الناس فكان من خطبته قوله:

«والله ما أخشى عليكم أيها الناس إلاّ ما يُخرج الله لكم من زهرة الدنيا»، فقال رجل: يا رسول الله أيأتي الخير بالشر؟ فصمت رسول الله ﷺ ساعة، ثمّ قال: «كيف قلت؟» قال: قلت: يا رسول الله أيأتي الخير بالشر؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إن الخير لا يأتي إلاّ بخير، أو خيرٌ هو؟ إنّ كل ما يَنبِتُ الربيع يَقتُلُ حَبَطاً، أو يُلِمُّ، إلاّ آكِلَةَ الخُضِر، أكلت حتّى إذا امتلأت خاصِرَتاها استقبلت الشمس ثلَطَت، أو بالَت، ثمّ اجتَرتَ فعادت فأكلت، فمن يأخذ مالاً بحقه يُبارَك له فيه، ومَن يأخذ مالاً بغير حقه فمثله كمثل الذي يأكل ولا يَشبَع».

ومعنى هذا الحديث: أن النبي ﷺ حذّرهم من زهرة الدنيا، وخاف عليهم منها، فقال هذا الرجل: إنما يحصل ذلك لنا من جهة مباحة كغنيمة وغيرها، وذلك خيرٌ، وهل يأتي الخير بالشر؟ وهو استفهام إنكار واستبعاد، أي يبعد أن يكون الشيء خيراً، ثمّ يترتب عليه شر، فقال له النبي ﷺ: أما الخير الحقيقي فلا يأتي إلاّ بخير، أي لا يترتب عليه إلاّ خير، ثمّ قال: أو خيرٌ هو؟ معناه أن هذا الذي يحصل لكم من زهرة الدنيا ليس بخير، وإنما هو فتنة، وتقديره: الخير لا يأتي إلاّ بخير، ولكن ليست

هذه الزهرة بخير، لما تؤدي إليه من الفتنة، والمنافسة، والاشتغال بها عن كمال الإقبال على الآخرة، ثمّ ضرب لذلك مثلاً، فقال ﷺ: «إنّ كل ما يُنبتُ الربيع يقتلُ حَبَطاً أو يُلم إلاّ آكلةَ الخُضَر...» إلى آخره.

ومعناه: أن نبات الربيع وخضره يقتل حبطاً بالتخمة لكثرة الأكل أو يقارب القتل، إلاّ إذا اقتصر منه على اليسير الذي تدعو إليه الحاجة، وتحصل به الكفاية المقتصدة؛ فإنه لا يضر، وهكذا المال هو كنبات الربيع مستحسن تطلبه النفوس وتميل إليه، فمنهم من يستكثر منه ويستغرق فيه، غير صارف له في وجوهه، فهذا يهلكه، أو يقارب إهلاكه، ومنهم من يقتصد فيه فلا يأخذ إلاّ يسيراً، وإن أخذ كثيراً فرّقه في وجوهه، كما تَثلِطه الدابة، فهذا لا يضرّه.

قال الأزهري: فيه مثلان: أحدهما للمكثر من الجمع المانع من الحق؛ وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل»؛ لأن الربيع ينبت أحرار البقول فتستكثر منه الدابة حتّى تهلك، والثاني للمقتصد، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «إلاّ آكلة الخضر»؛ لأن الخضر ليس من أحرار البقول.

قال القاضي عياض: ضرب ﷺ لهم مثلاً بحالتي المقتصد والمكثر، فقال ﷺ: أنتم تقولون: إن نبات الربيع خير، وبه قوام الحيوان، وليس هو كذلك مطلقاً؛ بل منه ما يقتل أو يقارب القتل، فحالة المبطون المتخوم كحالة من يجمع المال، ولا يصرفه في وجوهه، فأشار ﷺ إلى أنّ الاعتدال والتوسط في الجمع أحسن، ثمّ ضرب مثلاً لمن ينفعه إكثاره وهو التشبيه بآكل الخضر، وهذا التشبيه لمن صرفه في وجوهه الشرعية، ووجه الشبه أنّ هذه الدابة تأكل من الخضر حتّى تمتلئ خاصرتها، ثمّ تثلط، وهكذا من يجمعه ثمّ يصرفه.

القناعة والعمل:

يظن بعض المتعالين الذين لم ينشؤوا نشأة دينية، فلم يتذوقوا طعم الدين، ولم يتغذوا بلبانه، أنّ القناعة، والرضا، والقضاء، والقدر، والتوكل، والزهد أمور تدعو إلى الجمود والخمول والكسل والتأخر، اعتقاد فاسد، ووهم خاطئ، يدلّ على جهالة جهلاء، وضلالة عمياء؛ فإنّ الشرع أمر بالسعي إلى العيش وحث على الجد في تحصيل الرزق، وكانت دعوته إلى هذه الأمور ليكون المرء في عمله غير مروع القلب، ولا مشتت الفكر، بل رابط الجأش ثابت الجنان معتمد على الله في عمله، مستمداً منه المعونة، ثمّ هو بعد ذلك لا يحزنه فوت المطلوب، ولا يبطله نيل المرغوب، إذ النتيجة من تقدير الملك القادر، وما عمله هذا إلاّ سبب ظاهر، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(١).

وقد جمع الله تعالى القناعة والرضا والقضاء، والقدر والتوكل والزهد في قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(٢).

فأنت ترى بهذا أن الدين قد دعا إلى هذه الأمور لغاية سامية، وحكمة عالية، يتوقف عليها النجح في الأعمال بإتقانها، وبلوغ الآمال بإحكام وسائلها، هذه الحكمة وتلك الغاية هي غرس الإطمئنان في النفوس وقت القيام بالعمل، وإنزال السكينة على القلوب عند ظهور

---

(١) يونس: ١٠٧.

(٢) الحديد: ٢٢ و٢٣.

نتيجته، ولو كانت على غير المنتظر من حيث يعلم العامل أن ما وقع قد سبق تقديره من الحكيم الخبير، وأنه ليس له قوة على دفعه، بل مما يزيد اطمئنانه، ويثبت جنانه، اعتقاده أن الخير في الواقع، وأنه لو اطلع على الغيب لاختار ذلك الواقع، كما أخبر بذلك سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وأنه إنما سعى جهده لما كان يظنه خيراً، ولكن الخير الحقيقي هو ما أراده الله له.

فخير علاج لمن (تجري الرياح بما لا تشتهي) هو الرضا، وأما من لم يعتقد ذلك فيكون في عمله قلق الخاطر خوف الإخفاق، مشتت الفكر خشية الزلل، متوتر الأعصاب خيفة السقوط، ومن فرقه تتفرق قواه، فيكون عن الإتقان والايجادة بمنحاة، ويؤتى من ناحية معتقده، فيقع فيما يخشاه فيُرغي ويزبد ويبرق ويرعد ويبخع نفسه حزناً، وينتحر غماً وكمداً، فأين هذا ممن يسير في عمله مرتكناً على جانب ربّه، راضياً بقضائه، وأن ما سيكون، وعلى أي وجه يكون هو من آلائه ونعمائه، فيشكره على السرّاء والضرّاء، والشدة والرخاء، اللّهم إنّ الفرق بينهما لهو الفرق بين الإطمئنان والقلق، والأمن والفرق، والنجاة والغرق، واليأس والأمل، والنجاح والخيبة.

* * *

[**القناعة ضد الحرص**]:

ويتحدّث إلينا النراقي في كتابه جامع السعادات (ج ٢ ص ١٠٠) فيقول:

القناعة ضد الحرص، وهي ملكة للنفس توجب الإكتفاء بقدر الحاجة والضرورة من المال، من دون سعي ونصب في طلب الزائد عنه.

وهي صفة فاضلة يتوقف عليها كسب سائر الفضائل، وعدمها يؤدي بالعبد إلى مساوي الأخلاق والرذائل، وهي المظنة للوصول إلى المقصد، وأعظم الوسائل لتحصيل سعادة الأبد، إذ مَن قنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس، ويقتصر على أقلّه قدراً، أو أخسّه نوعاً، ويردّ أمله إلى يومه أو إلى شهره، ولا يشغل قلبه بالزائد عن ذلك، كان فارغ البال مجتمع الهمّ، فيتمكن من الاشتغال بأمر الدين وسلوك طريق الآخرة، ومن فاتته القناعة وتدنّس بالحرص والطمع وطول الأمل، وخاض في غمرات الدنيا، تفرّق قلبه وتشتت أمره، فكيف يمكنه التشمّر لتحصيل أمر الدين والوصول إلى درجات المتقين.

[ما ورد في مدح القناعة]:

ولذلك ورد في مدح القناعة ما ورد من الأخبار، قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به».

وقال ﷺ: «ما من أحد من غني وفقير إلاّ ودّ يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدنيا».

وقال ﷺ: «أيها الناس اجملوا في الطلب، فإنه ليس للعبد إلاّ ما كتب له في الدنيا، ولن يذهب عبد من الدنيا حتّى يأتيه ما كتب له في الدنيا وهي راغمة».

وقال ﷺ: «نفث روح القدس في روعي أنه لن تموت نفس حتّى تستكمل رزقها، فاتقوا الله واجملوا في الطلب».

وقال ﷺ: «كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قانعاً تكن أشكر الناس، وأحبّ للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً».

وفي الخبر القدسي: «يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلاّ القوت، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك، فأنا إليك محسن».

روي أن موسى سأل ربّه تعالى وقال: أيّ عبادك أغنى؟ قال: «أقنعهم لما أعطيته».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ابن آدم إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإنّ أيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت إنما تريد ما لا يكفيك فإنّ كل ما فيها لا يكفيك».

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «إياك أن تُطمح بصرك إلى من هو فوقك فكفى بما قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ﴾[1] وقال: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾[2].

فإن دخلك من ذلك شيء فاذكر عيش رسول الله صلى الله عليه وآله فإنما كان قوته الشعير وحلواء التمر، وقوده السعف إذا وجده».

وقال: «من قنع بما رزقه الله فهو من أغنى الناس».

وقال الصادق عليه السلام: «من رضي من الله باليسير من المعاش، رضي الله منه بالسير من العمل».

وقال: «مكتوب في التوراة: ابن آدم كن كيف شئت، كما تدين تدان، من رضي من الله بالقليل من الرزق، قَبِلَ الله منه اليسير من العمل، ومن رضي بالسير من الحلال خَفّت مؤونته وزكت مكسبته، وخرج من حدّ الفجور».

---

(١) التوبة: ٥٥.

(٢) طه: ١٣١.

وقال: «إن الله ﷻ يقول: يحزن عبدي المؤمن أن قتّرت عليه، وذلك أقرب له مني، ويفرح عبدي المؤمن إن وسعّت عليه، وذلك أبعد له مني».

وقال: «كلما ازداد العبد إيماناً ازداد ضيقاً في معيشته».

والأخبار الواردة في فضيلة القناعة أكثر من أن تحصى وما أوردناه كافٍ لأهل البصيرة.

* * *

[تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾]:

ومما قرأناه في المجلد الأوّل من المستطرف (ص ١٥٥):

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾(١) أن المراد بها القناعة، وقال رسول الله ﷺ: «القناعة مال لا ينفد»، وقيل: يا رسول الله ما القناعة؟ قال: «الأياس مما في أيدي الناس، وإياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر».

قال بشر بن الحرث: خرج فتى في طلب الرزق، فبينما هو يمشي فأعيا، فأوى إلى خراب يستريح فيه، فبينما هو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط، فتأملها فإذا هي:

إني رأيتك قاعداً مستقبلي ... فعلمت أنك للهموم قرينُ
هوّن عليك وكن بربك واثقاً ... فأخو التوكل شأنه التهوينُ
طرح الأذى عن نفسه في رزقه ... لمّا تيقن أنه مضمونُ

قال: فرجع الفتى إلى بيته ولزم التوكل، وقال: اللهم أدبنا أنت.

---

(١) النحل: ٩٧.

قال الجاحظ: إنما خالف الله بين طبائع الناس ليوفق بينهم في مصالحهم، ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك والسياسة والتجارة والفلاحة، وفي ذلك بطلان المصالح وذهاب المعايش، فكل صنف من الناس مزيّن لهم ما هم فيه، فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيراً أو خلفاً قال: ويلك يا حجام، والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال: ويلك يا حائك، فجعل الله تعالى الإختلاف سبباً للائتلاف، فسبحانه من مدير قادر حكيم، ألا ترى إلى البدوي في بيت من قطعة خيش معمد بعظام الجيف، كلبه معه في بيته، لباسه شملة من وبر أو شعر، ودواؤه بعر الإبل، وطيبه القطران، وبعر الضباء، وحلّي زوجته الودع وثماره البقل، وصيده اليربوع، وهو في مفازة لا يسمع فيها إلاّ صوت بومة وعواء ذئب، وهو قانع بذلك مفتخر به.

قال سعد بن أبي وقّاص: يا بنيّ إذا طلبت الغنى فاطلبه في القناعة فإنها مال لا ينفد، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس فإنّك لم تيأس من شيء إلاّ أغناك عنه. وأصاب داود الطائي فاقة كبيرة فجاءه حماد بن أبي حنيفة بأربعمائة درهم من تركة أبيه، وقال: هي من مال رجل ما أقدّم عليه أحداً في زهده وورعه وطيب كسبه، فقال: لو كنت أقبل من أحد شيئاً لقبلتها تعظيماً للميت واكراماً للحي، ولكني أحب أن أعيش في عز القناعة.

وقال عيسى عليه السلام: «اتخذوا البيوت منازل والمساجد مساكن، وكلوا من بقل البريّة، واشربوا من الماء القراح، واخرجوا من الدنيا بسلام.

وأنشد المبرّد:

إن ظنّ زيد بما في بطن راحته ... فالأرض واسعة والرزق مبسوطُ
إن الذي قدّر الأشياء بحكمته ... لم ينسني قاعداً والرحل محطوطُ

وكان عيسى عليه السلام يقول: «الشمس في الشتاء جلالي، ونور القمر سراجي، وبقل البريّة فاكهتي، وشعر الغنم لباسي، أبيت حيث يدركني الليل، ليس لي ولد يموت، ولا بيت يخرب، أنا الذي كببت الدنيا على وجهها» قال الشاعر:

إن القناعة من يحلل بساحتها   لم يلقَ في ظلها هماً يؤرّقهُ

وقال عيسى عليه السلام: «أنظروا إلى الطير تغدو وتروح ليس معها شيء من أرزاقها لا تحرث ولا تحصد، والله يرزقها، فإن زعمتم أنكم أكبر بطوناً من الطير فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها».

وقيل: وفد عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك، فشكا إليه خلته، فقال له: ألست القائل:

لقد علمت وما الإسراف من خلقي   أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى إليه فيعييني تطلّبه   ولو قعدت أتاني ليس يعييني

وقد جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق، فقال: يا أمير المؤمنين لقد وعظت بأبلغت، وخرج فركب ناقته وكرّ إلى الحجاز راجعاً، فلما كان من الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة فقال في نفسه: رجل من قريش قال حكمة ووفد عليَّ فجبهته ورددته خائباً، فلما أصبح وجه إليه بألفي دينار، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة وأعطاه المال، فقال: أبلغ أمير المؤمنين منّي السلام وقل له: كيف رأيت قولي سعيت فأكديت فرجعت فأتاني رزقي في منزلي.

قيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أتدري لِمَ رزقت الأحمق، قال: لا يا رب، قال: ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال.

ولبعض العرب:

فلا تجزع إذا أعسرت يوماً ... فقد أيسرت في الزمن الطويل

ولا تظننْ بربك ظن سوء ... فإنّ الله أولى بالجميل

وإن العسر يتبعه يسار ... وقول الله أصدق كل قيل

فلو أن العقول تسوق رزقاً ... لكان المال عند ذوي العقول

وأوحى الله تعالى إلى يوسف عليه السلام: أنظر إلى الأرض، فنظر إليها فانفجرت، فرأى دودة على صخرة ومعها الطعام، فقال له: أتراني لم أغفل عنها وأغفل عنك وأنت نبيّ وابن نبيّ.

ودخل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه المسجد وقال لرجل كان واقفاً على باب المسجد: «أمسك عليَّ بغلتي»، فأخذ الرجل لجامها ومضى وترك البغلة، فخرج عليّ وفي يده درهمان ليكافئ بهما الرجل على إمساكه بغلته، فوجد البغلة واقفة بغير لجام، فركبها ومضى ودفع لغلامه الدرهمين يشتري بهما لجاماً، فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين، فقال عليّ رضي الله عنه: «إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر، ولا يزداد ما قدّر له».

وقيل لراهب: من أين تأكل؟ فأشار إلى فيه، وقال: الذي خلق هذه الرحى يأتيها بالصحين. قال سليم بن المهاجر الجبلي:

كسوت جميل الصبر وجهي فصانه ... به الله عن غشيان كل بخيل

فما عشت لم آتِ البخيل ولم أقم ... على بابه يوماً مقام ذليل

وإن قليلاً يستر الوجه أن يرى ... إلى الناس مبذولا لغير قليل

* * *

وصلى معروف الكرخي خلف إمام، فلما فرغ من صلاته، قال الإمام

لمعروف من أين تأكل؟ قال: إصبر حتّى أعيد صلاتي والتي صليتها خلفك، قال ولِمَ؟ قال: لأن من شك في رزقه شكّ في خالقه. قال أبو حازم: ما لم يكتب لي لو ركبت الريح ما أدركته. وقال عمر بن أبي عمر اليوناني:

غلا السعر في بغداد من بعد رخصه ... وإني في الحالين بالله واثقُ
فلست أخاف الضيق والله واسع ... غناه ولا الحرمان والله رازقُ

* * *

[ديوان الشعر]:

وقال القهستاني:

غنيّ بلا دنيا عن الخلق كلهم ... وإن الغنى إلا على عن الشيء لابه

* * *

وقال منصور الفقيه:

الموت أسهل عندي ... بين القنا والأسنّه
والخيل تجري سراعاً ... مقطعات الأعنّه
من أن يكون لنذلٍ ... عليّ فضل ومنّه

* * *

وأنشد أعرابي:

أيا مالك لا تسأل الناس والتمس ... بكفيك فضل الله فالله أوسع
ولو تسأل الناس التراب لأوشكوا ... إذا قيل هاتوا أن يملّوا ويمنعوا

* * *

وقال أعرابي: أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك، ولا يحقرك معها من فوقك. وقال المعري:

إذا كنت تبغي العيش فابغ توسطاً ... فعند التناهي يقصر المتطاول
توقّى البدور النقص وهي أهلّة ... ويدركها النقصان وهي كوامل

* * *

وقال آخر:

اقنع بأيسر رزق أنت نائله ... واحذر ولا تتعرض للإرادات
فما صفا البحر إلاّ وهو منتقص ... ولا تعكّر إلاّ في الزيادات

* * *

وقال هشام بن إبراهيم البصري:

وكم ملك جانبته عن كراهة ... لإغلاق باب او لتشديد حاجبِ
ولي في غنى نفسي مراد ومذهب ... إذا انصرفت عني وجوه المذاهبِ

* * *

وقال بعضهم:

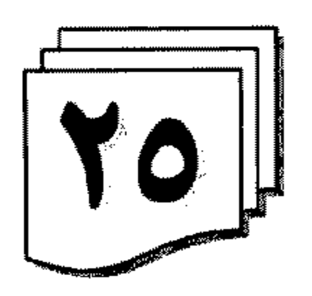
هي القناعة فالزمها تعش ملكاً ... لو لم يكن منك إلاّ راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

* * *

وقال آخر:

وإن القناعة كنز الغنى ... فصرت بأذيالها ممتسك
فلا ذا يراني على بابه ... ولا ذا يراني له منهمك
فصرت غنياً بلا درهم ... أمرّ على الناس شبه الملك

* * *



قوله عليه السلام:

فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ، وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ، بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ وَيَنْجُو الْهَارِبُ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ.

(نهج البلاغة ٢: ٢٢٣)

[تقوى الله أساس الفلاح]

ضبط الألفاظ اللغوية:

فنقول: التقوى في اللّغة الإتّقاء، وهو اتخاذ الوقاية، وفي العرف هي الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته.

وقيل: هي بحسب العرف الشرعي تعود إلى خشية الحق سبحانه، المستلزمة للإعراض عن كل ما يوجب الالتفات عنه من متاع الدنيا وزينتها، وتنحيّه ما دون وجهة القصد.

وقال الصادق عليه السلام في تفسيرها: «أن لا يفقدك حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك».(١)

و(السَداد) بالفتح الصواب من القول والعمل، و(ملكه) يملكه من باب ضرب ملكاً مثلثة، وملكةُ بالتحريك احتواه، قادراً على الإستبداد به، و(النُجح) بالضم، الظفر بالمطلوب، وأنجحه الله أي أظفر به، و(الرغائب) جمع الرغيبة وهو الأمر المرغوب فيه والعطاء الكثير.

* * *

قال ابن أبي الحديد:

التقوى هي الخوف من معصية الله، ومن مظالم العباد، قال سبحانه:

---

(١) عدة الداعي: ٢٨٤.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١] وقيل: إن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني، فقال: «عليك بتقوى الله فإنه جماع كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم، وعليك بذكر الله فإنه نور لك».

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[٢] أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

قوله عليه السلام: «وعتق من كل ملكة» هو مثل قوله عليه السلام: التوبة تجبّ ما قبلها، أي كل ذنب موبق يملك الشيطان فاعله ويستحوذ عليه، فإن تقوى الله تعتق منه وتكفّر عقابه، ومثله قوله: ونجاة من كل هلكة.[٣]

* * *

[التنبيه على فضيلة التقوى]:

وقال ابن ميثم البحراني:

وفي الفصل مقاصد:

المقصد الأوّل: التنبيه على فضيلة تقوى الله بأوصاف:

الأوّل: كونها مفتاح سداد: ولما كان السداد هو الصواب والعدل في القول والعمل، وكان ذلك هو غاية الدين والطريق المسلوك إلى الله، وكانت تقوى الله تعود إلى خشيته المستلزمة للإعراض عن نواهيه استعار لها لفظ المفتاح باعتبار كونها سبباً للإستقامة على الصواب، والقصد في صراط الله المستقيم إلى ثوابه المقيم الذي أفضل المطالب، كما أن المفتاح سبب الوصول إلى ما يخزن من الأموال النفسية.

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) آل عمران: ١٠٢.

(٣) شرح نهج البلاغة ١١: ١٨٥.

الثاني: كونها ذخيرة معاد: وظاهر أن الاستعداد لخشية الله وما يستلزمه من الكمالات النفسانية، من أنفس الذخائر المنتفع بها في المعاد.

الثالث: كونها عتقاً من كل ملكة: استعار لفظ العتق لخلاص النفس العاقلة من استيلاء حكم شياطينها المطيفة بها كخلاص العبد من استيلاء سيئة، ثمّ جعل التقوى نفسها عتقاً مجازاً، اطلاقاً للاسم السبب على المسبّب، إذ كانت التقوى سبباً لذلك الخاص المستعار له لفظ العتق.

الرابع: «ونجاة من كل هلكة»: أطلق عليها لفظ النجاة مجازاً كالعتق، لكونها سبباً لنجاة النفس من الهلكات الأخروية، وعقوبات الآثام، وربما كانت التقوى سبباً للنجاة من مخاوف دنيويّة لولاها لحقّت.

الخامس: «بها ينجح الطالب»: أمّا لثواب الله في الآخرة فظاهر، وأمّا في الدنيا فلما نشاهده من اتخاذ كثير من الناس شعار المتقين ذريعة إلى مطالبهم ونجاح مساعيهم، وإقبال الدنيا عليهم.

السادس: «وينجو الهارب»: أي من عذاب الله وهو ظاهر.

السابع: «وتنال الرغائب»: وهو كقوله: وينجح الطالب، وفي كل قرينتين من القرائن الستّ من أوّل الفصل التنجّع المتوازي.

المقصد الثاني: التنبّه على وجوب العمل الصالح المطلوب لله ومبادرته، باعتبارات الأوّل إنهم في وقت العمل وإمكان رفعه إلى الله دون ما بعد الموت، والواو في قوله: والعمل للحال.[1]

* * *

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٥: ٣١١.

وقال مرزا حبيب الله الخوئي رحمه الله في منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة (مجلد ١٤ ص ٤١٤):

قوله عليه السلام: «فإن التقوى مفتاح سداد، وذخيرة معاد».

إن التقوى لما كانت عبارة عن اتخاذ الوقاية من العقوبات، والحذر من الموبقات الأخروية، وبها يحصل التجنب من المعاصي والإتيان بالواجبات المتصفة بالصلاح والسداد، لا جرم استعار لها المفتاح الذي يوصل به إلى ما في البيت، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾.[1]

قال أمين الإسلام الطبرسي: أمر الله سبحانه أهل الإيمان والتوحيد بالتقوى والقول السديد، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتقوا عقاب الله باجتناب معاصيه وفعل واجباته، ﴿وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ أي ثواباً بريّاً من الفساد، وخالصاً من شوائب الكذب واللغو، موافق الظاهر للباطن، ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ معناه إن فعلتم ذلك يصلح لكم أعمالكم، بأن يلطف بكم فيها حتّى تستقيموا على الطريقة المستقيمة السليمة من الفساد، ويوفقكم لما فيه الصلاح والرشاد، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ باستقامتكم في الأقوال والأفعال، ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأوامر والنواهي، ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ أي فقد أفلح فلاحاً عظيماً، وقيل: فقد ظفر برضوان الله وكرامته.[2]

وأمّا أنها ذخيرة معاد فواضح؛ لأنها أنفس ذخيرة معدّة لفاقة الآخرة، وبها ينجى من أليم العذاب، ويفاز عظيم الزلفى

---

(١) الأحزاب ٧٠ و٧١.

(٢) مجمع البيان ٨: ١٨٦.

والثواب، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ * وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.(١) وقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.(٢)

«وعِتقٌ من كلّ ملكة»... ومحصّله أن التقوى سبب الخلاص من قيد رقيّة النفس الأمّارة بالسوء، وعبوديّة الهوى ومملوكيّة الشيطان، فإنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكّلون إنما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون.

«ونجاة من كل هلكة»، أي سبب للنجاة من الهلكات الدنيوية والأخرويّة، فأطلق عليها النجاة مبالغة، من قبيل زيد عدل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾(٣) أي مخرجاً من كلّ من كرب في الدنيا والآخرة.

وفي مجمع البيان: عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قرأها وقال: مخرجاً «من شبهات الدنيا، ومن غمرات الموت وشدائد الآخرة».(٤)

وفي البحار من الدعوات للراوندي: قال النبي صلى الله عليه وآله: «من اتقى الله عاش قوياً، وصار في بلاد عدوّه أميناً».(٥)

---

(١) الزمر: ٦١.

(٢) آل عمران: ١٥.

(٣) الطلاق: ٢ و٣.

(٤) أنظر: مجمع البيان ١٠: ٤٣.

(٥) بحار الأنوار ٦٧: ٢٨٣.

«بها ينجح الطالب» للآخرة، أي يفوز بمطلبه، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوابُ﴾(١) وقال رسول الله ﷺ: «خصلة من لزمها أطاعته الدّنيا والآخرة، وربح الفوز بالجنّة»، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التقوى، من أراد أن يكون أعزّ الناس فليتق الله ﷻ، ثمّ تلا ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ ...﴾ الآية».

«وينجو الهارب» الراهب من سخط الله وعقابه، فإنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن يتقِ الله يكفّر عنه سيئاته ويعظم له أجراً.

«وتُنال الرغائب» أي العطايا الكثيرة، والخيرات الدنيوية والأخروية التي ترغب إليها النفوس.

أما الدنيوية فقد قال الصادق عليه السلام: «من أخرجه الله تعالى من ذلّ المعصية إلى عز التقوى أغناه الله بلا مال، وأعزّه بلا عشيرة، وآنسه بلا بشر».(٢)

أي من غير أنيس من البشر بل الله مؤنسه.

وأما الأخروية فقد قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾(٣) وقال ﷻ: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ﴾(٤) انتهى.

* * *

---

(١) ص: ٤٩ و٥٠.

(٢) أمالي الطوسي: ١٤٠.

(٣) محمّد: ١٥.

(٤) الزخرف: ٧٠ و٧١.

وقال الشيخ (محمّد جواد مغنية) في كتابه (في ظلال نهج البلاغة):[١]

لا معنى لتقوى الله إلاّ طاعته، كما يومئ إليه قول الإمام عليه السلام: «فإنها حق الله عليكم»، وهي فرض وحتم على العبد، وهو تعالى يثيب عليها، سواء أكان سببها والباعث عليها الرهبة من عذابه، أم الرغبة في ثوابه، أم شكراً لإنعامه وتعظيماً لكماله، وإن كان الطاعة بهذا الباعث أفضل وأكمل، وبهذه المناسبة نشير إلى قول الإمام الباقر عليه السلام: «والله ما شيعتنا إلاّ من اتقى الله».[٢]

«فإن تقوى الله مفتاح سداد» وهو الصواب في القول والعمل، «وذخيرة معاد» حيث الحساب والجزاء «وعتق من كل ملكة»، تحرير من رق الشهوات، «وبها ينجح الطالب» ويفوز بثواب الله ومرضاته، «وينجو الهارب» من العذاب والعقاب، «وتُنال الرغائب» عطف تفسير على ينجح الطالب.

* * *

أقول: إن المثل الأعلى للحياة الإنسانية في الإسلام، وعند الإمام هو التقوى، فقلّ أن ترد سورة في القرآن لم يرد فيها الأمر بالتقوى، تقوى الله، وقلّ أن ترد خطبة أو كلام في نهج البلاغة لم يرد فيها الأمر بالتقوى، تقوى الله، فالقرآن أمر بالتقوى وفصّلها ومدح المتقين، والإمام أمر بالتقوى ووصفها، ومدح المتقين.

قال عليه السلام:

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإنها حق الله عليكم، والموجبة على الله حقكم، وأن تستعينوا عليها بالله، فإن التقوى في اليوم الحِرز والجُنة،

---

(١) ج ٤: ٢١٠.

(٢) الكافي ٢: ٧٤.

وفي غدٍ الطريق إلى الجنّة، ومسلكها واضح، وسالكها رابح، ومستودعها حافظ، لم تبرح عارضة نفسها على الأمم الماضين والغابرين، لحاجتهم إليها غداً، فاهطِعوا (أي أقبلوا) بأسماعكم إليها، وكظّوا بجدكم عليها، واعتاضوها من كل سلف خلفا».(١)

[وصية عليّ عليه السلام] :

وقال عليه السلام:

«أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله دواء داءِ قلوبكم، وبصر عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم، وجلاء عشا أبصاركم، وأمن فزع جأشكم، وضياء سواد ظلمتكم،... فمن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنّوها، واحلولت له الأمور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها، وسهلت له الصعاب بعد انصابها، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها، وتحدّبت عليه الرحمة بعد نفورها، وانفجرت عليه النعم بعد نضوبها، ووبلت عليه الكرامة بعد إرذاذها».(٢)

ولكن ما هي التقوى؟

إن الإمام عليه السلام لم يتعرض لوصف التقوى من داخل إذا صحّ التعبير، إنه اكتفى على كثرة ما قاله فيها بوصفها من خارج؛ ميزاتها، وفضلها، وثمرتها، وأصحابها، أما هي بذاتها: مقوّماتها، طبيعتها، فأمر لم يتعرض له الإمام عليه السلام وإنما تعرض له القرآن. ولعلّ الإمام ترك الكلام في هذه الجهة اعتماداً على ما

(١) نهج البلاغة ٢: ١٣٤.

(٢) نهج البلاغة ٢: ١٧٤.

جاء في القرآن، واعتماداً على أن المسلمين إذ ذاك كانوا ولا شكّ يعُون ما هي التقوى، فاكتفى بتشويقهم إلى الأخذ بها والإعتصام بحبلها، أو أن الإمام عليه السلام قد تكلم في هذا الموضوع وأعطاه حقه من البيان، ولكن الشريف الرضي رحمه الله لم يقع على شيء منه، أو وقع عليه ولم يكن بيّن ما اختاره، وعلى أيّ حال ففيما قدّمه لنا القرآن غنى وكفاية.

قال الله تعالى: ﴿... ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[(١)]

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[(٤)].

---

(١) البقرة: ٢ – ٥.

(٢) البقرة : ١٧٧.

(٣) آل عمران: ١٣٣.

(٤) المائدة: ٨.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «جماع التقوى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١)»(٢).

من هذه النصوص الإلهية وغيرها أكثر منها تعرف طبيعة التقوى، إنها الفضيلة في أرفع معانيها، وأجلّ صورها، إنّها الإيمان بالله في أظهر حالاته وأسمى معانيه، وبذل المال لمن أعوزه المال، ولكن كيف أنها بذل المال على حبّه... حبّ الله تعالى، فلا امتنان على المعطي ولا إفضال، ومتى؟ إنها بذله في السرّاء والضرّاء، وهي الصبر في جميع المواطن وفي جميع الأحوال، وهي كظم الغيظ، وهي العفو عن الناس، وهي العدل فيهم والإحسان إليهم، وهي... هي...

هذه هي التقوى، فإذا حققت التقوى في نفسك، وعَيتَ وجود الله وأمره ونهيه في كل ما تلمّ به من فعل أو قول، وتحرّيت الفضيلة أنّى كانت، فأخذت بها وأخضعت نفسك لها، وجعلت من نفسك وجميع إمكاناتك خلية إنسانية حية، تعمل بحرارة وإخلاص على رفع مستوى الكيان الإجتماعي الذي تضطرب فيه، وصدرت في ذلك كله عن إرادة الله المتجلية فيما شرع من أحكام، تكون قد حققت في نفسك المثل الأعلى الذي نصبه الإسلام.

فالمال لا يكسب قيمة إلاّ إذا بُذل حيث أجاز الله أن يُبذل، وإلاّ إذا اتخّذ وسيلة إلى رضوان الله، أما أولئك الذين لا يبذلون أموالهم فلا جدوى منهم للجماعة، ولذلك فلا مزيّة لهم على غيرهم من الناس الذين

(١) آل عمران: ١٣٤.

(٢) روضة الواعظين: ٤٣٧.

لا مال لهم. والسلالة لا قيمة لها حين لا يكون صاحبها متّقياً لله، والقوة لا قيمة لها حين لا يستخدمها صاحبها في مرضاة الله. والسلطان لا يُكسب صاحبه قيمة إلاّ إذا كان ذا تقوى.

هناك أغنياء وفقراء، وحاكمون ومحكومون، وأقوياء وضعفاء، وأناس تحدّروا من سلالات لها ماضٍ عريق، وآخرون ليس لهم ماضٍ مذكور، ولكن كل هذا لا يرفع من صاحبه ولا يضع إلاّ إذا اقترن بالتقوى أو عري عنها، وتعاليم الإسلام صريحة في ذلك لا لبس فيها ولا غموض، فهي تنصّ على أنّ القطب الذي يدور عليه التفاضل ليس شيئاً غير التقوى.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾.[(١)]

وقال النبي صلى الله عليه وآله: «لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى».[(٢)]

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «لا تضعوا من رفعته التقوى، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا».[(٣)]

وإذن فالقيم الإجتماعية تتفرع عن هذا الأصل، وتنبثق من هذا الينبوع.

وهكذا تكون الرغبة في الخير ورضوان الله، ومساعدة الضعفاء، وتكريس المواهب في سبيل الجماعة تقرّباً إلى الله، هي رائد كل إنسان ووعي مبادئ الإسلام.

وهكذا تكون الطبقات مظهر حبّ ورحمة، وتآزر وايثار، وتعاون على البر والتقوى، بدل أن تعبّر عن تفسّخ وانحلال.

هذا هو المثل الأعلى للحياة في الإسلام وعند الإمام عليه السلام.

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) أنظر نص الحديث في: مسند أحمد ٥: ٤١١.

(٣) نهج البلاغة ٢: ١٣٥.

مراتب التقوى ثلاث:

الأولى: التوقي عن العذاب المخلّد بالتبرّي عن الشرك، وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾.(١)

الثانية: التجنّب عن المآثم كلها كبيرها وصغيرها، وهو المتعارف في الشرع، وعليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾.(٢)

الثالثة: هي التنزّه عما يشغل عن الحق تعالى بالكلية، وهي التقوى الحقيقية المطلوبة بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.(٣)

وكانت الدعوة إلى التقوى من أهمّ ما دعا إليه الرسول الأعظم ﷺ بعد الدعوة إلى الإيمان والإسلام، وقضى كل أيامه وهو ينصح المؤمنين بالتزامها والتزوّد منها؛ لأنها أساس التعبّد وأصل الطاعة، وبها تؤتى الأعمال على أتمّ الوجوه، حيث يقول تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.(٤)

وأخبر جل وعلا بأنّ جميع الأعمال التعبديّة لم تشرّع إلاّ لتكون وسائل إلى التقوى؛ بما تطبعه في النفس من ملكة مراقبة الله، فتكون تقية نقية راضية مرضيّة.

ولقد حسبها بعض الناس درجة من الصلاح لا تنال إلاّ بالتفرّغ للصلوات، وملازمة المساجد، والإنقطاع عن الدنيا، والزهد في كل ما فيها من الملذّات، مما يكون دليله في الظاهر الفقر والمسكنة، ولبس مرقوع الثياب.

---

(١) الفتح: ٢٦.

(٢) الأعراف: ٩٦.

(٣) آل عمران: ١٠٢.

(٤) البقرة: ١٩٧.

وهذا خطأ لا يقرّه الإسلام، فالتقوى في اللغة مشتقّة مِن اتقى فلاناً _ أي حذره وخافه _ فتقوى الله مخافته وتجنب كل ما يغضبه.

وهي أثر الإيمان الكامل بالله، وهي النتيجة الطبيعية التي يصل إليها كل من يؤمن بأن الله الذي خلقه، وأبدع كل دقيق في جسمه، قادر على تعذيبه عاجلاً وآجلاً، إذا هو أقدم على معصيته، واستهان بأوامره، كما يوقن بعلمه تعالى بكل شيء يصدر منه، بحيث يتصوّره مشرفاً عليه، حتّى في خلواته، ورقيباً على جميع حركاته وسكناته، فيحمله هذا على محاسبة نفسه عن كل فعل، فلا يقدم على أي أمرٍ فيه معصية خالقه، أو الإضرار بمصالح عباده.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.(١) وذكّر العصاة بعلمه بكل ما يصدر منهم، وتوعّدهم بعذابه حيث قال: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾.(٢)

وأمرنا أن نتخيّر في أعمالنا ما ينفعنا في الحياة الأخرى حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.(٣)

وأخبرنا بأنه قد أعدّ الجنة في الآخرة للمتقين، ووصفهم لنا بأعمالهم المنبعثة عن قوّة إيمانهم بقلوبهم، إشارة إلى أن التقوى هي في الأمور التي يشعر بها الإنسان في نفسه، فيدرك مبلغ قربه من ربّه ورضائه عنه، ولو لم تدل على

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

(٢) العلق: ١٣ – ١٥.

(٣) الحشر: ١٨٠.

ذلك مظاهره، حيث يقول تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.[1] وهذا صريح في أن التقوى ليست بكثرة الصلاة والصوم وأمثالهما من العبادات الظاهرة، وليست هي بالتقشف والدروشة، وإنما تتحقق بخمس خصال هي:

١ ـ حبّ البذل والإنفاق في سبيل الله في حالتي الشدة والرخاء.

٢ ـ ضبط النفس ومقاومة هواها فيما يغضب مولاها.

٣ ـ الأخذ بمبدأ التسامح والعفو عند القدرة.

٤ ـ الإحسان إلى المسيء.

٥ ـ مراقبة الله ودوام الخوف منه، والرجوع إليه من أثر المعاصي بالندم والإستغفار، وعدم الإصرار على فعل السيئات.

فالتقوى بهذا الإعتبار من الأمور التي لا تمنع المسلم في هذه الحياة من العمل للدنيا، ولا تحرمه من التمتع بملذاتها المشروعة، ولا تفرض عليه مقاومة نفسه إلى حدّ المستحيل؛ بل إنما تدعوه فقط إلى مراقبة الله، والخوف منه والثقة به، والرجوع إليه بطلب الرحمة والغفران في كل وقت، لاسيّما عند كل زلّة ومعصية، ومن أجل ذا حرص الرسول الأعظم ﷺ على أن يمكّن في قلوب أتباعه خوف الله، واليقين بقدرته

---

(١) آل عمران: ١٣٢ – ١٣٦.

على كل شيء إلى حدّ ينبغي معه الخوف من غيره، وحصر الأمل فيه جلّ وعلا دون سواه، باعتباره هو وحده صاحب السلطان المطلق، القادر على وقاية كل من يريد وقايته في كل مكروه، وينصر من يريد نصره بما يملك من قوى خفيّة وظاهرة، حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(١).

[حق التقوى]:

وحق التقوى هو خوف الله أكثر من كل ما سواه، وإلى هذا أشار تعالى بقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٢).

وحق التقوى هو أن يؤثر الإنسان عفو الله وغفرانه وثوابه في الآخرة عن كل شيء في الدنيا؛ بل يتحمل في سبيل ذلك مرّ العذاب، ولذلك امتدح الله في كتابه أولئك السحرة الذين آمنوا بالله إيماناً لم يبالوا معه بالجهر بعقيدتهم، برغم ما توعّدهم به فرعون من ألوان العذاب حيث قالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾(٣).

ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى ما يترتب على التقوى وخوف الله، من مجانبة النفس للشهوات الممقوتة، وما يكون جزائها على ذلك في الآخرة بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ

---

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) التوبة: ١٣.

(٣) طه: ٧٠ و ٧١

هِيَ الْمَأْوى﴾.[١] ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾.[٢] ولم يكتف الله بهذا في حضّ الناس على التقوى؛ بل إنه تعالى أكّد لهم تخليص المتقين في الدنيا من كل ما يعترضهم من مشاكل الحياة، وتيسير سبيل الرزق لهم من حيث لا يأملون، حيث يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾.[٣]

ذلك لأن التقوى معناه دوام ذكر الله تعالى ومراقبته في جميع الأحوال، وحصر الأمل فيه، وهذا من شأنه أن يمنع الإنسان عن الإقدام على كل أمرٍ يعصي الله به، ويضرّ أحداً من خلقه، ويجعله كريم الخلق والعادات، وكل هذا مما يسبب عون الله للإنسان وتأييده في كل موقف، وشموله برحمته وحسن رعايته، وخوف الله يقتضي تجريد قلب الإنسان من خوف غيره، ويعود هذا عليه بأعظم الفوائد في هذه الحياة.

* * *

ومن ألطف ما قرأته في كتاب (الرعاية لحقوق الله):

وقد روي في الحديث: «إنّ المنادي ينادي يوم القيامة: ﴿يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[٤] فترفع الخلائق رؤوسهم يقولون نحن

---

(١) النازعات: ٤٠ و٤١.

(٢) ق: ٣١ و٣٢.

(٣) الطلاق: ٢ و٣.

(٤) الزخرف: ٦٨.

عباد الله ﷻ، ثمّ ينادي الثانية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[١] فينكس الكفار رؤوسهم، ويبقى الموحّدون رافعي رؤوسهم، ثمّ ينادي الثالثة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[٢] فينكس أهل الكبائر رؤوسهم ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسهم، قد أزال الكريم عنهم الخوف والحزن كما وعدهم؛ لأنه أكرم الأكرمين لا يَخيف وليّه ولا يسلمه عند الهلكة.[٣]

* * *

وقرأت في كتاب (روح الدين الإسلامي):

التقوى: هي فضيلة أراد بها القرآن إحكام ما بين الإنسان والخلق، وإحكام ما بين الإنسان وخالقه، ولذلك تدور هذه الكلمة ومشتقاتها في كثر آيات القرآن الأخلاقية والإجتماعية، والمراد بها أن يتّقي الإنسان ما يغضب ربه، وما فيه ضرر لنفسه أو ضرار لغيره.

فالتقوى في أصل معناها جعل النفس في وقاية، ولا تجعل النفس في وقاية إلاّ بالنسبة لما يخاف، فخوف الله أصلها، والخوف يستدعي العلم بالمخوف، ومن هنا كان الذي يعلم الله هو الذي يخشاه، وكان الذي يخشاه هو الذي يتقيه. فالمتقون هم الذين يقون أنفسهم عذاب الله وسخطه في الدنيا والآخرة، وذلك بالوقوف عند حدوده وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وهو لا يأمر إلاّ بما فيه خير للإنسانية، ولا ينهى إلاّ عما يضرّها.

---

(١) الزخرف: ٦٩.

(٢) يونس: ٦٣.

(٣) أنظر: تفسير القرطبي ١٦: ١١٠.

عني القرآن بالتقوى عناية كبرى، وأكثر من الأمر وتوجيه النفوس إليها، وكانت له في ذلك أساليب مختلفة، أمر بتقوى الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] وذلك يكون بالتوجّه إلى الله وحده في العبادة واجتناب ما يأباه من الشرك، ودعوى النبوّة له، والخروج عن شريعته وأحكامه العادلة.

ووصف القرآن التقوى بأنها صيانة النفس عن كل ما يضر ويؤذي، سواء أكان متصلاً بها أم بجميع الخلق، والابتعاد عن كل ما يحول بين الإنسان والغايات النبيلة التي بها كماله في جسمه وروحه، ولهذا وصف الله المتقين بأنهم من تحلوا بالفضائل الإنسانية الحقة قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[2].

فالمتصفون بهذه الصفات السامية هم الذين وصفهم الله بصفة التقوى.

ولا تقتصر التقوى في القرآن على هذه الصفات؛ بل يضاف إليها الصفات التالية:

فالعدل من التقوى قال الله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[3].

والعفو من التقوى أيضاً قال الله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[4].

---

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) البقرة: ١٧٧.

(٣) المائدة: ٨ .

(٤) البقرة: ٢٣٧.

والاستقامة مع الأعداء هي من التقوى، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.(١)

ثمرات التقوى:

ذكر القرآن أن التقوى تجعل الإنسان في أمن من الخوف والحزن يوم القيامة، والنصر والتوفيق في هذه الحياة ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.(٢)

ومن ثمراتها: الثواب العظيم، والنعيم في الآخرة، ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.(٣)

ومن ثمراتها أيضاً: نيل رحمة الله، قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.(٤)

ويذكرها القرآن في معرض تفريج الأزمات وحلّ المشكلات، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.(٥)

ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾.(٦)

وفي معرض النصر والتأييد: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.(٧)

---

(١) التوبة: ٧.

(٢) يونس: ٦٢ - ٦٤.

(٣) آل عمران: ١٥.

(٤) الأعراف: ١٥٦.

(٥) الطلاق: ٢ و٣.

(٦) الطلاق: ٤.

(٧) الأعراف: ١٢٢.

وفي معرض تنوير البصيرة: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾[1] فالفرقان ما يفرّق به بين شيئين ملتبسين أو أشياء مشتبهة، فثمرة التقوى هي نور البصيرة الذي يفرق بين الحق والباطل، واختيار طريق النجاة.

هذه هي التقوى، وصفات المتقين، وثمرتها في الأفراد والجماعات، لهذا ليس بمستغرب أن يوليها القرآن عناية فائقة، ويدعو إليها، كما جاء في هذه الآية البليغة، والتي تدلّ على عمق الروحية الإسلامية، ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى﴾[2] ولو أن العالم عرف التقوى وقام بواجبها، لانطفأت ثورة الشر وساد السلام في ربوعه. انتهى.

وبالتالي: قال بعض العارفين: إن خيرات الدنيا والآخرة جمعت تحت لفظة واحدة، وهي التقوى، أنظر إلى ما في القرآن الكريم من ذكرها فلم علّق عليها من خير ووعد لها من ثواب، وأضاف إليها من سعادة دنيويّة وكرامة أخرويّة.

وفي عدّة الداعي هي العدّة الكافية في قطع الطريق إلى الجنّة؛ بل هي الجُنّة الواقية من متالف الدنيا والآخرة، وهي الممدوحة بكل لسان والمشرفة لكل إنسان، وقد شحن بمدحها القرآن، وكفاها شرفاً قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[3].

ولو كان في العالم خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير، وأعظم بالقدر، وأولى بالإيجال وأنجح للآمال من هذه الخصلة التي هي التقوى، لكان الله

(١) الأنفال: ٢٩.

(٢) البقرة: ١٩٧.

(٣) النساء: ١٣١.

أوصى بها عباده، لمكان حكمته ورحمته، فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة، جمع الأوّلين والآخرين، واقتصر عليها، عَلم أنها الغاية التي لا يتجاوز عنها ولا مقتصر دونها، والقرآن مشحون بمدحها، وعدّد في مدحها خصالاً:

[مدح القرآن للتقوى] :

الأوّل: المدحة والثناء، ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.(١)

الثاني: الحفظ والتحصين من الأعداء، ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾.(٢)

الثالث: التأييد والنصر ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.(٣)

الرابع: إصلاح العمل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾.(٤)

الخامس: غفران الذنوب ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.(٥)

السادس: محبة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.(٦)

السابع: قبول الأعمال ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.(٧)

الثامن: الإكرام ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.(٨)

---

(١) آل عمران: ١٨٦.

(٢) آل عمران: ١٢٠.

(٣) البقرة: ١٩٤؛ التوبة: ٣٦ و١٢٣.

(٤) الأحزاب: ٧٠ و٧١.

(٥) الأحزاب: ٧١.

(٦) التوبة: ٤ و ٧.

(٧) المائدة: ٢٧.

(٨) الحجرات: ١٣.

التاسع: البشارة عند الموت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[1].

العاشر: النجاة من النار ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[2].

الحادي عشر: الخلود في الجنّة ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3].

الثاني عشر: تيسر الحساب ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[4].

الثالث عشر: النجاة من الشدائد والرزق الحلال ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[5] فانظر ما جمعت هذه الخصلة الشريفة من السعادات فلا تنس نصيبك منها.

قيل: إن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني، فقال ﷺ: «عليك بتقوى الله فإنه جماع كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم، وعليك بذكر الله فإنه نور لك»، وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[6] أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. وقال النصرابادي: من لزم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾.[7] وقيل: يستدل على تقوى الرجل بثلاث: التوكل فيما لم ينل، والرضا بما قد نال،

(١) يونس: ٦٣ و٦٤.
(٢) مريم: ٧٢.
(٣) آل عمران: ١٣٣.
(٤) الأنعام: ٦٩.
(٥) الطلاق: ٢ و ٣.
(٦) آل عمران: ١٠٢.
(٧) يوسف: ١٠٩.

وحسن الصبر على ما فات، وكان يقال: من كان رأس ماله التقوى، كلّت الألسن عن وصف ربحه.

* * *

[خطبة عليّ عليه السلام في وصف المتقين]:

أقول: من المستحسن والمناسب أو من الخير أن نستعرض في المقام خطبة الإمام عليّ عليه السلام في وصف المتقين، لعلّ الله تعالى يثلج بها نفوسنا، وينوّر قلوبنا، ويشرح صدورنا، فنقتدي بالإمام عليه السلام ونسير على ضوئه ومنهاجه.

ذكر ابن أبي الحديد في المجلد الثاني من شرح النهج (ص ٢٤٧ ط ١):

روي أن صاحبا لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له همّام كان رجلاً عابداً فقال له: يا أمير المؤمنين صف لي المتقين حتّى كأنّي أنظر إليهم، فتثاقل عليه السلام عن جوابه، ثمّ قال: «يا همّام، اتّق الله وأحسن، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[١]» فلم يقنع همّام بهذا القول حتّى عزم عليه، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله، ثمّ قال عليه السلام:

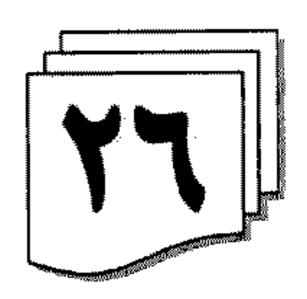
«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ، فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ، فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الِاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ، غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ، نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ، وَلَوْ لَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ

---

(١) النحل: ١٢٨.

أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ، عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ، قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ، صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً، أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ، أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا، أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ، وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَيَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ، لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ، إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي، اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ».

* * *



قوله عليه السلام:

الشَّفِيعُ جَنَاحُ الطَّالِبِ.

(نهج البلاغة ٤: ١٥)

[الروابط الاجتماعية وقضاء الحوائج]

قال ابن أبي الحديد:

جاء في الحديث مرفوعاً: «اشفعوا إليّ تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء الله». وقال المأمون لإبراهيم ابن المهدي لما عفا عنه: إن أعظم يدٍ عندك من عفوي عنك إني لم أجرعك مرارة إمتنان الشافعين. ومن كلام قابوس بن وشمكير: بزند الشفيع نورى نار النجاح، ومن كف المفيض ينتظر فوز القداح، قال المبرد: أتاني رجل يستشفع لي في حاجة فأنشدني لنفسه:

إنـي قصدتك لا أدلـي بمعرفـة ... ولا بقربى ولكن قد فشت نعمك

فبت حيران مكروباً يؤرقني ... ذل الغريب ويغشينيَ الكرى كرمك

ولو همت بغير العرف ما علقت ... به يداك ولا انقادك له شيمك

ما زلت انكبُ حتّى زلزلت قدمي ... فاحتل لتثبيتها لا زلزلت قدمك

قال: فشفعت له وقمت بأمره حتّى بلغت له ما أحب. بزرجمهر: من لم يستغن بنفسه عن شفيعه ووسائله، وهت قوى أسبابه، وكان إلى الحرمان أقرب منه إلى بلوغ المراد. ومثله من لم يرغب أوداؤه في اجتنابه لم يحظ بمدح شفعائه.

ومثله: إذا زرت الملوك فإن حسبي شفيعاً عندهم أن يعرفوني.

[**الشقراني والإمام الصادق** عليه السلام] :

خرج العطاء في أيام المنصور، وأقام الشقراني من ولد شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وآله ببابه أياماً لا يصل إليه عطاؤه، فخرج جعفر بن محمّد عليه السلام من عند المنصور، فقام الشقراني إليه فذكر له حاجته، فرحّب به ثمّ دخل ثانياً على المنصور وخرج وعطاء الشقراني في كمّه فصبّه في كمّه، ثمّ قال: يا شقران إن الحسن من كل أحد حسن وإنه منك أحسن لمكانك منا، وإن القبيح من كل أحد قبيح ومنك أقبح لمكانك منّا فاستحسن الناس ما قاله؛ وذلك لأن الشقراني كان صاحب شراب، قالوا: فانظر كيف أحسن السعي في استنجاز طلبته، وكيف رحّب به واكرمه مع معرفته بحاله، وكيف وعظه ونهاه عن المنكر على وجه التعريض، قال الزمخشري: وما هو إلاّ من أخلاق الأنبياء...[1]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

«الشفيع جناح الطالب». استعار له عليه السلام لفظ الجناح باعتبار كونه وسيلة له إلى مطلوبه كجناح الطائر.[2]

* * *

وجاء في (منهاج البراعة):[3]

الشفاعة توسط من له جاه عند المراد في إنجاح حاجة المشفوع

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٠٤.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٥١٥.

(٣) ج ٢١: ٩٩.

له، فكان المشفوع له يطير نحو ما قصده بوسيلة الشفيع، فشبّهه عليه السلام بجناح الطائر.

* * *

وقال ابن مغنية:

المعنى واضح، وهو أن الشفيع يُوصل الطاب إلى مطلبه، تماماً كالجناح بالنسبة إلى الطائر... وأعظم شفيع عند الله التوبة، والتوسل به إليه تعالى، ولا واسطة ـ في دين الإسلام ـ بين العبد وربه، وقرأت من جملة ما قرأت أن رجلاً قال لكريم: أنت الذي أحسنت إليّ فيما مضى، فقال له: مرحباً بمن توسّل بنا إلينا وقضى حاجته... وهكذا كل جواد كريم... أما الشفيع عند ناس هذا الزمان فهو النفاق والرشوة والخيانة.(١)

* * *

[قضاء الحوائج بسبب الجاه]:

أقول: جاء في (المجلد الأوّل)(٢) من (المستطرف):

قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً﴾.(٣)

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عمره، فيقول له: جعلت لك جاهاً فهل نصرت به مظلوماً، أو قمعت به ظالماً، أو أغثت به مكروباً».

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٥٣.

(٢) صفحة: ٢٧٩ – ٢٨١.

(٣) النساء: ٨٥.

وقال ﷺ: «أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاه له».

وقال ﷺ: «إذا جاءني طالب حاجة ما شفعوا له لكي توجروا، ويقضي الله تعالى على لسان نبيّه ما شاء».

وقال ﷺ: «أفضل الصدقة صدقة اللسان»، قيل: يا رسول الله وما صدقة اللسان؟ قال: «الشفاعة تفكّ بها الأسير، وتحقن بها الدماء، وتجز بها المعروف إلى أخيك، وتدفع عنه بها كريهة».

وقال عليّ رضي الله عنه: «الشفيع جناح الطالب».

وقال رجل لبعض الولاة: إن الناس يتوسّلون إليك بغيرك فينالون معروفك ويشكرون غيرك، وأنا أتوسل إليك بك ليكون شكري لك لا لغيرك...

وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت:

شفيعي إليك الله لا شيء غيره ... وليس إلى ردّ الشفيع سبيل

فأمره بلزوم الدهليز فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم، فلما استوفى ثلاثين ألفاً ذهب الرجل، فقال يحيى: والله لو أقام إلى آخر عمره ما قطعتها عنه. قال الشاعر:

وقد جئتكم بالمصطفى متشفعاً ... وما جاب من بالمصطفى يتشفع

إلى باب مولانا رفعت ظلامتي ... عسى الهمّ عني والمصائب ترفع

* * *

وقال آخر:

تشفّع بالنبي فكل عبد ... يجار إذا تشفّع بالنبي

ولا تجزع إذا ضاقت أمور ... فكم لله من لطف خفي

* * *

ومما جاء في (محاضرات الأدباء) للاصفهاني:

... قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاه له» وقال ﷺ: «الشفاعة زكاة، ونصرة اللسان فوق نصرة السنان». وكان زياد يقول لأصحابه: اشفعوا لمن وراءكم، فليس كل من أراد السلطان وصل إليه، ولا كل من وصل استطاع أن يكلّمه».

قال أبو تمام:

وإذا امرؤ أسدى إليَّ صنيعة ... من جاهه فكأنها من ماله

وقال آخر:

فرضت عليّ زكاة ما ملكت يدي ... وزكاة جاهي أن اعين فأشفعا

(من سأل غيره يشفع له):

سأل رجل آخر أن يشفع له، فقال: صل جناحي، فالشفيع جناح الطالب، قال ابن الرومي:

ليس من كنت ربحه ببعيد ... من سماء يبلّه ببلال

وكذاك الكريم سائل حاجا ... ت سواه وليس بالتِسآل

ابن الحجاج:

يا سيدي كم منية قلتها ... منك كما أهوى وأخرى بكا

لو لاهما أصبحت مستضعفاً ... في قبضة الدهر ومستهلكا

فامنن باصلاح اختلالي الذي ... إليك من شدته المشتكى

* * *

وقال أحمد ابن المعدل: قلت لبعض أصدقائي: كن شفيعي إلى

فلان، فقال: أنت لا تحتاج إلى شفيع، معك من الحذاء والسقاء ما تروي بهما الماء وتأكل من لبّ الشجر.

مَدحُ متشفّع معُطٍ:

مدح أعرابي رجلاً فقال: تهب من مالك وتستوهب لي بجاهك، فأنت قليب مرّة، ورشاء مرّة، ومنه أخذ أبو تمام فقال:

عطو لي بالمال والجاه لا ألقاك ... إلاّ مستوهباً أو وهوبا
فإذا ما أردت كنت رشاء ... وإذا ما أردت كنت قليبا

* * *

وقيل لشعبة: أفنيت مالك، وأخلقت جاهك في حوائج الناس، فقال: أصونهما للتراب. قال الخبزارزي:

خرقٌ يجود بماله وبجاهه ... والجود كل الجود بذل الجاه

* * *

شفيع مشفّع:

قال الخبزارزي:

شفيعك لوفي الروح والمال كله ... يشفّع لم يكبر له أن يشفّعا

* * *

وقال آخر:

ما تبالي وذا شفيعك لو... ... كنت كعادٍ في غيّها وثمود
ذاك لو كان في المعاد شفيعاً ... رضي الله عن جميع العبيد

* * *

مدح شفيع لم يشفّع:

إذا الشافع التقصى لك الجهد كله ... وإن لم ينل نجحاً فقد وجب الشكر

* * *

نفي العار عمن يعطي بشفاعة:

قال ابن الرومي:

لن يعيب السحاب أن تتولّى ... منه أيدي الرياح العزالي

* * *

المتشفع بكرم مسؤوله:

قال عبد الله بن جعفر: إنّ أحق من تُشفّعه من توسّل إليك بالأمل.

قال الشاعر:

مالي سواك شفيع استعين به ... إلاّ رجائي وإفراد بك بالأمل

* * *

وقال آخر:

ولو أنّ لي في حاجة ألف شافع ... لما كان فيهم مثل جودك شافع

* * *

وقال آخر:

ومالي حق واجب غير أنني ... إليكم بكم في حاجتي أتوسّل

* * *

أبو سعيد الاصبهاني:

قصدتك عارياً من كل منّ ... لكل الخلق في كل المعاني

* * *

وقال رجل لجعفر بن يحيى: أمتّ إليك بذمام الأمل وحسن الظن، وأدل بقرابة العلم. فقال: ما ذكرت موجب حقاً، وعاقد فرضاً، ورحم العلم أمسّ قرابة وألطف ظؤرة.

المتشفّع بامرأة:

كان لعبد الله بن الزبير حاجة إلى معاوية، فلم يجبه، فاستعان ببعض نسائه فقضى حاجته، فعيّر بذلك، فقال: إذا تعذرت الأمور من أعاليها، طلبناها من أسافلها.

قال البحتري:

إذا ما أعالي الأمر لم تعطك المنى ... فلا بأس باستنجاحها بالأسافل

* * *

وقال الهذلي:

إذا جئته في حاجة فارش عرسه ... وأرض ابنه تستغن عن كل شافع

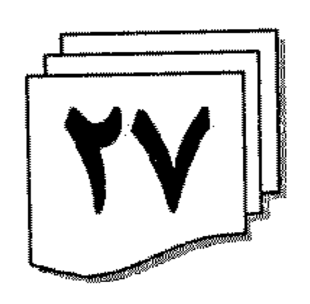
* * *

وقال الفرزدق:

أما البنون فقد ردّت شفاعتهم ... وشفعّت بنت منظور بن ريانا

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً ... مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

* * *



قوله عليه السلام:

قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنَفَتِهِ، وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ.

(نهج البلاغة ٤: ١٣)

[مقياس الرجال بقدر فضائلهم]

قال ابن أبي الحديد:

قد تقدم الكلام في كل هذه الشيم والخصال، ثمّ نقول ههنا: إن كبر الهمّة خلق مختص بالإنسان فقط، وأما سائر الحيوانات فليس يوجد فيها ذلك، وإنما يتجرأ كل نوع منها الفعل بقدر ما في طبعه وعلّو الهمّة حال متوسطة محمودة بين حالتين رذيلتين: هما الندح وتسميه الحكماء التفتّح، وصغر الهمّة وتسمّيه الناس الدناءة، فالتفتّح تأهّل الإنسان لما لا يستحقه، وصغر الهمّة تركه لما لا يستحقّه لضعف في نفسه، فهذان مذمومان، والعدالة وهي الوسط بينهما محمودة، وهي علوّ الهمّة، وينبغي أن يعلم أن المتفتّح جاهل أحمق، وصغير الهمّة ليس بجاهل ولا أحمق ولكنه دنيء ضعيف قاصر، وإذا أردت التحقيق فالكبير الهمّة من لا يرضى بالهمم الحيوانية ولا يقنع لنفسه أن يكون عند رعاية نفسه وفرجه؛ بل يجتهد في معرفة صانع العالم ومصنوعاته، وفي اكتساب المكارم الشرعية ليكون من خلفاء الله وأوليائه في الدنيا ومجاوريه في الآخرة، ولذلك قيل من عظمت همته لم يرض بقينة مستردّة وحياة مستعارة، فإن أمكنك أن تقتني قينة مؤبّدة وحياة مخلّدة فافعل غير مكترث

بقلة من يصحبك ويعينك على ذلك، فإنه كما قيل: إذا عظم المطلوب قلّ المساعد، وكما قيل: طرق العلاء قليلة الأناس، وأما الكلام في الصدق والمروءة والشجاعة والأنفة والعفة والغيرة فقد تقدم كثير منه.[1]

* * *

[**أربعة أمور أشار إليها** عليه السلام] :

وقال ابن ميثم البحراني:

أشار عليه السلام إلى أمور أربعة:

أحدها: الهمّة، وجعلها مبدءاً لقدر الرجل، وقدرُه وهو مقداره في اعتبار الناس من رفعة رتبة وتبجيل، أو خسّة واحتقار، وهو من لوازم علوّ همّته أو دنائتها، فعلوّ الهمّة هو أن لا يقتصر على بلوغ غاية من الأمور التي يزداد بها فضيلة وشرفاً حتى يسمو إلى ما ورائها مما هو أعظم قدراً وأجلّ خطراً، ويلزم ذلك نبله وتعظيمه ومده، وصغرها أن يقتصر على محقرات الأمور وخسائسها، ويقتصر عن عليّاتها، وبحسب ذلك يكون صغر خطره وقلّة قدره.

الثانية: جعل عليه السلام مبدأ الصدق المروّة، والمروّة فضيلة يتعاطى معها الإنسان الأفعال الجميلة، واجتناب ما يعود إليه بالنقص وإن كان مباحاً، فلذلك يلزمه الصدق في مقاله، وبقدر قوة هذه الفضيلة وضعفها تكون قوة لازمها وضعفها.

الثالثة: جعل عليه السلام الأنفة مبدءاً للشجاعة، والأنفة حمية الأنف

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٧٥.

وثوران الغضب لما يتخيّل من مكروه يعرض استنكاراً له واستنكافاً من وقوعه، وظاهر كونه مبدءاً للشجاعة والإقدام على الأمور وبحسبها تكون قوّة الإقدام وضعفه.

الرابعة: جعل عليه السلام الغيرة مبدءاً للعفّة، والغيره نفرة طبيعية تكون من الإنسان عن تخيّل مشاركة الغير في أمر محبوب له أو معتقد لوجوب حفظه، وبحسب شدة ذلك الإعتقاد والتخيّل وضعفهما، ويتصوّر وقوع مثل ذلك الفعل في نفسه، أو حريمه، مثلاً يكون امتناعه عن مشاركة الغير ووقوفه عن اتباع الشهوة في مشاركة الناس في الأمور المحبوبة لهم كزوجة ونحوها وهو معنى العفة.[١]

* * *

وقال ميرزا حبيب الله الخوئي في (منهاج البراعة):[٢]

المقصود من القدر هو الإعتبار والوجاهة عند الله أو عند الناس على سبيل منع الخلوّ، والهمّة توجّه النفس وبذل الجهد في حصول غاية من الغايات المعنوية أو المادية، فمن اهتمّ في غرض معنوي إلهي وسلك طريقة التقرّب إلى الله، فيساوي في الإعتبار والوجاهة بمقدار ما بذل الهمّة في هذا السبيل، كما أنه من اهتمّ إلى تحصيل المال والجاه عند الناس يساوي اعتباره عند أرباب الأحوال والعامّة ما بذل من الهمّة في هذا الطريق.

والصدق في القول والعمل ميزان توزن به الرجولية ويعبّرون بها

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٥١١.

(٢) ج ٢١: ٨٦.

عنه، وخصوصاً في مورد الوعد وإنجازه، فالمروّة والرجولية التي يتصف بها الإنسان فتصير مبدءاً لتعاطي الأفعال الجميلة، وموجباً لترك ما يعود إلى النقص، توزن مع صدق الإنسان في أقواله ومواعيده.

والشجاعة ثوران الغضب للدفاع عن الحق والحريم، فتوزن مع الأنفة وعزّة النفس، فمن كان حقيراً في نفسه ولا يبالي على ما يراه من التعدّي في حقه وحريمه فلا إقدام له في الدفاع، ولا يوصف بأنه شجاع.

والغيرة نفرة اللاإنسان عن مشاركة غيره فيما اختصّ به من حريم أو وظيفة أو وطن بالنسبة إلى الأجانب، فالغيرة تعتبر مبدءاً للدفاع تجاه تجاوز الأجنبي، ولها مصاديق متكثّرة باعتبار شتى الأمور، وأكثر موارد استعمالها في الحريم والأقارب.

والعفّة هو كفّ النفس عما يختصّ بالغير من الحقوق والحرمات، وعفّة كل شخص وكفّه عن حريم غيره يوزن بغيرته بالنسبة إلى ما يختص به نفسه، وما يهتمّ بحفظه وصيانته.

* * *

وقال ابن مغنية:

كثيراً ما تُطلق الكلمات من غير قياس وتحديد، وبالخصوص في عالم الأخلاق والقيم، فيؤدي ذلك إلى الخلط وسوء الفهم والتفاهم بين الناس... وأشار الإمام هنا إلى المقياس الصحيح الذي يجب أن يُقاس به قدر الرجل وصدقه وشجاعته.

١ _ «قدر الرجل على قدر همته» وثقته بأنه يملك من الطاقات ما يُغيّر بها مجرى الطبيعة والحياة، وانه بالعمل والعمل يصل إلى ما هو

أفضل وأروع، وكل من يؤمن بهذه الحقيقة، ويعمل بموجبها يجب أن يقاس بها تقديره وتكريمه، أي يُحترم ويُعظم لعلمه وعمله إلى ما هو أتم وأكمل، وكأن الإمام عليه السلام يومئ بهذا إلى نفسه، لأنه المثل الأعلى لبعد الهمة وعلوّها، فقد كان في سنّ العاشرة حين قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: أنا يا رسول الله، يوم دعا الرسول إلى مائدته صناديد قريش، وقال لهم فيما قال: «أيكم يُوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم»، قال عليّ: أنا، وما هاب وارتاع من الرؤوس الكبار الذين يملكون الجاه والمال، واستخف بهم وبهزئهم وسخريتهم، ولا يملك إلاّ همته ومواهبه، وفي كتاب (عبقرية الإمام) علّق العقاد على ذلك بقوله: (فما منعته الطفولة وسنّ العاشرة أن يعلم أنه قوة لها جوارٌ يركن إليها المستجير).

٢ ـ «وصدقه على قدر مروءته». ومعنى المروءة يجمع بين الإيجاب بفعل ما يستوجب المدح والثناء، وبين السلب بترك ما يستدعي اللوم والذم، أما الصدق هنا فليس المراد به مطابقة الكلام الواقع بحسب اعتقاد المتكلم وكفى، بل المراد به حسن السلوك الذي لا يُشاب بعيب ونقص، وهو بهذا المعنى مرادف للمروءة أو لازم لها، ولذا يُستدل على الصدق بالمروءة، وبها عليه.

٣ ـ «وشجاعته على قدر همّته» والشجاعة تشمل الصمود في القتال وتحمل المسؤوليات، ومواجهة الصعاب بقلب ثابت، وأيضاً تشمل الإعتراف بالخطأ، والأنفة استنكاف عن الجبن والعار، وإذن الشجاعة من لوازم الأنفة، وكل واحدة منهما تدلّ على أختها.

٤ ـ «وعفته على قدر غيرته» والعفة تشمل نزاهة اليد واللسان، والبطن والفرج، ولكن المراد بها عفة الفرج فقط لمكان كلمة الغير،

ويقال: غار الرجل على امرأته، أي أنف أن يشاركه الغير فيها، ومن كان كذلك ينبغي له أن لا يعتدي على أعراض الآخرين، ومن هنا قيل: ما زنا غيور قط، ومعنى هذا أن الزاني لا يكون عفيفاً ولا غيوراً، وإنه بحكم الديوث الذي يُدخل الرجال على زوجته، ويروى أن جماعة من أهل الجاهلية تركوا الزنا لهذه الغاية. انتهى.[١]

قوله عليه السلام: «وشجاعته على قدر أنفته».

قال البستاني في (دائرة المعارف): الشجاعة هي الجرأة والاقدام شدة القلب عند البأس، وقيل هي هيأة للقوة الغضبية متوسطة بين التهور الذي هو افراطها، وهو الاقدام على مالا ينبغي، وبين الجبن أي الحرز عما ينبغي الذي هو تفريطها، ففي الشجاعة تصير القوة السبعية منقادة للقوة الناطقة ليكون اقدامها على حسب الدراية من غير اضطراب في الأمور الهائلة حتّى يكون فعلها جميلاً وصبرها محموداً، وهي الصفات التي تحمد بها الرجال. انتهى.

* * *

[الشجاعة ملكة نفسية]:

الشجاعة ملكة في النفوس يورثها الإقدام على الأمور الكبيرة والمخاوف الخطيرة للحصول على غاية سامية تنبعث من نفس شريفة، تحت اشراف الحكمة للدفاع عنه من نفس أو دين أو ووطن أو غير ذلك.

وهي فضيلة من أسمى الفضائل، وإن شئت فقل إنها حارسة الفضائل كلها، وأس السعادة في الدنيا والآخرة، وليس يخفى عليك مالها من الأثر في رقي الأمم، وتقدّم الممالك في هذه الحياة.

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٤٥.

فكـل أمّـة ضـربت فيهـا بسـهم وأخـذت بـأوفر نصـيب، أصـبحت شـامخة المجـد عاليـة القـدر فسـيحة الملـك، لا يعوزهـا نشـر العمـران، ولا يعوقهـا عـائق عـن توسـيع سـلطانها وتوطيـد دعائمهـا، ومـا مـن أمّـة أخلـدت إلـى الجـبن وأهملـت واجبهـا، وفرطـت فـي جنـب مـا تحتاجـه مـن الوسـائل القويـة والمعـدات الضـرورية، إلاّ صـارت إلـى الـذل والهـوان وبـاءت بالخيبـة والخسـران، لا تسـتطيع دفـع الطـامع عنهـا، ولا تقـوى علـى حفـظ كيانهـا والـذود عـن حياضـها، ولا تلبـث إلاّ ريثمـا يـتم اتفـاق الـدول القويـة على التهامها ومحو صورتها من بين الأمم المستقلة.

كانـت الشـجاعة مـن المناقـب التـي امتـاز بهـا العـرب وفـاقوا غيـرهم فـي الأخـذ بناصـرها والتمـدح بآثاهـا، والإفتخـار بمزاياهـا، والإزدهـاء بمحاسـنها، حتّـى بلـغ مـن ذلـك أن حـض عليهـا الأمـراء وتبـاهى بهـا الكبـراء والوضـعاء في محاوراتهم وأشعارهم. قال الشاعر:

محرمـة أكفـال خيلـي علـى القنـا ... وداميـة لباتهـا ونحورهـا

حـرام علـى أرحامنـا قتـل مـدبر ... وتنـدق منهـا في الصدور صدورها

وقال آخر:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لنفسـي حيـاةً مثـل أن أتقـدما

ولهـم غيـر ذلـك مـن الأخبـار والشـواهد ممـا يـدل علـى أنهـا كانـت ألـزم لهم من ظلهم وأثبت عندهم من شخصهم.

ولا غـرو فهـي الفضـيلة التـي لـيس بعـدها مـن فضـيلة، والمزيـة التـي لـيس ورائهـا غايـة ولـذلك كـانوا فـي جـاهليتهم ذوي شـمم وحميـة، وعـزة وأنفـة، يـأبون الضـيم وينفـرون مـن الـذل، فلمـا سطع نـور الإسـلام فـي بلادهـم

وخفقت أعلامه على ديارهم، وافاض عليهم من العلم والعرفان ما شاء الله أن يغيض، قاموا والشجاعة رائدهم والإسلام قائدهم، ينشرون دين الله ويعزون دعوة نبيه، فقد دانت لهم البلاد، وخضعت لهم أعناق الأكاسرة، فلم يمض قرن من الزمان حتى استولوا على صولجان الرياسة في مملكتي الرومان والفرس، ووطئت أقدامهم غالب آسيا وافريقية ونحو نصف أوروبا، وهناك نشروا علومهم التي جاء بها الإسلام، ومعارفهم التي آتى بها القرآن، وأصبحوا رؤساء العالم وقادة الأمم وأرقاهم مدنية وحضارة، وهاك تاريخهم المجيد لا يزال ينبئ عما كان لهم من الملك الواسع والسلطان الشامخ بفضل علمهم وشجاعتهم.

والأمّة إلى الشجاعة أحوج منها إلى كثرة العدد ووفرة المال، ذلك لأن الأمم في اعتداء مستمر وتغالب دائم، وتنافس شديد كالأشخاص، فإذا لم يكن للأمّة قسط وافر من الشجاعة، وعامل قوي من الحمية والأنفة عرضت نفسها لإلتهام الطامعين، فسقطت في هوّة سحيقة من الذل والإستعباد.

فالشجاعة فضيلة تورث صاحبها الإقدام على جلائل الأمور وعظائم الأعمال، مبعثها نفس صافية، والحافز عليها غاية نبيلة، ولا يخفى مالها من الأثر في رقيّ الأمم وتقدمها، فإنّ كل أمّة تقمصت ثوب الشجاعة واتزرت بمئزره لا بدّ أن تدرك أمانيها ويعزّ جانبها، ويكون لها من السؤدد والسلطان ما يجعلها مهيبة في أعين غيرها، بينما ترى الأمّة التي تخلد إلى الجبن والراحة والدعة، وتترك نفسها في مهبّ الرياح، تصير إلى الذل والهوان، بحيث لا تستطيع أن تردّ عوادي الدهر، ولا تقدر على دفع صروف الأيام ونوائبها، ولا تقوى على حفظ كيانها والذود عن حياضها؛ بل تصبح طعمة سائغة لمن يريد التهامها، فتمحى صورتها

من الوجود. وانك لو نظرت إلى الإسلام في إبان عزه وازدهاره لوجدت أن أعلامه لم تخفق على آسيا وإفريقية ونصف أوربا في نحو نصف قرن من الزمان، إلاّ لأن العرب الذين حملوا رايته كانت الشجاعة ألزم لهم من ظلهم، كما يتجلى ذلك من مواقفهم ومن كلام أمرائهم وعظمائهم.

وكما أن الأمّة تحتاج إلى الشجاعة في ردّ الغارات ودفع الغوائل، فإنها تحتاج إليها كذلك في إدارة شؤونها واستقامة أمورها، واعتدال نظامها، وتنفيذ مصالحها.

فالحاكم إن كان مقداماً على تنفيذ ما يصدره من الأحكام، وإقامة الحدود وما يسنّه من القوانين، خضعت الأمّة لأوامره، واطمأنت إلى أحكامه، وسارت معه في طريق الوفاق والوئام، وإن أنست منه جبناً أو ظنت منه توانياً في إقامة العدل ونصرة المظلومين وتشجيع العاملين، ساء رأيها فيه وملئت سخطا عليه، ففسدت الأحوال وعمّ الوبال.

وليس يخفى أن العالم لا ينتفع بعلمه ولا يستطيع دفع الشبهات والريب عن دينه بإقامة البراهين الساطعة والحجج الدافعة حتّى يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون، إلاّ بالشجاعة والإقدام.

وكذلك الطبيب لا يجرؤ على قطع الأعضاء الفاسدة وجبر العظام الكبيرة، وتضميد الجروح الخطيرة، إلاّ إذا ساعده باعث الشجاعة.

وعلى ذلك تكون الشجاعة أقوى الدعائم في سعادة الأمم ورفتها وحضارتها ونعيمها كما قلنا، وهو ميدان فسيح لا يأتي عليه البيان ولكنه لا يغيب عن الأذهان.

* * *

[عفة الرجل على قدر غيرته]:

قوله عليه السلام: «وعِفَتُهُ على قَدَرِ غيرتِهِ».

في (أقرب الموارد): عفّ الرجل: كفّ عما لا يحلّ ولا يجمل قولاً وفعلاً وامتنع.

وفي (سفينة البحار) مادة (عفف):

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما عبد الله بشيء أفضل من عفة بطن وفرج».

ويطلق في الأخبار غالباً على عفة البطن والفرج وكفّهما عن مشتهياتهما المحرّمة؛ بل المشتبهة والمكروهة أيضاً من المأكولات والمشروبات والمنكوحات؛ بل من مقدّماتهما من تحصيل الأموال المحرّمة لذلك ومن القبلة واللمس والنظر إلى المحرّم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أفضل العبادة عفة البطن والفرج».

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: أفضل العبادة العفاف».

بيان: يمكن حمل العفاف هنا على ما يشمل ترك جميع المحرّمات. عن نجم عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال لي: «يا نجم كلكم في الجنّة معنا، إلاّ أنه ما أقبح بالرجل منكم أن يدخل الجنّة قد هتك وبدت عورته». قال: قلت له: جعلت فداك وإنّ ذلك لكائن؟ قال: «نعم، إن لم يحفظ فرجه وبطنه».

عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله «إنّ الله يحب الحيي الحليم العفيف المتعفف».

بيان: المتعفّف أما تأكيد، أو العفيف عن المحرمات المتعفّف عن

المكروهات، أو العفيف في البطن، المتعفف في الفرج، أو العفيف عن الحرام، والمتعفف عن السؤال، أو العفيف خلقاً، والمعفّف تكلّفاً.

* * *

قال الراغب الأصبهاني:

قال ﷺ: «من حفظ ما بين لحييه ورجليه دخل الجنّة».

وقال: «من وقى شرّ لقلقه وقبقبه وذبذبه فقد وقى شرة الشباب».

وسُئِل ﷺ عن أكثر ما يُدخل الرجل النار؟، فقال: «الأجوفان: الفم والفرج».

وقيل لبطليموس: ما أحسن أن يصبر الإنسان عما يشتهي؟ فقال: أحسن منه أن لا يشتهي إلاّ ما ينبغي.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[1] قيل: هو الرجل يخلوا بالمعصية فيتركها خوفاً من الله رجاء ثوابه وخوف عقابه.

وقال ابن عبّاس: الشيطان من الرجال والنساء في ثلاثة منازل: في النظر والقلب والفرج.

وقال ﷺ: «العينان تزنيان والرجلان تزنيان، ويحقق كل ذلك الفرج».

وكان طاووس تمثلت إليه إمرأة تراوده، فواعدها يوماً إلى رحبة المسجد، فلما حضرت إليه قال: انخضعي، قالت: ههنا؟ قال: نعم، إن الذي يرانا ههنا يرانا في الخلا، فاقشعرت المرأة وانزجرت وتابت.

---

(١) الرحمن: ٤٦.

من تعفف عند مشارفة بلوغ الشهوة:

قال الله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾(١).

واجتمع بعض الأعراب بامرأة فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة ذكر معاده فاستعصم وقام عنها، وقال: إن من باع جنّة عرضها السماوات والأرض بمقدار فتر بين رجليك لقليل البصر بالمساحة.

وكان سليمان بن يسار مفتي المدينة من أحسن الناس وجهاً، فدخلت إليه امرأة فسامته نفسه، وقالت: إن لم تطاوع لأخبرنّ الناس إنك فعلت ولأفضحنك، قال نعم: وتركها في البيت وخرج وفرّ، ثمّ رأى في منامه يوسف عليه السلام فقال له: يا يوسف أنت الذي هممت؟! فقال له: وأنت الذي لم تهم.

وقال رجل لسقراط: إني تفرست فيك أنك تميل إلى الزنا، فقال له: صدقت فراستك إني أشتهيه ولكني لا أفعله وقلت لبعض المتصوفة: إنك لوطي، فقال: ما تقول في لصٍّ لا يسرق هل يلزمه القطع. ومرّ القِس بسلامة المدينة وهي تغنّي فأعجبته وطرب، وقال: والله إني أحبك، فقالت: نفسي بين يديك فما يمنعك؟ فقال: يمنعني قول الله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾(٢) وأخاف أن تكون خلتنا اليوم عداوة يوم القيامة.

امرأة تعرض لها رجل فدعته إلى العفاف:

قال أعرابي: خرجت في ليلة بهيمة، فإذا أنا بجارية كأنها علم، فراودتها، فقالت: أمالك زاجر من عقل إن لم يكن لك ناهٍ من دين؟ فقلت: إنه لا يرانا إلاّ الكواكب، فقالت: وأين مكوكبها.

---

(١) يوسف: ٢٤.

(٢) الزخرف: ٦٧.

ونزل أسدي بطائية في يوم صائف، فأتته بقرى ففتنته بعينها من وراء البرقع، فراودها، فقالت: أما يردعك الكرم والإسلام؟ كل وأقل، وإن أردت غير ذلك فارتحل.

وروي أن أبرويز راود امرأة على الفجور، فقالت: أيها الملك، إن المرأة طبعت على ثلاثة أجزاء من الإنسانية، فإذا افتضت ذهب جزء، وإذا حبلت ذهب جزء، وإذا ولدت ذهب جزء، وقد أبيت عن ذلك، فأنا أعيذ الملك أن يخرجني من حدّ الإنسانية.

وقيل: انقطع بعض أولاد الملوك عن أصحابه، ودخل إلى منزل امرأة فراودها، فقالت: حتّى نتغذى، فوضعت له خواناً عليه عشرون سكرجة كلها كامخ فذاقها فرآها لوناً واحداً وطعماً واحداً، ففطن إلى أنها تشير إلى أن النساء لون واحد وأن الذي معها مع زوجته فانكف عنها.

الممدوح بذلك:

قال الشاعر:

خلوت بها ليلاً ولم أقض حاجة ... ولست على ذاك العفاف بنادم

* * *

وقال المتنبي:

عفيف تروق الشمس صورة وجهه ... فلو نزلت يوماً لحاد إلى الظل

* * *

وقال آخر:

كم حبيب لا عذر في اللوم فيه ... لك فيه من التقى لوّام

* * *

وسمعت امرأة رجلاً ينشد:

وكم ليلة قد بتها غير آثم   بمهضومة الكشحين ريّانة القلب

فقالت له: خزّاك الله ألا تأثمت.

من تعفّف عن امرأة حراماً فأوصله الله إليها حلالاً:

كان لأمير المؤمنين عليه السلام جارية وعلى بابها مؤذن إذا اجتازت به يقول لها: أنا أحبك، فحكت الجارية لأمير المؤمنين، فقال لها: «قولي له: وأنا أحبك فماذا؟» فقالت له، فقال: نصبر إلى يوم يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب، فأخبرت أمير المؤمنين بذلك، فدعاه وقال: خذ هذه الجارية فهي لك.

صعوبة الأمر على من اجتمع فيه العفة والغزل:

نظر محمّد بن عبد الله بن الحسين إلى امرأة جميلة فأعجبته فقال:

أهوى هوى الدين واللذّات تعجبني   فكيف لي بهوى اللذّات والدين

فقالت: يا هذا دع أحدهما تنل الآخر.

قال المتنبي:

إذا كنت تخشى العار في كل خلوة   فلم تتصباك الحسان الخرائد

متى يشتفي من لاعج الشوق في الحشى   محبٌ له في قربه متباعد

* * *

التعفف عن الجارة:

مرّ سفيان بن عيينة بدار فسمع قينة تغني:

ما ضرّ قوماً كنت جارهم   أن لا يكون لبيتهم سرّ

ناري ونار الجار واحدة   وإليه قبلي ينزل القدر

فدقّ الباب وقال: مثل هذا علموا فتيتكم.

قال حاتم الطائي:

وما تشتكي جارتي غير أنني إذا غاب عنها زوجها لا أزورها

سيبلغها خيري فيرجع بعلها إليها ولم ترسل عليها ستورها

* * *

وقال آخر:

ربّ بيضاء فرعها يتثنى قد دعتني لوصلها فأبيتُ

لم يكن بي تحرّج غير أني كنت خِدناً لزوجها فاستحيت

* * *

أبو تمّام:

بيضاء كان لها من غيرها حرم ولم يكن يُستحل الصيد في الحرم

التغازل بالنظر والقول دون الفعل:

قيل لأعرابي: ما الزنا عندكم؟ فقال: الشمة والضمّة والقبلة، فقيل: لكن أهل القرى يعدّون ذلك المباضعة، فقال: ليس ذلك زنا، وإنما هو طلب ولد.

وقالت جارية لرجل:

إن كانت الغلمة هاجت بكم نعالج الغلمة بالصوم

ليس بك الحب ولكنما تدور من هذا على الكوم

* * *

وقيل: إن عمر بن أبي ربيعة لما اشتدّ به المرض بكى أخوه، فرفع طرفه وقال: لعلك تشفق مما قلته في شعري؟ قال: نعم، قال: عتق ما أملك

إن وطئت امرأة حراماً قط، فقال: الحمد لله هوّنت عليّ. وقال أبو زيد: كان الرجل إذا عشق جارية فراسلها سنة رضي بما تمضغ علكاً فتبعثه إليه، والآن لا يرضى إلاّ أن يشيل رجليها كأنه قد أشهد على نكاحها أبا هريرة وحزبه. وقال أعرابي: خلوت الليلة بفلانة، فكان القمر يرينيها، فلما غاب خلفته، قيل: فما جرى؟ قال: الإشارة بغير بأس والتقرب بلا مساس.

قال ابن طباطبا:

فطربت طربة فاسق متهتك ... وعقدت حبوة ناسكٍ متحرّج

والله يعلم كيف كانت عفتي ... ما بين خلخال هناك ودملج

* * *

العبّاس بن الأحنف:

أتأذنون لصبٍ في زيارتكم ... فعندكم شهوات السمع والبصر

لا يضمر السوء إن طال الجلوس به ... عفّ الضمير ولكن فاسق النظر

* * *

أبو عيينة:

إن تروني فاسق العينين فالفرج عفيف

ليس إلاّ النظر الفاسق والشعر الظريف

* * *

الحصين بن سهم:

وما في اكتحال العين بالعين ريبة ... إذا عفّ فيما بينهنّ السرائر

امرأة شارفت شهوة فارتدعت لكرم أو ديانة:

حكي أن امرأة عشقت فتى فدعاها يوماً فأجابته، فغنّى مغنٍّ عندهما:

من الخفرات لم تفضح أخاها ولم ترفع لوالدها ستارا

فلما سمعت ذلك أبت إلاّ الخروج، ثمّ بعثت للرجل بألف دينار وقالت: هذا مهري فإن أردتني فاخطبني من أبي.

واشترى عبد الملك جارية فلما خلا بها قالت: يا أمير المؤمنين ما منزلة أرفع منزلة من منزلة هذه، ولكن القيامة لها خطر، إن ابنك فلاناً كان قد اشتراني وخلا بي ليلة، فلا يحلّ لك مسّي، فاستحسن قولها وولاها أمر داره.

عفيفة ألقت بريبة عن نفسها:

لما أكثر الأحوص التشبيب بأمّ جعفر الخطمية جاءته يوماً متنقبة وهو في نادي قومه، فقالت: ادفع لي ثمن الأغنام التي ابتعتها مني، فقال: والله ما ابتعت منك شيئاً، فقالت لقومه: قولوا له لا يجحد الحق، فقالوا: إن كان حق فلا تجحدنه، فقال: والله ما عرفتها قط، فكشفت عن وجهها وقالت: لعلك لا تَستثِبني، فقولوا له: يستثبني، فقالوا له، فقال: والله ما عرفتها قط ولا رأيتها ولا شاهدتها، فقالت: ما لك تشبب بي وتفضحني، فخجل وانزجر ولم يعد، وكذبته عشيرته.

امرأة لطيفة القول بعيدة التناول:

قال الشاعر:

يُحسبن من لين الحديث زوانياً ويصدهن عن الخنا الإسلام

ومرّ عبد الله بن جعفر بامرأة مزينة مطيبة جالسة على باب دارها، وفي يدها سبحة، فقال: ما التسبيح بمشابه لحالك، فأنشدت:

ولله عندي جانب لا أضيعه وللهو مني جانب ونصيب

ولست أبالي من رماني بريبة إذا كنت عند الله غير مريب

* * *

عليّ بن الجهم:

وقلــن لنــا نحــو الأهلــة إنمــا　　　نضيئ لمن يسري بليل ولا نقري

فــلا بــذل إلاّ مــا تــزوّد نــاظر　　　ولا وصل إلاّ بالخيال الذي يسري

* * *

وزاد أبو سعيد الرستمي:

وحسناء لم تأخذ من الشمس شيمة　　　سوى قرب مسراها وبعد منالها

وقال المتنبي:

كأنها الشمس تعبي كف قابضها　　　لبعدها ويراها الطرف مقتربا

* * *

مدح المرأة العفيفة:

قال الشنفري:

لقد أعجبتني لا سقوط قناعها　　　إذا ما مشت ولا بذات تلفّت

كأن لها في الأرض نسياً تقصّه　　　على أمها أو أن تكلمك تنكت

* * *

وقال جميل:

خود من الخفرات البيض لم يرها　　　بسدة البيت لا بعل ولا جار

* * *

وقال الموسوي:

دون القباب عفاف مع خلائقها　　　والصون تحفيظ ما لا تحفظ الخيم

* * *

ومما قرأت في (الرياض الخزعلية):

ومن ثمرات الروحانية، العفة، فمن غلبت روحانيته عليه كان عفيفاً بالطبع لا بالاختيار.

وصف أعرابي امرأة طرقها، فقال: ما زال القمر يرينها فلما غاب أرتنيه، فقيل: فما كان بينكما؟ قال: ما أقرب ما أحلّ الله مما حرّم، إشارة في غير بأس، ودنو من غير مساس.

أنشد الرضي الموسوي رضي الله عنه:

بتنا ضجيعين في ثوبي هوىً وتقىً ... يلفنا الشوق من فرع إلى قدم

وبات باسِمُ ذاك الثغر يوضح لي ... مواقع اللثم في داج من الظلم

* * *

وأحسن منه مطابقة لهذا المقام قوله رحمه الله:

خلونا فكانت عفة لا تعفّفاً ... وقد رفعت في الحي عنا الموانع

سلوا مضجعي عني وعنها فإننا ... رضينا بما يخبرن عنا المضاجع

* * *

نزل خارجي على بعض اخوانه منهم، مستتراً من الحجاج، فشخص المنزول عليه لبعض حاجاته، وقال لزوجته: يا ظبيا أوُصيكي بضيفي هذا خيراً، وكانت من أحسن الناس، فلما عاد بعد شهر قال لها: كيف كان ضيفك؟ قالت: ما أشغله بالعمى عن كل شيء، وكان الضيف قد أطبق جفنيه فلم ينظر إلى المرأة ولا إلى منزلها إلى أن عاد زوجها. ومثل هذا يُروى لمجنون ليلى العامرية، إنه اجتمع معها فدخل زوجها، فأدخلت المجنون ما بين جلدها وثوبها إلى أن خرج زوجها، فأخرجته،

فسئل المجنون بعد ذلك ما رأيت من محاسن ليلى؟ فقال: والله دخلت أعمى وخرجت أعمى. وهذه حالة اضطرارية باعث عليها الطبع لا اختيارية والله أعلم. انتهى.

* * *

أما الأخبار الواردة في مدح العفة وفضيلتها فكثيرة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أفضل العبادة العفاف».(١)

وقال الباقر عليه السلام: «ما من عبادة أفضل من عفة بطن وفرج».(٢)

وقال عليه السلام: «ما عبد الله بشيء أفضل من عفة بطن وفرج».(٣)

وقال عليه السلام: «أي الاجتهاد أفضل من عفة بطن وفرج».(٤)

وفي معناها أخبار أخر.

* * *

[**أنواع العفاف**]:

قال ابن أبي الحديد في المجلد الرابع في شرح نهج البلاغة، (ص ٥٢٤/ ط الأولى):

القول في العفة وهي ضروب: عفة اليد، وعفة اللسان، وعفة الفرج، وهي العظمى، وقد جاء في الحديث المرفوع: من عشق فكتم وعف وصبر فمات مات شهيداً ودخل الجنّة. وفي حكمة سليمان بن

---

(١) الكافي ٢: ٧٩.

(٢) الكافي ٢: ٨٠.

(٣) الكافي ٢: ٧٩.

(٤) نفس المصدر.

داود إنّ الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده، نزل خارجي على بعض اخوانه منهم مستتراً من الحجاج، فشخص المنزول عليه لبعض حاجاته، وقال لزوجته: يا ظبيا أوصيك بضيفي هذا خيراً، وكانت من أحسن الناس، فلما عاد بعد شهر قال لها: كيف كان ضيفك؟ قالت: ما أشغله بالعمى عن كل شيء، وكان الضيف أطبق جفنيه فلم ينظر إلى المرأة ولا إلى منزلها إلى أن عاد زوجها. قال الشاعر:

إن أكن طامح اللحاظ فإني　　　والذي يملك القلوب عفيف

خرجت امرأة من صالحات نساء قريش إلى بابها لتغلقه ورأسها مكشوف، فرآها رجل أجنبي فرجعت وحلقت شعرها، وكانت من أحسن النساء شعراً، فقيل لها في ذلك قالت: ما كنت لأدع على رأسي شعراً رآه من ليس لي بمحرم.

كان ابن سيرين يقول: ما غشيت امرأة قط في يقظة ولا نوم، غير أم عبد الله، وإني لأرى المرأة في المنام وأعلم أنها لا تحل لي فأصرف بصري عنها. وقال بعضهم:

وإني لعفّ عن فكاهة جارتي　　　وإني لمشنوء إليَّ إغتيابها
إذا غاب عنها بعلها لم أكن لها　　　صديقاً ولم يأنس إليَّ كلابها
ولم أك طلاّباً أحاديث سرّها　　　ولا عالماً من أيّ حوك ثيابها

* * *

[دخول بثينة على عبد الملك] :

دخلت بثينة على عبد الملك بن مروان، فقال: ما أرى فيك يا بثينة شيئاً مما كان يلهج به جميل؟ فقالت: إنه كان يرنو إليَّ بعينين ليستا في

رأسك يا أمير المؤمنين. قال: فكيف صادفتيه في عفته؟ قالت: كما وصف نفسه إذ قال:

لا والذي تسجد الجباه له ... ما لي بما ضمّ ثوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت به ... ما كان إلاّ الحديث والنظر

وقال أبو سهل الساعدي: دخلت على جميل في مرض موته، فقال: يا أبا سهل رجل يلقى الله ولم يسفك دماً حراماً، ولم يشرب خمراً، ولم يأت فاحشة، أترجو له، قال: إي والله فمن هو؟ قال: إني لأجو أن أكون ذلك، فذكرت له بثينة فقال: إني لفي آخر يوم من أيام الدنيا وأوّل يوم من أيام الآخرة لا نالتني شفاعة محمّد إن كنت حدّثت نفسي بريبة معها أو مع غيرها قط. قال الشاعر:

قالت وقلت توقفي فصلي ... حبل امرئ بوصالكم صبّ
صادق إذا بعلي فقلت لها ... الغدر شيء ليس من شعبي
ثنتان لا أصبو لوصلهما ... عرس الصديق وجارة الجنب
أمّا الصديق فلست خائنه ... والجار أوصاني به ربي

يقال: إن امرأة ذات جمال دعت عبد الله بن عبد المطلب إلى نفسها، لما كانت ترى على وجهه من النور فأبى وقال:

أما الحرام فالممات دونه ... والحل لا حلّ فأستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمي الكريم عرضه ودينه

راوَدَ تُوبةُ الحمير ليلى الأخيليّة مرّة عن نفسها فاشمأزت منه وقالت:

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها ... فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب وخليل

ابن ميادة:

موانع لا يعطين حبة خردل وهنّ زوان في الحديث أوانس

ويكرهن أن يسمعن من اللهو ريبة كما كرهت صوت اللجام الشوامس

* * *

وقال آخر:

بيض أوانس ما هممن بريبة كظباء مكة صيدهن حرام

يُحسبن من لين الكلام زوانياً ويصدهنّ عن الخنا الإسلام

* * *

في الحديث المرفوع: لا تكونن حديد النظر إلى ما ليس لك، فإنه لا يزني فرجك ما حفظت عينيك، وإن استطعك أن لا تنظر إلى ثوب المرأة التي لا تحلّ لك فافعل، ولن تستطيع ذلك إلاّ بإذن الله.

كان ابن المولى الشاعر المدني موصوفاً بالعفة وطيب الأزار، فأنشد عبد الملك شعراً له من جملته:

وأبكي فلا ليلى بكت من صبابة لباكٍ ولا ليلى لذي البذل تبذل

وأخنع بالعتبى إذا كنت مذنباً وإن أذنبت كنت الذي اتنصّل

فقال عبد الملك: من ليلى هذه إن كانت حرة لأزوجنكها، وإن كانت أمة لأشترينها لك بالغة ما بلغت؟ فقال: كلا يا أمير المؤمنين ما كنت لأصعر وجه حر أبداً في حرّته، ولا في أمته، وما ليلى التي أنست بها إلاّ قوسي هذه سميتها ليلى؛ لأن الشاعر لا بدّ له من النسيب.

قال المهتدي ابن الملوح المجنون:

كان على أنيابها الخمر شجه بماء الندى من آخر الليل غابق
وما ذقته إلاّ بعيني تفرساً كما شيم من أعلى السحابة بارق

* * *

هذا مثل بيت الحماسة:

بأعذب من فيها وما ذقت طعمه ولكنني فيما نرى العين فارس

* * *

وقال شاعر آخر:

ما إن دعاني الهوى لفاحشة إلاّ نهاني الحياء والكرم
ولا إلى محرم مددت يدي ولا مشت بي لريبة قدم

* * *

العبّاس بن الأحنف:

أتأذنون لصب في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوء إن طال الجلوس به عف الضمير ولكن فاسق النظر

* * *

قال بعضهم: رأيت امرأة مستقبلة البيت في الموسم، وهي في غاية الضر والنحافة، رافعة يديها تدعو، فقلت لها: هل لك من حاجة؟ قالت: حاجتي أن تنادي في الموقف بقولي:

تزود كل الناس زاداً يقيمهم ومالي زاد والسلام على نفسي

ففعلت وإذا أنا بفتى منهوك، فقال: أنا الزاد، فمضيت به إليها، فما زادوا على النظر والبكاء، ثمّ قالت له: انصرف مصاحباً فقلت: ما علمت

أنّ إلتقاء كما يقتصر فيه على هذا؟ فقالت: أمسك يا فتى، أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد.

قال بعضهم:

كم قد ظفرت بمن أهوى فيمنعني ... منه الحياء وخوف الله والحذر
وكم خلوت بمن أهوى فيقنعني ... منه الفكاهة والتحديث والنظر
أهوى الملاح وأهوى أن أجالسهم ... وليس لي في حرام منهم وطر
كذلك الحب لا إتيان معصية ... لا خير في لَذّةٍ من بعدها سقر

* * *

قال محمّد بن عبد الله بن طاهر لبنيه: اعشقوا تظرفوا، وعفّوا تشرفوا. وصف أعرابي امرأة طرقها، فقال: ما زال القمر يرينيها، فلما غاب أرتنيه، فقيل: فما كان بينكما؟ قال: أقرب ما أحلّ الله مما حرم، إشارة في غير يأس، ودنو غير مساس، ولا وجع أشد من الذنوب.

قال كثير عزة:

وإني لأرضى منك يا عزّ بالذي ... لو أبصره الواشي لقرتّ بلابله
بلى وبأن لا أستطيع وبالمنى ... وبالوعد حتّى يسأل الوعد آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضي ... أواخره لا نلتقي وأوائله

وقال بعض الظرفاء: كان أرباب الهوى يسرون فيما مضى، ويقنعون بأن يمضع أحدهم لباناً قد مضغته محبوبته، أو يستاك بسواكها، ويرون ذاك عظيماً، واليوم يطلب أحدهم الخلوة وإرخاء الستور كأنه قد أشهد على نكاحها أبا سعيد وأبا هريرة. وقال أحمد بن أبي عثمان الكاتب:

وإنـــي ليرضـــيني المـــرور ببابهـــا   وأقنـــع منهـــا بالوعيـــد وبـــالزجر

قال يوسف بن الماجشون: أنشدت محمّد بن المنكدر قول وضاح اليمن:

إذا قلـت هـاتي نـوليني تبسـمت   وقالـت معاذ الله مـن فعـل مـا حـرم

فمـا نولـت حتّى تضرّعت حمولهـا   وعرفتهـا مـا رخّـص الله فـي اللمـم

فضحك وقال: إن كان وضّاح لفقيهاً في نفسه، وقال آخر:

فقالــــت بحـــق الله إلاّ أتيتنـــا   إذا كـان لـون الليـل لـون الطيـالس

فجئت وما في القوم يقظان غيرها   وقـد نـام عنهـا كـل والٍ وحـارس

فبتنـــا مبيتـــاً طيبـــاً نســـتلذه   جميعاً ولـم أمـدد لهـا كـف لامـس

مرت امرأة حسناء بقوم من بني نمير مجتمعين في نادٍ لهم فرمقوها بأبصارهم، وقال قائل منهم: ما أكملها لولا أنها رشحاء. فالتفتت إليهم وقالت: والله يا بني نمير ما أطعتم الله ولا الشاعر، قال الله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ وقال الشاعر:

فغـضّ الطـرف إنـك مـن نميـر   فـلا كعبـاً بلغـت ولا كلابـا

فأخجلتهم.

[أبيات في الغزل والحماسة]:

وقال أبو ضمرة الهذلي من شعر الحماسة:

وليلـــة منهـــا تعـــود لنـــا   مـــن مـــا رفـــث ولا إثـــم

أشـهى إلـى نفسـي ولـو ترحـت   ممـا ملكـت ومـن بنـي سـهم

* * *

وقال آخر:

وما نلت منها محرماً غير أنني ... أقبّل بسّاماً من الثغر أفلجا

وألثم فاهاً آخذاً بقرونها ... وأترك حاجات النفوس تحرجا

* * *

وأعف من هذا الشعر قول عبد بني الحسحاس على فسقه:

لعمر أبيها ما صبوت ولا صبت ... إليَّ وإني من صباً لحليم

سوى قبلة أستغفر الله ذنبها ... سأطعم مسكيناً لها وأصوم

* * *

وقال آخر:

ومجدولة جدل العناق كأنما ... سنا البرق في داجي الظلام ابتسامها

ضربت لها الميعاد ليست بكنّة ... ولا جارة يخشى علي ذمامها

فلما التقينا قالت الحكم فاحتكم ... سوى خلّة هيهات منك مرامها

فقلت معاذ الله أن أركب التي ... تبيد ويبقى في المعاد اثامها

* * *

قوله: ليس بكنة وجارة يخشى علي ذمامها، مأخوذ من قول قيس بن الحطيم:

ومثلك قد أصبت ليس بكنّة ... ولا جارة ولا حليلة صاحب

* * *

وهذا الشاعر قد زاد عليه بقوله: ولا حليلة صاحب، وأنشد مندويه لبعضهم:

أنا زاني اللسان والطرف إلاّ ... أن قلبي يعاف ذاك ويابا

لا يرانـــي الإلـــه أشـــرب إلاّ   كـل مـا حـلّ شـربه لـي وطابـا

* * *

وقال آخر:

فلهـو بهـنّ كـذا مـن غيـر فاحشـة   لهـــو الصـــيام بتفـــاح البســـاتين

* * *

بشار بن برد:

قـالوا حـرام تلاقينـا فقلـت لهـم   مـا فـي التـزام ولا فـي قبلـة حـرج

من راقب الناس لـم يظفـر بحاجتـه   وفـاز بالطيبـات الفاتـك اللهـج

* * *

البيت الآخر مثل قول القائل:

مـــن راقـــب النـــاس مـــات همّـــاً   وفـــاز باللـــذّة الجســـور

أبو الطيب المتنبي:

وتـرى الفتـوة والمـروة والأبـوّة   فـــي كـــل مليحـــة ضـــراتها

هـنّ الـثلاث المنـا نعـاتي لـذّتي   في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

إنـي علـى شـغفي بمـا فـي خمرهـا   لا عـفّ عمـا فـي سـرا ويلاتهـا

* * *

كان الصاحب ﷺ يستهجن قوله: عما في سرا ويلاتها، ويقول: إنّ كثيراً من العهد أحسن من هذه العفة.

ومعنى البيت الأوّل: إنّ هذه الخلال الثلاث تراهن الملاح ضرائر لهنّ؛ لأنهن يمنعنه عن الخلوة بالملاح والتمتع بهنّ. ثمّ قال: إنّ هذه

الخلال هي التي تمنعه لا الخوف من تبعاتها. فقال قوم: هذا تهاون بالدين ونوع من الإلحاد. وعندي إنّ هذا مذهب الشعراء معروف، لا يريدون به التهاون بالدين؛ بل المبالغة في وصف سجاياهم وأخلاقهم بالطهارة، وأنهم يتركون القبيح لأنه قبيح لا لورود الشرع به وخوف العقاب منه، ويمكن أيضاً أن يريد بتبعاتها تبعات الدنيا أي لا أخاف من قوم هذه المحبوبة التي آنست بها، ولا اشفق من حربهم وكيدهم.

فأما عفّة اليد وعفّة اللسان فهما باب آخر، وقد ذكرنا طرفاً صالحاً من ذلك في الأجزاء المتقدمة عند ذكرنا الورع.

وفي الحديث المرفوع: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين، حتّى يترك ما لا بأس به حذار ما به البأس».

قال سليمان بن داود: يا بني إسرائيل أوصيكم بأمرين أفلح من فعلهما: لا تدخلوا أجوافكم إلاّ الطيب، ولا تخرجوا من أفواهكم إلاّ الطيب.

وقال بعض الحكماء: إذا شئت أن تعرف ربك معرفة يقينية فاجعل بينك وبين المحارم حائطاً من حديد، فسوف يفتح عليك أبواب معرفته.

قال جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول لكعب بن عجرة: «لا يدخل الجنّة لحم نبت من السحت، النار أولى به».

الحسن: «لو وجدت رغيفاً من حلال لأحرقته ثمّ سحقته ثمّ جعلته ذروراً ثمّ داويت به المرضى».

ثمّ يؤمر بهم إلى النار، فقيل: حلّهم لنا يا رسول الله، قال: «إنهم كانوا يصلون ويصومون، ويأخذون أهبة من الليل ولكنهم كانوا إذا عرض عليهم الحرام وثبوا عليه».

* * *



قوله عليه السلام:

يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا إلَيْكِ عَنِّي أبِي تَعَرَّضْتِ أمْ إلَيَّ تَشَوَّقْتِ لا حَانَ حِينُكِ هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي لَا حَاجَةَ لِي فِيكِ قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاثاً لا رَجْعَةَ فِيهَا فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ وَأمَلُكِ حَقِيرٌ آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَطُولِ الطَّرِيقِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَعَظِيمِ الْمَوْرِدِ.

(نهج البلاغة ٤: ١٦)

[الدنيا في نظر عليّ عليه السلام]

ضبط الألفاظ اللغوية:

(السدول) جمع سديل وهو ما أسدل على الهودج، ويجوز في جمعه أيضاً أسدال وسدائل وهو ههنا استعارة، والتململ والتملل أيضاً عدم الاستقرار من المرض كأنه على ملّة وهي الرماد الحار، والسليم الملسوع، وقوله: «لا حان حينك» دعاء عليها، لا حضر وقتك كما تقول: لا كنت.

قال ابن أبي الحديد:

ومن خبر ضرار بن حمزة الضبائي، عند دخوله على معاوية ومسألته له عن أمير المؤمنين عليه السلام فإن الرياشي روى خبره ونقلته أنا من كتاب عبد الله بن إسماعيل بن أحمد الحلبي في التذييل على نهج البلاغة، قال: دخل ضرار على معاوية وكان ضرار من صحابة عليّ عليه السلام، فقال له معاوية: يا ضرار صف لي عليّاً، قال: أوَتعفيني؟ قال: لا أعفيك، قال: ما أصف منه، كان والله شديد القوى بعيد المدى، يتفجّر العلم من أنحائه والحكمة من أرجائه، حسن المعاشرة، سهل المباشرة، خشن المأكل قصير الملبس، غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلّب كفّه ويخاطب نفسه، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألنا ويبتدئنا إذا سكتنا، ونحن مع تقريبه لنا أشد ما يكون صاحب لصاحب هيبة، لا نبتدئه الكلام لعظمته،

يحب المساكين ويقرّب أهل الدين، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه... وتمام الكلام مذكور في الكتاب.

وذكر أبو عمر بن عبد العزيز في كتاب الاستيعاب هذا الخبر.

فقال: حدّثنا عبد الله بن محمّد بن يوسف، قال: حدّثنا يحيى بن مالك بن عائذ، قال: حدّثنا أبو الحسن محمّد بن محمّد بن مقلة البغدادي بمصر، وحدّثنا أبو بكر محمّد بن الحسن بن دريد، قال: حدّثنا العكلي عن الحرمازي عن رجل من همدان قال: قال معاوية لضرار الضبائي: يا ضرار صف لي عليّاً، قال: اعفني يا أمير المؤمنين، قال: لتصفنه، قال: إذ لا بدّ من وصفه، كان والله بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته، غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن، كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استفتيناه، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلّمه هيبة له، يعظّم أهل الدين ويقرّب المساكين، لا يَطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، ويقول: «يا دنيا غريّ غيري أبي تعرّضت أم إليّ تشوقت، هيهات هيهات قد باينتك ثلاثاً لا رجعة لي فيها، فعمرك قصير وخطرك حقير، آه من قلّة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق»، فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا حسن كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذُبح ولدها في حجرها.(١)

* * *

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٢٤.

وقال ابن ميثم البحراني في (شرح نهج البلاغة):[١]

... ومن خبر ضرار بن ضمرة الضبائي عند دخوله على معاوية، ومسألته له عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وهو قائم في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ويقول: «يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا إِلَيْكِ عَنِّي أَبِي تَعَرَّضْتِ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ لَا حَانَ حِينُكِ هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي لَا حَاجَةَ لِي فِيكِ قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلَاثاً لَا رَجْعَةَ فِيهَا فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ وَأَمَلُكِ حَقِيرٌ آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَطُولِ الطَّرِيقِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَعَظِيمِ الْمَوْرِدِ».

أقول: كان هذا الرجل من أصحابه عليه السلام فدخل على معاوية بعد موته، فقال: صف لي عليّاً، فقال: أوتعفيني عن ذلك؟ فقال: والله لتفعلن. فتكلم بهذا الفصل، فبكى معاوية حتّى اخضلّت لحيته.

و(سدول) جمع سدل وهو ما أسبل على الهودج، و(التململ) التقلقل من الألم والهمّ، و(السليم) الملسوع، و(الوله) أشدّ الحزن.

وقد نظر عليه السلام إلى الدنيا بصورة امرأة تزيّنت وتعرّضت لوصوله إليها، مع كونها مكروهة إليه، فخاطبها بهذا الخطاب، و(إليك) من أسماء الأفعال، أي تنحيّ و(عنّي) متعلق بما فيه من معنى الفعل، واستفهامه عن تعرّضها به وتشوّقها إليه استفهام استنكار لذلك منها، واستبعاداً لموافقته إيّاها على ما تريد، ولا حان حينك أي لا قرب وقتك أي وقت انخداعي لك وغرورك لي. وقوله: هيهات أي بعد ما تطلبين مني، ثمّ أمرها بغرور غيره، وهو كناية عن أنه لا طمع لها في ذلك منه، لا أنه أراد منها غرور

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٥١٨.

غيره، وهذا كمن يقول لمن يخدعه وقد اطلع على ذلك منه إخدع غيري، أي أن خداعك لا يخل عليَّ.

ثمّ خاطبها خطاب الزوجة المكرهة منافراً لها، فأخبرها بعدم حاجته إليها، ثمّ إنشاء طلاقها ثلاثاً لتحصل البينونة بها مؤكداً لذلك بقوله: لا رجعة فيها، وهو كناية عن غاية كراهيتها، وكذلك طلاقها لميله عليه السلام إلى ضرّتها التي هي مظنّة الحسن والبهاء، ثم أشار إلى المعائب التي لأجلها كرهها وطلّقها، وهي: قصر العيش أي مدّة الحياة فيها، ويسير الخطر أي قلّة قدرها ومحلّها في نظره، ثم حقارة ما يؤمّل منها، ثم تأوّه من أمور:

أحدها: قلة الزاد في السفر إلى الله تعالى وقد علمتَ أنه التقوى والأعمال الصالحة، وهكذا شأن العارفين، في استحقار أعمالهم.

الثاني: طول الطريق إلى الله، ولا شيء في الإعتبار أطول مما لا يتناهى.

الثالث: بعد السفر وذلك لبعد غايته وعدم تناهيها.

الرابع: المورد وأوّل منازله الموت، ثمّ البرزخ، ثمّ موقف القيامة الكبرى.

* * *

وقال الخوئي في (منهاج البراعة):(١)

من أخبث مكائد معاوية بعد تسلّطه على الكوفة وسيطرته على أصحاب أمير المؤمنين، أن يجلبهم إلى الشام بشتى الوسائل، من دعوة ودّية أو تهريب من ظلم عمّاله، أو تهديد أو غير ذلك من الوسائل، ثمّ يحضرهم في حفلته الغاصّة بالرجال، ويسألهم عن وصف عليّ عليه السلام حتّى يذكروا له عيباً بحضرة الناس ويتهموه فيستفيد من كلامهم لتأييد سياسته.

---

(١) ج ٢١: ١١٣.

وممن وقع في حبالته ضرار بن ضمرة، وكان من خواص علي عليه السلام ومن أهل الزهد والعبادة، فأمره بتوصيف عليّ عليه السلام، وقد وصفه ضرار بهذا الوصف البالغ في الخطورة من نواح شتى، معرضاً بذلك على معاوية وناصحاً وواعظاً له، ونشير إلى بعض ما ذكره رضوان الله عليه:

افتتح ضرار رضوان الله عليه توصيفه لعليّ عليه السلام بأنه كان (بعيد المدى) أي عالي الهمّة ناظر إلى المعالي القدسية، وتارك للأهواء الخسيسة الماديّة، مع شدة قواه المعنوية، ونواياه الملكوتية، وكأنه إشارة إلى قوله تعالى في سورة النجم: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ وهو وصف جبرائيل حامل الوحي إلى النبي صلى الله عليه وآله.

(يقول فصلاً) أي ينطق بما هو الحق الصريح، مأخوذاً من الوحي الصحيح، وكأنه إشارة إلى قوله تعالى في سورة الطارق: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ وكان يحكم بالعدل لا يخالطه جور وباطل، منبع زخار للعلم قولاً وعملاً، وبحر خضم للحكمة من كل ناحية، زاهد في الدنيا متنفّر منها، يطلب الخلوة والانعزال عن أهل الدنيا، فيأوي إلى الليل ووحشته، هذه صفاته المعنوية العقلية والوجدانية.

ثمّ شرع في وصفه الظاهر فقال: (يبكي ويسيل الدموع الغزيرة من خوف الله ومن ترحمه على الضعفاء والفقراء، ويتفكر طويلاً في صلاح الأمور).

ثمّ وصفه عليه السلام في زيّه ولباسه ومأكله فقال: (يعيش عيش الفقراء والمساكين، حتّى يعجبه اللباس القصير والطعام الخشن، لم يلاحظ لنفسه امتيازاً ولا مشارة وإمارة للرياسة؛ بل كان فينا كأحدنا، يجيب مسائلنا ويفتينا، ولكن له هيبة معنوية في قلوبنا)، ثمّ يبيّن معاملته مع عموم الناس ورعايته للعدل الاجتماعي في هذه الفصول:

١ ـ يعظم أهل الدين فلا حرمة عنده إلاّ للدين وأهله.

٢ ـ يقرب المساكين ولا يلتفت إلى زبرجة الأغنياء والمثرين.

٣ ـ لا نفوذ فيه لأهل القوّة والثروة، فيستميلونه لأغراضهم؛ بل لا طمع لهم في ذلك.

٤ ـ لا يقطع رجاء الضعيف من عدله وأخذه له بحقه، وإن كان خصمه قوياً ذا مال وجاه وثروة.

ثمّ شرع بعد ذلك في بيان خوفه من الله، وزهده في الدنيا، وصوّره لمعاوية بما لا مزيد عليه، حتّى أثر في هذه الصخرة الصمّاء والقلب القاسي الأعمى فبكى.

وأظنّ أن بكاء معاوية لم يكن عن خوف من الله وإذعان للحق؛ بل كان كما يبكي الصبي من ألم الإبرة إذا نفذت في جسمه، حيث إنّ كلّ جملة ألقاها عليه هذا البطل المجاهد في فضيلة عليّ عليه السلام تكون أوقع من السهم على قلبه وكبده، فهو مع تمام تجلده وتحلّمه الذي كان الركن الوثيق لسياسته العوجاء، لم يقدر على المقاومة تجاه هذه الضربات البطولية النافذة على قلبه القاسي، فلم يحر جواباً ولم يجترئ على إسكات القائل لما أخذ منه العهد ضمناً بقوله: أو َتعفيني، فتحمّل ألم هذه الرميّات المتتابعات حتّى نفد صبره، وشرع يبكي من الألم والغمّ الذي دخله من مشاهدة هذا البطل الذي يجاهده بسيف لسانه في عقر داره، وهو يرى نفسه متكأ على سرير الملك والسطوة، ثمّ أخبره هذا البطل في آخر كلامه عن مقدار حبّه لعليّ عليه السلام وبغضه له ـ أي لمعاوية ـ حيث أجابه بأنّ حزني على عليّ عليه السلام كحزن أمّ ذبح ولدها في حجرها، هذا تصريح بحبه لعليّ عليه السلام بما لا مزيد عليه، وتلويح لبغضه له، وهل قتل عليّ عليه السلام إلاّ بمخالفة معاوية معه، وبكيده ومكره.

* * *

[ضرار يصف عليّاً عليه السلام]:

وقال الشيخ ابن مغنية:

قال الشريف الرضي والذين شرحوا النهج من بعده: إنّ ضرار بن ضمرة كان من أصحاب الإمام أمير المؤمنين وخاصته، وبعده دخل على معاوية فقال له: يا ضرار صف لي عليّاً، قال: اعفني، قال معاوية: لا أعفيك، قال ضرار: ما أصف أنه كان والله شديد القوى بعيد المدى، يتفجر العلم من جوانبه، والحكمة من أرجائه، حسن المعاشرة، سهل المباشرة، خشن المأكل، قصير الملبس، غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلّب كفّه ويخاطب نفسه، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا سكتنا، ونحن مع تقريبه لنا أشد ما يكون صاحب لصاحب هيبة، لا نبتدئه الكلام لعظمته، يحبّ المساكين، ويقرّب أهل الدين، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وهو قائم في محرابه قابض على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين ويقول:

«يا دنيا يا دنيا إليك عني...» إلخ.

هذا هو نهج عليّ... وضعه هو لنفسه وعاشه بعمله، واستهان بالموت من أجله... أبداً لا دنياً تذوق منه ويذوق منها، إنها محرّمة عليه تحريماً أبدياً لا حلّ لها ولا محلل... ومعنى لا دنيا، لا شهوة وهوى، ولا متعة ولذة، ولا فرديّة وأنانية، ولا سعادة لحظة واحدة؛ بل عناء قائم، وبلاء دائم...

وهكذا كانت حياة عليّ لا لشيء إلاّ لأنه طلق الدنيا ثلاثاً، ولكنه تقبل هذه الحياة عن رضا وطيب نفس... وإذا طلق الدنيا ثلاثاً لا رجعة فيها، وهجر حلاوتها وزينتها، فكيف يمكن الجمع والتوفيق بينه وبين أهلها ومحبيها؟ ومن الذي يجمع بين الضرة وشريكتها؟

وهنا يكمن السر في نقمة الناقمين على ابن أبي طالب، وثورة الناكثين والفاسقين والمارقين، وفي عزلة المعتزلين عن بيعته ونصرته، وفي قولة من قال: عليٌ لا يعرف السياسة... ومن قبلهم قال المشركون لمحمّد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[(١)] [(٢)].

* * *

أقول: قرأت في الجزء الأوّل من (كتاب المحاسن والمساوئ) للبيهقي (ص ٣٢):

وعن ابن عبّاس أنه قال: لقد سبق لعليّ رضي الله عنه سوابق لو أن سابقة منها قسمت على الناس لوسعتهم خيراً.

وعنه قال: كان لعليّ رضي الله عنه خصال ضوارس قواطع، سطةٌ في العشيرة، وصهرٌ بالرسول، وعلم بالتنزيل، وفقهٌ في التأويل، وصبر عند النزال، ومقاومة الأبطال، وكان ألدّاً إذا أعضل، ذا رأي إذا أشكل».

* * *

وفي المجلد الرابع من (ربيع الأبرار) للزمخشري (ص ١٦١ ط بغداد):

قال ابن عبّاس في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: كان والله يشبه القمر الباهر، والأسد الخادر، والفرات الزاخر، والربيع الباكر، فأشبه من القمر ضوءه وبهاءه، ومن الأسد شجاعته ومضاءه، ومن الفرات جوده وسخاءه، ومن الربيع خصبه وحياءه.

* * *

---

(١) الحجر: ٦.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٥٨.

وفي (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة)، (مج ٣ ص ٤١) نقلاً عن الاحتجاج للطبرسي،[١] عن عروة بن الزبير عن الزبير بن العوام قال:

لما قال المنافقون: إن أبا بكر تقدّم عليّاً، وهويقول: أنا أولى بالمكان منه، قام أبو بكر خطيباً فقال: صبراً على من ليس يؤل إلى دين، ولا يحتجب برعاية ولا يرعوي لولاية، أظهر الإيمان ذلة وأسرّ النفاق غِلّة، هؤلاء عصبة الشيطان وجمع الطغيان يزعمون أني أقول إني أفضل من عليّ، وكيف أقول ذلك وما لي سابقته ولا قرابته ولا خصوصيته، ووحّد الله وأنا ملحده، وعبد الله قبل أن أعبده، ووالى الرسول وأنا عدوّه، وسابقني بساعات لم ألحق شأوه، ولم أقطع غباره.

إنّ ابن أبي طالب فاز والله من الله بمحبة، ومن الرسول بقربة، ومن الإيمان برتبة، لو جهد الأوّلون والآخرون إلاّ النبيّون لم يبلغوا درجته ولم يسلكوا منهجه.

بذل في الله مهجته ولابن عمه مودّته، كاشف الكرب ودافع الريب، وقاطع السبب إلاّ سبب الرشاد وقامع الشرك، ومطهّر ما تحت سويداء حبّة النفاق، محنة لهذا العالم، لحق قبل أن يلاحق، وبرز قبل أن يسابق جمع العلم والحلم والفهم فكان جميع الخيرات لقلبه كنوزاً لا يدخر منها مثقال ذرة إلاّ أنفقه في بابه.

فمن ذا يؤمل أن ينال درجته، وقد جعله الله ورسوله للمؤمنين ولياً وللنبي وصيّاً وللخلافة راعياً وبالإمامة قائماً، أفيغترّ الجاهل بمقام قمتهُ إذا أقامني وأطعته إذا أمرني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحق مع عليّ

(١) وذكرها صاحب كتاب (عليّ والحاكمون): ١٠٦.

وعليّ مع الحق، من أطاع عليّاً رشد ومن عصى عليّاً فسد، ومن أحبه سعد، ومن أبغضه شقي».

والله لو لم يُحبّ ابن أبي طالب إلاّ لأجل أنه لم يواقع لله محرّماً ولا عبد من دونه صنماً، ولحاجة الناس إليه بعد نبيهم، لكان في ذلك مما يجب فكيف لأسباب أقلها موجب وأهونها مرغب للرحم الماسة بالرسول والعلم بالدقيق والجليل والرضا بالصبر الجميل والمواساة في الكثير والقليل وخلال لا يبلغ عدّها ولا يدرك مجدها، ودّ المتمنون أن لو كانوا تراب. أقدام ابن أبي طالب. أليس هو صاحب لواء الحمد والساقي يوم الورود وجامع كل كريم وعالم كل علم والوسيلة إلى الله وإلى رسوله.

وقيل: دخل ابن عبّاس على معاوية، فقال: يا ابن عبّاس صف لي عليّاً، قال: كأنك لم تره؟! قال: بلى، ولكني أحب أن أسمع منك فيه مقالاً.

قال: كان أمير المؤمنين رضوان الله عليه غزير الدمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن، يدنينا إذا أتيناه ويجبنا إذا دعوناه، وكان مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نبدأه بالكلام حتّى يتبسم فإذا هو تبسّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، أما والله يا معاوية لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، وهو قابض على لحيته يبكي ويتململ تململ السليم وهو يقول: يا دنيا إيّاي تغرين، أمثلي تشوقين، لا حان حينك بل زال زوالك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعيشك حقير، وعمرك قصير، وخطرك يسير، آه آه من بعد السفر ووحشة الطريق وقلة الزاد. قال: فأجهش معاوية ومن معه بالبكاء.

وقال خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين يصف محاسن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ومن حضره (كرّم الله وجهه) في قصيدة له:

رأوا نعمـــة لله ليســـت علـــيهمُ ... عليـك وفضـلاً بارعـاً لا تُنازَعُـه

فعضّوا من الغيظِ الطويـل اكفَهـم ... عليك ومن لـم يـرضَ فالله خادِعُـه

من الدين والدنيا جميعاً لك المُنى ... وفـوق المنـى أخلاقُـهُ وطبائِعُـه

[عدي يصف علياً عليه السلام]:

وروي أنّ عـدي بـن حـاتم دخـل علـى معاويـة بـن أبـي سـفيان، فقـال: يـا عـدي أيـن الطَرَفـات؟ يعنـي بنيـه طريفـاً وطارفـاً وطَرَفـة، قـال: قتلـوا يـوم صفين بين يدي عليّ بـن أبـي طالـب رضي الله عنه فقـال: مـا أنصـفك ابـن أبـي طالـب إذ قـدّم بنيـك وأخّـر بنيـه، قـال: بـل مـا أنصـفت أنـا عليّـاً إذ قُتـل وبقيـت، قـال: صف لي عليّاً، فقال: إن رأيت أن تعفيني؟ قال: لا أعفيك.

قال: كان والله بعيد المدى شديد القوى، يقول عدلاً ويحكم فصلاً، تتفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته، وكان والله غزير الدمعة طويل الفكرة، يحاسب نفسه إذا خلا ويقلّب كفّيه على ما مضى، يعجبه من اللباس القصير ومن المعاش الخشن، وكان فينا كأحدنا يُجيبنا إذا سألناه ويُدنينا إذا أتيناه، ونحن مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلّمه لهيبته، ولا نرفع أعيننا إليه لعظمته، فإن تبسم فعن اللؤلؤ المنظوم، يعّظم أهل الدين ويتحبب إلى المساكين، لا يخاف القويّ ظلمه، ولا ييأس الضعيف من عدله.

فأُقسم بالله لقد رأيته ليلة وقد مَثَل في محرابه وأرخى الليل سرباله، وغارت نجومه، ودموعه تتحادر على لحيته وهو يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، فكأني الآن أسمعه وهو يقول: «يا دنيا إليَّ تعرّضت أم إليَّ أقبلت، غرّي غيري، لا حان حينك قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي

فيك، فعيشك حقير وخطرك يسير، آه من قلة الزاد وبُعد السفر وقلّة الأنيس».

قال: فوكفت عينا معاوية وجعل ينشفهما بكمه، ثمّ قال: رحم الله أبا الحسن كان كذلك فكيف صبرك عنه؟ قال: كصبر من ذبح ولدها في حجرها فهي لا ترقأ دمعتها ولا تسكن عَبرتها، قال: فكيف ذكرك له؟ قال: وهل يتركني الدهر أن أنساه.

[ابن الحنفية يصف أباه في صفين]:

وقام محمّد بن الحنفية يوم صفين يصف أباه أمير المؤمنين عليه السلام.

قال السبط بن الجوزي في (تذكرة الخواص): وقف محمّد بن الحنفية يوم صفين بين الصفين، وأومى إلى أهل الشام وقال:

اخسئوا، يا ذرّية النفاق وحشو النار وحصب جهنّم، عن البدر الزاهر والقمر الباهر والنجم الثاقب، والسنان النافذ، والشهاب المنير، والحسام المبير، والصراط المستقيم، والبحر الخضمّ العليم، من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها، أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً.

أوَما ترون أيّ عقبة تقتحمون، وأيّ هضبة تتسنّمون وأنّى يؤفكون بل ينظرون إليك وهم لا يبصرون، أصنو رسول الله تستهدفون، ويعسوب دين الله تلمزون، فأيّ سبيل رشاد بعد ذلك تسلكون، وأيّ خرقٍ بعد ذلك ترقعون، هيهات هيهات برز والله في السبق وفاز بالخصل واستولى على الغاية، وأحرز فصل الخطاب، فانحسرت عنه الأبصار وانقطعت دونه الرقاب، وقرع الذرة العليا، وبلغ الغاية القصوى، فعجز من رام سعيه وأعياه الطلب، وفاته المأمول والإرب،

ووقف عند شجاعته الشجاع الهمام، وبطل سعي البطل الضرغام، وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد، فخفضاً خفضاً ومهلاً مهلاً، أفلصدّيق رسول الله تثلبون أم لأخيه تسبون، وهو شقيق نسبه إذ نُسبوا ونديد هارون إذ مُثلوا، والمصلّي إلى القبلتين إذ انحرفوا، والمشهور له بالإيمان إذ كفروا، والمدعو بخيبر إذ نكلوا، والمندوب لنبذ عهد المشركين إذ نكثوا والمخلوف ليلة الهجرة إذ جبنوا، والثابت يوم أحد إذ هربوا، والمستودع للأسرار ساعة الوداع إذ حجبوا.

تلك المكارم لا قصبان من لَبَن ... شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا

وكيف يكون بعيداً من سناء وسمّو، وثناء وعلّو، وقد نجله ورسول الله صلى الله عليه وآله أب،[1] وأنجبت بينهما جدود، ورضعا بلبن، ودرجا في سنن، وتفيئا بشجرة، وتفرّعا من أكرم أصل، فرسول الله صلى الله عليه وآله للرسالة، وأمير المؤمنين عليه السلام للخلافة، رتق الله به فتق الإسلام حتّى انجابت طخية الريب، وقمع نخوة النفاق حتّى ارفأنّ جيشانه وطمس رسم الجاهلية، وخلع ربقة الصغار والذلّة، وكفأ الملّة العوجاء ورفق شربها، وحلاءها عن وردها، واطئاً كواهلها، آخذاً بكظامها، يقرع هاماتها ويرحضها عن مثال الله، حتّى كلمها الخَشاش وعضّها الثقاف، نالها فرض الكتاب، فجرجرت جرجرة العود الموقع، فزادها وقراً فلفظته بأفواهها، وزلقته بأبصارها، ونبت عن ذكره أسماعها، فكان لها كالسمّ الممقر، والذعاف المرعف.

لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يزيله عن الحق تهيّب متهدد، ولا يحيله عن الصدق ترهّب متوعّد، فلم يزل كذلك حتّى انقشعت غيابة الشرك، وخنع طيخ الافك، وزالت قحم الإشراك، حتّى تنسّم روح النصفة، وقطعتم قسم السوء،

(١) في المناقب للموفق الخوارزمي: ٢١١: (وقد نحلته ورسول الله صلى الله عليه وآله أبوّة...).

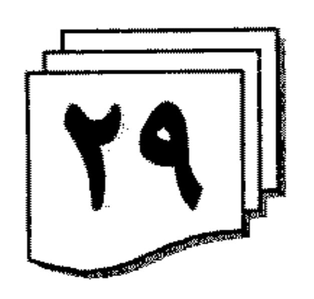
بعد أن كنتم لوكة الآكل، ومذقة الشارب، وقبسة العجلان، بسياسة مأمون الحرفة، مكتهل الحنكة، طباً بأدوائكم، قمناً بدوائكم، يقتات الجنبة، ويرد الخميس، ويلبس الأدم، ثمّ إذا سيّرت الرجال وطاح الوشيط، واستسلم المشيح، وغمغمت الأصوات، وقلصت الشفاه، وقامت الحرب على ساق، وخطر فنيقها وهدرت شقاشقها، وجمعت قطريها، وسالت بابراق، ألفي أمير المؤمنين هنالك مثبتاً لقطبها مديراً لرحاها، قادحاً زندها، مورياً لهبها، مذكياً جمرها، دلافاً للبهم، ضرّاباً للقلل، غصّاباً للمهج، تراكاً للسلب، خواضاً لغمرات الموت، مؤتم أطفال، مشتت ألاف، قطّاع أقران، طافياً عن الجولة، راكداً في الغمرة، يهتف بأولاها فتنكشف أخراها، فتارة يطويها كطيّ الصحيفة، وآونة يفرّقها كتفرق الوفرة.

فبأي آلاء أمير المؤمنين تمترون، وعلى أي أمر مثل حديثه تؤثرون، ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ﴾[1] [2].

* * *

(١) الأنبياء: ١١٢.

(٢) أنظر كذلك: المناقب للخوارزمي: ٢١١.



قوله عليه السلام :

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإحْسَانِ﴾ الْعَدْلُ الإنْصَافُ وَالإحْسَانُ التَّفَضُّلُ.

(نهج البلاغة ٤: ٥١)

[العدل والإحسان هما المنهج الأساس في الإسلام]

قال ابن أبي الحديد:

هذا تفسير صحيح اتفق عليه المفسرون كافة، وإنما دخل الندب تحت الأمر لأن له صفة زائدة على حسنه، وليس كالمباح الذي لا صفة له زائدة على حسنه.

قال الزمخشري: العدل هو الواجب؛ لأن الله ﷻ عدل فيه على عباده، فجعل ما فرضه عليهم منه واقعاً تحت طاقتهم، والإحسان الندب، وإنما علّق أمره بهما جميعاً لأن الفرض لا بدّ أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب، ولذلك قال رسول الله ﷺ لإنسان علّمه الفرائض، فقال: والله لا زدت فيها ولا نقصّت منها، أفلح أن صدق، فعقد الفلاح بشرط الصدق والسلامة من التفريط، وقال ﷺ: استقيموا ولن تحصوا، فليس ينبغي أن يترك ما يجبر كسر التفريط من النوافل.

ولقائل أن يقول: إن كان إنما سمى الواجب عدلاً لأنه داخل تحت طاقة المكلف، فليسم الندب عدلاً لأنه داخل تحت طاقة المكلف. وأما قوله إنما أمر بالندب لأنه يجبر ما وقع فيه التفريط من الواجب، فلا يصح على مذهبه وهو من أعيان المعتزلة؛ لأنه لو جبرت النافلة بالتفريط في الواجب لكانت واجبة مثله، وكيف يقول الزمخشري هذا، ومن قول مشايخنا: إن

تارك صلاة واحدة من الفرائض لو صلّى مائة ألف ركعة من النوافل لم يكفّر ثوابها عقاب ترك تلك الصلاة.[(١)]

* * *

وقال صاحب (منهاج البراعة):[(٢)]

... أقول: تفسيره عليه‌السلام العدل بالإنصاف بيان لموضوع الأمر في الآية، وأنها ناظرة إلى الحقوق والأموال والمعاملة بين الناس بعضهم بعضاً، فالعدل أداء الحق وأخذ الحق سواء، والإحسان هو الأداء فوق حق الأخذ أو بدون حق له على المعطي، وحاصله الإنفاق بلا عوض معاملي.

ويمكن أن يقال: إن الإحسان بمعنى التفضل ليس مندوباً على الإطلاق؛ بل يصحّ أن يكون واجباً كفائياً، فإنه لو ترك الإحسان مطلقاً يقع حياة جمع من الناس في الخطر، كما أنه يمكن أن يقال: إن الإنفاق الواجب على الأقارب يكون من باب التفضل الواجب.

* * *

ومما قاله الشيخ ابن مغنية في (ظلال نهج البلاغة):[(٣)]

هذا تفسير لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾.[(٤)]

والعدل أن تنصف الناس من نفسك، وتعاملهم بما تحب أن يعاملوك به، والإحسان السخاء بما ينفع الناس مالاً كان أم عملاً، أم كتاباً وخطاباً.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٥٨.

(٢) ج ٢١: ٣٠٠.

(٣) ج ٤: ٣٥٥.

(٤) النحل: ٩٠.

وجاء في التفاسير: أن الصحابي الجليل عثمان بن مظعون قال: أسلمت أوّل ما أسلمت استحياء من رسول الله ﷺ، وما قرّ الإسلام في قلبي حتّى نزلت هذه الآية، فآمنت بمحمّد ﷺ وأتيت عمه أبا طالب فأخبرته، فقال: يا آل قريش اتبعوا محمّداً ترشدوا، فإنه لا يأمر إلاّ بمكارم الأخلاق.

* * *

[**العدل أشرف الفضائل**]:

أقول: العدل أشرف الفضائل وأفضلها؛ بل هو كل الفضائل وما يلزمها، فجميع الفضائل مترتبة على العدل، ولذا قال افلاطون الإلهي: (العدالة إذا حصلت للإنسان أشرق بها كل واحد من أجزاء نفسه، ويستضيئ بعضها من بعض، لتنتهض النفس حينئذٍ لفعلها الخاص على أفضل ما يكون، فيحصل لها غاية القرب إلى مبدعها سبحانه).

إن الله تعالى أمر بالعدل، ثمّ علم سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل؛ بل تطلب الإحسان، وهو فوق العدل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ فلو وسع الخلائق العدل ما قرن الله به الإحسان، والعدل ميزان الله تعالى في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوي والمحق من المبطل.

ومن المعلوم أن القرآن جاء لينشئ أمّة وينظّم مجتمعاً، جاء لينشئ عالماً ويقيم نظاماً، جاء دعوة عالمية إنسانية، لا تعصّب فيها لقبيلة أو أمّة أو جنس، إنما العقيدة وحدها هي الآصرة والرابطة والقومية والعصبية.

ومن ثمّ جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود.

جاء (بالعدل) الذي يكفل لكل فرد، ولكل جماعة، ولكل قوم، قاعدة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالودّ والبغض، ولا تتبدل مجاراةً للصهر والنسب، والغنى والفقر، والقوة والغضب، إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع.

قال محمّد بن كعب القرظي: دعاني عمر بن عبد العزيز، فقال: صِف لي العدل، فقلت: بَخٍ، سألت عن أمر جسيم، كن لصغير الناس أباً، ولكبيرهم ابناً، وللمثل منهم أخاً، وللنساء كذلك، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم، وعلى قدر أجسامهم، ولا تضربنّ لغضبك سوطاً واحداً فتكون من العادين.

* * *

[**آثار العدل في الأمم**]:

وما نشأ العدل في أمّة أو طائفة، إلاّ وكان الإخلاص رائدها، والرقيّ مطمحها، والسعادة قبلتها، والحرية غايتها، والمحبة مقصدها، فكانت الحقوق محترمة، والأمانة منتشرة، والنظام شاملاً، والرخاء عاماً، والأمن مستتباً، والطمأنينة سائدة، والجرائم نادرة، والرياء متلاشياً، والنفاق كاسداً، والنفوس عن حبّ الأثرة والطمع بعيدة، والرشوة مقبورة، والمحسوبية مدفونة، والكفاءة منصورة، والجهالة مخذولة، والوطن محمياً، والدين عزيزاً مرهوباً، تلك هي آثار العدل إذا ساد في أمّة من الأمم.

ولو بحث الإنسان عن السر في دخول الناس في دين الإسلام أفواجاً وجماعات، وفي انتشار الإسلام بسرعة البرق في الشرق وفي الغرب، ما وجد لذلك من سبب سوى استمساك المسلمين الأوّلين بعروة العدل الذي جاء به الإسلام مع سعة صدر وسماحة جذّابة.

وما ظنك بدين يقول خليفته ـ عليّ أمير المؤمنين عليه السلام ـ: «أأقنع من نفسي بأن يقال لي أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر وجشوبة العيش، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص، ولا عهد له بالشبع، أأبيت مبطاناً وحولي بطونٌ غَرثى، وأكباد حرّى».

وهذا لعمري غاية في العدالة، ونهاية في الشجاعة الأدبية، وسمّو في العواطف، ومبلغ الكمال الخلقي في الإنسان الكامل.

ولا عجب في ذلك، فالإسلام قد رسم للأمم صورة الكمال البشري حين أمر بالعدل فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] وأنزل الله على رسوله محمّد صلى الله عليه وآله أن يقول للناس: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[2].

نعم أمر الإسلام بالعدل في المعاملة وفي القول أيضاً، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[3].

بل فرض الله العدل على المسلمين حتّى مع أعدائهم ومخالفيهم في الدين والعقيدة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[4] أي لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل، بل اعدلوا حتّى مع أعدائكم ولو كفّاراً فالعدل أقرب للتقوى والوقاية من عذاب النار.

كم يرى المرء في هذه الحياة من جمال ساحر، ويتعشق من نظام

(١) النحل: ٩٠.

(٢) الشورى: ١٥.

(٣) الأنعام: ١٥٢.

(٤) المائدة: ٢.

بديع فائق، ولكن لم يبصر يوماً أجمل من العدل، ولم يتعشق كتعشقه للوفاء والرحمة والصدق.

وكم ينتاب الشعوب مرّ الألم، وينزل بها عظيم الخطوب، فلم تتوجع لذلك النفوس وتتألم الأفئدة كتألمها من الغدر. العدل منبع الحرية الصافي، ونور المدنيّة الوهّاج، على أساسه يبنى الملك ويقوى السلطان، فهو سرّ نظام الأمم، ورمز نجاحها وتقدّمها، فماسطعت شمسه على شعب إلاّ هام في السماء الطمأنينة، ووقع في بحبوحة الرخاء، وما غربت شمسه عن أمّة إلاّ اندّك صرح مجدها، وتقوّض بنيان عزها.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.(١)

فأيّ أمّة تجردت من العدل، وتسربلت برداء الظلم والغدر، تلك هي الأمّة الهمجية، والشعب المتوحش، تلك هي الأمّة الساقطة والشعب السافل، تلك هي الأمّة التي قُدّر لها العار في الحياة والويل في الممات.

خطب الإسكندر جنده فقال لهم بالرومية كلاماً تفسيره: (يا عباد الله إنما إلهكم الله الذي في السماء، الذي نصرنا بعد حين، والذي يسقيكم الغيث عند الحاجة، وإليه مفزعكم عند الكرب، والله لا يبلغني أن الله أحبّ شيئاً إلاّ أحببته وعملت به إلى يوم أجلي، ولا يبلغني أنّه أبغض شيئاً إلاّ أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي، وقد أُنبئتُ أن الله يحبّ

(١) الفجر: ٦ – ١٤.

العدل في عباده ويبغض الجور، فويل للظالم من سوطي وسيفي، ومن ظهر منه العدل من عمّالي فليتكئ في مجلسي كيف شاء، وليتمن عليّ ما يشاء فلن تُخطيه أمنيّته، والله المجازي كلاً بعمله).

أقسام العدل:

عدل المرء مع نفسه.

عدله مع الفرد.

عدله مع الجماعة.

أمّا عدله مع نفسه: فهو سلوك سبيل الاعتدال في العقيدة والعمل، فلا يتمرد على الله ورسله، ولا يجحد البراهين الصحيحة، ولا يلحد في آيات الله، ولا يتخذ إلهه هواه، ولا يلقي بنفسه في تيّار الشهوات والمطامع، ولا يحمّل نفسه مالا يطيق، ولايسرف في الإنفاق، ولا يقتر على نفسه؛ بل يكون بين ذلك قوّاماً، وحدّاً وسطاً، وبذلك ينجو من شقاء الدنيا، ويسلم من أمراض الشهوات البدنيّة والعقلية، ويقي نفسه يوم القيامة ناراً وقودها الناس والحجارة، ومن لم يفعل ذلك فقد ظلم نفسه وعرّضها للهلاك والخسران.

أما عدله مع غيره: فإنه يترتب عليه السلامة في الدنيا من شرور الناس وحقدهم وبغضهم، والأمن على نفسه وماله وأهله، هو بعد ذلك ملئ العيون إجلالاً وإكباراً، وهو موضع ثقة ومحبة، وأمانة واكرام من الأصدقاء والأعداء، ناهيك بالسعادة الخالدة في دار النعيم، والنجاة من هول يوم يقوم فيه الناس لرب العالمين.

ثمّ إن عدل الإنسان مع غيره ينتظم في أمور:

١ _ عدل الإمام.
٢ _ عدل ولاة الأمور والسلاطين والحكّام مع رعيتهم وأمتهم.
٣ _ عدل رؤساء الأسر والقبائل.
٤ _ عدل القضاة والشهود.
٥ _ عدل الصناع والتجار.
٦ _ عدل الموظّفين.
٧ _ عدل الأطباء.

أمّا عدل الإمام: فهو أهمّ أنواع العدل وأعلاها قيمة وقدراً، إذ مركز الإمام من الأمّة مركز القلب من الجسد فإذا صلح القلب صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد، فصلاح الرعية بصلاح الإمام وعدله، فلذلك كان أجره عند الله أعظم الأجر، كما أن مسؤوليته في نظر الشريعة أخطر المسؤوليات أثراً؛ لأن الإمام العادل هو ظل الله في أرضه، به تنصلح رعيته ويستقيم أمر دينها ودنياها، وينتظم معاشها ومعادها، وتطمئن على حقوقها ومرافقها، وسير الأمور على أساس من الثقة والمساواة بين جميع الأفراد، ومن هنا كان أعظم السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه.

قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل ذكر الله في خلوة ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلّق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه».

نعم، كان أعظمهم قدراً وأجلّهم منزلة، ومن أجل ذلك أيضاً بدأ به النبي ﷺ فقال: «الإمام العادل».

وقال ﷺ: «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة، وحدّ يقام في الأرض بحقه أزكى من مطر أربعين صباحاً».

ومن هنا جاء القول المأثور والحكمة المشهورة: (إمام عادل خير من مطر وابل).

وقال ﷺ: «أحبّ الناس إلى الله يوم القيامة، وأدناه منه مجلساً إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر».

وقال ﷺ: «السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر، وكان على الرعية الشكر، وإن جار أو حاق أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر، وإذا جارت الولاة قحطت السماء، وإذا مُنعت الزكاة هلكت المواشي، وإذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة، وإذا أُخفِرَت الذمة أديلَ الكفّار» أي انتصر الكفار على المسلمين.

كتب هارون الرشيد إلى الحسن البصري أن يصف له الإمام العادل، فقال: «اعلم يا أمير المؤمنين إن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف.

والإمام العادل كالراعي الشفيق على إبله، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن المراتع المهلكة، ويحيمها السباع، ويكنفها من أذى الحر والقَر.

والإمام العادل كالأب الحاني على ولِدِه يعولهم صغاراً ويعلّمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته.

والإمام العادل كالأم البارة بولدها، حملته كرهاً، وربّته طفلاً، تسهر بسهره وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته.

والإمام العادل هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين ـ فيما ملّكك الله ـ كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله، فبدّد المال وشرّد العيال.

وأما عدل ولاة الأمور والحكّام مع رعيتهم وأمتهم؛ فهو يلي منزلة الإمام العادل في الأهمية والخطر والمسؤولية، فعليه تترتب سعادة وصلاح أفراده، فالوالي أو الحاكم العادل الذي لا يقصّر في شيء من واجبه، ولا يهمل شيئاً يرقّي أبدانهم وعقولهم وأخلاقهم، ويحفظ على الناس أموالهم ودمائهم وأعراضهم وحريتهم المشروعة، ويكون لهم مثلاً أعلى في معاملة الناس بعدل وإنصاف ومساواة، دون ظلم واعتسافٍ ومحاباة.

ولقد حذّر النبي ﷺ من مسؤولية ولاة الأمور وعظمها، فقد روي عن أبي ذر (رضوان الله عليه) قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني!، قال: فضرب بيده على منكبي ثمّ قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلاّ من أخذ بحقها وأدى الذي عليه فيها».

وورد أيضاً عنه ﷺ إنه قال: «ما من عبد يسترعيه الله ﷻ رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته إلاّ حرّم الله عليه الجنّة».

وقال ﷺ: «من وُلّي أمّتي قلّت أو كثرت، فلم يعدل فيهم كبّه الله على وجهه في النار».

قدم هشام بن عبد الملك حاجاً أيام خلافته، فقال: ائتوني برجل من الصحابة، فقيل: قد تفانوا، قال: فمن التابعين، فأتي بطاووس اليماني، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلّم عليه بإمرة المؤمنين؟ بل قال: السلام عليك، ولم يكنّه وجلس بأزائه، وقال: كيف أنت يا هشام، فغضب هشام غضباً شديداً، وقال: يا طاووس ما الذي حملك على

ما صنعت؟ قال: ما صنعت؟ فازداد غضبه، فقال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تسلّم عليّ بإمرة المؤمنين، ولم تكنني، وجلست بإزائي، وقلت: كيف أنت يا هشام؟.

فقال طاووس: أما خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يغضب علي لذلك.

وأما قولك: لم تسلّم عليّ بإمرة المؤمنين، فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكذب.

وأما قولك: لم تكنني، فإن الله عزّ وجلّ سمّى أوليائه، فقال: يا داود ويا يحيى ويا عيسى، وكنّى أعدائه فقال: ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَب﴾.[1]

وأما قولك: جلست بإزائي، فإني سمعت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام يقول: «إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام».

فقال هشام: عظني، فقال طاووس: سمعت من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «إنّ في جهنم حيّات كالتلال، وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته».

إنّ قوماً من المتصوّفة دخلوا على الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام بخراسان، فقالوا له: إنّ أمير المؤمنين فكّر فيما ولاّه الله من الأمور فرآكم أهل البيت أولى الناس أن تؤموا الناس، ونظر فيك من أهل البيت فرآك أولى الناس بالناس، فرأى أن يردّ هذا الأمر إليك، والإمامة تحتاج إلى من يأكل الجشب، ويلبس الخشن، ويركب الحمار، ويعود المرضى.

---

(١) المسد: ١.

فقال لهم عليه السلام: «إنّ يوسف كان نبياً، يلبس أقبية الديباح المزردة بالذهب، ويجلس على متكآت آل فرعون، ويحكم إنما يراد من الإمام قسطه وعدله، إذا قال صدق، وإذا حكم عدل، وإذا وعد أنجز، إن الله لم يحرّم لبوساً ولا مطعماً، ثمّ قرأ عليه السلام: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(١)».

أمّا عدل رؤساء الأسر والقبائل: فإنه يوجب استمرار المحبة والمودّة، ويُحكم بينهم روابط الإلفة والتعاون، وتبادل العون والمنفعة، فضلاً عما يترتب على اقامة العدل بينهم من اقتدائهم بهم قدوة حسنة، فيشب الصغير على حب العدل مع نفسه ومع غيره، ويعامل الكبير من الناس بالعدل والرحمة، وبذلك يتقون شر المظالم الداخلية والخارجية، ويحيون حياة طيبة مباركة، ويعيشون عيشة راضية مرضيّة.

لذلك أكّد الله طلب العدل مع الزوجة والزوجات، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقُّهُ ساقط»، وقال صلى الله عليه وآله: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن».

وكذلك أكد طلب العدل في الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين أو المتخاصمتين، فقال تعالى: ﴿إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٢).

أمّا إذا كان الرئيس ظالماً فإنه يكون شراً ووبالاً على نفسه وعلى مرؤسيه،

---

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) الحجرات: ٩.

فإنّ المظلوم منهم يحقد عليه وعلى من ظلمه، فتنقطع بينهم روابط القربى وعلاقات المودة، ويسري فيهم خلق الظلم فيتسلّطون على خلق الله فيظلمونهم كما ظلمهم رؤساؤهم، وبذلك يكونون من أشقى خلق الله.

ويتبع عدل الولاة والسلاطين والأمراء والحكّام، عدل القضاة والشهود، فإذا عدل القاضي وعدل الشهود في شهادتهم، ارتفعت المظالم وأمن الناس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم، وساد في الناس وغلب عليهم حبّ الحق والعمل به.

أمّا إذا جاء القاضي ولم يعدل الشهود، فإن النظام يختل وتسود الفوضى، ويعقبها الفناء، والإخلال، لذلك يقول الرسول الأعظم محمّد صلى الله عليه وآله: «القضاة ثلاثة، واحد في الجنّة وإثنان في النار، فأما الذي في الجنّة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار».

أما العدل في الشهادة: فقد عني به الإسلام أيما عناية، وطلبه طلباً لا هوادة فيه ولا محاباة؛ بل أمر الله المؤمنين بالعدل في الشهادة ولو كانت على أنفسهم، أو الوالدين والأقربين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾[١].

وأمّا الصناع والعمال الذين يتعاقدون مع الناس على عمل شيء معيّن، فهم مطالبون بالعدل في صنائعهم بأن يجيدوها ويفرغوا الوسع في إتقانها وتحسينها على أكمل وجه، بحيث لا يتركون باباً من أبواب الخلل إلاّ أصلحوه، فمتى فعلوا ذلك فقد أقاموا العدل في صنائعهم ومع

(١) النساء: ١٣٥.

متعاقدهم، والله سبحانه وتعالى كفيل بأن يبارك في أرزاقهم في الدنيا، ويثيبهم على ذلك في الآخرة.

أمّا إذا غشّوا ولم يتقنوا أعمالهم فإنّ لهم عقاب الظالمين، وعليهم إثم الغاشين «إن الله تعالى سائل كل راع عمّا استرعاه حفظ أم ضيّع».

وأمّا عدل الموظف: فهو معاملة الناس بالمساواة دون المحاباة، وتقديم زيد وتأخير عمرو، لصحبة أو نسبٍ، أو قرابة، أو جاهٍ ومنزلة، مع ضبط الحساب دون غشّ في الأوراق أو تلاعب في التوقيعات.

أمّا عدل الطبيب: فهو الاجتهاد في تعرف الداء ووصف الدواء، وأن يلبّي نداء الإنسانية مع الضعفاء والفقراء، وأن يعالج كل إنسان بما تقتضيه الذمّة والشرف وأصول الفن، لا على قدر ما يملك من مال أو عقار.

وهكذا عدل كل إنسان فيما يزاول من عمل أو يمارس من علم ومهنة وسلطة، فكل إنسان مطالب بالعدل بنسبة ما يكلف به من الأعمال، لذلك ترى رسول الله ﷺ قد وزّع العدل والمسؤولية على كل رئيس ومرؤوس بحسب ما يرعاه ويقوم به من جلائل الأعمال، فقد قال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيتها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

وإلى جوار العدل (الإحسان)، يلطف من حدّة العدل الصادم الجازم، ويدع الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثاراً لودّ القلوب، وشفاءاً لغلّ الصدور، ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوي جرحاً أو يكسب فضلاً.

والإحسان أوسع مدلولاً، فكل عمل طيب إحسان، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جميعاً، ومن الإحسان إيتاء ذي القربى بإعطائهم حقوقهم.

[أسباب و مناشئ رقي الأمم]:

قبل أربعين سنة على ما اتخطر قرأت في كتاب (الدين والإسلام) لمؤلفه الحجة الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء (رضوان الله عليه):

أجد وكل باحث أن كل دين من الأديان، وكل ملّة من الملل ودعوة في العالم؛ بل كل سلطة في البسيطة وغلبة في السلطان ما هي في بادئ أمرها وأوّل حداثتها ونشوئها، إلاّ كفَرخ طائر يترعرع في مَدرَجة الكون، ولا يستطيع من الحركة والنهوض إلاّ دون دبيب النمل على الأرض.

ثمّ لا تبرح العناية في نواميس الطبيعة تصرّفه فيما قضت له، فأمّا أن تؤدي به زوابع الكون وفجائع الصروف، أو تدفعه إلى بلوغ الغاية التي يُسّرَت له، نعم ولا ينهض إلى تلك الغاية إلاّ بمُسعِدي جناحين يطير بهما في الأجواء ويحلّق في الفضاء إلى حيث شاء:

الجناح الأوّل: تواصل العلم والعمل.

والثاني: تناصر السيف والقلم.

ما سادت أمّة، ولا سُعدت دعوة، ولا حلقت في سماء العلو والرفعة ملّة، ولا اتسعت في البسطة على البسيطة سلطة، ولا طار صوت مَلِكٍ وانتشر في العالم صيت مملكةٍ، إلاّ بإسعاد هذين الجناحين، وعلى

قدر الحظ ووفور النصيب منهما يكون الحظ من القوة والنفوذ في السطوة، ولاسعة في الملك والسلطان. فأمّا العلم والعمل، فهما فرضٌ في نواميس الحياة، وأصول تنازع البقاء على كل فرد من البشر في كِلا شعبتيه وكل شعوبه، وإن اختلفت العلوم وتنوّعت الأعمال، ولكن لا نَدحة لذي صحّة عن عمل ما يبتني على علمه اللازمُ له اللائق به، وإلاّ فالعمل بلا علم كالبناء على غير أساس، اخلِق به وشيكاً أن ينهدم على صاحبه ويقضي على ظِمأِ حياته، والعلم بلا عمل كالأساس بلا بناء، لا يزال صاحبه ضاحِياً في وَهجَ الشمس عرضة للصروف، لا يَعتِمُ أن تمزّقه نفحات الزمهرير ولَفَحات الهجير من عواصف هذا الكون، فالعلم والعمل هما المعينان بل العينان واليدان للرجل والرجلان، هما الأداة لكل ساعٍ إلى سبل الغايات الحيويّة؛ بل السعادة الأبديّة، فرداً أو أُسرةً جماعة أو وحداناً.

وأما السيف والقلم: فهما مواضع الميزة، ومنازل التفرقة، يتكافآن على سنن التبادل والمعادلة، لا يلزمان على كل أحدٍ ولا على كل حال، وإنما هما آلة الملك وأداة القوّة وسياجُ الملّة، وإطار الدعوة، ومُعداتُ العِز، ورواصِدُ كِيان الشرف، فللسيف رجالٌ وللأقلام أقوامٌ، وإن قبض شَهمٌ على كليهما، وقام بحقهما ونادِراً ما يكون، فمرحباً ومرحى، أما حيث تسوق العناية كما هو الغالب، زَمَرةً لهذا وطائفة لذاك على نواميسها في كافة الصنائع وسائر الحاجات التي يتوقف عليها نظام المدنية، وقوام كل هيأة اجتماعية، متوازنة في التبادل والتكافؤ بميزان العدل الذي به يتم بقاء الأكوان وحفظ الكيان وسلامة سلسلة الأنواع في معركة الوجود.

إنّ شريعة الإسلام جمعت السعادتين: سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، وأخذت بالعدل الذي هو الحياة للأوطان وناموس السعادة والعمران، به تلتئم الشعوب وتتألف القلوب، وتسعد المملكة وتقوى الملكة، وزادت عليه بالعفو والفضل، ﴿الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾،(١) ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.(٢)

وزين العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام يقول في دعاء مكارم الأخلاق، من زبور آل محمّد:

«اللهم صل على محمّد وآل محمّد، ووفّقني لأنّ أعارض من غشني بالنصح، وأجزي من هجرني بالبِر، وأكافئ من قطعني بالصلة، وأثيب من حرمني بالبذل، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر».

أما نحن فقد عكسنا هذه القواعد الذهبية، وصرنا نجازي من نصحنا بالغش، ومن برّنا بالهجر، ومن وصلنا بالقطع، وكلّما أصابنا فيما كسبت أيدينا، وقد أرشدنا المصلحون، ولكن نحن الضايعون والمضيعون، فنحن كما قال الشاعر حقيقة:

عبسن لنا وجوه الدهر حتّى ... تناهشنا بأنياب حداد
فلا ندري السقوط بأيِّ غَورٍ ... ولا ندري الهبوط بأي واد
وكنّا نجتني ثمر المعالي ... فصرنا نجتني شوك القتاد

[وصف العدل]:

عليكم أيها المسلمون بالعدل الذي هو ميزان الله بين خلقه،

---

(١) آل عمران: ١٣٤.

(٢) الحشر: ٩.

وبالعدل قامت السماوات وثبتت الأرض، حيث أوجده العدل الحكيم على طبعه.

وما أدري بأيّ لسان أثني على العدل، وماذا أقول بعد ما قضت الضرورة بعظيم شرفه، وتطابق على وجبه العقول والمنقول، صار من أوضح موارد أحكام العقل فيما انفرد به واستقلّ، ولم يتوقف على شارع ملّة ولا على واضع نحله؛ بل مما اتضح وتجلى أن العقل يحكم مستقلاً بوجوب العدل وحسن الإحسان، وحرمة الظلم وقبح العدوان، كيف والعدل روح المدنية، وحياة الإنسانية، ونفوذ قوى المملكة، وترياق سمومها المهلكة.

العدل مطلع شموس الرحمة، ومنبع عيون الحكمة، والسلطنة والسلطة، والمنفعة والغبطة، والعلو والرفعة، والحصون والمِنعة، والمساجد والقَلَعة، والبيت والحرم، والكعبة والأمم، والجيش والسرية، والقسمة بالسويّة، والرعاية والرعيّة، والعسكر والجنود، والرايات والبنود، والطَبلُ والعَلَم، والحُكم والحَكَمَ، والمال والجِباية، والخَراج والجَراية، والقائد والزعيم والحاكم والحكيم.

العدل ظلّ الله في أرضه، والحاكم في بسطه وقبضه، إليه يأوي الضعفاء، وبه يلوذ الفقراء، وفيه ينتصف المظلوم، وبه يرزق المحروم ومنه تشرق شمس المعارف والعلوم.

العدل خصب البلاد، وأمَن العباد، ومُعطي الواحد من الرعيّة قِوى الآحاد وقوّة الأجناد.

العدل هو الشوكة والقوّة، والبهاء والسطوة، والرأفة والمروّة، والصدق والفُتوّة، والمفازة والخُطوة.

العــدل مــدافع وســيوف، ومــدارع وحتــوف، وجــيش وصــفوف والثابت كلُ واحدٍ به ثباتَ الألوف.

العدل هو الزرع والنماء، والريّ والرواء، وسيحُ الأرض وسَحُ السماء.

العـدل نظـام شـتات الأمّـة، ومنبـع الفضـائل الجمّـة، وسـحاب سـماء الرحمة، وجماع تفارق الكلمة، وطلاع تَسامُقِ العظمة.

العدل نواميس الحياة، ومقابيس البركات.

العــدل هــو الحِــرز فــي المهالــك، والحــرس للقوافــل فــي الفيــافي والمَسالِك، والعَسعس إذا عَسعس الليل بالظلام الحالك.

العدل سُلم السلامة ومعراج كل كرامة، والظلم ظلماتٌ يوم القيامة.

العدل منبع البركة والظلم موضع الهلكة.

العـدل هـو الرقـيّ وبـه السـعادة والرفـاء، والظلـم هـو الشـقي وبـه العاهـة والشقا.

العـدل بـه قـوت الـدول الضـعيفة، واسـتفحلت الأمـم المخنثـة السـخيفة، وعُرفـت الممالـك الخاملـة الغيـر معروفـة وتألفـت الشـعوب المتفرّقـة، وأمِنَـت وأخافَت وكانت هي الخائفة الفَرِقة.

يقـول الإمـام علـيّ عليه السلام: «العـالم حديقـة سـياجها الشـريعة، والشـريعة سـلطان يجـب لهـا الطاعـة، والطاعـة سياسـة يقـوم بهـا الملـك، والملـك راع يعضــده الجــيش، والجــيش أعــوان يكفلهــم المــال، والمــال رزق تجمعــه الرعية والرعية سواد يستعبدهم العدل، والعدل أساسٌ به قوام العالم».

تالله لا ينطق لساني ولا يطيق إحصائي لتعداد ما جرى على ملك قومي وملك آبائي، وما جهنم محياته محيا مسامع بها ليل الحق من سادتي وزعمائي، وما هَجم على حصون الدين المنيعة التي أقامت قواعدها أئمّة الهدي من أوليائي

التي بنوها بالجماجم وسقوها من دمائهم بالطوس لا المحاجم، من المذلّة والمهانة من أبناء عصره ورجال دهره.

لا أحاول أن أمثل لكم وأنعى إليكم رزية الإسلام في أهله، وبليته من قومه، ونَعَيه على أسلافه، ومصيبته من أبنائه، المصيبة التي هي أشد عليه من وَطأة أعدائه وكيد أغياره.

لا أحاول أن أُجَسِّم لكم كيف تركه أهلوه فتركهم، ونبذوه فانتبذهم، وأهلكوه فأهلكهم.

لا أمثِل لكم كيف حاربوه في القول والعمل، وجانبوه في الظاهر والباطن، فتزيّوا بغير أزيائه، وتخلّقوا بضدّ أخلاقه، وعملوا على هدم أساسه وإخماد نبراسه.

أليس من الأسف والحيف أيها المسلمون أسفاً والله يُميت الغيور ويشقّ الصدور قبل القبور، أنّ من أمامكم من الأمم الراقية أوَجَ الحضارة والعمران، تقتدي بل ترتقي بحسنات مذهبكم السامي ودينكم الإسلامي، وتقتدون أنتم بسيئآت مذهبهم الأسوء، مذهب الكفر والضلالة والشرك والجهالة.

أفليس من هذا من شاع اليوم في عاصمة القطر العراقي وغيرها من عواصم الإسلام، من مجالس اللهو ومحافل الطرب ومحاضر الفسق، وملاعب الراقصات، ومساكب المسكرات، والناس يتهافتون عليها على تكشّف وجهار كتهافت الفراش على النار، لا بل هو السميع العليم، ثمّ لا زاجر ولا مزدجر ولا ناكر ولا مستنكر.

يا ناعي الإسلام قم فانعه   قد مات عرفٌ وبدا منكر

فبالله ولما يلقى الإسلام من بلوى المسلمين وسوء أعمالهم التي زَوَت مزاياه وما محت محاسن محيّاه؛ بل كانت لأعدائه أعظم عون عليه وأسوء مُسيئ إليه.

ما والعِفة والحياء والكرم والمجد والعلاء، أنّ ذلك لممّا يأباه لكم الله والحميّة، وشرف الآباء والنفوس الأبيّة، والشيم العربيّة والأخلاق الأدبية، يأباه لكم هذا الدين الحنيف والمذهب الشريف، يأباه لكم شرف أسلافكم الذين بنوا دعائم الإسلام المشيّدة وأساطينه الوطيدة، بالجماجم منهم والدماء بدل الحجارة والماء، وأنتم اليوم تعمدون إلى هدمها بالمعاول، وتعملون على نقضها بكل الأسباب والعوامل.

بنوا لكم مجد الحياة فما لكم أسأتم إلى تلك العظام الرمائم

أرى ألف بانٍ لا يقوم بهادم فكيف ببانٍ خلفه ألف هادم

بيد أنّ الله تعالى قد أعدّ لكم ما هو أهنى من ذلك وأسنى، وأعدّكم لما هو أشرف من المراتب الرفيعة والمنزلة الحسنى، فلا تصلحوا دنياكم بفساد آخرتكم، ولا تبيعوا آخرتكم بدنيا غيركم، فإنّ أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره.

قد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

فالله يا عباد الله نافسوا بأنفسكم عن تلك الدنايات والخلاعات المضرّة بأخلاقكم ودينكم ودنياكم، وانتبهوا من هذه الرقدة، وانتشلوا أنفسكم من حضيض هذه الوهدة يا أرباب العزائم والنجدة.

أسأل الله تعالى أن يجعلكم من الذين قال فيهم: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا

الألباب﴾.[١] ولا يجعلكم من الذين قال فيهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾.[٢]

فالله الله معشر المسلمة بالعدل والإحسان فيما بينكم، فاعدلوا هو أقرب للتقوى؛ بل عين التقوى وحقيقة الإيمان. ﴿يا داوُدُ إِنا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾.[٣]

فإنه على ولاة الأمر أعظم كل فرض، إنّ الله يأمر بالعدل ومن لم يسعه العدل فبالإحسان، فبالعدل تُنزل السماءُ غيوثها بالبركات، وتظهر الأرض معادن خزائن الخيرات، وترتع الحيوانات، ويمرع النبات، وبه يتوفّر النماء وتتضاعف الأشياء، فيدر الضرع وينمو الزرع.

[أنوشروان العادل]:

وجد في بعض خزائن كسرى أنو شروان العادل سفط حسبوا أنّ فيه بعض الأحجار التي ليس لها معادل، ومُذ فتحوه وجدوا فيه حبّةً كأكبر ما يكون من النواة، ومعها رقعة مكتوب فيها: (هذه حبّة رمّانٍ عمل في خراجه بالعدل فنما).

ومثل ذلك يشهد لما يُحكى عنه حين كظّه الظما فجاء إلى بستان عصر له صاحبها بعض رُمّانةٍ فعاد القدح بها مفعَما، فنوى الملك في نفسه أن يزيد في خراجه وطقسِه، فلما أراد الخروج أمره بقطع رمّانة أخرى فعصرها بحضرة الملك فكان ماؤها قليلاً نزراً، فسأله عن سبب ذلك،

(١) الزمر: ١٧ و١٨.
(٢) البقرة: ١٧١.
(٣) ص: ٢٦.

والرجل لا يعرف أنه الملك، فقال: لعلّ الملك في مكانه قد عزم أو حكم بتغيير عادته من عدله وإحسانه، فإنا لا نعرف سبباً لنموّ هذه الثمر وإسعافها إلاّ من عدل الملوك وانصافها. ومن هنا لا يبعد صحّة ما يروى عن سيد الأواخر في العدل والأوائل أنه قال مبتهجاً: وُلدتُ في زمان الملك العادل.

وأعجب من ذلك ما يُحكى أن الملك المكين السلطان محمود سبكتكين، أرسل إلى بعض ملوك الهند أو الصين رسولاً يسأله ما سبب طول أعماركم مع جحودكم للصانع، وتكذيبكم للرسل والوسائط، ونحن قصار الأعمار مع تصديقنا وإيماننا، فحبس الملك في بلده رسول السلطان وأبقاه بعد أن قرّبه وأدناه، وقال له: لا أجيب عن سؤالك حتّى تنقلع هذه الشجرة المثمرة من نفسها وتنقطع من أصول غرسها، فبقي الرسول على ذلك زماناً وقد ضاق صدره وامتلأ أحزاناً من الحبس والانتظار والفرقة وبعد الدار، فصار في سائر وقته يعمل أفكاره ليله ونهاره في السبيل إلى قلع تلك الشجرة العظيمة، فبينا هو كذلك إذ سمع هدّة عظيمة والناس يهرعون إليها يفزعون، فجاء معهم وإذا بتلك الشجرة قد قُلِعَت من أصولها وقرارها ووقعت على الأرض بأثمارها، فسعى إلى الملك قائلاً بُشراي أيها الملك فقد نجحت آمالي فهاتني جواب سؤالي، فقال: إذهب فقل له هذه همّة مظلوم واحد قد أثّرت في قلع شجرة عظيمة، فكيف لا تؤثر في قلع أعمار الظالمين هِمَمٌ جماعة من الناس مظلومة، ودعاء المظلومين محمول على الغمام، وأنفاسهم عندنا مؤثّرة كتأثير أرباب الإستسقاء في الأفلاك العظام، ومثل هذا كثير لا يُعد.

فلم أر مثل العدل للملك رافعاً ... ولم أر مثل الجور للملك واضعاً

[هولاكو وفتح بغداد]:

ويكفيكم هنا منها قصة واحدة، وهي ما حكاه ابن طباطبا المعروف بالفخري في تاريخه الموسوم (بالآداب السلطانية): من أنه لما فتح السلطان هلاكو خان التتاري المجوسي الوثني بغداد سنة (٦٥٦هـ)، أمر أن يُستفتى من علماء العراق أنه: أيٌّ أفضل السلطان الكافر العادل، أم السلطان المسلم الجائر؟ وأيهما أحق بأمر الخلافة؟ فجمعوا العلماء في المستنصريّة؟ ولما وقفوا على الاستفتاء أحجموا عن الفتيا، وكان السيد الحسني الحلّي الإمامي العابد الزاهد الشهير برضي الدين عليّ بن طاووس ﷺ حاضراً، وكان مقدّماً محترماً في علماء العراق، فتناول الاستفتاء ووضع خطه فيه بتفضيل الكافر العادل، فوضعت العلماء فيه خطوطهم بعده بلا توقّف.

ولا غرابة في ذلك بعد ما روي عن سيّد الكائنات من جوامع كلمه من قوله ﷺ: «يبقى الملك بالعدل مع الكفر، ولا يبقى بالجور مع الإيمان».

نعم، وما من ملك سار بالعدل في ملكه، وجرت أنوار عزماته في صلاح ممالكه مجرى النيّر في فلكه، ورعا رعاياه بأحسن سجاياه، وعامل أهل مملكته ببرّه ورأفته، وأشفق عليهم إشفاقه بولده ولحمته، وقومه وعشيرته، وسار فيهم سيرة السري الشريف في سيرته، وطبق على الحق والعدالة أقواله وافعاله، إلاّ وأنا لك عنه بشير، ولا ينبك مثل خبير، إنك لا ترى تلك المملكة غبّ يسير إلاّ وقد بثّ ملكها بالعدل روح السعادة والرقيّ فيها، وأجرى عيون الحياة في مجاريها، طبّع على العدل بسيرته العادلة طباع جميع أمرائه ووزرائه.

وبالعكس إن العدل إذا استمر هجره زماناً، وسُدّ باب العمل به عمياً وطغياناً، استحالت الطباع لا محالة ظلماً وعدواناً، وعادوا أعداءاً وقد جعلهم الله بفضله اخواناً، وصار المتغلّبون سباعاً ضارية، والمتأمرون ذئاباً عادية.

فلو تجسّمت لكم أعمالهم لما رأيتم إلاّ نهشاً وعضّاً، ولو كشف لكم عن قلوبهم لما وجدتم بعد ظلمة الجهل إلاّ حقداً وبغضاً، ولو بلوتم أحوالهم لما بلوتم إلاّ أخلاقاً سبعية وبهائم وحشية يفترس بعضها بعضاً، فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان، وأنّى لكم منهم بطباع الحيوانات؛ بل ليتهم كانوا كالوحوش الضاريات، فإنكم لا تجدون فيهم من تأخذ على أبناء نوعه الغيرة والحمية.

ثمّ إذا دب هذا الداء العياء في جسم المملكة، واستحكم واستفحل أمره واستعظم ومضى عليه دور من الأدوار، فأنا لتلك المملكة نذير مبين، وعند جهينة الخبر اليقين، أن سوف تثب عليها الليوث الخوادر وتتعقبها العقبان الكواسر؛ لا بل تفترسها والعياذ بالله تلك النسور وتختلسها ولو كان عليها ألف سور. انتهى.

وكم بادت قبائل من العرب وهلكت، ولم يبق إلاّ اسمها، وكان سبب انقراضهم هو الجور والعدوان، ونبذ العدل والإحسان، كعاد وثمود، وطَسم وجديس.

أهل تستحضر ذاكرتكم بني أمية إذ أصبحت ديارهم خاوية بما ظلموا؟ ولقد سُئِل بعض مشايخهم عقيب زوال ملكهم، أن قيل له: ما كان سبب زوال ملككم؟ فقال: جار عمّالنا على رعيّتنا فتمنّوا الراحة منا، وتحومِلَ على أهل خراجنا فاجلوا عنا، وخَرِبَت ضياعنا فخرِبَت بيوت

أموالنـا، ووثقنـا بوزرائنـا فـآثروا مَـرافِقَهم علـى منافعنـا، وأمضـوا أمـوراً دوننـا أخفـوا علمهـا عنّـا، وتـأخّر عطـاء جنـدنا فزالـت طـاعتهم لنـا، واسـتدعاهم عـدوّنا فظـافروه علـى حربنـا، وطلبنـا أعـداؤنا فعجزنـا عـنهم لقلّـة أنصـارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا.

ووقفت السيدة نفيسة في طريق أحمد بن طولون لما استغاث الناس إليها من ظلمه، فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في غدٍ، فكتبت رقعة ووقفت بها في طريقه، فلما مرّ قالت: يا أحمد يا بن طولون! فلمـا رآها عرفها فترجّل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقرأها، فإذا فيها: ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخوّلتم فعسفتم، وردت إليكم الأرزاق فقطعتم، هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لاسيّما من قلوب أوجعتموها وأكباد جوّعتموها، وأجساد عريّتموها، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإنا صابرون، وجوروا فإنا بالله مستجيرون، واظلموا فإنا إلى الله متظلّمون ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[1].

وبنحـو هـذا خاطبـت زينـب الكبـرى يزيـد بـن معاويـة فـي مجلسـه، قالـت لـه عليها السلام: وسـيعلم مـن سـوّل لـك ومكنـك مـن رقـاب المسـلمين، بئس للظالمين بدلاً...

* * *

يـا عـدل باسـمك جـارت الحكّـام — حتّـى حَسِـبنا أنـك الإجـرام
تخـذوك آلـة نقمـة هدّامـةٍ — حاشـاك إنـك رحمـة وسـلام
سَحقوا بك الفرد الضعيف فهل ترى — برضـيض أعظمـه يشـاد نظـام

(١) الشعراء: ٢٢٧.

رسموا حروفك في الدوائر كلها   خطّاً أجاد بصنعه الرسّام
عجباً نراك على الرؤوس معلّقاً   وتدوس رأسك منهم الأقدام
قالوا أساس الملك أنت فما لهم   والكلّ منهم ناقض هدّام
ساع يسخّرك القوي برأيه   حتّى كأنك للقويّ غلام
يا كافلاً مال اليتيم لرشده   أعلمت باسمك تغصب الأيتام

* * *

تذييل:

وبالتالي: إن هذا العالم لا نظام له إلاّ بالعدل، فلا كوكب، ولا شمس، ولا قمر، ولا نبات، ولا حيوان، ولا شيء مما تراه أو تسمعه من نغمات الموسيقى وجمال الوجوه وحسنها، كل ذلك مستحيل وجوده إلاّ بالحساب البديع والنظام التام، ومتى زال العدل زال هذا الوجود وتحطمت الكواكب والأقمار والأرضون وتبدّد هذا العالم؛ بل متى ذهب العدل ذهب العالم، لذلك ابتدأ الله به، فالعدل هو المذكور في آية الرحمن بقوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾[١] أي: أنّ الله وزن العالم فحسبه بدقّة لأجل أن تتعلموا نظامه فتسيروا على نهجه، وتنظموا كما نظم، وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى.

فإذا كان هذا شأن العدل في نظام العالم، فليكن هذا شأنه في حياة الأمم والأفراد، فويل لأمّة لا تقيم العدل في المناصب والأحكام والقوانين والأعمال، فلا حكومات باقية ما لم يكن العدل عمادها.

---

(١) الرحمن: ٧ و٨.

[جمهورية افلاطون]:

ولقد ضرب افلاطون مثلاً في جمهوريته بجماعة اللصوص إذا سرقوا مالاً، فإنهم لا تقوم لهم قائمة ما لم يقم العدل بينهم، فإذا كان اللصول لا جامعة لهم إلاّ بالعدل في قسمة ما سرقوه فما تكون حال الأمم، إنها لا حياة لها بغير العدل.

ولقد ردّ عليه بعض تلاميذه: بأن الإنسان الظالم كثيراً ما نراه كثير الحظ وله أعوان يدافعون عنه كلما كذب أو ظلم، فأجابهم قائلاً إذا لم تعش جماعة اللصوص بمثل هذا الفاجر، فكيف تعيش أمّة طويلاً بأمثاله.

إنّ الظالم الذي ادخر أموالاً كثيرة، يحسّ بألم في نفسه إذا رأى الناس حوله في عذاب وشقاء، فالنفس الإنسانية تحسّ بما أجرمت فيعذبها ذلك الإحساس في الدنيا مهما تظاهر بالنعمة.

وقد أوجب افلاطون على لسان أستاذه سقراط أن يفتح لحكام المدينة باب العلم وعشق الحكمة والغرام، بعلوم الطبيعة والأدب والفلك، وجمال هذه الدنيا، فتنفتح بصائرهم، فإن لم تفعل ذلك الحكومات بموظفيها أصبحوا شهوانيين يشاركون الناس في أموالهم وأعراضهم بالرشوة والهدايا والفجور والجري وراء الغانيات في الأمّة وهذا هو الذي نراه اليوم في الشرق حيث تدخّلت أوروبا في شؤونهم.

إن القرآن الذي هو كتاب ديني أشار إلى ذلك بذكر العدل، بعد قصة هذه الكائنات، فكأنه يقول: لا عدل عند حكامكم إلاّ إذا أغرموا بما تقدّم من العلوم فدرسوا هذا الوجود وعشقوا حكمه حتّى يقوموا في الأرض بالعدل؛ لأنهم يكونون خلفائي قد نظروا في أعمالي فعرفوا نظامي فقلدوه وهم لا يشعرون، ويكون العدل إذ ذاك كالغريزة.

[محاورة سقراط وسينالوس]:

جرت محاورة بين سقراط وسينالوس في الشيخوخة وحذر الموت، فأداهم سياق المحادثة إلى ذكر العدالة وما هي، فقال بعض الحاضرين: إنها الصدق في القول، وأن يرد لكل أحد ما هو له، فعارضه سقراط بأنه لا يسوغ أن يردّ السلاح لمالكه إذا جنّ الليل، ولا أن تصدق مع من أشرف على الموت؛ بأن تقول له ما هو عليه من خطر الهلاك.

ثمّ قال بعض الحاضرين: إن العدل إنما هو مصلحة القوي القادر، فمن كان أكثر قدرة كان أكثر حقاً، وتمثّل لذلك بما يقع في المدينة فإنه الأحكام فيها إنما هي عبارة عن رأي الأكثر، أو من بيده زمام الأمور، فما يفعله فهو عن عدل، ويؤيّده رأي الجمهور في ذلك، فقد نشاهد القويّ الجائر سعيداً مغبوطاً، والعدل الضعيف شقياً محتقراً.

وبالجملة فلا سعادة ولا عدل إلاّ في القدرة والقوّة، ولا اعتبار فيه إلاّ بالحقوق.

فعارضه سقراط قائلاً: بأن القصد لمن له الرئاسة في المدينة، إنما هو مصلحة الرعية، كما أن قصد الراعي إنما هو مصلحة القطيع الموكول لحراسته، وقصد الطبيب مصلحة المريض، وقصد الملاّح مصلحة السفينة، وعلى ذلك فمن له ولاية على غيره لا يقصد مصلحته الخصوصية من حيث هو مولّى على غيره؛ بل منفعة من تولّى عليه. وذلك عبارة عن مصلحة الضعيف المفتقر إلى الولاية لا مصلحة من تولّى عليه فإن تعدّى وجار لم يكن بوال حقاً، كما لا يكون الطبيب طبيباً، ولا الراعي راعياً إذا كان له مقاصد غير مصلحة المريض، والقطيع فلا يطلق عليه حينئذٍ اسم الطبيب والراعي، وعلى فرض إمكانه فإنّ مثل

ذلك الوالي لا ينال غرضه من السعادة الراحة، إذ يكون حاله أسخف بكثير ممن لازم الحق وأوفى بما يجب عليه، وبيانه أنه لا يمكن لشركة ولا لاجتماع إنساني كائناً ما كان أن يستقيم ويدوم إلاّ بإقامة العدل، فاللصوص وقطّاع الطريق إذا اشتركوا جعلوا فيما بينهم نوعاً مّا من العدل وإلاّ فلا تدوم شركتهم ولا ساعة واحدة.

وإذا سلَمنا قول القائل: (إن الجور هو عين الحق والسعادة)، وأخذ جميع الناس بهذا القول، فاعتادوا التعدّي بعضهم على بعض، فقد يصير الاجتماع الإنساني إلى الفتنة الدائمة والحرب المستمر، فأي سعادة في مثل هذه الهيأة، وإذا فرضنا أن يتغلب الواحد على الباقين ويتسلط عليهم بقوته، فإنه لا ينال من السعادة ما كان يقصده، إذ لكل حيوان ولكل شيء في الوجود غاية يقصدها وهو قد تهيّأ لها بطبيعته، فالعين معدّة للابصار والسكّين للقطع والفرس للسبق، والغاية التي أعدّت له والتي هي قدرته التي فيها خيره، فنفس الإنسانية قد أعدّت للفكر والتدبير والمعرفة، فهذه قدرتها التي فيها خيرها وسعادتها، بخلاف ما إذا جارت وفسدت فإنها قد تخرج عن وظيفتها واستعدادها الذاتي فلا تعيش سعيدة.

وبهذا ختم سقراط قوله في المقالة الأولى.

فأنشأ إثنان من الحاضرين في معارضة سقراط في صدر المقالة الثانية، فقالا: إنّ العدل ليس بشيء طبيعي للإنسان، وإنما هو أمر وضعي قد تواطأ عليه الناس طلباً للراحة من شرّ بعضهم وخوفاً من العقوبة، ومصداقه أنه لو تيقّن أحدهم الأمن من العقوبة، فلوَ كان بيده خاتم يغيب به عن رؤية الحاضرين لارتكب كل فاحشة بلا توقف، ثمّ ما

نشاهده في الحالة الراهنة، ألم تر الغني الظالم محسوداً متسلّطاً على غيره قادراً على الخير والشر، ألم تر الرجل العدل القويم في سيرته متروكاً في زاوية الخمول مضغوطاً إذا كان فقيراً وضعيفاً، فهذا يدل على ما يعتقده الجمهور في خصوص العدل وخلافه.

وإذا رأى الصبي الحديث السن مثل ذلك كيف يختار العدل وما يتبعه من الذلّة والمتاعب والعجز عن الخير، وهو يشاهد ميل الناس إلى خلافه، فإذا كان ذكياً فطناً اكتفى من الإستقامة بظاهرها، وسعى في أن يرى رجلاً خيراً، واتبع هواه في الباقي فكان عاقلاً سعيداً، ومنّ سواه فهو أما عاجز وأما مجنون، فأجاب سقراط:

إن مثل هذه الإشكالات لا تنحلّ إلاّ بعد استقصاء البحث عن العدل وجوهره بدون التفات لما تراه العامة في خصوصه، أو إلى كونه نافعاً أو مضرّاً، فأما إذا ظفرنا بتعيين ماهية العدل ونسبته إلى نفس الإنسان فقد يمكن معرفة ما ينفع وما يضرّ حقيقة، وهل ينبغي اختيار الجور عليه، وعلى ذلك يكون مدار البحث على (أمرين):

أوّلهما: ماهية العدل.

ثانيهما: هل سعادة الإنسان موقوفة على العدل، أم على غيره؟

قال: لما كان الإنسان والمدينة طبيعة واحدة فقد يسهل علينا معرفة العدل الإنساني إذا تأملناه في المدينة، كما يسهل قراءة الكتاب إذا كان مكتوباً بحروف كبيرة غليظة، فإذا وجدنا ما هو العدل في المدينة لا يصعب معرفة ما هو في الأفراد، فابتدأ قوله في البحث عن منشأ الاجتماع الإنساني وأن الأصل فيه إنما هو افتقار البشر بعضهم إلى بعض، لسدّ حاجة كل منهم من مأكل وملبس ومسكن، فأدّاهم ذلك إلى الاجتماع للتعاون والتمانع، وتوزعت بينهم الأشغال،

فمذ نشأ اختلاف الصنائع ثمّ المقايضة والمعاوضة والتجارة، وصورة العدل في مثل هذه الدرجة من الاجتماع إنما هو حفظ المساواة والمعادلة فيما يتقارضونه من نتائج اشغالهم، ثمّ نما التمدن وكثرت أسباب الثروة، فدعت الحاجة إلى إقامة حكام محافظة على العدل، وإقامة حرّاس لدفع العدوان والظلم، وحراسة المدينة عن أعدائها، فهذه أوّل المسائل التي تعرض لنا في تأسيس المدينة، وهي مسألة ترشيح أهل هذين الصنفين ــ أي الحكام والحرّاس ــ».

* * *

جاء في كتاب (الإسلام ينابيعه مناهجه غاياته) تأليف محمّد أمين زين الدين (ص ٢٥٤ ط الأولى ١٣٨٠هـ في النجف):

العدل في الإسلام: أصل ومبدأ ومنهاج وغاية:

فالعدل أساس من أسس الدين، وأصل من أصوله، حين نصف به خالق الكون عزّ اسمه.

ويراد من عدل الله سبحانه: أنه لا يهمل فعلاً تحتمه المصلحة، ولا يصدر قبيحاً تمتعه الحكمة، لا يصنع شيئاً من هذا، ولا يغفل شيئاً من ذلك، لأنهما لا يكونان إلاّ لحاجة تضطر الفاعل إلى المخالفة، وقد تنزّه الباري عن الحاجة لغناه، أو لجهل من الفاعل بصلاح الشيء وفساده وقد تعالى الله عن ذلك لعلمه، أو لعبث يريده بذلك الفعل دون جهل منه ولا حاجة، وقد تعالى الله عن ذلك لحكمته ﴿مَا خَلَقْنَا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.[1]

(١) الأنبياء: ١٦ - ١٨.

وعن القول بعدل الله سبحانه ينشأ القول بعصمة أنبياءه وأوصيائه، وهي إحدى عقائد الإسلام الأخرى، والعصمة أعلى درجات العدل في الإنسان، وأقوى مراتب الإستمساك بالدين.

وإذا كان النبي والوصي من بعده هو الممثل الأعلى للدين في الأمّة، والقيم الأكبر على اقامة العدل فيها، فيجب أن يكون أشد الناس تمسكا بمبادئ الدين وأوقاهم انطباعاً بملكات العدل.

ومحال على الله الحكيم العدل المقتدر أن يأتمن على شريعته رجالاً لا يأمن الناس على أحاديثهم الكذب، ولا على أعمالهم الفسوق، ولا على نصيحتهم الخيانة. محال أن يقع منه ذلك لأنه قبح تحظره الحكمة، أو جهل يمنعه العلم، أو اضطرار تأباه القدرة.

والعدل مبدأ ومنهاج حين نصف به دين الإسلام ذاته:

ويقصد بعدل الإسلام أنه قيّم ليس فيه ميل ولا اضطراب، قسط ليس به سرف ولا تقصير، وأنه عام الملاحظة لنواحي الإنسان، دقيق الموازنة بين أطواره وأحواله، فيفي لكل منحى من نواحيه بما يستحق، ويشرع لكل حال من أحواله ما تقتضي ولا يحيف على جهة بالتشريع لاخرى، ولا يؤثر ناحية على حساب ناحية: ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١].

والعدل هو الغاية من تشريع الدين حين نصف به الإنسان الفرد، أو نصف به الإنسان الأمّة.

---

(١) النحل: ٨٩ و٩٠.

العدل هو الإستقامة، والإستقامة هي الكمال، والكمال هو الغاية.

فإيجاد الإنسان العادل، وإقامة المجتمع العادل، هي غاية الله من الإسلام حين وضع أول حجر من هيكله ورفع أوّل قاعدة من قواعده. ومن أجل هذه الغاية وضع كل حجر منه وأقام كل قاعدة، ومن أجل هذه الغاية أتم البناء وثبّت الدعائم، وبهذه الغاية الشاملة يرتبط كل جذر من جذور الدين وعليها يتفرع كل غصن من أغصانه، ومنها تبدو وتنضج كل ثمرة من ثمراته ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.[1]

والعدل في الإسلام سلسلة متراصفة الأجزاء مترابطة الحلقات، فمن العدل في العقيدة إلى العدل في المنهاج: إلى العدل في الهدف، من الإتزان في السلوك إلى الإتزان في المعاملة، إلى الإتزان في الخلق، ومن النَصفَ بين الغرائز إلى النصف بين الأفراد، إلى النصف بين الأمم، ومن القسط في القول إلى القسط في الحكم، إلى القسط في الميزان، ومن الإستقامة في النفس إلى الإستقامة مع الغير، ومن العدل في الفرد الخاص إلى العدل في المجتمع العام، ومن التساوي في الحقوق إلى التساوي في الطبقات، ومن العدل في ميادين العمل في الدنيا إلى العدل في موازين الجزاء في الآخرة، كل هذه مجالات لنشاط الدين، وكل هذه مجالي للعدل المتكامل الذي يستهدفه دين الإسلام، وكل هذه مظاهر لعدل الله الكامل الشامل تدل على مراشد دينه، كما تدل على مناهج قوانينه.

---

(١) الحديد: ٢٥.

فالمؤمن حق الإيمان من يقوم لله بالقسط، ومن يكون رقيباً لله على نفسه وعلى خاصته في ذلك قبل أن يكون شهيداً له على من سواهم، ولا يشذّ به الهوى، ولا تميل به الأغراض عن منهاج العدل في جميع ذلك، أما من يلوي أو يعرض فإن الله خبير بالخائنين في عهودهم، ونقمته مرصودة لهم جزاءاً وفاقاً لخيانتهم: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[١].

والمؤمن حق الإيمان من يتصل عدل اللسان منه بعدل اليد والقلب، فلا ينطق لسانه إلاّ صواباً، ولا يحكم إلاّ عدلاً، ولا تعمل جوارحه إلاّ حقاً، ولا يعزم قلبه إلاّ خيراً: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾[٢].

والمؤمن وليّ المؤمن في إقامة العدل في خاصته وعامته، يرشده إذا جهل ويقوّمه إذا زاغ ويشدّه إذا ضعف، وينهض بمعونته إذا أعيى، ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[٣].

ومن أجل هذه النزعة الشديدة إلى العدل، وهذا الولوع الإسلامي بإقامته وكل عمل يؤدي إلى الخير ويوافق الشريعة فإن القرآن الكريم يسميه عدلاً، فيقول مثلاً في وصف يوم الجزاء والتحذير من شدائده:

---

(١) النساء: ١٣٥.

(٢) الأنعام: ١٥٢.

(٣) العصر: ١ – ٣.

﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.(١)

ويقول أيضاً: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها﴾.(٢)

والعدل فريضة محتومة تجب رعايتها والمحافظة عليها من جميع أفراد المسلمين حتّى مع الكفار الذي لا يدينون دين الحق إذا لم يقاتلوا المسلمين ولم يضطهدوهم ولم يفتنوهم في دنياهم، ولم يلبسوا عليهم دينهم. حتّى مع هؤلاء يجب على المسلمين القسط في المعاملة، والمساواة في حقوق الإنسانية؛ بل ويسمو الإسلام على ذلك إلى البر بهم والإحسان إلى ضعفائهم: ﴿لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الذينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.(٣)

والحقد والشنآن كذلك لا يسوّغان لأحد من أتباع هذا الدين أن يرتكب مع مناوئيه ما يخالف عدل الإسلام، وأن ينحدر إلى شهوة الإنتقام وبؤرة التشفي، فإن المسلم أزكى من ذلك نفساً وأطهر قلباً: ﴿يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ لِلهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلاّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾.(٤)

والحقد والشنآن ذاتهما موضوعان لنظرة العدل في الإسلام، فلا يحقد المؤمن إلاّ في الحق، ولا يبغض إلاّ في الله، وطبيعي أن يتحدد

---

(١) البقرة: ٤٨.

(٢) الأنعام: ٧٠.

(٣) الممتحنة: ٨ .

(٤) المائدة: ٨ .

هذا الحقد وهذا البغض بمقدار ما يقتضيه الحق وما يأمر به الله، وطبيعي أن تنحصر بوادرهما ونتائجهما في ضمن هذه الحدود، ومشانأة أحد للمسلمين لا تعني أن الشانئ مجانب للحق في جميع أحواله، وواجب المؤمن هو مراعاة الحق أنى كان وأين وجد.

وإذا قعد الضعف الإنساني بأحد عن هذه الغاية ومالت به الأغراض عن الله في كراهته وحقده، فلا ينتظر من دين الله أن يميل عن الحق لميل أحد أتباعه، على أنه لا يهتم بحقوق المناوئين قدر اهتمامه مما تتركه رعاية هذه الحقوق من زكاة في نفوس المسلمين وتهذيب لطباعهم وجلاء لإيمانهم.

وحتّى الحروب المقدسة التي يشنها الإسلام على أعدائه، ليس معناها سقوط أحكام العدل مع هؤلاء المحاربين واستباحة العدوان عليهم.

إن الإسلام إنما يكافح الجور في شتى مظاهره وفي شتى أسبابه، فلا يعقل أن يحييه وهو يبغي إبادته، وإن الإسلام إنما يدعو الكافرين به إلى إقامة العدل فلا يعقل أن يسقط معهم أحكام العدل، والمتحتم على الفرد المسلم في هذه الحروب أن يكون صورة حية لعدل الإسلام، وبرهاناً شاخصاً على صدق دعوته: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1].

بلى إن الله لا يحب المعتدين حتّى في هذه الظروف الحرجة التي يجد فيها الناس مساغاً للإعتداء.

---

(١) البقرة: ١٩٠.

إن الحروب التي يشنها الإسلام حروب عادلة، لا لأن الإسلام يبتغي من إثارتها إقرار العدل وتعميم مناهجه وتيسير سبله فحسب؛ بل لأنها عادلة في جميع ملامحها، مقسّطة في جميع أوضاعها.

هي طلقة المحيا بالإيمان، مشرقة الأسارير بالعدل حتّى في أشد مواقفها محنة، وأمض ساعاتها بلاءاً، وهي بذاتها تهدي المستبصر بعقله إذا رام الهدى كما تقوّم بطبعه إذا آثر الزيغ.

والخروج على العدل في المجتمع الإسلامي والاستخفاف بالأمن فيه جريمة كبرى في موازين هذا الدين، ومرتكبها محارب لله ولرسوله، مستوجب لأمض أنواع التأديب ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.[1]

فإذا كانت المخالفة من طائفة ذات منعة وقوة، فإن الإسلام يشنّ عليها حرباً مؤدبة حتّى يفئ الباغي، ويستقيم المعوج: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.[2]

وإذا كان العدل هو الاستقامة والإتزان في الخلائق، والأخذ بما يصلح من الأمور، والنبذ لما لا يصلح منها والمحافظة على ما يجب من قوانين، والإحتراس عن الخلاف عليها، فإن العدل دين كل شيء وشريعة كل كائن، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾.[3]

(١) المائدة: ٣٣.

(٢) الحجرات: ٩.

(٣) الحجر: ٢١.

أما العدل في الآخرة فإنه الحافز الأعظم على الإستقامة في الدنيا، والجزء المتم لمنهاج العدل في الدين، ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾.(١)

على هذا السنن المستقيم العادل أسس دين الإسلام يوم أسس، وأنزل كتاب الإسلام يوم أنزل، ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ﴾.(٢)

وعلى هذا السنن المستقيم العادل توالت أحكام هذا الدين وتتابعت أصوله وفروعه وأنزلت تعاليمه وآدابه، ﴿وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.(٣)

وعلى هذا السنن المستقيم العادل أتم دين الله آخر نص من نصوصه وختم وحي الله آخر آية من آياته، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.(٤) انتهى.

* * *

[الإحسان التفضل]:

قوله عليه السلام: «والإحسان التفضّل».

عُرف الإحسان بمعنى الإنعام والتفضل إلاّ أن معناه يتسع لأكثر من ذلك، فإذا رجعنا إلى معاجم اللغة رأينا معنى أحسن: فَعَلَ الحسن ضد أساء، والحسنة هي الفعل الحسن.

---

(١) الأنبياء: ٤٧.

(٢) الشورى: ١٧.

(٣) الأنعام: ١٢٦.

(٤) الأنعام: ١١٥.

والأفعال الحسنة تشمل كل خير وكل معاملة ترقي وترفع من شأن الإنسانية، وتهذب نفسية المرء وتقر به من خالقه، وعلى هذا المعنى جاءت وصايا القرآن في الدعوة إلى الإحسان والترغيب في إتيانه.

وإن تعاليم القرآن في الإحسان تشهد بأنه كتاب روحي يُرتقى به إلى أعظم مراقي السمو، ويعلو به عن أي مذهب أخلاقي أو ديني، فقد عالج الإحسان بما يؤثر في الشخصية الإنسانية، من ناحية دوافع العمل، ومن وصف صفات المحسنين، وعيّن فئات من الناس أحق بالإحسان من غيرهم، ودعا إلى الإحسان بما يحقق في الإنسانية المثل العليا التي لا يزال يدعو إليها الفلاسفة ودعاة الإصلاح في العالم.

منزلة الإحسان في الإسلام:

بيّن القرآن أن الإحسان يجب أن يكون الواجب الطبيعي للإنسان، وأن الله كما أحسن إليه بنعمه، عليه أن يحسن بهذه النعم إلى الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.(١)

وبيّن القرآن أنّ الإحسان تعود منفعته إلى المحسن، قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.(٢)

وهذا حق فإن المحسنين يشعرون بطمأنينة لا يشعر بها غيرهم، ويكفي ما يقابلون به من الذين يحسنون إليهم من الود والمحبة والتقدير مما يدخل السعادة إلى نفوس المحسنين، بينما الإساة تجعل صاحبها منبوذاً محتقراً لا يهنأ له عيش ولا يقرّ له قرار، لهذا أمر الله بالإحسان

(١) القصص: ٧٧.

(٢) الإسراء: ٧.

وألح عليه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾.(١)

كما أن القرآن رفع منزلة الإحسان وقرنه بالإخلاص لله ووصفهما بأنهما أرفع صفة يتحلى بها الرجل المتدين. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.(٢)

والمعنى: أنه لا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه، أي أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له، لا تعرف لها رباً ولا معبوداً سواه، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي عامل للحسنات تارك للسيئات.

ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾.(٣)

أي: فقد تعلق بأوثق الأسباب التي توصل إلى رضوان الله.

ورغّب الله في الإتيان بالحسنات بقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.(٤)

ووعد الله المحسن بحسن المثوبة والأمان يوم القيامة: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾.(٥)

من صفات المحسنين:

فمن صفات المحسنين في القرآن، قيامهم أكثر الليل للصلاة،

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) النساء: ١٢٥.

(٣) لقمان: ٢٢.

(٤) الأنعام: ١٦٠.

(٥) النمل: ٨٩.

وانهم في أواخر الليل يطلبون المغفرة من ربهم وكذلك يجعلون في مالهم نصيباً للسائل والمحروم بما يسد رمقه ويرقي حاله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ * كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.(١)

والجهاد في سبيل الله سواء بالنفس أو بالمال هو من الإحسان، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.(٢)

واتباع ما جاء به الرسول محمّد ﷺ من الدين هو من الإحسان، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.(٣)

ومعنى ﴿وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ﴾ وهو الرسول ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هم أتباعه الذي صدّقوا برسالته وساروا على طريقه.

والعفو من الإحسان، قال الله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.(٤)

والصبر هو أيضاً من الإحسان، قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.(٥)

أنظر كيف رغّب القرآن بالإحسان في تذييل الآيات التي

---

(١) الذاريات: ١٥ - ١٩.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

(٣) الزمر: ٣٣ و٣٤.

(٤) المائدة: ١٣.

(٥) هود: ١١٥.

ذكرناها، ووعد المحسنين بأرفع ما تصبو إليه النفس، وذلك لأن المحسنين ذوو إحساس مرهف وضمير حي فربما يصيبهم الجحود من قومهم أو يجور عليهم الزمان، هنا تسرع وصايا القرآن لمواساتهم وتخفيف ما بهم، وتبشرهم برضوان الله، فتمد المحسنين بقوة روحية تثبت أقدامهم وتطمئن قلوبهم.

كما أن الإحسان يحتاج إلى تضحية ومجاهدة للنفس من المحسن وعدم الإنقياد للنفس الأمّارة بالسوء، والحيلولة بينها وبين الانقياد لأهوائها ورغباتها الضارة، لهذا رغّب الله في الإحسان ببيان فضله وثوابه للتأثير على النفس الإنسانية، والتسلط عليها لاستساغة الإحسان وجعله من طبيعتها.

الذين قدّمهم القرآن بالإحسان:

جعل القرآن فئات من الناس أحق بالإحسان من غيرهم، وأوّلهم الوالدان لما لهم من الفضل العظيم على الإنسان ولم يكتف القرآن بالدعوة إلى الإحسان اليهما، فقد حدد كيفية معاملتهما بما يكشف لنا أروع مثل من السمو الخلقي، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[١].

أوّل ما يطالعنا من هذا النص القرآني، أن الله قرن الإحسان لهما بعبادته، ثمّ فصّل ما يجب من الإحسان إليهما وخصوصاً عندما يصل الوالدان أو أحدهما

(١) الإسراء: ٢٣ و٢٤.

إلى حال الضعف أو العجز في آخر العمر، وأمر بأن يتبع معهما أموراً خمسة هي غاية ما يصدر عن الإنسان من المعاملة الحسنة.

أوّلاً: ألا يتأفف من شيء يراه من أحدهما أو منهما.

ثانياً: ألاّ ينغص عليهما بكلام يزجرهما به.

ثالثاً: أن يقول لهما قولاً حسناً طيباً مقروناً بالاحترام والتعظيم.

رابعاً: أن يتواضع لهما تواضعاً مقروناً بالرحمة، وقد مثل كيفية هذا التواضع بحال الطائر إذا أراد ضمّ فرخه إليه لتربيته، فإنه يخفض له جناحه بحنو.

خامساً: أن يدعو الله أن يرحمهما برحمته الباقية، والدعاء يدلّ على إخلاص وعرفان بالجميل للمدعو له. وفي موضع آخر يخصص القرآن البعض بالإحسان لما بينهم وبين المحسن من رابطة القربى والجوار، أو لفئات من الناس، فقدّوا المعين والنصير فكان الواجب المبادرة إلى الإحسان لهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾(١).

جمعت هذه الآية من أنواع الخير ما لو عمل به الناس لساد الخير فيهم، من ذلك: عبادة الله وحده، والإحسان إلى ﴿الْوَالِدَيْنِ﴾ و﴿ذِي الْقُرْبَى﴾ من أخ وعمّ وخال وأولاد هؤلاء وسائر الأقربين، وبذلك تصلح الأمّة لأنها تتكون من مجموعة أسر، ثمّ أمر الله بالإحسان إلى ﴿الْيَتَامَى﴾ فهم قد فقدا المعين وهو الأب، وقلما تستطيع الأم أن يقوم بتربيتهم واعالتهم وإذا أهمل اليتيم كان وجوده جناية على الأمّة، لجهله وفساد أخلاقه، وكذلك أمر الله بالإحسان إلى ﴿الْجَارِ ذِي

---

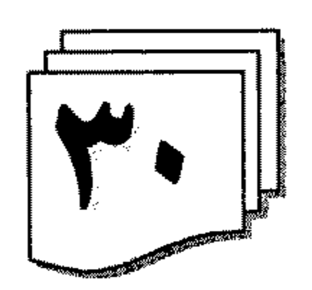
(١) النساء: ٣٦.

﴿الْقُرْبَى﴾ أي القريب الجوار، وكذلك ﴿الْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أي البعيد الجوار، وبذلك تتوثق المحبة بين أهل الحي الواحد فيتعاونون على الخير.

ثمّ أوصى الله بالإحسان إلى ﴿الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ وهو الرفيق في سفر أو مدرسة أو صناعة أو عمل والإحسان إليهم يؤدي إلى صداقة متينة تنتج أبرك الثمرات، ثمّ أوصى الله بالإحسان إلى ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر الذي فقد ماله في الطريق قبل أن يبلغ بلده، وكذلك ﴿مَا مَلَكَتْ أَيمانُكُمْ﴾ أي إلى ما في ملك الإنسان من الرقيق، ويشمل هذا تحررهم وعتقهم وحسن معاملتهم في الخدمة، بألاّ يكلفوا مالاً يطيقون، ولا يؤذون بقول ولا فعل. كل هذا يوضع لنا أن الإحسان الذي دعا إليه القرآن هو غاية ما تصبوا إليه الإنسانية لإقرار السلام فيها، ولنشر المحبة بين الأفراد.

أيّ خير عميم يغمر الناس إذا سيطرت فيهم هذه الصفة، إنهم أحرى بان يحققوا المدينة الفاضلة التي تخيلها الفلاسفة والتي طبقها الإسلام في أوّل عهده. انتهى عن كتاب (روح الدين الإسلامي).

* * *



قوله عليه السلام:

لِلظَّالِمِ مِنَ الرِّجَالِ ثَلاثُ عَلامَاتٍ: يَظْلِمُ مَنْ فَوْقَهُ بِالْمَعْصِيَةِ وَمَنْ دُونَهُ بِالْغَلَبَةِ وَيُظَاهِرُ الْقَوْمَ الظَّلَمَةَ.

(نهج البلاغة ٤: ٨٢)

[معالم الظلم]

قال ابن أبي الحديد:

يمكن أن يُفسّر هذا الكلام على وجهين:

أحدهما: أن كل من وجدت فيه احدى هذه الثلاث فهو ظالم، أما أن يكون قد وجبت عليه طاعة من فوقه فعصاه، فهو بعصيانه ظالم له؛ لأنه قد وضعه في غير موضعه والظلم في أصل اللغة هو هذا المعنى، ولذلك سمّوا اللبن الذي يشرب قبل أن يبلغ الروب مظلوماً؛ لأن الشرب منه كان في غير موضعه إذا لم يرب ولم يخرج زبده، فكذلك من عصى من فوقه فقد زحزحه عن مقامه إذا لم يُطعه، وأما أن يكون قد قهر من دونه وغلبه، وأما أن يكون قد ظاهر الظلمة.

والوجه الثاني: أن كل ظالم فلا بدّ من اجتماع هذه العلامات الثلاث فيه، وهذا هو الأظهر».[1]

* * *

وقال ابن ميثم:

في قوله عليه السلام: «للظالم من الرجال ثلاث علامات: يظلم من فوقه بالمعصية، ومن دونه بالغلبة، ويظاهر القوم الظلمة» فظلمه لمن فوقه

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٢٦٦.

عصيان الله وتعدّيه لحدوده العادلة، والثانية: مستلزمة للأولى، والثالثة: مستلزمة للأوليين.[١]

* * *

وقال صاحب (منهاج البراعة):[٢]

الظلم خلاف العدل، ولهما اعتباران:

١ ـ باعتبار العمل، فالظلم عمل غير مشروع، والعدل عمل مشروع.

٢ ـ باعتبار الملكة النفسانية، فالعدالة ملكة الاجتناب عن المعاصي قائمة بالنفس، والظلم ملكة التجاوز والعصيان وقد جعل لملكة العدالة إمارة ظاهرة، وهي حسن الظاهر، وجعل عليه السلام هذه الثلاث إمارة لملكة الظلم، فالمقصود بالظالم في كلامه صاحب هذه الملكة الرذيلة المضادة لملكة العدالة، وإلاّ فكل هذه العلامات ظلم عملي، ولا معنى لكونها علامة لنفسها لأنها هي بعينها.

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

الظلم: وضع الشيء في غير موضعه مادّياً كان أو معنوياً، ولا يختص بالضرب والسلب، ومن هنا صح إطلاق كلمة الظالم على من خالف واعتدى وافترى، فمن عصى الخالق، أو نسب إلى المخلوق قولاً أو فعلاً بغير علم، أو حقّر محترماً، أو قسا على ضعيف فهو ظالم، والعادل الملتزم يحترم من فوقه، ويرحم من دونه، ويتعاون مع نظيره على الخير أما الظالم المستهتر فيحتقر من

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٦١٢.

(٢) ج ٢١: ٤٣٤.

فوقه، ويقسو على من دونه... ولكنّه يتعاون مع ظالم على شاكلته للقاسم المشترك بين اثنين، وهو الإثم والعدوان.[١]

* * *

جاء في (مجمع البحرين):[٢]

الظالم من يتعدّى حدود الله تعالى بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٣] وفي الحديث: «ألا وإن الظلم ثلاثة: ظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى، وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات ـ يعني الصغيرة من الزلات ـ وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً».

* * *

أقول: إن الظلم أعظم عامل في صدّ الإنسان عن الطريق السوي، وأكبر حجاب حاجز دون رؤية الحق والواقع، ذلك لأن الظلم ظلمات، ولولا الظلم لكان الناس أمة واحدة، يعبدون الله تعالى ويوحدونه، وما كنت ترى للشرك سبيلاً.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.[٤]

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٤٢١.

(٢) ج ٣: ٩٥.

(٣) البقرة: ٢٢٩.

(٤) الشورى: ٨.

ونتيجة الظلم الكفر:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً﴾.(١)

ونتيجة الظلم الجحود:

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾.(٢)

وعاقبة الظلم الهلاك:

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً﴾.(٣)

ونتيجة الظلم التكذيب بآيات الله البيّنات:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.(٤)

حرّم الله الظلم لأنه من لؤم الطبع وضعف النفس، وقد زعم بعض الناس أن الظلم طبيعة في الإنسان تظهره القوة ويخفيه الضعف، وقد سار بيت المتنبي في ذلك مسير المثل:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلّة لا يظلم

فأنت تراه يحكم بأن الظلم خصلة وطبيعة في النفس، وأن العفيف عن الظلم لا يفعل ذلك بباعث الفطرة وأثر الغريزة؛ بل لعلة وسبب يحول بينه وبين تلبية نداء الطبيعة الكامنة في نفسه.

---

(١) الإسراء: ٩٩.

(٢) العنكبوت: ٤٩.

(٣) الكهف: ٥٩.

(٤) المطففين: ١٠ - ١٣.

وهذه فلسفة خيالية، فإن هناك من الطباع طباعاً تأبى لسلامتها الظلم وتمقته من نفسها وتقاومه عند غيرها، ولو أنصف الناس لقالوا: إن الظلم من لؤم الطبع وخبث النفس وضعف الوازع الديني والخلقي، ودليل على تجرد من اتصف به من خلال الكرم والمرؤة وصفات النبل والفضيلة، وبرهان على ذهاب نور الإيمان من القلوب، ومحاربة لمن حرّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرماً، فاستمع إليه تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١] وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.[٢]

ولو فكر الظالم ملياً، وراجع نفسه ورجع إلى ضميره، لعلم أنه فعل أمراً تنكره الشرائع وتمجه النفوس الكريمة، وقد جاء في الأثر «الظلم ظلمات يوم القيامة».[٣]

وليس الظلم مقصوراً على أكل أموال الناس بالباطل وبسلب ما يقع في حوزة الغير؛ بل هذا نوع من الظلم، فإن الظلم كما قال الرسول: ظلمات وأنواع شتى.

وأظلم الناس لنفسه ولغيره ذلك الذي لا عمل له ولا شغل إلاّ الإنتقال من مجلس إلى آخر يأكل أعراض الناس ويسعى بينهم بالفساد، وأظلم منه من ينظر إلى حليلة جاره، ويلغ في عرض أخيه، فإن هذا قد ظلم نفسه بارتكاب الفاحشة، وظلم هذه المرأة وكل من يمت إليها بصلة قرابة أو نسب بتلويث عرضها وسقوطها وإشاعة المنكر في المجتمع الذي يعيش فيه، ومثل ذلك من ينهش كرامة الناس ويتبع عوراتهم.

---

(١) يونس: ٤٤.

(٢) فصلت: ٤٦.

(٣) بحار الأنوار ٧: ٢٢٩، عن النبي ﷺ.

وأشد من هؤلاء ظلماً وأشنع جرماً من يتهم الأبرياء ويلفق الجرائم على أناس لا صلة لهم بها، ويأكل أموال اليتامى ويغتال حقوق الفقراء.

ومن العجب أن نرى بعض هذه الصفات أوجلها فيمن يتسم بالصلاح وينتمي إلى الدين وهو بعمله هذا قد خسر الدين والآخرة وأفلس من حيث يريد الربح.

وقد سأل النبي ﷺ أصحابه فقال: «أتدرون من المفلس؟»، قالوا: المفلس من لا درهم له ولا متاع.

فقال: «إنّ المفلس من أمّتي من يأتي بصلاة وزكاة وصيام، ويأتي وقد شتم هذا وسفك دم هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته فإن فنيت قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياه فطرحت عليه ثمّ طُرح في النار».[1]

ولقد ضرب الله للناس الأمثال بما قال بالظالمين من الأمم العاتية الباغية، كقوم لوط، وهود وصالح وبيّن سبحانه في كثير من آيات الذكر الحكيم إنه أخذهم أخذ عزيز مقتدر وهي سير قصها الله علينا في كتابه الكريم، للتذكر والاعتبار، وما يتذكر إلاّ أولو الأبصار.

ولا يغيبنّ عن الأذهان إن دعوة المظلوم يستجيب الله لها، وقد ورد في الأثر:

«ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتّى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين».[2]

ولما كان الظلم محرماً في كل الشرائع والأديان فقد حق على

(١) كنز العمال ٤: ٢٣٦.

(٢) أنظر: مسند أحمد ٢: ٣٠٥، بتفاوت.

الظالم أن يلتمس العفة ممن ظلمه بعد أن يتحلل من كل التبعات والحقوق التي له عليه.

وفي الأثر: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلل منه اليوم قبل ألاّ يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، إن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه».(١)

وهناك ظلم يختل منه النظام وهو ظلم الولاة للرعية، فإذا نشأ هذا الظلم في أمّة كان دليلاً على فنائها وزوالها ومحوها من سجلّ الأمم، ونزل بأهلها من العذاب ما لم يكونوا يحتسبون.

والسلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الطاعة والشكر، وإن جار وظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر.

وفي الأثر: «ما من عبد يسترعيه الله عزّ وجلّ رعية يموت يوم يموت غاش لرعيته إلاّ حرّم الله تعالى عليه الجنّة».(٢)

وقال: «من وُليَ أمّة من أمّتي قلّت أو كثرت فلم يعدل فيهم كبّه الله على وجهه في النار».(٣)

وقال: «إنّ الله مع القاضي ما لم يجر، فإذا جار تخلّى عنه ولزمه الشيطان».(٤)

الأديان جميعها والعقول تحارب الظلم، وتحارب رجاله،

---

(١) سنن البيهقي ٦: ٨٣.

(٢) كنز العمال ٦: ٢٥.

(٣) المعجم الكبير ٢٠: ٢٢٢.

(٤) كنز العمال ٦: ٩٢.

وطالما سالت الدماء أنهاراً بواسطة شهوات ظالم ورغبة مستبد عاتٍ، وعسف طاغية جبّار، حتّى أن التاريخ الذي نقرأه وننظر في محتوياته للخبرة والعبرة، فحسب أنه قد كتبت فصوله وأبوابه بالدماء الحمراء أينما تلفت في تلك العوالم التاريخية تجد الحياة أنهاراً تجري بالدم، وتسمع قعقعة السلاح متناغمة بأهازيج النصر وبكاء المغلوبين، فتشمئزّ من الحياة من أولئك الطغاة الجديرين بأن يكونوا سبّة وعاراً في تاريخ الإنسانية، لا أن يكونوا مفخرة وعزاً، ولا أن يكونوا عنوان مجد ومصدر افتخار.

إنّ الذين لا يتورعون عن ظلم؛ فالملك إذا ظلم رعيته، والأمير إذا ظلم عشيرته، والزعيم إذا ظلم أتباعه، وكل كبير قوم إذا ظلم من هو دونه، فقد قرّر كل واحد منهم مصيره، وعيّن منقلبه، وعرف خاتمته، فجميع ما يرتقب الهلاك والسوء والشر.

وإننا لننظر في تاريخ الملوك الظالمين فنجدهم قصار الأعمار، حيث إن الشعب يتمنّى هلاكهم ويثور عليهم لأوّل فرصة ممكنة، أتباعهم تضجر منهم، حراسهم تمقتهم، ضمائرهم تحاربهم وتوبّخهم وتندّدبهم.

إن تاريخ الطغاة والظلمة حافل بالمخازي، تفوح منه روائح كريهة تنفر الطباع منها، وتشمئز النفوس، وتراهم تركوا لمن يأتي بعدهم سبّة منصلة، ولعنة دائمة وعاراً لا تمحوه الأيام المتابعة.

قال الله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.(١)

---

(١) الشعراء: ٢٢٧.

[الظلم في لسان الروايات]:

قال الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة».(١)

قال الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني لعنت سبعاً لعنهم الله وكل نبيّ مجاب»، قيل: ومَن هم؟ يا رسول الله. قال: «الزائد في كتاب الله، والمكذّب بقدر الله، والمخالف لسُنّتي، والمستحل من عترتي ما حرّم الله، والمسلّط بالجبروت ليعزّ من أذل الله، ويذلّ من أعزّ الله، والمستأثر على المسلمين بفيئهم مستحلاً له، والمحرّم ما أحل الله».(٢)

قال عليّ عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يقول الله: «اشتدّ غضبي على من ظلم من لا يجد ناصراً غيري».(٣)

قال الإمام الباقر عليه السلام: «ما من أحد يظلم مظلمة إلاّ أخذه الله بها في نفسه وماله، فأما الظلم الذي بينه وبين الله فإذا تاب غفر له».(٤)

قال الإمام زين العابدين راوياً عن آبائه: «يأخذ المظلوم من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من دنيا المظلوم».(٥)

قال الصادق عليه السلام: «ما من مظلمة أشد من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عوناً إلاّ الله».(٦)

---

(١) الكافي ٢: ٣٣٢.

(٢) وسائل الشيعة ١٦: ٥١.

(٣) أمالي الطوسي: ٤٠٥.

(٤) وسائل الشيعة ١٦: ٤٧.

(٥) أمالي الصدوق: ٣٢٦.

(٦) الكافي ٢: ٣٣١.

قال الباقر عليه السلام: «لما حضرت أبي الوفاة، ضمني إلى صدره ثمّ قال: يا بني أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة بما ذكر أن أباه أوصاه به قال: يا بني إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلاّ الله».[١]

قال الصادق عليه السلام: «أما أنه ما ظفر بخير من ظفر بالظلم، أما أن المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم»، ثمّ قال عليه السلام: «من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فُعل به».[٢]

قال عليّ عليه السلام: «أعظم الخطايا اقتطاع مال امرئٍ مسلم بغير حق».[٣]

قال الباقر عليه السلام: «الظلم ثلاثة، ظلم يغفره الله، وظلم لا يغفره الله، وظلم لا يدعه الله، فأما الظلم الذي لا يغفره فالشرك، وأما الظلم الذي يغفره فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله، وأما الظلم الذي لا يدعه الله فالمداينة بين العباد».[٤]

هذا الحديث يعطينا أنّ حقوق الله بين العبد وبين ربه تمحوها التوبة، وأما حقوق العباد فلو اعتدى إنسان على آخر، فلا يغفر الله للمعتدي حتّى يرضي المعتدى عليه، صاحب الحق، وفي هذا المعنى جاء عن الإمام الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«من اقتطع مال مؤمن غصباً بغير حقه لم يزل الله معرضاً عنه ماقِتاً لأعماله التي يعملها من البر والخير، لا يثبتها في حسناته، حتّى يردّ المال الذي أخذه إلى صاحبه».[٥]

---

(١) نفس المصدر.

(٢) الكافي ٢: ٣٣٤.

(٣) تحف العقول: ٢١٦.

(٤) الخصال: ١١٨.

(٥) ثواب الأعمال: ٢٧٣.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «وإيّاكم أن تعينوا على مسلم فيدعو عليكم فيستجاب له فيكم، فإنّ أبانا رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: إن دعوة المسلم المظلوم مستجابة، وليُعِن بعضكم بعضاً فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: إنّ معونة المسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام».[1]

قال الإمام عليّ عليه السلام: «أنصف الله وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصّة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنك إن لم تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم فإن الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد».[2]

ومن أنواع الظلم البغي، وهو المحرمات التي نهى الله عنها في كتابه، ونهى عنها الرسول الكريم وآل محمّد يتكلمون عن جدهم وينشرون في الناس تعاليمه، وينفذّون أقواله، وينصرون رسالته بكل ما يستطيعون، حتّى لو اقتضى المقام التضحية، وهكذا كانوا فلقد ضحّوا في سبيل نصرة العدل والحق والإنسانية بجميع ما يملكون حتّى الحياة.

قال الصادق عليه السلام: راوياً عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكّاً».[3]

قال الصادق عليه السلام في وصيته لأصحابه: «وإيّاكم أن يبغي بعضكم على بعض، فإنها ليست من خصال الصالحين، فإن من بغى صيّر الله بغيه

---

(١) الكافي ٨: ٩.

(٢) نهج البلاغة ٣: ٨٥.

(٣) ثواب الأعمال: ٢٧٥.

على نفسه، وصارت نصرة الله لمن بغى عليه، ومن نصره الله غلب وأصاب الظفر من الله».[١]

قال الصادق عليه السلام في وصيته النبي لعليّ، قال الرسول صلى الله عليه وآله: «يا عليّ أربعة أسرع شيء عقوبة: رجل أحسنت إليه فكافأك بالإحسان إساءة، ورجل لا تبغي عليه وهو يبغي عليك، ورجل عاهدته على أمر فوفيت له وغدر بك، ورجل وصل قرابته فقطعوه».[٢]

روى الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ أعجل الشر عقوبة البغي».[٣]

فإذا كان الظلم يثلم الكيان الإسلامي، ويهدم الأخوة الإسلاميّة التي بذل الرسول الكريم وسعه في تحقيقها، وسار أباؤه على تقويتها وتشييد دعائمها وتثبيت أركانها، فما أجدر المسلم أن يكون عادلاً منصفاً من نفسه.

* * *

جاء في المجلد الأوّل من كتاب (المستطرف):[٤]

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.[٥]

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.[٦]

قيل: هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم.

---

(١) الكافي ٨: ٨.

(٢) الخصال: ٢٣٠.

(٣) الكافي ٢: ٣٢٧.

(٤) ص ٢٣٣.

(٥) هود: ١٨.

(٦) إبراهيم: ٤٢.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.(٢)

وقال رسول الله ﷺ: «من مشى مع ظالم ليعينه، وهو يعلم أنه ظالم خرج من الإسلام».

وقال أيضاً ﷺ: «رحم الله عبداً كان لأخيه قِبَلَهُ مظلمة في عِرض أو مال فأتاه فتحلله منها قبل أن يأتي يوم القيامة وليس معه دينار ولا درهم».

وقال أيضاً ﷺ: «من اقتطع حق امرئ مسلم أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنّة». فقال له رجل: يا رسول الله ولو كان شيئاً يسيراً، قال «ولو كان قضيباً من أراك».

وعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله تعالى إليّ يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين، أنذر قومك فلا يدخلوا بيتاً من بيوتي ولأحد من عبادي عند أحد منهم مظلمة، فإني ألعنه ما دام قائماً يصلّي بين يدي حتّى يردّ تلك الظلامة إلى أهلها، فأكون سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويكون من أوليائي وأصفيائي، ويكون جاري مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنّة».

وعن عليّ ﷺ عن النبي ﷺ: «إياك ودعوة المظلوم، فإنما يسأل الله تعالى حقه».

وعنه ﷺ أنه قال: «ما من عبد ظُلم فشخص ببصره إلى السماء إلاّ قال الله ﷻ: لبيك عبدي، حقاً لأنصرنّك ولو بعد حين».

---

(١) الكهف: ٢٩.

(٢) الشعراء: ٢٢٧.

وعنه أيضاً ﷺ أنه قال: «ألا أنّ الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر الشرك بالله، والعياذ بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1] وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً، وأما الظلم المغفور الذي لا يطلب فظلم العبد نفسه».

ومرّ رجل برجل قد صلبه الحجاج، فقال: يا رب إنّ حلمك على الظالمين قد أضرَ بالمظلومين، فنام تلك الليلة فرأى في منامه أن القيامة قد قامت، وكأنه قد دخل الجنّة فرأى ذلك المصلوب في أعلى عليين وإذا مناد ينادي حلمي على الظالمين أحلّ المظلومين في أعلى عليين.

وقيل: من سلب نعمة غيره، سلب نعمته غيره. وسمع مسلم بن بشّار رجلاً يدعو على من ظلمه، فقال له: كِل الظالم إلى ظلمه، فهو أسرع فيه من دعائك، ويقال: من طال عدوانه زال سلطانه.

وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: «يوم المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم».

ورُئي لوح في أفق السماء مكتوب فيه: لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، وتحته هذا البيت:

فلم أر مثل العدل للمرء رافعاً ... ولم أر مثل الجور للمرء واضعاً

وقال الشاعر:

كنت الصحيح وكنّا منك في سَقَمٍ ... فإن سقمتَ فإنا السالمون غدا
دعت عليك الكفّ لما ظلمت ... ولن تُردّ يدٌ مظلومة أبدا

---

(١) النساء: ٤٨، ١١٦.

قال أبو العياء: كان لي خصوم ظلمة، فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود، وقلت له: قد تظافروا عليَّ وصاروا يداً واحدة، فقال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، فقلت له: إن لهم مكراً، فقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، قتلت: هم فئة كثيرة، فقال: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وقال يوسف بن أسباط: من دعا لظالم بالبقاء فقد أحبّ أن يعصى الله في أرضه.

وعن أبي هريرة قال: قال أبو القاسم ﷺ: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، وإن كان أخاه لأبيه وأمّه».

قال بعض الحكماء: أذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك، لا يعجبك رحب الذراعين، سفّاك الدماء، فإنّ له قاتلاً لا يموت.

ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر: يا سليمان أذكر يوم الأذان، فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل، فقال له: ما يوم الأذان؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(١) قال: فما ظلامتك؟ قال: أرض لي بمكان كذا وكذا أخذها وكيلك، فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضاً مع أرضه.

وروي أنّ كسرى أنوشِروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتّى فاق في العلوم، فضربه المعلم يوماً من غير ذنب فأوجعه، فحقد أنوشروان عليه، فلما ولي الملك قال للمعلم: ما حملك على ضربي يوم كذا وكذا ظلماً؟ فقال له: لما رأيتك ترغب في العلم رجوت لك الملك بعد أبيك، فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم، فقال أنوشروان: زِه زِه.

---

(١) الأعراف: ٤٤.

وقال محمّد بن سويد وزير المأمون:

فـلا تـأمنن الـدهر حـراً ظلمتـه ... فمـا ليـل حُـرّ إن ظلمـت بنـائم

وروي أن بعض الملوك رقم على بساطه:

لا تظلمـنّ إذا مـا كنـت مقتـدراً ... فـالظلم مصـدره يفضـي إلـى النـدم

تنـام عينـاك والمظلـوم منتبـهٌ ... يـدعو عليـك وعـين الله لـم تـنم

* * *

وما أحسن ما قال الآخر:

أتهـزأ بالـدعاء وتزدريـه ... ومـا تـدري بمـا صـنع الـدعاء

سـهام الليـل نافـذة ولكـن ... لهـا أمـد وللأمـد انقضـاء

فيمسـكها إذا مـا شـاء ربـي ... ويرسـلها إذا نفـذ القضـاء

* * *

وقـال أبـو الـدرداء: إيّـاك ودمعـة اليتـيم، ودعـوة المظلـوم، فإنهـا تسـري بالليـل والنـاس نيام. وقـال الهيـثم ابـن فـراس لسـامي مـن بنـي سـامة بـن لـؤي في الفضل بن مروان:

تجبّرت يـا فضـل بـن مـروان فـاعتبر ... فقبلـك كـان الفضـل والفضـل

ثلاثـة أمـلاك مضـوا لسـبيلهم ... أبـادهم المـوت المشـتت والقتـل

يريد الفضل بن الربيع، والفضل بن يحيى، والفضل بن سهل.

* * *

ووجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكي رقعة مكتوب فيها:

وحـقّ الله إنّ الظلـم لـؤم ... وإن الظلـم مرتعـه وخـيم

إلـى ديّـان يـوم الـدين نمضـي وعنـد الله تجتمـع الخصـوم

* * *

ووجد القاسم بن عبيد الله وزير المكتفي في مصلاّه رقعة مكتوب فيها:

بغـى وللبغـي سـهام تنتظـر أنفذ في الإحشاء من وَخز الأبر

سهام أيدي القانتين في السحر

وقال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يوليه القضاء:

ما كنت لألي هذا بعدما حدّثني إبراهيم، قال: وما حدّثك إبراهيم؟ قال: حدّثني عن علقمة عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، نادى مناد أين الظلمة وأعوان الظلمة، وأشياع الظلمة، حتّى مَن بَريَ لهم قلماً، أو لاق لهم دواة، فيجمعون في تابوت من حديد، ثمّ يرمى بهم في نار جهنم...».

وحكي أنّ الحجاج حبس رجلاً في حبسه ظلماً، فكتب إليه رقعة فيها: قد مضى من بؤسنا أيام، ومن نعيمك أيام، والموعد يوم القيامة والسجن جهنم، والحاكم لا يحتاج إلى بينة، وكتب في آخرها:

سـتعلم يـا نـؤم إذا التقينـا غـداً عنـد الإلـه مـن الظلـوم

أمـا والله إنّ الظلـم لـؤم ومـا زال الظلـوم هـو الملـوم

سـينقطع التلـذذ عـن أنـاس أدامـوه وينقطـع النعـيم

إلـى ديّـان يـوم الـدين نمضـي وعنـد الله تجتمـع الخصـوم

* * *

[تعريف الظلم]:

ومما قاله محمّد أحمد جاد المولى بك في المجلد الرابع من (الخلق الكامل):

الظلم مجاوزة الإنسان حدّه، واستطالته بالجور على غيره، وهو إحدى طبائع النفس، تظهره القوة ويخفيه الضعف:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفّة فلعلّة لا يظلم

وإذا تأملت كل شيء في الوجود تجد للظلم أثراً فيه:

أنظر إلى النبات تجده يعدو قويّه على ضعيفه، فيمتصّ غذاءه ويحرمه قوته، ويتركه ذابلاً يتصوّح، ثمّ يصير هشيماً تذروه الرياح.

وأنظر إلى الحيوان في مستقره في البر والبحر، تره يأكل قويّه ضعيفه، ويفتك كبيره بصغيره، حتّى لتكاد تبيد بعض فصائله وتذهب من الوجود باعتداء بعض أنواعه على بعض، وهذا ما جعل نفور بعضه من بعض طبيعياً، وقد قيل: إن من الطيور ما لا يَحضِن بيضه، وإن إناثه تضع بيضها في وكور بعض الطيور، فتضمّه هذه إليها حتّى إذا فقس ونما قليلاً وأحسّ من نفسه القدرة عدا على فراخ الطير الذي احتضنته وقذف بها من العش فتقع فتموت ليخلو العش له، وهذا نوع من الظلم يخفى مكانه على اللبيب الفهم.

خبّرني بربك: من ذا الذي علّم هذا الفرخ الضعيف العقوق وهداه إلى الغدر والخيانة، حتّى جعله يقذف بفراخ التي آوته وصارت تغدو عليه بما تسعى به لأفراخها؟ لم يكن التعليم، وإنما هداية الفطرة وكامن الظلم، وقد شاءت قدرته جلّ شأنه أن يجعل لكل نوع من أنواع الحيوان سلاحاً يدافع به عن نفسه.

فمنه ما جعل له الناب والظفر، ومنه ما جعل له قروناً في رأسه مثنى وفرادى، ومنه ما أحاط ظاهر جلده بشوك إذا انقبض انتصب وكان كالإبر الحادة.

ومن عجائب خلق الله حيوان ذَفِر يعرف بالظربان، سلاحه نتن ريحه وذَفره، فإذا اقتحم عليه جحره حيوان ليفترسه أطلق عليه من ريحه شيئاً فأماته لفوره.

والإنسان يظلم وينال بظلمه ما دنا ونأى، وأوّل من يصيبه بظلمه نفسه التي بين جنبيه؛ فإنّ ما تنطوي عليه من الشرور وما يخالط قلبه من الأثرة وحبّ الإستبداد، يجد ألمه ووخزه كلما تحركت فيه الأثرة وحبّ الإستبداد بالمنفعة، وكثيراً ما يقتصر ظلم الإنسان على نفسه ولا يتعداه إلى غيره، كالذي لا يؤدي واجب نفسه، ولا يعمل صالحاً يعود عليه فعله في الدنيا والآخرة.

وقد يظلم أهله فلا يحسن معاشرتهم ولا ينفق نفقة أمثالهم، ويسوسهم بالقسوة والغلظة، وهذه حال كثير ممن يتوهمون أن سوء معاملة الأهل من موجبات الإحترام، وأن الخوف أقوم سبيل لتأديب الأولاد، وهذا رأي سقيم وخطّة قضت عليها أساليب التربية الصحيحة، وليس لها من قبل حظ من تأييد العقل والشرع.

وقد ورد أن الأقرع بن حابس رأى رسول الله ﷺ وهو يقبّل الحسن بن عليّ فقال: إنّ لي عشرة أولاد ما قبّلت واحداً منهم، فقال ﷺ: «مَن لا يَرحَم لا يُرحَم».

وفي ردّ النبي ﷺ على الأقرع بن حابس ما ينبئ بخطئه وشدة ظلمه لأهله، ومقت النبي ﷺ إلى فعله وتنبيهه إلى سوء عاقبته.

ومن ظلم الإنسان لأهله ألاّ يريهم مقتضيات الزمان حتّى يعدّهم للكفاح في الحياة بتعليمهم العلم النافع الذي يسهّل لهم كسب أرزاقهم ومزاحمة غيرهم، أو يضمّهم إليه على نحو ما تُرى في القرى، ولا يكل لكل واحد منهم عملاً يعمله تدريباً له على أعمال الحياة وحضّاً له على الكسب، ويستقل هو بالقيام بكل شؤونه، حتّى إذا مات أو عجز عن العمل عجزوا عن تصريف الأمور على وجهها، وأضاعوا ثروتهم وكل ما صار إليهم من ثمرات أبيهم، على أن كثيراً من الناس ينصفون أبناءهم بتعليمهم، ويظلمون بناتهم بإهمال تربيتهن، وهنّ في حاجة إليها، فإن البيت وشؤونه وحسن تربية الأولاد وتهذيبهم، والقدرة على تحسين حال الأسرة وتوفير الراحة لها والطمأنينة والسعادة كل هذا يقتضي علماً جماً وأدباً كثيراً، وخلقاً صالحاً وعقلاً راجحاً، وهذه أشياء لا تحصل بغير التربية والتعليم.

[ظلم الإنسان لأهله وجاره والآخرين]:

ومن ضروب ظلم الأهل أن يظلم زوجته، فينظر إليها نظرة إلى متاع بيته، وهيَ أم ولده والقائمة على تدبير شؤونه والحافظة لغيبه، فيروضها على الذل ومهانة النفس والصغار، فتبث في نفوس أولاده رذائل الأخلاق، وتنقل صفاتها إليهم بحكم التقليد، فيكون ظلمه لها ظلماً لأولاده وأمّته بما تلد من عبيد وإماء في ثياب أحرار.

ويظلم جيرانه فلا يقوم بحق الجوار لهم، فلا يواسيهم في محنتهم، ولا يساعدهم في شؤونهم، ولا يفرح لهم إذا فرحوا ولا يحزن معهم إذا حزنوا، ولا يحب لهم من كل شيء ما يحبه لنفسه.

ولقد أوصى الله سبحانه وتعالى بالإحسان إلى الجار، كما أوصى بعبادته، والإحسان إلى الوالدين، وهما على ما تعلم أحق الناس ببرنا وأولاهم بعطفنا وحسن رعايتنا، قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾[1].

ومما يدلّ على معرفة حق الجار والوفاء له والعمل بما أوصى به الدين في شأنه، ما حكي عن بعض ذوي الأخلاق الطاهرة أنه اشتكى كثرة الفيران في داره، فقال له بعض من سمعه: لو اقتنيت هراً لذهب عنك الفيران، فقال: أخشى أن يسمع الفار صوت الهر فيهرب إلى دار الجيران فأكون قد أحببت لهم ما لا أحبه لنفسي!

ومما يدل على التنفير من سوء معاملة الجيران، ومما أعدّه الله لمن لا يحسن معاملتهم، ما روي أنه قيل للنبي صلى الله عليه وآله: إنّ فلانة تصوم النهار وتقوم الليل، وهي سيّئة الخُلُق تؤذي جيرانها بلسانها، فقال: «لا خير فيها هي من أهل النار».

ويظلم الناس فيستطيل عليهم بلسانه ويده، ولا يوقر كبيرهم ولا يرحم صغيرهم، ولا يعطف عليهم ولا يساعدهم بفضل ماله، بأن يتخذ لفقرائهم ومرضاهم والعاجزين منهم، الدور والمساكن حسب ما يتمكن عليه وحسب قدرته.

ويظلم خدمه فيكلفهم ما هو فوق طاقتهم، ولا يؤدي لهم أجورهم في وقتها، ولا يعفو عن زلاتهم، ولا يرأف بضعيفهم ولا يحسن جزاء المحسن منهم.

---

(١) النساء: ٣٦.

وأشد أنواع الظلم وأدعاها للويل والثبور، ظلم الحاكم فيمن وليّ عليه وإطاعة هواه؛ فإن هذا يسلب من الناس الأمن على الأرواح والأموال والأعراض، وينشر في المحكومين الفساد وسوء الأخلاق، وينقل إليهم ما اتصف به من رذائل، فإن كان من صفاته التجسس والميل إليه، وهو ما يحبّه الظالمون دائماً رأيت حاشيته يسعون إليه بالأبرياء، ويبتغون الزلفى عنده بالإيقاع بالناس كذباً وبهتاناً، فتنفر منه القلوبِ وتجتمع على بغضه والكيد له، وتتهيأ النفوس للأخذ بالثار منه وانتهاز الفرصة فيه وإنها لممكنة؛ لأن الزمان قلب، وغيره تصيبُ الحذر من مأمنه.

ومن أضرّ أنواع الظلم بالشعوب وأفتكه بها أن يستبدّ الحاكم، بأن يجعل إلهه هواه وإرادته شرعاً وقانوناً، فلا يحكم إلاّ بما يرى في نفسه، فتذهب حرمة النفس والمال، ويتقلص ظل الأمن من البلاد، وتنقبض الأيدي عن العمل، فتقل الثروة ويتسع نطاق الجهل بما يسعى إليه دائماً من إطفاء نور العلم الذي يصوح الإستبداد وأهله ويُدكّ بنيانه ويقوض أركانه وينسخ آثاره، ولا جرم أنه بإطفاء نور العلم تنحط الأخلاق، وتفقد الأمّة الشجاعة والحمية وينتشر فيها الملق والنفاق والكذب والغيبة والنميمة والرشوة، ويكون عاقبة أمر الظالم أن تعصف به ريح هوجاء من الفتن، فتثل عرشه، وتذهب بملكه وأمنه.

أعطيت ملكا فلم تحسن سياسته   كذاك من لا يسوس الملك يُخلعه

ومثله كمثل النار إذا أصابت يابس الهشيم لا تذر منه شيئاً إلاّ أتت عليه، ثمّ تضمحل وتخمد، فهو مهلك ثمّ هالك، وهذا الذي حصل فيمن غير من الأمم التي استبدّ بها حكامها.

ويظلم الحيوان فيحمله فوق طاقته، ويعذبه أو يمثل به، وقد حرمت الشرائع ذلك كله فهراش الديكة ونطاح الثيران والكباش، وغير هذا مما يأتيه الجهلة من العامة للتسلية مما يحرمه الإسلام، وتعافه النفوس الكريمة.

وقد جاوز فريق من الناس الحد في ظلم الحيوان وتعذيبه، فهؤلاء الإسبان، وهم أمّة لها حظها من المدنية الحديثة يجتمعون في كل عام في أكبر ملاهيهم في احتفال جامع، ليشهدوا صراع الآساد والثيران في ميدان واسع أعدّوه لذلك، وأحاطوه بسياج من الحديد المنيع، فإذا انطلق الأسد والثور في ذلك الميدان الفسيح تجاولا وتصاولا ساعات، فإذا كان الأسد هو الغالب رأيت جلد الثور يتمزق وأحشاءه تتطع وتتناثر في كل ناحية من الميدان، وإذا كان الثور هو الغالب رأيته وقد شدّ الأسد بقرنه، فبقر بطنه وحمله على رأسه، وضرب به الأرض فمزّقه تمزيقاً وداسه بحوافره، والناس بين ذلك يصفّقون ويعجبون ويطربون...».

لست تجد أجدى عليك من دفع عدوان المعتدين وظلم الظالمين، ولا أنفى لجورهم من الجور عليهم وظلمهم.

من ظلم الناس تحاموا ظلمه وعزّ عنهم جانباه واحتمى

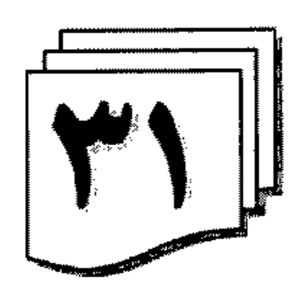
ذلك لأن الظلم فعل سيء، والفعل السيء أشد ما يكون تأثيراً في النفس بما يتركه فيها من أثر الخوف والرهبة، بخلاف غيره من الرذائل كالغيبة والكذب ونحوهما، فإنها ليست أموراً عملية، ولا أثر للقوة فيها، لذلك كان الكذب لا يدفعه الكذب ولا الغيبة تكفها الغيبة، فمن لم يدفع عن نفسه وعرضه وماله ذوي النفوس الشريرة الذين لا يخضعون لغير القوة ولا يدينون لغير سلطان القهر بالالتجاء إلى الظلم لا ينجو من ظلمهم وشرهم.

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم

والظلم مركب خشن لا يصح في كل موطن ولا مع كل إنسان، ولا في الأمم التي ساد فيها النظام وحكم القانون، أما في القبائل المتبدية، والأمم التي لا تزال على حال من الهمجية والحكم فيها للقوة دون الإعتماد في ذلك على قانون سماوي أو وضعي، فالالتجاء إلى الظلم وكفّ المعتدي بالإعتداء عليه أمر مرغوب فيه، إذ لا وسيلة للمحافظة على الشرف والنفس والمال إلاّ به، وتلك ضرورة اقتضتها حال الإجتماع على هذا النحو، وكثيراً ما تبيح الضرورات المحظورات.

إذا لم يكن إلاّ الأسنة مركباً فلا رأيَ للمضطر إلاّ ركوبها

* * *



قوله عليه السلام:

يَهْلِكُ فِيَّ رَجُلانِ مُحِبٌّ مُفْرِطٌ وَبَاهِتٌ مُفْتَرٍ.

قال الرضي رحمه الله: وهذا مثل قوله عليه السلام:

هَلَكَ فِيَّ رَجُلانِ مُحِبٌّ غَالٍ وَمُبْغِضٌ قَالٍ.

(نهج البلاغة ٤: ١٠٨)

[الغلاة والنواصب]

هذه كلمة لم يتنبأ بها الإمام عليّ عليه السلام وإنما اقتبسها من كلمة تنبأ بها رسول الله صلى الله عليه وآله حين قال وهو يخاطب عليّاً عليه السلام: «يهلك فيك اثنان: محبّ غالٍ وعدو قالٍ» فالإمام إنما يكرر نبوءة الرسول فيه، لا أنه يتنبأ، ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وصدق وصيّه بقولهما، فإن العالم بأسره قد بلي بطائفتين في الإسلام إحداهما غالت في حبّه حتّى أدى بها الغلو فادعت فيه الألوهية كالعَليّ اللاهية الذين ادعو فيه الألوهية. ونشأت في مقابلتها طائفة أخرى تعلن الكره للإمام وتجيز لعنه كمعاوية وأتباعه، فلقد نصب معاوية سبعين ألف منبر يلعنون عليها عليّاً.

يقول الحافظ السيوطي: إنه كان في أيام بني أمية أكثر من سبعين ألف منبر يلعن عليها عليّ عليه السلام بما سَنّه لهم معاوية من ذلك. وفي ذلك يقول العلامة أحمد الحفظي الشافعي في أرجوزته:

وقد حكى الشيخ السيوطي أنه — قد كان فيما جعلوه سنّه
سبعون ألف منبرٍ وعشره — من فوقهنّ يلعنون حيدره
وهذه في جنبها العظائم — تصغر بل توجه اللوائم
فهل ترى من سنّها يعادى — أم لا وهل يستر أم يهادى
أو عالم يقول عنه نسكت — أجب فإني للجواب منصت

وليت شعري هل يقال اجتهدا — كقولهم في بغيه أم ألحدا
أليس ذا يؤذيه أم لا فاسمعن — إن الذي يؤذيه يؤذي مَن ومن
بل جاء في حديث أمّ سلمه — هل فيكم الله يسبّ مَه لِمَه
عاون أخا العرفان بالجواب — وعادي من عادى أبا تراب

* * *

عن كتاب النصائح الكافية (ص ٢٢)، وعن كتاب (شيخ الأبطح):

قال ابن أبي الحديد:

قد تقدم شرح مثل هذا الكلام. وخلاصة هذا القول أن الهالك فيه المفرط والمفرّط: أما المفرط فالغلاة وأما المفرّط فمن استنقص به عليه السلام أو أبغضه أو حاربه أو أضمر له غلاً، ولهذا كان أصحابنا يقولون: هو أفضل الخلق في الآخرة وأعلاهم منزلة في الجنّة، وأفضل الخلق في الدنيا وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب، وكل من عاداه أو حاربه أو أبغضه فإنه عدوّ الله سبحانه وخالد في النار مع الكفار والمنافقين، إلاّ أن يكون ممن قد ثبتت توبته ومات على توليه وحبّه...

والحاصل إنا لم نجعل بينه وبين النبي صلى الله عليه وآله إلاّ رتبة النبوة، وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه.

والقول بالتفضيل قول قديم قد قال به كثير من الصحابة والتابعين، فمن الصحابة: عمّار والمقداد، وأبو ذر وسلمان، وجابر بن عبد الله، وأُبي بن كعب، وحذيفة، وبريدة، وأبو أيّوب، وسهل بن حنيف، وعثمان بن حنيف، وأبو الهيثم بن التيهان، وخزيمة بن ثابت، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، والعبّاس بن عبد المطلب وبنوه، وبنو هشام كافة، وبنو المطلب

كافة، وكان الزبير من القائلين به في بدء الأمر ثمّ رجع، وكان من بني أمية قوم يقولون بذلك، منهم: خالد بن سعيد بن العاص، ومنهم عمر بن عبد العزيز.

وأنا أذكر ههنا الخبر المروي المشهور عن عمر وهو من رواية ابن الكلبي:

قال: بينا عمر بن عبد العزيز جالساً في مجلسه، دخل حاجبه ومعه امرأة أدماء طويلة حسنة الجسم والقامة ورجلان متعلقان بها، ومعهم كتاب من ميمون بن مهران إلى عمر، فدفعوا إليه الكتاب ففضه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من ميمون بن مهران سلام عليك ورحمة الله وبركاته: أما بعد فإنه ورد علينا أمر ضاقت به الصدور وعجزت عنه الأوساع وهربنا بأنفسنا عنه ووكلناه إلى عالمه لقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[1] وهذه المرأة والرجلان أحدهما زوجها والآخر أبوها، وإن أباها يا أمير المؤمنين زعم أن زوجها حلف بطلاقها أن عليّ بن أبي طالب عليه السلام خير هذه الأمّة وأولاها برسول الله صلى الله عليه وآله، وأنه يزعم أن ابنته طلقت منه وأنه لا يجوز له في دينه أن يتخذه صهراً، وهو يعلم أنها حرام عليه كأمّه وأن الزوج يقول له: كذبت وأثمت لقد بُرّ قسمي وصدقت مقالتي وإنها امرأتي على رغم أنفك وغيظ قلبك، فاجتمعوا إليّ يختصمون في ذلك، فسألت الرجل عن يمينه فقال: نعم، قد كان ذلك وقد حلفت بطلاقها أن عليّاً خير هذه الأمّة وأولاها برسول الله صلى الله عليه وآله، عرفه من عرفه وأنكره من أنكره، فليغضب من غضب وليرض من رضي، وتسامع الناس بذلك فاجتمعوا له، وإن كانت الألسن مجتمعة فالقلوب شتى، وقد علمت يا أمير المؤمنين اختلاف الناس في أهوائهم

---

(١) النساء: ٨٣.

وتسرّعهم إلى ما فيه الفتنة فأحجمنا عن الحكم لتحكم بما أراك الله، وإنهما تعلّقا بها وأقسم أبوها أن لا يدعها معه وأقسم زوجها أن لا يفارقها ولو ضربت عنقه إلاّ أن يحكم عليه بذلك حاكم لا يستطيع مخالفته والإمتناع منه، فرفعناهم إليك يا أمير المؤمنين أحسن الله توفيقك وأرشدك، وكتب في أسفل الكتاب:

إذا ما المشكلات وردن يوماً ... فحارت في تأمّلها العيون
وضاق القوم ذرعاً من بناها ... فأنت لها أبا حفص أمين
لأنك قد حويت العلم طرّاً ... وأحكمك التجارب والشؤون
وخلّفك الإله على الرعايا ... فحظّك فيهم الحظ الثمين

قال: فجمع عمر بن عبد العزيز بني هاشم وبني أمية وأفخاذ قريش، ثمّ قال لأبي المرأة: ما تقول أيها الشيخ؟ قال: يا أمير المؤمنين هذا الرجل زوّجته ابنتي وجهزتها إليه بأحسن ما يجهّز به مثلها، حتّى إذا أملّت خيره ورجوت صلاحه حلف بطلاقها كاذباً ثمّ أراد الإقامة معها، فقال له عمر: يا شيخ لعلّه لم يطلق امرأته فكيف حلف؟ قال الشيخ: سبحان الله الذي حلف عليه، لأبين حنثاً وأوضح كذباً من أن يختلج في صدري منه شك مع سني وعلمي؛ لأنه زعم أن عليّاً خير هذه الأمّة وإلاّ فامرته طالق ثلاثاً.

فقال للزوج: ما تقول أهكذا حلفت؟ قال: نعم، فقيل: إنه لما قال نعم كاد المجلس يرتج بأهله، وبنو أمية ينظرون إليه شزراً إلاّ أنهم لم ينطقوا بشيء، كل ينظر إلى وجه عمر، فأكبّ عمر ملياً ينكت الأرض بيده والقوم صامتون ينظرون ما يقوله ثمّ رفع رأسه وقال:

إذا ولّى الحكومة بين (خير) قوم ... أصاب الحق والتمس السدادا
وما خير الأنام إذا تعدّى ... خلاف الحق واجتنب الرشادا

ثمّ قال للقوم: ما تقولون في يمين هذا الرجل؟ فسكتوا فقال: سبحان الله قولوا، فقال رجل من بني أمية: هذا حكم في فرج ولسنا نجرؤ على القول فيه وأنت عالم بالقول مؤتمن لهم وعليهم قل ما عندك، فإن القول ما لم يكن يحق باطلاً ويبطل حقاً جائز عليّ في مجلسي، قال: لا أقول شيئاً. فالتفت إلى رجل من بني هاشم من ولد عقيل بن أبي طالب فقال له: ما تقول فيما حلف به هذا الرجل يا عقيلي، فاغتنمها فقال: يا أمير المؤمنين إن جعلت قولي حكماً أو حكمي جائزاً قلت وإن لم يكن ذلك فالسكوت أوسع لي وأبقى للمودّة، قال: قل وقولك حكم وحكمك ماض، فلما سمع ذلك بنو أمية قالوا: ما أنصفتنا يا أمير المؤمنين إذ جعلت الحكم إلى غيرنا، ونحن من لحمتك وأولي رحمك، فقال عمر: اسكتوا عجزاً ولؤماً عرضت ذلك عليكم آنفاً فما انتدبتم له، قالوا: لأنك لم تعطنا ما أعطيت العقيلي، ولا حكمتنا كما حكمته، فقال عمر: إن كان أصاب وأخطأتم وحزم وعجزتم وأبصر وعميتم فما ذنب عمر لا أباً لكم، أتدرون ما مثلكم؟ قالوا: لا ندري، قال: لكن العقيلي يدري، ثمّ قال: ما تقول يا رجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين مَثلهم كما قال الأوّل:

دعيتم إلى أمر فلما عجزتم ... تناوله من لا يداخله عجز
فلما رأيتم ذاك أبدت نفوسكم ... نداما وهل يغني من الحذر الحرز

فقال عمر: أحسنت وأصبت فقل ما سألتك عنه، قال: يا أمير المؤمنين بُرَّ قسمه ولم تطلّق امرأته، قال: وأنى علمت ذاك؟ قال: نشدتك الله يا أمير المؤمنين ألم تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لفاطمة عليها السلام وهو عندها في بيتها عائد لها: يا بنية ما علتك؟ قالت: الوعك يا أبتاه، وكان عليّ غائباً في بعض حوائج النبي صلى الله عليه وآله فقال لها: أتشتهين شيئاً؟ قالت: نعم أشتهي عنباً وأنا أعلم أنه عزيز ليس وقت

عنب، فقال ﷺ: إن الله قادر على أن يجيئنا به، ثمّ قال: اللهم ائتنا به مع أفضل أمّتي عندك منزلة، فطرق عليّ الباب ودخل ومعه مِكتل قد ألقى عليه طرف ردائه، فقال له النبي ﷺ: ما هذا يا عليّ؟ قال: عنب التمسته لفاطمة عليها السلام، فقال: الله أكبر الله أكبر، اللهم كما سررتني بأن خصصت عليّاً بدعوتي فاجعل فيه شفاء بنيّتي، ثمّ قال: كلي على اسم الله يا بنية، فأكلت وما خرج رسول الله ﷺ حتّى استقلت وبرأت.

فقال عمر: صدقت وبرأت أشهد لقد سمعته ووعيته، يا رجل خذ بيد امرأتك فإن عرض لك أبوها فاهشم أنفه، ثمّ قال: يا بني عبد مناف والله ما نجهل ما يُعلَم غير أنا وما بنا إلاّ عمى في ديننا ولكنا كما قال الأوّل:

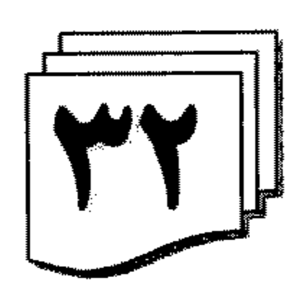
تصيّدت الدنيا رجالاً بفخها فلم يدركوا خيراً بل استحقبوا الشرا
وأعماهم حبّ الغنى وأصمهم فلم يدركوا إلاّ الخسارة والوزرا

قيل: فكأنما ألقم بني أمية حجراً، ومضى الرجل بامرأته. وكتب عمر إلى ميمون بن مهران: عليك سلام فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، أما بعد فإني قد فهمت كتابك، وورد الرجلان والمرأة وقد صدّق الله يمين الزوج وأبرّ قسمه وأثبته على نكاحه فاستيقن ذلك واعمل عليه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فأما من قال بتفضيله على الناس كافة من التابعين فخلق كثير: كأويس القرني وزيد بن صوحان وصعصعة أخيه وجندب الخير وعبيدة السلماني وغيرهم ممن لا يحصى كثرة...(١)

* * *

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٢٠ – ٢٢٦.



قوله عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام:

لا تَـدْعُوَنَّ إِلَى مُبَارَزَةٍ وَإِنْ دُعِيتَ إِلَيْهَا فَأَجِبْ فَإِنَّ الدَّاعِيَ إِلَيْهَا بَاغٍ وَالْبَاغِيَ مَصْرُوعٌ.

(نهج البلاغة ٤: ٥٢)

[قتال عليّ عليه السلام وشجاعته]

قال ابن أبي الحديد:

قد ذكر عليه السلام الحكمة، ثمّ ذكر العلة، وما سمعنا أنه عليه السلام دعا إلى مبارزة قط، وإنما كان يدعى هو بعينه، أو يدعى من يبارز فيخرج إليه فيقتله، دعا بنو ربيعة بن عبد شمس بني هاشم إلى البراز يوم بدر، فخرج عليه السلام فقتل الوليد، واشترك هو وحمزة عليه السلام في قتل عتبة، ودعا طلحة بن أبي طلحة إلى البراز يوم أُحد فخرج إليه فقتله، ودعا مرحب إلى البراز يوم خيبر فخرج إليه فقتله.

فأما الخرجة التي خرجها يوم الخندق إلى عمرو بن عبد ودّ فإنها أجل من أن يقال جليلة، وأعظم من أن يقال عظيمة، وما هي إلاّ كما قال شيخنا أبو الهذيل وقد سأله سائل: أيّما أعظم منزلة عند الله عليّ أم أبو بكر؟ فقال: يا ابن أخي، والله لمبارزة عليّ عمراً يوم الخندق تعدل أعمال المهاجرين والأنصار وطاعاتهم كلها تربى عليها فضلاً عن أبي بكر وحده.

وقد روي عن حذيفة بن اليمان ما يناسب هذا؛ بل ما هو أبلغ منه.

وروى قيس بن الربيع عن أبي هارون العبدي، عن ربيعة بن مالك السعدي، قال: أتيت حذيفة بن اليمان فقلت: يا أبا عبد الله إنّ الناس يحدّثون عن عليّ بن أبي طالب ومناقبه، فتقول لهم أهل البصيرة: إنكم لتفرطون في تقريظ هذا الرجل، فهل أنت محدّثي بحديث عنه أذكره

للناس. فقال: يا ربيعة وما الذي تسألني عن عليّ وما الذي أحدّثك عنه، والذي نفس حذيفة بيده، لو وضع جميع أعمال أمّة محمّد ﷺ في كفة الميزان منذ بعث الله تعالى محمّداً إلى يوم الناس هذا، ووضع عمل واحد من أعمال عليّ في الكفة الأخرى لرجح على أعمالهم كلها، فقال ربيعة: هذا المدح الذي لا يقام له ولا يقعد ولا يحمل، إني لأظنه إسرافاً يا أبا عبد الله، فقال حذيفة: يا لكع وكيف لا يحمل وأين كان المسلمون يوم الخندق وقد عبر إليهم عمرو وأصحابه، فملكهم الهلع والجزع، ودعا إلى المبارزة فأحجموا عنه حتّى برز إليه عليّ فقتله، والذي نفس حذيفة بيده لعمله ذلك اليوم أعظم أجراً من أعمال أمّة محمّد ﷺ إلى هذا اليوم وإلى أن تقوم القيامة.

وجاء في الحديث المرفوع أن رسول الله ﷺ قال ذلك اليوم حين برز إليه: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله».(١)

وقال أبو بكر بن عياش: لقد ضرب عليّ بن أبي طالب عليه السلام ضربة ما كان في الإسلام أيمن منها، ضربته عمراً يوم الخندق، ولقد ضُرب عليّ ضربة ما كان في الإسلام أشأم منها ــ يعني ضربة ابن ملجم لعنه الله ــ.

وفي الحديث المرفوع أن رسول الله ﷺ لما بارز عليّ عمراً ما زال رافعاً يديه مقمحاً رأسه نحو السماء داعياً ربّه قائلاً: «اللهم إنك أخذت مني عبيدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد فاحفظ عليّ اليوم عليّاً، ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ﴾».

---

(١) وذكر هذا القول، أعني قول النبي ﷺ: «برز الإيمان كله...» الخ، الدميري في المجلد الأوّل من حياة الحيوان، ص ٢٣٠ في مادة (حيدرة) ط/ مصر.

وقال جابر بن عبد الله الأنصاري: والله ما شبهّت يوم الأحزاب قتل عليّ عمراً وتخاذل المشركين بعده إلاّ بما قصّه الله تعالى من قصة طالوت وجالوت في قوله: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾.[١]

وروى عمرو بن أزهر عن عمرو بن عبيد عن الحسن: أن علياً عليه السلام لما قتل عمراً احتزّ رأسه وحمله فألقاه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله فقام أبو بكر وعمر فقبّلا رأسه ووجه رسول الله صلى الله عليه وآله يتهلل، فقال: «هذا النصر» أو قال: «هذا أوّل النصر».

وفي الحديث المرفوع أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال يوم قُتل عمرو: «ذهبت ريحهم ولا يغزوننا بعد اليوم ونحن نغزوهم إن شاء الله».

[معركة الخندق]:

وينبغي أن نذكر ملخص هذه القصة من مغازي الواقدي وابن إسحاق قالا:

خرج عمرو بن عبد ود يوم الخندق، وقد كان شهد بدراً فارتث جريحاً ولم يشهد أُحد، فحضر الخندق شاهراً نفسه معلماً مدّلاً بشجاعته وبأسه، وخرج معه ضرار بن الخطاب الفهري وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميون، فطافوا بخيولهم على الخندق أصعاداً وانحداراً يطلبون موضعاً ضيّقاً يعبرونه حتّى وقفوا على أضيق موضع فيه في المكان المعروف بالمزار، فاكرهوا خيولهم على العبور فعبرت وصاروا مع المسلمين على أرض واحدة، ورسول الله صلى الله عليه وآله جالس وأصحابه قيام على رأسه، فتقدم عمرو بن عبد

---

(١) البقرة: ٢٥١.

ودّ فدعا إلى البراز مراراً فلم يقم إليه أحد، فلما كثر قام عليّ عليه السلام فقال: أنا أبارزه يا رسول الله، فأمره بالجلوس، وأعاد عمرو النداء والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير، فقال عمرو: أيها الناس إنكم تزعمون أن قتلاكم في الجنّة وقتلانا في النار أفما يحب أحدكم أن يقدم على الجنّة أو يُقدم عدواً له إلى النار؟ فلم يقم أحد، فقام عليّ عليه السلام دفعة ثانية وقال: أنا له يا رسول الله، فأمره بالجلوس، فجال عمرو بفرسه مقبلاً مدبراً، وجاءت عظماء الأحزاب فوقفت من وراء الخندق ومدت أعناقها تنظر، فلما رأى عمرو أن أحداً لا يجيبه قال:

ولقد بححتُ من الندا ... ء بجمعهم هل من مبارز
ووقفت مذ جبن المشيع ... موقف القرن المناجز
إني كذلك لم أزل ... متسرعاً قبل الهزاهز
إن الشجاعة في الفتى ... والجود من خير الغرائز

فقام عليّ عليه السلام فقال: يا رسول الله ائذن لي في مبارزته، فقال: ادن فدنا فقلّده سيفه وعمّمه بعمامته، وقال: «امض لشأنك»، فلما انصرف قال: «اللهم أعنه عليه»، فلما قرب منه قال له مجيباً إياه عن شعره:

لا تعجلنّ فقد أتا ... ك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة ... يرجو بذاك نجاة فائز
إني لآمل أن أقيم ... عليك نائحة الجنائز
من ضربة فوهاء يبقى ... ذكرها عند الهزائز

فقال عمرو: من أنت؟ وكان عمرو شيخاً كبيراً قد جاوز الثمانين، وكان نديم أبي طالب بن عبد المطلب في الجاهلية، فانتسب عليّ عليه السلام

وقال: أنا عليّ بن أبي طالب، فقال: أجل لقد كان أبوك نديماً لي وصديقاً فارجع فإني لا أحب أن أقتلك.

كان شيخنا أبو الخير مصدق بن شبيب النحوي يقول: إذا مررنا في القراءة عليه بهذا الموضع، والله ما أمره بالرجوع ابقاءاً عليه بل خوفاً منه، فقد عرف قتلاه ببدر وأحد وعلم أنه إن ناهضه قتله فاستحيا أن يظهر الفشل فأظهر الابقاء والارعاء وإنه لكاذب فيهما، قالوا: فقال له عليّ عليه السلام: لكني أحب أن أقتلك، فقال: يا ابن أخي إني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك فارجع وراءك خير لك، فقال عليّ عليه السلام: إن قريشاً تتحدّث عنك إنك قلت: لا يدعوني أحد إلى ثلاث إلاّ أجبت ولو إلى واحدة منها، قال: أجل، فقال عليّ عليه السلام: فإني أدعوك إلى الإسلام، قال: دع عنك هذه، قال: فإني أدعوك إلى أن ترجع بمن تبعك من قريش إلى مكّة، قال: إذن تتحدّث نساء قريش عني أن غلاماً خدعني، قال: فإني أدعوك إلى البراز، فحمي عمرو وقال: ما كنت أظن أن أحداً من العرب يرومها مني، ثمّ نزل فعقر فرسه، وقيل: ضرب وجهه ففرّ، وتجاولا فثار لهما غبرة وارتهما عن العيون إلى أن سمع الناس التكبير عالياً من تحت الغبرة فعلموا أن عليّاً قتله، وانجلت الغبرة عنهما وعليّ راكب صدره يجزّ رأسه، وفرّ أصحابه ليعبروا الخندق فطفرت بهم خيلهم إلاّ نوفل بن عبد الله فإنه قصّر فرسه فوقع في الخندق، فرماه المسلمون بالحجارة، فقال: يا معشر الناس قتلة أكرم من هذه، فنزل إليه عليّ عليه السلام فقتله، وأدرك الزبير هبيرة بن أبي وهب فضربه فقطع ثفر فرسه وسقطت درع كان حملها من ورائه فأخذها الزبير، وألقى عكرمة رمحه، وناوش عمر بن الخطاب

ضرار بن عمر فحمل عليه ضرار حتّى إذا وجد عمر مسّ الرمح رفعه عنه، وقال: إنها لنعمة مشكورة فاحفظها يا ابن الخطاب إني كنت آليت أن لا تمكنني يداي من قتل قرشي فأقتله، وانصرف ضرار راجعاً إلى أصحابه، وقد كان جرى له معه مثل هذه في يوم أُحد، وقد ذكر هاتين القصتين معاً محمّد بن عمر الواقدي في كتاب المغازي.(١)

* * *

قال ابن ميثم البحراني:

نفّر عليه السلام عن الدعوة إلى المبارزة بقياس كامل من الشكل الأوّل، وهو قوله عليه السلام: «فإنّ الداعي...» إلى قوله: «مصروع»، وبيانه أنّ الدعاء إلى المبارزة خروج عن فضيلة الشجاعة إلى طرف الإفراط منها، وهو التهور وهو بغي وعدوان؛ لأنه خروج عن فضيلة العدل في القوة الغضبية، وأما أن الباغي مصروع ففي غالب الأحوال لاستعداده ببغيه لذلك لأنّ المجازاة واجبة في الطبيعة.(٢)

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية في كتابه (في ظلال نهج البلاغة)(٣) عند هذه الفقرة من قول الإمام عليه السلام:

هذا هو دين الإسلام، وهذه شريعته، الحرب بغي وعدوان، ومن أثارها ومهّد لها ولأسبابها فهو عدو الله والحياة، وحرب على الله والحق والخير!

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٦٠.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٥٧٤.

(٣) ج ٤: ٣٥٦.

ومن صارع الحق صرعه ولو بعد حين، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[١]

ونقل صاحب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة) عن مستدرك الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج ٣ ص ٣٢ طبعة سنة ١٣٢٤هـ حيدر آباد)، وعن تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ج ١٣ ص ١٩ طبعة سنة ١٣٤٩هـ مصر)، نقل أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إن مبارزة عليّ لعمرو بن ود يوم الخندق أفضل من أعمال أمّتي إلى يوم القيامة».

* * *

وجاء في (منهاج البراعة):[٢]

المبارزة هو الدعوة إلى القتال، وتنجرّ بقتل أحد المتقاتلين غالباً، وكانت مرسومة في المعارك القديمة الجارية بالأسلحة الباردة من السيف والسّنان والملائكة، وقد تقع بين اثنين متداعيين في أمر من الأمور، كفصل نهائي للخصومة والتنازع، ويعبّر عنها بدوئل.

فإن حمل كلامه عليه السلام ميدان الجهاد فيكون كلامه إرشاداً إلى الحزم وعدم البدأة بالقتال مهما تأزّم الموقف كما كانت سيرته عليه السلام في الجمل وصفين، وإن حمل على المعنى الثاني أو الأعمّ منها ففيه غموض ويحتاج إلى التأمل.

* * *

---

(١) يوسف: ٢١.

(٢) ج ٢١: ٣٠٢.

[**شجاعة عليّ عليه السلام**] :

أقول: جاء في المجلد الأوّل من كتاب (المستطرف) في(الباب الحادي والأربعون)[١] في ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال ما نصه:

أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه، آية من آيات الله، ومعجزة من معجزات رسول الله ﷺ، ومؤيّد بالتأييد الإلهي، كاشف الكروب ومجليها، ومثبت قواعد الإسلام ومرسيها، وهو المتقدم على ذوي الشجاعة كلهم بلا مريّه ولا خلاف.

روي عنه رضي الله عنه أنه قال: «والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من موتة على فراش».

وقال بعض العرب: ما لقينا كتيبة فيها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلاّ أوصى بعضنا على بعض.

وقال رضي الله عنه لمعاوية: «قد دعوت الناس إلى الحرب، فدع الناس جانباً واخرج إليّ ليُعلم أينا المران على قلبه والمغطّى على بصره، وأنا أبو الحسن قاتل جدّك وخالك وأخيك شدخاً يوم بدر، وذلك السيف معي وبذلك القلب ألقى عدوّي».

وقيل له كرم الله وجهه: إذا جالت الخيل فأين نطلبك؟ قال: «حيث تركتموني».

وقيل له: كيف كنت تقتل الأبطال؟ قال: «لأني كنت ألقى الرجل فأقدّر أني أقتله، ويقدّر هو أني قتلته، فأكون أنا ونفسه عوناً عليه».

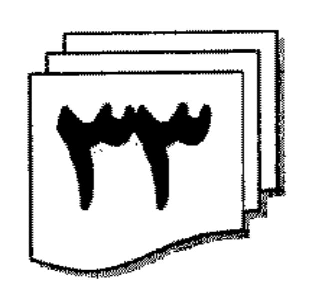
وقال مصعب بن الزبير: كان عليّ رضي الله عنه حذراً في الحروب، شديد

---

(١) ص ٤٧٢.

الروغـان لا يكـاد أحـد يـتمكن منـه، وكانـت درعـه صـدراً لا ظهـر لهـا، فقيـل لـه: أمـا تخـاف أن تـؤتى مـن قبـل ظهـرك؟ فقـال: «إذا مكنـت عـدوّي مـن ظهري فلا أبقى الله عليه إن أبقى عليّ».

* * *



قوله عليه السلام :

وَمَـا أعْمَـالُ الْبِـرِّ كُلُّهَـا وَالْجِهَـادُ فِـي سَـبِيلِ اللَّـهِ عِنْـدَ الأمْـرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إلاَّ كَنَفْثَـةٍ فِي بَحْـرٍ لُجِّـيٍّ وَإِنَّ الأمْـرَ بِـالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْـيَ عَـنِ الْمُنْكَرِ لاَ يُقَرِّبَـانِ مِـنْ أجَلٍ وَلاَ يَنْقُصَـانِ مِـنْ رِزْقٍ وَأفْضَـلُ مِـنْ ذَلِـكَ كُلِّـهِ كَلِمَـةُ عَـدْلٍ عِنْـدَ إمَـامٍ جَـائِرٍ.

(نهج البلاغة ٤: ٨٩)

[فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

ضبط الألفاظ اللغوية:

(لجة الماء) أعظمه، و(بحر لجّي) ذو ماء عظيم، و(النفثة) الفعلة الواحدة من نفثت الماء من فمي، أي: قذفته بقوّة.[1]

* * *

قال ابن أبي الحديد:

قال عليه السلام: لا يعتقدنّ أحد أنه إن أمرَ ظالماً بمعروف، أو نهى ظالماً عن منكر، أن ذلك يكون سبباً لقتل ذلك الظالم المأمور أو المنهي إياه، أو يكون سبباً لقطع رزقه من جهته، فإن الله تعالى قدّر الأجل وقضى الرزق، ولا سبيل لأحد أن يقطع على أحد عمره أو رزقه.

وهذا الكلام ينبغي أن يُحمل على أنه حثّ وحضّ وتحريض على النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، ولا يحمل على ظاهره لأن الإنسان لا يجوز أن يلقي بنفسه إلى التهلكة معتمداً على أن الأجل مقدّر وأنّ الرزق مقسوم، وأنّ الإنسان متى غلب على ظنه أن الظالم يقتله ويقيم على ذلك المنكر ويضيف إليه منكراً آخر لم يجز له الإنكار.

فأمّا كلمة العدل عند الإمام الجائر فنحو ما روي أن زيد بن أرقم

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٠٦.

رأى عبيد الله بن زياد، ويقال يزيد بن معاوية يضرب بقضيب في يده ثنايا الحسين عليه السلام حين حمل إليه رأسه، فقال له: إيهاً إرفع يدك عنها فطالما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقبّلها.[1]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

... وقوله عليه السلام: «وأما أعمال البر...» إلى قوله: «لُجّي» تعظيم لهاتين الفضيلتين، وشبّه أعمال البر كلها بالنسبة إليهما بالنَفثة في البحر اللجّي، ووجه الشبه أن كل خصلة من أعمال البر جزئي بالنسبة إليهما كالنَفثَةِ بالنسبة إلى البحر منهما، وقوله عليه السلام: «فإنّ الأمر...» إلى قوله: «رزق» صغرى ضمير رغب به فيهما، وتقدير الكبرى، وكلما لا يقرّب من أجل ولا ينقص من رزقٍ فلا ينبغي أن يحذر منه، ثمّ أشار عليه السلام إلى أفضل أصنافهما، وهو كلمة العدل عند الإمام الجائر لغرض ردّه عن جوره.[2]

* * *

وقال ميرزا حبيب الله الخوئي في (منهاج البراعة):[3]

... قوله عليه السلام: «وما أعمال البر كلّها، والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلاّ كنفثة في بحر لجّي»، فكلامه

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٠٦.

(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم: ٣٥٥.

(٣) ج ٢١: ٤٦٣.

عليه السلام يرجع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالنظر إلى الوجهة الأخلاقية للأمر والنهي، لا بالنظر إلى حكمه الفقهي المعنون في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفقه.

المعروف والمنكر يطلق على الواجب والحرام في قول الفقهاء: (يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) لأن ظاهر لفظ المنكر القبيح الذي يرادف الفحشاء ويقارنه في آيات القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[١] وأما المعروف فيختص بالواجب بقرينة وجوب الأمر به، وأمّا إذا كان مندوباً أو مباحاً لا يجب الأمر به، كما أنّ لفظ الأمر المتعلّق به يخصصه بالوجوب؛ لأن الأمر المطلق يفيد الوجوب.

والأمر بالمعروف كالنهي عن المنكر يجبان بشرائط مقرّرة في مقامه، ولهما مراتب كما ذكرنا، يسقط وجوب كل مرتبة غير مقدورة، وينتقل إلى مرتبة نازلة، حتّى ينتهي إلى الإنكار بالقلب الذي هو واجب بالنسبة إلى المنكر مطلقاً.

* * *

وقال الشيخ محمّد جواد مغنية في كتابه (في ظِلال نهج البلاغة)[٢] عند قوله عليه السلام: «وما أعمال البر كلها...»:

قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جامع لخصال الخير بكاملها، بما فيها خصلة الجهاد، ومانع من خصال الشر بأسرها، إذا توفرت في صاحبه الصفات التي ذكرها الإمام جعفر الصادق عليه السلام

---

(١) العنكبوت: ٤٥.

(٢) ج ٤: ٤٣٦.

بقوله: «إنّ صاحب الأمر بالمعروف يحتاج إلى أن يكون: عالماً بالحلال والحرام، فارغاً من خاصة نفسه مما يأمر به، وينهى عنه، ناصحاً للخلق، رحيماً بهم، رفيقاً لهم، داعياً باللطف، صابراً على ما يصيبه منهم وبسببهم، لا يكافئهم على ما يؤذونه به، بل ولا يشكو ذلك، ولا يستعمل الحمية، ولا يغتاظ لنفسه، مجرّداً نيّته لله وحده، مبتغياً لوجهه، فإن خالفوه صبر، وإن وافقوه شكر، مفوّضاً أمره إلى الله، ناظراً إلى عيبه».

وليس من شكّ أن الأمر بالمعروف مع هذه الصفات يأتي بخير الثمار، ولا يعادله شيءٌ إلاّ «كلمة عدل عند إمام جائر» لأن قائلها ما أبقى عذراً لمتخوف ومتهاون بصراحته وجهره بكلمة الحق مهما كان ثمنها.

[**ابن السكيت في مجلس المتوكل**] :

وأبلغُ ما قرأت عن هذه الجرأة والتضحية: أن الأديب العالم المعروف بابن السكّيت، كان يوماً في مجلس المتوكل المبغض المعلن بالعداء للإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقال لابن السكّيت: هل ولداي المعتز والمؤيد أحب إليك أم الحسن والحسين؟ فقال له: إنّ قنبراً خادم عليّ بن أبي طالب خير منك ومن ولديك. فأمر المتوكل بسل لسانه من قفاه فسلّ، ومات في ساعته، وابن السكّيت هذا هو القائل:

يصاب الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يصاب المرء من عثرة الرجل

فعثرته في القول تودي برأسه ... وعثرته في الرجل تبرأ على مهل

وهكذا تفعل العقيدة بصاحبها: لا يقف في وجهها حاجز إذا بلغت أشدّها، قال (غوستاف لوبون): هؤلاء قليلون، ولو كثروا لقلبوا العالم.

* * *

أقول: الأمر بالمعروف هداية ورحمة، ونصيحة ومحبّة، ولذا كان من خُلق الله وأنبيائه وأوليائه.

ولا شك أن الأمر بالمعروف جائز حتّى ولو أدّى إلى القتل بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.[1] حيث دلّت الآية على أنّ مَن قُتل من أجل الأمر بالمعروف فهو على سبيل النبيين، ولكن هل يجب الأمر بالمعروف مطلقاً حتّى مع خوف الضرر، أو ينتفي الوجوب مع هذا الخوف؟ قال أكثر الفقهاء: لا يجب مع الخوف على النفس أو المال والأهل. وقال آخرون: يجب على كل حال وبلا شرط. غير أنّ حكم الأمر بالمعروف يختلف باختلاف الموارد، فإن كان الأمر بالمعروف من أجل سلامة الدين أو الوطن على وجه العموم، وجب بلا قيد؛ لأنه في مثل هذه الحال يكون من الجهاد الواجب وإلاّ فلا يجب مع خوف الضرر، كالنهي عن أكل الميتة، وشرب المتنجّس.

أما قول الإمام عليه السلام: «وإنهما لا يقرّبان من أجل، ولا ينقصان من رزق» فهو تعريض بمن شايع الطغاة، ويسكن عن حكّام الجور رغبة في منفعة، أو خوفاً من مضرّة، وفي الحديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر».[2]

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء، وفيه نظم معاش هذه الأمّة ومدادها، وهو الرادع عن الظلم والبغي والهرج والمرج، وأكل مال الناس، إذا قاموا به، وهو من أهمّ الواجبات شرعاً وعقلاً، وأساس من أسس دين الإسلام، وهو من أفضل العبادات

---

(١) آل عمران: ٢١.

(٢) كنز العمال٣: ٦٤/ ح ٥٥١١.

وأنبل الطاعات، وباب من أبواب الجهاد، والدعوة إلى الحق والدعاية إلى الهدى، ومقاومة الضلال والباطل، وهو الذي ما تركه قوم إلاّ وضربهم الله بالذل وألبسهم لباس البأس، وجعلهم فريسة لكل غاشم وطعمة لكل ظالم، وهو الميزة بين المؤمن والمنافق؛ لأنّ من علامة المؤمن أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن علامة المنافق أن يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف.

[مفاسد ترك هذه الشعيرة]:

ولذا ورد التحذير في تركه وبيان المفاسد والمضار في إهماله، من صاحب الشريعة الإسلامية والأئمّة المعصومين عليهم السلام ما يقصم الظهور ويقطع الأعناق.

وهذه المحاذير التي أنذرونا بها عند التواكل والتخاذل في شأن هذا الواجب، قد أصبحنا نراها عياناً ولا نحتاج عليها دليلاً ولا برهاناً، ويا ليت الأمر وقف عند تركه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتجاوزه إلى أن يصير المنكر معروفاً والمعروف منكراً، ويصير الآمر بالمعروف تاركاً له والناهي عن المنكر عاملاً به.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفائي من فروض الإسلام إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثم كل من يتمكن منه بلا عذر ولا خوف، ويتعين إذا كان في موضع لا يعلم به إلاّ هو، أو لا يتمكن من إزالته إلاّ هو، كمن يرى زوجه أو غلامه أو ولده على منكر أو تقصير في المعروف، فإنه يتعين عليه تغيير ما هم عليه من منكر، وحملهم على ما قصروا فيه من المعروف.

وهذا مما تهاون الناس فيه تهاوناً فاضحاً في هذا العصر، مع أنه ميسور لكل ذي ولاية على من ولاّه الله أمرهم واسترعاه عليهم، كالأب بالنسبة لأولاده، والزوج مع زوجه، ولو أن كل ذي ولاية من المسلمين قام بهذا الواجب في دائرته ومحيطه، وفيمن ولاّه الله أمرهم، لما رأينا هذه المنكرات التي استشرى خطرها في أرجاء البلاد فهدّد الكيان الخلقي بنكبة عظيمة.

ولا يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن المكلف لمجرد توهّمه أو ظنه أنه لا يفيد؛ بل يجب عليه فعله فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وليكون معذرة له بين يدي ربه ينجو بها من تبعة التقصير، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1].

وقد أمر النبي ﷺ أن يدعو الناس جميعاً إلى الإسلام، وأن ينذرهم بعقاب الله، مع أن منهم فريقاً أخبره الله تعالى أنهم لا يؤمنون، وأن الله تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، ومع ذلك لم يترك دعوتهم وإنذارهم، فأولى أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر حتّى من توهمنا أو ظننا أنه لا يستمع، لعلَّه يتذكر على مرّ الأيام بتكرار الدعوة؛ بل إنّ ذلك التكرار كثيراً ما يقهر سورة الكبرياء والعناد في نفوس المتكبرين والمعاندين، ويفتح أمام بصائرهم مسالك الهداية، ولذلك نرى جميع دعوات الأنبياء تعتمد التكرار في الدعوة من أعظم وسائل الإقناع والهداية، وقلّدهم في ذلك جميع الدعاة إلى المذاهب الإجتماعية، على بعد ما بين دعواتهم ودعوة الأنبياء عليهم السلام في نيل المقاصد وسمّو الغايات.

---

(١) الأعراف: ١٦٤.

ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات؛ بل ذلك ثابت لآحاد المسلمين، والدليل على ذلك اجماع المسلمين، فإنّ غير الولاة في الصدر الأوّل والعصر الذي يليه كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر مع تقرير المسلمين إيّاهم، وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير ولاية.

[شروط القيام بهذه الفريضة]:

ويجب ألا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، إلاّ من كان عالماً بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة أو الصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالإجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه، وليس لهم إنكاره؛ بل ذلك موكول للعلماء، وواجب العلماء أن لا ينكروا ما انعقد عليه الإجماع إلاّ ما وقع فيه الخلاف بين أئمّة المسلمين.

وعلى من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون قوياً في أمره ونهيه، فلا يصده عن القيام بهذا الواجب الديني العظيم الذي هو لباب الدين، وسرٌّ دعوة الأنبياء والمرسلين، وأعظم باب من أبواب النصح للمسلمين، لا يصده منه جبروت الجبابرة، ولا إيذاء أعداء الله، فقد وعد الله بنصر من نصره، وإعزاز من أعزّه، فقال تعالى شأنه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾[1] وقال: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.[2]

---

(١) الحج: ٤٠.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

وقد أضاع المسلمون هذا الواجب حتّى كثر الخبث وعم الفسق والفجور، وأصبحوا جميعاً بسبيل عقاب الله، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم.

ومن هذا يظهر معنى الحديث الشريف المروي عن أبي سعيد: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».(١)

قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: «أيها المؤمنون إنه من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى إليه، فأنكره بقلبه فقد سلم، ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين هي السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق، ونوّر في قلبه اليقين».(٢)

وقال في موضع آخر: «[أيها الناس] من أمر بالمعروف شدّ ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغَمَ أنوف المنافقين، ومن صدق في الموطن قضى ما عليه، ومن شَنِئَ الفاسقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة».(٣)

[نماذج وقصص من النهي عن المنكر]:

دخل عمر بن عبد العزيز على سليمان بن عبد الملك الأموي، وعنده أيّوب ابنه، وهو يومئذٍ وليّ عهده قد عقد له من بعده، فجاء إنسان

(١) مسند أحمد٣: ٢٠.

(٢) نهج البلاغة ٤: ٨٩.

(٣) نهج البلاغة ٤: ٨، وما بين المعقوفتين ليست في المصدر.

يطلب ميراثاً من بعض نساء الخلفاء، فقال سليمان مُعتلاً عليه: ما أخال النساء يرثن في العقار شيئاً، فالتفت إليه عمر بن عبد العزيز وقال: سبحان الله إذاً أين كتاب الله، فقال سليمان: يا غلام اذهب فأتني بسجلّ عبد الملك الذي كتب في ذلك، فقال عمر: عجباً منك أيها الرجل لكأنك أرسلت إلى المصحف، فقال أيّوب بن سليمان: والله ليوشكن الرجل يتكلّم بمثل هذا عند أمير المؤمنين فلا يشعر حتّى يفارقه رأسه، فقال عمر: نعم إذا أفضى الأمر إليك وإلى أمثالك كان ما يدخل على الإسلام أشدّ مما يخشى عليكم من هذا القول، ثمّ قام وخرج. فهذا في الحقيقة صدق في الموطن، وقيام بالحق، ومكافحة للباطل، مع عدم مبالاته من السطوة، وإلقاء النفس إلى التلف والتهلكة.[1]

وكان عنده ذات يوم وقد جيء بحروري فأوقف بين يدي سليمان، فقال له سليمان: ما تقول في الحجاج؟ قال الحروري: وما عسيت أن أقول فيه، هل هو إلاّ خطيئة من خطاياك، وشرر من نارك فلعنك الله ولعن الحجاج معك، وأقبل يشتمهما، فالتفت سليمان إلى عمر فقال: ما تقول يا بن عبد العزيز في هذا الرجل؟ قال: ما أقول فيه هذا رجل يشتمكم فاشتموه كما شتمكم، أو أن تعفو فهو خير لكم والله أولى بالعفو، فغضب سليمان وقال: ما أظنّك إلاّ خارجياً، فقال عمر: وما أظنك إلاّ مجنوناً، الله تعالى يقول: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[2] ثمّ خرج.[3]

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٤٤.

(٢) البقرة: ١٩٤.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٤٤.

ولمّا خالط الزهري السلطان كتب أخ له في الدين إليه، عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو الله لك ويرحمك، أصبحت شيخاً كبيراً، وقد أثقلتك نعم الله عليك بما فهمّك من كتابه وعلّمك من سنة نبيّه، وليس كذلك أخذ الله على العلماء، فإنّه تعالى قال ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾.(١)

واعلم أنّ أيسر ما ارتكبتَ وأخف ما احتملت، أنك آنستَ وحشة الظالم، وسهّلت سبيل الغي بدنوّك إلى من لم يؤدّ حقاً، ولم يترك باطلاً حين أدناك.

اتخذوك أبا بكر قطباً تدور عليه رحى ظلمهم، وجسراً يعبرون عليه إلى بلائهم ومعاصيهم، وسلّماً يصعدون فيه إلى ضلالتهم، يُدخلون بك الشكّ على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمّروا لك في جنب ما خرّبوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا من حالك ودينك، وما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.(٢)

يا أبا بكر، إنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداوِ دينك فقد دخله سقم، وهيّئ زادك فقد حضرك سفر بعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء.(٣)

---

(١) آل عمران: ١٨٧.

(٢) مريم: ٥٩.

(٣) أنظر: شرح نهج البلاغة ١٧: ٤٤.

[المنصور العباسي ونصيحة أحدهم]:

وقيل: إن المنصور الدوانيقي العبّاسي بينما كان يطوف ليلاً بالبيت، وقد هدأت الأصوات ونامت العيون إذ سمع قائلاً يقول: اللهم إليك أشكو ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع، فخرج المنصور وجلس ناحية من المسجد وأرسل إلى الرجل يدعوه، فصلّى الرجل ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول، فسلّم على المنصور بالخلافة، فقال له: ما الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع، فو الله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني.

فقال: يا أمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها، وإلاّ احتجزت منك، واقتصرت على نفسي فلي فيها شاغل. قال له: أنت آمن على نفسك فقل.

فقال: إنّ الذي دخله الطمع حتّى حال بينه وبين إصلاح ما ظهر من البغي والفساد لأنت، قال: ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي، والحلو والحامض عندي؟ قال: وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك، إنّ الله تعالى استرعاك على المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجباً من الجصّ والآجر، وأبواباً من الحديد، وحجبة معهم السلاح، ثمّ سجَنتَ نفسك فيها منهم، وبعثت عمّالك في جباية الأموال وجمعها، فقويتهم بالسلاح والرجال والكراع، وأمرت بأن لا يدخل عليك إلاّ فلان وفلان نفر سمّيتهم واستخلصتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم الملهوف ولا الجايع والفقير، ولا العاري والضعيف، ولا أحد ممن له في هذا المال حق، فما

زال هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، وأمرتهم أن لا يُحجبوا عنك يجبون الأموال ويجمعونها ويحجبونها، وقالوا: هذا رجل قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد سُخِّر لنا ذلك، فائتمروا على أن لا يصل إليك من أخبار الناس شيء إلاّ ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلاّ بَغَّضوه عندك، وبَغوه الغوائل حتّى تسقط منزلته ويصغر قدره، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم، وكان أوّل مَن صانعهم عمالك بالهدايا والأموال لِيَقروا بها على ظلم رعيتك.

ثمّ فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيّتك لينالوا به ظلم مَن دونهم، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركائك في سلطنتك، وأنت غافل، فإن جاء متظلّم حيل بينه وبين دخولِ دارك، وإن أراد رفع قصّته إليك عند ظهورك وجدك وقد نهيت عن ذلك، وأوقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء المتظلّم إليه أرسل إلى صاحب المظالم أن لا يرفع إليك قصّته، ولا يكشف لك حاله، فيجيبه خوفاً منك، فلا يزال المظلوم يختلف نحوه ويلوذ به ويستغيث إليه وهو يدفعه ويعتلّ عليه، وإذا جَهِدَ وأخرج وظهرت أنت لبعض شأنك صرخ بين يديك فيضرب ضرباً مُبرحاً ليكون نكالاً لغيره وأنت تنظر ولا تُنكر، فما بقاء الإسلام على هذا.

ولقد كنت أيام شبيبتي أسافر إلى الصين، فقدمتها مرّة وقد أصيب ملكها بسمعه، فبكى بكاءاً شديداً فحداهُ جلساؤه على الصبر، فقال: أما إني لست أبكي للبليّة النازلة، ولكني أبكي للمظلوم بالباب يصرخ فلا أسمع صوته، ثمّ قال: أما إذا ذهب سمعي فإنّ بصري لم يذهب، نادوا

في الناس أن لا يلبس ثوباً أحمراً إلاّ مظلوم، ثمّ كان يركب الفيل طرفي نهاره ويدور بالشوارع والأزقة ينظر هل يرى مظلوماً.

فهذا مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين على شحّ نفسه، وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيّه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شحّ نفسك.

فإن كنت تقول: إنما تجمع المال لولدك، فقد أراك الله تعالى عِبراً في الطفل، يسقط من بطن أمّه ما له على الأرض مال، وما من مال يومئذٍ إلاّ ودونه يدُ شحيحة تحويه، فلا يزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتّى تعظم رغبة الناس إليه، ولست بالذي تُعطي ولكن الله تعالى يعطي من يشاء ما يشاء.

وإن كنت تقول: إنما أجمع المال لتشييد السلطان فقد أراك الله تعالى عِبراً في بني أميّة ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة، وأعدّوا من الرجال والسلاح والكِراع حين أراد الله تعالى بهم ما أراد.

وإذا قلت: إنما أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنا فيها، فو الله ما فوق ما أنت فيه إلاّ منزلة لا تدرك إلاّ بخلاف ما أنت عليه.

أنظر يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك بأشدّ من القتل؟ قال: لا، قال: فإنّ الملك الذي خَوّلَك ما خَوّلَك لا يعاقب من عصاه بالقتل بل بالخلود في العذاب الأليم، وقد رأى ما قد عقدت عليه قلبك وعملته جوارحك، ونظر إليه بصرك واجترحته يداك، ومشت إليه رجلاك.

وانظر يا أمير هل يغني عنك ما شحت عليه من أمر الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب على ما منحك. فقال المنصور: ليتني لم أخلق، ويحك كيف أحتال لنفسي؟ قال: إنّ للناس أعلاماً يفزعون إليهم في دينهم ويرضون بقولهم، فاجعلهم بطانتك يرشدوك،

وشاورهم في أمرك يسدّدوك. قال: قد والله بعثت إليهم فهربوا مني، قال: نعم خافوا أن تحملهم على طريقك، ولكن افتح بابك وسهّل حجابك، وانظر المظلوم واقمع الظالم، وخذ الفيءَ والصدقات ممّا حلّ وطاب، واقسمه بالحق والعدل على أهله، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويسعدوك على إصلاح الأمّة، وجاء المؤذّنون فسلّموا عليه ونادوا بالصلاة فقام وصلّى وعاد إلى مجلسه فطلب الرجل فلم يوجد.(١)

[هارون وبهلول]:

إنّ هارون الرشيد لما انصرف من الحج سمع منادياً في الطريق يناديه ثلاثاً بأعلى صوته: يا هارون يا هارون، فقال: مَن المنادي؟ قيل: هو بهلول المجنون، قال: عليَّ به، فلما أوقف بين يديه قال له: أتعرفني مَن أنا؟ قال: نعم أنت الذي لو ظُلم أحد في المشرق وأنت في المغرب لسألك الله تعالى عنه يوم القيامة، قال الرشيد: يا بهلول ألك حاجة أقضها لك؟ قال: نعم، قال: وما هي؟ قال: حاجتي أن تغفر لي ذنوبي وتدخلني الجنّة، فقال الرشيد: ليس هذا بيدي ولكن أقضي لك دينك، قال: يا هارون الدين لا يقضى بالدين أدِّ حقوق الناس إليهم، قال: نأمر لك برزق يأتيك إلى دارك إلى أن تموت، قال: يا هارون نحن عبدان لله تعالى، أيذكرك وينساني؟(٢)

وأتى يوماً إلى قصر الرشيد، فرأى المسند والمتكأ الذي هو مكان الرشيد ولم ير الرشيد، فجلس في مكانه لحظة فرآه الخدمة الخاصة فضربوه وسحبوه

---

(١) عيون الأخبار ٢: ٣٣٣؛ عنه: شرح نهج البلاغة ١٨: ١٤٧.

(٢) شجرة طوبى ١: ٥٠.

عن مكان الخليفة وأخرجوه خارج القصر، فجلس على باب القصر يبكي، فلما خرج هارون رآه يبكي، فسأل الخدم عن حاله؟ فقالوا: جلس في مكانك فضربناه وسحبناه، فزجرهم ونهرهم وأقبل إليه، قال له: يا بهلول لا تبكي، فقال: والله يا هارون ما أبكي على حالي ولكن أبكي على حالك، أنا جلست في مكانك هذا لحظة واحدة فحصل لي من الضرب والزجر والسحب ما قد ترى، فكيف بك وأنت جالس في هذا المكان طول عمرك وهو مكان غيرك فكيف يكون حالك يوم القيامة؟

ودخل عليه يوماً وهو يتنزّه في بعض عماراته الجديدة، فسأله الرشيد أن يكتب عليها شيئاً، فأخذ بهلول فحمة وكتب بها على بعض الجدران يا هارون رفعت الطين ووضعت الدين، رفعت الجُص ووضعت النص، فإن كان هذا من مالك فقد أسرفت والله لا يحبّ المسرفين، وإن كان من مال غيرك فقد ظلمت والله لا يحبّ الظالمين.(١)

وليعجب الإنسان وهو موضع العجب والغرابة، إلى أحوال هؤلاء الطغاة الجبابرة، ومعاملتهم مع الناس بالقسوة والغلظة والعنف، وليعطف بنظره إلى حال أمير المؤمنين عليه السلام وسيرته بالرحمة والحنان والعطف والشفقة مع الناس. والذي كان يقول:

«وَاللَّهِ لأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً أَوْ أُجَرَّ فِي الأَغْلالِ مُصَفَّداً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ»(٢) فمدة حياته ما صرخ مظلوم ويتيم على باب

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نهج البلاغة ٢: ٢١٦.

داره، كان يتفقدهم طول ليله وهو يقول: «أأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأنْ يُقَالَ: هَذَا أمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ أوْ أكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ».(١)

* * *

[عليّ عليه السلام وعنايته بالأيتام]:

ذكر ابن شهر آشوب في (المناقب):(٢)

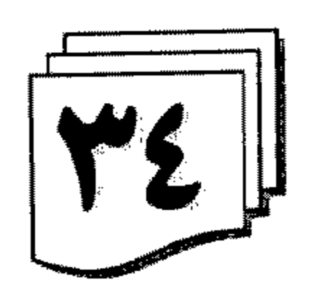
إنه عليه السلام خرج ذات ليلة. فنظر إلى امرأة مستترة بظلام الليل وعلى كتفها قربة من الماء، فأخذ منها القربة وحملها معها، وسألها عن حالها؟ فقالت: يا هذا بعث عليّ بن أبي طالب صاحبي إلى بعض الثغور فقُتل هناك، وترك عليَّ صبياناً يتامى وليس عندي شيء، وقد ألجأتني الضرورة إلى خدمة الناس، فانصرف عنها بعد أن أوصلها إلى منزلها وأقبل إلى منزله، وبات ليلته قلقاً باكياً، فلما أصبح حمل زنبيلاً فيه طعام، فقال له بعض أصحابه: اعطني أحمله عنك يا أمير المؤمنين، فقال عليه السلام: «أتحمل وزري يوم القيامة؟»، فاقبل عليه السلام وقرع باب المرأة، فقالت: من هذا؟ قال: «أنا ذلك العبد الذي حمل معك القربة، افتحي الباب إن معي شيئاً للأطفال»، ففتحت الباب وهي تقول: رضي الله عنك يا هذا وحكم بيني وبين عليّ بن أبي طالب، فلما دخل قال لها: «أمة الله إني أحببت اكتساب الثواب فاختاري بين أن تعجني وتخبزي وبين أن تعللي الأطفال لأخبز أنا»، فقالت: أنا بالعجين أبصر وعليه أقدر، ولكن شأنك الأطفال فعللهم حتّى أفرغ من الخبز، ثمّ عمدت إلى الدقيق فعجنته، وعمد هو عليه السلام إلى اللحم

(١) نهج البلاغة ٣: ٧٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٣٨٢.

فطبخه، فلما نضج جعل يلقّم الصبيان من اللحم والتمر وغيره، وكلما ناول الصبيَ من ذلك شيئاً قال له: يا بني اجعل عليَّ بن أبي طالب في حِلٍّ ممّا مرّ من أمرك، فلما اختمر العجين قالت: يا عبد الله قم واسجر التنّور، فبادر عليه السلام لسجره، فلما أشعله لفح في وجهه وهو يقول: «ذق يا عليَّ بن أبي طالب هذا جزاء من ضيّع الأرامل واليتامى»، فرأته امرأة من جيرانها أشرفت عليه من السطح فعرفته، فقالت: ويحك من هذا الذي يسجر لك التنّور؟ فقالت: والله لا أعرفه إلاّ أنه رجل أصابته الشفقة والرقة علينا، فقالت: ويحك سوّد الله وجهك هذا والله عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين، فبادرت إليه لما سمعت وهي تقول: وا حيائي منك يا أمير المؤمنين، فقال لها: «بل وا حيائي منك يا أمة الله فيما قصّرت في أمرك».

* * *



قوله عليه السلام:

أيُّهَا النَّاسُ إيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُوم إلاّ مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أوْ بَحْرٍ فَإنَّهَا تَدْعُو إلَى الْكَهَانَةِ وَالْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ.

(نهج البلاغة ١: ١٢٩)

[التنجيم والكهانة في المنظور الإسلامي]

هذا الكلام قاله عند ما أراد المسير إلى الخوارج، قال له بعض أصحابه: إن سرتَ يا أمير المؤمنين في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم، فقال عليه السلام:

«أَتَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهَذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ وَاسْتَغْنَى عَنِ الاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ فِي نَيْلِ الْمَحْبُوبِ وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ وَتَبْتَغِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ لأَنَّكَ بِزَعْمِكَ أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ وَأَمِنَ الضُّرَّ».

ثمّ أقبل عليه السلام على الناس فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ إِلاَّ مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكَهَانَةِ وَالْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ».[1]

ضبط الألفاظ اللغوية:

حاق به الضر: أي أحاط به، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[2] يوليك الحمد مضارع أولاك، وأولاك معدّى بالهمزة من ولي يقال ولي الشيء ولاية وأوليته ذلك، أي جعلته والياً ومتسلّطاً عليه،

---

(١) شرح نهج البلاغة ٦: ١٩٩.

(٢) فاطر: ٤٣.

والكاهن واحد الكهّان وهم الذين كانوا يخبرون من الشياطين بكثير من الغائبات.[1]

* * *

[**البحث الكلامي في علم النجوم**]:

قال ابن أبي الحديد في المجلد الثاني من شرح النهج (ص ٧١ ط ١ مصر):

واعلم أن الناس قد اختلفوا في أحكام النجوم، فأنكرها جمهور المسلمين والمحققون من الحكماء، ونحن نتكلم ههنا في ذلك، ونبحث فيه بحثين: بحثاً كلامياً، وبحثا حكمياً:

أما البحث الكلامي: هو أن يقال: إمّا أن يذهب المنجّمون إلى أن النجوم مؤثرة، أو إمارات، والوجه الأوّل ينقسم قسمين: أحدهما: أن يقال إنها تفعل بالإختيار، الثاني: أن تفعل بالإيجاب، والقول بأنها تفعل بالإختيار باطل؛ لأن المختار لا بدّ أن يكون قادراً حياً، والاجماع من المسلمين حاصل على أن الكواكب ليست حية ولا قادرة، والإجماع حجة، وقد بيّن المتكلمون أيضاً أنّ من شرط الحياة الرطوبة، وأن تكون الحرارة على قدر مخصوص، متى أفرطت امتنع حلول الحياة في ذلك الجسم، فإنّ النار على صرافتها يستحيل أن تكون حية، وأن تحلها الحياة لعدم الرطوبة وإفراط الحرارة فيها واليبس والشمس أشد حرارة من النار؛ لأنها على بعدها تؤثّر ما تؤثّره النار على قربها، وذلك دليل على أنّ حرارتها أضعاف حرارة النار.

---

(١) شرح نهج البلاغة ٦: ٢٠٠.

وبينوا أيضاً أنها لو كانت حية قادرة لم يجز أن تفعل في غيرها ابتداء؛ لأن القادر بقدرة لا يصح منه الإختراع وإنما يفعل في غيره على سبيل التوليد، ولا بدّ من وصلة بين الفاعل والمفعول فيه، والكواكب غير ماسة لنا فلا وصلة بينها وبيننا فيستحيل أن تكون فاعلة فينا، فإن ادعى مدّعٍ أنّ الوصلة هي الهواء، فعن ذلك أجوبة:

أحدها: أن الهواء لا يجوز أن يكون وصلة وآلة في الحركات الشديدة، وحمل الأثقال لاسيّما إذا لم يتموّج.

والثاني: إنه كان يجب أن نحسّ بذلك، ونعلم أن الهواء يحرّكنا ويصرّفنا بآلة موضع تحريكه لنا بتلك الآلة.

والثالث: إن في الأفعال الحادثة فينا ما لا يجوز أن يفعل بآلة ولا يتولد عن سبب، كالإرادات والاعتقادات ونحوها.

وقد دلّ أصحابنا أيضاً على إبطال كون الكواكب فاعلة للأفعال فينا، بأن ذلك يقتضي سقوط الأمر والنهي، والمدح والذم، ويلزمهم ما يلزم المجبرّة، وهذا الوجه يبطل كون الكواكب فاعلة فينا بالإيجاب، كما يبطل كونها فاعلة بالاختيار، وأما القول بأنها إمارات على ما يحدث ويتجدّد فيمكن أن ينظر بأن يقال: لم لا يجوز أن يكون الله تعالى أجرى العادة بأن يفعل أفعالاً مخصوصة عند طلوع كوكب أو غروبه، أو اتصاله بكوكب آخر؟

والكلام على ذلك بأن يقال: هذا غير ممتنع لو ثبت سمع مقطوع به يقتضي ذلك، فإن هذا مما لا يعلم بالعقل.

فإن قالوا: نعلم بالتجربة.

قيل لهم: التجربة إنما تكون حجة إذا استمرت واطّردت، وأنتم خطؤكم فيما تحكمون به أكثر من صوابكم، فهلاّ نسبتم الصواب الذي

يقع منكم إلى الإتفاق والتخمين، فقد رأينا من أصحاب الرزق والتخمين من يصيب أكثر مما يصيب المنجم، وهو من غير أصل صحيح ولا قاعدة معتمدة، ومتى قلتم: إنما أخطأ المنجم لغلطه في تسيير الكواكب، قيل لكم: ولم لا يكون سبب الإصابة الإتفاق، وإنما يصح لكم هذا التأويل والتخريج لو كان على صحة أحكام النجوم دليل قاطع هو غير إصابة المنجم...

راجع بقية الموضوع في المجلد الثاني من شرح النهج (ص ٧٢).

* * *

وقال ابن ميثم بعد كلام طويل:

... فنقول: أما قوله عليه السلام: «فإنّها تدعو إلى الكهانة»، أي إنها تدعو المنجّم في آخر أمره إلى أن يصيّر نفسه كالكاهن في دعوى الإخبار عما سيكون، ثمّ أكّد عليه السلام كونها داعية إلى التمكين بتشبيهه بالكاهن.

واعلم أن الكاهن يتميّز عن المنجّم بكون ما يخبر به من الأمور الكاينة إنما هو عن قوّة نفسانية له، وظاهر أن ذلك أدعى إلى فساد أذهان الخلق وإغوائهم، لزيادة اعتقادهم فيه على المنجم، وأما الساحر فيتميز عن الكاهن بأنّ له قوة على التأثير في أمر خارج عن بدنه، آثاراً خارجة عن الشريعة مؤذية للخلق، كالتفريق بين الزوجين ونحوه، وتلك زيادة شر آخر على الكاهن، أدعى إلى فساد أذهان الناس، وزيادة اعتقادهم فيه وانفعالهم عنه خوفاً ورغبة. وأما الكافر فيتميز عن الساحر بالبعد الأكبر عن الله تعالى وعن دينه، وإن شاركه في أصل الإنحراف عن سبيل الله، وحينئذٍ صار الضلال والفساد في الأرض مشتركاً بين الأربعة،

إلاّ أنّه مقول عليهم بالأشدّ والأضعف، فالكاهن أقوى في ذلك من المنجم، والساحر أقوى من الكاهن، والكافر أقوى من الساحر، ولذلك التفاوت جعل عليه السلام الكاهن أصلاً في التشبيه للمنجّم لزيادة فساده عليه، ثمّ ألحقه به وجعل الساحِر أصلاً للكاهن، والكافر أصلاً للساحر؛ لأنّ التشبيه يستدعي كون المشبّه به أقوى في الوصف الذي فيه التشبيه وأحق به، وقد لاح من ذلك أنّ وجه الشبه في الكل هو ما يشتركون فيه من العدول والإنحراف عن طريق الله بالتنجيم والكهانة والسحر والكفر وما يلزم من ذلك من صدّ كثير من الخلق عن سبيل الله، وإن اختلفت جهات هذا العدول بالشدة والضعف.

ولما فرغ عليه السلام من تنفير أصحابه عن تعلّم النُجوم وقبول أحكامها، وغسل أذهانهم من ذلك بالتخويف المذكور، أمرهم بالمسير إلى الحرب، وروي أنه سار في تلك الساعة إلى الخوارج، وكان منه ما علمت من الظفر بهم وقتلهم حتّى لم يفلت منهم غير تسعة نفر، ولم يهلك من رجاله غير ثمانية نفر، وذلك يستلزم خطأ ذلك المنجّم وتكذيبه في مقاله، وبالله التوفيق.[١]

* * *

وقال ابن مغنية في المجلد الأوّل في (في ظِلال نهج البلاغة):

حين عزم الإمام عليه السلام على المسير إلى تأديب الخوارج، قال له بعض أصحابه: إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم. فقال عليه السلام: «تزعم أنك تهدي إلى الساعة... إلى حاق به الضرر».

---

(١) شرح نهج البلاغة/ابن ميثم ١: ٣٦٢.

الإسلام إيمان بالله، وبالعلم والعمل لحياة أفضل، وبالقيم التي لا ينكر شيئاً منها عاقل على وجه الأرض، من حيث هي قيم ومثل عليا، ومن البداهة ـ وهذه هي حقيقة الإسلام ـ أن يرفض الكهانة ولا يقبلها بحال، كيف والإسلام يدعو إلى تحرير الإنسان من الأغلال، والعقل من الأوهام، ويأمر باتباع العقل والعلم! ولو أقرّ الإسلام الكهانة والخرافة لم يكن له تاريخ ولا حضارة، ولا أتباع يعدون بمئآت الملايين في شرق الأرض وغربها.

«فمن صدّق بهذا فقد كذّب القرآن».

لأنه يربط الأحداث بأسبابها، والنتائج بمقدماتها طبيعية كانت أم اجتماعية، وقد صرّح القرآن بهذا في العديد من الآيات منها: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾،[١] ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.[٢] فهذا المبدأ إلهي كوني لا يقبل التبديل والتعديل. ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾.[٣]

ومعنى هذا أن كل شيء يأتي وفقاً لقوانين مطرّدة، ومعناه أيضاً أن القرآن يقرّ مبدأ التطوّر. قال الإمام الصادق عليه السلام: «أبى الله إلاّ أن يجري الأمور على أسبابها».

وحثّ الإسلام على طلب العلم بهذه الأسباب ولو في الصين، وأمر بالرجوع إلى العلماء فيما يعود إلى اختصاصهم، ومن جملة ما قرأت: أنّ سائلاً قال لبعض الشيوخ: هل في القرآن آية تشير إلى عدد

---

(١) الفرقان: ٢.

(٢) القمر: ٤٩.

(٣) الأحزاب: ٦٢.

الأرغفة التي تُخبَز من كيس الطحين؟ فقال له الشيخ: نعم، واتصل تلفونياً بمدير المخابز وسأله عن ذلك فأعطاه، فقال السائل: ولكن هذا ليس من القرآن، وردّ الشيخ: ألم تقرأ: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[1] وقد فعلت.

«واستغنى عن الإستعانة بالله».

الذي ربط الأحداث بأسبابها الطبيعيّة، وجعل من العمل والجهاد والعزم والتوكل عليه تعالى سبباً ضرورياً وفي نيل المحبوب ودفع المكروه، قال سبحانه: ﴿فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾.[2] لا على أقوال المنجّمين.

«وتبغي من قولك... إلى أمِنَ الضر».

أي إنك تُحب أن تحمُد من دون الله بما لا أثر لك فيه إلاّ الكذب والرياء «أيها الناس، إيّاكم وتعلّم النجوم إلاّ ما يهتدي به في برّ أو بحر». كل ما ينفع الناس بجهة من الجهات فهو علم وعقل ودين وسياسة حقة، سواء أطلقنا عليه كلمة فلك، أم جبر وهندسة، أم ميكانيك، وبعلم الكواكب تعرف الجهات، ويهتدى إلى مسالك البراري والبحار، قال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[3] وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[4] وإذا كان الغرض من هذه الآيات بيان الشواهد على القدرة الإلهية فإنها تتضمن أيضاً الحث على طلب العلم بالنجوم؛ لأن الإنسان كلما ازداد علماً بخلق الله ازداد إيماناً وتسليماً به وبعظمته.

---

(١) النحل: ٤٣.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) النحل: ١٦.

(٤) الأنعام: ٩٧.

«فإنّها تدعو إلى الكهانة».

الهاء في (إنها) تعود إلى حركات النجوم وآثارها التي يخبر بها المنجم رجماً بالغيب، وهذا الرجم والزعم هو الكهانة بالذات. «والمنجم كالكاهن» في أباطيله وأكاذيبه؛ لأن علم الغيب لله وحده، «والكاهن كالساحر» في شعوذته وشيطنته، «والساحر كالكافر»، جاء في كتاب الوسائل للحر العاملي: إن الإمام الصادق عليه السلام روى عن جده صلى الله عليه وآله: «من مشى إلى ساحر أو كاهن أو كذّاب يصدّقه فقد كفر بما أنزل الله». وفي رواية ثانية: «ساحر المسلمين يُقتل، وساحر الكفار لا يقتل».

«والكافر في النار».

سواء أكفر نظرياً وعملياً، أم عملياً فقط، قال الشيخ محمّد عبده: كلام أمير المؤمنين عليه السلام حجة حاسمة لخيالات المعتقدين بالرمل والجفر والتنجيم وما شاكلها، ودليل واضح على عدم صحتها ومنافاتها للأصول الشرعية والعقلية.

«سيروا على اسم الله».

إلى حرب الخوارج، ولا تعبأوا بأقوال المنجمين، وكانت الغلبة للإمام عليه السلام وأصحابه الذين ساروا للحرب في نفس الساعة التي نهى عنها المنجم.

* * *

وقال ميرزا حبيب الله الخوئي في (منهاج البراعة) في المجلد الخامس (ص ٢٥٨):

... اعلم أن هذا الكلام قاله عليه السلام: (لما عزم إلى المسير إلى) حرب

(الخوارج، فقال له بعض أصحابه): وهو عفيف بن قيس أخو الأشعث بن قيس الكندي الملعون رأس المنافقين، ومثير الفتن في أيام خلافة أمير المؤمنين عليه السلام ولاسيّما وقعة صفين.

وكيف كان، فقال له عفيف: (يا أمير المؤمنين إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك) الذي هو الغلبة على أهل النهر، (من طريق علم النجوم) قال له عليّ على سبيل الإستفهام التقريري: «أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء» لسعود الساعة «وتخوف من الساعة التي من سار فيها حاق به الضرّ»، وأحاط به سوء الحال بملاحظة نحوس الساعة، «فمن صدّقك بهذا فقد كذّب القرآن» أي من صدّقك بدعواك العلم بالساعتين فقد كذّب كتاب الله؛ لأن الله تعالى يقول:

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَا ذَا تَكْسِبُ غَداً﴾،[1] و﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ﴾،[2] ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾.[3]

إلى غير ذلك مما أفاد انحصار العلوم الغيبية في الله سبحانه.

* * *

وقال العلامة المجلسي رحمه الله:

ويمكن حمل الكلام على وجه آخر، وهو أنّ قول المنجم بأنّ صرف السوء ونزول الضرّ تابع للساعة سواء قال: إنّ الأوضاع العلويّة مؤثرة تامة في السفليّات، ولا يجوز تخلّف الآثار عنها، أو قال: بأنها مؤثرات ناقصة، ولكن باقي

(١) لقمان: ٣٤.

(٢) النمل: ٦٥.

(٣) الأنعام: ٥٩.

المؤثرات أمور لا يتطرق إليها التغيير، أو قال: بأنها علامات تدلّ على وقوع الحوادث حتماً فهو مخالف لما ثبت من الدين، من أنه سبحانه يمحو ما يشاء ويثبت، وأنّه يقبض ويبسط، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولم يفرغ من الأمر، وهو تعالى كل يوم في شأن.

والظاهر من أحوال المنجّمين السابقين وكلماتهم، جلّهم بل كلّهم أنّهم لا يقولون بالتخلّف وقوعاً أو إمكاناً، فيكون تصديقهم مخالفاً لتصديق القرآن وما عُلم من الدين والإيمان من هذا الوجه.

ولو كان منهم من يقول بجواز التخلف ووقوعه بقدرة الله، واختياره، وأنّه تزول نحوسة الساعة بالتوكل والدعاء والتوسّل والتصدّق، وينقلب السعد نحساً والنحس سعداً، وبأنّ الحوادث لا يعلم وقوعها إلاّ إذا علم أن الله سبحانه لم تتعلق حكمته بتبديل أحكامها، كان كلامه عَلَيْتَلِا مخصوصاً بمن لم يكن كذلك، فالمراد بقوله: «صرف عنه السوء وحاق به الضرّ»، أي حتماً هذا.

ولما نبّه على فساد زعم المنجم بكون تصديقه موجباً لتكذيب كلام الله سبحانه، نبّه على فساده ثانياً بقوله: «واستغنى» أي مصدّقك ومتبعك «عن الاستعانة بالله» تعالى «في نيل المحبوب ودفع المكروه» لأنك إذا كنت عارفاً بالساعة السعد والساعة النَحس، وهادياً إليهما فيهتدي بك التابعون لك والمصدّقون بك، ويتراقبون بعد الساعات، فينالون الخير والسّعادة ويتّقون نحسها، فيسلمون من النحوسة والكراهة، فيلزم على ذلك استغناؤهم بك عن الله، وغناهم برأيك عن اللجأ إلى الله والفزع إليه سبحانه.

(و) أيضاً «ينبغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربه، لأنك بزعمك أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع وآمن فيها

الضـر» فكنـت أنـت المـنعم عليـه بتلـك النعمـة، فـلا بـدّ أن تسـتحقّ الحمـد والثناء بذلك، ولزم أن يكون حمده على تلك النعمة راجعاً إليك.

(ثـمّ) إنّـه بعـد التنبيـه علـى فسـاد زعـم المـنجم بـالوجوه الثلاثـة «أقبـل علـى النـاس» ونهـاهم عـن الأخـذ بـالنجوم وحـذرهم عـن تعلمهـا فقـال: «أيهـا الناس إياكم وتعلّم النجوم».

* * *

[علة النهي عن تعلم النجوم]:

قال الشارح البحراني في (شرح نهج البلاغة):[1]

الذي يلوح من سرّ نهي الحكمة النبوية عن تعلّم النجوم أمران:

الأوّل: اشـتغال متعلمهـا بهـا، واعتقـاد كثيـر مـن الخلـق السـامعين لأحكامهـا فيمـا يرجـون ويخـافون عليـه فيمـا يسـنده إلـى الكواكـب والأوقـات والاشـتغال بـالفزع إليـه، وإلـى ملاحظـة الكواكـب عـن الفـزع إلـى الله، والغفلـة عـن الرجـوع إليـه فيمـا يهـتم مـن الأحـوال. وقـد علمـت أنّ ذلـك يضـاد مطلـوب الشـارح، إذ كـان غرضـه لـيس إلاّ دوام التفـات الخلـق إلـى الله، وتذكّرهم لمعبودهم بدوام حاجتهم إليه.

الثـاني: أنّ الأحكـام النجوميـة إخبـارات عـن أمـور سـتكون، وهـي تشـبه الإطلاع على الأمور الغيبية، وأكثر الخلق من العوام والنساء والصبيان لا يميّزون بينها وبين علم الغيب والإخبار به، فكان تعلّم تلك الأحكام والحكم بها سبباً لضـلال كثيـر مـن الخلـق وموهنـاً لاعتقـاداتهم فـي المعجـزات أو الإخبـار عـن الكائنات منها، وكذلك في عظمة بارئهم، ويشككهم في عموم الآيات الدالة

---

(١) ج ١: ٣٥٨.

على اختصاص علم الغيب بالله سبحانه، وكان هاذان الوجهان هما المقتضيان لتحريم الكهانة والسحر والعزائم ونحوهما.

وكيف كان، فلما نهى الناس عن تعلّم النجوم بالوجهين اللذين عرفت استثنى عن ذلك قوله عليه السلام: «إلاّ ما يهتدى به في برّ أو بحر» لعدم استلزام ذلك الجهتين المذكورتين، وقد نصّ على جواز الاهتداء بها الآيات الكريمة، مضافة إلى الأخبار الكثيرة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[٢].

قال الطبرسي: لأن من النجوم ما يكون بين يدي الإنسان، ومنها ما يكون خلفه، ومنها ما يكون عن يمينه، ومنها ما يكون عن يساره، ويهتدي بها في الأسفار وفي البلاد وفي القبلة، وأوقات الليل، وإلى الطرق في مسالك البراري والبحار، وقيل: أراد الاهتداء به في القبلة، قال ابن عبّاس: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عنه، فقال: الجدي علامة قبلتكم، وبه تهتدون في برّكم وبحركم.

أقول: هذه الرواية موافقة لما رواه الصدوق مرسلاً قال: قال رجل للصادق عليه السلام: أنا أكون في السفر ولا أهتدي إلى القبلة بالليل، قال: «أتعرف الكوكب الذي يقال له جدي؟» قلت: نعم، قال: «اجعله على يمينك، وإذا كنت في طريق الحجّ فاجعله بين كتفيك».

وروى أيضاً محمّد بن سنان عن أحدهما عليهما السلام قال: سألته عن القبلة، قال: «ضع الجدي في قفاك وصلّ». هذا ولا ينحصر جواز تعلمها فيما ذكر، بل ربّما

---

(١) الأنعام: ٩٧.

(٢) النحل: ١٦.

يجوز التعلّم لما يترتب عليها من الأحكام الشرعية المتعلقة بها في أبواب العبادات والمعاملات، بل قد يجب لوجوب الحكم المرتب عليها، فيجب معرفتها من باب المقدّمة، مثلاً لوجوب معرفة الأوقات الخمسة للصلاة، ومعرفة الحول المضروبة للزكاة، وإتيان الحج والعمرة في الأشهر المعلومات، وضبط عدد الحولين لرضاع الحاملات، وتعيين أيام العدة للمتوفى عنها زوجها، وللحامل وساير المطلقات، والعلم بما ضرب للدّين المؤجل من الأوقات، كما أشير إلى ذلك في غير واحدة من الآيات، قال تعالى:

﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.(٢)

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللهُ ذلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.(٣)

قوله عليه السلام: «فإنها تدعو إلى الكهانة» تعليل للنهي عن النجوم، والكهانة بالكسر.

قال في (البحار): هي عمل يوجب طاعة بعض الجان له بحيث يأتيه بالأخبار الغائبة، وهو قريب من السحر، قيل: قد كان في العرب كهنة كشق، وسطيح وغيرهما، فمنهم من زعم أنّ له تابعاً من الجن ورئياً يلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم أنّه يعرف الأمور بمقدّمات وأسباب يستدلّ بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا يخصّونه باسم العرّاف، كالذي يدّعي معرفة الشيء المسروق، ومكان الضالّة ونحوهما.

---

(١) الإسراء: ٧٨.

(٢) البقرة: ١٨٩.

(٣) يونس: ٥.

ودعوة علم النجوم إلى الكهانة إمّا لأنه ينجرّ أمر النجم إلى الرغبة في تعلّم الكهانة والتكسّب به أو ادعاء ما يدّعيه الكاهن، ثمّ إنّه شبّه المنجّم بالكاهن وقال: «المنجّم كالكاهن» ووجه الشبه إمّا الإشتراك في الإخبار عن الغائبات أو في الكذب والإخبار بالظن والتخمين والإسناد إلى الإمارات الضعيفة والمناسبات السخيفة، أو في العدول والإنحراف عن سبيل الحق والتمسّك، في نيل المطالب ودرك المآرب بأسباب خارجة عن حدود الشريعة، وصدّهم عن التوسّل إلى الله بالدعاء والصدقة وسائر أصناف الطاعة، أو في البعد عن الرحمة والمغفرة.

ويجري بعض هذه الوجوه في التشبيهين في قوله عليه السلام: «والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر» والمشبّه به في التشبيهات أقوى. والسحر على ما قيل: كلام أو كتابة، أو رقية، أو أقسام وعزائم ونحوها، يحدث بسببها ضرر على الغير، ومنه عقد الرجل عن زوجته، والقاء البغضاء بين الناس، ومنه استخدام الملائكة والجن واستنزال الشياطين في كشف الغائبات وعلاج المصاب واستحضارهم، وتلبسهم ببدن صبيّ أو امرأة، وكشف الغائبات على لسانه، انتهى.

والظاهر أنه لا يختص بالضرر، بل ربما يفعل لعباً أوّلاً بداء أمر غريب، وعن صاحب العين السحر عمل يقرب إلى الشياطين، ومن السحر الأخذة التي تأخذ العين حتّى تظن أن الأمر كما ترى، وليس الأمر كما ترى، فالسحر عمل خفيّ لخفاء سببه يصوّر الشيء بخلاف صورته ويقلبه من جنسه في الظاهر ولا يقلبه من جنسه في الحقيقة، ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾.[1]

---

(١) طه: ٦٦.

[معاني السحر] :

وقال الشيخ في محكّي كلامه عن التبيان: قيل في معنى السّحر أربعة أقوال:

أحدها: أنّه خدع ومخاريق وتمويهات لا حقيقة، يخيّل إلى المسحور أنها حقيقة.

والثاني: أنّه أخذ بالعين على وجه الحيلة.

والثالث: أنّه قلب الحيوان من صورة إلى صورة، وإنشاء الأجسام على وجه الاختراع، فيمكن للساحر أن يقلب الإنسان حماراً وينشئ أجساماً.

والرابع: أنّه ضرب من خدمة الجن، وأقرب الأقوال الأوّل؛ لأنّ كل شيء خرج عن العادة الجارية فإنّه سحر لا يجوز أن يأتي من الساحر، ومن جوّز شيئاً من هذا فقد كفر؛ لأنّه لا يمكن مع ذلك العلم بصحة المعجزات الدالة على النبوات؛ لأنه أجاز مثله على جهة الحيلة والسحر. وفي الرياض: والسحر عُرّف تارة بما في الكتاب قال تعالى:

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾.[1]

وفي (الإحتجاج):[2] من أكبر السحر التميمة يفرّق بها بين المتحابين، ويجلب العداوة بين المتصادقين، قيل: ومنه استخدام الجن، وعُرّف أنه عمل يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة، وأخرى لوجه يدخل فيه علم الطلسمات والنيرنجات وغير ذلك، وذلك أن يقال: هو استحداث الخوارق، أمّا بمجرّد التأثيرات النفسانية وهو السحر أو بالإستعانة بالفلكيات فقط، وهو دعوة الكواكب، أو على تمزيج القوى السماويّة بالقوى الأرضية وهو

(١) البقرة: ١٠٢.

(٢) الاحتجاج ٢: ٨٢.

الطلسمات، أو على سبيل الإستعانة بالأرواح الساذجة وهو العزائم، قيل: والكل حرام في شريعة الإسلام.

وظاهره إجماع المسلمين عليه وهو الحجة، مضافاً إلى النصوص المستفيضة منها، ويدخل فيه النيرنجات على ما ورد في الساحر أن دم الساحر حلال، وظاهرها التحريم مطلقاً، وقد استثني منه السحر للتوقي ودفع المتنبّي، وربّما وجب كفاية.

وروى في (العيون)[1] في تفسير هاروت وماروت: أنّه كان بعد نوح قد كثرت السحرة والمموّهون، فبعث الله ملكين إلى نبيّ ذلك الزمان يذكر ما يسحر به السحرة، وذكر ما يبطل به سحرهم ويردّ به كيدهم، فتلقاه النبي من الملكين وأدّاه إلى عباد الله بأمر الله أن يقفوا به على السحر وأن يبطلوه، ونهاهم أن يسحروا به الناس، وربّما خصّت روايات الحِل بغير السحر كالقرآن والذكر والتعويذ ونحوها جمعاً وهو أحوط.

* * *

في تفسير (مواهب الرحمن) للحجة السيد عبد الأعلى السبزواري. (مج ١ ص ٤٣٠ ط ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م في النجف):

بحث علمي [حول السحر]:

السحر ضرب من ضروب التأثير النفساني، وهو علم كسائر العلوم، له قواعده وأحكامه، وقد ورد في القرآن الكريم في ما يقرب من ستين موضعاً، وأكثره ورد في قصص موسى عليه السلام وفرعون، ولم يبين سبحانه

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٦٦/ ١.

وتعالى حقيقته كما هو دأبه جلّ شأنه في الحقائق العلمية، ليرجع الإنسان إلى نفسه في البحث عنها والاجتهاد في تحصيلها والإرتقاء في العلم.

وإذا تتبعنا موارد إستعمالات لفظ السحر، نرى أنه يأتي بمعنى الإفتنان والفتنة، وفي الحديث: «إنّ من البيان لسحراً» وهذا هو المعنى الدارج عند العامة حينما يتعجبون من شيء ويفتتنون به، يقال: سحرتنا الطبيعة عند مشاهدة بديع صنع الله تعالى فيها، ويقال: سحرنا جماله إذا افتتن به وأمثال ذلك.

وأما السحر بالمعنى العلمي: فهو ضرب من التأثير النفسي بالمشوب بالفتنة وإظهار ما ليس بواقع بصورة الواقع المعبّر عنه في القرآن الكريم بالتخييل والخداع، قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾،[1] وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾،[2] فإن الإرهاب المقارن مع التخييل والخداع له الأثر النفسي في الإنسان. والعلوم من ناحية الموضوع تنقسم إلى أقسام:

[تقسيم العلوم بحسب المواضيع]:

الأوّل: ما كان موضوعه المادة والماديات كالعلوم الطبيعية.

الثاني: ما كان موضوعه الروح وما وراء المادة، وهذا القسم يختلف من حيث تجرد موضوعه عن المادة بالكلية، كالعلوم الإلهية، أو لم يكن كذلك كالعلوم التي تبحث عن الملائكة والأرواح ونحوهما.

الثالث: ما كان موضوعه مزيجاً من المادة والروح، كعلم السحر

---

(١) طه: ٦٦.

(٢) الأعراف: ١١٦.

والطلسمات والنيرنجات وأمثال ذلك، فإنها من دون اتصالها بالأرواح لا أثر لها، كما أنها لو لم تستعن بأمور خاصة لم يتأثر الطرف المقابل، كحركات في اليد أو في العين، أو تحريك في اللسان أو رموز في الكتابة أو تدخين وغير ذلك، نعم من شدة اعتماده على الأثر النفسي يمكن لنا أن نقول أنه في جوهره عملي نفسي له آثار مادية، ولذا لا يمكن أن يأتي تحت تجربة، وإلاّ كان وهماً في وهم.

ومن الواضح أن الأثر النفسي لا يمكن أن يتحقق إلاّ في محلّ قابل ومستعد لقبول ما يصدر عن الساحر، ولذلك كان تأثيره في الإنسان محدوداً بالفرد الناقص من حيث المعرفة والكمال، وأما الإنسان الكامل فلا أثر للسحر فيه، ولم يعهد أن نبيّاً من أنبياء الله تعالى تقلّب عليه السحر وأثر فيه، وما ورد في سحر النبي ﷺ فلنا فيه كلام يأتي في محله. ومن ذلك يعلم وجه انتشار السحر في الأمم البدائية التي يكثر فيها الجهل والإعتقاد بالخرافات. ثمّ إن إنفاذ السحر وتأثيره في النفوس الضعيفة يتوقف على قوة الساحر وثبات في العزيمة وأكاذيب يستعين بها على التأثير في وعي المسحور ووهمه يشبه في ذلك بعلم الوهم ـ علم التنويم المغناطيسي ـ المبني على التأثر في وهم الأفراد، ويستفيد الساحر من الأكاذيب والمفتعلات ما لا يستفيده من غيرها، وهو إنما بلغ إلى هذه المرتبة بفضل ما كان يعتقده الناس في السحر والسحرة من أن لهم التصرف في كل شيء وتصدر عنهم أعمال عظيمة كإحياء الأموات أو إصابة الناس بالأمراض، فكانوا يخافون منهم كخوفهم من الله تعالى.

ولم تسلم الأمم الراقية في هذه الأعصار عن هذه الخرافات حتّى جعلوا للساحر منزلة اجتماعية عظيمة يتوصلون به لإنجاح مقاصدهم.

وساعد ذلك ما يدعيه السحرة من إنّهم قادرون على استحضار الأرواح فيسألونها عما يريدونه أو يأمرونها بأعمال خاصة، أو أنّهم قادرون على اطلاق الرياح وانزال الأمطار، أو يعرفون حوادث المستقبل، ويعلمون مقاصد الإله، إلى غير ذلك من الأكاذيب، فيتأثر الناس بها فينطبع في نفس الواهم أن الأرواح تستجيب إلى أوامر الساحر، ولما كان كل ذلك من الوهم ذهب بعض العلماء إلى أنه ليس للسحر حقيقة إلاّ ما يؤثر في الوهم والخيال.

ولقد كان موقف الأديان الإلهية والأنبياء عليهم السلام والكتب السماوية من السحر واضحاً، فكان أكبر همّهم هو إرجاع الإنسان إلى تمييزه وعقله، وإبطال ما كان يحيط بالسحرة من العظمة والكبرياء، وأما القرآن الكريم فقد أبطل السحر من جهتين:

[إبطال السحر بنظر القرآن]:

الجهة الأولى: إزالة الأثر النفسي للسحر والسحرة فقال تعالى: ﴿وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾،[1] فنفى سبحانه وتعالى عن السحرة القوّة الغيبية، وكم لهذا الكلام الشريف من الأثر النفسي المعاكس للسحر وأباطيل السحرة، فإن الإنسان إذا اعتقد أن جميع الممكنات تحت إرادته تعالى وقضائه وقدره، وهو القيوم المطلق ولا يقدر أحد أن يتصرف في شيء إلاّ بإرادته تعالى كان لهذا الاعتقاد الأثر الكبير في نفسه، فلا يبقى مجال حينئذٍ لأباطيل السحرة.

ولعلّ من حِكَم إنزال الملكين ـ هاروت وماروت ـ هو تعريف الناس بأعمال السحرة وإبطال ما أثاروه حولهم من الإشاعات، وتهيئة النفوس لتلقي المعارف الإلهية كما عرفت.

---

(١) البقرة: ١٠٢.

الجهة الثانية: هدم صرح السحر حينما قال سبحانه وتعالى بأنه ضرب من الخداع والتخييل، وأنّ الساحر لا يفلح في أمره مهما حاول إظهار الجد في عمله. وهذا لا ينافي إثبات الحقيقة له في الجملة بل إثبات الوجود هو إثبات للتحقق له، فإن الوجود مساوق للمشيئة والتحقق، قال تعالى: ﴿إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾.(١)

[أثر السحر على الإنسان]:

والمراد من الأثر في الآية المباركة الإتباع على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى. فإنه مما لا ينكر ظهور بعض الأعمال، وخرق العادة على يد الساحر ولو بحسب وجدان المسحورين، ومن نفى عنه الحقيقة إنما أراد نفي الحقيقة بالنسبة إلى الواقع كالمعجزة والكرامة، وهذا مسلّم لا ريب فيه.

ثمّ إن تأثير السحر في الإنسان ضرب من تأثير القوى الفعالة فيه كتأثير الكواكب في الأرض بما فيها من الإنسان مما لا ينكره أحد، كما أن تأثير الملائكة المقربين أيضاً كذلك، وتأثير الأنبياء والأوصياء وبعض الصالحين بما يصدر منهم المعاجز وخوارق العادات لا يشكّ فيه عاقل.

ومنها تأثير العين والإصابة بها فإنه لا يرتاب فيها أحد، وإن اختلف العلماء في كيفية تأثيرها، وفي الحديث: «ولو كشف عن القبور لرأيتم أكثر موتاكم من العين».(٢)

نعم، الفرق بين ما يصدر من الأنبياء والأولياء والعلماء الذين حذوا

---

(١) المدثر: ٢٤.

(٢) بحار الأنوار ٩٢: ١٢٧، وفيه: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لو نبش لكم من القبور لرأيتم أن أكثر موتاكم بالعين».

حذوهم، وبين ما يصدر من الشياطين وتابعيهم من السحرة والكهنة واضح، فإن بينهما فرقاً بحسب الذات والمنشأ والغاية.

توضيح ذلك: إن الإنسان في عالم الدنيا قائم بالاختيار، وأما عالم الآخرة فهو عالم جزاء الفاعل المختار، فلولا الاختيار لبطل العالمان، والاختيار بما هو اختيار متعلق بطرفي الفعل ـ الخير والشر، أو الهداية والضلالة ـ ولكل منهما قائد ودليل، والأنبياء عليهم السلام ومن يتلو تلوهم أدلاّء الهداية وأئمّتها. والشياطين ومَن يحذو حذوها قواد الشر والفساد وأدلائهما.

ونظر كل واحد من القائدين والدليلين هو الإنسان لا غير، فالمعجزات والكرامات وخوارق العادات المنبعثة عن القدرة الإلهية غير المتناهية كلها من الأنبياء والأوصياء والأولياء الذين أقدرهم الله تعالى على تلك الأمور وهي سلاسل يُجرّ بها الناس إلى الجنّة، وفي مثلها قال نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله: «عجبت من أقوام يجرون إلى الجنّة بالسلاسل».(١)

والسحر والكهانة والشعبذة وأمثالها من الحيل كلها من الشياطين، وهي سلاسل يُجرّ بها إلى النار. فذات المعجزة من طرق الهداية، وذات السحر ونحوه من طرق الضلالة.

كما أن منشأ الأولى صفاء النفس وارتباطها مع الله تعالى، وإفاضته جل شأنه على الفرد، ومنشأ الثاني كدورة النفس وخبثها وارتباطها مع الشياطين.

ومع ذلك لم يكن للسحر تأثير إلاّ بإذن الله تعالى وقدرته، فإنه القيوم المطلق على جميع الممكنات ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الأَرْضِ

---

(١) أنظر: كنز العمال ١٢: ٩٣، وفيه: «عجبت من قوم يدخلون الجنّة في السلاسل».

﴿وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذِلكَ وَلا أَكْبَرُ إلاَّ فِي كِتاب مُبِين﴾.[1] ثمّ إنه ذكروا للسحر أنواعاً كثيرة تختلف في التأثير شدة وضعفاً، فقد ذكروا منها الإستعانة بالأرواح الطاهرة السماوية والنفوس الفلكية، فإن مثل ذلك لا يعد من السحر أبداً فإن الشخص لا يصل إلى هذه المرتبة إلاّ إذا كانت نفسه طاهرة وكاملة، كما أن الاستعانة بالأدوية أو بعض الآلات، أو الأخذ بالعين فإنها لا تسمّى سحراً أيضاً وإن أثرت أثره كما لا يخفى على من تتبع الكتب، فالسحر كما عرفت هو الاستعانة بالأرواح الأرضية كالشياطين والجنّة، إما بالتسخير أو بأفعال خاصة.

كما أن تسخير الأرواح سواء تعلقت بذوات الأرواح أو بالنفوس الفلكية أو غيرها، كل ذلك ممكن عقلاً وواقع خارجاً وإن لم يترتب عليه حرام فهو جائز شرعاً، وليس ذلك من السحر في شيء، بل هي من سبل استكشاف المجهول، ولا يمكن ذلك إلاّ بتهيئة النفس واعدادها بأعمال شاقة، كما أن من طرق استفادة السِر المكنون، علم الحروف والنجوم، وهما ليسا من السحر أيضاً، بل نسب الأوّل إلى الأئمّة الهداة عليهم السلام وسمّي بالجفر وهو من العلوم الشريفة كثيرةُ لا يُدرك وقليله لا ينفع.

بحث فقهي [حول السحر]:

المحرمات في الشريعة المقدسة تارة: تكون المفاسد فيها شخصية فقط كشرب السم مثلاً، وأخرى تكون شخصية ونوعية كالظلم، وثالثة تكون منهما مضافاً إلى معرضية المعارضة مع النبوات السماوية كالسحر، وحيث إن العقل يستقل بقبح الجميع خصوصاً الأخيرتين، فلا بدّ وأن تكونا محرمتين في جميع الشرايع الإلهية، فالسحر محرم في شريعتي

---

(١) سبأ: ٣.

موسى وعيسى عليهما السلام، وقد ورد في سفر اللاويين الإصحاح التاسع عشر من التوراة: (لا تلتفتوا إلى الجان ولا تطلبوا التوابع ـ النفاثات في العقد ـ فتتنجسوا)، وقال في الإصحاح العشرين منه: (وإذا كان في رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يقتل بالحجارة يرجمونه دَمهُ عليه).

ثمّ إنه قد استدل بعض الفقهاء بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ...﴾[1] الآية على جواز تعليم السحر وتعلّمه؛ لأن المنزل هو الله تعالى والملك معصوم فلا يعقل أن يكون محرماً. وفيه أن التأمل في مجموع الآية الشريفة صدرها وذيلها يدلّ على أن الاستدلال بها على الحرمة أولى من الاستدلال بها على الجواز، فإنها قد عدت السحر في عرض الكفر فكيف يستدل بها على الجواز، نعم قد يعرض الجواز لعناوين خارجية، كما تزول حرمة الكذب لعروض عناوين توجب رفع الحرمة. والمسألة محررة في الكتب الفقهية.

بحث كلامي [حول السحر]:

لا ريب في أن ما يفاض على الممكنات لا بدّ وأن ينتهي إليه سبحانه وتعالى بنحو الاقتضاء للأدلة العقلية والنقلية، ففي الأثر المعروف ـ المنقول متواتراً بين الفريقين ـ عن نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله: «لا إله إلاّ الله، وحده وحده وحده» فإن الوحدة الأولى إشارة إلى وحدة الذات، والثانية تشير إلى وحدة الصفات أي سلب جميع النقائص عنه تعالى، وفي الثالثة إشارة إلى وحدة الفعل، أي أنه مبدأ الكل وأنه لا حول ولا قوة إلاّ به.

فهذه الجملة المباركة جامعة لأنحاء التوحيد، ولكن ذلك لا ينافي قانون الأسباب والمسببات، فإن الله تعالى أبى أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها، ومن ذلك

---

(١) البقرة: ١٠٢.

يُعلم وجه انتساب المعجزة، وفوارق العادات والكرامات والسحر والطلسمات إليه تعالى. وقد فرّق الفلاسفة والمتكلمون بين المعجزة والسحر بعد اتحادهما في أنهما صادران من عالم آخر غير عالم المادة، وأن هدفهما هو الإنسان لا غير بوجوه عديدة:

الأوّل: بحسب المنشأ، فإن المعجزة قوة إلهية تبعث في النفس ذلك التأثير بعد صفائها وارتباطها مع الله تعالى والاستفاضة من القدرة الإلهية، والسحر ينبعث عن نفس خبيثة مرتبطة مع الشياطين كما تقدم.

الثاني: الفرق بحسب الذات، فإن المعجزة من طرق الهداية والصلاح والخير ولا تصدر إلاّ من النفوس الخيرة، بخلاف السحر فإنه من طرق الضلال والغواية والشر، ولا يصدر إلاّ من النفوس الشريرة.

الثالث: الفرق بحسب الغاية، فإن الغاية من المعجزة هي الدعوة إلى الحق، وتثبيت دعوى الأنبياء، ولذا تكون مقرونة غالباً مع التحدي، فلا تصدر من الكاذب، وأما السحر فإن الغاية منه الشر والإضرار.

الرابع: إن الشخص الذي تجري على يديه المعجزة ذو نفس كاملة، قد اجتهد صاحبها في القيام بمراد المحبوب اعتقاداً وعملاً عن علم بأصول الشريعة وفروعها، يدعو إلى الحق وهو يعمل بما يدعو إليه، فإن لمثل هذه النفوس إرادة قوية، ولها خلاقية في الجملة لانبعاث إرادتها عن إرادة العليم الحكيم، إما مباشرة كالأنبياء والأوصياء أو بواسطتها كعباد الله الصالحين، وهذا بخلاف السحر ونحوه فإن صاحبه لا يكون كذلك، بل له نفس شريرة كدرة لا يصدر منها الخير، مرتبطة مع الشياطين ومن يحذو حذوها.

الخامس: المعجزة ليست مكتسبة، ولم تكن لها قواعد مطردة، بل هي تصدر حسب إرادة الله تعالى، فإمّا أن تكون خارقة للعادة واقعاً وظاهراً، أو

بحسب الظاهر وإن كانت في الواقع مطابقة لقانون السببية والمسببية، وأما السحر فهو علم له قواعده وأحكامه، يصدر عن تعلّم وتجربة، وهناك فروق أخرى أغمضنا النظر عن ذكرها، فإن الأمر وجداني ظاهر لكل من رجع إلى وجدانه.

ثم إنّه عليه السلام بعد تشبيه المنجّم بالكاهن، والكاهن بالساحر، والساحر بالكافر، أشار عليه السلام بقوله: «والكافر في النار» إلى نتيجة الجميع، وهو دخول النار، إمّا على وجه الخلود كما في الكافر، أو لا كما في غيره، ولما فرغ عليه السلام من تنفير أصحابه عن تعلّم النجوم وقبول أحكامها، أمرهم بالمسير بقوله: «سيروا على اسم الله» وعونه.

[**تذييل**]:

وينبغي تذييل المقام بأمور مهمّة:

الأوّل:

إن هذا الكلام مما اشتهرت روايته بين الخاصّة والعامة، وقد روي بطرق مختلفة مع اختلاف كثير في متنه، ولا بأس بالإشارة إلى بعض تلك الطرق استبصاراً واطلاعاً منك على مواقع الاختلاف، واستظهاراً واستنصاراً لما أورد السيّد في الكتاب:

منها ما في الشرح المعتزلي عند شرح الخطبة السادسة والثلاثين، قال: روى ابن ديزيل قال: عزم عليّ على الخروج من الكوفة إلى الحرورية، وكان في أصحابه منجم فقال له: يا أمير المؤمنين لا تسر في هذه الساعة، وسِر على ثلاث ساعات مضين من النهار، فإنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك أذى وضرّ شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت.

فقال له عليّ عليه السلام: «أتدري ما في بطن فرسي هذه أذكر هو أم أنثى؟». قال: إن حسبت علمت. فقال عليه السلام: «مَن صدّقك بهذا فقد كذّب القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ...﴾[1] الآية».

ثمّ قال: «إن محمّداً صلى الله عليه وآله ما كان يدّعي علم ما ادعيت علمه، أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي يصيب النفع من سار فيها، وتصرف عن الساعة التي يحيق السوء لمن سار فيها، فمن صدّقك فقد استغنى عن الاستعانة بالله جلّ ذكره في صرف المكروه عنه، وينبغي للمؤمن بأمرك أن يولّيك الحمد دون الله جلّ جلاله؛ لأنك بزعمك هديته إلى الساعة التي يصيب النفع من سار فيها، وصرفته عن الساعة التي يحيق السوء بمن سار فيها، فمن آمن بك في هذا لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله ضِداً وندّاً، اللهم لا طير إلاّ طيرك، ولا ضير إلاّ ضَيرُك، ولا إله غيرك».

ثمّ قال عليه السلام: «نخالف ونسير في الساعة التي نهيتنا عنها»، ثمّ أقبل على الناس فقال: «أيها الناس إيّاكم وتعلم النجوم إلاّ ما يهتدى به في ظلمات البر والبحر، إنما المنجّم كالكاهِن، والكاهِن كالكافر، والكافر في النار، أما والله لأن بلغني أنك تعمل بالنجوم لأخلّدنك في السجن أبداً ما بقيت، ولأحرّمنك العطاء ما كان لي من سلطان».

ثمّ سار عليه السلام في الساعة التي نهاه عنها المنجم، فظفر بأهل النهر وظهر عليهم، ثمّ قال عليه السلام: «لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها المنجم، لقال الناس سار في الساعة التي أمر بها المنجم فظفر وظهر، أما أنّه ما

---

(١) لقمان: ٣٤.

كان لمحمّد صلى الله عليه وآله منجّم، ولا لنا من بعده حتّى فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر، أيها الناس توكلوا على الله واتقوا به فإنه يكفي ممن سواه».[١]

ومنه ما في (البحار)[٢] من مجالس الصدوق عن محمّد بن عليّ ماجيلويه عن محمّد بن أبي القاسم عن محمّد بن عليّ القرشي عن نصر بن مزاحم عن عمر بن سعد عن يوسف بن يزيد عن الله بن عوف بن الأحمر، قال: لما أراد أمير المؤمنين عليه السلام المسير إلى النهروان أتاه منجّم فقال له: يا أمير المؤمنين لا تسر في هذه الساعة، وسِر في ثلاث ساعات مضين من النهار. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «ولِمَ ذلك؟»، قال: لأنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك أذى وضرّ شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك ظفرت وظهرت وأصبت كما طلبت.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «تدري ما في بطن هذه الدابة ذكر أم أنثى؟» قال: إن حسبت علمت، قال له أمير المؤمنين عليه السلام: «من صدّقك على هذا القول كذّب بالقرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.[٣] ما كان محمّد صلى الله عليه وآله يدّعي ما ادّعيت، أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صُرف عنه السوء، والساعة التي من سار فيها حق به الضرّ، من صدّقك بهذا استغنى بقولك عن الإستعانة بالله عز وجل، وفي ذلك الوجه أحوج إلى الرغبة إليك في دفع المكروه عنه، وينبغي له أن يوليك دون ربه عز وجل، فمن آمن لك بهذا فقد اتخذك من دون الله نداً وضداً».

(١) أنظر: شرح نهج البلاغة ٢: ٢٦٩.

(٢) بحار الأنوار ٥٥ : ٢٢٣.

(٣) لقمان: ٣٤.

ثمّ قال: «اللهم لا طير إلاّ طيرك، ولا ضَيرَ إلاّ ضَيرُك، ولا خير إلاّ خيرك، ولا إله غيرك، بل نكذّبك ونخالفك ونسير في الساعة التي نهيت عنها».

قال المحدّث المجلسي بعد ما أورد الرواية: قوله عليه السلام: «من صدّقك على هذا القول فقد كذّب بالقرآن» لادّعائه العلم الذي أخبر الله سبحانه أنه مختصّ به إذ ظاهر قوله تعالى عنده الإختصاص.

فإن قيل: فقد أخبر النبي والأئمّة بالخمسة المذكورة في الآية في مواطن كثيرة فكيف ذلك؟

قلنا: المراد أنه لا يعلمها أحد بغير تعليمه سبحانه، وما أخبروه من ذلك فإنما كان بالوحي والإلهام، أو التعلّم من النبي الذي علّمه الوحي.

لا يقال: أنّ علم النجوم أيضاً من هذا القبيل لما سيأتي من الأخبار الدالة على أنّ له أصلاً، وأنه مما علّمه الله أنبيائه، فكيف يكون تصديق المنجم تكذيباً بالقرآن؟

لأنا نقول: الذي يظهر من الأخبار أنّ نوعاً من هذا العلم حقاً يعلمه الأنبياء والأوصياء، وأمّا ما في أيدي الناس من ذلك فلا.

وقوله عليه السلام: «أن يوليك الحمد»، على بناء الأفعال أو التفعيل أي يقرّبك من الحمد من الولي، بمعنى القرب، أو من قولهم: ولاّه الأمير عمل كذا، أي قلّده إيّاه، أي يجعلك ولياً للحمد وأهلاً له، أو من قولهم: أوليته معروفاً أي أنعمت عليه.

«لا طير إلاّ طيرك» الطير من الطيرة وهي التشؤم بالشيء، أي لا تأثير للطيرة إلاّ طيرك، أي قضاؤك وقدرك على المشاكلة، ويدلّ على أنّ ضرر النجوم من جهة الطيرة، والضَّير الضرر.

[مناقشة ابن طاووس للحديث]:

الثاني:

قال السيد الجليل عليّ بن طاووس رحمه الله في محكي كلامه عن كتاب النجوم بعد ما أورد هذا الكلام له عليه السلام نقلاً عن الرضي رحمه الله في الكتاب:

إنني رأيت فيما وقفت عليه في كتاب عيون الجواهر، تأليف أبي جعفر محمّد بن بابويه رحمه الله حديث المنجّم الذي عرض لمولانا عليّ عليه السلام عند مسيره إلى النهروان مسنداً عن محمّد بن عليّ ماجيلويه عن عمّه محمّد بن أبي القاسم عن محمّد بن عليّ القرشي عن نصر بن مزاحم المعرّي عن عمر بن سعد عن يوسف بن يزيد عن عبد الله بن عوف ابن الأحمر قال: لمّا أراد أمير المؤمنين عليه السلام المسير إلى النهروان أتاه منجّم، ثمّ ذكر حديثه.

قال: فأقول: إنّ في هذا الحديث عدّة رجال لا يعمل علماء أهل البيت عليهم السلام على روايتهم، ويمنع من يجوّز العمل بأخبار الأحاديث من العمل باخبارهم وشهادتهم، وفيهم عمر بن سعد بن أبي وقّاص مقاتل الحسين عليه السلام، فإنّ أخباره ورواياته مهجورة، ولا يلتفت عارف بحاله إلى ما يرويه أو يسند إليه.

ثمّ طعن في الرواية بأنها لو كانت صحيحة لكان عليه السلام قد حكم في هذا على صاحبه الذي قد شهد مصنّف نهج البلاغة أنّه من أصحابه أيضاً بأحكام الكفّار، أمّا بكونه مرتداً عن الفطرة فيقتله في الحال، أو يردّه عن غير الفطرة، فيتوّبه أو يمتنع من التوبة فيُقتل؛ لأنّ الرواية قد تضمّنت أنّ المنجم كالكافر، أو كان يجري عليه أحكام الكهنة أو السحرة؛ لأنّ الرواية تضمّنت أنه كالكاهن

والساحر، وما عرفنا إلى وقتنا هذا أنّه حكم على هذا المنجم أحكام الكفار ولا السحرة ولا الكهنة، ولا أبعده ولا عزّره؛ بل قال: «سيروا على اسم الله»، والمنجّم من جملتهم لأنه صاحبه.

وهذا يدلك على تباعد الرواية من صحة النقل، أو يكون لها تأويل غير ظاهر موافق للعقل.

ثمّ قال: ومما نذكره من التنبيه على بطلان ظاهر الرواية بتحريم علم النجوم قول الراوي فيها: «أنّ مَن صدّقك فقد كذّب القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله»، وتعلم أن الطلائع للحروب مديون على السلامة من هجوم الجيش وكثير من النحوس ويبشرون بالسلامة، وما ألزم من ذلك أن يوليهم الحمد دون ربهم، ثمّ إننا وجدنا في الدعوات الكثيرة، التعوّذ من أهل الكهانة والسحرة، فلو كان المنجم مثلهم كان قد تضمّن بعض الأدعية التعوّذ منه، وما عرفنا في الأدعية التعوّذ من النجوم والمنجّم إلى وقتنا هذا.

ومن التنبيه على بطلان ظاهر هذه الرواية أنّ الدعوات تضمّن كثير منها وغيرها من صفات النبي ﷺ أنّه لم يكن كاهناً ولا ساحراً، وما وجدنا إلى الآن ولا كان عالماً بالنجوم، فلو كان المنجّم كالكاهن والساحر ما كان يبعد أن تتضمّنه بعض الروايات والدعوات في ذكر الصفات. انتهى كلامه رُفع مقامه.[١]

وأورد عليه المحدث المجلسي رحمه الله بعد نقل كلامه في (البحار)[٢] بقوله:

وأقول: أمّا قدحه في سند الرواية فهي من المشهورات بين الخاصة والعامة، ولذا أورده السيّد رحمه الله في النهج إذ دأبه فيه أن يروي ما

---

(١) أنظر: بحار الأنوار ٥٥: ٢٦٥.

(٢) ج ٥٥: ٢٦٦.

كان مقبول الطرفين، وضعف سند الرواية التي أورده الصدوق لا يدلّ على ضعف سائر الأسانيد.

وعمر بن سعد الذي يروي عنه نصر بن مزاحم ليس الملعون الذي كان محارب الحسين عليه السلام كما يظهر من كتابه كتاب صفّين الذي عندنا، فإنّ أكثر ما رواه فيه رواه عن هذا الرجل في كثير من المواضع عمرو مكان عمر، ولم يكن الملعون من جملة رواة الحديث وحملة الأخبار حتّى يروى عنه هذه الأخبار الكثيرة.

وأيضاً رواية نصر عنه بعيد جدّاً فإنّ نصر كان من أصحاب الباقر عليه السلام والملعون لم يبق بعد شهادة الحسين عليه السلام إلاّ قليلاً، والشواهد على كونه غيره كثيرة لا تخفى على المتدرّب في الأخبار العارف بأحوال الرجال، وهذا من السيّد غريب.

وأمّا قوله: إنّه لم يحكم بكفر المنجّم، فيرد عليه أنّ ظاهر التشبيه بالكافر أنّه ليس بكافر، وإنّما يدلّ على اشتراكه معه في بعض الصفات لا في جميع الأحكام كقتله في الحال أو بعد امتناعه من التوبة، على أنّه عليه السلام لم يشبه بالكافر بل بالمشبّه بالكافر.

وأمّا قوله: ولا أبعده ولا عزّره، ففيه أنه قد ظهر مما رواه ابن أبي الحديد الإبعاد بالحبس المؤبّد والتحريم من العطاء، ولم يعلم أنّه أصرّ المنجّم على العمل بالنجوم بعد ذلك حتّى يستحق تعزيراً أو نكالاً، وعدم اشتمال رواية السيّد على هذه الزيادة لا يدّل على عدمها، فإنّ عادة السيّد الإختصار على ما اختاره من كلامه عليه السلام بزعمه إستيفاء النقل، والرواية مع عدم النقل في مثل هذا لا يدلّ على العدم.

وكونه من أصحابه عليه السلام وبينهم لا يدلّ على كونه مرضياً، فإنّ

جيشه عليه السلام كان مشتملاً على كثير من الخوارج والمنافقين كالأشعث بن قيس أخو هذا المنجم على ما ذكره السيّد وغيره، أنه كان عفيف بن قيس أخا الأشعث رأس المنافقين ومثير أكثر الفتن.

وأما قياسه على طلائع الحروب، فالفرق بين الأمرين بيّن، فإنّ ما تهدي إليه الطلائع ونحوهم ليست أموراً يترتب عليها صرف السوء ونيل المحبوب حتماً؛ بل يتوقف على اجتماع أمور كوجود الشرائط وارتفاع الموانع، وكل ذلك لا يتيسر الظفر بها إلاّ بفضل مسبب الأسباب، بخلاف ما ادّعاه المنجّم من أنّ الظفر يترتب حتماً على الخروج في الساعة التي اختاره.

وأمّا عدم التعوّذ من النجوم والمنجّم؛ فلأنّ المنجم إنما يعود ضرره إلى نفسه بخلاف الساحر والكاهن فإنه يترتب منهما ضرر كثير على الناس، مع أنّ الدعاء الذي رواه السيد في كتاب الإستخارات وأوردناه في هذا الباب يتضمّن البراءة إلى الله من اللجأ إلى العمل بالنجوم وطلب الإختيارات منها.

وأمّا عدم وصف النبي صلى الله عليه وآله بأنه لم يكن منجّماً؟ لأنّ الكفّار إنّما كانوا يصفونه بالسحر والكهانة والشعر، فورد براءته منها ردّاً عليهم ولم يكونوا يصفونه بالنجوم، مع أنّه كان عالماً بما هو الحق من علم النجوم وكان من فضائله صلى الله عليه وآله.

[قصة المنجم مع عليّ كما في الاحتجاج]:

الثالث:

روي في الإحتجاج والبحار قصّة المنجّم معه عليه السلام بنحو آخر مشتمل على مطالب غريبة وأحكام عجيبة أحببت إيراد ذلك ظناً مني أن يخلو الشرح عن ذلك فأقول:

في (الإحتجاج)[1] عن سعيد بن جبير، قال: استقبل أمير المؤمنين عليه السلام دَهقان من دَهاقين الفرس، فقال له بعد التهنئة: يا أمير المؤمنين تناحست النجوم الطالعات، وتناحست السعود بالنّحوس، وإذا كان مثل هذا اليوم وجب على الحكيم الإختفاء، ويومك هذا يوم صعب قد انقلب فيه كوكبان، وانقدح من برجك النيران، وليس الحرب لك بمكان.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «ويحك يا دهقان المنبئ بالآثار، المحذّر من الأقدار، ما قصّة صاحب الميزان، وقصّة صاحب السرطان؟ وكم المطالع من الأسد والساعات من المحرّكات، وكم بين السراري والدراري؟».

قال: سأنظر وأومأ بيده إلى كمّه وأخرج منه اسطرلاباً ينظر فيه، فتبسّم عليه السلام فقال: «أتدري ما حدث البارحة؟ وقع بيت بالصين، وانفرج برج ماجين، وسقط سور سرانديب، وانهزم بطريق الروم بإرمينية، وفقد ديّان اليهودي بأيلة، وهاج النمل بوادي النمل، وهلك ملك إفريقية، أكنت عالماً بهذا؟» قال: لا يا أمير المؤمنين.

فقال عليه السلام: «البارحة سعد سبعون ألف عالم، وولد في كل عالم سبعون ألفاً، والليلة يموت مثلهم وهذا منهم»، وأومأ بيده إلى سعد بن مسعدة الحارثي لعنه الله وكان جاسوساً للخوارج في عسكر أمير المؤمنين، فظن الملعون أنّه يقول خذوه، فأخذ بنفسه فمات، فخرّ الدَهقان ساجداً.

فقال أمير المؤمنين: «ألم أروك من عين التوفيق؟» قال: بلى يا أمير

---

(١) الإحتجاج ١: ٣٥٥.

المؤمنين. فقال عليه السلام: «أنا وصاحبي لا شرقي ولا غربيّ، نحن ناشئة القطب وأعلام الفلك، أمّا قولك انقدح من برجك النيران، فكان الواجب أن تحكم به لي لا عليّ، وأمّا نوره وضياؤه فعندي، وأمّا حريقه ولهبه فذهب عني، فهذه مسألة عميقة أحسِبها إن كنت حاسباً».

قال المحدّث المجلسي في شرحه بعد ما أورده في (البحار):[1]

«ما قصّة صاحب الميزان» أي الكواكب التي الآن في برج الميزان، أو الكواكب المتعلّقة بتلك البرج المناسبة لها، وكذا صاحب السرطان و«كم المطالع» أي كم طلع من ذلك البرج الآن، و«الساعات» أي كم مضى من طلوع الساعات من طلوع سائر المحرّكات.

ولعلّ المراد بالسراري الكواكب الخفية تشبيهاً لها بالسريّة «والدراري» الكواكب الكبيرة المضيئة، أو اصطلاحات في الكواكب لا يعرفهما المنجّمون.

والغرض أنّه لو كان هذا العلم فإنّما يمكن الحكم به بعد الإحاطة بجميع أوضاع الكواكب وأحوالها وخواصها في كل آن وزمان، والمنجّمون لم يرصدوا من الكواكب إلاّ أقلها، ومناط أحكامهم أوضاع السيّارات فقط مع عدم إحاطتهم بأحوال تلك أيضاً. ثمّ نبّهه عليه السلام على عدم إحاطته بذلك العلم، أو عدم كفايته للعلم بالحوادث، بجهله بكثير من الأمور الحادثة.

وفي (القاموس): (البطريق) ككبريت: القائد من قوّاد الروم، تحت يده عشرة آلاف رجل. انتهى. (وديّان اليهود) عالمهم وفي بعض النسخ

---

(١) بحار الأنوار ٥٥: ٢٢١.

بالنون جمع دن وهو الجب العظيم، (وصاحبي) أي النبي صلى الله عليه وآله (لا شرقي ولا غربي) إيماء إلى قوله سبحانه ﴿لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾[1] والغرض لسنا كسائر الناس حتّى تحكم علينا بأحكامهم كالنجوم المنسوبة إلى العرب أو إلى الملوك أو إلى العلماء والأشراف فإنا فوق ذلك كلّه.

(نحن ناشئة القطب) أي الفرقة الناشئة المنسوبة إلى القطب، أي حقيقة لثباتهم واستقرارهم في درجات العزّ والكمال، أو كناية عن أنّهم غير منسوبين إلى الفلك والكواكب؛ بل هي منسوبة إليهم وسعادتها بسببهم، أو أنّهم قطب الفلك، إذ الفلك يدور ببركتهم، (وهم) أعلام الفلك بهم يتزيّن ويتبرّك ويسعد.

ثمّ ألزم عليه السلام عليه في قوله: «انقدح من برجك النيّران» بأنّ للنار جهتين: جهة نور وجهة إحراق، فنورها لنا، وإحراقها على عدوّنا، ويحتمل أن يكون المراد به أن الله يدفع ضررها عنا بتوسّلنا به تعالى وتوكلنا عليه، «فهذه مسألة عميقة» أي كوننا ممتازين عن سائر الخلق في الأحكام، أو كون النيران خيراً لنا وشرّاً لعدوّنا، وأن التوسّل والدعاء يدفع النحوس، والبلاء مسألة عميقة خارجة عن قانون نجومك وحسابك، ويبطل جميع ما تظنّ من ذلك.

وفي (البحار)[2] روينا باسنادنا إلى الشيخ السعيد محمّد بن رستم بن جرير الطبري الإمامي عن الحسين بن عبد الله الجرمي، ومحمّد بن هارون التلعكبري عن محمّد بن أحمد بن محروم عن أحمد بن القاسم عن يحيى بن عبد الرحمن عن عليّ بن صالح بن حي الكوفي عن زياد بن المنذر عن قيس بن سعد قال:

---

(١) النور: ٣٥.

(٢) بحار الأنوار ٥٥: ٢٢٩ - ٢٣٤.

كنت كثيراً أساير أمير المؤمنين عليه السلام إذا سار إلى وجه من الوجوه، فلمّا قصد أهل النهروان وصرنا بالمدائن وكنت يومئذٍ مسايراً له، إذ خرج إليه قوم من أهل المدائن من دهاقينهم، معهم براذين قد جاؤا بها هدية إليه فقبلها، وكان فيمن تلقاه دهقان من دهاقين المدائن يدعى سرسفيل، وكانت الفرس تحكم برأيه فيما مضى وترجع إلى قوله فيما سلف، فلما بصر بأمير المؤمنين قال له:

يا أمير المؤمنين لترجع عما قصدت. قال: «ولِمَ ذاك يا دهقان؟» قال: يا أمير المؤمنين تناحست النجوم الطوالع، فنحس أصحاب السعود، وسعد أصحاب النحوس، ولزم الحكيم في مثل هذا اليوم الإستخفاء والجلوس، وأنّ يومك هذا يوم مميت قد اقترن فيه كوكبان قتّالان، وشرف فيه بهرام في برج الميزان، وانقدح من برجك النيران، وليس الحرب لك بمكان.

فتبسّم أمير المؤمنين عليه السلام ثمّ قال: «أيّها الدهقان المنبئ بالأخبار، والمحذّر من الأقدار، ما نزل البارحة في آخر الميزان، وأيّ نجم حلّ من السرطان؟» قال: سأنظر ذلك، وأخرج من كُمِّهِ إسطرلاباً وتقويماً، قال له أمير المؤمنين عليه السلام: «أنت مسيّر الجاريات؟» قال: لا، قال: «فأنت تقضي على الثابتات؟» قال: لا، قال: «فأخبرني عن طول الأسد وتباعده من المطالع والمراجع، وما الزهرة من التوابع والجوامع؟» قال: لا علم لي بذلك.

قال عليه السلام: «فما بين السواري إلى الدراري، وما بين الساعات إلى المعجزات، وكم قدر شعاع المبدرات، وكم تحصل الفجر في الغدوات؟» قال: لا علم لي بذلك. قال: «فهل علمت يا دهقان أنّ الملك اليوم انتقل من بيت إلى بيت بالصين، وانقلب برج ماجين، واحترقت دور بالزنج، وطفح جبّ سرانديب، وتهدّم حصن الأندلس، وهاج نمل الشيح، وانهزم مراق الهندي، وفقد ديّان

اليهود بأيلة، وهزم بطريك الروم بردمية، وعمي راهب عمودية، وسقطت شرفات القسطنطنية، أفعالم أنت بهذه الحوادث؟ وما الذي أحدثها شرقيّها أو غربيّها من الفلك؟» قال: لا علم لي بذلك.

قال: «وبأيّ الكواكب تقضي في أعلى القطب، وبأيّها تنحس من تنحس؟» قال: لا علم لي بذلك، قال: «فهل علمت أنه سعد اليوم إثنان وسبعون عالماً في كل عالم سبعون عالماً، منهم في البرّ ومنهم في البحر، وبعض في الجبال، وبعض في الغياض، وبعض في العمران، وما الذي أسعدهم؟» قال: لا علم لي بذلك.

قال: «يا دهقان أظنك حكمت على اقتران المشتري وزحل لما استنار لك في الغسق، ظهر تلألؤ شعاع المريخ وتشريقه في السحر، وقد سار فاتصل جرمه بجرم تربيع القمر، وذلك دليل على استحقاق ألف ألف من البشر كلهم يولدون اليوم والليلة ويموت مثلهم»، وأشار بيده إلى جاسوس في عسكره لمعاوية، فقال: «ويموت هذا فإنّه منهم». فلمّا قال عليه السلام ذلك: ظن الرجل أنه قال: خذوه، فأخذه شيء بقلبه وتكسّرت نفسه في صدره فمات لوقته.

فقال عليه السلام: «يا دهقان ألم أرك عين التقدير في غاية التصوير؟» قال: بلى يا أمير المؤمنين، قال: «يا دهقان أنا مخبرك إني وصحبي هؤلاء لا شرقيون ولا غربيّون إنما نحن ناشئة القطب، وما زعمت أنه انقدح البارحة من برجي النيران فقد كان يجب أن تحكم معه لي لأنّ نوره وضياءه عنده، فلهبه ذاهب عنّي.

يا دهقان هذه قضية عيص فأحسبها وولّدها ما إن كنت عالماً بالأكوار والأدوار»، فقال: لو علمتَ ذلك لعلمتَ تحصي عقود القصب في هذه الأجمة.

ومضى أمير المؤمنين عليه السلام فهزم أهل النهروان وقتلهم وعاد بالغنيمة والظفر، فقال الدهقان: ليس هذا العلم بما في أيدي أهل زماننا، هذا علم مادته في السماء.

قال المجلسي: أكثر السؤالات المذكورة في الرواية على تقدير صحّتها وضبطها مبنيّة على اصطلاحات معرفتها مختصة بهم، أوردها لبيان عجزه وجهله وعدم إحاطة علمه بما لا بدّ منه في هذا العلم، (وكم تحصل الفجر في الغدوات) يحتمل أن يكون المراد به زمان ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإنّ ذلك يختلف في الفصول، (وطفح جبّ سرانديب) امتلأ وارتفع، ومنه سكران طافح و(الشيح) نبت معروف، ويحتمل أن يكون المراد هنا الذي هو منبته.

و(العموديّة) ماء للنصارى يغمسون فيه أولادهم، و(ما الذي أحدثها) أي بزعمك (شرقيها) أي الكواكب، (ألم أرك غير التقدير) بكسر الغين وفتح الياء أي التغيّرات الناشئة من تقديرات الله تعالى، وفي بعض النسخ عين التقدير أي أصله، (هذه قضية عيص) بالإضافة، أي الأصل، في القاموس العيص بالكسر الأصل، وفي بعض النسخ عويصة أي صعبة شديدة و(ولدها) بصيغة الأمر وتشديد اللاّم أي استنتج منها.

[في تحقيق الكلام في علم النجوم وجواز العمل بأحكامه]:

الرابع:

في تحقيق الكلام في علم النجوم وجواز العمل بأحكامه، وقد اختلفت في ذلك الأخبار ككلمات علمائنا الأخيار، والبحث في مقامات ثلاثة:

المقام الأوّل:

في بطلان ما زعمه قدماء المنجّمين من أنّ الكواكب تفعل في الأرض ومن عليها أفعالاً يسندونها إلى طباعها.

فأقول: إنّ اعتقاد ذلك كفر وزندقة، والحال دلت على امتناعه الأدلة النقلية والبراهين العقلية.

قال الشيخ إبراهيم بن نوبخت في كتاب الياقوت: قول المنجمين يبطله قدم الصانع واشتراط اختياره، ويلزم عليهم أن لا يستقر الفعل على حال من الأحوال، وقول أهل الطبائع يبطل بمثل ذلك.

وقال العلامة في شرح ذلك: اختلف قول المنجمين على قسمين: أحدهما قول من قال: إنّ الكواكب السبعة حيّة مختارة، والثاني قول من قال: إنها موجبة، والقولان باطلان.

أما الأوّل: فلأنها أجسام محدثة فلا تكون آلهة، ولأنها محتاجة إلى محدث غير جسم، فلا بدّ من القول بالصانع. وأما الثاني: فلأنّ الكواكب المعيّنة كالمريخ مثلاً إذا كان مقتضياً للحرب لزم دوام وقوع الهرج والمرج في العالم، وأن لا تستقر أفعالهم على حال من الأحوال، ولمّا كان ذلك باطلاً كان ما ذكروه باطلاً. وأما القائلون بالطبايع الذين يسندون الأفعال إلى مجرّد الطبيعة فيبطل قولهم بمثل ذلك أيضاً، فإنّ الطبيعة قوة جسمانية في كل جسم محدث، فكلّ قوة حاكمة فهي محدثة تفتقر إلى محدث غير طبيعته، وإلاّ لزم التسلسل، فلا بدّ من القول بالصانع سبحانه.

وقال أيضاً في محكّي كتاب المنتهى: التنجيم حرام، وكذا تعلّم النجوم مع اعتقاد أنها مؤثّرة، أو أنّ لها مدخلاً في التأثير بالنفع والضرر، وبالجملة كل من يعتقد ربط الحركات النفسانية والطبيعية بالحركات الفلكية والإتصالات الكوكبية، كافر وأخذ الأجرة على ذلك حرام.

وقال علم الهدى في كتاب الغرر والدرر: وقد فرغ المتكلّمون من الكلام في أنّ الكواكب لا يجوز أن تكون فينا فاعلة، وتكلمنا نحن أيضاً في مواضع على ذلك، وبيّنا بطلان الطبايع التي يهذّون بذكرها واضافة الأفعال إليها، وبيّنا أنّ الفاعل لا بدّ أن يكون حياً قادراً، وقد علمنا أنّ

الكواكب ليست بهذه الصفة فكيف تفعل، وما يصحح الأفعال مفقود فيها. وقد سطر المتكلمون طرفاً كثيرة في أنها ليست بحيّة ولا قادرة أكثرها معترض، وأشفّ ما قيل في ذلك: أن الحياة معلوم أنّ الحرارة الشديدة كحرارة النار تنفيها ولا تثبت معها، ومعلوم أن حرارة الشمس أشدّ وأقوى من حرارة النار بكثير، لأنّ الذي يصل إلينا على بعد المسافة من حرارة الشمس بشعاعها يماثل أو يزيد على حرارة النار، وما كان بهذه الصفة من الحرارة يستحيل كونه حيّاً.

وأقوى من ذلك كله في نفي كون الفلك وما فيه من شمس وقمر وكوكب أحياء السمع وإلاّ إجماع وأنّه لا خلاف بين المسلمين في ارتفاع الحياة عن الفلك وما يشتمل عليه من الكواكب، وأنّها مسخّرة مدبّرة مصرفة، وذلك معلوم من دين رسول الله ضرورة، وإذا قطعنا على نفي الحياة والقدرة عن الكواكب فكيف تكون فاعلة.

وعلى أننا قد سلمنا لهم استظهاراً في الحجة أنّها قادرة، قلنا: إنّ الجسم وإن كان قادراً قدراً فإنّه لا يجوز أن يفعل في غيره إلاّ على سبيل التوليد، ولا بدّ من وصلة بين الفاعل والمفعول فيه، والكواكب غير مماسة لنا ولا وصلة بيننا وبينها فكيف تكون فاعلة فينا، فإن ادّعى أن الوصلة بيننا الهواء فالهواء أوّلاً لا يجوز أن يكون آلة في الحركات الشديدة وحمل الأثقال، ثمّ لو كان الهواء آلة تحركنا بها الكواكب لوجب أن نحسّ بذلك، ونعلم أنّ الهواء يحرّكنا ويصرّفنا كما نعلم في غيرنا من الأجسام إذا حركنا بآلة، على أنّ في الحوادث الحادثة فينا ما لا يجوز أن يفعل بآلة ولا يتولّد عن سبب كالإرادات والإعتقادات وأشياء كثيرة، فكيف فعلت الكواكب ذلك فينا.

وهي لا تصح أن تكون مخترعة للأفعال؛ لأن الجسم لا يجوز أن يكون قادراً إلاّ بقدرة، والقدرة لا يجوز لأمر يرجع إلى نوعها أن تخترع بها الأفعال، فأمّا الأدمة فليس تؤثرها الشمس على الحقيقة في وجوهنا وأبداننا، وإنّما الله تعالى هو المؤثر لها وفاعلها بتوسط حرارة الشمس، كما أنّه تعالى هو المحرّق على الحقيقة بحرارة النار، والهاشم لما يهشمه الحجر بثقله، وحرارة الشمس مسوّدة الأجسام من جهة معقولة مفهومة كما أنّ النار تحرق الأجسام على وجه معقول، فأيّ تأثير للكواكب فينا يجري هذا المجرى في تمييزه والعلم بصحته فليشر إليه فإنّ ذلك لا قدرة عليه.

ومما يمكن أن يعتمد في إبطال أن تكون الكواكب فاعلة ومصرّفة لنا أنّ ذلك يقتضي سقوط الأمر والنهي (والمدح)[1] والذم عنا، ونكون معذورين في كل إساءة تقع منا ونجنيها بأيدينا، وغير مشكورين على شيء من الإحسان والإفضال، وكل شيء نفسد به قول المجبّرة فهو مفسد لهذا المذهب.

[هل النجوم علامات وإمارات؟]:

الثاني:

في أنه بعدما تحقق بطلان كون الكواكب عللاً مؤثرة مدبّرة لهذا العالم السفلي موجدة لما فيه، فهل يمكن كونها إمارات وعلامات على وقوع بعض الحوادث في هذا العالم مما يوجده الله تعالى بقدرته؟ وهل يمكن الإطلاع بالحوادث الإستقبالية من أشكال الكواكب واتصالاتها

---

(١) ليس في المصدر.

وما يعرض لها من الأوضاع والهيئات بقرب بعضها من بعض أو بعده بأن تجري عادة الله سبحانه على فعل كذا عند كذا؟

الحق إمكان ذلك وفاقاً لأكثر الأصحاب لما سمعنا وشاهدنا من إصابة كثير من المنجمين في أحكامهم النجوميّة وإن كان خطؤهم فيها كثيراً أيضاً، ويبعد بأن تكون تلك الإصابة كلها من باب البخت والإتفاق.

وقد خالف في ذلك المرتضى وبالغ كل المبالغة في إنكار أصل هذا العلم، وزعم أنّ جميع ما اتفق من أخبار المنجمين من باب الإتفاق والتخمين نحو ما يقوله الفوّالون.

قال في كتاب الغرر والدرر ما ملخّصه: إنّ جريان عادة الله بأن يفعل أفعالاً مخصوصة عند طلوع كوكب أو غروبه أو اتصاله أو مفارقته، وإن كان جائزاً لكن لا طريق إلى العلم بأنّ ذلك قد وقع وثبت، من أين لنا بأنّ الله تعالى قد أجرى العادة بأن يكون زحلاً والمريخ إذا كان في درجة الطالع كان نحساً، وأنّ المشتري إذا كان كذلك كان سعداً، أيّ سمع مقطوع به جاء بذلك، وأيّ نبيّ خبّر به واستفيد من جهته.

فإن عوّلوا في ذلك على التجربة بأنّا جرّبنا ذلك ومن كان قبلنا فوجدناه على هذه الصفة، وإذا لم يكن موجباً وجب أن يكون معتاداً.

قلنا: ومن سلّم لكم صحّة هذه التجربة وانتظامها واطّرادها، وقد رأينا خطأكم فيها أكثر من صوابكم، وصدقكم أقلّ من كذبكم، فألا نسبتم الصحة إذا اتفقت منكم إلى الإتفاق الذي يقع من المخمن والمرجّم، فقد رأينا من يصيب من هؤلاء أكثر ممن يخطئ، وهو غير أصل معتمد ولا قاعدة صحيحة.

فإذا قلتم: سبب خطأ المنجّم زلل دخل عليه في أخذ الطالع، أو تسيير الكواكب.

قلنا: ولم لا كانت إصابته سببها التخمين، وإنما كان يصحّ لكم هذا التأويل والتخريج لو كان على صحة أحكام النجوم دليل قاطع هو غير اصابة المنجّم، فأمّا إذا كان دليل صحة الأحكام الإصابة فأما إذا كان دليل فسادها الخطأ، فما أحدهما في المقابلة إلاّ كصاحبه، إلى أن قال: وبعض الرؤساء بل الوزراء ممن كان فاضلاً في الأدب والكتابة ومشغوفاً بالنجوم عاملاً عليها، قال لي يوماً وقد جرى حديث يتعلق بأحكام النجوم، ورأى من مخايلي التعجّب ممن يتشاغل بذلك، ويغني زمانه به: أريد أن أسألك عن شيء في نفسي، فقلت: سل عمّا بدا لك، فقال: أريد أن تعرّفني هل بلغ بكل التكذيب بأحكام النجوم إلى أن لا تختار يوماً لسفر ولبس ثوب جديد وتوجّه في حاجة؟ فقلت: قد بلغت إلى ذلك والحمد لله وزيادة عليه، وما في داري تقويم ولا أنظر فيه، وما رأيت مع ذلك إلاّ خيراً.

ثمّ أقبلت عليه فقلت له: ندع ما يدلّ على بطلان أحكام النجوم مما يحتاج إلى ظنٍ دقيق وروية طويلة، وههنا شيء قريب لا يخفى على أحد ممن علت طبقته في الفهم أو انخفضت.

خبّرني لو فرضنا جادة مسلوكة وطريقاً يمشي فيه الناس ليلاً ونهاراً، وفي محجّته آبار متقاربة، وبين بعضها وبعض طريق يحتاج سالكه إلى تأمّل وتوقّف حتى يتخلّص من السقوط في بعض تلك الآبار، هل يجوز أن تكون سلامة من يمشي في هذا الطريق من العميان كسلامة من يمشي من البصراء، وقد فرضنا أنه لا يخلو طرفة عين من من

المشاة فيه بصراء وعميان، وهل يجوز أن يكون عطب البصراء يقارب عطب العميان أو سلامة العميان مقاربة بسلامة البصراء؟

فقال: هذا مما لا يجوز؛ بل الواجب أن تكون سلامة البصراء أكثر من سلامة العميان، ولا يجوز في مثل هذا التقارب. فقلت: إذا كان هذا محالاً فأحيلوا نظيره، وما لا فرق بينه وبينه، وأنتم تجيزون شبيه ما ذكرناه وعديله؛ لأنّ البصراء هم الذين يعرفون أحكام النجوم ويميّزون سعدها من نحسها، ويتوقّون بهذه المعرفة مضار الزمان ويتحفّظونها ويعتمدون منافعه ويقصدونها، ومثال العميان كلّ من لا يحسن تعلّم النجوم، ولا يلتفت إليه من الفقهاء والفهماء وأهل الديانات والعبادات، ثمّ سائر العوام والأعراب والأكراد، وهم أضعاف أضعاف من يراعي عدد النجوم، ومثال الطريق الذي فيه الآبار الزمان الذي يمضي عليه الخلق أجمعون، ومثال آباره مصائبه ونوائبه ومحنه.

وقد كان يجب لوضح العلم بالنجوم وأحكامها أن تكون سلامة المنجّمين أكثر ومصائبهم أقلّ لأنّهم يتوقّون المحن لعلمهم بها قبل كونها، وتكون محن كل من ذكرناه من الطبقات الكثيرة أوفر وأظهر حتّى تكون السلامة هي الطريقة الغريبة، وقد علمنا خلاف ذلك أنّ السلامة والمحن متقاربة غير متفاوتة.

فقال: ربّما اتفق مثل ذلك، فقلت له: فيجب أن نصدّق من خبرنا في ذلك الطريق المسلوك الذي فرضناه بأنّ سلامة العميان كسلامة البصراء، ونقول: لعلّ ذلك اتفق، وبعد فإنّ الإتفاق لا يستمر بل ينقطع، وهذا الذي ذكرناه مستمر غير منقطع، إلى أن قال:

ومن أدلّ الدليل على بطلان أحكام النجوم، إنّا قد علمنا أنّ من

جملة معجزات الأنبياء عليهم السلام الإخبار عن الغيوب، وعدّ ذلك خارقاً للعادات كإحياء الميّت وإبراء الأكمه والأبرص، ولو كان العلم بما يحدث طريقاً نجوميّاً لم يكن ما ذكرناه معجزاً ولا خارقاً للعادة، وكيف يشتبه على مسلم بطلان أحكام النجوم.

وقد اجتمع المسلمون قديماً وحديثاً على تكذيب المنجّمين والشهادة بفساد مذاهبهم وبطلان أحكامهم، ومعلوم من دين الرسول صلى الله عليه وآله ضرورة التكذيب بما يدّعيه والإزراء عليهم والتعجيز لهم، وفي الروايات عنه صلى الله عليه وآله من ذلك ما لا يحصى كثرة، وكذلك عن علماء أهل بيته عليهم السلام وخيار أصحابه، فما زالوا يبرؤون من مذاهب المنجّمين ويعدّونها ضلالاً ومحالاً، وما اشتهر هذه الشهرة في دين الإسلام، كيف يفتي بخلافه منتسب إلى الملّة ومصلٍ إلى القبلة؟

فأمّا إصابتهم في الإخبار عن الكسوفات فلأجل أنّ الكسوفات واقترانات الكواكب وانفصالها طريقة الحساب وتسيير الكواكب، وله أصول صحيحة وقواعد سديدة، وليس كذلك ما يدّعونه من تأثيرات الكواكب في الخير والشر والنفع والضر، انتهى كلامه رفع مقامه.

* * *

ومثله شيخ المتكلمين محمود بن علي الحمصي، قال في محكّي كلامه في (البحار):[1]

إنّا لا نرد عليهم فيما يتعلق بالحساب في تسيير النجوم واتصالاتها التي يذكرونها، فإنّ ذلك مما لا يهمّنا ولا هو مما يقابل بإنكار وردٍ، ثمّ قال:

(١) بحار الأنوار ٥٥: ٢٩٨.

فإن قيل: كيف تنكرون الأحكام وقد علمنا أنهم يحكمون بالكسوف ورؤية الأهلة ويكون الأمر على ما يحكمون في ذلك، وكذلك يخبرون عن أمور مستقبلة تجري على الإنسان، وتجري تلك الأمور على ما أخبروا عنها، فمع وضوح الأمر فيما ذكرناه كيف تدفع الأحكام.

قلنا: إنّ إخبارهم عن الكسوف والخسوف ورؤية الأهلة فليس من الأحكام، وإنّما هو من باب الحساب، إنّما الحكم أن يقولوا: إذا كان كسوف أو خسوف كان من الحوادث كذا وكذا، فأمّا الأمور المستقبلة التي يخبرون عنها فأكثرها لا تقع على ما يخبرون عنه وإنما يقع قليل منه بالإتفاق، ومثل ذلك يتفق لأصحاب الفال والزجر الذين لا يعرفون النجوم بل للعجائز اللواتي يتفألن بالأحجار، والذي قد يخبر المصروع وكثير من ناقصي العقول عن أشياء فيتفق وقوع ما يخبرون عنه، (انتهى).

* * *

ونحوهما الشيخ محمّد بن الحسين الكيدري قال في شرحه على الكتاب على ما حكي عنه في (البحار):[١]

كيف يمكن أن يكون الإنسان يعرف الحوادث وأسبابها في الحال حتّى يعرف المسبّبات في المستقبل كما في الجزر والمدّ، ومن ادّعى أنه يعرف أسباب الكائنات فمقدّماته ليست برهانية، وإنما هي تجربية أو شعرية أو خطابية مؤلفة من المشهورات في الظاهر أو المقبولات والمظنونات. ومع ذلك فلا يمكنه أن يتعرض إلاّ لجنس من أجناس الأسباب، وهو تعرض بعض الأسباب العلويّة، ولا يمكنه أن

---

(١) بحار الأنوار ٥٥: ٢٧٩.

يتعرض لجميع الأسباب السماويّة والقوابل، وإذا تغيّرت القوابل عن أحوالها تغيّر أثر الفاعل فيها، فإنّ النار في الحطب اليابس مؤثرة تأثيراً لا تؤثر في الرماد، وكذلك معرفة بقائها على استعداد القبول شرط، ويمكن أن تكون القوابل عوائق فلا يعلم تلك الأسباب والمسبّبات إلاّ الله تعالى.

وأيضاً فإنّ المنجّم يحكم على مفردات الكواكب، ولا يحكم على جميعها ممتزجة، وكما أنّ أحكام مفردات الترياق وسائر المعاجين غير أحكام المركب الذي حصلت له صورة نوعية، كذلك حكم الكواكب المركوزة في الأفلاك غير حكم أفرادها، وإذا لم يمكن المنجّم الحكم إلاّ على المفردات كان الحكم ناقصاً غير موثوق به.

ثمّ إنّه ربما يحصل التوأمان في غشاء فيكشف عنهما فإذا فيه صبيّان حيّان، وعلى قوانين الأحكاميين يجب أن يكونا مثلين في الصورة والعمر والحركات حتّى لا يجوز أن يختلفا في شيء من الأشياء، ولا يجوز أن يسكت أحدهما في وقت كلام الآخر، ولا يقوم في وقت قعود الآخر، ولا ينام في وقت لا ينام فيه الآخر، وإذا دخلا بيتاً فيه باب ضيق فلا يمكنهما الدخول فإنه لا بدّ ههنا من التقدّم والتأخر، ولا يجوز أن يمسّ الإنسان أحدهما دون الآخر، ولا يجوز أن يكون في التزويج امرأة أحدهما غير امرأة الآخر، ولا يكون مكان أحدهما غير مكان الآخر في الأرض، وهذا ما لا يخفى فساده.

وأيضاً فإنّ الحكم الكلي عند أكثرهم يغلب الجزئي، ألا ترى أنّ طالع ناحية أو بلد إذا كان فاسداً فإنّه لا يفيد عطية الكدخدا لإنسان، فكيف يعتمد على الطوالع والإختيارات مع نفي العلم بالكليات.

ومن شنيع قولهم أنّهم يقولون: إذا ولد للملك في حال ولد

ولسوقي ولد، فإنّ الكواكب تدل لابن الملك بخلاف ما تدلّ لابن السوقي مع اتفاقهما في كميّة العمر لأن هيلاجهما وكدخَداهما لا يختلفان، فإذا جاز أن تكون دلالة النجوم مختلفة في سعادة هذين الولدين فما أنكروا أن تكون مقادير أعمارهما أيضاً مختلفة؟

واختلفوا في تقويم الكواكب باختلاف الزيجات، ولا برهان على فساد بعضها وصواب بعضها، فربما يوجد في تقويم الشمس من التفاوت خمس درج، وتختلف درج الطوالع وبروج التحاويل بسبب ذلك فتفسد الأحكام ثمّ أُورد عليهم كثيراً من الإختلافات والتناقضات لا نطيل الكلام بإيرادها.

* * *

أقول: وما ذكره هؤلاء الأفاضل من الإختلافات والتناقضات والاستبعادات كلها مسلّم، إلاّ أنّ دلالتها على بطلان علم النجوم من أصله ممنوعة، ونحن لا نضايق من كثرة خطأ المتهجمين وخبطهم في أحكامهم، إلاّ أنّ إصابتهم فيها أيضاً غير عزيز، ودعوى أنّ كلّ هذه الإصابة على كثرتها من باب الإتفاق كما نرى، وسرّ كثرة وقوع الخطأ فيها أنّ ما في أيدي الناس من هذا العلم غير تام، وتمامه إنّما هو عند أئمّة الدين الذين هم خزّان العلم واليقين.

[صحة علم النجوم من خلال الروايات] :

ويشهد لما ذكرناه من صحّة هذا العلم في الجملة، وعلى أنّ له أصلاً الأخبار والإعتبار.

أمّا الأخبار فهي كثيرة لا تحصى.

منها: روايتا الإحتجاج والبحار السالفتان في التنبيه الثالث.

ومنها: ما رواه في (الكافي)[١] بإسناده عن معلّى بن خنيس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن النجوم أحقّ هي؟ قال: «نعم، إن الله عزّ وجلّ بعث المشتري إلى الأرض في صورة رجل، فأخذ رجلاً من العجم فعلّمه النجوم حتّى ظنّ أنه قد بلغ، ثمّ قال له: أنظر أين المشتري، فقال: ما أراه في الفلك، وما أدري أين هو، قال: فنحاه وأخذ بيد رجل من الهند فعلّمه حتّى ظنّ أنه قد بلغ، وقال: أنظر إلى المشتري أين هو؟ فقال: إنّ حسابي ليدلّ على أنك أنت المشتري، وقال: فشهق شهقة فمات، وورث علمه أهله فالعلم هناك».

ومنها: ما في (البحار)[٢] من كتاب النجوم عن الريّان بن الصلت، وذكر اجتماع العلماء بحضرة المأمون وحضور الصبّاح بن نصر الهندي عند مولانا الرضا عليه السلام، وسؤاله عن مسائل كثيرة منها سؤاله عن علم النجوم، فقال عليه السلام ما هذا لفظه: «هو علم في أصل صحيح، ذكروا أنّ أوّل من تكلم في النجوم إدريس، وكان ذو القرنين بها ماهراً، وأصل هذا العلم من عند الله عزّ وجلّ، ويقال: إنّ الله بعث النجم الذي يقال له المشتري إلى الأرض في صورة رجل، فأتى بلد العجم فعلّمهم في حديث طويل فلم يستكملوا ذلك، فأتى بلد الهند فعلّم رجلاً منهم، فمن هناك صار علم النجوم بها، وقد قال قوم: هو علم من علم الأنبياء خُصّوا به لأسباب شتّى، فلم يستدرك المنجمون الدقيق منها، فشابوا الحق بالكذب».

هذا آخر لفظ مولانا علي بن موسى الرضا عليه السلام في هذه الرواية الجليلة الإسناد، وقوله عليه السلام: «حجة على العباد»، وقوله عليه السلام: «ذكروا،

---

(١) الكافي ٨: ٣٣٠.

(٢) بحار الأنوار ٥٥: ٢٤٥ و٢٣٦.

ويقال» فإنّ عادته عند التقية من المخالفين والعامة يقول نحو هذا الكلام، وتارة يقول: كان أبي يقول، وتارة رُوي عن رسول الله ﷺ.

ومنها: ما فيه أيضاً من كتاب النجوم، وجدت في كتاب عتيق عن عطا، قال: قيل لعليّ بن أبي طالب عليه السلام: هل كان للنجوم أصل؟ قال: «نعم، نبيّ من الأنبياء قال له قومه: إنا لا نؤمن بك حتّى تعلمنا بدء الخلق وآجاله، فأوحى الله عز وجل إلى غمامة فأمطرتهم، واستنقع حول الجبل ماءاً صافياً، ثمّ أوحى الله عز وجل إلى الشمس والقمر والنجوم أن تجري في ذلك الماء، ثمّ أوحى الله إلى ذلك النبيّ أن يرتقي هو وقومه على الجبل، فارتقوا الجبل فقاموا على الماء حتّى عرفوا بدء الخلق وآجاله بمجاري الشمس والقمر والنجوم وساعات الليل والنهار، وكان أحدهم يعلم متى يموت ومتى يمرض، ومن ذا الذي يولد له، ومن ذا الذي لا يولد له، فبقوا كذلك برهة من دهرهم.

ثمّ إنّ داود عليه السلام قاتلهم على الكفر، فأخرجوا إلى داود في القتال من لم يحضر أجله ومن حضر أجله أخلفوه في بيوتهم، فكان يقتل من أصحاب داود ولا يقتل من هؤلاء واحد، فقال داود عليه السلام: ربّ أقاتل على طاعتك، ويقاتل هؤلاء على معصيتك، فيقتل أصحابي ولا يقتل من هؤلاء أحد؟ فأوحى إليه عز وجل: إني كنت علّمتهم بدء الخلق وآجاله، إنما أخرجوا إليك من لم يحضر أجله، ومن حضر أجله خلّفوه في بيوتهم، فمن ثمّ يُقتل من أصحابك ولا يقتل منهم أحد. قال داود: يا رب على ماذا علّمتهم؟ قال تعالى: على مجاري الشمس والقمر والنجوم وساعات الليل والنهار.

قال عليه السلام: فدعا الله عز وجل فحبس الشمس عليهم فزاد في النهار واختلطت الزيادة بالليل والنهار، فلم يعرفوا قدر الزيادة، فاختلط

حسابهم»، قال عليّ عليه السلام: «فمن ثمّ كره النظر في علم النجوم»، ورواه فيه أيضاً عن الدرّ المنثور، نعم زاد فيه أنّ النبي المذكور كان يوشع بن نون.

ومنها: ما رواه يونس بن عبد الرحمن قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك أخبرني عن علم النجوم ما هو؟ قال: «هو علم من علم الأنبياء»، قال: فقلت: كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام يعلمه؟ فقال: «كان أعلم الناس به».

والأخبار في هذا المعنى كثيرة لا نطيل بذكرها، ومن أراد الزيادة فليراجع إلى كتاب السماء والعالم من البحار، فقد عقد المجلسي فيه باباً على ذلك واستوفى الكلام فيه.[1]

[صحة العلم من طريق الاعتبار]:

وأمّا الإعتبار فهو إنا قد سمعنا تظافراً بل تواتراً، وحصل لنا العلم وجداناً، بأنّ من المنجّمين من حصل له العلم بجملة من الحوادث الإستقبالية في موارد شتى من طريق النجوم، وحكموا فيه فكان حكمهم مطابقاً للواقع، ولا بأس بالإشارة إلى بعض تلك الموارد تأييداً واستظهاراً.

فمنها: دلالة النجوم على نبوّة نوح عليه السلام فقد رواه في (البحار) من (كتاب التجمّل)[2] باسناده عن جميل عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام عمن ذكره قال: «قد كان علم نبوّة نوح بالنجوم».

ومنها: دلالتها على إبراهيم عليه السلام، ففي (البحار) أيضاً من كتاب النجوم من (كتاب التجمّل)، أنّ آذر أبا إبراهيم كان منجّماً لنمرود، ولم يكن يصدر إلاّ عن أمره، فنظر ليلة في النجوم فأصبح وهو يقول لنمرود: لقد رأيت في النجوم عجباً،

(١) أنظر: بحار الأنوار ٥٥: ٣٨٣.

(٢) بحار الأنوار ٥٥: ٢٣٥/ ح ١٦، ١٩ و٢٠.

قال: وما هو؟ قال: رأيت مولوداً يولد في زماننا يكون هلاكنا على يديه، ولا يلبث إلاّ قليلاً حتّى يُحمل به، قال: فتعجب من ذلك ثمّ قال: هل حملت به النساء بعد؟ قال: لا، فحجب الرجال عن النساء ولم يدع امرأة إلاّ جعلها في المدينة ولا يخلص إليها بعلها. قال: فوقع آذر على أهله فحملت بإبراهيم عليه السلام فظنّ أنه صاحبه، فأرسل إلى قوابل ذلك الزمان، وكنّ أعلم الناس بالجنين، ولا يكون في الرحم شيء إلاّ عرفنه وعلمن به، فنظرن فألزم ما في الرحم الظهر، فقلن: ما نرى في بطنها شيئاً، قال: وكان ممّا أوتي من العلم أنّ المولود سيحرق بالنار ولم يؤتَ علماً أنّ الله سينجيه منها.

قال المجلسي: وقد روى هذا الحديث عليّ بن إبراهيم في كتاب تفسير القرآن بأبسط من هذه الرواية. ورواه أيضاً أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري في الجزء الأوّل من تاريخه، ورواه أيضاً سعيد بن هبة الله الراوندي في كتاب قصص الأنبياء، ورواه الثعلبي في تفسيره وغيره من العلماء.

ومنها: دلالتها على نبوّة موسى عليه السلام، وكتب التاريخ مشحونة بذلك، وقد روى المجلسي من كتاب العرائس للثعلبي، قال: إنّ فرعون رأى في منامه أنّ ناراً قد أقبلت من بيت المقدس حتّى اشتملت على بيوت مصر فأحرقتها وأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، فدعى فرعون السحرة والكهنة والمعبرين والمنجمين وسألهم عن رؤياه، فقالوا له: إنّه يولد في بني إسرائيل غلام يسلبك ملكك ويغلبك على سلطانك، ويخرجك وقومك من أرضك، ويذلّ دينك، وقد أطلك زمانه الذي يولد فيه.

ومنها: دلالتها على نبوّة عيسى عليه السلام، روي في (البحار) من كتاب (النبوّة) لابن بابويه في باب سياقه حديث عيسى بن مريم، فقال: ما هذا لفظه: وفد علينا وفد من علماء المجوس زائرين معظمين لأمر ابنها، وقالوا: إنا قوم ننظر في

النجوم، فلما ولد ابنك طلع بمولده نجم من نجوم الملك، فنظرنا فيه فإذا ملكه ملك نبوة، لا يزول عنه ولا يفارقه حتّى يرفعه إلى السماء ويجاور ربّه عز وجل ما كانت الدنيا مكانها، ثمّ يصير إلى ملك هو أطول وأبقى مما كان فيه.

فخرجنا من قبل حتّى رُفعنا إلى هذا المكان فوجدنا النجم متطلعاً عليه من فوقه، فبذلك عرفنا موضعه، وقد أهدينا له هدية جعلناها له قرباناً لم يقرّب مثله لأحد قط، وذلك إنا وجدنا هذا القربان يشبه أمره، وهو الذهب والمرّ واللبان؛ لأنّ الذهب سيّد المتاع كلّه، وكذلك ابنك سيّد الناس ما كان حياً، ولأنّ المر جبار الجراحات والعاهات كلها، ولأنّ اللّبان يبلغ دخانه السماء ولن يبلغها دخان شيء غيره، وكذلك ابنك يرفعه اللّه عز وجل إلى السماء وليس يرفع من أهل زمانه غيره.

ومنها: دلالتها على النبي صلى الله عليه وآله ففي (البحار) وجد في كتاب (دلائل النبوّة) جمع أبي القاسم الحسين بن محمّد السّكوني بإسناده عن حسّان بن ثابت قال: إني والله لغلام يافع ابن سبع أو ثمان سنين أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهودّياً وهو على أكمة يثرب يصرخ: يا معشر اليهود، فلمّا اجتمعوا قالوا: ويلك ما لك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي يبعث به الليلة. قال: ووجدت كتاباً عندنا الآن اسمه كتاب اليد الصيني عمله كشينا ملك الهند، يذكر فيه تفصيل دلالة النجوم على نبوّة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله.

ومنها: موارد متفرقة، ذكر السيد بن طاووس رحمه الله في رسالته التي دوّنها في النجوم، وذكر جماعة من العلماء المعتنين بهذا العلم العارفين به تأييداً لصحتَه.

قال المجلسي: والسيد الجليل النبيل عليّ بن طاووس رحمه الله لأنس قليل له بهذا العلم، عمل في ذلك رسالة وبالغ في الإنكار على من اعتقد أنّ النجوم ذوات إرادة فاعلة أو مؤثّرة، واستدلّ على ذلك بدلائل كثيرة، وأيّده بكلام جمّ

غفير من الأفاضل، إلاّ أنّه أنكر على السيد الأجل المرتضى ﵀ في تحريمه، وذهب إلى أنه من العلوم المباحات، وأنّ النجوم علامات ودلالات على الحادثات، لكن يجوز للقادر الحكيم أن يغيّرها بالبِر والصدقة والدعاء وغير ذلك من الأسباب والدواعي على وفق آرائه وحكمته، وجوّز تعليم علم النجوم وتعلّمه والنظر فيه والعمل به إذا لم يعتقد أنها مؤثرة، وحمل أخبار النهي والذم على ما إذا اعتقد ذلك.

[أسماء جماعة من علماء الشيعة في علم النجوم]:

ثمّ ذكر تأييداً لصحة هذا العلم أسماء جماعة من الشيعة كانوا عارفين به فقال: إن جماعة من بني نوبخت كانوا علماء بالنجوم وقدوة في هذا الباب، ووقفت على عدّة مصنّفات لهم في النجوم، وأنها دلالات على الحادثات.

منهم: الحسن بن موسى النوبختي.

ومن علماء المنجمين من الشيعة: أحمد بن محمّد بن خالد البرقي، وذكر النجاشي في كتبه كتاب النجوم.

ومنهم: أحمد بن محمّد بن طلحة، فقد عدّ الشيخ والنجاشي من كتبه كتاب النجوم، والشيخ النجاشي كان له تصنيف في النجوم. ومن المذكورين بعلم النجوم الجلودي البصري.

ومنهم: عليّ بن محمّد بن العدوي والشمشاطي، فإنّه ذكر النجاشي أنّ له رسالة في إبطال أحكام النجوم.

ومنهم: عليّ بن محمّد العبّاس، فإنّ النجاشي ذكر في كتبه كتاب الردّ على المنجّمين، وكتاب الردّ على الفلاسفة.

ومنهم: محمّد بن أبي عمير.

ومنهم: محمّد بن مسعود العيّاشي، فإنّه ذكر في تصانيفه كتاب النجوم.

ومنهم: موسى بن الحسن بن عبّاس بن إسماعيل بن أبي سهل بن نوبخت، قال النجاشي: كان حسن المعرفة بالنجوم وله مصنّفات فيه، وكان مع ذلك حسن العبادة والدين.

ومنهم: الفضل بن أبي سهل بن نوبخت، وصل إلينا من تصانيفه ما يدلّ على قوّة معرفته بالنجوم، وذكر عن العيون ما أورده في أبواب تاريخ الرضا عليه السلام من أنّه أخبر المأمون بخطأ المنجّمين في الساعة التي اختاروها لولاية العهد، فزجره المأمون ونهاه أن يخبر به أحداً، فعلم أنّه تعمّد ذلك.[١]

أقول: والظاهر أنّ المراد بها هي ما رواها في (العيون)[٢] عن البيهقي عن الصّولي عن عون بن محمّد، قال: حدّثني الفضل بن أبي سهل النوبختي أو عن أخ له قال: لمّا عزم المأمون على العقد للرضا عليه السلام بالعهد، قلت: والله لأعتبرن ما في نفس المأمون من هذا الأمر، أيحبّ إتمامه أو هو تصنّع به؟ فكتبت إليه على يد خادم له كان يكاتبني بأسراره على يده:

قد عزم ذو الرياستين على عقد العهد والطالع السرطان وفيه المشتري، والسرّطان وإن كان شرف المشتري فهو برج منقلب لا يتمّ أمر يعقد فيه، ومع هذا فإنّ المرّيخ في الميزان في بيت العاقبة، وهذا يدلّ على نكبة المعقود له، وعرّفت أمير المؤمنين ذلك لئلا يعتب عليَّ إذا وقف على هذا من غيري.

فكتب إليَّ: إذا قرأت جوابي إليك فاردده إليَّ مع الخادم، ونفسك أن يقف أحد على ما عرفتنيه، أو أن يرجع ذو الرياستين عن عزمه فإنّه

(١) أنظر: بحار الأنوار ٥٥: ٢٩٨.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٥٩/ ح ١٩.

إن فعل ذلك ألحقت الذنب بك، وعلمت أنك سببه، قال: فضاقت عليَّ الدنيا، وتمنّيت أني ما كنت كتبت إليه.

ثمّ بلغني أنّ الفضل بن سهل ذو الرياستين قد تنبّه على الأمر ورجع عن عزمه، وكان حسن العلم بالنجوم، فخفت والله على نفسي، وركبت إليه فقلت له: أتعلم نجماً في السماء أسعد من المشتري؟ قال: لا، قلت: أفتعلم أنّ في الكواكب نجماً تكون في حال أسعد منها في شرفها؟ قال: لا، قلت: فامض العزم على رأيك إذ كنت تعتقد أن الفلك في أسعد حالاته فأمض الأمر على ذلك، فما علمت أنّي من أهل الدنيا حتّى وقع العقد فزعاً من المأمون.

ومنهم: السيّد الفاضل عليّ بن أبي الحسن العلوي المعروف بابن الأعلم، وكان صاحب الزيّج.

ومنهم: أبو الحسن النقيب الملقّب أبا قيراط.

ومنهم: الشيخ الفاضل الشيعي عليّ بن الحسين بن عليّ بن المسعودي مصنّف كتاب مروج الذهب.

ومنهم: أبو القاسم بن نافع من أصحابنا الشيعة.

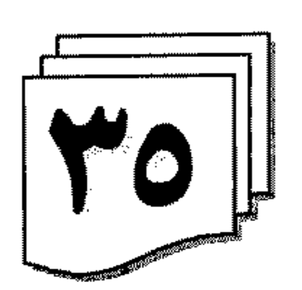
ومنهم: إبراهيم الفزاري صاحب القصيدة في النجوم، وكان منجماً للمنصور.

ومنهم: الشيخ الفاضل أحمد بن يوسف بن إبراهيم المصري كاتب آل طولون...

إلى كثير وكثير ممن اشتهر بهذا العلم من رجال الشيعة.

راجع بقية الموضوع في محلّه من كتاب منهاج البراعة (ج ٥ ص ٢٨٩).

* * *



قوله عليه السلام:

إِنَّ هَـذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الأَبْـدَانُ فَـابْتَغُوا لَهَـا طَرَائِـفَ الْحِكَم.

(نهج البلاغة ٤: ٢٠)

[القلب وعاء الحكمة]

قال ابن أبي الحديد:

لو قال: إنّها تملّ كما تملّ الأبدان فاحمضوا كما نقل عن غيره، لحمل ذلك على أنّه أراد نقلها إلى الفكاهات والأخبار والأشعار، ولكنه عليه السلام لم يقل: ذلك ولكن قال: فابتغوا لها طرائف الحكمة، فوجب أن يحمل كلامه عليه السلام على أنه أراد أن القلوب تملّ من الأنظار العلية في البراهين الكلامية على التوحيد والعدل، فابتغوا لها عند ملالها طرائف الحكمة، أي الأمثال الحكمية الراجعة إلى الحكمة الخلقية... مثل مدح الصبر والشجاعة والزهد والعفة، وذم الغضب والشهوة والهوى، وما يرجع إلى سياسة الإنسان نفسه وولده ومنزله وصديقه وسلطانه ونحو ذلك.

فإنّ هذا علم آخر وفنّ آخر، لا تحتاج القلوب فيه إلى فكر واستنباط فتتعب وتكلّ بترادف النظر والتأمل عليها، وفيه أيضاً لذّة عظيمة للنفس، وقد جاء في إجمام النفس كثير.

قال بعضهم: روّحوا القلوب برواتع الذكر. وعن سلمان الفارسي: أنا أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي. وقال عمر بن عبد العزيز: إنّ نفسي راحلتي إن كلّفتها فوق طاقتها انقطعت بي. وقال بعضهم: روّحوا الأذهان كما تروّحون الأبدان. وقال

أردشير بن بابك: إنّ للآذان مجّة وللقلوب ملّة، ففرّقوا بين الحكمتين بلهو يكن ذلك إستجماماً.[١]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

النفوس قد يقع لها انصراف عن العلم الواحد، وملال للنظر فيه بسبب مشابهة بعض أجزائه لبعض، فإذا اطلعت النفس على بعضه قاست ما لم تعلم منه على ما علمت، ولم يكن الباقي عندها من الغريب لتلتذّ به وتدوم على النظر فيه، ولمّا كان ذلك الملال والإنصراف غير محمود لها أمر عليه السلام بطلب طرائف الحكمة وأراد لطائفها وغرائبها المعجبة للنفس اللذيذة لها، لتكون أبداً في اكتساب الحكمة، والتلذاذ في انتقالها عن بعض غرائبها إلى بعض، وأراد بالحكمة الحكمة العمليّة وأقسامها أو أعمّ منها.[٢]

* * *

وقال الشيخ بن مغنية:

كلّ ما في الطبيعة من روعة وجمال هو من حكمة الله الخالدة التي أعطت الكون والإنسان ما أعطت، ولا تنحصر الحكمة بخصوص الأمثال والكلمات القصار في مدح الزهد والتقوى، كما فهم ابن أبي الحديد وغيره من الشارحين؛ لأنّ الإمام عليه السلام أراد بالحِكم هنا ما يُذهب عن القلب الملل والسأم، وعليه فمطلع الفجر وحدائق الزهر والصفصاف

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤٦.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن ميثم ٢: ٥٢٥.

على ضفاف النهر، وكل ما فيه عظمة الإعجاز الإلهي، ويرضي النفس ويوقظ فيها الحياة والأمل فهو من الحكمة، وعلينا أن ننشده ونتمتع به كلما أحسسنا بالتعب والفتور ليعود إلينا النشاط والأمل، ونستأنف الجهاد والنضال.(١)

* * *

ومما جاء في (منهاج البراعة):(٢)

سرّ التقدّم في جميع نواحي الحياة، وكسب المعالي والحسنات، هو نشاط القلب وتوجّهه نحو كل مقصد من المقاصد، فإذا نشط القلب نفخ في كل القوى روح الإنبعاث، وفي كلّ العضلات والأعضاء روح التحرّك والعمل، وإذا كسل وملّ يتوقّف معمل وجود الإنسان عن الحركة ولا يقدر على أيّ عمل.

وقد توجّهت أنظار أهل الصنعة وسائر حوائج الحياة إلى هذا السرّ، ودبّروا لإحياء نشاط العمّال والجيوش تدبيرات متنوّعة، واهتمّوا بالألعاب الرياضية، وحازت الصنائع الظريفة في المجتمع الإنساني محلاً رفيعاً، وذهب الناس باختلاف مذاهبهم وأحوالهم في هذا الميدان كل مذهب.

فأشار عليه السلام إلى هذا الموضوع، وحدّد التوجّه إلى ما ينشّط القلوب بما لا يفسدها من الفنون التافهة: كالموسيقي والمسكرات والألعاب الدنسة، وحصرها في الحِكم الطريفة، والمقصود منها ما كانت

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٦٩.

(٢) ج ٢١: ١٣٨.

مفيدة ومعقولة لا تمسّ بكرامة الإنسان وشرفه العقلائي: كالسبق والرماية المشروعين، والمزاح المتعادل، والمعاشرة مع الأصدقاء والأحباب، واشتغالٍ بالملذّات المباحة ونحو ذلك.

* * *

أقول: قد سبق أن ذكرنا موضوع الحكمة بقسميها العلمي والعملي في الحلقة الأولى من كتابنا (الحكمة والحكماء)،[1] ونعود هنا فنقول:

الحكمة: هي صفة أساسيّة في تكوين الشخصية الفذّة، وينطوي تحتها الحزم.

وهي وضع الأمور في مواضعها، وقدرها حقها، ومن الحكمة أن يكون المرء سديد الرأي بعيدَ النظر، مؤثراً للحق، عادلاً، بعيداً عن الهوى وميل النفس، محباً لغيره ما يحبّ لنفسه، يفعل ما يجب أن يُفعل، ويترك ما يجب أن يُترك، ومن الحكمة أيضاً بذل الجهد في إرضاء الناس من غير أن نبتذل كرامتنا، أو ننقص من أقدارنا في نظرهم.

ويُفسد الحكمة ويشوّه جمالها الفخر، والتكبّر، والحقد، والغيرة، والغشّ، فإنّ المتصف بواحدة من هذه الصفات تنفر منه الناس، ويتفرقون عنه.

في (مجمع البحرين):[2]

والحكمة: العلم الذي يرفع الإنسان عن فعل القبيح، مستعار من حكمة اللجام، وهي ما أحاط بحنك الدابة يمنعها الخروج. والحكمة: فهم المعاني، وسميت حكمة لأنها مانعة من الجهل.

---

(١) ما زال مخطوطاً، وسيصدر قريباً عن مؤسسة إحياء التراث الشيعي.

(٢) ج ١: ٥٥٣.

وفي دائرة معارف البستاني:

هي علم يُبحث فيه عن حقائق الأشياء، على ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية. وموضوعه الأشياء الموجودة في الأعيان والأذهان، وغايته التشرف بالكمالات في العاجل والفوز بالسعادة في الآجل.

وقال بعض المحققين: هي العلم بأحوال الأعيان الموجودة على ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاعة البشرية، وتلك الأعيان إمّا الأفعال والأعمال التي وجودها بقدرتنا واختيارنا أو لا، فالعلم بأحوال الأوّل من حيث يؤدي إلى إصلاح المعاش والمعاد يسمّى حكمة عملية، والعلم بأحوال الثاني يسمّى حكمة نظرية...[1]

[تعريف الحكمة]:

وفي المجلد الأوّل من كتاب (الأخلاق في حديث واحد) نقلاً عن (حكمة القلوب):

اختلف في تعريف الحكمة على أقوال:

قيل: هي معرفة الأشياء الموجودة.

وقيل: معرفة مجملات الأشياء، وأما مفصلاتها فلا سبيل للبشر إلى الإحاطة بها.

وقال حكيم: إحاطة الشهوات، وقطع أسباب الشهوات.

وقال بعض الحكماء: الحكمة نور يجعله الله في القلب، حتّى يدرك المشروعات والمحظورات والمعقولات والمستحيلات، كما ينوّر البصر فيرى المحسوسات.

---

(١) أنظر كشف الظنون ١: ٦٧٦، عنه البستاني في دائرة المعارف.

وقيل: الحكمة فهم المعاني مع اتّباع المباني.

وقال مجاهد: هي العقل والفهم والإصابة في القول.

وقيل: الحكمة القرآن.

وقيل: الحكمة نور الفطنة.

وقيل: الحكمة ما لا يقدح فيه العقل.

وقيل: الحكمة اسم لكل علم حسن، وعمل صالح.

وقال عالم: الحكمة لكل العلوم العقلية ـ أي مدركة بالعقل ـ.

وقيل: الحكمة والعلم مترادفان.

وقالت الحكماء: الحكمة هي العلم بحقائق الأشياء، على ما هي عليه في نفس الأمر بالقدرة البشريّة.

إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة.

وفي (سفينة البحار): روي عن نزهة الناظر لأبي علي الجعفري خليفة الشيخ المفيد رحمه الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كلمة حكمة يسمعها المؤمن فيعمل بها خير من عبادة سنة».

وفي (حكمة القلوب): قيل لبعض الحكماء: لِمَ لا تتعلّم الفقه؟ قال: تعلّمت ثلاث مسائل من كتب الفقه فهي تكفيني، فمن كتاب النكاح: إنّ الجمع بين الأختين بالنص لا يجوز، والدنيا والآخرة أختان. ومن كتاب الطلاق: إنّ مطلقة النبي لا يجوز لأحد نكاحها، والدنيا مطلقة النبي صلى الله عليه وآله. ومن كتاب البيع: إنّ الزائد على المثلين ربا، والربا حرام، والفاضل على القوت من الرزق كذلك.

[من حِكَم أفلاطون]:

وقال أفلاطون الحكيم: تعلّموا الحكمة وعلّموها، فإنها الفضيلة الإنسانية، وهي الفائدة العظيمة، والبضاعة المربحة، والخير الكثير.

وقال: الحمق نوعان: الجنون وعدم العلم.

وقال: لا تسأل شرّيراً حاجة، فإنه كما يحب في مذهبه، كذلك شرارته في عطيته، وإذا نظرت لك فكرة في شيء تريده أو تشتهيه، فاجعل ذلك كالعارض، فإنّ تهيّأ لك نلته بأسهل الأمور، وإن فاتك لا تضطرّ النفس إليه.

وقال: من علم أنه يموت، فليس ينبغي أن يغتمّ لأمر صعب يعرض له؛ لأنه لا يمكن أن يتوهّم الحي أمراً هو أصعب عليه من الموت.

وقال: العادة على كل شيء سلطان، سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الصبِر[١] العسل، من لم يواس الإخوان في دولته خذلوه عند نكبته، الحر من ملك النفس، الحكيم هو السيّد لناموس الطبيعة، أوضع الناس أوضعهم لقدره، البهيميّون والجهّال يقتصرون على الحسن والقبيح بقدر ما تناله حواسّهم الظاهرة حسن الأعضاء، وأمّا حسن الصورة فلا تراها إلاّ الحواس الباطنة، لا تنظر إلى أحد بالموضع الذي رتّبه فيه زمانه، وأنظر إليه بعين الحقيقة فإنها ترى مكانه الطبيعي، محبّتك للشيء ستر بينك وبين مساويه، من تعلّم العلم للفضيلة لا يوحشه كساده، ومن تعلّمه لجدواه انصرف عنه انصراف الحظ.

وقال: من طبخ قدراً لحماً وظن أنه نعمة واحدة فقد أخطأ؛ لأن الماء نعمة، واللحم نعمة، واللذّة عند أكله نعمة، فيجب الشكر على هذه النعم.

---

(١) بكسر الباء، ويعني: الدواء المر.

وقال: لا يكون الحكيم حكيماً، حتى تحصل له ملكة خلع الذنوب من البدن كما تخلع الثياب.

وما أحسن ما قيل: تعطّروا بالإستغفار لا تفضحنّكم رائحة الذنوب.

وكان أفلاطون يجلس فيستدعى منه الكلام، فلا يقول حتّى يحضر الناس، فيقولون إنّ من حولك أزيد من ألف إنسان، فيقول: لو كان واحد لتكلّمت، فإذا أرسطاطاليس تكلّم قال: تكلّموا قد حضر الناس.

وكان قنوته بهذه الكلمات: يا علّة العلل، يا قديماً لم يزل، يا منشئ مبادئ الحركات الأول، يا من إذا شاء فعل، احفظ عليّ صحتي النفسانيّة ما دامت في عالم الطبيعة.

وكتب إلى أستاذه بقراط: أيّ الناس أولى بالرحمة؟ ومتى تضيع أمور الناس؟ وبماذا تتلقّى النعمة من الله تعالى؟

فأجابه: أولى الناس بالرحمة ثلاثة: البرّ يكون في سلطان الفاجر، والعاقل في تدبير الجاهل، والكريم المحتاج إلى اللئيم، وتضيع أمور الناس في ثلاثة: إذا كان الرأي عند من لا يُقبل منه، والسلاح عند من لا يستعمله، والمال عند من لا ينفقه، وتتلقّى نعمة الله بثلاثة: كثرة شكره، ولزوم طاعته، واجتناب معصيته، فأقبل أفلاطون وتتلمّذ على يده حتّى مات.

وقال أحدهم: لو كانت الدنيا ذهباً فانياً، والآخرة خزفاً باقياً، لكان الخزف الباقي أولى بالرغبة من الذهب الفاني، والأمر بالعكس؛ لأنّ الدنيا هي الخزف الفاني، فكيف والآخرة هي الذهب الباقي، وإنّ في طلب الدنيا ذلّ النفوس، وفي طلب الآخرة عزّ النفوس، فوا عجباً لمن يختار الذل في طلب ما يفنى، ويترك العز في طلب ما يبقى.

حكم أرسطاطاليس:

قال المعلّم الأوّل أرسطاطاليس الحكيم: وليس طلبي للعلم طمعاً في بلوغ إفاضة، والتماساً لإستيلاءٍ وغلبة، ولكن لما لا يسعه جهله، ولا يحسن للعاقل خلافه، ومن لم يكن حليماً لم يزل سقيماً، النفس ليست في البدن بل البدن في النفس؛ لأنها أوسع منه، وأبسط السخاء بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة، اختصار الكلام طيّ المعاني ولفّ المباني، من لم يقدر على فعل فضيلة فليكن همّه ترك الرذيلة، غير منتفع بالحكمة قلب مرتبط في كَلَب المعيشة، البلاغ الإيجاز في الخطاب والسرعة في الجواب، الجاهل كالغريق إبتعد عنه ولا تقاربه، الحمق الإغراق في المدح والذم وعدم النظر في العواقب. وقال: الإنسانية أفق، والإنسان متحرّك إلى نفسه، فمن رفع عصاه عن نفسه وألقى حبله على غاربه، سيّب هواه في مرتاعه، ولم يضبط نفسه عما يدعوه إليه طبعه، وكان ليّن العريكة لاتّباع الشهوات الردية، فقد خرج عن أفقه.

وقال: إنّ النفوس الإنسانية إذا استكملت قوتي العلم والعمل به، تشبّهت بالإله سبحانه وتعالى، ووصلت إلى كمالها، وإنما هذا التشبيه بقدر الطاقة يكون إمّا بحسب الاستعداد، وإمّا بحسب الاجتهاد، وإذا فارق البدن اتصل بالروحانيين، وانخرط في سلك الملائكة المقرّبين، ويتمّ له الالتذاذ والإبتهاج، وليس كل لذّة هي جسمانية، فإنّ تلك اللذّات نفسانية عقلية، وهذه اللذّة الجسمانية تنتهي إلى حد، وتعرض للمتلذذ تسأماً وكلالاً وضعفاً، بخلاف اللذّات العقلية، فإنها كلما ازدادت اللذّات ازداد الشوق والحرص والعشق إليها، ولم يحقق المعاد ولم يثبت حشر ونشر ولا خلال إلاّ لهذا الرباط المحسوس من العالم، ولا إبطال لنظامه كما قال القدماء.

وكتب أرسطاطاليس إلى روح الله (على نبيّنا وعليه السلام):

بسم الله الرحمن الرحيم، يا طبيب النفوس المريضة بداء الجهالة، المكنفة بأكناف الرذالة، المنغمسة في العلائق البدنية، المكدرة بالكدورات الطبيعية، ويا موقظ القوم من رقدة الغافلين، ومنبّه العباد من مضيق الجاهلين، يا منجي الهلكى، ويا غياث من استغاث، إنّ ذاتاً هبطت واعترنت وتذكرت، فمنعت فهل إلى ذلك من سبيل؟

فأجابه عيسى عليه السلام: يا من شرّفك الله بالإستعدادات العقلية، والرموزات النقلية، كن طالباً لتنوير النفس بالأنوار الإلهية القدسيّة، الجاذبة من الدار الدنية إلى الدار السنية الباقية التي هي محل الأرواح الطاهرة والنفوس الزكيّة، واعلم أنّ مجرّد العقل غير كافر في الهداية إلى صراط مستقيم.

وقيل: الحكمة تفتح من أربعة أشياء: بدن فارغ من اشتغال الدنيا، وبطن فارغة من طعام الحرام، ويد خالية من عروض الدنيا، والتفكر من عاقبة الدنيا.

وقيل: الحكمة تنزل من السماء، فلا تدخل قلباً فيه أربعة أشياء: الركون إلى الدنيا، وهمّ رغدٍ، وحبّ الفضول، والحسد. وقيل: اجتمعت العرب والعجم على أربع كلمات، واختارتها من أربعة كتب، من التوراة: من قنع شبع، ومن الزبور: من سكت سلم، ومن الانجيل: من اعتزل نجا، ومن القرآن: من اعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم.

وقيل: إنّ الله سبحانه وتعالى، أوحى إلى داود عليه السلام: إنّ العاقل الحكيم لا يخلو من أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يحاسب بها نفسه، وساعة يمشي بها إلى الإخوان في الدين ليخبروه بعيوبه، وساعة يتخلّى بين نفسه وبين لذاتها الحلال.

[أقوال هرمس الحكيم]:

قال هِرمِس الحكيم: لا تمِل إلى الدنيا والهوى وحلاوتهما الصادتين لك عن الشغل بمعادك، فتكون كالغريق المشتغل عن التدبير بخلاص نفسه بحمل بضاعته، وهي بسبب عطبه. وقال: إذا كانت الحكمة خالصة، فهي معدن كل سعادة، ومظهر كل أدب، وماحية لكل شرّ. وقال: الدليل على غريزة الجود السماحة عند العسرة، والدليل على غريزة الورع العفو عند المقدرة، وغريزة الحلم الصبر عند الغضب.

وقال: أعظم الناس مصيبة في الدنيا والآخرة، مَن لم يكن له عقل ولا حكمة، ولا له في الأدب رغبة، يضيّع وقته بلا تحصيل معاش، أو حرمة معاد.

وقال: ربما شرق شارب الماء قبل ريّه. وقال: ومن جاوز الاكفاف لم يغنه الاكثار. ومن أقواله: المزاح يفني الهيبة كما تفني النار الحطب. والفرصة سريعة الفوت بطيئة العود، ولا أشجع من بريئ، ولا أجبن من خائف. والحكمة إنما هي الجواهر التي في أصداف قعور البحار، لا تُنال إلاّ بالغوّاصين الحذّاق. ولا يُمدح بكمال العقل من لا يكمل علمه، ولا بكمال العلم من لا يكمل عقله.

ومن كلامه: العاقل لا تدعه عيوبه يفرح بما ظهر من محاسنه. النصح بين الملأ تقريع. إعادة الإعتذار تذكير بالذنب، وما عفى عن الذنب من قرع به. الجاهل صغير وإن كان شيخاً، والعالم كبير وإن كان شاباً، الدنيا تهين من كانت تكرمه، والأرض تأكل من كانت تطعمه. الميت يقلّ الحاسد له ويكثر الكذب عليه. يكفيك من الحاسد أنه يغتمّ وقت سرورك. من مدحك بما ليس فيك فلا تأمنه، فإنّه قد يذمّك بما

ليس فيك. أمر الدنيا أحقر من أن يُطاع فيه الأحقار. زلّة العالم ككسر السفينة، تغرق ويغرق معها خلق كثير. الغنى وطن والفقر غربة، والطمع رقّ واليأس راحة. إذا كان الملك لا يقدر على قهر حواسه وغلبته شهواته، فكيف يقدر على ضبط خاصته، ومن لا يقدر على ضبط خاصته فكيف يقدر على ضبط أعوانه، وإذا لم يقدر على ضبط أعوانه فكيف يقدر على ضبط رغبته، وما بعد عن مملكته فسبيل الملك أن يهتدي بسلطانه على نفسه يستقيم له غيره.

وقال فيثاغورس الحكيم: ما أنفع للإنسان أن يتكلم بالأشياء الجليلة النفيسة، وإن لم يتمكن فليستمع إلى قائليها. ما أقبح للرجل أن يكون حرّاً ويصير عبداً للشهوات. لا برح خيراً من لا يتمكن من ضبط نفسه. من منع المال لمن يحمده ورثه لمن لا يحمده. الدنيا دولة مرّة لك ومرّة عليك، فإذا توليت فأحسن فإذا تولوك فَلِن. إنّ أكثر الآفات إنما تعرض للحيوانات لعدم الكلام، وتعرض للإنسان من قبل الكلام. لا تعجب من البلاء الشديد إذا نزل بالإنسان كيف يتألم له، ولكن إعجب من الذي صبر من الصبر كيف تحمّله، وكان إذا جلس على كرسيّه أوصى بهذه السبع الوصايا: قوّموا موازينكم واعرفوا أوزانها، عدّلوا الخطايا تصحبكم السلامة، ولا تشعلوا النار حيث ترون السكين يقطع، عدّلوا شهواتكم تستديموا الصحّة، استعملوا العدل تحيط بكم المحبة، وعاملوا الزمان كالولاة الذين يستعملون عليكم ويعزلون عنكم.

وذكر المال عنده ومُدح، فقال: وما حاجتي إلى ما يعطيه الحظ ويحفظه اللؤم ويهلكه السخاء، وقيل له: ما أصعب الأشياء على الإنسان؟

فقال: أن يعرف نفسه ويكتم سرّه. وحضرت الوفاة امرأته في أرض غربة فجعل أصحابه يحزنون على موتها، فقال: يا معشر الأخوان ليس بين الموت في الرغبة والموت في الوطن فرق، وذلك أنّ الطريق واحد من جميع النواحي، وكان نقش خاتمه: (شرّ لا يدوم خير من خير لا يدوم) أي: شرّ ينتظر زواله خير من خير ينتظر زواله.

وقيل: إنّه اقتبس أنوار حكمته من أصحاب نبيّ الله سليمان بن داود عليه السلام، ومن رموز كلامه: لا تحرّك النار بالسكين لأنها قد حميت منها مرة أخرى.

قال سقراط الحكيم الزاهد تلميذ تلميذ فيثاغورس:

نفوس الأخيار نافرة عن أفعال الفجار، ونفوس الأشرار مبرحة بما عمل الأبرار، شخص بغير علم كجسد بلا روح، ولا ينبغي للأديب أن يخاطب الجاهل كالصاحي ينازع السكران، اتفاق النفوس باتفاق مهمّتها، واختلافها باختلاف مرادها.

النفس جامعة لكل شيء، فمن عرف نفسه عرف كل شيء، ومن جهل نفسه جهل كل شيء، ومن بخل على نفسه فهو على غيرها أبخل، ومن جار على نفسه فلذلك المرجوّ جوده، ومن لا يحسن النظر لنفسه أوشك أن لا يحسنه لغيره، النفس عوض عن كل شيء ولا شيء عوض عن النفس، مضيّع نفسه مضيّع كل شيء، وحافظ نفسه حافظ كل شرع.

مَن ملك سرّه أخفى على الناس أمره، العقول مواهب والعلوم مكاسب، من ظنّ أنّه شيء ولا يُحسن شيئاً فليس بشيء، فلا يتأهل بشيء سوى التوبيخ، كن كاملاً حتّى يأمنك عدوّك، فكيف بك إذا كنت لا يأمنك صديقك، اتّقوا من تبغضه قلوبكم، الدنيا سجن لمن زهد فيها،

وجنّة لمن أحبها، إنما الدنيا كطريق فيه شوك مغطّى بالتراب يدوسه من لا يعرف مسلكه، فيشكه ويؤلمه، ويقف عنه من استراب به فيسلم منه، ما أغفل من تيقّن بالرحيل من الدنيا وهو دأبه مجتهد في عاداتها.

ومن كلامه: لا تعرف المنزل الجيّد حتّى تنزل المنزل الردي. إنّ مساعدة الأمور للمرء تكاد أن تسلبه عقله. القلب الفارغ يبحث عن الأهواء، واليد الفارغة تسارع إلى الآثام. كن مع والديك كما تحب أن يكون معك بنوك. من طابت حياته طابت ميتته. إنما جعل للإنسان لسان واحد وإذنان ليكون ما يسمعه أكثر مما يتكلّم به.

قال ديوجانس الحكيم: ليس من كفّ عن الشر بمرء ولكن من عمل الخير. ورأى شاباً قبيح الوجه سيّء الأدب، فقال له: جمعت فضائل نفسك بمحاسن وجهك، وسئل عن وقت الأكل فقال: لا يمكنه إذا جاع ولمن لا يمكنه إذا وجد. وسئل عن الأصدقاء فقال: نفس واحدة في أجساد متفرقة. ورأى رجلاً يخطب امرأة فقال: راحة قليلة تجلب تعباً كثيراً وكثيراً. وقيل له: إنّ الملك لا يحبّك، فقال: نعم لأنّه لا يحب من هو أكبر منه. ورأى رجلاً يدعو ويسأل أن يُرزق الحكمة، فقال: لو اجتهدت في التعلّم لرزقها. ودخل عليه الاسكندر وهو نائم، فضربه برجله وقال له: قم فقد فتحنا مدينتك، فقال له: إنّ فتح المدن لا ينكر للملوك، ولكن الضرب بالرجل من صنيع الحمير.

وكان في زمانه رجل يصوّر فترك التصوير وصار طبيباً، فقال له: أحسنت، إنك لما رايت خطأ التصوير ظاهراً للعين، وخطأ الطب يواريه التراب تركت التصوير ودخلت في الطب. ورأى رجلاً شرّيراً حسن الوجه، فقال: نعم البيت وبئس الساكن. ورأى حدثاً لا أدب له وهو

جالس على حجر. فقال: حجر على حجر، وسئل عن العشق فقال: مرض ميل نفس فارغة لا همّة لها، ورأى عجوزاً تزيّنت فقال: إن كنت تهيأت للأحياء فأنت مخادعة، وإن كنت تهيأت للأموات فبادري. وعوتب على ترك النساء فقال: وجدت مكائدة العانة أيسر عليّ من الإختيال لمصلحة العيال. ومرّ به الملك فوجده جالساً في مشرق فوقف عليه وقال له: سل حاجتك، فقال: حاجتي إليك التنحيّ عني حتّى تقع عليّ الشمس. وقيل له: لِمَ سُميّت بالكلب؟ قال: لأني أبصبص للأخيار وأهرّ على الأشرار. ووقف الإسكندر عليه يوماً فلم يلتفت إليه، فقال: يا ديوجانس ما هذا التهاون بي، اترك الأعراض عني واسألني حاجتك، فقال: وأيّ حاجة تكون لي إلى عبد عبدي، فقال له الاسكندر: ومَن عبد عبدك؟ قال: أنت، قال: وكيف ذلك؟ فقال له: لأني ملكت الشهوة فقهرتها واستعبدتها، وملكتك الشهوة فقهرتك واستعبدتك، فأنت عبد لمن استعبدته أنا.

قال زينون الأكبر الحكيم: أحسن ما عوشر به الملوك البشاشة، وتخفيف المؤونة، وقلة الخلاف. وقال: طالب يسار الدنيا جاهل لأنّه لا نهاية له، وقال: الذي هو أحدّ من السيف لسان الرجل الفصيح. وحكي أنه قال لتلامذته: إن ذهب منكم شيء فلا تقولوا: ذهب منا، ولكن قولوا رددناه إلى أهله؛ لأنّه لو كان لكم لكنتم مالكيه مذ كنتم، بل لتتمتعوا به إذا كان عندكم، فالإنسان الساكن في الدار إذا نزل فهي له بيت، وإذا خرج منها فهو غريب. وقيل له: ما النوم؟ قال: راحة من التعب وملائم للموت. وقال: لا تخف موت البدن ولكن خف موت النفس، فقيل له: لِمَ قلت ذلك والنفوس لا تموت؟ فقال: إذا نُقلت النفس الناطقة من حدّ

النطق إلى حدّ البهيمي، وإن جوهراً لا يبطل، فقد ماتت من العيش العقلي. لا تأمن من كذّب أن يكذب عليك. ونقل الصخور من موضعها أيسر من تفهيم من لا يفهم. كل أمر حدثتك به نفسك مما لو ظهر على لسانك استحييت من الناس فأخرجه من قلبك، فإنّ الله أحق أن يُستحى منه. وإيّاك والمراء فإنه يدعو إلى سفك الدماء، وعند إراقتها تكون الهلكة والبوار.

إذا أردت أن تواخي أخاً فأغضبه، فإن أنصفك فالزمه وإلاّ فاحذره. إن غلبت على الكلام فلا تغلبن على السكوت. وكن على ما تسمع أحرص منك على أن تقول. وقال: اعتزلوا الناس تسلم لكم قلوبكم، وتستريح أبدانكم، وتطيب أنفسكم. وقال: اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنّه لا بقاء للنعمة إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت. وقال: أوضع الأخلاق إغتيال الصديق، وإضاعة السرّ، والثقة بكل أحد، وكثرة الكلام فيما لا يعني، وطلب الفضل من اللئام. وقال: لا يغلب عليك سوء الظن بينك وبين حبيب صلحاً. وقال: العقل بلا أدب كالشجرة العاقرة، والعقل مع الأدب كالشجرة المثمرة.

وقال اسقلينوس الحكيم:

من عرف الأيام لم يغفل الإستعداد. كم من دهر ذممته فلما صرت إلى غيره حمدته، وكم من أمر يُغضب عند أوّله ويبكي عند آخره عليه. المتعبّد بغير المعرفة كالحمار للطاحون يدور ويتعب ولا يدري ما هو فاعل. تعليم الجاهل إزدياد في جهله. مساءلة اللئيم إهانة للغرض. المشفق عليكم سيّء الظن بكم، والزار عليكم كثير المقت لكم، وذو البغضاء عليكم قليل النصيحة لكم. وقيل أنه كان تلميذ نبيّ الله إدريس عليه السلام.

قال الإسكندر الرومي:

من كنت تحبّ الحياة لأجله فلا تستعظم الموت في طلبه. وقال: السعيد الذي لا يعرفنا ولا نعرفه؛ لأنّا إذا عرفناه عطّلنا يومه وأبطلنا نومه، فأطال لومنا وشنّع قومنا. وقال: إستقل كثير ما تعطي، واستكثر قليل ما تأخذ، وإنّ الكريم يلتذ بما يعطي، واللئيم بما يأخذ. وقال: لا تجعلنّ الشحيح صفياً، ولا الكذّاب أميناً، فلا عفّ مع شحّ، ولا أمانة مع كذب.

قيل: مات الاسكندر بروميّة المدائن، فوضعوه في تابوت من ذهب وحملوه إلى الإسكندرية، واجتمعت الحكماء وندبوه: فقال ميلاطوس الحكيم: خرجنا إلى الدنيا كارهين، وأقمنا فيها غافلين، وفارقناها كارهين. وقال بيلموس: هذا يوم أقبل من شرّه ما كان مدبراً، وأدبر من خيره ما كان مقبلاً. وقال زينون الأصغر: يا عظيم الشأن ما كنت إلاّ سحاباً اضمحل لما أضل، فلا تخش له أثراً، ولا تعرف له خيراً. وقال إفلاطون الثاني: جمعت ما تفرّق، وتوليّت ما تولّى، فلزمتك أوزاره، وعادت على غيرك أثماره. وقال قوطس: ألا تعجبوا ممن يعظنا اختياراً فوعظنا إضطراراً. وقال مستطور: كنّا بالأمس نقدر على النظر دون القول، واليوم نقدر على القول دون النظر. وقال ثاون: أنظر إلى حلم النائم كيف انقضى، وإلى ظلّ الغمام كيف انجلى. وقال أميرس: كم أمات لئلا يموت، فمات ولم يدفع الموت بالموت. وقال حكيم: طوى الأرض العريضة فلم يقنع حتّى طوي في ذراعين منها. وقال حكيم: ما سافر الاسكندر سفراً بلا أعوان ولا عدّة إلاّ هنا. وقال آخر: لم يؤدبنا بكلامه أدّبنا بسكوته. وقال آخر: الآن تضطرب الأقاليم لأنّ مسكنّها قد سكن.

وقال بعضهم: غير ذلك.

ومن حكم لقمان الحكيم في وصاياه لابنه:

قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال، ولا أهل، ولا بسط في جسم ولا جمال، ولكنه كان رجلاً قوياً في أمر الله، متورّعاً في الله، ساكناً مسكيناً، عميق النظر، طويل الفكر، حديد النظر، مستغن بالصبر، لم ينَم نهاراً قط، ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال، لشدة تستّره، وعمق نظره وتحفظه في أمره، ولم يضحك من شيء قط مخافة الإثم، ولم يغضب قط، ولم يمازح إنساناً قط، ولم يفرح لشيء قط إن أتاه من أمر الدنيا، ولا حزن منها على شيء قط، وقد نكح من النساء وولد له من الأولاد الكثيرة، وقدّم أكثرهم فما بكى على موت أحد منهم، ولم يمرّ برجلين يختصمان أو يقتتلان إلاّ أصلح بينهما، ولم يمض عنهما حتّى تحاجزا، ولم يسمع قولاً قط من أحد استحسنه إلاّ سأل عن تفسيره وعمن أخذه.

وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء، ولا يغشى القضاة والملوك والسلاطين، فيرثي للقضاة مما ابتلوا به، ويرحم الملوك والسلاطين لعزّتهم بالله وطمأنينتهم في ذلك.

ويعتبر ويتعلّم ما يغلب به نفسه، ويجاهد به هواه، ويحترز من الشيطان، وكان يداوي قلبه بالتفكر، فبذلك أوتي الحكمة ومنح العصمة، وإنّ الله تبارك وتعالى أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهار وهدأت العيون بالقائلة، فنادوا لقمان حيث يسمع ولا يراهم، فقالوا: يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس؟ فقال لقمان: إن أمرني ربي بذلك فالسمع والطاعة؛ لأنه إن فعل بي ذلك أعانني عليه وعلمني وعصمني، وإن هو خيّرني قبلت العافية، فقالت الملائكة: يا

لقمان لِمَ؟ قال: لأنّ الحاكم بين الناس بأشدّ المنازل من الدين، وأكثر فتناً وبلاء، إمّا أن يُخذل ولا يُعان ويغشاه الظلم من كل مكان، وصاحبه فيه بين أمرين إن أصاب فيه الحق فبالحري أن يسلم، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنّة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً وضعيفاً كان أهون عليه في المعاد من أن يكون حكماً سَرِيّاً شريفاً، ومن اختار الدنيا على الآخرة يخسرهما كلتيهما، تزول هذه ولا تدرك تلك.

فعجبت الملائكة من حكمته، واستحسن الرحمن منطقه، فلما أمسى وأخذ مضجعه من الليل أنزل الله عليه الحكمة فغشاه بها من قرنه إلى قدمه، فاستيقظ وهو أحكم الناس ينطق بها ويبيّنها للناس».[١]

يتحدّث المجلسي في (البحار):[٢]

إنّ لقمان لما خرج من بلاده، نزل بقرية بالموصل يقال لها كوماس، فلما ضاق بها ذرعه، واشتد غمه ولم يكن أحد يتبعه على أمره، أغلق الأبواب وأدخل ابنه ناتان وأخذ يعظه فقال:

يا بنيّ، إنك منذ سقطت إلى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة، فدار أنت إليها تسير أقرب إليك من دار أنت عنها متباعد.

يا بنيّ، إنّ الدنيا بحر عميق قد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان، وشراعها التوكل، وزادك فيها تقوى الله، فإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك.

يا بنيّ، إن تأدّبت صغيراً انتفعت به كبيراً، ومن عني بالأدب اهتمّ به، ومن اهتمّ به تكلف علمه، ومن تكلّف علمه اشتد له طلبه، ومن اشتدّ

---

(١) أنظر: تفسير القمي ٢: ١٦١.

(٢) ج ١٣: ٤٢٧.

له طلبه أدرك منفعته فاتخذه عادة، فانك تخلف في سلفك وتنفع به من خلفك ويرتجيك فيه راغب، ويخشى صولتك راهب، وإياك والكسل عنه والطلب لغيره، فإن غُلِبتَ على الدنيا فلا تُغلبنّ على الآخرة، فإن فاتك طلب العلم في مظانّه فقد غلبت على الآخرة، واجعل في أيامك ولياليك وساعاتك لنفسك نصيباً في طلب العلم، فإن فاتك لن تجد له تضييعاً أشد من تركه، ولا تمارينّ فيه لجوجاً ولا تجادلنّ فقيهاً، ولا تعادينّ سلطاناً، ولا تماشينّ ظلوماً ولا تصادقنّه، ولا تواخينّ فاسقاً، ولا تصاحبنّ متهماً، وأخزن علمك كما تخزن ورقك.

يا بنيّ، جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، ولا تجادلهم فيمنعوك، وخذ من الدنيا بلاغاً، ولا ترفضها فتكون عيالاً على الناس، ولا تدخل فيها دخولاً يضرّ بآخرتك، وصم صوماً يقطع شهوتك، ولا تصم صياماً يمنعك من الصلاة، فإنّ الصلاة أحبّ إلى الله من الصيام.

يا بنيّ، خف الله خوفاً لو أتيت يوم القيامة (بعمل) الثقلين خفت أن يعذبك، وارجُ الله رجاءاً لو وافيت يوم القيامة بإثم الثقلين رجوت أن يغفر لك.

فقال ابنه: يا أبتِ وكيف أطيق هذا، وإنما لي قلب واحد؟

فقال له لقمان: يا بني لو استخرج قلب المؤمن فشقّ لوجد فيه نوران: نور للخوف ونور للرجاء، ولو وزنا لما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرة، فمن يؤمن بالله يصدّق ما قال الله، ومن يصدّق ما قال الله يفعل ما أمر الله، ومن لم يفعل ما أمر الله لم يصدّق ما قال الله، فإنّ هذه الأخلاق تشهد بعضها لبعض، فمن يؤمن بالله إيماناً صادقاً يعمل لله خالصاً ناصحاً، ومن يعمل لله خالصاً ناصحاً فقد آمن بالله صادقاً، ومن يطع الله خافه، ومن خافه فقد أحبّه، ومن أحبّه اتبع أمره، ومن اتبع أمره

استوجب جنّته ومرضاته، ومن لم يتبع رضوان الله فقد هان عليه سخطه، نعوذ بالله من سخطه.

يا بنيّ، لا تركن إلى الدنيا، ولا تشغل قلبك بها، فما خلق الله خلقاً هو أهون عليه منها، ألا ترى أنه لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين، ولم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين.

يا بنيّ، ليعتبر من قصر يقينه، وضعفت نيته في طلب الرزق، أنّ الله تبارك وتعالى سيرزقه في ثلاثة أحوال من أمره، وأتاه رزقه ولم يكن له في واحدة منها كسب ولا حيلة، إنّ الله تعالى سيرزقه في الحال الرابعة، أما أوّل ذلك فإنه كان في رحم أمّه يرزقه هناك في قرار مكين، حيث لا يؤذيه حرّ ولا برد، ثمّ أخرجه من ذلك وأجرى له رزقاً من لبن أمّه يكفيه ويربّيه وينعشه من غير حول به ولا قوة، ثمّ فطم من ذلك فاجرى له رزقاً من كسب أبويه برأفة ورحمة له من قلوبهما، لا يملكان غير ذلك حتّى أنهما يؤثرانه على أنفسهما في أحوال كثيرة، حتّى إذا كبر وعقل واكتسب لنفسه ضاق به أمره وظن الظنون بربّه، وجحد الحقوق في ماله، وقتّر على نفسه وعياله مخافة إقتار رزق، وسوء يقين بالخَلِفَ من الله في العاجل والآجل، فبئس العبد هذا يا بني.

يا بنيّ، لكل شيء علامة يعرف بها ويشهد عليها، وإنّ للدين ثلاث علامات: العلم، والإيمان والعمل به، وللإيمان ثلاث علامات: الإيمان بالله وكتبه ورسله، وللعالم ثلاث علامات: العلم بالله، وبما يجب، وبما يكره، وللعامل ثلاث علامات: الصلاة والصيام والزكاة، وللمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه ويقول ما لا يعلم، ويتعاطى ما لا ينال، وللظالم ثلاث علامات: يظلم من فوقه بالمعصية، ومن دونه بالغلبة،

ويعين الظلمة، وللمنافق ثلاث علامات: يخالف لسانه قلبه، وقلبه فعله، وعلانيته سريرته، وللآثم ثلاث علامات: يخون ويكذب ويخالف ما يقول، وللمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان الناس عنده، ويتعرض في كل أمر للمحمدة، وللحاسد ثلاث علامات: يغتاب إذا غاب، ويتملق إذا شهد، ويشمت بالمصيبة. وللمسرف ثلاث علامات: يشتري ما ليس له، ويلبس ما ليس له، ويأكل ما ليس له. وللكسلان ثلاث علامات: يتوانى حتّى يفرط، ويفرط حتّى يضيّع، ويضيّع حتّى يأثم. وللغافل ثلاث علامات: السهو واللهو والنسيان.

يا بنيّ، إن تك في شكّ من الموت فادفع عن نفسك النوم ولن تستطيع ذلك، وإن تك في شكّ من البعث فادفع عن نفسك الانتباه ولن تستطيع ذلك، فإنك إذا فكّرت في هذا علمت أن نفسك بيد غيرك، وإنما النوم بمنزلة الموت، وإنما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت.

يا بنيّ، ليكن مما تستظهر به على عدوّك الورع عن المحارم، والفضل في دينك، والصيانة لمروّتك، والإكرام لنفسك أن تدنّسها بمعاصي الرحمن ومساوي الأخلاق وقبيح الأفعال، واكتم سرّك وأحسن سريرتك، فإنك إذا فعلت ذلك أمنت بسرّ الله أن يصيب عدوك منك عورة أو يقدر منك على زلّة، ولا تأمننّ مكره، فيصيب منك غرّة في بعض حالاتك، فإذا تمكن منك وثب عليك ولم يُقلكَ عثرة، وليكن مما تتسلح به على عدوك إعلان الرضا عنه، واستصغر الكثير في طلب المنفعة، واستعظم الصغير في ركوب المضرّة.

يا بنيّ، لا تجالس الناس بغير طريقتهم، ولا تحملنّ عليهم فوق طاقتهم، فلا يزال جليسك عنك نافراً، والمحمول عليه فوق طاقته مجانباً

لك، فإذا أنت فرد لا صاحب لك يؤنسك، ولا أخ لك يعضدك، فإذا بقيت وحيداً كنت مخذولاً وصرت ذليلاً، ولا تعتذر إلى من لا يحبّ أن يقبل لك عذراً، ولا يرى لك حقاً، ولا تستعن في أمورك إلاّ ممن يحب أن يتخذ في قضاء حاجتك أجراً، فإنه إذا كان كذلك طلب قضاء حاجتك لك كطلبه لنفسه؛ لأنه بعد نجاحها لك كان ربحاً في الدنيا الفانية، وحظّاً وذخراً له في الدار الباقية، فيجتهد في قضائها لك، وليكن اخوانك أصحابك الذين تستخلصهم وتستعين بهم على أمورك، أهل المروّة والكفاف والثروة والعقل والعفاف الذين إن نفعتهم شكروك، وإن غبت عنهم ذكروك.

يا بنيّ، إيّاك والضجر وسوء الخلق وقلة الصبر، فلا يستقيم على هذه الخصال صاحب، والزم نفسك التؤدة في أمورك، وصبّر على مؤونات الإخوان نفسك، وحسّن مع جميع الناس خلقك.

يا بنيّ، إن عدمك ما تصل به قرابتك، وتتفضّل به على اخوانك فلا يعدمنّك حسن الخلق وبسط البشر، فإنه من حسّن خلقه أحبّه الأخيار، وجانبه الفجّار، واقنع بقسم الله ليصفو عيشك، فإن أردت أن تجمع عزّ الدنيا فاقطع طمعك مما في أيدي الناس، فإنما بلغ الأنبياء والصدّيقون ما بلغوا بقطع طمعهم.

يا بنيّ، إذا احتجت إلى سلطان فلا تكثر الإلحاح عليه، ولا تطلب حاجتك منه إلاّ في مواضع الطلب، وذلك حين الرضا وطيب النفس، ولا تضجرنّ بطلب حاجة فإن قضاءها بيد الله، ولها أوقات، ولكن ارغب إلى الله وسله وحرّك إليه أصابعك.

يا بنيّ، إنّ الدنيا قليل وعمرك قصير.

يا بنيّ، احذر الحسد فلا يكوننّ من شأنك، واجتنب سوء الخلق فلا يكوننّ من طبعك فإنّك لا تضر بهما إلاّ نفسك، وإذا كنت الضار لنفسك كفيت عدوك أمرك؛ لأنّ عداوتك لنفسك أضرّ عليك من عداوة غيرك.

يا بنيّ، اجعل معروفك في أهله، وكن طالباً لثواب الله، وكن مقتصداً ولا تمسكه تقتيراً، ولا تعطه تبذيراً.

يا بنيّ، سيد أخلاق الحكمة دين الله تعالى، ومثل الدين كمثل شجرة نابتة، فالإيمان بالله ماؤها، والصلواة عروقها، والزكاة جذعها، والتآخي في الله شعبها، والأخلاق الحسنة ورقها، والخروج عن معاصي الله ثمرها، ولا تكمل الشجرة إلاّ بثمرة طيبة، كذلك الدين لا يكمل إلاّ بالخروج عن المحارم.

يا بنيّ، لكل شيء علامة يُعرف بها، وإنّ للدين ثلاث علامات: الفقه، والعلم، والحلم.

يا بنيّ، اخلص طاعة الله حتّى لا تخالطها بشيء من المعاصي، ثمّ زيّن الطاعة باتباع أهل الحق، فإنّ طاعتهم متصلة بطاعة الله تعالى، وزيّن ذلك بالعلم، وحصّن علمك بحلم لا يخالطه حمق، وأخزنه بلين لا يخالطه جهل، وشدّده بحزم لا يخالطه الضياع، وامزج حزمك برفق لا يخالطه العنف.

يا بنيّ، إني حملت الجندل والحديد وكل حمل ثقيل، فلم أر شيئاً أثقل من جار السوء، وذقت المرارات كلها فما ذقت شيئاً أمرّ من الفقر.

يا بنيّ، لا تتخذ الجاهل رسولاً، فإن لم تصب عاقلاً حكيماً يكون رسولك، فكن أنت رسول نفسك.

يا بنيّ، إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبقَ لهم ما جمعوا، ولم يبقَ من جمعوا له، وإنما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل

ووُعدت عليه أجراً فأوفِ عملك واستوفِ أجرك، ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت منه حتّى سمنت فكان حتفها عند سمنها، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها وتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر، أخربها ولا تعمرها فإنك لم تؤمر بعمارتها.

واعلم أنك ستُسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله ﷻ عن أربع: شبابك فيما أبليته، وعمرك فيما أفنيته، ومالك مما اكتسبته، وفيما أنفقته، فتأهب لذلك وأعدّ له جواباً، ولا تأسف على ما فاتك من الدنيا، فإنّ قليل الدنيا لا يدوم بقاؤه، وكثيرها لا يؤمن بلاؤه، فخذ حذرك، وجدّ في أمرك، واكشف الغطاء عن وجهك، وتعرّض لمعروف ربك، وجدّد التوبة في قلبك، والمشي في فراغك قبل أن يقصد قصدك، ويقضي قضاؤك ويُحال بينك وبين ما تريد.

يا بنيّ، لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة، ولا تشمت بالموت، ولا تسخر بالمبتلى، ولا تمنع المعروف.

يا بنيّ، اتخذ تقوى الله تجارة تأتيك الأرباح من غير بضاعة، وإذا أخطأت خطيئة فابعث في أثرها صدقة تطفئها.

يا بنيّ، إنّ الموعظة تشقّ على السفيه كما يشقّ الصعود على الشيخ الكبير.

يا بنيّ، لا ترث لمن ظلمته ولكن إرث لسوء ما جنيته على نفسك، وإذا دعتك القدرة إلى ظلم الناس فاذكر قدرة الله عليك.

يا بنيّ، تعلم من العلماء ما جهلت، وعلّم الناس ما علمت.

يا بنيّ، أقلّ الكلام، واذكر الله في كل مقام، فإنّه قد أنذرك وحذّرك، وبصّرك وعلّمك، واتعظ بالناس قبل أن يتعظ الناس بك.

يا بنيّ، اتعظ بالصغيرة قبل أن تنزل بك الكبيرة، واملك نفسك إذا رأيت غضباً لئلا تكون لجهنّم حطباً.

يا بنيّ، لا تأمن من الدنيا والذنوب والشيطان، فقد افتتن بها الصالحون الأوّلون فكيف ينجو الآخرون، اجعل الدنيا سجنك تكن الآخرة جنّتك، إنك لم تكلّف أن تشيل الجبال، ولم تكلف ما لا تطيقه، فلا تحمل البلاء على كتفك، ولا تذبح نفسك بيدك.

يا بنيّ، كن لليتيم كالأب الرحيم، وللأرملة كالزوج العطوف.

يا بنيّ، الجار ثمّ الدار، والرفيق ثمّ الطريق، والوحدة خير من صاحب السوء، والصاحب الصالح خير من الوحدة، ونقل الحجارة والحديد خير من قرين السوء.

يا بنيّ، من يصحب قرين السوء يندم، ومن يدخل مداخل السوء يتّهم، ومن لا يكفّ لسانه يندم، كاف المحسن بإحسانه، والمسيء تكفيه إساءته.

يا بنيّ، من ذا الذي عبد الله فخذله، ومن ذا الذي ابتغاه فلم يجده، ومن ذا الذي ذكره فلم يذكره، ومن ذا الذي توكل على الله فوكله إلى غيره، ومن ذا الذي تضرّع إليه فلم يرحمه.

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

فبيّن أهمّ مكارم الأخلاق، وأعظم صفات الكمال على الاطلاق، ولا غرو فقد وصّى بها أب حكيم قد ذكره الله بأحسن الذكر، وآتاه الحكمة والإصابة في الرأي والفكر، لابن هو أشفق عليه، وأحبّهم إليه، فهو جدير بأن يمنحه أفضل ما

يعرف، وذلك من إقام الصلاة والإتيان بها مستوفية الشروط والأركان، في أوقاتها المعيّنة لها، من غير إبداء ملل ولا ضجر، ولا تقاعد ولا تكاسل، مع تمثيل عظمة الله تعالى في قلبه، ومراقبته جل شأنه في كل قول وفعل منها حتّى يلازم الأدب قلبه، وتتبعه في ذلك سائر جوارحه، فإنّه إن أتى بها كذلك نهته عن فعل الفحشاء والمنكر، وذلك غاية الأدب، ونهاية مكارم الأخلاق.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من لقمان عليه السلام لابنه، من باب تذليل النفس وتهذيبها، وإقبالها على الطاعات ونبذها للمنكرات بلطف، وهذا شأن المعلم الحكيم، فإنّ من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر تستنكف نفسه وتكره أن يراه الناس حيث نهاهم، فلا يصدر منه ما يوجب الندم واللوم، ولا ما يكون سبباً في عدم سماع كلامه وبلوغ مرامه، فيفعل المليح ويجتنب القبيح إلى ما يترتب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من إرشاد الخلق إلى ما فيه صلاح حالهم، واستقامة أحوالهم، وانتظام شؤونهم، وتقويم ما اعوجّ من أخلاقهم.

ولما علم لقمان عليه السلام بما أتاح الله له من الحكمة، أنّ الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر لا بدّ أن يقابل من المأمورين والمنهيين من الناس بأذى كثير؛ لأنه إنما يأمرهم بمفارقة ما عليه أهواؤهم، وألفته نفوسهم، وتعلّقت به رغائبهم، ومفارقة ذلك أصعب شيء على النفس.

لما علم لقمان ذلك أمر ابنه بالصبر على أذاهم، وتحمّل الآلام والمشقات التي تحصل له في أثناء ذلك، وبيّن له أنّ الصبر عليه من عزم الأمور فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[1].

---

(١) لقمان: ١٧.

ولمّا كان الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يجب أن يكون متصفاً بأحسن صفات الكمال من الأدب والتواضع والحلم وعدم الكبر على الخلق، وعدم استحقارهم والاستخفاف بهم، حتّى يكون ذلك سبباً في قبول أمره ومجانبة نهيه، أمر لقمان ابنه بما يجمع هذه الخصال، فقال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾(١) أي لا تعرض عنهم بوجهك إذا كلّمتهم أو كلّموك احتقاراً لهم، واستكباراً عليهم؛ بل ألِن جانبك لهم، وتواضع لصغيرهم وكبيرهم، واجلب محبتهم إليك بحسن صنيعك معهم، ولطف معاملتك لهم، فإنهم بذلك ينتظرون لك أمراً فيتبعونه أو نهياً فيجتنبونه.

وبعد أن بيّن له عليه السلام كيف يصانع الناس ويعاملهم ويعاشرهم، أخذ يبيّن ما يجب أن يكون هو عليه في نفسه من الأخلاق الفاضلة، والصفات الكاملة فقال:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(٢) أي: إذا مشيت في الأرض فلا يكن مَشيُكَ خيلاء فإنّ الله يبغض من هذه حالته، وإذا مشيتَ فليكن مشيك لا بالبطء المتثبط، ولا بالسريع المفرط، فإنّ كلا الأمرين مذموم؛ لأنّ الأوّل مع ما فيه من التكبر وفتور الهمّة، وضعف العزيمة، فيه ضياع لفرص كثيرة. والثاني مع ما فيه من إمارات الطيش والخفّة وعدم الثبات، فيه تحميل الأعضاء فوق طاقتها، وإضعافها بعمل جهود لا تتحملها قواها العضلية، فيهدم بذلك أساس قوته، ويجرّ الفساد على بنيته، وإذا تكلّمت فاخفض صوتك، ولا ترفعه زيادة عن

---

(١) لقمان: ١٨.

(٢) لقمان: ١٨ و١٩.

الحاجة، فإنّ الجهر بأكثر من الحاجة مما يضرّ بالسامع ويؤذيه، ولأنّ صوته بذلك يكون منكراً يشبه صوت الحمير الذي هو أفظع الأصوات وأقبحها وأنكرها، كما قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.(١)

* * *

جاء في (سفينة البحار)(٢) (باب الحكم) قال لقمان لابنه:

يا بنيّ تعلّم الحكمة تشرف بها، فإنّ الحكمة تدلّ على الدين، وتشرّف العبد على الحرّ، وترفع المسكين على الغني، وتقدّم الصغير على الكبير، وتُجلس المسكين مجالس الملوك، وتزيد الشريف شرفاً والسيّد سؤدداً، والغنيّ مجداً، وكيف يظن ابن آدم أن يتهيأ أمر دينه ومعيشته بغير حكمة، ولن يهيئ الله عزّ وجلّ أمر الدنيا والآخرة إلاّ بالحكمة، ومثل الحكمة بغير طاعة مثل الجسد بغير نفس، ومثل الصعيد بغير ماء، ولا صلاح للجسد بغير نفس، ولا للصعيد بغير ماء، ولا للحكمة بغير طاعة.

* * *

ومما ورد في المجلد الأوّل من كتاب (إرشاد القلوب)(٣) للديلمي قال: الباب الثامن عشر في وصية لقمان لابنه بعلوم وحكم بليغة قال:

يا بنيّ، لا يكن الديك أكيس منك وأكثر محافظة على الصلوات، ألا تراه عند كلّ صلاة يؤذّن لها، وبالأسحار يعلن بصوته وأنت نائم.

يا بنيّ، من لا يملك لسانه يندم، ومن يكثر المراء يُشتم، ومن

(١) لقمان: ١٩.

(٢) مج ٢: ٥١٥.

(٣) ص ٥٦.

يدخل مداخل السوء يُتّهم، ومن يصاحب صاحب السوء لا يسلم، ومن يجالس العلماء يغنم.

يا بنيّ، لا تؤخّر التوبة فإنّ الموت يأتي بغتة.

يا بنيّ، اجعل عينيك في قلبك، وإذا افتقرت فلا تحدّث الناس بفقرك فتهون عليهم، ولكن اسأل الله من فضله.

يا بنيّ، كذب من يقول الشر يقطع بالشر، ألا ترى إنّ النار لا تطفأ بالنار ولكن تطفأ بالماء، وكذلك الشر لا يطفأ إلاّ بالخير.

يا بنيّ، لا تشمت بالمصاب، ولا تعيّر المبتلى، ولا تمنع المعروف فإنّه ذخيرة لك في الدنيا والآخرة.

يا بنيّ، ثلاثة تجب مداراتهم: المريض والسلطان والمرأة، وكن قنعاً تعش غنيّاً، وكن متقياً تكن عزيزاً.

يا بنيّ، إنك من حين سقطت من بطن أمّك استدبرت الدنيا واستقبلت الآخرة، وأنت في كلّ يوم إلى ما استقبلت أقرب منك إلى ما استدبرت، فتزوّد لدار أنت مستقبلها، وعليك بالتقوى فإنها أربح التجارات، وإذا أحدثت فاتبعه بالإستغفار والندم والعزم على ترك العود لمثله، واجعل الموت نصب عينيك، والوقوف بين يدي خالقك، فتمثّل شهادة جوارحك عليك بعملك والملائكة الموكّلين بك، تستحي منهم ومن ربك الذي هو مشاهدك، وعليك بالموعظة فاعمل بها فإنّها عند العاقل أحلى من العسل والشهد، وهي على السفيه أشقّ من صعود الدرج على الشيخ الكبير، ولا تسمع الملاهي فإنّها تنسيك الآخرة، ولكن احضر الجنائز وزر المقابر، وتذكّر الموت وما بعده من الأهوال فتأخذ حذرك.

يا بنيّ، استعذ بالله من شرار النساء، وكن من خيارهنّ على حذر.

يا بنيّ، لا تفرح بظلم أحد بل احزن على ظلم من ظلمته.

يا بنيّ، الظلم ظلمات ويوم القيامة حسرات، وإذا دعتك القدرة على ظلم من هو دونك فاذكر قدرة الله عليك.

يا بنيّ، تعلّم من العلماء ما جهلت، وعلّم الناس ما علمت، تذكر بذلك في الملكوت.

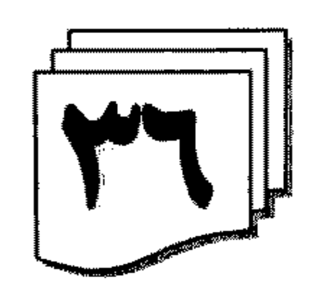
يا بنيّ، أغنى الناس من قنع بما في يديه، وأفقرهم من مدّ عينيه إلى ما في أيدي الناس، وعليك يا بني باليأس عمّا في أيدي الناس، والوثوق بوعد الله، واسعَ فيما فرض عليك، ودع السعي فيما ضمن لك، وتوكل على الله في كل أمورك يكفيك، وإذا صليت فصلّ صلاة مودّع، تظنّ أن لا تبقى بعدها أبداً، وإياك وما تعتذر منه، فإنّه لا يعتذر من خير، وأحبّ للناس ما تحبّ لنفسك، وأكره لهم ما تكره لنفسك، ولا تقل ما لا تعلم، واجهد أن يكون اليوم خيراً لك من الأمس، وغداً خيراً لك من اليوم، فإنّه من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون، وارضَ بما قسم الله لك فإنّه سبحانه يقول: «أعظم عبادي ذنباً من لم يرضَ بقضائي، ولم يشكر نعمائي، ولم يصبر على بلائي». انتهى.

* * *

وبالتالي فقد ذكرنا ترجمة لقمان مفصلاً وما جرى معه ومع سيده ومع الملوك والسلاطين من النكات الحكمية والكلمات الوعظية في المجلد الثاني من كتابنا (الجواهر الروحية)[1] فراجعه.

* * *

(١) الكتاب مطبوع في ثلاث مجلدات.



سُئل عليه السلام عن الخير ما هو؟ فقال عليه السلام:

لَيْسَ الْخَيْرُ أنْ يَكْثُرَ مَالُكَ وَوَلَدُكَ؛ وَلَكِنَّ الْخَيْرَ أنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ، وَأنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ، وَأنْ تُبَاهِيَ النَّاسَ بِعِبَادَةِ رَبِّكَ، فَإنْ أحْسَنْتَ حَمِدْتَ اللَّهَ وَإنْ أسَأْتَ اسْتَغْفَرْتَ اللَّهَ، وَلاَ خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إلاَّ لِرَجُلَيْنِ: رَجُلٍ أذْنَبَ ذُنُوباً فَهُوَ يَتَدَارَكُهَا بِالتَّوْبَةِ، وَرَجُلٍ يُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ. وَقَالَ عليه السلام: لاَ يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوَى وَكَيْفَ يَقِلُّ مَا يُتَقَبَّلُ.

(نهج البلاغة ٤: ٢١)

[التقوى زكاة العمل]

قال ابن أبي الحديد:

قد قال الشاعر لهذا المعنى:

ليس السعيد الذي دنياه تسعده ... بل السعيد الذي ينجو من النار

قوله عليه السلام: «ولا يقلّ عمل مع التقوى»، أي مع اجتناب الكبائر؛ لأنه لو كان مواقعاً لكبيرة لما يقبل منه عمل أصلاً على قول أصحابنا، فوجب أن يكون المراد بالتقوى اجتناب الكبائر. فأمّا مذهب المرجئة فإنهم يحملون التقوى ههنا على الإسلام؛ لأنّ المسلم عندهم تتقبل أعماله وإن كان مواقعاً للكبائر، فإن قلت: فهل يجوز حمل لفظة التقوى على حقيقتها وهي الخوف؟ قلت: لا، أما على مذهبنا فلأن من يخاف الله ويواقع الكبائر لا تتقبّل أعماله، وأما مذهب المرجئة؛ فلأنّ من يخاف الله من مخالفي ملة الإسلام لا تتقبل أعماله، فثبت أنه لا يجوز حمل التقوى ههنا على الخوف. فإن قلت: من هو مخالف لملة الإسلام لا يخاف الله لأنّه لا يعرفه، قلت: لا نسلّم، بل يجوز أن يعرف الله بذاته وصفاته كما نعرفه نحن، ويجحد النبوة لشبهة وقعت له فيها، فلا يلزم من جحد النبوة عدم معرفة الله.(١)

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٥٠.

وقال ابن ميثم البحراني:

الخير في العرف العامي هو كثرة المال والقنيات الدنيوية، وفي عرف السالكين إلى الله هو السعادة الأخرويّة وما يكون وسيلة إليها من الكمالات النفسانية، وربما فسّره قوم بما هو أعمّ من ذلك.

وقد نفى عليه السلام أن يكون الأوّل خيراً وذلك لفنائه ومفارقته لما عساه أن يلحق بسببه من الشر في الآخرة، وفسّره بالثاني وعدّ فيه كمال القوى الإنسانية، فكثرة العلم كمال القوى النظرية للنفس العاقلة، وعظم الحلم من كمال القوّة العملية، وهو فضيلة القوّة الغضبيّة، ومباهاة الناس بعبادة ربّه، أي المفاخرة بها بالكثرة والإخلاص، وحمد الله على توفيقه للحسنة واستغفاره للسيّئة، وذلك من فضائل القوّة الشهويّة وكمال القوّة العملية، ثمّ حصر عليه السلام خير الدنيا في أمرين: وذلك أن الإنسان إمّا أن يشتغل بمحو السيئات وإعدامها، ويتدارك فارط ذنوبه فيعدّ نفسه بذلك لاكتساب الحسنات، أو يشتغل بايجاد الحسنات فيها، ولا واسطة من الخير المكتسب بين هذين الأمرين، ثمّ حكم عليه السلام بعدم قلّة العمل المقرون بتقوى الله، منبّهاً بذلك على أنّ تدارك الذنوب بمحوها، والمسارعة في الخيرات مستلزم للتقوى، وإنما كان غير قليل لأنه مقبول عند الله، والمقبول عنده مستلزم لثوابه العظيم، وذلك ترغيب في الأمرين المذكورين.(١)

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

المال من حيث هو لا يُحمد ولا يُذم، لأنه حجر أو ورق، وإنما يُنظر إليه من حيث أثره ومفعوله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قال

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٥: ٢٨٨.

سبحانه كمثال على الشر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾.(١) وقال كمثال على الخير: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾.(٢)

وقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» وكذلك الولد هو خير إن كان صالحاً، وشرّ إن كان طالحاً، والعلم خير كله إن جعل الحياة أكثر خصباً وأمناً وعدلاً، وشرّ إن قتل الآدميين وروّع الآمنين.

وتسأل: إذا كان كل المال والولد والعلم يُحمد من حيث هو خير، ويذَم من حيث هو شرّ، فلماذا نفى الإمام عليه السلام الخير عن المال والولد دون العلم، مع أنّ الجميع من فصيلة واحدة؟

الجواب: لا يريد الإمام عليه السلام بقوله هنا أن يوازن بين المال والولد من جهة، والعلم من جهة ثانية؛ بل هدفه الرد على من يرى الخير كل الخير في الأموال والأولاد، ولا يرى خيراً في غيرهما إطلاقاً علماً كان أم حلماً، ومن قبل قال المترفون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.(٣)

«وأن تباهي الناس بعبادة ربك»، ليس المراد بالتباهي هنا التفاخر؛ بل المراد أن لا ترى نفسك شيئاً مذكوراً بالمال والولد، بل بالعلم والحلم وطاعة الله وحسن السلوك، «فإن أحسنت حمدت الله» الذي هداك إلى عمل الخيرات «وإن أسأت استغفرت الله» من سيئاتك، وتداركتها بالتوبة والمسارعة إلى الصالحات، «ولا

(١) الأنفال: ٣٦.

(٢) البقرة: ٢٦١.

(٣) سبأ: ٣٥.

خير في الدنيا... إلخ» الشيء الأعظم في كل عمل في الدنيا هو ما ينفعك في الآخرة كالتوبة من الذنب، والعمل لخدمة الإنسان.[١]

* * *

وقال ميرزا حبيب الله الخوئي في (منهاج البراعة):[٢]

قد استُعمل لفظ الخير في القرآن بمعنى الإسلام كما في قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[٣]

وقد نفى عليه السلام في حكمته هذه أن يكون كثرة المال والولد خيراً، على خلاف ما يعتقده عامة الناس، من أنّ الخير في كثرة المال والولد، ويجهدون في تحصيلهما وتكثيرهما بكل وجه ممكن.

وهذا النفي قد يكون نفياً حقيقيّاً، والمقصود منه تخطئة الناس في هذا الإعتقاد، وكثيراً ما يشتهر في العرف وعند العامة أمور لا واقعيّة لها أصلاً، كالعنقاء وأكثر الأساطير الشايعة بين العامة من الناس.

وإمّا أن يكون المراد من النفي نفي آثار الخير من كثرة الأموال والأولاد، وأنها غير مؤثرة في تحصيل السعادة المعنويّة. وربما يكون المراد من هذه الجملة نفي الكمال كما في قوله عليه السلام: «يا أشباه الرجال ولا رجال».

* * *

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٧٢.

(٢) ج ٢١: ١٤١.

(٣) الأنفال: ٧٠.

[صنوف الخير وأنواعه] :

أقول: يسرّني أن أذكر هنا ما ذكره محمّد أحمد جاد المولى في المجلد الثاني من كتابه (الخلق الكامل) قائلاً:

الخير كلمة جامعة تتضمّن من الأغراض أحسنها، وتشمل ظاهر الأمور وباطنها، وتنتظم أحسن صلات العبد بربه، وتتسع لما طاب من معاملة الناس بعضهم بعضا، وتقرر الحقوق الإنسانية.

والخير هدى الأمّة المحمّديّة وقانونها، ووجهة الأوامر الشرعية، ووشاح القضاة العادلين، وسيرة الملوك الراشدين. والمربّون يمهّدون الطريق إليه، ويدلّون النشئ عليه، فيغترفون من مناهله العذبة، وهو مظهر الكرامة التي خُصّ بها بنو آدم: فمنهم من لبسها، ومنهم من خلع رداءها.

والمصلحون يسلكون بالناس مسالك الخير، فيحالفهم الفلاح في حاضرهم ومستقبلهم.

تنزل القوانين السماوية بما ينشر الخير في الناس، وتُصاغ النظم الوضعية لتقرير شيء من الخير، ويدأب علماء الأخلاق، ويسعى علماء النفس لتوطيد دعائم الفضيلة التي هي جانب من الخير، وتقتتل الأمم، وتتنازع الشعوب، وتقوم الثورات، وتعقد المؤتمرات الدولية لشيء من الخير، كدرك الحرية، والتخلص من نير الإستعباد، وتقليص ظلّ الطمع والجشع، وإعلاء كلمة الإخاء والمساواة، وإقرار الأمن في نصابه.

ومن ضروب الخير التعاون على البرّ الذي وجّه الله تعالى إليه النفوس بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾.[1]

---

(١) المائدة: ٢.

ولـئن وسـم الناس جماعـاتهم ومـؤتمراتهم وأنـديتهم ومسـاعيهم، بميسـم المسـاواة والإخـاء والوفـاء والإصـلاح والطهـارة، وتقريـر حقـوق المستضعفين، ونـزع السـلاح وحريـة التجارة، وخدمـة الطب وكشـف الآثـار والإستكشـاف عـن المجهـولات وتشـجيع الإختـراع، وإنهـاض البحـث الفنـي والنشاط العلمي، فإنما الخير قصدوا، وفي البر دأبوا.

الخيـر: تلـك الكلمـة الطيبـة التـي مثلهـا كمثـل دوحـة طيّبـة فينانـة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربّها.

فجـذور الخيـر إعتقـاد صـحيح، وإيمـان متـين، ويقـين يبـدد ظلمـات الشـك والريبـة، وإتبـاعٌ لأحسـن القـول، وثبـات علـى الحـق، وخشـية لله فـي السـرّ والعلـن، وحيـاء يصـد عمّـا يشـين، وإحسـان تثمـره مراقبـة المـولى جـلّ وعلا، بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك.

وجِذعُـهُ ومسـاكِنُهُ الإخـلاص، وفروعُـه المـروءة ومكـارم الأخـلاق والإسـتقامة والطاعـة، والأريحيـة ومراعـاةُ حقـوق الخـالق والمخلـوق، وصـلةُ مـا أمـر الله بـه أن يوصـل، والأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر، والجهـاد في سبيل الله، ونشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة.

وثمـاره التوفيـق والنجـاح والمحبـة والوئـام، ونجـاة الأنفـس والأمـوال، والـيُمن والبركـة، والسـكينة والطمأنينـة، وجنّـة عرضـها السـماوات والأرض، ورضـوان مـن الله أكبـر، فـذلك شـرف يقعـد أهلـه مقاعـد الـذين أنعـم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ومَـن قـرأ طائفـة مـن كـلام الله سـبحانه، وتَـذوّقَ معانيهـا، وظفـر بجانـب مـن كـلام النبـوّة وأدرك مراميـه، عَلِـمَ علـم اليقـين أن نصـوص الـدين

الإسلامي وَضَحَتِ الشرور كبيرها وصغيرها، ظاهرها وخافيها، وخاصها وعامها، وأملت وجوه الخير فيما يأتي:

١ ـ التزام حدود الله، والعمل على ترويج الفضيلة، ومحاربة الرذيلة، وإحياء السُنّة، وإماتة البدعة ممّا فيه إرضاء للرحمن وإغضاب للشيطان.

٢ ـ جملة الوسائل التي تُعدِ الفرد والجماعات لحياة صالحة.

٣ ـ تحقيق قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.(١)

رابطة الإيمان بالخير:

أبين مظهر للإيمان أن يكون صاحبه للخير حليفاً وخدناً، وإنّ صحة الإيمان خير محصن، وكلما ذاق المرء حلاوة الإيمان توجّهت كل قواه إلى الخير، وطرب لدواعيه، وجدّ في الأخذ بأسبابه والإعتصام بحبله، وجعله شعاره ودثاره، وجرى منه مجرى النفس، وامتزج بقوله وفعله، ولزمه لزوم من لا غنى له عنه طرفة عين.

فالخير رمز المؤمنين الذين يخشون ربّهم، وأنشودة من رزقه الله الورع والتقوى، وقد كرّم الله عباده المؤمنين وجعلهم أهلاً لحمل أمانته، ودعاهم إلى الخير وأهاب بهم إلى الفلاح واستباق الخيرات.

وما دعا الله عباده المؤمنين إلى كثير من ضروب الخير وأساليب البر، إلاّ لأنه خبير بقوّة قلوبهم وحياة ضمائرهم واطمئنان نفوسهم، ونفاذ

(١) القصص: ٧٧.

أبصارهم، وحرصهم على طاعة ربّهم وتفانيهم في مرضاته، قال تعالى في سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ * إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ * أُولئِكَ هُمُ الوارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾[(١)].

وقوله تعالى في سورة الأحزاب:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[(٢)] إلى كثير من الآيات المباركة.

* * *

[**الخير ضد الشر**] :

ومما ورد في (دائرة المعارف) للبستاني:

الخير ضد الشر، قيل: الحكماء ربما أطلقوا الخير على الوجود والشر على العدم، وربما أطلقوا الخير على حصول كمال الشيء، والشر على عدم حصوله. وقالوا: الوجود خير محض، والعدم شر محض، وقد نُقض هذا القول: على أنه قيل لم يريدوا بذلك تصوير معنى الخير والشر كما حسب هذا القائل فقال ما قال، فإنّ معناهما معلوم لجمهور الناس بداهة، يوصفون بكل منهما أشياء مخصوصة ويسلبونهما عن أشياء أخر،

---

(١) المؤمنون: ١ – ١١.

(٢) الأحزاب: ٢٣.

ولكنهم لا يفرّقون ما بالذات وما بالعَرض، ويطلقون الخير على كل منهما وكذا الشر.

وقد ذهب القوم إلى أن ما يطلقون عليه الخير قسمان: خير بالذات وخير بالعرض، وكذا الشر، فإنّ القتل مثلاً إذا تأمّلنا فيه وجدناه شراً باعتبار ما يتضمّنه من العدم، فإنّه ليس شراً، من حيث إنّ القاتل كان قادراً عليه، ولا من حيث إنّ الآلة كانت قاطعة، ولا من حيث إنّ العضو المقطوع كان قابلاً للقطع؛ بل من حيث إنّه أزال الحياة، وهو قيد عدمي، وباقي القيود الوجوديّة خيرات.

وقال بعض الصوفية: إنّ الوجود خير محض وبالذات لكونه مستنداً إلى العزيز الحكيم، والعدم شرّ محض وبالذات لعدم استناده إليه، وإذا قابلت المنافع بالمضار تجد المنافع أكثر، وإذا قابلت الشر بالخير تجد الخير أكثر، وكيف لا لأنّ المؤمن يقابله الكافر، ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه شرّ أصلاً، فالكفر يحبطه ولا ينفعه، ويستحيل نظراً إلى العادة أن يوجد كافر لا يسقي العطشان شربة ماء ولا يطعم الجائع خبزاً، لأنه خلق على الفطرة المقتضية للخيرات، فخلق الخير الغالب، كما أن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل لا يناسب الحكمة، ووقوع الخير المشوب بالشر القليل من اللطف، فخلق الله العالم الذي فيه الشر لذلك.

وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾،[1] أي: إني أعلم أنّ هذا القسم يناسب الحكمة لأنّ

(١) البقرة: ٣٠.

الخير في كثير، وبيّن لهم خيره بالتعليم كما قال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[(١)] يعني أيها الملائكة خَلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوي لا يناسب الحكمة، وأما خَلق الخير الكثير فمناسب. فإن قيل: الله قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر، فيقال ما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.[(٢)] يعني لو شئنا خلصنا الخير من الشر، ولكن حينئذٍ لا يكون خلق الخير الغالب.

وهو قسم معقول، فهل كان تركه للشر القليل وهو لا يناسب الحكمة، وإن كان لا لذلك فلا مانع من خلقه، فيخلقه لما فيه من الخير الكثير، وفي شرح المواقف في خاتمة مقصد: إنّه تعالى مريد لجميع الكائنات، أنّ الحكماء قالوا: الموجود أمّا خير محض لا شرّ فيه أصلاً كالعقول والأفلاك. وأما الخير غالب فيه كما في هذا العالم، فإنّ المرض مثلاً وإن كان كثيراً فالصحة أكثر منه، وكذلك الألم كثير واللذّة أكثر منه، فالموجود عندهم منحصر في هذين القسمين. هذا ملخص ما قاله الصوفيون والحكماء العرب عن الخير.

وجوه الخير:

للخير مظاهر تتجلّى في الإعتقاد، وتبين في العمل، في اطمئنان النفوس إلى عمل الصالحات وسلوكها سبل الرشاد، وإنا لذاكرون جوانب من الخير وأمثلة له مستقاة من كتاب الله وسُنّة نبيّه ﷺ، وليس في الإستطاعة إستيعاب

---

(١) البقرة: ٣١.

(٢) السجدة: ١٣.

كل تفاصيل الخير ومواضع البر في عجالة كهذه، وقد قرّر المصطفى ﷺ قواعد الخير، وأقام دعائمه في بضع وعشرين سنة، وتَخوّلَ الناس بالمواعظ وأحاديث الخير وأفانينه في مدّة رسالته الكريمة.

وإنّ ما سنذكره مفتاح لبيان معنى الخير، وشرح لبعض وجهاته وتقرير لقواعده التي تتلخّص في قوله تعالى: في سورة الحشر: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.(١)

وقال تعالى في سورة يوسف: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.(٢)

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.(٣)

* * *

وهاك وجوه الخير مفصّلة:

مما جاء في المجلد الثاني من كتاب (الأخلاق في حديث واحد):

فمن وجوه الخير محبّة العبد لله:

وهو المؤمن الحق الذي أدرك جماله وجلاله، واستشعر لطفه وإحسانه، وأنه المنعم عليه، فبهذا الإدراك أحبّه، فأصبح وعمله موجهاً إليه، ولزم طاعته وعدم مخالفة أمره، فحبّ العبد لله هو الإيمان الصحيح، الذي تبدو آثار حبّه إيّاه، في جميع أقواله وأفعاله وتصرّفاته.

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) يوسف: ١٠٨.

(٣) الأنعام: ١٥٣.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤).

جمع سبحانه وتعالى هذه اللذائذ في الضعفاء الذين عبّر عنهم بالقوم الفاسقين في كفّة، ووضع في الكفة الأخرى حبّ الله ورسوله، وحبّ الجهاد في سبيله، فالنفس التي تتجرّد من تلك اللذائذ وتؤثر حبّ الله ورسوله، هي التي يتطلبها الإسلام، فحبّ العبد لله من أهمّ وجوه الخير، وهو يحوّله إلى طاعته وعدم مخالفته.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى صفات المؤمنين الصادقين الذين أحبّهم كما أحبّوه بقوله عز من قائل في (سورة المائدة آية ٥٤): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

ووصفهم أيضاً بأنواع الصفات الحسنة بقوله عزّ من قائل:

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة ٤٣).

وقوله: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران ٧٦).

وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران ٥٩).

وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة ١٣)

إلى كثير من هذه الآيات الكريمة.

فمحبّة الله للإنسان هي مصدر سعادته؛ لأنها تتبعها ولاية الله له، وبالعكس فإنّ بغض الله للإنسان سبب في شقائه، والأخبار في حبّ العبد لله كثيرة.

عن (مصباح الشريعة):[١] قال الصادق عليه السلام: «حبّ الله إذا أضاء على سرّ عبده أخلاه عن كل شاغل وكلّ ذكر سوى الله، والمحب أخلص الناس سرّاً لله، وأصدقهم قولاً، وأوفاهم عهداً، وأزكاهم عملاً، وأصفاهم ذكراً، وأعبدهم نفساً، تتباهى الملائكة عند مناجاته، وتفتخر برؤيته، وبه يعمر الله بلاده، وبكرامته يكرم الله عباده، يعطيهم إذا سألوه بحقه، ويدفع عنهم البلايا برحمته، ولو علم الخلق ما محلّه عند الله، ومنزلته لديه ما تقرّبوا إلى الله إلاّ بتراب قدميه.

قال النبي صلى الله عليه وآله: «إذا أحبّ الله عبداً من أمّتي قذف في قلوب أصفيائه وأرواح ملائكته وسكّان عرشه محبته ليحبّوه، فذلك المحب حقاً، طوبى له ثمّ طوبى له، وله عند الله شفاعة يوم القيامة.

في (سفينة البحار):[٢] عن أمالي الشيخ الصدوق، عن الصادق عليه السلام، قال: «ما أحبّ الله عزّ وجلّ من عصاه» ثمّ تمثّل وقال:

تعصي الإلّه وأنت تظهر حبه ... هذا محال في الفعال بديعُ
لو كان حبّك صادقاً لأطعته ... إنّ المحب لمن يحب مطيعُ

وفيه: روى الحسين بن يوسف، صاحب الصادق عليه السلام في كتاب أصله الذي أسنده إليه، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «لا يمحض الرجل الإيمان بالله، حتّى يكون الله أحبّ إليه من نفسه وأبيه وأمّه وولده وأهله وماله ومن الناس كلهم».

وفيه: عن أمالي الشيخ الصدوق رحمه الله في الحديث القدسي: «يا ابن

---

(١) ص ١٩٢.

(٢) مج ١: ١٩٩.

عمران كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنّه الليل نام عني، أليس كل محبّ يحبّ خلوة حبيبه».

وفيه: حكاية العصفورة مع نبيّ الله سليمان عليه السلام رأى عصفوراً يقول لعصفورته: لِمَ تمنعيني نفسك ولو شئت أخذت قبة سليمان بمنقاري فألقيها في البحر، فتبسّم سليمان عليه السلام من كلامه، ثمّ دعاهما وقال للعصفور: أتطيق أن تفعل ذلك؟ فقال: لا يا رسول الله، ولكنّ المرء قد يزيّن نفسه ويعظمها عند زوجته، والمحب لا يلام على ما يقول، فقال سليمان: للعصفورة لِمَ تمنعيه من نفسك وهو يحبك؟ فقالت: يا نبي الله إنه ليس محبّاً ولكنه مدعي، لأنه يحب معي غيري، فأثر كلام العصفورة في قلب سليمان، وبكى بكاءاً شديداً واحتجب عن الناس أربعين يوماً، يدعو أن يفرّغ _ الله _ قلبه لمحبته، وأن لا يخالطها بمحبة غيره.

ومن وجوه الخير محبة النبي صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام:

في (سفينة البحار):[1] عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمننّ عبد حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين».

وفيه: عن (علل الشرائع)،[2] عن أنس، قال: جاء رجل من أهل البادية، وكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية يسأل النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله متى قيام القيامة؟ فحضرت الصلاة فلما قضى صلاته، قال: أين السائل عن الساعة؟ قال: أنا يا رسول الله، قال: فما أعددت لها؟

---

(١) ج ١: ٢٠٠.

(٢) علل الشرائع وأصول الإسلام: ٢٤٧/ باب ١٨٢.

قال: والله ما أعددت لها من كثير عمل صلاة ولا صوم، إلاّ أني أحبّ الله ورسوله، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «المرء مع من أحبّ»، قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام بشيء أشدّ من فرحهم بهذا.

وفيه عن (الكافي):[1] عن الحكم بن عتيبة، قال: بينما أنا مع أبي جعفر عليه السلام والبيت غاص بأهله، إذ أقبل شيخ يتوكأ على عنزة له، حتّى وقف على باب البيت، فقال: السلام عليك يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته ثمّ سكت، فقال أبو جعفر: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته»، ثمّ أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت، وقال: السلام عليكم ثمّ سكت، حتّى أجابه القوم جميعاً وردّوا عليه السلام.

ثمّ أقبل بوجهه على أبي جعفر عليه السلام، ثمّ قال: يا ابن رسول الله أدنني منك جعلني الله فداك، فو الله إني لأحبكم وأحبّ من يحبكم، والله ما أحبّكم وأحبّ من يحبكم لطمع في دنيا، وإني لأبغض عدوكم وأبرأ منه، ووالله ما أبغضه وأبرأ لوتر كان بيني وبينه، والله إني لأحل حلالكم، وأحرّم حرامكم، وانتظر أمركم، فهل ترجو لي جعلني فداك، فقال أبو جعفر عليه السلام: «إليّ إليّ» حتّى أقعده إلى جنبه، ثمّ قال: «أيّها الشيخ إنّ أبي عليّ بن الحسين عليه السلام أتاه رجل فسأله عن مثل الذي سألتني عنه، قال له أبي: إن متّ ترد على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى عليّ والحسن والحسين، وعلى عليّ بن الحسين عليه السلام، ويثلج قلبك، ويبرد فؤادك، وتقرّ عينك، وتستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين، لو قد بلغت نفسك ههنا، وأهوى بيده إلى حلقه، وإن تعش ترى ما يقرّ الله عينك، وتكون معنا في السنام الأعلى».

---

(١) أصول الكافي ٢: ٢٥١.

وفيه: ما ورد عن النبي ﷺ في فضل حبّ عليّ عليه السلام بقوله:

«ألا ومَن أحبّ عليّاً فقد أحبني، ومن أحبني فقد رضي الله عنه، ومن رضي الله عنه كافاه الجنّة، ألا ومَن أحبّ عليّاً لا يخرج من الدنيا حتّى يشرب من الكوثر ويأكل من طوبى، ويرى مكانه في الجنّة، ألا ومَن أحبّ عليّاً فتحت له أبواب الجنّة الثمانية يدخلها من أيّ باب شاء بغير حساب».

وإنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان أخصّ الناس برسول الله ﷺ وأحبهم إليه.

وفي خبر الطير ـ المشوي ـ أنّ عليّاً أحب الخلق إلى الله، وجاء في محبّته إن جميع أنبياء الله ورسله، وجميع الملائكة وجميع المؤمنين، كانوا لعليّ بن أبي طالب محبين، وقد جاء أيضاً إنّ حبّه إيمان، وبغضه كفر ونفاق، وأنّه لو اجتمع الناس على حبّه ما خلق الله النار.

وفي (ينابيع المودّة)(١) عن صحيح مسلم، قال: حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدّثنا وكيع وأبو معاوية عن الأعمش، وحدّثنا يحيى بن يحيى، قال: أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن عدي بن ثابت عن أبي ذر قال: قال عليّ عليه السلام: «والذي خلق الحبّة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي ﷺ إليّ أنه لا يحبني إلاّ مؤمن، ولا يبغضني إلاّ منافق».

وفي (صحيح النسائي): عن الأعمش، عن عدي بن ثابت، عن ذر قال: قال عليّ عليه السلام: «إنّه لعهد النبي ﷺ الأميّ إنه لا يحبّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق».

---

(١) أنظر: ج ١: ١٤٩- ١٥٢.

وعن الترمذي: حدّثنا قتيبة، حدّثنا جعفر بن سليمان، عن أبي هارون، عن أبي سعيد الخدري، قال: كنا نعرف المنافقين نحن معاشر الأنصار، ببغضهم عليّ بن أبي طالب.

وفي مسند أحمد: عن جابر بن عبد الله، قال: ما كنا نعرف منافقينا معشر الأنصار إلاّ ببغضهم عليّاً.

عبد الله بن أحمد، أخرج بزوايد المسند، بسنده عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أبغضنا أهل البيت فهو منافق».

وفي (مشكاة المصابيح): عن أم سلمة أم المؤمنين قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يحبّ عليّاً منافق، ولا يبغضه مؤمن». رواه أحمد والترمذي.

وعنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من سبّ عليّاً فقد سبّني». رواه أحمد.

وفي (نهج البلاغة): قال عليّ عليه السلام: «لو ضُربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني، ولو صببت الدنيا بجملتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني، وذلك أنه قضى فانقضى عن لسان النبي الأمّي صلى الله عليه وآله إنه قال لي: لا يبغضك مؤمن، ولا يحبّك منافق».

وأيضاً في (ينابيع المودّة):[1] أخرج أحمد في مسنده، وموفّق الخوارزمي، هما عن زيد بن أرقم، قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «من أحبّ أن يتمسك بالقضيب الأحمر الذي غرسه الله عزّ وجلّ في جنّة عدن بيمينه فليتمسّك بحبّ عليّ بن أبي طالب».

---

(١) أنظر: ج ٢: ٤٨٦.

وفيه:[1] أخرج أبو نعيم الحافظ، والحويني عن عكرمة، عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سرّه أن يحيى حياتي ويموت مماتي، ويسكن جنّات عدن التي غرس فيها قضيباً ربي، فليوالِ عليّاً وليوالِ وليّه، وليقتدِ بالأئمّة من ولده من بعده، فإنهم عترتي خلقوا من طينتي، ورزقوا فهماً وعلماً، وويل للمكذبين بفضلهم من أمّتي القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي».

وفيه:[2] عن كتاب الإصابة عن زياد بن مطرف قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن أحبّ أن يحيى حياتي، ويموت مماتي ويدخل الجنّة، فليتولّ عليّاً وذريّته من بعده».

وفي (سفينة البحار):[3] قال العلامة في كتاب (كشف الحق)، الرازي في تفسيره الكبير، روى الكليني عن ابن عبّاس قال: إن النبي ﷺ لما قدم المدينة، كانت تنوبه نوائب وحقوق، وليس في يده سعة، فقال الأنصار: إنّ هذا الرجل قد هداكم الله تعالى على يده، وهو ابن أختكم وجاركم في بلدكم، فأجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوا، ثمّ أتوه به فردّه عليهم، ونزل قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾[4] على الإيمان إلاّ أن تؤذوا أقاربي، فحثّهم على مودّة أقاربه.

قال: نقل صاحب (الكشّاف) عن النبي ﷺ إنّه قال: «مَن مات على حبّ آل محمّد مات شهيداً، ألا ومَن مات على حبّ آل محمّد

(١) أنظر: ج ١: ٣٦٩.

(٢) نفس المصدر.

(٣) ج ١: ٢٠١.

(٤) الشورى: ٢٣.

مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات تائباً، ألا ومَن مات على حبّ آل محمّد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومَن مات على حبّ آل محمّد بشّره ملك الموت بالجنّة ثمّ منكر ونكير، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد يزفّ إلى الجنّة كما تزفّ العروس إلى بيت زوجها، ألا ومَن مات على حبّ آل محمّد فتح له في قبره بابان إلى الجنّة، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات على السُّنّة والجماعة، ألا ومَن مات على حبّ آل محمّد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على بغض آل محمّد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمّد لم يشم رائحة الجنّة».

وفي (الطرائف) للسيد بن طاووس، نقل هذا الحديث عن صاحب الكشّاف والثعلبي. وذكر صاحب ينابيع المودّة، فيه عن جرير بن عبد الله الجبلي مثله، وزاد فيه: «ألا ومَن مات على بغض آل محمّد مات كافراً». ولقد قال الإمام محمّد بن إدريس الشافعي في شعره:

لو فتّشوا قلبي رأوا وسطه سطرين قد خُطّا بلا كاتب
العدل والتوحيد في جانبٍ وحُبّ أهل البيت في جانب

وقال أيضاً على ما نقل عنه بن حجر في صواعقه المحرقة:

يا راكباً قف المحصّب مِن منى واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى فيضاً كمنحلّ الفرات الفائض
واخبرهم إني من النفر الذي لولاء أهل البيت ليس بناقض
إن كان رفضاً حبّ آل محمّد فليشهد الثقلان إني رافضي

ومن وجوه الخير التحابب في الله:

في (الوسائل):[1] عن الحسين بن محمّد، عن معلّى بن محمّد، عن الحسن بن عليّ الوّشا، عن عليّ بن أبي حمزة، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «إن المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور، قد أضاء نور وجوههم، ونور أجسادهم، ونور منابرهم على كل شيء، حتّى يعرفوا به، فيقال هؤلاء المتحابون في الله».

وفيه: عن أبي حمزة الثمالي، عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: «إذا جمع الله الأوّلين والآخرين، قام منادٍ فنادى يمسع الناس، فيقول أين المتحابون في الله؟ قال: فيقوم عنق من الناس، فيقال لهم: اذهبوا إلى الجنّة بغير حساب، قال: فتتلاقهم الملائكة فيقولون إلى أين؟ فيقولون إلى الجنّة بغير حساب، قال: ويقولون أيّ ضرب أنتم من الناس؟ فيقولون: نحن المتحابون في الله، قال: فيقولون: أي شيء كانت أعمالكم؟ قالوا: كنّا نحب في الله ونبغض في الله، قال: فيقولون: نعم أجر العاملين».

وفيه: عن الحسن بن محمّد الطوسي في مجالسه، عن أبيه، عن محمّد بن محمّد، عن أحمد بن محمّد بن الحسن بن الوليد عن أبيه، عن محمّد بن الحسن الصفّار، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن محمّد بن أبي عمير، عن صباح الحذّاء عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر بن عليّ الباقر عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث قال: «إذا كان يوم القيامة، ينادي منادٍ من الله عز وجل، يسمع آخرهم، كما يسمع أوّلهم، فيقول:

---

(١) أنظر: ج ١٦: ١٦٦ - ١٧١/ باب وجوب الحب في الله...

أيـن جيـران الله جل جلاله فـي داره؟ فيقـوم عنـق مـن النـاس، فتسـتقبلهم زمـرة مـن الملائكـة، فيقولـون: مـا كـان عملكـم فـي دار الـدنيا فصـرتم اليـوم جيـران الله تعـالى فـي داره؟ فيقولـون: كنـا نتحـابّ فـي الله، ونتـوازر فـي الله تعـالى، قـال: فينـادي منـادٍ من عنـد الله تعالى: صـدقوا عبادي خلـوّا سبيلهم، فينطلقـون إلـى جـوار الله فـي الجنّـة بغيـر حسـاب»، ثـمّ قـال أبـو جعفـر عليه السلام: «فهـؤلاء جيـران الله في داره، يخاف الناس ولا يخافون، ويحاسب الناس ولا يحاسبون».

وفيـه: عـن أحمـد بـن محمّـد بـن خالـد، عـن أبيـه، عـن حمّـاد بـن عيسـى، عـن حريـز بـن عبـد الله، عـن فضـيل بـن يسـار، قـال: سـألت أبـا عبـد الله عليه السلام عــن الحــبّ والــبغض أمــن الإيمــان هــو؟ فقــال: «وهــل الإيمــان إلاّ الحــبّ والبغض، ثـمّ تـؤّل هـذه الآيـة ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[(١)]».

وفيـه: عـن أبـي عبيـدة زيـاد الحـذّاء عـن أبـي جعفـر عليه السلام فـي حـديث أنـه قـال: «يـا زيـاد ويحـك وهـل الـدين إلاّ الحـبّ ألا تـرى إلـى قولـه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[(٢)].

أوَلا ترى قول الله لمحمّد صلى الله عليه وآله ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[(٣)] وقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[(٤)] فقال: الدين هو الحب والحب هو الدين».

وفـــي (مصـــباح الشـــريعة)[(٥)] قـــال الصـــادق عليه السلام: «المحـــبّ فـــي الله

(١) الحجرات: ٧.

(٢) آل عمران: ٣١.

(٣) الحجرات: ٧.

(٤) الحشر: ٩.

(٥) ص ١٩٤.

محبّ لله، والمحبوب في الله حبيب الله، لأنهما لا يتحابان إلاّ في الله، قال رسول الله ﷺ: المرء مع من أحبّ، فمن أحبّ عبداً في الله فإنما أحبّ الله تعالى، ولا يحبّ الله تعالى إلاّ من أحبّه الله».

قال رسول الله ﷺ: «أفضل الناس بعد النبيين في الدنيا والآخرة المحبّون لله المتحابون فيه، وكل حبّ معلول يورث فيه عداوة إلاّ هذين، وهما من عين واحدة يزيدان أبداً ولا ينقصان، قال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[1] لأنّ أصل الحب التبري عن سوء المحبوب».

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ أطيب شيء في الجنّة وألذّه حب الله والحبّ في الله، والحمد لله، قال الله عز وجل: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] وذلك إنهم إذا عاينوا ما في الجنّة من النعيم هاجت المحبة في قلوبهم، فينادون عند ذلك: الحمد لله رب العالمين».

ومن وجوه الخير الطاعة لله ولرسوله:

قوله عز من قائل: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩).

بيّن الله سبحانه وتعالى حال المطيعين، فقال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ﴾ بالإنقياد لأمره ونهيه، ﴿وَالرَّسُولَ﴾ باتباع شريعته والرضا بحكمه، ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ في الجنّة، ثمّ بيّن سبحانه وتعالى المنعم عليهم فقال: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ يريد أنه يستمتع برؤية النبيين والصدّيقين

---

(١) الزخرف: ٦٧.

(٢) يونس: ١٠.

زيارتهم والحضور معهم، وقيل في معنى الصديقين الصادقين في القول والعمل، المصدّقين بما جاءت به الرسل، ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ المقتولين في سبيل الله، ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ الملازمين للصلاح، ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾، معناه من يكون هؤلاء رفقاء له فأحسن بهم من رفيق، أو فما أحسنهم من رفيق، ورفيقاً تمييز يقال للواحد والجمع، ولذا لم يجمع، وقيل إنه نصب على الحال، وذلك إذا أسقطت من، فالحال هو الاختيار لأنه من الصفات الداخلة في أسماء الأجناس.

وبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى الأحكام في اليتامى والوصايا والمواريث قال جل شأنه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (النساء: ١٣ و١٤).

وقوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء: ٥٩).

المعنى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي الزموا طاعة الله سبحانه فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي الزموا طاعة رسوله أيضاً، وإنما أفرد الأمر بطاعة الرسول وإن كانت طاعته مقرونةً بطاعة الله، مبالغةً في البيان، وقطعاً لمن يتوهم أنه لا يجب لزوم ما ليس في القرآن من الأوامر. ﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي طاعة أولي الأمر وهم أوصياء محمّد صلوات الله عليهم المعصومون من الزلل، ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ﴾ أيها المأمورون، ﴿فِي شَيْءٍ﴾ من أمور الدين، ﴿فَرُدُّوهُ﴾ فارجعوا فيه، ﴿إِلَى اللهِ﴾ إلى محكم كتابه، ﴿وَالرَّسُولِ﴾ بالأخذ لسُنّته، والمراجعة إلى مَن أمر بالمراجعة إليه فإنها ردّ

إليه، وقرئ فإن خفتم تنازعاً في شيء فردّوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولي الأمر منكم، ﴿إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإنّ من أبى ذلك لا إيمان له، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الرد خير لكم من التنازع والقول بالرأي، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ من تأويلكم بلا ردّ وأحسن مآلاً.

* * *

وفي (ينابيع المودّة):[١] في تفسير قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.[٢]

في (المناقب): في تفسير مجاهد: أنّ هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، حين خلّفه رسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة، فقال: يا رسول الله أتخلفني على النساء والصبيان؟ فقال صلى الله عليه وآله: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ قال موسى: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾».

[مناشدة عليّ عليه السلام للمهاجرين والأنصار في فضله]:

وفي (المناقب) عن الحسن بن صالح، عن جعفر الصادق عليه السلام، في هذه الآية قال: «أولو الأمر هم الأئمّة من أهل البيت».

الحمويني بسنده عن سليم بن قيس الهلالي قال: رأيت عليّاً عليه السلام في مسجد المدينة في خلافة عثمان، وإنّ جماعة المهاجرين والأنصار، يتذاكرون فضائلهم، وعليّ ساكت، فقالوا: يا أبا الحسن تكلّم، فقال: «يا معشر قريش والأنصار، أسألكم بمَن أعطاكم الله هذا الفضل، أبأنفسكم أم بغيركم؟» قالوا: أعطانا الله ومنّ علينا بمحمّد صلى الله عليه وآله، قال: «ألستم

---

(١) ج ١: ٣٤١ - ٣٤٩.

(٢) النساء: ٥٩.

تعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إني وأهل بيتي كنّا نوراً نسعى بين يدي الله قبل أن يخلق الله عزّ وجلّ آدم بأربعة عشر ألف سنة، فلمّا خلق الله آدم عليه السلام وضع ذلك النور في صلبه وأهبطه إلى الأرض، ثمّ حمله في السفينة في صلب نوح عليه السلام ثمّ قذف به في النار في صلب إبراهيم عليه السلام ثمّ لم يزل الله عزّ وجلّ ينقلنا من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة من الآباء والأمّهات، لم يكن واحد منّا على السفاح قط؟».

فقال أهل السابقة وأهل بدر وأُحد منهم: نعم، قد سمعناه.

ثمّ قال: «أنشدكم الله أتعلمون أنّ الله عزّ وجلّ فضّل في كتابه السابق على المسبوق في غير آية، ولم يسبقني أحد من الأمّة في الإسلام؟».

قالوا: نعم.

قال: «أنشدكم الله أتعلمون حيث نزلت ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[١] سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: أنزل الله عزّ وجلّ في الأنبياء وأوصيائهم، فأنا أفضل الأنبياء ورسله، وعليّ وصيّ أفضل الأوصياء؟».

قالوا: نعم.

قال: «أنشدكم الله أتعلمون حيث نزلت ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٢] وحيث نزلت ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾[٣] وأمر الله عزّ وجلّ نبيّه أن يعلّمهم ولاة أمرهم، وأن يفسّر لهم من الولاية، كما فسّر لهم من صلاتهم وزكاتهم وحجّهم، فنصبني للناس بغدير خم، فقال: أيها الناس

(١) الواقعة: ١٠ و١١.

(٢) المائدة: ٥٥.

(٣) التوبة: ١٦.

إنّ الله ﷻ أرسلني برسالة ضاق بها صدري، وظننت أن الناس تكذّبني فأعدني ربي، ثمّ قال: أتعلمون أن الله ﷻ مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: آخذاً بيدي من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، فقام سلمان وقال: يا رسول الله ولاءُ عليّ ماذا؟ قال: ولاؤه كولائي من كنت أولى به من نفسه فعليّ أولى به من نفسه، فنزلت ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ﴾[1] فقال ﷺ: الله أكبر باكمال الدين وإتمام النعمة، ورضاء ربي برسالتي وولاية عليّ بعدي. قالوا: يا رسول الله هذه الآيات في عليّ خاصة؟ قال: بلى فيه وفي أوصيائي إلى يوم القيامة، قالوا: بيّنهم لنا، قال: عليّ أخي ووارثي ووصيّ ووليّ كل مؤمن بعدي، ثمّ ابني الحسن ثمّ الحسين ثمّ التسعة من ولد الحسين، القرآن معهم وهم مع القرآن لا يفارقونه ولا يفارقهم حتّى يردوا عليّ الحوض».

قال بعضهم: قد سمعنا ذلك وشهدنا، وقال بعضهم: قد حفظنا جَلّ ما قلت ولم نحفظ كلّه، وهؤلاء الذين حفظوا أخيارنا وأفاضلنا.

ثمّ قال عليه السلام: «أتعلمون أنّ الله أنزل ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[2] فجمعني وفاطمة وابني حسناً وحسيناً، ثمّ ألقى علينا كساءاً وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي لحمهم لحمي يؤلمني ما يؤلمهم ويجرحني ما يجرحهم، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. فقالت أمّ سَلَمة: وأنا يا رسول الله. فقال: أنت إلى خير».

فقالوا: نشهد أنّ أمّ سَلَمة حدّثتنا بذلك.

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

ثمّ قال: «أنشدكم الله أتعلمون أنّ الله أنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1] فقال سلمان: يا رسول الله هذه عامّة أم خاصة؟ فقال: أمّا المأمورون فعامة المؤمنين، وأما الصادقون فخاصة أخي عليّ وأوصيائي من بعده إلى يوم القيامة؟».

قالوا: نعم.

قال: «أنشدكم الله أتعلمون أنـي قلت لرسول الله ﷺ في غزوة تبوك: خلفتني على النساء والصبيان، فقال: إنّ المدينة لا تصلح إلاّ بي أو بك، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيّ بعدي؟».

قالوا: نعم.

قال: «أنشدكم الله أتعلمون أنّ الله أنزل في (سورة الحج): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾[2] إلى آخر السورة، فقام سلمان فقال: يا رسول الله من هؤلاء الذي أنت عليهم شهيد، وهم شهداء على الناس الذين اجتباهم الله، ولم يجعل عليهم في الدين من حرج ملة إبراهيم؟ قال ﷺ: أعني بذلك ثلاثة عشر رجلاً خاصة، قال سلمان: بيّنهم لنا يا رسول الله؟ قال: أنا، وأخي عليّ وأحد عشر من ولدي؟».

قالوا: نعم.

قال: «أنشدكم الله أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ قال في خطبته في مواضع متعددة، وفي آخر خطبته لم يخطب بعدها: أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فتمسّكوا بهما لن تضلّوا، فإنّ

(١) التوبة: ١١٩.

(٢) الحج: ٧٧.

اللطيف الخبير أخبرني، وعهد إليَّ أنهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض».

فقال كلهم نشهد أن رسول الله ﷺ قال ذلك.

* * *

وفيه: وفي (المناقب) بالسند المذكور عن سليم بن قيس الهلالي، قال: عليّاً عليه السلام يقول: وأتاه رجل فقال: أرني أدنى ما يكون به العبد مؤمناً، وأدنى ما يكون به العبد كافراً، وأدنى ما يكون به العبد ضالاً، فقال له عليه السلام: «قد سألت فافهم الجواب، أمّا أدنى ما يكون به العبد مؤمناً، أن يعرّفه الله تبارك وتعالى نفسه فيقرّ له بالطاعة، ويعرّفه نبيّه ﷺ فيقرّ له بالطاعة، ويعرّفه إمامه وحجّته في أرضه وشاهده على خلقه فيقرّ له بالطاعة». قلت: يا أمير المؤمنين وإن جهل جميع الأشياء إلاّ ما وصفت، قال: «نعم إذا أمر أطاع، وإذا نُهي انتهى.

وأدنى ما يكون به العبد كافراً، من زعم أنّ شيئاً نهى الله عنه، أنّ الله أمره به ونصبه ديناً يتولّى عليه، ويزعم أنه يعبد الله الذي أمره به وما يعبد إلاّ الشيطان.

وأدنى ما يكون به العبد ضالاً، أن لا يعرف حجة الله تبارك وتعالى وشاهده على عباده الذي أمر الله عزّ وجلّ عباده بطاعته وفرض ولايته».

قلت: يا أمير المؤمنين صفهم لي، قال: «الذين قرنهم الله بنفسه وبنبيّه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[1]»، فقلت: جعلني الله فداك أوضح لي، فقال: «الذين قال رسول الله ﷺ في مواضع وفي آخر خطبة يوم قبضه الله عزّ وجلّ: إني تركت فيكم

---

(١) النساء: ٥٩.

أمرين لن تضلّوا بعدي إن تمسّكتم بهما، كتاب الله عزّ وجلّ، وعترتي أهل بيتي، فإنّ اللطيف الخبير قد عهد إليّ أنهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض كهاتين وجمع مسبحتيه، ولا أقول كهاتين وجمع مسبحته والوسطى، فتمسّكوا بهما ولا تقدموهم فتضلوا...».

ومن وجوه الخير الجهاد في سبيل الله:

خلق الله تعالى الإنسان وأودع فيه قوتين مختلفتين: أحداهما نزاعة إلى الشر أمارة بالسوء، والأخرى نزاعة إلى الخير ميالة للعدل، محبة للقرب من الله تعالى، تواقة للوصول إليه.

وقد اقتضت حكمته عزّ وجلّ رحمة للإنسان وإرادة لسعادته وكماله، أن يشرّفه بالتكليف، وهو عبارة عن جهاد ونضال بين هاتين القوتين المتخالفتين في المنازع والأغراض، جهاد لا نهاية له إلاّ بانتهاء الحياة وافتراق البدن والروح. فالإنسان ما وجد في هذه الحياة الدنيا إلاّ للمجاهدة والكفاح في ميادينها الواسعة النطاق، المترامية الأطراف، وعلى قدر جهاده وكفاحه تكون منزلته من الله تعالى ومقامه عنده، ويكون ترقّيه في مقامات الرفعة والكمال.

ومن كلمات الصوفية في هذا المقام:

من زيّن ظاهره بالمجاهدة زيّن الله باطنه بأنوار اليقين.

ومن كانت بدايته محرقة، كانت نهايته مشرقة.

يريدون أنّ كمال المعرفة واشراق القلب بنور اليقين، لا يكون مع التكاسل والتخاذل؛ بل لا بدّ من المجاهدة والمكابدة واماتة صفات النفس المذمومة، واستبدال الأخلاق الفاضلة بها.

وليس يعجز الله تعالى أن يمنح الكمال بلا مشقة، ويكرم عبده بدون جهاد ولا تكليف، ولكن هكذا سبق في علمه القديم وتقديره الحكيم، أن لكل شيء سبباً، فالفوائد في طيّ الشدائد، والعطايا على متن البلايا.

والله تعالى أحكم الحاكمين، ناط السعادة بالجد، والمثوبة بالعمل الصالح، إظهاراً لحكمته وإشعاراً بجلال ربوبيته، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(١).

والجهاد لا يكون إلاّ بين خصمين متنازعين، وعدويين متشاحنين:

١ ـ جهاد النفس والشيطان.

٢ ـ جهاد المتهاونين في الدين وفي أحكامه وتعاليمه.

٣ ـ جهاد أعداء الدين المخالفين لنا في العقيدة.

أما الأوّل: جهاد النفس والشيطان: فهو الجهاد الأكبر؛ لأنه جهاد في عذر باطن يراك ولا تراه، شديد المكر عظيم الحيلة، ملازم لك في الليل والنهار، في النوم واليقظة والحركة والسكون يجري منك مجرى الدم في العروق.

ومرجع هذا الجهاد إلى تخلية النفس من أوصافها الذميمة، كالحقد والحسد والكبر والعجب، والرياء والبخل والطمع والحرص، وما إلى ذلك من الأمراض الباطنية المهلكة، وتحليتها بالأخلاق الفاضلة الكريمة.

والنوع الثاني من أنواع الجهاد: في اخواننا في الدين المشتركين معنا في الإنتماء إليه، ولكن فتنتهم الدنيا بمناظرها الجذابة ومظاهرها الخلابة حتّى أصبحوا أُسارى بأيدي الشهوات، سكارى بمحبة اللذات، تساهلوا في تطبيق أحكام الدين والعمل بأوامره ونواهيه من غير جحود ولا إنكار.

---

(١) الملك: ١ و٢.

وهذا الضرب من الجهاد هو عبارة عن التصدّي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد اشتد مسيس الحاجة إليه في الآونة الحاضرة لما انتشر فينا من القبائح والزور، ولما نشأ بيننا من التفريط والإهمال، مع أنه أساس حياة الأمّة وبدونه لا تتوفر لها سعادة ولا هناء كما صرحت الأحاديث الشريفة كقوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

وقال أيضاً: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم إستَهمُوا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نَؤذِ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

والقائم في حدود الله معناه المنكر لها، القائم في دفعها وإزالتها، والمراد بالحدود ما نهى الله عنه، ومعنى استهموا اقترعوا.

والنوع الثالث من الجهاد: هو جهاد مخالفينا في العقيدة والدين، فمحصّله القيام بالدعاية الدينية المنظمة والمجادلة بالتي هي أحسن، الخالية من الشدة والعنف، وعندنا أن هذا النوع من الجهاد متى نظّم وأحكمت وسائله فإنه يأتي بأحسن النتائج وأطيب الثمرات.

[الجهاد قسمان]:

وبالتالي الجهاد قسمان:

الأوّل: جهاد الإنسان نفسه عن معاصي الله، والثاني: جهاد القتال، وهو على قسمين: قتال الفئة الكافرة حتّى يسلموا، وقتال الفئة الباغية حتّى يفيؤا.

أمّا قتال الفئة الكافرة وهو حرب الكفار بالنفس والمال؛ لأجل الدفاع عن الأوطان، والذود دون العقيدة وتقرير دعائم الحرية، والإيمان والعزة، وإعلاء كلمة التوحيد.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١).

﴿اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي جازاهم على بذلها، ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

وفي (الوسائل):[1] عن أحمد بن محمّد بن سعيد، عن جعفر بن عبد الله العلوي، وعن أحمد بن محمّد الكوفي، عن عليّ بن عبّاس عن إسماعيل بن إسحاق جميعاً عن أبي روح فرج بن قرة، عن مسعدة بن صدقة عن ابن أبي ليلى عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَدِرْعُ اللَّهِ الْحَصِينَةُ وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَشَمِلَهُ الْبَلاءُ وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءَةِ وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالإِسْهَابِ وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ وَسِيمَ الْخَسْفَ وَمُنِعَ النَّصَفَ».

(قال): ورواه الشيخ باسناده عن أحمد بن محمّد بن سعيد، نحوه، وزاد فيه: وأديل الحق بتضييع الجهاد، وغضب الله عليه بتركه نصرته،

---

(١) وسائل الشيعة ١٥: ١٤/ أبواب الجهاد ١/ ح ١٣ - ١٥.

وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾[1] أي ﴿إِنْ تَنْصُرُوا﴾ دينه ورسوله ﴿يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ في مواقف الحرب والقيام بأمر الدين.

وفيه: عن محمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن عليّ بن الحكم عن أبي حفص الكلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: إنّ الله عز وجل بعث رسوله بالإسلام إلى الناس عشر سنين، فأبوا أن يقبلوا، حتّى أمره بالقتال، فالخير بالسيف وتحت السيف، والأمر يعود كما بدأ.

وفيه: عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن محبوب، رفعه قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الله فرض الجهاد وعظّمه وجعله نصره وناصره، والله ما صلحت دنيا ولا دين إلاّ به».

وأمّا الثاني: وهو قتال الفئة الباغية.

في (الوسائل):[2] عن الحسن بن محمّد الطوسي في مجالسه عن أبيه عن المفيد عن عليّ بن بلال عن أحمد بن الحسن البغدادي عن الحسين بن عمري المقري عن عليّ بن الأزهر عن عليّ بن صالح المكي، عن محمّد بن عمر بن عليّ عن أبيه عن جدّه عليه السلام إن النبيّ صلى الله عليه وآله قال له: «يا عليّ إنّ الله تعالى قد كتب على المؤمنين الجهاد في الفتنة من بعدي، كما كتب عليهم الجهاد في المشركين معي»، فقلت: يا رسول الله وما الفتنة التي كتب علينا فيها الجهاد؟ قال: «فئة يشهدون أن لا إله إلاّ الله، وإني رسول الله، وهم قوم مخالفون لسُنّتي، وطاعِنون في ديني»، فقلت: فعلامَ نقاتلهم يا رسول الله وهم يشهدون أن لا إله إلاّ الله

(١) محمّد: ٧.

(٢) ج ١٥: ٨١/ باب حكم قتال البغاة/ ح ٧.

وأنك رسول الله؟ فقال: «على إحداثهم في دينهم، وفراقهم لأمري، واستحلالهم دماء عترتي».

وفيه،[(١)] عن السندي بن محمّد، عن أبي البختري، عن جعفر بن محمّد عن أبيه، عن عليّ عليه السلام إنّه قال: «القتل قتلان: قتل كفّارة، وقتل درجة، والقتال قتالان: قتال الفئة الباغية حتّى يفيؤا، وقتال الفئة الكافرة حتّى يسلموا».

وفيه[(٢)] بالإسناد عن المنقري، عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سأل رجل أبي عليه السلام عن حروب أمير المؤمنين عليه السلام فأجاب عليه السلام ـ والحديث طويل اختصرنا منه موضع الحاجة ـ: «قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾،[(٣)] فلما نزلت هذه الآية، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ منكم من يقاتل بعدي على التأويل كما قاتلت على التنزيل، فسئل صلى الله عليه وآله (عنه وقيل له: من هو يا رسول الله؟) فقال: خاصف النعل ـ يعني أمير المؤمنين ـ، فقال عمّار بن ياسر: قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ثلاثاً، وهذه الرابعة، والله لو ضربونا حتّى يبلغوا المسعفات من هجر، لعلمنا أنا على الحق وإنهم على الباطل.

وكانت السيرة فيهم من أمير المؤمنين ما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله في أهل مكّة، فإنه لم يسب لهم ذرية، وقال: من أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى سلاحه أو دخل دار أبي سفيان فهو آمن، كذلك قال أمير

---

(١) ج ١٥: ٨٣/ باب حكم قتال البغاة/ ح ١١.

(٢) ج ١٥: ٢٥/ باب أقسام الجهاد/ ح ٢.

(٣) الحجرات: ٩.

المؤمنين عليه السلام يوم البصرة: نادى لا يسبوا لهم ذرّية، ولا تجهزوا على جريح، ولا تتبعوا مدبراً، ومن أغلق بابه وألقى سلاحه فهو آمن».

رواه الصدوق في (الخصال)(١) عن أبيه عن سعد بن عبد الله عن القاسم بن محمّد، وكذا الذي كان قبله، ورواه عليّ بن إبراهيم في (تفسيره)(٢) عن أبيه عن القاسم بن محمّد مثله.

وأمّا جهاد النفس عن المعاصي: فإذا تجنب العبد المعاصي، وألجم نفسه بلجام التقوى، وطهّر قلبه من الرذائل، وانبعثت جوارحه في الأعمال الصالحة، وتباعد عنه الشيطان خاسراً، ودخلت نفسه تحت الطاعة، وسلم من شروره، وشياطينها.

والمطلوب من الجوارح كما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لابنه محمّد بن الحنفية.

في (الوسائل)(٣) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «يا بني لا تقل ما لا تعلم؛ بل لا تقل كلّ ما تعلم، فإنّ الله قد فرض على جوارحك كلها فرائض يحتج بها عليك يوم القيامة، ويسألك عنها، وذكّرها ووعظها وحذّرها وأدّبها، ولم يتركها سدى، فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾، (الإسراء: ٣٦) وقال عز وجل: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، (النور: ١٥) ثمّ استعبدها بطاعته، فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

---

(١) ص ٢٧٦.

(٢) ج ٢: ٣٢١.

(٣) وسائل الشيعة ١٥: ١٦٨ - ١٧١/ باب الفروض على الجوارح/ ح ٦.

(الحج: ٧٧) فهذه فريضة جامعة واجبة على الجوارح، وقال ﷻ: ﴿وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ (الجن: ١٨) يعني بالمساجد الوجه واليدين والركبتين والابهامين، وقال ﷻ: ﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ﴾ (فصلت: ٢٢) يعني بالجلود الفروج، ثمّ خصّ كل جارحة من جوارحك بفرض ونصّ عليها، ففرض على السمع أن لا يصغي إلى المعاصي، فقال ﷻ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٠) وقال ﷻ: ﴿وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (الأنعام: ٦٨) ثمّ استثنى ﷻ موضع النسيان، فقال: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ٦٨) وقال ﷻ: ﴿فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ (الزمر: ١٨)، وقال ﷻ: ﴿وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾ (الفرقان: ٧٢) وقال ﷻ: ﴿وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ (القصص: ٥٥).

فهذا ما فرض الله ﷻ على السمع وهو عمله. وفرض علي البصر أن لا ينظر به إلي ما حرّم الله عليه، فقال ﷻ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ (النور: ٣٠) فحرّم أن ينظر أحد إلى فرج غيره. وفرض على اللسان الإقرار والتعبير عن القلب بما عقد عليه، فقال ﷻ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا ...﴾ الآية (البقرة: ١٣٦). وقال ﷻ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ (البقرة: ٨٣). وفرض على القلب وهو أمير الجوارح الذي به يعقل ويفهم ويصدر عن أمره ورأيه، فقال ﷻ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ ...﴾ الآية (النحل: ١٠٦)، وقال ﷻ حين أخبر عن قوم

أعطوا الإيمان بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ (المائدة: ٤١) وقال عزّ وجلّ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨) وقال عزّ وجلّ: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٨٤).

وفرض على اليدين ألاّ تمدّهما إلى ما حرّم عزّ وجلّ عليك وأن تستعملهما بطاعته، فقال عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة: ٦) وقال عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ (محمّد: ٤).

وفرض على الرجلين أن تنقلهما في طاعته، وأن لا تمشي بهما مشية عاصٍ. فقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (الإسراء: ٣٧ و٣٨). وقال عزّ وجلّ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس: ٦٥) فأخبر الله عنها إنها تشهد على صاحبها يوم القيامة.

فهذا ما فرض الله على جوارحك، فاتق الله يا بني فاستعملها بطاعته ورضوانه، وإيّاك أن يراك الله تعالى ذكره عند معصيته، أو يفقدك عند طاعته، فتكون من الخاسرين، وعليك بقراءة القرآن والعمل بما فيه، ولزوم فرائضه وشرايعه وحلاله وحرامه، وأمره ونهيه، والتهجّد به وتلاوته في ليلك ونهارك، فإنه عهد من الله تبارك وتعالى إلى خلقه، فهو واجب على كل مسلم أن ينظر كل يوم في عهده، ولو خمسين آية.

واعلم أنّ درجات الجنّة على عدد آيات القرآن، فإذا كان يوم القيامة يقال لقارئ القرآن اقرأ وارقَ فلا يكون في الجنّة بعد النبيين والصديقين أرفع درجة منه...» والوصيّة طويلة.

ومن وجوه الخير الإصلاح بين الناس:

لأنّ الإصلاح فيه حسمٌ للشرور، وإزالة لجرائيم العداوة، حيث إنّ العداوة بين شخصين تتطور حتماً إلى العداوة بين أصدقاء كل من المتعاديين، وكثيراً ما تؤدي إلى انقسام الأمة إلى جماعات لا همّ لها إلاّ النكاية بعضها بعضاً؛ بل وكثيراً ما تتطور بأسباب الخصام والتشاحن إلى سفك الدماء، فأقرب ما يتقرّب به العبد من ربّه الإصلاح بين الناس، يرفع الشقاق بينهم، وحسم مادة العداء، وإرجاعهم إلى سابق الوداد، ولذا كان أفضل من عامة الصلاة والصيام في الأجر. الإصلاح بين الناس صفة من أرفع الخصال في النفس الإنسانية التي لا تصدر إلاّ من قلب نبيل، أحبّت الإصلاح وسعت إلى الدفاع، وحسمت مادة النزاع، وأرجعت علاقات الودّ والصفاء، وحرمة الصلة وروابط الإخاء.

الإصلاح يؤتي من الخير والنفع للمجتمع ما يجعل الناس يداً واحدة، وينشر الأمن وتقوى الكلمة، لهذا أمر الله به بعد أن وصف الرباط بين المؤمنين، وهو الأخوّة الدينية بقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1] ودعا الله إلى الإصلاح بين طوائف المؤمنين بقوله ﷻ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾.[2] ودعا إلى الإصلاح بين الزوجين بقوله ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾ (النساء: ٣٥).

وبيّن الله ثواب الإصلاح بين الناس بهذه الآية بقوله ﷻ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء: ١١٤).

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) الحجرات: ٩.

المعنى: إنّ كثيراً من التناجي بين الناس لا خير فيه، لما يحصل فيه كثير من الإثم، من الغيبة والطعن، أو ما يُحاك به من المؤامرات والكيد والمكر والخديعة والفتنة، وإمّا بالسفه أو باللغو الذي لا يعود عليهم نفعه؛ بل الخير كل الخير في الأعمال التي استثناها، وحصر الفائدة بها، وهي الصدقة التي بها تأمين حاجات الطبقة الفقيرة، والأمر بالمعروف وهو الأمر بالخير والإحسان، والإصلاح بين الناس، وهو تأليفهم بالمودّة، ومن يفعل هذه الأعمال لوجه الله وطلب مرضاته، فإنّ الله سيؤتيه الثواب العظيم والأجر الجزيل.

في (مجمع البيان):[١] قال عليّ بن إبراهيم في تفسيره: حدّثني أبي، عن ابن أبي عمير، عن حمّاد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الله فرض التجمّل في القرآن»، قلت: وما التجمّل في القرآن جعلت فداك؟ قال: «أن يكون وجهك أعرض من وجه أخيك وهو قوله: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾[٢]».

وقال: حدّثني أبي رفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام إنّه قال: «إنّ الله فرض عليكم زكاة جاهكم كما فرض عليكم زكاة ما ملكت أيديكم».

وفي (الكافي):[٣] عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن محمّد بن سنان، عن حمّاد بن أبي طلحة، عن حبيب الأحول، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «صدقة يحبّها الله إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقارب بينهم إذا تباعدوا».

---

(١) ٢: ١٨٦.

(٢) النساء: ١١٤.

(٣) ج ٢: ٢٠٩/ باب إصلاح بين الناس/ ح ١.

وفيه:[1] في (باب الكذب) عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن أبي يحيى الواسطي، عن بعض أصحابنا، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الكلام ثلاثة: صدق، وكذب، واصلاح بين الناس»، قال: قيل له: جعلت فداك ما الإصلاح بين الناس؟ قال: «تسمع من الرجل كلاماً يبلغه، فتخبث نفسه، فتقول: سمعت من فلان قال فيك من الخير كذا وكذا خلاف ما سمعت».

وفيه:[2] عن أحمد بن محمّد بن خالد، عن ابن محبوب، عن معاوية بن وهب أو معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أبلغ عني كذا وكذا في أشياء أمر بها»، قلت: فأبلّغهم عنك وأقول عني ما قلت لي وغير الذي ما قلت؟ قال: «نعم إنّ المصلح ليس بكذّاب».

وهذا القول وإن كان كذباً لغة وعرفاً جائز، لقصد الإصلاح بين الناس، ولا خلاف فيه عند أهل الإسلام، والظاهر أنه لا تورية فيه، ولا تعويض فيه، وان أمكن أن يقصد تورية بعيدة.

وفي (سفينة البحار): عن الأمالي عن الصادق عليه السلام عن آبائه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما عمل امرؤ عملاً بعد إقامة الفرائض خيراً من إصلاح بين الناس يقول خيراً وينمي خيراً».

وفيه: عن الأمالي عن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصوم».

* * *

---

(١) ج ٢: ٣٤١/ ح ١٦.
(٢) ج ٢: ٢٠٩/ باب إصلاح بين الناس/ ح ٤.

[حكاية في اصلاح ذات البين]:

في الخلق الكامل (ج ٣): في ذكر حكاية في وجوب إصلاح ذات البين:

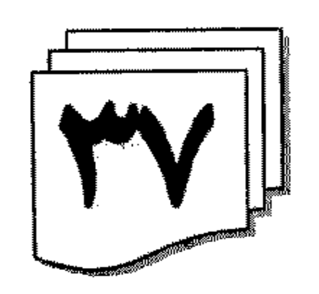
قال الحارث بن عوف المريّ لخارجة بن سنان في إبّان الحرب بني عبس وذبيان: أتراني أخطب إلى أحد فيردني؟ قال: نعم، أوس بن حارثة الطائي.

فقال الحارث لغلامه: هيّئ لي مركباً، ثمّ ركب هو غلامه ومعهما خارجة حتّى أتيا أوساً فوجداه في داره، فلما رأى الحارث رحّب به وسأله عن مجيئه، فقال: جئتك خاطباً، فقال أوس: لست هناك، فانصرف ولم يكلّمه. ثمّ دخل أوس على امرأته مغضباً، وكانت من عبس، فقالت: من الرجل الذي وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه؟ قال: ذاك سيّد العرب الحارث بن عوف. قالت: فما لك لم تستنزله؟ قال: إنه استمحق، جاءني خاطباً، قالت: أتريد أن تزوج بناتك؟ قال: نعم قالت: فإذا لم تزوج سيد العرب فمن؟ قال: قد كان ذلك، قالت: فتدارك ما كان منك، فالحقه وقل له: إنك لقيتني مغضباً بأمر لم تقدم مني فيه قولاً، فلم يكن عندي من الجواب إلاّ ما سمعت، فانصرف ولك عندي كل ما أحببت، فإنه سيفعل، ففعل ذلك أوس وردّ حارثة، فلما وصلوا إلى بيت أوس قال أوس لزوجته: ادعي لي فلانة (لكبرى بناته) فأتته، فقال: يا بنيّة، هذا الحارث بن عوف سيّد من سادات العرب، وقد جاءني طالباً خاطباً، وقد أردت أن أزوّجك منه، فقالت: لا تفعل، لأني امرأة في وجهي ردّه ـ أي قبح ـ وفي خلقي بعض العهدة ـ أي ضعف ـ ولست بنت عمّه فيرعى رحمي، وليس بجارك في البلد فيستحي منك، ولا آمن أن يرى مني ما يكره

فيطلّقني، فيكون عليَّ في ذلك ما فيه!! قال: فقومي بارك الله فيك، ثمّ دعا الوسطى، فأجابته بمثل جواب الأولى، وقالت: إني خرقاء ـ أي ضعيفة الرأي ـ وليست بيدي صناعة، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلّقني فيكون عليَّ في ذلك ما تعلم، ثمّ دعا الثالثة وهي صغراهن، فلما عرض عليها قالت: أنت وذاك، فأخبرها بإباء أختيها. فقالت: لكني والله الجميلة وجهاً، الصناعة يداً، الرفيعة خلقاً، الحسيبة أباً، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير، فزوجها الحارث، وهيّئت إليه في بيت أبيها، فلما خلا بها وأراد أن يمدّ يده إليها قالت: مه، أعند أبي واخوتي؟ هذا والله ما لا يكون، فارتحل بها، حتّى إذا كان ببعض الطريق وأراد قربانها، قالت: أكما يفعل بالأمة الجليبة أو السبيّة الأخيذة؟ لا والله حتّى تنحر الجزور، وتذبح الغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يعمل لمثلي.

فرحل حتّى وصل إلى قومه، أعدّ لها ما يعدّ لمثلها، فلما أراد قربانها قالت له: أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتتل بعضها بعضاً؟ أخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثمّ ارجع أهلك فلن يفوتك، فخرج الحارث مع خارجة بن سنان فأصلحا بين القوم، وحملا الديات. وكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين.

* * *



قوله عليه السلام:

يَا ابْنَ آدَمَ الرِّزْقُ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ فَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ فَلاَ تَحْمِلْ هَمَّ سَنَتِكَ عَلَى هَمِّ يَوْمِكَ كَفَاكَ كُلُّ يَوْمٍ عَلَى مَا فِيهِ فَإِنْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُؤْتِيكَ فِي كُلِّ غَدٍ جَدِيدٍ مَا قَسَمَ لَكَ وَإِنْ لَمْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فَمَا تَصْنَعُ بِالْهَمِّ فِيمَا لَيْسَ لَكَ وَلَنْ يَسْبِقَكَ إِلَى رِزْقِكَ طَالِبٌ وَلَنْ يَغْلِبَكَ عَلَيْهِ غَالِبٌ وَلَنْ يُبْطِئَ عَنْكَ مَا قَدْ قُدِّرَ لَكَ.

(نهج البلاغة ٤: ٩١)

[الرزق مضمون للعباد]

قال ابن أبي الحديد:

قد تقدم القول في هذا الفصل. وروي أنّ جماعة دخلوا على الجنيد فاستأذنوه في طلب الرزق، فقال: إن علمتم أيّ موضع هو فاطلبوه، قالوا: فنسأل الله تعالى ذلك. قال: إن علمتم أنه ينساكم فاذكروه، قالوا: فندخل البيت ونتوكل وننتظر ما يكون، فقال: التوكل على التجربة شكّ، قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة.

وروي أنّ رجلاً لازم باب عمر فضجر منه فقال له: يا هذا هاجرت إلى الله تعالى أم إلى باب عمر؟ اذهب فتعلّم القرآن فإنه سيغنيك عن باب عمر، فذهب الرجل وغاب مدة حتّى افتقده عمر، فإذا هو معتزل مشتغل بالعبادة، فأتاه عمر فقال له: إني اشتقت إليك فما الذي شغلك عنا؟ قال: إني قرأت القرآن فأغناني عن عمر وآل عمر، فقال: رحمك الله فما وجدت فيه؟ قال: وجدت فيه ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1] فقلتُ رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض إني لبئس الرجل، قال: صدقت وكان بعد ذلك ينتابه ويجلس إليه.[2]

* * *

---

(١) الذاريات: ٢٢.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٩: ٣١٩.

قال ابن ميثم البحراني:

أقول: قد مضى تفسير أكثر هذا الكلام، وغرضه عليه السلام التنفير عن الإهتمام بالدنيا والإشتغال بما يرجى منها عن ذكر الله وطاعته، ونهاه عليه السلام أن يحمل همّ السنة على همّ اليوم، لئلاً تجتمع عليه أحزان متضاعفة يكفي واحد منها شغلاً، واحتج لذلك بضميري صغرى.

الأوّل قوله عليه السلام: «فإن تكن السنة» وتقديرها إنّ سنتك التي تهتّم لها إمّا أن تكون من عمرك أو ليس، وتقدير الكبرى، وكلّما كان على هذين التقديرين فلا ينبغي الإهتمام به، أمّا على التقدير الأوّل فإنّ الله يؤتيك في كل يوم منها ما قسم لك لا محالة، وما لا بدّ منه لا يجوز الإهتمام به، وأما على التقدير الثاني: فلأنه ليس من العقل أن يهتمّ المرء بما ليس له، وصغرى الثاني:

قوله عليه السلام: «ولن يسبقك إلى قوله قدّر لك» وتقديرها أنّ رزقك لن يسبقك إليه طالب، وتقدير الكبرى، وكلّما كان كذلك فلا ينبغي أن يهتمّ به.[1]

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

تكلمنا عن الرزق مرات في (التفسير الكاشف) تبعاً للآيات الكريمة، وأيضاً تحدّثنا عنه مراراً فيما سبق من هذا الكتاب تبعاً لمقالة الإمام وإشارته... وبيّنا الكلام عنه هنا وهناك على أنّ الرزق يرتبط بالسعي عملاً بظاهر الآية (١٥) من سورة الملك: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

---

(١) ج ٥: ٤٣٢.

وحين بلغتُ بالشرح إلى قول الإمام عليه السلام: «الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك» أنعمت الفكر من جديد، ولم أعطف على ما سبق، فاهتديت الطريق بتوفيق الله وبركة الإمام إلى ما يلي:

لكل شيء داعية وسبب، رزقاً كان أم غير رزق، لأنّ الله سبحانه أبى إلاّ أن يربط الأشياء بأسبابها، والنتائج بمقدماتها، والفرق بين الرزق وغيره يعود إلى أنّ غير الرزق قد يمكن ضبطه وتحديده من خلال العلم بأسبابه، أما الرزق فلا يمكن ضبطه وتحديده بحال حتّى من خلال العلم بأسبابه. هذا هو الفرق لا ما قاله الشارحون: إنّ الرزق بيد الله وحده وبلا سبب وواسطة على الإطلاق... كلاّ وألف كلا... أبداً لا رزق إلاّ بسبب مع توفيق الله وعنايته، سوى أنه لا يُقدر بسببه، أما غيره فيمكن تقديمه بسببه الموجب له.

_ مثلاً _ أستطيع أن أحدد من طبيعة الموضوع أن الكتابة عنه سوف تستغرق صفحة أو صفحتين، وأن لديَّ من المال ما يكفي لبناء غرفة أو غرفتين، أما الرزق فلا يمكن ضبطه وتحديده حتّى مع مباشرة أسبابه، فالفلاّح يزرع، وينتظر الحصاد، والأمر بيد الله، فقد تكون النتيجة الخصب أو الجدب، والتاجر يعرض السلعة في حانوته، وقد تكسد أو تروج، وأيضاً قد يرتفع ثمنها أو ينخفض لسبب أو لآخر، وكذلك الحلاّق وصاحب (التكسي) وغيرهما من أرباب الصناعة، تختلف أرزاقهم من يوم إلى يوم، حتّى الموظف والعامل الدائم مظنّة الفصل والطرد، ولو بإفلاس ربّ العمل، أو انهيار الدولة من الأساس، وأيضاً رزقهما مظنّة الزيادة بارتفاع الأجور والرواتب، أو بساعات إضافيّة، وغير ذلك مما لم يكن في الحسبان... وأيّ خبير يستطيع أن يقدّر ويحدّد أرباح المهرّبين والمغامرين؟

وبهذا يتبيّن معنى التفسير الصحيح لقول الإمام عليه السلام: «الرزق رزقان: رزق تطلبه» وهو الذي صممت عليه، وسعيت إليه، وجعلته نُصب عينيك، وبذلت في سبيله كل جهد، «ورزق يطلبك» وهو الذي لم يكن بالحسبان، ولا مرّ بالخيال والبال، كالفلاّح يفاجأ بالخصب، والتاجر بارتفاع أثمان ما يملك من السلع، والوظيفة تطرق الباب بلا علم وسعي سابق، وكم من وزير ومدير ومحافظ وسفير قرؤا خبر توظيفهم في الصحف، أو سمعوه من الإذاعة فجأة وحين اليأس والقنوط.

«ولا تحمل همّ سنتك...» إلخ، لا تتعجّل الهمّ والغم لرزق مقبل، فإنّ يومك الآتي تماماً كيومك الماضي تجد فيه ما يكفيك، إن بقيت مع الأحياء.. وإلاّ فما همّك وشغلك بما ليس لك، ولا أنت منه في شيء.[1]

* * *

[الرزق المكتسب والرزق المقدر]:

وقال صاحب (منهاج البراعة):[2]

يظهر من كلامه عليه السلام هذا أنّ الرزق ينقسم إلى مكتسب وإلى مقدّر، فللطلب والكسب أثر في الرزق، ومعناه أنّ الرزق قد يكون مثبتاً في لوح القضاء الإلهي معلّقاً على شرط كالطلب والدّعاء، فإن حصل شرطه وصل إلى صاحبه، وإن لم يحصل لم يصل، وقد يكون مثبتاً في لوح القدر غير مشروط بشرط فيصل إلى صاحبه على كل حال.

وظاهره بل صريحه أنّ القسم الثاني عامّ لكلّ فرد ولكنّه مشروط

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٤٤٠.

(٢) ج ٢١: ٤٦٩.

بيومه، فالرزق المقدّر لكل فرد يصل إليه في كل يوم، يوم ولا يتقدّم على حينه، وغرضه عليه السلام التنفير عن الإهتمام بالدنيا ومزيد الإشتغال بها عن العبادة والذكر والإهتمام بادخار الرزق، فقال: «فإنّ الله تعالى سيؤتيك في كلّ غدٍ جديد ما قسّم لك».

* * *

أقول: قال الفخر الطريحي في (مجمع البحرين):[1]

والرزق اسم للمرزوق، والجمع أرزاق كحمل وأحمال.

وهو عند الأشاعرة: كل ما انتفع به مباحاً كان أو حراماً.

وعند المعتزلة هو كل ما صح انتفاع الحيوان به بالتغذّي، وليس الحرام رزقاً.

وأنت خبير بأنّ الأحاديث المنقولة في هذا الباب متخالفة.

فالمعتزلة تمسّكوا بقوله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله تعالى قسّم الأرزاق بين خلقه حلالاً، ولم يقسمها حراماً».

والأشاعرة تمسكوا بقول عمر بن قرة حيث قال: يا رسول الله إنّ الله كتب عليَّ الشقوة فلا أرادني أرزق إلاّ من دفّي بكفّي، أتأذن لي في الغناء؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله بعد كلام: «أي عدوّ الله إنّ الله قد رزقك طيباً فاخترت ما حرّم الله عليك من رزقه مكان ما أحلّ الله لك من حلاله».

* * *

(١) ٥: ١٦٨.

جاء في كتابنا (عليّ والأسس التربوية):[1]

الرزق لا يعدو إحدى اثنتين: فرزق تطلبه وتسعى إليه، وتتذرع إليه بالوسائل المختلفة، وتحدث بينك وبينه أسباب وصلات حتّى إذا بلغ منك الإعياء مبلغاً عظيماً نلته بعد جهد جهيد، وعسر عسير.

ورزق يسعى نحوك ولا تسعى أنت إليه؛ بل لم ترَ أنه قد كتب لك، فهو يأتيك من دون أن تبذل فيه شيئاً من راحة، ومن دون أن تركب لنيله الصعاب، وتجتاز من أجله العقاب.

[قصص وحكايات عن الرزق المقدر]:

دخل عماد الدولة أبو الحسن بن بابويه بشيراز بعد أن هزم ابن ياقوت عنها وهو فقير لا مال له، فساخت إحدى قوائم فرسه في الصحراء في الأرض، فنزل عنها وابتدرها غلمانه فخلصوها، فظهر لهم في ذلك الموضع نقب وسيع، فأمرهم بحفره فوجدوا فيه أموالاً عظيمة وذخائر لابن ياقوت.

واستلقى يوماً آخر على ظهره في داره بشيراز، التي كان ابن ياقوت يسكنها، فرأى حية في السقف، فأمر غلمانه بالصعود إليها وقتلها، فهربت منهم ودخلت في خشب الكنيسة فأمر أن يقلع الخشب وتستخرج وتقتل، فلما قلعوا الخشب وجدوا فيه أكثر من خمسين ألف دينار ذخيرة لابن ياقوت.

واحتاج أن يفصل ويخيط ثياباً له ولأهله، فقيل: ههنا خياط حاذق كان يخيط لابن ياقوت، وهو رجل منسوب إلى الدين والخير، إلاّ أنه

---

(١) مطبوع.

أصمّ لا يسمع شيئاً أصلاً، فأمر باحضاره فأحضر عنده وهو في رعب وهلع، فلمّا أدخل عليه كلّمه وقال: أريد أن تخيّط لنا كذا وكذا قطعة من الثياب، فارتعد الخياط واضطرب كلامه وقال: والله يا مولاي ما له عندي إلاّ أربعة صناديق ليس غيرها، فلا تسمع قول الأعداء فيَّ، فتعجّب عماد الدولة وأمر باحضار الصناديق فوجدها كلها ذهباً وحلياً وجواهراً مملوءة وديعة لابن ياقوت.

* * *

عبد الله بن جدعان التيمي، أحد أجواد الجاهلية، كان في ابتداء أمره صعلوكاً ترب اليدين، وكان مع ذلك شريراً فاتكاً لا يزال يجني الجنايات، فيعقل عنه أبوه وقومه، حتّى أبغضه عشيرته ونفاه أبوه، وحلف أن لا يؤويه أبداً، فخرج في شعاب مكّة حائراً ثائراً يتمنى الموت أن ينزل به، فرأى شقّاً في جبل فظن أنّ فيه حية، فتعرّض للشق يريد أن يكون فيه ما يقتله فيستريح فلم يرَ شيئاً، فدخل فيه فإذا فيه ثعبان عظيم له عينان تتقدان كالسراجين، فحمل عليه الثعبان فأفرج له فانساب عنه مستديراً بدارة عند بيت، ثمّ خطا خطوة أخرى فصفر به الثعبان فأقبل إليه كالسهم، فأفرج له فانساب عنه، فوقف ينظر إليه يفكّر في أمره، فوقع في نفسه أنه مصنوع، فأمسكه بيديه فإذا هو مصنوع من ذهب وعيناه ياقوتتان، فكسّره وأخذ عينيه، ودخل البيت فإذا جثث طوال على سرر لم يرَ مثلهم طولاً وعظماً، وعند رؤوسهم لوح من فضة فيه تاريخهم، وإذا هم رجال من ملوك جرهم وآخرهم موتاً ـ الحرث بن مضاض ـ صاحب العذبة الطويلة ـ وإذا عليهم ثياب من وشي لا يمسّ منا شيء

إلاّ انتثر كالهباء من طول الزمان، مكتوب في اللوح عظات، وكان اللوح من رخام، وكان فيه: أنا نفيلة بن عبد المدان بن خشرم بن عبد يا ليل بن جرهم ابن قحطان بن نبيّ الله هود عليه السلام عشت من العمر خمسمائة عام، وقطعت غور الأرض ظاهرها وباطنها في طلب الثروة والمجد والملك، فلم يكن ذلك ينجيني من الموت وتحته مكتوب:

قد قطعت البلاد في طلب ... الثروة والجد قالص الأثوابِ
وسريت البلاد قفراً لقفر ... بقناة وقوة واكتسابِ
فأصاب الردى بنات فؤادي ... بسهام من المنايا صيابِ
فانقضت مدتي وأقصر جهلي ... واستراحت عواذلي من عتابي
ودفعت السفاه بالحلم لما ... نزل الشيب في محلّ الشبابِ
صاح هل رأيت أو سمعت براع ... ردّ في الضرع ما قرى في الحلابِ

وإذا في وسط البيت كوم عظيم من الياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة والزبرجد، فأخذ منه ثمّ علّم على الشق بعلامة وأغلق بابه بالحجارة، وأرسل إلى أبيه بالمال الذي خرج به يسترضيه ويستعطفه، ووصل عشيرته كلهم فسادهم وجعل ينفق من ذلك الكنز ويطعم الناس ويفعل المعروف، وكانت له جفنة يأكل منها الراكب وهو على البعير لعظمها، وسقط فيها صبيّ فغرق ومات.

وفي الرواية عن الرسول صلى الله عليه وآله: «إنّ أرزاقكم تطلبكم كما تطلبكم آجالكم، فلن تفوتوا الأرزاق كما لم تفوتوا الآجال».

وأمّا الرزق الذي يطلبه الإنسان ويسعى إليه، فهو كثير جداً لا يحصى.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ روح القدس نفث في روعي أنّه لن تموت نفس حتّى تستكمل رزقها فأجملوا في الطلب».(١)

وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «الدنيا دول فاطلب حظك منها بأجمل الطلب».(٢)

وسأل الصادق عليه السلام عن بعض أصحابه، فقيل له: أقبل على العبادة وترك التجارة، فقال: «ويحه أما علم أنّ تارك الطلب لا تستجاب له دعوة، إنّ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لما نزلت: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾(٣) أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة وقالوا: قد كفينا، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله فأرسل إليهم فقال: ما حملكم على ما صنعتم؟ فقالوا: يا رسول تكفّل الله لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة. فقال صلى الله عليه وآله: إنه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب».(٤)

وعنه عليه السلام: «إنّي لأركب في الحاجة التي كفانيها الله ما أركب فيها إلاّ لالتماس أن يراني الله أضحي في طلب الحلال، أما تسمع قول الله تعالى: ﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾(٥) أرأيت لو أنّ رجلاً دخل بيتاً وطيّن عليه بابه، وقال: رزقي ينزل عليّ أكان يكون هذا».(٦)

---

(١) بحار الأنوار ٧٧: ١٤٣.

(٢) الخصال: ٦٣٣.

(٣) الطلاق: ٢.

(٤) الكافي ٥: ٨٤.

(٥) الجمعة: ١٠.

(٦) عدة الداعي: ٨١.

ويمكن الجمع من هذه الأخبار أن يجعل الرزق على قسمين: أحدهما ما ليس للطلب والسعي فيه مدخليّة، والثاني: ما لا ينال إلاّ بالطلب، فتحمل الأخبار منها على القسم الأوّل، والأدلّة الأخيرة على القسم الثاني. ويشهد على هذا الجمع قول الصادق عليه السلام:

«الرزق مقسوم على ضربين: أحدهما واصل إلى صاحبه وإن لم يطلبه، والآخر معلق بطلبه، فالذي قسّم للعبد على كل حال آتيه وإن لم يسعَ له، والذي قسم له السعي فينبغي أن يلتمسه من وجوهه، وهو ما أحلّه الله دون غيره، فإن طلبه من جهة الحرام فوجده حسب عليه برزقه وحوسب به».[1]

وأكثر الناس حرموا عن السعادة من أجل الكسب في المحرمات، ومنعوا عن توفيق الوصول إلى الله بسببه.

ومن تأمل يعلم أنّ أكل الحرام أعظم الحجب للعبد من نيل درجة الأبرار، وأقوى الموانع له عن الوصول إلى عالم الأنوار، وهو الموجب لظلمة القلب وكدرته، والباعث لخبثه وغفلته، والعلة العظمى لخسران النفس وهلاكها، وهو السبب الأقوى لضلالتها وخباثتها، هو الذي أنساها عهود الحمى، وهو الذي أهواها في مهاوي الضلالة والردى، وما للقلب المتكوّن من الحرام الاستعداد لفيوضات عالم القدس، وأنّى للنطفة الحاصلة منه الوصول إلى مراتب الأنس.

كيف يدخل النور والضياء في لب أظلمته أدخنة المحرمات، وكيف تحصل الطهارة والصفاء لنفس أخبثتها قذارة المشتبهات، ولأمر مّا أصبحت

---

(١) المقنعة: ٥٨٦.

أصحاب الشرع، وأمناء الوحي محذرين عنه غاية التحذير، وزاجرين منه أشدّ الزجر، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ لله ملكاً على بيت المقدس، ينادي كل ليلة من أكل حراماً لم يقبل منه صَرف ولا عدل»[(١)] أي نافلة ولا فريضة.

وقال صلى الله عليه وآله: «من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار».[(٢)]

وقال صلى الله عليه وآله: «أيما لَحم ينبت من حرام فالنار أولى به».[(٣)]

وقال صلى الله عليه وآله: «من أصاب مالاً من مأثم فوصل به رحماً أو تصدق به أو أنفقه في سبيل الله، جمع الله ذلك جمعاً ثمّ قذف به في جهنم».[(٤)]

وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ أخوف ما أخاف على أمّتي من بعدي هذه المكاسب الحرام، والشهوة الخفيّة، والربا».[(٥)]

وقال: «من اكتسب مالاً حراماً لم يقبل الله منه صدقة ولا عتقاً ولا حجاً ولا اعتماراً، وكتب الله بعدد ذلك أوزاراً، ، وما بقي منه كان زاده إلى النار».[(٦)]

وقال صلى الله عليه وآله: «إذا كسب الرجل مالاً من غير حلّه ثمّ حجّ فلبّى نودي لا لبيّك ولا سعديك، وإنْ كان من حلّه نودي لبيّك وسعديك».[(٧)]

وقال أبي عبد الله عليه السلام: «كسب الحرام يبيّن في الذرّية».[(٨)]

---

(١) جامع السعادات ٢: ١٢٧.

(٢) عدة الداعي: ٧٣.

(٣) كنز العمال ١٢: ٥٢٧.

(٤) كنز العمال ٤: ١٥.

(٥) الكافي ٥: ١٢٤.

(٦) ثواب الأعمال: ٢٨٣.

(٧) جامع السعادات ٢: ١٢٨.

(٨) الكافي ٥: ١٢٤.

وفي بعض الأخبار: إنّ العبد يوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال، فيسأل عن ماله من أين كسبه وفيما أنفقه، وعن رعاية عياله والقيام بحقهن، حتّى تفني تلك المطالبات تمام أعماله، فلا يبقى له حسنة، فتنادي الملائكة هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا، واتهن اليوم بأعماله.[1]

وورد: إنّ أهل الرجل وأولاده يتعلقون به يوم القيامة، فيوقفونه بين يدي الله تعالى، ويقولون: يا ربنا خذ لنا بحقنا منه فإنّه ما علمنا ما نجهل، وكان يطعمنا من الحرام ونحن لا نعلم، فيقتص لهم منه.[2]

فعليه ينبغي لطالب النجاة أن يفرّ من الحرام فراره من الأسد، ويحترز منه احترازه من الحية السوداء بل أشد، وأنّى يمكنه ذلك في أمثال زماننا ونحن في سنة (١٤٠٦) من الهجرة الذي لم يبق فيه من الحلال إلاّ الماء والكلاء النابت في أرض الموات، وما عداه قد أخبثته الأيدي العادية، وأفسدته المعاملات الفاسدة، ما من درهم إلاّ وقد غصب من أهله مرّة بعد أولى، وما من دينار إلاّ وقد خرج من أيدي من أخذها قهراً كرة غبّ أولى.

وصفوة القول الحلال يمكن أن نقول إنه في زماننا مفقود، والسبيل دون الوصول إليه مسدود، ولعمري أنّ فقده آفة عمّ في الدين ضررها، ونار استطار في الخلق شررها، والظاهر أنّ أكثر الأعصار كان حالها كذلك، ولذلك قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام:

«المؤمن يأكل في الدنيا بمنزلة المضطر».[3]

وقال رجل للكاظم عليه السلام: أدعُ الله عزّ وجلّ أن يرزقني الحلال، فقال عليه السلام:

---

(١) جامع السعادات ٢: ١٢٨.

(٢) نفس المصدر.

(٣) أنظر: وسائل الشيعة ١٧: ٨٢.

«أتدري ما الحلال؟» قال: الكسب الطيّب. فقال: «كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: الحلال قوت المصطفين، ولكن قل: أسألك من رزقك الواسع».[١]

ومع ذلك كله لا ينبغي للمؤمن أن ييأس من تحصيل الحلال، ويترك الفرق والفصل بين الأموال، فإنّ الله سبحانه أجلّ وأعظم من أن يكلّف عباده بأكل الحلال ويسدّ عنهم طرق تحصيله.

إنّ الأموال على أقسام ثلاثة:

حلال بيّن، وحرام بيّن، وشبهات بينهما، ولكل منها درجات، فإنّ الحرام وإن كان كله خبيثاً، إلاّ أنّ بعضه أخبث من بعض، فإنّ ما يؤخذ بالمعاملة الفاسدة مع التراضي، ليس في الحرمة كمال اليتيم الذي يؤخذ قهراً، وكذا الحلال وإن كان كله طيباً إلاّ أنّ بعضه أطيب من بعض، والشبهة كلها مكروهة، ولكن بعضها أشدّ كراهة من بعض.

وكما أنّ الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة ولكن بعضه حار في الدرجة الأولى وبعضه في الثانية، وبعضه في الثالثة، وبعضه في الرابعة، فكذلك الحرام بعضه خبيث في الدرجة الأولى، وبعضه في الثانية، وبعضه في الثالثة، وبعضه في الرابعة، وكذلك درجات الحلال في الصفاء والطيب، ودرجات الشبهة في الكراهة، ثمّ الحرام إمّا يحرم بعينه كالكلب والخنزير، والتراب وغيرها من المحرمات العينية، أو لصفة حادثة فيه كالخمر لإسكاره، والطعام لسميته، أو لخلل في جهة إثبات اليد عليه.

وله أقسام غير محصورة كالمأخوذ بالظلم والقهر والغصب والسرقة، والخيانة في الأمانة وغيرها، والغش والتلبيس، والرشوة، وبالبخس في الوزن

---

(١) الكافي ٢: ٥٥٣.

والكيل، وبأخذ المعاملات الفاسدة من الربا والصرف والإحتكار، وغير ذلك مما هو مذكور في كتب الفقه، وقد نهى الله سبحانه عن جميع ذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[١] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٢].

مهما يكن الأمر ينبغي للإنسان أن يجعل رزقه من الطيّب الذي أحلّه الله تعالى له.

قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا إنّ الروح الأمين نفث في روعي، أن لا تموت نفس حتّى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، وما يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله، فإن الله تعالى قسّم بين خلقه حلالاً ولم يقسمها حراماً، فمن اتقى الله وصبر أتاه رزقه من حلّه، ومن هتك حجاب ستر الله وأخذه من غير حلّه قصّ به من رزقه الحلال، وحوسب عليه يوم القيامة»[٣].

جاء في (المستطرف): إنه دخل عليّ بن أبي طالب عليه السلام المسجد، فقال لرجل: «إمسك على بغلتي»، فأخذ الرجل لجامها ومضى وتركها، فخرج عليّ وفي يده درهمان ليكافي بهما الرجل على مسك البغلة، فوجدها بغير لجام فركبها ومضى، ودفع لغلامه الدرهمين ليشتري بهما لجاماً، فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين، فقال عليه السلام: «إنّ العبد ليحرّم على نفسه الرزق الحلال بترك الصبر، ولا يزداد على ما قدّر له»[٤].

---

(١) البقرة: ١٨٨.

(٢) النساء: ١٠.

(٣) تحف العقول: ١٢.

(٤) المستطرف ١: ١٥٨.

ورزق الإنسان من حيث القلة والكثرة على قدر ما ينفقه، إن كَثّر كُثّر عليه، وإن قلل قُلّل عليه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن مفاتيح الرزق بأزاء العرش، ينزل الله للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن كَثّر كُثّر له، ومَن قلّل قُلّل له».(١)

روى أبو حيان قال: رفع الواقدي إلى المأمون رقعة يذكر فيها غلبة الدّين عليه وكثرة العيال وقلّة الصبر، فوقع المأمون عليها أنت رجل فيك خلّتان: السخاء والحياء، فأمّا السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك، وأما الحياء فهو الذي بلغ بك إلى ما ذكرت، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم، فإن كنا أصبنا إرادتك فازدد في بسط يدك، وإن كنا لم نصب إرادتك فبجنايتك على نفسك، وأنت كنت حدّثتني وأنت على قضاء الرشيد، عن محمّد بن إسحاق عن الزهري عن أنس بن مالك، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال للزبير: «يا زبير إنّ مفاتيح الرزق بأزاء العرش ينزل الله تعالى للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن كثّر كثّر له، ومن قلّل قلّل له».(٢)

[أسباب ابتلاء الأنبياء وبعض الصالحين بالفقر] :

ومن ناحية أخرى إنّ الله سبحانه وتعالى يبتلي أنبياءه وأولياءه وعباده الصالحين بتقتير الرزق لوجوه من الحكمة، وضروب من المصلحة، اقتضت لعنايته سبحانه بهم، كما دلّ عليه صحيح الخبر ومستفيض الأثر.

منها: إكرامهم وصيانتهم عن الاشتغال بالدنيا وقَيناتها، والتنعّم بطيّباتها، لما

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦: ١١٤.

(٢) تاريخ بغداد ٣: ٢٢٨.

تقرر من أنّ الدنيا والآخرة ضرّتان بقدر ما يقرب من إحداهما يبعد عن الأخرى. والأنبياء والأولياء ومن سلك سبيلهم، وإن كانوا أكمل الخلق نفوساً وأقواهم استعداداً لقبول الكمالات النفسانية، إلاّ أنهم محتاجون إلى الرياضات التامة بالإعراض عن الدنيا وطيّباتها، وهو الزهد الحقيقي، وإلى تطويع نفوسهم الأمّارة لنفوسهم المطمئنة بالعبادة التامة، كما هو المشهور من أحوالهم عليهم السلام، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يربط على بطنه حجراً من الجوع، وكان يسمّيه بالشبع، وإلى ذلك أشار من قال:

وشدّ من سغب أحشاءه وطوى ... تحت الحجارة كشحاً مترز الأدم[١]

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «وأيم الله يميناً استثني فيها بمشيّة الله، لأروضنّ نفسي رياضة تهشّ معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً».[٢]

وليس ذلك منهم عليهم السلام إلاّ زهداً في الدنيا، وإعراضاً عن متاعها وزينتها، لما كان ذلك شرطاً في بلوغهم درجات النبوة والرسالة ومراتب الوحي والولاية، فلو فتحت لهم أبواب الدنيا واشتغلوا بنعيمها، وانغمسوا في لذاتها لانقطعوا عن حضرة جلال الله، وبعدوا عن ساحة القرب منه والوصول إليه.

ومنها: إعظام مثوباتهم على الصبر والقناعة، وظلف أنفسهم عن النزوع إلى الدنيا وشهواتها؛ لأنه كلما كانت المحنة أعظم كانت المثوبة عليها أجزل.

ومنها: ابتلاء المتكبرين وأرباب الدنيا بهم، إذ لو وسّع الله عليهم أرزاقهم فاتسعوا في القينات الدنيوية من الكنوز والقناطير المقنطرة، من الذهب والفضة

---

(١) من تخميس لقصيدة البردة للحسن بن يحيى الأعرجي (مخطوط).

(٢) نهج البلاغة ٣: ٧٤.

والخيل المسوّمة، والأنعام والحرث، لكانت طاعة الناس لهم أسرع، والانحياز إليهم أقرب كما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في خطبته القاصفة:

«فإنّ الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم، بأوليائه المستضعفين في أعينهم، ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه عليهما السلام على فرعون، وعليهما مدارع الصوف وبأيديهم العصا، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزّه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام العز وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الفقر والذل، فهلاّ ألقيا عليهما أساور من ذهب إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه، ولو أراد الله سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم، أن يفتح لهم كنوز الذهبان، ومعادن العقيان ومفارس الجنان، وأن يحشر معهم طير السماء ووحوش الأرضين لفعل، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء».(١)

ومنها: ابتلاؤهم بالمتكبرين والمكذّبين، لأنهم لو كانوا على الحالة الموصوفة من الإتساع في الدنيا لسقط بلاؤهم بالصبر، على أذى المسكنة من المكذّبين لهم والمستخفين بشأنهم، كما قال أهل مدين لشعيب عليه السلام: ﴿يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ﴾.(٢)

ومنها: تأسي المسلمين واقتداء المؤمنين بهم عليهم السلام في العزوف عن الدنيا والإعراض عن زخرفها وزبرجها، إذ كانوا هم القدوة للخلق ومحلّ الأسوة لهم، كما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام:

«ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله كافٍ لك في الأسوة، ودليل على ذم الدنيا

---

(١) نهج البلاغة ٢: ١٤٤.

(٢) هود: ٩١.

وعيبها وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها، ووطئت لغيره أكنافها، وفطم من رضاعها، وزوي عن زخارفها، وإن شئت ثنّيت بموسى كليم الله عليه السلام حيث يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1] ووالله ما سأله إلاّ خبزاً ليأكله، لأنه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذّب لحمه.

وإن شئت ثلثت بداود عليه السلام صاحب المزامير وقارئ أهل الجنّة، ولقد كان يعمل صفائف الخوص ويقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها، ويأكل قرص الشعير من ثمنها.

وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام ولقد كان يتوسّد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الجشب، وكان أدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وصلاؤه في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانته ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذلّه، دابته رجلاه، وخادمه يداه.

فتأس بنبيّك الأطهر صلى الله عليه وآله فإنّ فيه أسوة حسنة لمن تأسّى، وعزاً لمن تعزّى.

وأحبّ العباد إلى الله المتأسي بنبيّه، والمقتص لأثره...»، إلى أن قال عليه السلام: «ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله ما يدلّك على مساوي الدنيا وعيوبها، إذ جاع فيها مع خاصته، وزويت عنه بزخارفها مع عظيم زلفته، فلينظر ناظر بعقله، أكرم الله محمّداً صلى الله عليه وآله بذلك أم أهانه، فإن قال أهانه فقد كذب والله العظيم، وإن قال أكرمه فليعلم أن الله سبحانه قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له، وزواها عن أقرب

(١) القصص: ٢٤.

الناس لله، فتأسّ متأس بنبيّه ﷺ أو اقتصى أثره وولج مولجه، وإلاّ فلا يأمن الهلكة، فإن الله جعل محمّداً ﷺ عَلَماً للساعة، ومبشّراً بالجنّة، ونذيراً بالعقوبة، وخرج من الدنيا خميصاً، وورد الآخرة سليماً، لم يضع حجراً على حجر حتّى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربّه، فما عظم منة الله علينا حين أنعم علينا به سلفاً نتبعه، وقائداً نطأ عقبه، والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتّى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها عنك، فقلت: «أعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرى».(١)

ومنها: إيثاره سبحانه لهم بالحضور في حضرته المقدّسة بالدعاء والإبتهال، والتضرع والسؤال، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الله يبتلي العبد وهو يحبه ليسمع تضرّعه».(٢)

وفي ذلك كان يقول بعض أرباب القلوب: الدعاء يوجب الحضور، والعطاء يوجب الصرف، والمقام على باب أشرف من الإنصراف بالمبار.

وعلى هذا ما روي عن النبي ﷺ من طريق العامّة والخاصة، إنه قال: «عرض عليَّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكّة ذهباً، فقلت: لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرّعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك».(٣)

انتهى ما نقلناه من كتابنا (عليّ والأسس التربوية).

* * *

---

(١) نهج البلاغة ٢: ٥٧/ من الخطبة ١٦٠.

(٢) أنظر: تفسير الميزان ٥: ٩٣، والرواية عن رسول الله ﷺ.

(٣) سنن الترمذي ٤: ٦.

ومما جاء في المجلد الثالث من (الخلق الكامل) تحت عنوان:

حق الاسترزاق:

لا يخفى أن واجب الحرص على الحياة وصحتها وسلامتها وعافيتها، يستدعي واجب السعي والعمل: أي أن كل فرد مكلف أن يعمل لكي يعيش، وإلاّ فقد حقه في الحياة، وطبيعة الاجتماع تحرّم أحياناً المتقاعد عن العمل حقه أو مركزه في الحياة، وتعزله منه لتحل المجتهد محلّه؛ ولكن المجتمع لعيوب فاضحة في أنظمته لا يطلق هذه القاعدة ولا يجعلها مطردة، بل يسوّغ لفئة من الكسالى أن تعيش كلاً على المجتهدين، ولا يمنعهم من أن يمتصّوا دماء هؤلاء، وسبب هذا العيب في أنظمته هو ضعف الروح الخلقي في المجتمع.

فواجب السعي والعمل للقيام بأود الحياة يستدعي حق الفرد في الإسترزاق.

وقد كان هذا الحق غامضاً من القدم ومنكراً حتّى هذا الوقت؛ لأن الرزق كان ولا يزال متنازع الأفراد والأمم، فلا ينال الرزق إلاّ من تيسّر له تنازعه، ولمّا احتدم هذا النزاع في عهد تقدم الصناعة الآلية والشؤون المالية صارت وسائل الرزق نفسها متنازع الأفراد أيضاً، وصار المتمول مالكاً أعنة المُستَرزَقات، فيمنحها من يشاء أو يمنعها عمن يشاء ومتى يشاء.

ولذلك تحوم صرخة أصحاب الدعوة الإشتراكية حول نقطة الإسترزاق: أي أن يكون الاسترزاق حقاً لكل فرد على المجتمع، أو على الحكومة التي تديره. ولا يتسنّى الحصول على هذا الحق إلاّ بحيازة الحكومة جميع ضروب الأعمال لكي توزعها على العاملين، وهذا هو النظام الإشتراكي بعينه الذي يقرر

أن هذا الحق ضائع ما دام النظام الفردي متغلباً، واهتمام بعض الحكومات أو بعض الجماعات أو بعض أصحاب الأعمال في نظر الاشتراكيين الخاطئين بايجاد أعمال للعمال المتعطلين في بعض الأحيان لا يعدّ تسليماً بهذا الحق للمسترزقين أو اقراراً له كحق شرعي، بل يعدّ من قبيل الإحسان والرحمة.

[الحكمة في الزكاة]:

وقد دلّت التجارب على أنّ هذا النظام قد عجز عن حلّ تلك المشكلة الاجتماعية الهامة التي فصل فيها الإسلام بنظام الزكاة درءاً لغوائل الإشتراكية وعواقبها الوخيمة وإليك البيان:

١ ـ الإنسان بطبيعته يحب المال حباً جماً، وحبّه أحد أمراضها، وعلاجه إزالة ما بها من علة البخل والشح، وتدريبها في السماحة المؤدية للفلاح: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[(١)] لأن الشحّ يدعو إلى المطل ويحول دون البذل، والسماحة تصدّ عن العقول وتحثّ على أداء الحقوق، فقد قال رسول الله ﷺ: «شرُّ ما أعطيَ العبدُ شحٌ هالعٌ، وجبنٌ خالع». وما يصدّ عن أداء الحقوق فأخلق به ذماً وما يبعث على أداء الحقوق فأجدر به حمداً.

٢ ـ إنّ الزكاة مواساة للفقراء ومعونة لذوي الحاجات، تكفّهم عن البغضاء، وتمنعهم من التقاطع، وتبعثهم على التواصل؛ لأنّ الآمِل وَصول، والراجي هائب، وإذا زال الأمل وانقطع الرجاء، واشتدت الحاجة، ووقعت البغضاء وتزايد الحسد، وحدث التقاطع بين أرباب الأموال والفقراء، ووقعت العداوة بين ذوي الحاجات والأغنياء، حتّى تفضي إلى التغالب على الأموال، والتغرير بالنفوس.

---

(١) الحشر: ٩.

وهذه أمور تحمل على ايقاد نار العداوة والبغضاء، فتلتهم المال والنفس والولد، ويختلّ معها الأمن، ويوجد الذعر والخوف، ويسوء من الأمّة مصيرها، وبهذا نبتت أصول الاشتراكية في الممالك الغربية، وأثمرت أغصان الفوضوية، فجنى المثرون منها كل رزية.

٣ _ تحصين أموال الأغنياء وتنميتها؛ لأنّ الفقراء إذا أيقنوا أن الغني يصرف لهم شيئاً من ماله، وأنّ ذلك يزداد بازدياد ماله، أحبوه وتمنوا بقاء نعمته وزيادتها: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾(١).

٤ _ إنّ إخراج الزكاة الباعثة الشفقة بالفقراء والضعفاء والمعوزين فيه سدّ عوزهم، وتنفيس كربتهم وقضاء دينهم، وإدخال السرور عليهم، وناهيك قوله ﷺ عند ما سئل: أيّ الناس أحبّ إليك؟ قال: «أنفع الناس للناس» قيل: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «إدخال السرور على المؤمن» قيل: وما سرور المؤمن؟ قال: «إشباعُ جَوعته، وتنفيسُ كربته، وقضاء دينه».

٥ _ إنّ إخراج الزكاة شكر لله من الغني على أن صانه عن السؤال، وأنعم عليه بوافر الأموال، ولم يجعله من مستحقي الصدقات وذوي الفقر والحاجات، حتّى استحق الحمد الأسمى، والشكر الأوفى، ومن أدى الزكاة شكراً على نعمة المال، وطلباً للمزيد، نال من الله دوام المزيد: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(٢).

---

(١) البقرة: ٢٦١.

(٢) إبراهيم: ٧.

٦ ـ إنّ الله جلت حكمته أراد أن يربط العالم الإسلامي أجمع، ويربط قلوب المسلمين كلهم بعضاً ببعض، ويجعلهم أسرة واحدة رؤوسها الأغنياء، يحسنون على فقيرهم، ويوسعون على المضيّق عليه منهم، حتّى يكفوهم تكففهم الناس، ويمنعونهم من ذلّ السؤال، وفي هذا الإرتباط والإتحاد والتعاون.

٧ ـ إن إخراج الزكاة تثبيت للإيمان وكمال في اليقين؛ لأنّ المال شقيق الروح، وبذله أشقّ شيء على النفس من بين العبادات، فإذا ارتاضت النفوس بإنفاق أحبّ الأشياء إليها ـ وهو المال ـ صارت خاضعة لصاحبها، وقلّ طمعها في اتباعه لميولها، وآثرت ما عند الله تعالى على ما عندها، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ﴾[1].

٨ ـ إن إخراج الزكاة صونٌ للمال عما لا يليق به، من وضعه كله في يد غير محتاجة إليه، وإخلاء أصحاب الحاجة إليه منه، فضلاً من أنّ ما فضل عن الحاجة الأصلية من الأموال إذا أمسك عن الصرف في وجوه البر بقي معطلاً ممنوعاً عمن لأجله خلقت الأموال، وذلك منع من ظهور حكمة الله تعالى، وتعطيل لها بالكلية، وهو غير جائز، ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾[2].

* * *

---

(١) البقرة: ٢٦٥.

(٢) البقرة: ٣٤.

وفي كتاب (أسمى الرسالات):[١]

أما أساس الرزق الذي به قوام الحياة، والذي لا غنى لكل حيّ عنه كي يعيش المدة المحدودة له، فذلك ما تكفّل الله به، حيث يقول: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٢] ويقول: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾[٣].

فإذا أمكن لإنسان أن يشكّ في نطقه وهو ناطق، فله أن يشكّ في رزقه وهو مرزوق، ذلك لأنّ الله تعالى الذي خلق الإنسان قد خلق جميع ما يحتاج إليه من مقومات صلبه وضمان ملذّاته، وإنما طلب الله منه شيئاً واحداً فقط، هو أن يسعى في الأرض باحثاً عن ذلك الرزق المقرر له ليناله حيث يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[٤].

هذه حقيقة يأمرنا الإسلام أن نثق بها، ونتكّل على وعد الله فيها حيث يقول تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٥]. ومعنى هذا أن نجزم في سرّنا بأنّ الرزق من عند الله، فلا يداخلنا أي شكّ فيه ولا نيأس من الوصول إليه، وعلينا أن نعمل ونعمل بجدّ للحصول عليه بعزيمة لا

---

(١) لعبد الحميد الخطيب، متأدب متفقه، مولده بمكة، عمل في خدمة الملك الحسين بن عليّ الهاشمي إلى أن خرج هذا من الحجاز، له عدة كتب مطبوعة منها هذا الكتاب. أنظر: (الأعلام ٣: ٢٨٤).

(٢) هود: ٦.

(٣) الذاريات: ٢٣.

(٤) الملك: ١٥.

(٥) المائدة: ٢٣.

تعرف الكلل أو اليأس، إذ القصور في هذا الباب يتنافى مع الثقة بالله والإتكال عليه، ويؤدي إلى الحرمان حيث يقول تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾.[1]

ولقد فسّر لنا صلى الله عليه وآله معنى التوكل بعكس ما يتصوره بعض الجهلة من البطالة والكسل حيث يقول: «لو توكلتم على الله حق توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» أي أن المراد منه العمل اليومي المستمر شأن الإنسان في ذلك كشأن سائر الطيور التي تخرج من موضعها كل يوم في طلب رزقها، وهي لا تعلم أين تجده، فمنها ما يهتدي إليه على بعد متر، ومنها مالا تجده إلاّ على بعد مئات الأميال.

* * *

ومما جاء في كتاب (المحاسن والمساوئ) للبيهقي:

بلغنا عن ابن السماك أنه قال: لا تشتغل بالرزق المضمون عن العمل المفروض، وكن اليوم مشغولاً بما أنت عنه غداً مسؤول، وإياك والفضول فإن حسابها طويل...

وقال عمر بن عتبة: من لم يقدّمه الحزم أخره العجز. وقال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم أحدث لي سفراً أحدث لك رزقاً، وفي بعض الحديث: «سافروا تغنموا». وقال الكميت:

ولَن يريح هموم النفس إذ حضرَت ... حاجاتُ مِثلكَ إلاّ الرّحلُ والجَملُ

* * *

(١) الزخرف: ١٠ و١١.

وقال الطائي:

وطولُ مقام المرءِ في الحيِّ مُخلقٌ ... لديباجتيه فاغترب تجدّدِ

فإني رأيت الشمس زيدت محبّةً ... إلى الناس إذ ليست عليهم بسرمدِ

* * *

وقال بعض الحكماء: لا تدع الحيلة في التماس الرزق بكل مكان، فإنّ الكريم محتال، والدنيّ عيّال. وقال:

فَسِر في بلاد الله والتمس الغنى ... تعش ذا يسارٍ أو تموتُ فتُعذَرا

ولا ترض من عيش بدونٍ ولا تَنَم ... وكيف ينام الليلَ من كان مُعسِرا

وتقول العرب: كَلبٌ جَوّال خير من أسد رابض. وتقول أيضاً: من غلى دماغه صائفاً، غلت قِدره شاتياً.

ديوان الشعر:

كفى حزَناً أنّ النوى قَذفَت بنا ... بعيداً وأن الرزق أعيَت مذاهِبه

ولو أننا إذ فرّق الدهر بيننا ... غَنِي واحدٌ منا تَموّل صاحبُهُ

ولكننا من دهرنا في مؤونةٍ ... يكالبُنا طوراً وطوراً نَكالبُه

* * *

ولآخر:

إذا المرء لم يَبغ المعاشَ لنفسه ... شكى الفقر أو لام الصديق فأكثرا

وصار على الأدنين كلاً وأوشكت ... صِلاتُ ذوي القربى له أن تُنكرا

* * *

ولآخر:

ومـن يَـكُ مثلـي ذا عيـالٍ ومقتـراً
من المال يطرَح نفسه كل مَطرح

ليَبلُـغَ عُـذراً أو ينـال غنيمـةً
ومبلغُ نفس عُذرَها مثلُ مَنجح

* * *

ولآخر:

ولـيس الـرزق عـن طلـبٍ حَثيـثٍ
ولكـن ألـقِ دلـوك فـي الـدّلاءِ

تجيـئ بملئهـا يومـاً فيومـاً
تجيـئ بحمـأةٍ وقليـل مـاء

* * *

ولآخر:

وقـد علمـتُ وعلـم المـرء ينفعُـهُ
إنَّ الـذي هـو رزقـي سـوف يـأتيني

أسـعى لـه فيُعنينـي تَطلبـهُ
ولـو قعـدتُ أتـاني لا يُعنينـي

* * *

ولآخر:

لعمـرُكَ مـا كـلّ التَبَطّـل ضـائرٌ
ولا كـلّ شـغلٍ فيـه للمـرء منفعـه

إذا كانت الأرزاق في القرب والنوى
عليـك سـواءاً فـاغتنم لـذّة لِدِعـه

وإن ضِقتَ فاصبر يَفرُج اللهُ ما ترى
ألا كـلّ ضِـيق فـي عواقبـه سَـعَه

* * *

ولآخر:

سـهّل عليـك فـانّ الأمـر مقـدور
وكـلّ مُسـتأنفٍ في اللوح مَسطورُ

يـأتي القضـاء بمـا فيـه لمدّتـه
وكـلّ مـا لـم يكـن فيـه فمحظـورُ

لا تكـذبنّ وخيـر القـول أصـدقُهُ
إنّ الحـريص علـى الـدنيا لمغـرورُ

ولآخر:

لا يُتعبنكَ شيء أنت تَطلُبُه ... وقد يقدّمك المقدورُ والقلَمُ

* * *

ولآخر:

لا تَعتبن على العباد فإنما ... يأتيك رزقُكَ حين يؤذنُ فيه

* * *

ولآخر:

هي المقاديرُ تجرى من أعِنتها ... فاصبر فليسَ لها صبرٌ على حالِ

يوماً تَريشُ خَسيسَ القوم ترفعُهُ ... دون السماء ويوماً تُخفِضُ العالي

* * *

ولآخر:

اصبِر على زَمَن جَمّ تَلوّنُهُ ... فليس من شدّة إلاّ لها فرج

تلقاه بالأمس في عَمياء مُظلمَةٍ ... ويصبح اليومَ قد لاحت له السُرُجُ

* * *

ولآخر:

ألا ربّ راجي حاجة لا ينالُها ... وآخرَ قد تُقضى له وهو آيسُ

يجول لها هذا وتُقضى لغيره ... فتأتي التي تَقضى له وهو جالسُ

* * *

ولآخر:

أتطلبُ رزق اللهِ من عند غيره ... وتصبحُ من خوف العواقب آمِنا

وترضى بصرّافٍ وإن كان مشركاً ... ضميناً ولا ترضى بربّك ضامنا

كأنك لم تقنع بما في كتابه ... فأصبحتَ مدخولَ اليقين مُباينا

* * *

ولآخر:

إنّي لاكرمُ نفسي أن أدنّسها ... بشَين عِرضي وبذل الوجه للناس
والله ضامِنَ رزقي ما حييتُ وما ... في ضمن ذي العرش من شكّ ولا باس
إني رأيتُ سؤالَ الله مكرَمةً ... وفي سؤال سواهُ أعظمُ الياس

* * *

ووجد في بعض خزائن ملوك العجم لوح من حجارة، فيه مكتوب: كُن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإن موسى ﷺ خرج يقتبس ناراً فنودي بالنبوّة.

وأنشد بعضهم:

ولمّا أن عَييتُ بما ألاقي ... وأعيتني المسائلُ في القُروض
ذكرت اللهَ لا أرجو سواهُ ... وربّ العرش ذو فرج عريض

* * *

ولآخر:

يا صاحب الغمّ إنّ الغمّ منقطعٌ ... أبشر بخير كأنّ قد فرّج الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه ... لا تيأسنّ فإنّ الصانعَ اللهُ
إذا ابتليتَ فثِق بالله وارض به ... فكاشف الضرِّ والبلوى هو الله

* * *

ولآخر:

كم رأينا من صحيح قد هوى ... وأخي سُقمٍ من السُقم خَرج

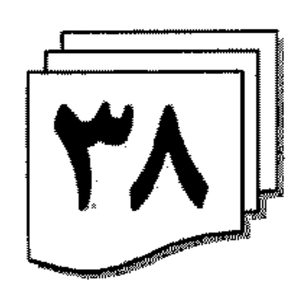
لا تكن إن رابَ أمرء آيساً ... فلعند اليأس يأتيك الفرج

* * *

ولآخر:

وإذا تُصِبكَ من الحوادث نكبة ... فاصبر فكلُّ ضبابة تتكشَّف

* * *



قوله عليه السلام لجابر بن عبد الله الأنصاري:

يَا جَابِرُ قِوَامُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا
بِأَرْبَعَةٍ: عَالِم مُسْتَعْمِلٍ عِلْمَهُ،
وَجَاهِل لاَ يَسْتَنْكِفُ أنْ يَتَعَلَّمَ،
وَجَوَادٍ لاَ يَبْخَلُ بِمَعْرُوفِهِ،
وَفَقِيرٍ لاَ يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ...

(نهج البلاغة ٤: ٨٨)

[أطر نظام الدين والدنيا أربعة]

وقال عليه السلام لجابر بن عبد الله الأنصاري: «يَا جَابِرُ قِوَامُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ: عَالِمٍ مُسْتَعْمِلٍ عِلْمَهُ، وَجَاهِلٍ لاَ يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَجَوَادٍ لاَ يَبْخَلُ بِمَعْرُوفِهِ، وَفَقِيرٍ لاَ يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ.

فَإِذَا ضَيَّعَ الْعَالِمُ عِلْمَهُ اسْتَنْكَفَ الْجَاهِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَإِذَا بَخِلَ الْغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ.

يَا جَابِرُ مَنْ كَثُرَتْ نِعَمُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَامَ لِلَّهِ فِيهَا بِمَا يَجِبُ فِيهَا عَرَّضَهَا لِلدَّوَامِ وَالْبَقَاءِ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ فِيهَا بِمَا يَجِبُ عَرَّضَهَا لِلزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ».

قال ابن أبي الحديد:

قد تقدم القول في هذه المعاني، والحاصل أنه ربط اثنتين من أربعة: أحداهما بالأخرى، وكذلك جعل في الإثنتين الآخرتين فقال: إنّ قوام الدين والدنيا بأربعة: عالم يستعمل علمه، يعني يعمل ولا يقتصر على أن يعلم فقط ولا يعمل، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وأضرّ ما على الجهلاء الاستنكاف من التعلم، فإنهم يستمرون على الجهالة إلى الموت، والثالث جواد لا يبخل بالمعروف، والرابع فقير لا يبيع آخرته بدنياه، أي لا يسرق ولا يقطع الطريق أو يكتسب الرزق من حيث لا يحبه الله كالقمار والمواجير والمآصر والمصاصير ونحوها، قال: فالثانية مرتبطة بالأولى إذا لم يستعمل العالم علمه استنكف الجاهل من التعلم، وذلك لأن الجاهل إذا رأى العالم يعصي ويجاهر الله بالفسق زهد في

التعلّم وقال: لماذا أتعلّم العلم إذا كانت ثمرته الفسق والمعصية، ثمّ قال: والرابعة مرتبطة بالثالثة إذا بخل الغني بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه، وذلك لأنه إذا عدم الفقير المواساة مع حاجته إلى القوت دعته الضرورة إلى الدخول في الحرام والإكتساب من حيث لا يحسن... وجواد لا يبخل بمعروفه، وفي ضمير اللفظ كون ذلك الجواد غنياً؛ لأنه قد جعل له معروفاً والمعروف لا يكون إلاّ عن ظهر غنى.(١)

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

الدنيا إنما تقوم بالمال ثمّ بالعلم، لوضعه في مواضعه ومعرفة وجوه اكتسابه التي ينبغي أو لا ينبغي من حلال وحرام، وهو علم الفقه وأصوله، وتفسير كتاب الله وسنة رسوله اللذين منهما تعلّم الأحكام، ثمّ ما يلزم ذلك من علم العربية ونحوه، ولمّا كان العلم لا بدّ له من حامل، والمال لا بدّ له من فانٍ، وجب أن يكون من شرط الأوّل أن يعمل بعلمه، ومن شرط الثاني في أن يستعمل ماله في مصارفه التي ينبغي، وإلاّ لم يكن لهما فائدة ولا قامت بهما أحوال الخلق التي هي الدنيا، ولما كان الموت ضرورياً للعلماء وغيرهم، ووجب في قيام الدنيا وبقاء نظامها، أن يدوم العلم في قرن من الناس بعد قرن، وجب أن يكون هناك جهّال لا يستنكفون عن تعلّمه، وظاهر لمّا كانت حاجة البعض إلى البعض في قوام الدنيا ضروريّة ولم تجر في نظامها أن يستغني كل عن كل لأسباب معلومة وغير معلومة، وجب أن يكون هناك من لا مال له ليحصّل الانتفاع به فيما هو بصدده ومرشّح له من الأعمال الضروريّة بالجود عليه.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٠٣.

فإذن قوام الدنيا لا يحصل بدون الأربعة، وإنّما شرط في الفقير أن لا يبيع آخرته بدنياه؛ لأنّ بايع آخرته بدنياه ظالم خارج عن العدل، فلا تقوم به الدنيا ولا يصلح لعمارتها.

ثمّ لما بيّن عليه السلام ما به قوام الدنيا أشار إلى ما يلزم ضدّ ذلك من الفساد تنفيراً عنه بقوله: «فإذا ضيّع...» إلى قوله عليه السلام: «بدنياه» فلأنّ تضييع العلم يستلزم عدم الانتفاع به، واستنكاف الجاهل عن تعلّمه لسوء اعتقاده في العلم وأهله لما يراه من تضييعهم له وعدم عملهم على وفقِهِ، فيبقى على الجهل بمنفعته، وبخل الغني بمعروفه مستلزم لعدم المنفعة بالمال، وما يلزم ذلك من شدّة حاجة الفقير وبيع آخرته بدنياه، فيلزمه الفساد المنافي لمصلحة المعاش والمعاد، ثمّ أشار عليه السلام إلى ما يلزم كثرة نعمة الله على العبد من كثرة حوائج الخلق إليه، ليوضح له وجوب الشكر عليها والقيام بما يجب لله فيها من الإحسان على المحتاجين إليه، ورغّب في ذلك بما يلزمه من تعريض العبد بذلك نعمة الله عنده للدوام، والمزيد، ونفر عن تضييع ذلك بما يلزمه من تعريضها لزوالها.(١)

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

المراد بالدنيا: الحياة الدنيا، وهي لا تستقيم وتنتظم إلاّ بعنصرين:

١ ـ العلم الذي يهدي إلى العمل بالحق والخير والعدل، ويقي الحياة من الشرور والمشكلات، وقوام العلم بجهود العالِم والمتعلم، ولا يتحقق الغرض المقصود منه إلاّ إذا عمل العالم بموجب علمه، ووضعه

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٦١٩.

في مكانه اللائق.. إذا اتخذ العالم من علمه أداة للصوصية، والإعتداء والإستعلاء، عمت الفوضى وانتشر الفساد وتخلّفت الأمّة، واستنكف الجاهل أن يأخذ العلم من هذا الضال المضل.

٢ _ المال الذي يخدم الحياة، ويسدّ حوائج المحتاجين، وتتداوله الأيدي في الصالح العام، أمّا المال الذي يُمسك في البنوك والمصارف، أو ينفق على الإسراف والتبذير، أو أسلحة الخراب والدمار فهو شرّ ووبال على الإنسانية ومصيرها.

«وإذا بخل الغني بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه»، حيث يدفعه العوز والحرمان إلى ارتكاب الجرائم... وما وجدت الشيوعية والاشتراكية تربية أخصب من بيئة البؤس والفقر، ومن هنا يصحّ القول: إن المترفين الذين يسرفون أو يكنزون ولا يبذلون في سبيل الله والصالح العام، ثمّ يحاربون الشيوعية والإشتراكية، هم السبب لوجودها وانتشارها.

«من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه».

إنّ مسؤولية الإنسان تقاس بطاقته ومقدرته، فمسؤولية القادة غير مسؤولية الأتباع، وواجب الأغنياء غير واجب الفقراء، ووظيفة العلماء غير وظيفة الجهلاء.. فعلى القادة أن يعملوا جاهدين على تحقيق ما يتطلبه المستضعفون من حياة عادلة، وعيشة راضية، وعلى الأغنياء أن يبذلوا لخدمة الحياة وتقدمها، وعلى العلماء أن ينكروا المنكر من أولاء وأولئك.

«فمن قام فيها...» إلخ.

إذا عمل الراعي بالعدل والمساواة أحبّته الرعية، وكانت أطوع له من بنانه، ودافعت عنه وعن سلطانه دفاعها عن نفسها ومصالحها، وبهذا يثبت حكمه ويستقر، وإلاّ ثارت عليه واقتلعته من الجذور حين تسنح الفرصة...

وكذلك العالِم يثق الناس به، ويقدسون مقامه إذا نفعهم بعلمه وإلاّ انصرفوا عنه، ونعتوه بكل قبيح.(١)

* * *

وقال صاحب (منهاج البراعة):(٢)

العلم مصباح الهداية للجامعة البشرية في شتى نواحي الحياة، ولا يمكن الإرتقاء في الشؤون المعنوية والمادية والروحية والجسميّة والدينية والدنيوية إلاّ بالعلم والمعرفة، وإنما يثمر العلم في ترقية شؤون الحياة باستعماله والعمل به، وإلاّ فمجرد الصور الذهنية لا تفيد شيئاً إذا لم تقترن بالعمل، ولا تقع في سبيل الإستفادة والإجراء.

وحيث إنّ العلم قائم بوجود العالم، والعالم معرض للموت والفناء كسائر الأفراد، فلا بدّ من بقاء العلم والعالم من وجود المتعلّم والمستفيد ليقوم التلميذ مقام الأستاذ إذا مات أو عجز عن العمل، فالجاهل المتعلّم هو الركن الثاني لقوام العالم وبقائه.

وحيث إن العمل بالعلم وتعليمه، وبقاءه يحتاج إلى مصارف ماليّة من معاش العالم ومصارف تحصيل المتعلّم، والمدارس والمكاتب والكتب المحتاج إليها لحفظ العلم وللتعليم، فلا بدّ من وجود الأفراد ذوي الثروة والجود ليصرفوا ما لهم في هذا السبيل، ويُنشئوا مدارس ومكاتب وخزنة الكتب، ويبنوا جامعات ومساجد للدرس والعبادة، فهذا هو الركن الثالث لقوام الدين والدنيا.

وحيث إنّ الفقر والحاجة ماسّة بالاجتماع البشري من وجوه شتّى،

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٤٣٣.

(٢) ج ٢١: ٤٥٩.

فلا بدّ من حسن النظام الاجتماعي أن يكون الفقير صابراً ديناً لا يبيع آخرته بدنياه فيرتكب الجرائم المخلّة بنظام الاجتماع: كالسرقة والخيانة والضوضاء، فيصير الفقير الصابر الديّن هو الركن الرابع.

وكلّ هذه الأركان الأربعة يرتبط بعضها ببعض، وإذا أخلّ منها ركن يسري خلله إلى سائر الأركان، فإذا ضيّع العالم علمه استنكف الجاهل من التعلّم لما رأى من عدم فائدة العلم مع الصعوبة في طريق تحصيله، وإذا يخل الغنّي بمعروفه الواجب عليه في صرف ماله، أختلّ نظام العلم والمعرفة، وتنقص التربية المؤثرة في نفوس الفقراء، فصاروا جهلة غير مثقفين فيبيعوا الآخرة بالدنيا، ويرتكبوا الجرائم العظمى.

ونبّه عليه السلام في آخر كلامه إلى أنّ شكر نعم الله من العلم والمال وغيرهما، بالقيام فيها بما يجب من بذلها للمستحق وصرفها في مصارفها، وإلاّ فيكون كفراناً لها، موجباً لزوالها وفنائها.

* * *

[قضاء حوائج الناس في لسان الروايات]:

قوله عليه السلام: «يا جابر من كثرت نعمة الله عليه، كثرت حوائج الناس إليه...».

أقول: قضاء حوائج الناس يكاد يكون ضرورياً في المجتمع؛ لأنّ به حسن النظام، وبه ايقاع المحبة والمودة، وهو من أعظم أفراد النصيحة، ولا حدّ لمثوبته عند الله.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قضى لأخيه المؤمن حاجة كان كمن عبد الله دهره».(١)

---

(١) أمالي الطوسي: ٤٨١.

وقال صلى الله عليه وآله: «من مشى في حاجة أخيه في ساعة من ليل أو نهار، قضاها أو لم يقضها، كان خيراً له من اعتكاف شهرين».(١)

وقال الإمام أبو جعفر عليه السلام: «أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: إنّ من عبادي من يتقرّب إليّ بالحسنة فأحكمه في الجنّة، فقال موسى: يا رب وما تلك الحسنة؟ قال: يمشي مع أخيه المؤمن في قضاء حاجته قُضيت أم لم تقضَ».(٢)

وقال عليه السلام: «من مشى في حاجة أخيه المسلم أظلّه الله بخمسة وسبعين ألف ملك، ولم يرفع قدماً إلاّ كتب الله له حسنة، وحطّ عنه بها سيّئة، ويرفع له بها درجة، فإذا فرغ من حاجته كتب الله عز وجل له بها أجر حاج ومعتمر».(٣)

وقال عليه السلام: «إنّ المؤمن لترد عليه الحاجة لأخيه فلا تكون عنده، فيهتم بها قلبه، فيدخله الله تبارك وتعالى بهمّه الجنّة».(٤)

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «من قضى لأخيه المؤمن حاجة قضى الله تعالى له يوم القيامة مائة ألف حاجة من ذلك أوّلها الجنّة، ومن ذلك أن يدخل قرابته ومعارفه وإخوانه الجنّة، بعد أن لا يكونوا نصّاباً».(٥)

وقال عليه السلام: «إنّ الله تعالى خلق خلقاً من خلقه انتجبهم لقضاء حوائج فقراء شيعتنا، ليثيبهم على ذلك الجنّة، فإن استطعت أن تكون منهم فكن».(٦)

---

(١) جامع السعادات ٢: ١٧٧.

(٢) الكافي ٢: ١٩٥.

(٣) الكافي ٢: ١٩٧.

(٤) الكافي ٢: ١٩٦.

(٥) الكافي ٢: ١٩٣.

(٦) نفس المصدر.

وقال عليه السلام: «قضاء حاجة المؤمن خير من عتق ألف رقبة، وخير من حملان ألف فرس في سبيل الله».(١)

وقال عليه السلام: «لقضاء حاجة امرئ مؤمن أحب إلى الله تعالى من عشرين حجة كل حجة ينفق فيها صاحبها مائة ألف».(٢)

وقال عليه السلام: «من طاف بالبيت طوافاً واحداً كتب الله له ستة آلاف حسنة، ومحى عنه ستة آلاف سيئة، ورفع له ستة آلاف درجة ـ وفي رواية وقضى له ستة آلاف حاجة ـ حتّى إذا كان عند الملتزم فتح له سبعة أبواب من الجنّة». قلت ـ الراوي ـ له: جعلت فداك، هذا الفضل كله في الطواف؟ قال: «نعم وأخبرك بأفضل من ذلك، قضاء حاجة المؤمن المسلم أفضل من طواف وطواف حتّى بلغ عشراً».(٣)

وقال عليه السلام: «إن العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن، فيوكل الله عزّ وجلّ به ملكين واحد عن يمينه وآخر عن شماله يستغفران له ربه ويدعوان بقضاء حاجته». ثمّ قال: «والله لرسول الله صلى الله عليه وآله أسرّ بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت إليه من صاحب الحاجة».(٤)

وقال عليه السلام: «ما قضى مسلم لمسلم حاجة إلاّ ناداه الله تعالى: عليَّ ثوابك، ولا أرضى لك بدون الجنّة».(٥)

وقال عليه السلام: «أيّما مؤمن أتى أخاه في حاجة فإنما ذلك رحمة من الله ساقها

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الكافي ٢: ١٩٤.

(٤) الكافي ٢: ١٩٥.

(٥) الكافي ٢: ١٩٤.

إليه وسبّبها له، فإن قضى حاجته كان قد قَبِلَ الرحمة بقبولها، وإن ردّه عن حاجته وهو يقدر على قضائها فإنّما ردّ عن نفسه رحمة من الله عزّ وجلّ ساقها إليه وسبّبها له، وذخر الله تلك الرحمة إلى يوم القيامة حتّى يكون المردود عن حاجته هو الحاكم فيها إن شاء صرفها إلى نفسه وإن شاء صرفها إلى غيره».(١)

وعن المفضّل، عنه عليه السلام قال: قال: «يا مفضّل اسمع ما أقول لك، واعلم أنه الحق وافعله وأخبر به عليّة اخوانك»، قلت: جُعلت فداك وما عليّة اخواني؟ قال: «الراغبون في قضاء حوائج إخوانهم...».(٢)

* * *

مما جاء في المجلد الأوّل(٣) من (المستطرف):

عن كثير بن عبيد بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ لله خلقاً خلقهم لقضاء حوائج الناس، آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار، فإذا كان يوم القيامة وُضعت له منابر من نور يحدّثون الله تعالى والناس في الحساب».

وعن ابن عبّاس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من سعى لأخيه المسلم في حاجة فقُضِيَت له أو لم تُقضَ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكتب له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق».

وعن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفاً عند ميزانه، فإن رجح وإلاّ شفعت له».

---

(١) الكافي ٢: ١٩٣.

(٢) الكافي ٢: ١٩٢.

(٣) ص ٢٥١ – ٢٥٤.

وروينا في مكارم الأخلاق لأبي بكر الخرائطي عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى في حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة، وكفّر عنه سبعين سيئة، فإن قُضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه، فإن مات في خلال ذلك دخل الجنّة بغير حساب».

وعن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى مع أخيه في حاجة فناصحه فيها، جعل الله بينه وبين النار سبع خنادق ما بين الخندق والخندق كما بين السماء والأرض».

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله عند أقوام نعماً يقرّها عندهم ما داموا في حوائج الناس، ما لم يملّوا فإذا ملّوا نقلها الله إلى غيرهم».

وعن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه، ثمّ جعل حوائج الناس إليه فتبرّم، فقد عرض تلك النعمة للزوال».

وعن ابن عمر قال: قيل: يا رسول الله أيّ الناس أحبّ إليك؟ قال: «أنفع الناس للناس»، قيل: يا رسول الله فأيّ الأعمال أفضل؟ قال: «إدخال السرور على المؤمن». قيل: وما سرور المؤمن؟ قال: «إشباع جوعته وتنفيس كربته، وقضاء دينه، ومن مَشى مع أخيه في حاجة كان كصيام شهر واعتكافه، ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبّت الله قدمه يوم تزل الأقدام، ومن كفّ غضبه ستر الله عورته، وإن الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل» انتهى.

* * *

والأخبار الواردة بهذه المضامين كثيرة، وما ذكرناه كافٍ لتحريك الطالبين على قضاء حوائج المؤمنين.

ديوان الشعر:

وإذا خطبت إلى كريم حاجة ... وأبى فلا تقعد عليه بحاجبِ
فلربما منع الكريم وما به ... بخل ولكن سوء حظ الطالبِ

* * *

وقال آخر:

تأنّ لحاجتي واشدد عراها ... فقد أضحت بمنزلة الضياع
إذا شاركتها بلبان أخرى ... أضرّ بها مشاركة الرضاع

* * *

وقال أبو دقاقة البصري:

أضحت حوائجنا إليك مناخة ... معقولة برحابك الوصال
أطلق فديتك بالنجاح عقالها ... حتّى تثور معاً بغير عقال

* * *

وقال سلّم الخاسر:

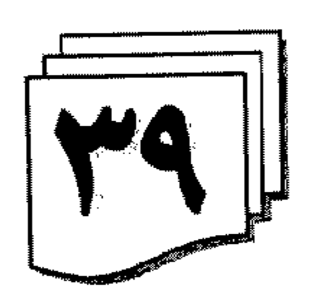
إذا أذن الله في حاجة ... أتاك النجاح على رسلهِ
فلا تسأل الناس من فضلهم ... ولكن سل الله من فضلهِ

* * *

ولله درّ القائل حيث قال:

أيها المادح العباد ليُعطى ... إنّ لله ما بأيدي العبادِ
فاسأل الله ما طلبت إليهم ... وارج فرض المقسّم الجوّادِ

* * *



قوله عليه السلام:

السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً، فَأَمَّا مَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وَتَذَمُّمٌ.

(نهج البلاغة ٤: ١٤)

[صفة الكرم ذاتية غير مكتسبة]

قال ابن أبي الحديد:

يعجبني في هذا المعنى قول ابن حيّوس:

إني دعوت ندى الكرام فلم يجب ... فلأشكرنّ ندى أجاب وما دعي

ومن العجائب والعجائب جمة ... شكر بطيء عن ندى المتسرّع

* * *

وقال آخر:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله ... عوضاً ولو نال الغنى بسؤالِ

وإذا النوال إلى السؤال قرنته ... رجح السؤال وخفّ كل نوالِ[1]

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

«السخاء ما كان ابتداءً، فأمّا ما كان عن مسألة فحياء وتذمّم»، التذمّم الإستنكاف، والسخاء عبارة عن ملكة بذل المال لمن يستحقه بقدر ما ينبغي، ابتداء عن طيب نفس وحسن المواساة لذوي الحاجة منه، وبهذا الرسم يتبيّن أنّ ما كان من البذل عن مسألة، فخارج عن رسم السخاء.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٨٤.

وذكر له سببين: أحدهما: الحياء من السائل أو من الناس فيتكلّف البذل لذلك، الثاني: الاستنكاف مما يصدر من السائل من لجاج أو فِسبَةٍ بالبخل ونحوه.(١)

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

التذمّم: الفرار من الذم، والتأثّم: الفرار من الإثم، والتحرج: الفرار من الحرج ـ أي الشدة والضيق ـ، والمعنى أن العطاء من غير سؤال كرم وسخاء بالطبع، وهو عن مسألة تكلّف وتطبّع لسبب أو لآخر، وفي رأينا أنّ كل عطاء يسدّ الحاجة والإعسار، فهو خير عند الله طبعاً كان أم تطبّعاً.(٢)

* * *

وفي (منهاج البراعة)(٣) قال:

حقيقة الجود والسخاء بذل بلا عوض ولا رياء، فإذا كان للمبذول عوض لا يسمّى سخاءً وجوداً، فإذا سبقه السؤال يصير عوضاً عنه وثمناً لما بذله السائل من وجهه وعرضه طي سؤاله، أو عوضاً عما يطرأ على ردّ السائل من الذّم والمنقصة.

وإذا النوال إلى السؤال قرنته رجح السؤال وخفّ كل نوال

* * *

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٥١٣.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٤٨.

(٣) ج ٢١: ٩٢.

أقول: السخاء من شرائف الصفات ومعالي الأخلاق، وهو أصل من أصول النجاة، وأشهر أوصاف النبيين وأعرف أخلاق المرسلين. والسخيّ هو الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل.

السخاء جامع لمكارم الأخلاق. فكل خصلة من خصال الخير وخلّة من خلال البر، وسجيّة تضاف إلى محاسن الطباع والأعراق واقعة على اسم السخاء.

ألا ترى أن التقي لا يكون إلاّ سخياً بماله معطياً الحق من نفسه في جميع أحواله، حتّى أنه ليبذل جوارحه في كل عمل يقرّبه إلى ربّه، ويجود بنفسه مجاهداً في سبيل خالقه.

من كان نديّ الكف، مبسوط اليدين بالعطاء، متمسكاً بأهداب السخاء، بعيداً عن البخل وضروبه، سليماً من الشح وأمراضه، فأعظِم به من إنسان كبير الثقة بالله. طاهر النفس عفّ الضمير.

السخيّ معوان على الدهر، غياث لليتامى، عصمة للأرامل، يصون ماء الوجوه أن يراق، ويحيي ميت الرجاء، ويشرح الصدور الحرجة من حسرتها، ويريح قلوباً علقت به الآمال.

إن السخاء يهدي صاحبه إلى أنواع من البر مشكورة، فتجده للرحم وصولاً، وعلى الفقراء عطوفاً، وللملهوفين منجداً ونصيراً، وإلى مناهل الخير سبّاقاً، وللزكاة والخمس مؤدياً، وفي سبيل الله مجاهداً.

[السخاء في لسان أهل البيت عليهم السلام]:

وحدّث رسول الله صلى الله عليه وآله عن شرف هذه الصفة فقال: «السخاء من الإيمان».(١)

---

(١) أنظر هذا الحديث وما بعده من الأحاديث في: جامع السعادات ٢: ٨٧ – ٩٠.

وقال ﷺ: «خلقان يحبهما الله: الشجاعة والسخاء».

وقال ﷺ: «السخاء شجرة من شجر الجنّة، أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنّة».

وقال ﷺ: «إنّ السخاء من الإيمان، والإيمان في الجنّة».

وقال ﷺ: «السخاء شجرة تنبت في الجنّة، فلا يلج الجنّة إلاّ سخيّ».

وقال ﷺ: «قال الله سبحانه: إنّ هذا دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلاّ السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما استطعتم».

وقال ﷺ: «ما جعل الله أولياءه إلاّ على السخاء وحسن الخلق».

وقال ﷺ: «إنّ السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنّة، بعيد من النار».

وقال ﷺ: «تجافوا عن ذنب السخيّ، فإن الله آخذ بيده كلما عثر».

وقال ﷺ: «طعام الجواد دواء، وطعام البخيل داء».

وقال ﷺ: «إنّ الله جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها».

وقال ﷺ: «الجنّة دار الأسخياء».

وقال ﷺ: «لشابٌ سخيٌ مرهق في الذنوب أحب إلى الله من شيخ عابد بخيل».

وقال ﷺ: «إنّ بُدَلاء أمّتي لم يدخلوا الجنّة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدر والنصح للمسلمين».

وقال ﷺ: «السخيّ محبّب في السماوات، ومحبّب في الأرضين، خلق من طينة عذبة، وخلق ماء عينيه من ماء الكوثر، والبخيل مبغّض في السماوات، مبغّض في الأرضين، خلق من طينة سبخة، وخلق ماء عينيه من ماء العوسج».

وروي أنه أتى النبي صلى الله عليه وآله وفد من اليمن، وفيهم رجل كان أعظمهم كلاماً وأشدّهم استقصاءاً في محاجة النبي صلى الله عليه وآله، فغضب النبي صلى الله عليه وآله، حتّى التوى عرق الغضب بين عينيه، وتربّد وجهه وأطرق إلى الأرض، فأتاه جبرئيل عليه السلام فقال: ربّك يقرئك السلام، ويقول لك: هذا رجل سخي يطعم الطعام، فسكن عن النبي صلى الله عليه وآله الغضب ورفع رأسه وقال: «لولا أن جبرئيل أخبرني عن الله عز وجل أنك سخي تطعم الطعام لشرّدت بك، وجعلتك حديثاً لمن خلفك». فقال له الرجل: إن ربك يحب السخاء؟ فقال: نعم، فقال: إني اشهد ألاّ إله إلاّ الله وأنك رسول الله، والذي بعثك بالحق لا رددت عن مالي أحداً.

وقال الصادق عليه السلام لبعض جلسائه: «ألا أخبرك بشيء تقرب به من الله وتقرب من الجنّة وتباعد من النار؟»، فقال: بلى، فقال: «عليك بالسخاء».

وقال الكاظم عليه السلام: «السخي الحسن الخلق في كنف الله لا يستخلي الله منه حتّى يدخله الجنّة، وما بعث الله نبيّاً ولا وصيّاً إلاّ سخياً، ولا كان أحد من الصالحين إلاّ سخياً، وما زال أبي يوصيني بالسخاء حتّى مضى».

وللسخاء وجوه ومراتب يتفاوت فيها أهل السخاء:

فمن وجوه السخاء الإيثار:

المؤثر على نفسه هو الباذل لغيره ما هو مضطرّ إليه، والمؤثر بنفسه هو الذي يبذل نفسه فداءاً لغيره في حبّه وإطاعته له. الإيثار بالمال هو منتهى الجود والسخاء، فمن جاد بما يملكه مع حاجته إليه على محتاج له أو غير محتاج، مع طلبه منه كان مؤثراً غيره على نفسه، وليس بعد هذه المرتبة من السخاء مرتبة توازيها.

جاء في (مناهل الأشواق):[١]

وقد نص القانون الإسلامي على مدح أهلها فقال سبحانه:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[٢]

أي يقدّمون على أنفسهم في حال اضطرارهم وحاجتهم إلى ما في يدهم، فيعطونه لسائلهم ويقدّمونه لضيفهم، من غير إمتنان.

قال رسول الله ﷺ: «أيما امرء اشتهى شهوة فردّ شهوته وآثر على نفسه غفر الله له».

فالسخاء خُلق من أخلاق الله سبحانه، والإيثار أعلى درجاته، وكان الإيثار على النفس دأب رسول الله ﷺ وأهل بيته والعرفاء من صحابته، وروي أن موسى بن عمران عليه السلام قال طالباً من الله سبحانه:

يا رب أرني بعض درجات محمّد وخاصته، فقال الله سبحانه: يا موسى إنك لن تطيق ذلك ولكن أريك منزلة من منازله، فضّلته بها عليك وعلى جميع خلقي، وكشف له عن ملكوت السماوات، فنظر موسى إلى منزلة كادت نفسه تتلف من أنوارها وقربها من الله سبحانه، فقال موسى: يا رب بما بلّغتَ به إلى هذه الكرامة؟ قال الله: بخُلُقٍ اختصصته به وهو الإيثار على النفس، يا موسى لا يأتيني أحد قد عمل به وقتاً من عمره إلاّ استحييت من محاسبته وبوأته من جنّتي».

وذكر أهل السير أن عبد الله بن جعفر خرج إلى ضيعة له، فنزل بنخيل قوم وفيه عبد لهم يعمل في ذلك البستان، فنظر إليه عبد الله بن جعفر حين جلس

---

(١) للسيد محمّد حسين صفي الدين، كان قاضياً للجعفرية في لبنان، وهو مطبوع بصيدا.

(٢) الحشر: ٩.

لغدائه، وإذا بكلب أقبل من كبد البر حتّى وقف قرب العبد، فرصى له القرص الذي بيده، فأكله الكلب، فرصى له الثاني فأكله، فرصى له الثالث فأكله، وعبد الله بن جعفر ينظر إليه، فقال: يا غلام كم قوتك كل يوم؟ قال: هو ما رأيت، قال: لِمَ آثرت بقوتك هذا الكلب على نفسك؟ قال: لأنه جاءني قاصداً من مكان بعيد وكرهت أن آكل وهو جائع، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: أألام على السخاء وهذا الغلام أكرم مني، ثمّ إن عبد الله اشترى البستان وما فيه من الآلات والعبد، ثمّ أعتقه وملّكه البستان وما فيه، فكان جزاء ايثار ذلك العبد بأقراصه الثلاثة نعمة العتق وتملّك البستان، وجزاؤه من الله الثواب الجزيل؛ لأنه على كل ذي كبد حرّاء أجر.

وهذا هو الإيثار بالمال، وقد عرفت أنه منتهى الكرم بالمال.

وأما الإيثار بالنفس فذلك مرتبة اختص بها من سمت نفسه إلى أوج السعادة والكمال، اختصّ بها أشرف خلق الله وأكرمهم وأعلمهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

الإمام الغزالي وكلامه في الإيثار:

خصّ الإمام الغزالي في (إحياء العلوم) الإيثار بالنفس بأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال في (ص ١٧٧) من المجلد الثاني:

وبات عليّ كرّم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله، فأوحى الله تعالى إلى جبرائيل وميكائيل عليهما السلام: إني آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختارا كلاهما الحياة وأحباها، فأوحى الله عزّ وجلّ إليهما: أفلا كنتما مثل عليّ بن أبي طالب، آخيت بينه وبين نبيي محمّد، فبات على فراشه يفديه بنفسه

ويؤثره بالحياة، إهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه، فكان جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه، وجبرائيل يقول: بَخ بَخ من مثلك يا ابن أبي طالب، والله تعالى يباهي بك الملائكة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ﴾[١].

هذه عبارة الإمام الغزالي بألفاظها، وقد روى غيره من أعلام المسلمين ما رواه الإمام الغزالي، فراجع ما ذكره العلماء في تصانيفهم.

لا نرتاب بأن الإيثار بالنفس في سبيل الله سبحانه وطاعته هو منتهى كمالها، وبلوغها غاية الإخلاص في الدين، والمكاشفة عن حقائق غاية الموجودات في عالم التكوين، حتّى أنّ صاحب تلك النفس الكبيرة والمرتبة الروحانية العظيمة لا يتزلزل بالنوازل، ولا يبالي بغير الله سبحانه، وكان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام متصفاً بهذه الصفة الأخلاقية والميزة الروحانية.

إن مبيت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليفديه بنفسه ويؤثره بحياته، قد رواه أعلام علماء المسلمين.

قال محمود الألوسي في كتابه شرح قصيدة العمري العينية (ص ٨٠):

... فبات على فراشه وهم يرجمونه، فلم يضطرب ولم يكترث إلى أن كان نصف الليل هجموا عليه شاهرين السيوف، فثار في وجوههم فعرفوه فولوا خاسئين وردّ الله كيدهم في نحورهم، وسألوه عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: لا أدري. وروي أن الله تعالى أوحى إلى جبرئيل وميكائيل عليهما السلام: أن أنزلا إلى عليّ وأحرساه هذه الليلة إلى الصباح...، الحديث.

---

(١) البقرة: ٢٠٧.

إجمال قصة المبيت:

إعلم أنه لما قضت المشيئة الربانية بهجرة رسول الله صلى الله عليه وآله من مكّة إلى يثرب، بعد إسلام الأوس والخزرج في يثرب، ووفاة أبي طالب عليه السلام الناصر لرسول الله صلى الله عليه وآله والمدافع عنه في مكّة.

أجمع رأي قريش على الفتك برسول الله ليلاً، وأن تشترك القبائل بقتله حتّى لا يطالب أحد بدمه.

فأمر الله سبحانه جبرائيل أن يبلغ رسول الله ما اجتمعت عليه قريش، وأن يأمره بالخروج من مكّة متستراً، ويجعل عليّ بن أبي طالب عليه السلام مكانه في فراشه حتّى تشتغل به قريش ولا تجدّ في الطلب وراء رسول الله صلى الله عليه وآله، فاستدعى رسول الله أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وأخبره بما أمره الله سبحانه به، فقال له عليّ عليه السلام: أفتسلم أنت بمبيتي على فراشك يا رسول الله؟ فتبسم رسول الله في وجه عليّ، وخرج رسول الله متستراً في ظلام الليل ممتثلاً أمر ربه بالخروج، منفرداً بنفسه، وسار حتّى انتهى إلى آخر شعاب مكّة، فلقيه أبو بكر فاعترضه قائلاً: أين تريد يا رسول الله في هذا الليل؟ فلم يجبه.

وربما كانت فراسة أبي بكر في وجوه قريش تدلّه على ما يكون من أمرهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله والمؤمنين به، وحين شاهد خروجه ليلاً على تلك الحالة وعدم جوابه له، حصل لأبي بكر الجزم من مجموع هذه المقدّمات بعزم قريش على قتل رسول الله وقتل من آمن معه.

فرأى أبو بكر لزوم خروجه مع رسول الله؛ لأنّ فيه دفع الضرر المذكور ونيل الشرف بصحبة الرسول، ولذلك خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الغار إلى يثرب، وكان له ما له من الشرف بصحبة الرسول صلى الله عليه وآله.

وأما ما كان من أمر قريش في تلك الليلة، فإنها هاجمت بيت رسول الله ﷺ بشجعانها أهل الفتك من القبائل والبطون، حرصاً منهم على عدم الطلب بدم رسول الله حتّى يضيع بين القبائل من قريش.

فكان من بني هاشم أبو لهب بن عبد المطلب بن هاشم، وأبو لهب هو أوّل مكذّب لرسول الله، فهو أوّل مهاجم لبيته وقاصد لقتله، وحين شاهد أبو لهب تزاحم زعماء القبائل وأبطالها على الدخول لبيت ابن أخيه وفيه النساء والأطفال ومن لا حاجة لهم به، وكلهم أرحام أبي لهب، أدركته الغيرة والحمية الرحمية، فحال بين القوم وبين الهجوم ليلاً على ذلك البيت، حتّى لا تهتك أستاره ولا تذهل أطفاله، ولا يقتل الجار بالجار.

ولم تجد قريش بداً من إجابة أبي لهب إلى تأخير الوقيعة حتّى يطلع الفجر وتعرف الوجوه، وهم جازمون بوجود رسول الله ﷺ في الدار؛ لأنهم يرون نائماً ملتفاً بالبرد الحضرمي، ولا يشكّون أنه رسول الله ﷺ.

والملتف في ذلك البرد الحضرمي هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام وقلبه كزبر الحديد، وهو ينظر إليهم نظرة الأسد في غابه لمن يهاجمها، وهم لا يرتابون بأنه رسول الله ﷺ.

ولما غارت نجوم الليل وانشق عمود الصباح، انتضوا السيوف وأشرعوا الرماح وحركوه قبل الوقيعة به بضرب الحجارة حتّى يثبتوا شخصه، فرشقوه بالأحجار وبعض السهام.

فخرج من تحت الرداء الحضرمي أمير المؤمنين واستقبلهم بقلب لا يخاف سوى الله سبحانه.

فدارت حوله عتاتهم وطغاتهم بعد أن طارت عقولهم من هذه المكيدة وهم لم يطلعوا أحداً على سرّهم.

فسألوه عن رسول الله فلم يجبهم عن جهة توجّهه، وهمّوا بقتله بعد الضرب ولمع بريق السيوف في وجهه ووخزات رماحهم في جسده، وهو يقول لا أعلم أين ذهب.

ثمّ شغلوا عنه بطلب رسول الله ﷺ في كل جهة يمكنهم التوجه فيها، فكانت سلامة أمير المؤمنين عليه السلام من الألطاف الربانية والحكم الإلهية، إتماماً لانتظام الدولة الإسلاميّة وإعلاءاً لشأنها؛ لأنّ عليّاً سيف الرسالة، ووزير النبوة ومن ثبتت له من الله المؤاخاة مع الرسول الأمين محمّد ﷺ.

وفيه نزل قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ﴾.(١)

ومن رأفته سبحانه بعبده أمير المؤمنين، أمره لجبرائيل وميكائيل بحفظه في تلك الليلة من عدوّه، كما نقلناه عن الإمام الغزالي، ورواه الزمخشري والثعالبي والرازي في تفاسيرهم، وجلّ المفسرين لقوله سبحانه:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.(٢)

قالوا: إنّ هذه الآية نزلت ليلة هجرة رسول الله ﷺ من مكّة إلى يثرب، وإنّ مكر قريش برسول الله هو اختيارهم من كل بطن من قريش شجاعاً فاتكاً ليقتلوه ويذهب دمه، وإنّ مكر الله بهم هو مبيت علي أمير المؤمنين على فراش النبي ليمكّنه الخروج ولا يلحقه الطلب....

* * *

(١) البقرة: ٢٠٧.

(٢) الأنفال: ٣٠.

جاء في المجلد الثاني من كتاب الغدير (ص ٤٤ ط الأولى في النجف):

قال أبو جعفر الإسكافي كما في (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد (مج ٣ ص ٢٧٠):

حديث الفراش قد ثبت بالتواتر، فلا يجحده إلاّ مجنون أو غير مخالط لأهل الملّة، وقد روى المفسرون كلهم أن قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ نزلت في عليّ ليلة المبيت على الفراش.

وروى الثعلبي في تفسيره: إن النبي ﷺ لما أراد الهجرة إلى المدينة، خلّف عليّ بن أبي طالب بمكّة لقضاء ديونه، وأداء الودايع التي كانت عنده، وأمر ليلة خرج إلى الغار وقد أحاط المشركون بالدار أن ينام على فراشه، وقال له: اتّشح ببردي الحضرمي الأخضر، ونَم على فراشي فإنه لا يصل منهم إليك مكروه إن شاء الله تعالى، ففعل ذلك عليّ عليه السلام، فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل: إني آخيت بينكما... ـ وقد مرّ الحديث فلا حاجة لإعادته ـ فأنزل الله على رسوله وهو متوجّه إلى المدينة في شأن عليّ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ قال ابن عبّاس: نزلت الآية في عليّ حين هرب رسول الله ﷺ من المشركين إلى الغار مع أبي بكر، ونام على فراش النبي.

وحديث الثعلبي هذا رواه بطوله الغزالي في احياء العلوم كما مر، والكنجي في كفاية الطالب، والصفوري في نزهة المجالس نقلاً عن الحافظ النسفي، وابن الصباغ المالكي في فصوله، وسبط ابن الجوزي الحنفي في تذكرته، والشبلنجي في نور الأبصار، وفي المصادر الثلاثة

الأخيرة قال ابن عبّاس: أنشدني أمير المؤمنين عليه السلام شعراً قاله في تلك الليلة:

وقيت بنفسي خير من وطئ الحصا وأكرم خلق طاف بالبيت والحجر
وبتّ أراعي منهم ما يسوءني وقد صبرت نفسي على القتل والأسر
وبات رسول الله في الغار آمناً وما زال في حفظ الإله وفي الستر

وتوجد هذه الأبيات في مناقب الخوارزمي مع زيادة بيت...

* * *

وفي المجلد الثاني من (الخلق الكامل) تأليف محمّد أحمد جاد المولى (ص ٢٩٣) تحت عنوان:

روح التفدية:

ما نصه: لِسيّدنا عليّ مواقف عظيمة في نصرة الإسلام: منها موقفه حين عزم النبي عليه السلام على الهجرة إلى المدينة التي وجد فيها أنصاراً له، وعزمت قريش على قتله، لتنتهي من أمره، وقد عزم على الهجرة خفية في ليلة من الليالي، وأن يختار من الشبان الذين آمنوا به شاباً ينام على فراشه حتّى لا تعلم قريش فتطلبه قبل أن يبعد عن مكّة فقدّم سيدنا علياً نفسه لهذه التفدية، وهو يعرف أن قريشاً عازمة على اغتيال النبي، وقد تنفذ فيه فتقتله بدله، فنام الفتى مكان ابن عمه الذي خرج من بلده، كما خرج موسى من مصر خائفاً يترقّب، وتمّ للنبي صلى الله عليه وآله ما أراد.

فكانت قريش تنظر طول الليل، فترى علياً نائماً على فراشه فتظنه هو وتطمئن، حتّى إذا أصبحوا رأوه عليّاً، فقالوا:

لو خرج محمّد لأخذ عليّاً معه، وهكذا تمت الحيلة، وأفلت النبي منهم بفضل الله وتفدية عليّ رضي الله عنه.

* * *

الإنفاق: هو الإخراج من اليد، والمراد به هو الإعطاء المرغّب إليه شرعاً والممدوح عقلاً.

فإنّ من كان مؤمناً بما وراء الماديات، ويعتقد بأن مرجعها إلى الزوال والفناء، وأن ما يملكه هو رزق من الله تعالى يجد في نفسه ميلاً إلى بذله ابتغاء رضوان الله ورحمةً لبني نوعه، ويكون من المتقين الذين لهم القابلية لهدى القرآن، قال تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1] هذه أجمع كلمة نافعة للإنسان وأعظم ما يتحفظ به النظام، لأن جميع مواهب الله تعالى على الإنسان رزق منه لا بدّ وأن يتفق بنحو ما أذن الله له.

وهذا هو الاستكمال والإستنماء لنفس الموهبة الإلهيّة في الدنيا والآخرة، وهو من الامداد الغيبي الذي يصل منه تعالى إلى المنفقين، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٦١).

كما أنّ فيهم نزل أيضاً: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (الأنعام: ١٦٠)، وليست الحسنة مختصة بالمال، بل تشمل كل خير يوصل إلى الغير لينتفع به، ويسمّى صدقة أيضاً.

---

(١) البقرة: ٢.

[**أقسام الإنفاق**] :

ثمّ أنّ الإنفاق أقسام:

الأوّل: الإنفاق الواجب كالزكاة المفروضة والخُمس والكفاءات والنفقات الواجبة، وما أوجب الإنسان على نفسه بالنذر ونحوه، ومن الإنفاق أيضاً انفاق الواجبات النظامية على ما فصّل بالفقه.

الثاني: الانفاق المندوب الذي حثّ القرآن إليه في آيات كثيرة، وكلّما اشتد حب الإنسان لشيء يشتد ثواب إنفاقه لله تعالى قال جلّ شأنه: ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢).

الثالث: الإيثار على النفس الذي هو من أجلّ مقامات الأولياء، وفيهم نزلت الآية المباركة: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩).

ومن ذلك يعرف أنه لا وجه لتخصيص الرزق بالنفقة الواجبة على الأهل والولد أو الزكاة المفروضة أو صدقة التطوع أو الحقوق الواجبة العارضة في الأموال ـ ما عدا الزكاة ـ وكذا ليس المراد به خصوص العلم، بل هو عام يشمل كل إنفاق ولو كان معنوياً يُبتغى فيه سبيل الله تعالى، فربما يكون الإنسان مصلياً وصائماً ولكنه متى ما عرض عليه ما يقتضي به بذل شيء شحت نفسه وأمسك عن الإعطاء.

ويستفاد من إسناد الرزق إلى الله تعالى أن الإنسان مهما جدّ في تحصيل ما يتملكه كان كله من الله جل شأنه، وأنه هو الرزاق فلا يكترث بما يصيبه، ولا يبخل عما يطلب منه، وأن الإنفاق بشيء له تعالى ليس من فقد الشيء عن الباذل، بل حقيقته تحويل شيء عن معرض الزوال والفناء إلى خزائن الله تعالى التي لا يتصور فيها الفناء والزوال، وفي قوله

تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ (سبأ: ٣٩) وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠).

كما أنه يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أن المطلوب منه النفقة ببعض ما يملك لا جميعه، كما نبّه عليه في آية أخرى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ (الإسراء: ٢٩).

* * *

إنّ أمر الإنفاق في سبيل الله أشق الأمور على النفوس، لاسيّما إذا اتسعت دائرة المنفعة فيما ينفق فيه، وبعدت نسبة من ينفق عليه من المنفق، فإنّ كل إنسان يسهل عليه الإنفاق على نفسه وأهله وولده، إلاّ أفراد من أهل الشح المطاع، وهذا النوع من الإنفاق لا يوصف صاحبه بالسخاء، ومن كان له نصيب من السخاء سهل عليه الإنفاق بقدر هذا النصيب، فمن كان له أدنى نصيب فإنه يرتاح إلى الإنفاق على ذوي القربى والجيران فإن زاد أنفق على أهل بلده فأمته فالناس كلهم، وذلك منتهى الجود والسخاء.

وإنما يصعب على المرء الإنفاق على منفعة من يبعد عنه؛ لأنه فُطر على أن لا يعمل عملاً لا يتصور لنفسه فائدة منه، وأكثر النفوس جاهلة باتصال منافعها ومصالحها بالبعداء عنها، فلا تشعر بأن الإنفاق في وجوه البر العام، كإزالة الجهل بنشر العلم ومساعدة العجزة والضعفاء، وترقية الصنائع وإنشاء المستشفيات والملاجئ، وخدمة الدين المهذب للنفوس، هو الذي تقوم به المصالح العامة حتّى تكون كلها سعيدة عزيزة.

فعلّمهم الله تعالى أنّ ما ينفقونه في المصالح العامة يضاعف لهم أضعافاً

كثيرة، فهو مفيد لهم في دنياهم، وحثهم على أن يجعلوا الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ليكون مفيداً لهم في آخرتهم أيضاً، وذلك في قوله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.(٢)

وقال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.(٣)

وقال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾.(٤)

فذكر أوّلاً أنّ الانفاق في سبيل الله بمنزلة إقراضه تعالى، ووعد بمضاعفته أضعافاً كثيرة، ثمّ ضرب الأمثال وذكر قصص الذين بذلوا أموالهم وأرواحهم في سبيله.

ثمّ ذكر البعث وإحياء الموتى وانتهاءهم إلى الدار التي يوفّون فيها أجورهم في يوم لا تنفع فيه فدية ولا خلّة ولا شفاعة، وإنما تنفعهم أعمالهم التي أهمّها الإنفاق في سبيله، ثمّ ضرب المثل للمضاعفة، بعد أن قرّر أمر البعث بالدلائل والأمثال، إذ كان الإيمان به أقوى البواعث على بذل المال.

---

(١) البقرة: ٢٦١.

(٢) البقرة: ٢٦٢.

(٣) البقرة: ٢٦٣.

(٤) البقرة: ٢٦٤.

قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية. وهي ما يوصل إلى مرضاته من المصالح العامة، لاسيّما ما كان نفعه أعمّ وأثره أبقى، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ أي كمثل أبركِ بَرزٍ في أخصب أرض نما أحسن نموّ فجاءت غلته مضاعفة سبع مئة ضعفٍ وذلك منتهى الخصب والنماء أي إنّ هذا المنفق يلقى جزاءه في الدنيا مضاعفاً أضعافاً كثيرة، فالتمثيل للتكثير لا للحصر، ولذلك قال: ﴿وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ﴾ فيزيده على ذلك زيادة لا تقدّر ولا تحصر، ﴿وَاللَّهُ واسِعٌ﴾ لا ينحصر فضله ولا يحدد عطاؤه ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق المضاعفة من المخلصين الذين يهديهم اخلاصهم إلى وضع النفقات في مواضعها التي يكثر نفعها وتبقى فائدتها زمناً طويلاً، كالمنفقين في اعلاء شأن الحق وتربية الأمم، على آداب الدين وفضائله التي تسوقهم إلى سعادة المعاش والمعاد، حتّى إذا ما ظهرت آثار نفقاتهم النافعة في قوّة ملّتهم، وسعة انتشار دينهم، وسعادة أفراد أمتهم، عاد عليهم من بركات ذلك وفوائده ما هو فوق ما أنفقوا بدرجات لا يمكن حصرها.

والأمم ما عزت إلاّ بعد الإنفاق في إعلاء شأنها بنشر العلوم وتأليف الجمعيات الدينية والخيرية وغير ذلك من الأعمال التي تقوم بها المصالح العامة، إذ يرى كل فرد من أفراد طبقاتها عزيزاً بها محترماً باحترامها، مكفولاً بعنايتها، كأنّ أمّته ودولته متمثّلان في شخصه، وليقابل بين هؤلاء الأفراد وبين كبراء الأمم التي ضعفت وذلت بإهمال الإنفاق في المصالح العامة وإعلاء شأن الملّة، كيف يراه أحقر في الوجود من صعاليك غيرهم، ثمّ ليرجع إلى نفسه وليتأمل كيف أن نفقة كل فرد من الأفراد في المصالح العامة يصحّ أن تعتبر هي المسعدة للأمّة كلها من

حيث إنّ مجموع النفقات التي بها تقوم المصالح تتكوّن مما يبذله الأفراد، فلولا الجزئيات لم توجد الكليات.

ومن حيث إنّ الناس يقتدي بعضهم ببعض بمقتضى الجبلّة والفطرة، فكل من بذل شيئاً في سبيل الله كان إماماً وقدوة لمن يبذل بعده، وإن لم يقصدوا الاقتداء به، لأنّ الناس يتأثر بعضهم بفعل بعض، من حيث لا يشعرون، والفضل الأكبر في هذه الأمة لمن يبدأ بالإنفاق في عمل نافع لم يسبق إليه أولئك واضعو سنن الخير، والفائزون بأكبر المضاعفة.

ومن السخاء الهدية:

جاء في المجلد الثاني من كتاب (الأخلاق في حديث واحد):

ومن السخاء الهدية.

وهي ما يعطي ويرسل إلى أخيه المسلم، فقيراً كان أم غنياً، طلباً للإستيناس، وتأكيداً للصحبة والتودد، وهو مندوب إليه من الشرع، ومع سلامة القصد والنية يكون عبادة.

في (الكافي):[1] عن عدّة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن إسماعيل بن مهران، عن أبي جرير القمي، عن أبي الحسن عليه السلام في الرجل يهدي بالهدية إلى ذي قرابته يريد الثواب وهو سلطان، فقال: «ما كان لله عزّ وجلّ ولصلة الرحم فهو جائز، وله أن يقبضها إذا كانت للثواب».

وفيه: عن عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد بن خالد، عن إسماعيل بن مهران، عن سيف بن عميرة، عن عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يأكل الهدية ولا يأكل

(١) الكافي ٥: ١٤١/ باب الهدية/ ح ٤ و٧ و٨.

الصدقة، ويقول: تهادوا فإنّ الهدية تسلّ السخائم وتخلي ضغائن العداوة والأحقاد».

وفيه: عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من تكرمة الرجل لأخيه المسلم أن يقبل تحفته ويتحفه بما عنده، ولا يتكلف له شيئاً».

في (سفينة البحار): عن الخصال، عن الرضا عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «نعم الشيء الهدية، والهدية مفتاح الحوائج».

وفيه: عن عيون أخبار الرضا عنه عليه السلام قال: «نعم الشيء الهدية، تذهب الضغائن من الصدور».

وفيه: عن أمالي ابن الشيخ عن أبي قتادة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «أتتهادون؟» قال: نعم يا بن رسول الله، قال: «فاستديموا الهدية بردّ الظروف إلى أهلها».

وفيه: عن منية المريد قال النبي صلى الله عليه وآله: «ما أهدى المرء المسلم إلى أخيه هدية أفضل من كلمة حكمة يزيده الله بها هدى، ويردّه عن ردى».

الهدية تجلب المودّة إلى القلب والسمع والبصر:

ومن الأمثال: إذا قدمت من سفر، فاهدِ لأهلك ولو حجر.

وقال الفضل بن سهل: ما استُرضي الغضبان، ولا استعطِفَ السلطان، ولا سُلبت السخائم، ولا دُفعت المغارم ولا استميل المحبوب، ولا توق المحذور بمثل الهدية فإنها تضاعف الحب، وتذهب بغوائل الصدر.

وقال ابن عائشة: الهدية سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وأدب الملوك، وعمارة المودة بين الإخوان، وكان يقال: إهدوا للولاة فإنهم إن لم يقبلوا أحبّوا.

ومن أحسن ما قيل في الإهداء إلى الملوك، قول أحمد بن يوسف المأنوني:

على العبد حق فهو لا بدّ فاعله وإن عظم المولى وجلّت فواضله
ألم ترنا نهدي إلى الله ماله وإن كان عنه ذا غنيّ فهو قابله

قال بعض السلف: نعم الشيء الهدية أمام الحاجة.

وقال آخر: الهدية تفتح الباب المغلق.

وقال آخر: الهدايا تذهب الشحناء، والهدية رزق الله فمن أهدي إليه فليقبله.

وقال الشاعر:

للهدايا من القلوب مكان وحقيق يحبها الإنسان

وقال آخر:

إذا دخل الهدية دار قوم تطايرت العداوة من كواها

* * *

ما أُهدي إلى الملوك والوزراء:

في (المجلد الثاني)[1] من (المستطرف):

أُهدي إلى سليمان بن داود عليه السلام ثمانية أشياء متباينة في يوم واحد، فَيَلةَ من ملك الهند، وجارية من ملك الترك، وفرس من ملك العرب، وجوهرة من ملك الصين، واستبرق من ملك الروم، ودرّة من ملك البحر، وجرادة من ملك النمل، وذرّة من ملك البعوض، فتأمل ذلك وقال: سبحان القادر على جمع الأضداد.

---

(١) ص ١٢٠ – ١٢٢.

وأهدى ملك الروم إلى المأمون هدية، فقال المأمون: أهدوا له ما يكون ضعفها مائة مرّة ليعلم عزّ الإسلام ونعمة الله تعالى علينا، ففعلوا ذلك، فلما عزموا على حملها، قال: ما أعزّ الأشياء عندهم؟ قالوا: المسك والسمور، قال: وكم في الهدية من ذلك؟ قالوا: مائتا رطل مسكاً ومائتا فروة سمور.

وأهدت قطر الندى إلى المعتضد بالله في يوم نيروز في سنة اثنتين وثمانين ومائتين هدية، كان فيها عشرون صينية من ذهب، في عشرة منها مشام عنبر وزنها أربعة وثمانون رطلاً، وعشرون صينية فضة في عشرة منها مشام صندل زنتها نيف وثمانون رطلاً، وخمس خلع وشي قيمتها خمسة آلاف دينار، وعملت شمامات ليوم النيروز بلغت النفقة عليها ثلاثة عشر ألف دينار.

وأهدى يعقوب بن الليث الصفار إلى المعتمد على الله هدية في بعض السنين من جملتها عشرة بازات، منها بازاً أبلق لم يرَ مثله، ومائة مهر، وعشرون صندوقاً على عشر بغال فيها طرائف الصين وغرائبه، ومسجد فضة بدابزين يصلي فيه خمسة عشر إنساناً، ومائة رطل من مسك، ومائة رطل عود هندي، وأربعة آلاف ألف درهم.

وأهدت تريا بنت الأوباري ملكة افرنجة وما والاها إلى المكتفي بالله في سنة ثلاث وسبعين ومائتين، خمسين سيفاً وخمسين رمحاً، وعشرين ثوباً منسوجاً بالذهب، وعشرين خادماً صقلبياً، وعشرين جارية صقلبية، وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع، وستة بازات وسبع صقور، ومضرب حرير متلوّن بجيمع الألوان كلون قوس قزح يتلوّن في كل ساعة من ساعات النهار، وثلاثة أطيار من الأطيار الافرنجية، إذا نظرت إلى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صياحاً منكراً وصفقت بأجنحتها

حتّى يعلم بذلك، وخرزاً يجذب النصول بعد نبات اللحم عليها بغير وجع، وحمارة وحشيّة عظيمة الخلقة في قدر البغل، وآذانها شبه آذان البغل وهي مخططة تخطيطاً عاماً لجميع خلقتها.

وأهدى قسطنطين ملك الروم إلى المستنصر بالله في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، هدية عظيمة اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر، كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية، قيمة ذلك ثلثمائة ألف دينار عربية.

وحكي أن الخيزران جارية المهدي كانت أديبة شاعرة، فعزم المهدي على شرب دواء، فأنفذت إليه جام بلّور فيه شراب اختارته له مع وصيفة بكر بارعة الجمال وكتبت إليه تقول:

إذا خرج الإمام من الدواء ... وأعقب بالسلامة والشفاء

وأصلح حاله من بعد شرب ... بهذا الجام من هذا الطلاء

فينعم للتي قد أنفذته ... إليه بزورة بعد العشاء

فسرّ بذلك ووقعت الجارية منه أعظم موقع، وزار الخيزران وأقام عندها يومين.

وأهدى الصابي إلى عضد الدولة إسطرلاباً في يوم المهرجان، وكتب إليه يقول:

أهدى إليك بنو الأملاك واحتفلوا ... في مهرجان جديد أنت تبليه

لكن عبدك إبراهيم حين رأى ... سموّ قدرك عن شيء يدانيه

لم يرضَ بالأرض يهديها إليك وقد ... أهدى لك الفلك الأعلى بما فيه

وأهدى رجل إلى المتوكل قارورة ذهب وكتب معها: إنّ الهدية إذا كانت

من الصغير إلى الكبير، فكلما لطفت ودقّت كانت أبهى وأحسن، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجلّت كانت أوقع وأنفع.

وأهدى مرّة أبو الهذيل إلى موسى بن موسى دجاجة ووصفها له بصفات جليلة، ثمّ لم يزل يذكرها، وكلما ذكر شيء بجمال أو سمن قال: هو أحسن أو أسمن من الدجاجة التي أهديتها إليكم، وإن ذكر حادث قال: ذلك قبل أن أهدي لكم الدجاجة بشهر، وما كان بين ذلك وبين إهداء الدجاجة إلاّ أيام قلائل، فصارت مثلاً لمن يستعظم الهدية ويذكرها، قال الشاعر:

وإنّ امرأ أهدى إليّ صنيعة ... وذكّرنيها مرة للئيم

* * *

بين شاعرين:

يقول المؤلف حسن السيد عليّ القبانچي عفى الله عنه:

إنّ من ظرائف الأدب والنكات الطريفة: أنه أهدى نعمة قازان حذاءاً إلى صديقه توفيق ظعون ـ وكلاهما من شعراء المهجر ـ وكتب إليه بهذين البيتين:

لقد أهديت توفيقاً حذاءاً ... فقال الحاسدون وما عليه

أما قال الفتى العربي قدماً ... شبيه الشيء منجذب إليه

فردّ عليه توفيق ظعون التحية بأحسن منها فقال:

لو كان يُهدى إلى الإنسان قيمته ... لكنت أسألك الدنيا وما فيها

لكن تقبّلت هذا النعل معتقداً ... أنّ الهدايا على مقدار مهديها

* * *

وأهدي إلى الشيخ الحجة الشربياني، أربعة ديوك، وكان السيد جعفر الحلي الشاعر الشهير جالساً عنده، فقال الشيخ لخادمه: خذ هذه الديوك إلى العائلة. ولم يأمر بواحد منها إلى السيد المذكور، فقال السيد عند ذاك:

أحبّ أن أصلّي كل يوم ... وراءك في العشيّ وفي الغداة
ولكن لم يكن في الدار ديك ... ينبّهني لأوقات الصلاة

فأمر له بواحد منها.

* * *

ومن السخاء الحق المعلوم:

ومن الإنفاق الداخل تحت السخاء، الحق المعلوم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج: ٢٤ و٢٥).

في (الكافي):[١] عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن الحسين بن سعيد، عن فضاله بن أيّوب، عن أبي المغري، عن أبي بصير، قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام ومعنا بعض أصحاب الأموال، فذكروا الزكاة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ الزكاة ليس يحمد بها صاحبها، وإنما هو شيء ظاهر، وإنما حقن بها دمه وسمي بها مسلماً، ولو لم يؤدّها لم تقبل له صلاة، وإنّ عليكم في أموالكم غير الزكاة»، فقلت: أصلحك الله وما علينا في أموالنا غير الزكاة؟ فقال: «سبحان الله أما تسمع الله عزّ وجلّ يقول في كتابه: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾».

قال: قلت: ماذا الحق المعلوم الذي علينا؟ قال: «هو الشيء يعمله

(١) الكافي ٣: ٩٩/ ح ٩ و١١ و١٤.

الرجل في ماله يعطيه في اليوم والجمعة أو في الشهر قلّ أو كثر غير أنه يدوم عليه»، وقوله ﷻ: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[١] قال: «هو القرض يقرضه، والمعروف يصطنعه، ومتاع البيت يعيره، ومنه الزكاة»، فقلت: إن لنا جيراناً إذا أعرناهم متاعاً كسروه وأفسدوه فعلينا جناح أن نمنعهم؟ فقال: «لا، ليس عليكم جناح أن تمنعوهم إذا كانوا كذلك»، قال: قلت له: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾[٢] قال: «ليس من الزكاة»، فقلت: قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[٣] قال: «ليس من الزكاة»، فقلت: قوله ﷻ: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[٤] قال: «ليس من الزكاة، وصلتك قرابتك ليس من الزكاة».

وفيه: عن عليّ بن محمّد بن عبد الله، عن أحمد بن محمّد عن الحسن بن محبوب، عن عبد الرحمن بن الحجاج، عن القاسم بن عبد الرحمن الأنصاري، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إنّ رجلاً جاء إلى أبي عليّ بن الحسين عليه السلام فقال له: أخبرني عن قول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ ما هذا الحق المعلوم؟ فقال له عليّ بن الحسين عليه السلام: الحق المعلوم الشيء يخرجه الرجل من ماله ليس من الزكاة ولا من الصدقة المفروضتين، قال: فإذا لم يكن من الزكاة ولا من الصدقة فما هو؟ فقال: هو الشيء يخرجه الرجل من ماله إن شاء أكثر

---

(١) الماعون: ٧.

(٢) الإنسان: ٨.

(٣) البقرة: ٢٧٤.

(٤) البقرة: ٢٧١.

وإن شاء أقل على قدر ما يملك، فقال له الرجل: فما يصنع به؟ قال: يصل به رحماً ويقري به ضيفاً، ويحمل به كلاًّ، أو يصل به أخاً له في الله أو لنائبة تنوبه، فقال الرجل: الله يعلم حيث يجعل رسالاته».

وفيه: عن عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن أبي عبد الله، عن الحسن بن محبوب، عن مالك بن عطية، عن عامر بن جذاعة، قال: جاء رجل إلى أبي عبد الله عليه السلام فقال له: يا أبا عبد الله قرض إلى ميسرة، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «إلى غلة تدرك»، فقال الرجل: لا والله، قال: «فإلى تجارة تؤوب»، قال: لا والله، قال: «فإلى عقدة تباع»، فقال: لا والله، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «فأنت ممن جعل الله له في أموالنا حقاً»، ثمّ دعا بكيس فيه دراهم فأدخل يده فيه فناوله منه قبضة، ثمّ قال له: «اتق الله ولا تسرف ولا تقتر ولكن بين ذلك قواماً، إنّ التبذير من الإسراف، قال الله تعالى: ﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾[1]».

* * *

ومن ثمرات السخاء وجوه الإعانة للمسلم:

قال في المجلد الثاني من كتاب (الأخلاق في حديث واحد):

من بذل الكسوة والسكنى، واعطاء الماعون واعارة المتاع، فإن جميع ذلك من ثمرات السخاء، ومنعها من نتائج البخل.

في (الكافي):[2] عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن عمر بن عبد العزيز، عن جميل بن دراج، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من كسا

---

(١) الإسراء: ٢٦.

(٢) الكافي ٢: ٢٠٤/ ح ١ و٢.

أخاه كسوة شتاء أو صيف، كان حقاً على الله أن يكسوه من ثياب الجنّة، وأن يهوّن عليه سكرات الموت وأن يوسّع عليه في قبره، وأن يلقى الملائكة إذا خرج من قبره بالبشرى، وهو قول الله ﷻ في كتابه: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٣)».

وفيه: عنه، عن أحمد بن محمّد، عن بكر بن صالح، عن الحسن بن عليّ، عن عبد الله بن جعفر بن إبراهيم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من كسا أحداً من فقراء المسلمين ثوباً من عري، أو أعانه بشيء مما يقويه على معيشته، وكّل الله ﷻ به سبعة آلاف ملك من الملائكة يستغفرون لكل ذنب عمله إلى أن ينفخ في الصور».

فالإنفاق الواجب والمستحب الذي تقدم ذكره، داخل تحت عنوان السخاء، والسخاء أصل من أصول الكرم ومن وجوه البر الذي نحن بصدده.

قال بعض الحكماء: أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام، وسخاؤها بما يملك على الخاص والعام، وجميع خصال الخير من فروعه، ومن فروع الكرم الجود والإيثار.

وقيل: إن السخاء والجود والايثار بمعنى واحد.

وقيل: من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومن آثر غيره بالحاضر وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار، وأصل السخاء هو السماحة، وقال الحسن بن عليّ عليه السلام: «السماحة إجابة السائل وبذل النائل».

عن أمالي الشيخ أبي عليّ بن الشيخ الطوسي عن الصادق عليه السلام قال: «ليس السخيّ المبذّر الذي ينفق ماله في غير حقه، ولكنه الذي

يؤدي إلى الله عَزَّوَجَلَّ ما افترضه عليه في ماله من الزكاة وغيرها، والبخيل الذي لا يؤدي حق الله عَزَّوَجَلَّ في ماله».[1]

وفي (سفينة البحار): قال الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «جاهل سخيّ أفضل من ناسك بخيل».

وفيه: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «طعام السخيّ دواء، وطعام الشحيح داء».

وفيه: عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «إنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أقبل إلى الجعرانة فقسّم فيها الأموال، وجعل الناس يسألونه فيعطيهم حتّى ألجؤوه إلى شجرة فأخذت برده وخدشت ظهره، حتّى جلوه عنها وهم يسألونه فقال: أيها الناس ردّوا عليَّ بردي والله لو كان عندي عدد شجر تهامة نعماً لقسّمته بينكم، ثمّ ما ألفيتموني جباناً ولا بخيلاً، ثمّ خرج من الجعرانة».

قال شيخنا الحر العاملي:

إنّ محمّداً أجلّ الأنبيا ... قد جاز في الجود جميع الأغنيا

له هباة جمة مشهوره ... مذكورة في كتب مسطوره

من ذاك في يوم حنين وهبا ... ما مثله بين الورى ما وهبا

خمسين ألفاً كملت من الإبل ... ردّ بها عصر النوال المقتبل

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أجود الناس كفاً، وأكرمهم عشرة، من خالطه فعرفه أحبه».[2]

وعن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال: «أنا أديب الله وعليٌّ أديبي، أمرني بالسخاء

---

(١) الأمالي: ٤٧٥/ ح ١٠٣٧/ ٦.

(٢) بحار الأنوار ١٦: ٢٣١.

والبر ونهاني عن البخل والجفا، وما من شيء أبغض إلى الله ﷻ من البخل وسوء الخلق، وإنه ليفسد العمل كما يفسد الطين العسل».[١]

وقال الشيخ الأزري رحمه الله:

كم سخا منعماً فأعتق قوماً   وكذا أشرف الطباع سخاها
وهباة له عقيب هباة   كسيول جرت إلى بطحاها[٢]

وفيه: من سخاء أمير المؤمنين عليه السلام وإنفاقه: عن (جامع الأخبار):[٣]

جاء علياً أعرابيٌ، قال: يا أمير المؤمنين إني مأخوذ بثلاث علل: علة النفس، وعلة الفقر، وعلّة الجهل، فأجاب أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «يا أخا العرب علة النفس تعرض على الطبيب، وعلة الجهل تعرض على العالم، وعلّة الفقر تعرض على الكريم». فقال الأعرابي: أنت الكريم، وأنت العالم، وأنت الطبيب، فأمر أمير المؤمنين عليه السلام بأن يعطى له من بيت المال ثلاثة آلاف درهم وقال: «تنفق ألفاً بعلة النفس، وألفاً بعلة الجهل، وألفاً بعلة الفقر».

* * *

وروى السيد ابن طاووس في (كشف المحجة):[٤] من بعض كتب المناقب: أن علياً عليه السلام قال: «تزوجت فاطمة عليها السلام وما كان لي فراش، وصدقتي اليوم لو قسّمت على بني هاشم لوسعتهم». وقال فيه: إنه عليه السلام وقّف أمواله

(١) نفس المصدر.

(٢) الأزرية: ١٢١.

(٣) جامع الأخبار: ١٥٨، عنه البحار ٤١: ٤٣.

(٤) كشف المحجة: ١٢٤.

وكانت غلّته أربعين ألف دينار، وباع سيفه وقال: «من يشتري سيفي ولو كان عندي عشاء ما بعته»، وإعطاؤه للسائل حلتين ومائة دينار.

* * *

جاء في (روضة الواعظين):[1] روي إنّ رجلاً جاء أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أمير المؤمنين إنّ لي إليك حاجة، فقال: «أكتبها في الأرض فإني أرى الضرّ فيك بيّناً»، فكتب على الأرض: أنا فقير محتاج، فقال عليه السلام: «يا قنبر أكسه حلتين».

فأنشأ الرجل يقول:

كسوتني حلّة تُبلى محاسنها ... فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن نلتَ حسن ثنائي نلتُ مكرمة ... ولست تبغي بما قد نلته بدلا
إنّ الثناء ليحيى ذكر صاحبه ... كالغيث يحيى نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرفٍ بدأت به ... فكل عبد سيجزى بالذي فعلا

فقال عليه السلام: «أعطوه مئة دينار»، فقيل له: يا أمير المؤمنين قد أغنيته، فقال عليه السلام: «إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أنزلوا الناس منازلهم»، ثمّ قال: «إني لأعجب من أقوام يشترون المماليك بأموالهم، ولا يشترون الأحرار بمعروفهم».

قال ابن أبي الحديد في جود أمير المؤمنين عليه السلام وسخائه: وفيه أنزل: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ ...﴾[2] الآية. وأنزل: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.[3]

---

(١) روضة الواعظين: ٣٥٧.

(٢) الإنسان: ٨.

(٣) البقرة: ٢٧٤.

وروي عنه: إنه كان يستقي بيده لنخل قوم من يهود المدينة حتى مجلت يده، ويتصدق بالأجرة، ويشد على بطنه حجراً. وقال الشعبي وقد ذكره: كان أسخى الناس، وكان على الخُلق الذي يحب الله السخاء والجود، ما قال لا لسائل قط. وقال عدوّه ومبغضه الذي كان يجتهد في وصمته وعيبه، معاوية بن أبي سفيان لمحجن بن أبي محجن الضَبي ـ لما قال: جئتك من عند أبخل الناس ـ قال: ويحك كيف تقول إنه أبخل الناس، لو ملك بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفذ تبره قبل تبنه، وهو الذي كان يكنس بيوت الأموال ويصلي فيها، وهو الذي قال: «يا صفراء ويا بيضاء غري غيري»، وهو الذي لم يخلّف ميراثاً وكانت الدنيا كلها بيده إلاّ ما كان من الشام.[1]

وفيه: من سخاء الحسن بن عليّ عليه السلام:

روي أنه أعطى سائلاً خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار، وأعطى طيلسانه لكرى الحمال، وأعطى الآخر ما في الخزانة وأنشد:

نحن أناس نوالنا خضل ... يرتع فيه الرجاء والأمل
تجود قبل السؤال أنفسنا ... خوفاً على ماء وجه مَن يَسَل
لو علم البحر فضل نائلنا ... لغاض من بعد فيضه خجل[2]

قال أنس: حيّت جارية للحسن بن عليّ عليه السلام بطاقة ريحان، فقال لها: «أنت حرّة لوجه الله»، فقلت له في ذلك فقال: «أدّبنا الله تعالى فقال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾[3] وكان أحسن منها عتقها».

---

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٢١.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٨٢.
(٣) النساء: ٨٦.

وله عليه السلام:

إن السخاء على العباد فريضة ... لله يقرأ في كتاب محكم
وعد العباد الأسخياء جنانه ... وأعدّ للبخلاء نار جهنّم
من كان لا تندى يداه بنائل ... للراغبين فليس ذاك بمسلم[١]

* * *

قال البيهقي في (المحاسن والمساويء)[٢] في محاسن الحسن عليه السلام: وكان عليه السلام أسخى (أهل) زمانه، وذكروا أنه أتاه رجل في حاجة، فقال: «اذهب فاكتب حاجتك في رقعة وارفعها إلينا نقضها لك»، قال: فرفع إليه حاجته فأضعفها له، فقال بعض جلسائه: ما كان أعظم بركة الرقعة عليه يا بن رسول الله، فقال: «بركتها علينا أعظم حيث جعلنا للمعروف أهلاً».

وفيه: من سخاء الحسين بن عليّ عليه السلام:

قضاء دين أسامة، وهو ستون ألف درهم، وإعطاه الفرزدق أربعمائة دينار.

وفيه: عن(المناقب):[٣] وفد أعرابي المدينة، فسأل عن أكرم الناس بها فدُل على الحسين عليه السلام، فدخل المسجد فوجده مصلياً، فوقف بأزائه وأنشأ:

لم يخب الآن من رجاك ومنْ ... حرّك من دون بابك الحلقه
أنت جواد وأنت معتمد ... أبوك قد كان قاتل الفسقه
لولا الذي كان من أوائلكم ... كانت علينا الجحيم منطبقه

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١٨٣.
(٢) المحاسن والمساوئ:
(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢١.

قال: فسلّم الحسين عليه السلام وقال: «يا قنبر هل بقي من مال الحجاز شيء؟» قال: نعم أربعة آلاف دينار، فقال: «هاتها قد جاءها من هو أحق بها منّا»، ثمّ نزع عليه السلام برديه ولفّ الدنانير فيها، وأخرج يديه من شقّ الباب حياءاً من الأعرابي وأنشأ:

خذها فإني إليك معتذر ... واعلم بأني عليك ذو شفقه
لو كان في سيرنا الغداة عصاً ... أمست سمانا عليك مندفقه
لكنّ ريب الزمان ذو غِيَر ... والكف مني قليلة النفقه

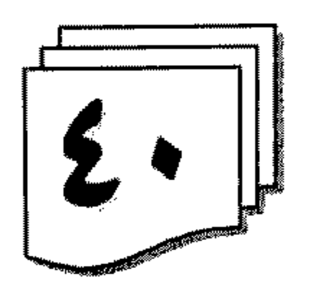
قال: فأخذها وهو يبكي، قال له عليه السلام: «لعلّك استقللت ما أعطيناك؟» قال: لا، ولكن أقول: كيف يأكل التراب جودك؟

وفيه: عن المناقب: وجد على ظهر الحسين بن عليّ عليه السلام يوم الطف أثر، فسألوا زين العابدين عليه السلام عن ذلك، فقال: «هذا مما كان ينقل الجراب على ظهره إلى منازل الأرامل واليتامى والمساكين».

وفيه: عن (تحف العقول):[1] روي أنه جاء للحسين رجل من الأنصار يريد أن يسأله، فقال عليه السلام: «يا أخا الأنصار صُن وجهك عن ذلّ المسألة وارفع حاجتك في رقعة وأتِ بها سأسرك إن شاء الله»، فكتب إليه: يا أبا عبد الله إنّ لفلان عليّ خمسمائة دينار، وقد ألحّ بي فكلّمه ينظرني إلى ميسرة، فلما قرأ الحسين عليه السلام الرقعة دخل إلى منزله فاخرج صرّة فيها ألف دينار، وقال له: «أما خمسمائة فاقض بها دينك، وأما خمسمائة فاستعن بها على دهرك ولا ترفع حاجتك إلاّ إلى أحَدِ ثلاثة: ذو دين، أو مروّة، أو حسب».

* * *

(١) تحف العقول: ٢٤٦.



قوله عليه السلام:

الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ وَلاَ أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ.

(نهج البلاغة ١: ٩٢)

[الوفاء والصدق توأمان]

ضبط الألفاظ اللغوية:

(التَوأم) معروف، يقال: هذا توأم هذا، وهذه توأم هذه، وهما توأمان. و(الجُنّة) بالضم الترس.

المعنى لهذه الفقرات النيّرة:

إن الوفاء يكسب صاحبه ثقة الناس به، واحترامهم له، ويوثق عرى المحبة والائتلاف، وبه يكون التعاون الذي هو ضروري لسعادة الناس، وهو سبب نجاح الصناع في صناعاتهم، والتجار في تجاراتهم.

ويحلّ بين الناس في رتب الكرامة، ويَجلّ أن يقارِف مواقف الندامة، وأن يُنصب له لواء الغدر يوم القيامة.

* * *

قال ابن أبي الحديد:

يقال: هذا توأم هذا، وهذه توأمته، وإنما جعل الوفاء الصدق؛ لأن الوفاء صدق في الحقيقة، ألا ترى أنه قد عاهد على أمر وصدق فيه ولم يخلف، وكأنهما أعمّ وأخص، وكل وفاء صدق وليس كل صدق وفاء، فإن امتنع من حيث الإصطلاح تسمية الوفاء صدقاً فلأمر آخر، وهو أن الوفاء قد يكون بالفعل دون القول، ولا يكون الصدق إلاّ في القول؛ لأنه نوع من أنواع الخبر والخبر قول.

ثمّ قال عليه السلام: «ولا أعلم جُنّة» أي درعاً «أوقى منه» أشد وقاية وحفظاً؛ لأنّ الوفي محفوظ من الله، مشكور بين الناس...[١]

* * *

قال ابن ميثم البحراني:

الجُنّة ما استترتَ به من سلاح وغيره. واعلم أن الوفاء ملكة نفسانية تنشأ من لزوم العهد كما ينبغي والبقاء عليه، والصدق ملكة تحصل من لزوم الأقوال المطابقة. وهما فضيلتان داخلتان تحت فضيلة العفة متلازمتان، ولما كان التوأم هو الولد المقارن لولد آخر في بطن واحد أشبهه الوفاء لمقارنته الصدق تحت العفة، فاستعار لفظه له، ثمّ كانت فضيلة الوفاء مقابلة برذيلة الغدر، وفضيلة الصدق مقابلة برذيلة الكذب، ورذيلتا الغدر والكذب أيضاً توأمين تحت رذيلة الفجور المقابلة لفضيلة العفّة.

قوله عليه السلام: «ولا أعلم جُنّة أوقى منه» حكم ظاهر فإنّ الوفاء وقاية تامة للمرء أمّا في آخرته فللإستتارة به من عذاب الله الذي هو أعظم محذور، وأما في دنياه فللإستتارة به من السبّ والعار وما يلزمه عدم الوفاء من الغدر والكذب الملطّخين لوجه النفس، وإذ علمت أنّه لا نسبة لشيء مما يُجتّن منه بالأسلحة وغيرها إلى ما يتوقّى بالوفاء، علمت أنه لا جُنّة أوقى من الوفاء، وممادح الوفاء ومُذام الغدر كثيرة قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾[٢]، ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ...﴾[٣] الآية. وقال في تمدّحه بالوفاء: ﴿وَمَنْ أَوْفَى

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٣١٨.

(٢) الرعد: ٢٠.

(٣) البقرة: ١٧٠.

بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾[١] وقال: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾[٢] ومن الخبر في ذمّ الغدر، لكل غادرٍ لواء يُعرف به يوم القيامة...

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

«إنّ الوفاء توأم الصدق». لا يختص الوفاء والصدق بأهل الإيمان والأديان، إنهما فرعان عن دوحة الخلق الكريم، فقد يؤمن الإنسان بالله واليوم الآخر، ولا يتورع عن الكذب والخيانة، وقد يجحد بالله وحسابه، وينزه نفسه عن الغدر وقول الزور...

والوفاء وصف عام يكون للعقيدة والوطن، كما يكون للجار والصديق، ويكون للإنسانية جمعاء كما يكون في الأقوال، ويكون فيما يظهر منه للناس كما يكون في المعاملة مع الخالق، والصدق دليل الثقة بالنفس وكذلك الوفاء...

وبكلمة: لا يفترق الصدق عن الوفاء، ولا الوفاء عن الصدق وجوداً ومنزلة، إنهما في ذلك تماماً كأخوين في رحم واحد في آن واحد.

«ولا أعلم جُنّة أوفى منه». لأن من لا وفاء له لا دين له، ومن لا دين له لا يقيه شيء من غضب الله وعذابه. «وما يغدر من علم كيف المرجع»، إلى العرض بين يدي الله، والحساب على ما قدّم وأخّر».

اعلم أنّ الوفاء والصدق من جنود العقل، كما أنّ الغدر والكذب

(١) التوبة: ١١١.

(٢) الفتح: ١٠.

من جنود الجهل، على ما ورد في رواية الكافي، بإسناده عن ابن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام.

وتقابل الأولين مع الآخرين تقابل العدم والملكة، لأنّ عدّ هذه الأوصاف من جنود العقل والجهل باعتبار مباديها الراسخة وملكاتها الثابتة في النفس دون آثارها التي هي من الأعمال والأفعال، وعلى هذا فالوفاء ملكة نفسانية تنشأ من لزوم العهد كما ينبغي والبقاء عليه، والغدر عدم الوفاء عمن من شأنه الوفاء، والصدق ملكة تحصل من لزوم مطابقة الأقوال للواقع، والكذب عدم الصدق لمن من شأنه الصدق.

وأمّا النسبة بين الوفاء والصدق فهي أنّ الأوّل أخصّ من الثاني مطلقاً؛ لأنّ الوفاء هو الصدق في الوعد، وربما يكون صادقاً في غير مقام الوعد، فكل وفاء صدق ولا يكون كل صدق وفاء، ويمكن أن يقال إنّ النسبة عموم من وجه، إذ الصدق لا يكون إلاّ في القول؛ لأنّه من أنواع الخير، والخير قول، والوفاء قد يكون بالعمل، ومثلها النسبة بين الغدر والكذب، قال الشاعر:

غاض الوفاء وفاض الغدر واتسعت ... مسافة الخلف بين القول والعمل

[**الوفاء والصدق من جنود العقل**]:

إذا عرفت ذلك فأقول:

إنّ الوفاء والصدق لما كانا متشاركين في كونهما من جنود العقل، متلازمين غالباً، لا جرم شبهها بالتوأمين، قال عليه السلام: «إنّ الوفاء توأم الصدق»، وذلك أنّ التوأم الولد المقارن للولد في بطن واحد، فشبّه الوفاء به لتقارنه الصدق بحسب العقل وتصاحبه معه غالباً، «لا أعلم جُنّة أوقى

منه» أي أشد وقاية منه من عذاب الآخرة ومن عار الدنيا المترتبين على الغدر وخلف الوعد، مضافاً إلى ما فيه من الثمرات والمنافع الأخروية.

وأما الثمرات الدنيوية: فمنها اعتماد الناس على قول الوفي وثقتهم به وركونهم إليه، واستحقاق المدح والثناء عند الخالق والخلائق، ومن هنا قيل: الوفاء مليح والغدر قبيح.

ومن نظر بعين الاعتبار، وأبصر بنور الاستبصار، وأصاخ سمعاً على ما ورد من الأخبار عن السلف الأخيار، وجد آيات المحامد والثناء على من سلك سنن الوفاء، ورأى ذكرهم مخلداً في الأحياء بعد ركوبهم مطايا الفناء.

[وفاء السموءل] :

وحتّى الآن وقد مضت قرون وقرون يضرب المثل بوفاء السموأل فيقال أوفى من السموأل.

ومن وفائه الذي ضرب به المثل: أن امرء القيس بن الحجر لما أراد الخروج إلى أحد الملوك، استودع السموأل دروعاً، فلمّا مات امرء القيس، غزاه ملك من ملوك الشام، فتحرّز منه السموأل فأخذ الملك إبناً له كان مع ظِر خارجاً من الحصن، ثمّ صاح بالسموأل فأشرف عليه، قال له الملك: هذا ابنك في يدي وقد علمت أنّ امرء القيس ابن عمي وأنا أحق بميراثه، فإن دفعت إليّ الدروع وإلاّ ذبحت ابنك، فقال: أجلّني فأجلّه، فجمع أهل بيته ونساءه فشاورهم، فكل أشار عليه أن يدفع الدروع، فقال: ما كنت لأحقر أمانة فاصنع ما أنت صانع، إنّ الغدر طوق لا يبلى ولابني هذا أخوة، فذبح الملك ابنه وهو ينظر إليه، ورجع

(الملك) خائباً، فلما دخلت أيام الموسم وافى السموأل بالدروع الموسم فدفعها إلى ورثة امرء القيس. وقال في ذلك:

وفيتُ بأدرع الكندي إني ... إذا ما خان أقوام وَفيتُ
وقالوا عنده كنز رَغيبٌ ... فلا وأبيك أغدرُ ما مَشيتُ
بنى لي عادِياً حصناً حصيناً ... وبئراً كلما شئت استقيتُ

* * *

وقال الأعشى في ذلك:

كن كالسموءل إذ سار الهمامُ له ... وجحفل كسواد الليل جرّار
خَيرَه خطَتي خَسفٍ فقال له ... إذبح أسيرك إني مانع جاري

ووفاء السموأل هذا أقصى ما يتصور في الوفاء، لذلك ضرب به المثل، واستمرّ حتّى اليوم فيقال: أوفى من السموأل.

[قصة النعمان بن المنذر ووفاء الطائي]:

ومما جاء في الوفاء: أنّ النعمان بن المنذر ملك الحيرة، قد جعل له يومين: يوم بؤس من صادفه فيه قتله وأرداه، ويوم نعيم من لقي فيه أحسن إليه وأغناه، وكان رجل من طي قد خرج ليطلب الرزق لأولاده، فصادف النعمان في يوم بؤسه، فعلم الطائي أنه مقتول، فقال: حيا الله الملك إنّ لي صبية صغاراً، ولم يتفاوت الحال في قتلي بين أوّل النهار وآخره، فإن رأى الملك أن أوصل إليهم هذا القوت وأوصي بهم أهل المروّة من الحي، لئلا يهلكوا ضياعاً، وعليّ عهد الله إني إذا أوصيت بهم أرجع إلى الملك مساء وأسلّم نفسي بين يديه لنفاذ أمره، فلما سمع

النعمان صورة مقاله وفهم حقيقة حاله ورأى تلهفه من ضياع أطفاله رق له فقال: لا اذن لك إلاّ أن يضمنك رجل معنا، فإن لم ترجع قتلناه.

وكان شريك بن عدي نديم النعمان معه، فالتفت الطائي إلى شريك وقال له:

يا شريك بن عدي ... ما من الموت انهزامي
بل لأطفال ضعاف ... عدموا طعم الطعام
بين جوع وانتظار ... وافتقار وسقام
يا أخا كل كريم ... أنت من قوم كرام
يا أخا النعمان جد لي ... بضمان والتزام
ولك الله بأني ... راجع قبل الظلام

فقال شريك بن عدي: أصلح الله الملك عليَّ ضمانه، فمرّ الطائي مسرعاً والنعمان يقول لشريك: إنّ صدر النهار قد ولّى ولم يرجع، وشريك يقول: ليس للملك عليّ سبيل حتّى يأتي المساء، فلمّا قرب المساء قال النعمان لشريك: جاء وقتك فتأهب للقتل. فقال شريك: هذا شخص قد لاح مقبلاً وأرجو أن يكون الطائي، فإن لم يكن فأمر الملك ممتثل، فبينما هم كذلك إذا الطائي قد أقبل يشتد في عدوه مسرعاً، فقال: خشيت أن ينقضي النهار قبل وصولي فعدوت، ثمّ وقف قائماً وقال: أيها الملك مر بأمرك، فأطرق النعمان ثمّ رفع رأسه وقال: والله ما رأيت أعجب منكما: أما أنت يا طائي فما تركت لأحد في الوفاء مقاماً يقوم فيه ولا ذكراً يفخر به.

وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء، فلا

أكون أنا ألأمَ الثلاثة، ألا وإني قد رفعت يوم بؤسي عن الناس، ونقضت يوم عادتي كرامة لوفاء الطائي وكرم شريك فقال الطائي:

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي ... فعددت قولهم من الإضلال

إني امرؤ مني الوفاء خليقَةً ... وفعال كل مهذب مفضال

فقال له النعمان: ما حملك على الوفاء وفيه تلف نفسك؟ قال: ديني، فمن لا دين له لا وفاء له. فأحسن إليه النعمان ووصله بما أغناه وأعاده إلى أهله.

* * *

أقول: هذا السموأل كان يهودياً، وهو مع ذلك كان أميناً وفياً غير غادر كما سمعت من خبره، وكونه استأثر قتل ولده لأجل الوفاء بعهده وإيصال الحق لأهله.

ونرى في زماننا هذا من أهله الغدر وعدم الوفاء، وقتل بعضهم بعضاً، وحسدهم، وبغض كل منهم لآخر، وحرصهم على هذه الجيفة، ما لو ذكرت معشار عشره لطال المقال وحصل الملال، ونرجو من البارئ اصلاح الأحوال إنّه هو الكريم المتعال.

* * *

[قصة برون الكبير في الوفاء]:

ومما جاء في الوفاء ما ذكره البيهقي في (المحاسن والمساوئ):

قال: كان دَسيسُ المأمون برون الكبير، قال: وجّه إليَّ المأمون وقد مضى من الليل الثلث، فقال لي: يا برون قد أكثر علينا أصحاب الأخبار

في أنّ شيخاً يرد خرابات البرامكة فيبكيهم ويندبهم وينشد أبياتاً من الشعر، فاركب أنت وعليّ بن محمّد ودينار بن عبد الله حتّى تردوا هذه الخرابات فتصيروا من وراء جدرانها، فإذا رأيتم الشيخ قد ورد وبكى وأنشد فأتوني به، قال برون: فركبت مع القوم حتّى وردنا الخرابات، وإذا الخادم قد أتى ومعه زِلية رومية وكرسي جديد، وإذا بشيخ وسيم جميل له صلعة وهامة، فجلس يبكي ويقول:

ولما رأيت السيف قد قدّ جعفراً ... ونادى مناد للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وأيقنت أنّه ... قُصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا
أجعفر إن تهلك فربّ عظيمة ... كشفتَ ونُعمى قد وصلتَ بها نُعمى
فقل للذي أبدى ليحيى وجعفر ... شماتتهُ أبشر لتأتيهم العُقبى
لئن زال غُصنُ الملك عن آل برمكٍ ... فما زال حتّى أثمر الغُصنُ واستعلى
وما الدهر إلاّ دولةٌ بعد دولةٍ ... تُبدّلُ ذا مُلك وتُعقِبُ ذا بلوى
على أنها ليست تدوم لأهلها ... ولو أنها دامت لكنتم بها أولى
بني برمك كنتم نجوماً مضيئة ... بها يهتدي في ظلمة الليل من أسرى
لأيكم أبكي أللفضل ذي الندى ... أم الشيخ موسى أم لمحبوسه يحيى
أم الملك المصلوب من بعد عزّةٍ ... أم أبكي بكاء المعولات أم الثكلى
لِكُلِكُمُ أبكي بعين غزيرة ... وقلب قريح لا يموت ولا يحيى

قال: فتراءينا له ثم قبضنا عليه، فجزع وفزع، وقال: من القوم؟ فقال برون: أنا حاجب أمير المؤمنين، وهذا فلان وفلان، قال: وما الذي تريدون؟ قال برون: فأعلمته ما أمر أمير المؤمنين من أخذه إلى مجلسه،

قال: ذروني أوصي فإني لا آمنه، ثمّ تقدم إلى بعض العلافين في فرضة الفيل، فأخذ بياضاً وأوصى فيه وصية خفيفة ودفعها إلى الغلام، وسرنا به، فلما مثل بين يدي المأمون زَبَره وقال: من أنت وبماذا استوجب البرامكة ما تفعله في دورهم؟ قال: يا أمير المؤمنين للبرامكة عندي أيادٍ خضِرة أفتأذن لي أن أحَدثك بها، فقال: سديداً، قال: أنا يا أمير المؤمنين المنذر بن المغيرة من أهل دمشق، كنت بها من أولاد الملوك فزالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال، فلما ركبتني الديون واحتجتُ إلى بيع مسقط رأسي ورؤوس آبائي، أشاروا عليَّ بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعي نيفٌ وثلاثون امرأة وصبياً وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يرهن، حتّى دخلت بغداد ونزلنا بباب الشام في بعض المساجد، ودعوت بثوبيات لي قد كنت أعددتها لأستميح بها الناس وتركتهم جياعاً، وركبت شوارع بغداد، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ قد طبّقوا طيالستهم بأحسن زي وزينة وبزّة، وإذا خادمان على باب المسجد، فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدّم وأؤخر والعرق يسيل مني؛ لأنها لم تكن صناعتي، فأنا لكذلك وإذا أنا بخادم قد أقبل وقال للخادمَين أزعجا القوم فأزعجوا القوم وأنا منهم، فأدخلونا دار يحيى بن خالد ودخلت معهم، فإذا بيحيى جالساً على دكّة له وسط بستان فسلّمنا وهو يعدُّنا مائة رجل وواحداً، وبين يدي يحيى عشرة من ولده، وإذا غلام أمرد حين عذّر خدّاه قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم متنطقون، في وسط كل خادم منطقة ألف مثقال، مع كل خادم مجمرة من ذهب ورجل من ذهب في كل مجمرة

قطعة من العود كهَيأة الفِهر قد ضُمّ إليه مثله من العنبر السلطاني فوضعوه بين يدي الغلام، وجلس الغلام إلى جنب يحيى، ثمّ قال يحيى للزبرقي القاضي: تكلم فقد زوجت ابنتي عائشة من ابن عمي هذا من بيت نار النوبهار، فخطب القاضي، وشهد القاضي والنفر وأقبلوا علينا بالنثار بنادق المسك والعنبر، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كُميّ، ونظرت وإذا يحيى في الدكة ما بين المشايخ، ويحيى وولده والغلام ونحن مائة رجل واثنا عشر رجلاً، فخرج إلينا مائة خادم واثنا عشر خادماً مع كل خادم صينية فضة عليها ألف دينار شامية، فوضع بين يدي كل رجل منا صينية، فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم، ويقوم الأوّل فالأوّل حتّى بقيت وحدي بين يدي يحيى لا أجسر على الصينية، فغمزني الخادم فجسرت عليها وجعلتها في كميّ وأخذت الصنينة وقمت وأنا أمرّ طول الصحن والتفت ورائي هل يتبعني أحد، فإني لكذلك أطاول الإلتفات ويحيى يلحظني، فقال للخادم ائتني بالرجل، فرُددت إليه فأمر فسُلبت الدنانير والصينية، ثمّ أمرني بالجلوس فجلست، فقال: ممن الرجل؟ فقصصت عليه قصّتي، فقال: عليّ بموسى، فأتي به، فقال: يا بني هذا رجل غريب فخذه إليك أخلطه بنفسك ونعمتك، فقبض علي موسى وأخذني إلى بعض دوره، فَقَصف عليّ يومي وليلتي فلما أصبح دعا بأخيه العبّاس وقال له: إنّ الوزير أمرني بالقصف على هذا الفتى، وقد علمتَ تشاغلي في دار أمير المؤمنين، فاقبض عليه وقاصفه، فلما كان من غد تسلّمني أحمد، ثمّ لم أزل وأيدي القوم تتداولني عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني في الأموات هم

أم في الأحياء، فلما كان في اليوم العاشر دُفعت في يدي الفضل فقصف عليَّ، فلما كان في الحادي عشر جاءني خادم معه عشرة من الخدم، فقالوا: قم عافاك الله فاخرج إلى عيالك بسلام، فقلت: وا ويلاه سلبت الدنانير والصينية وقد تمزّقت ثيابي واتسخت وأخرج على هذه الحالة إنا لله وإنا إليه راجعون، فرفع الستر الأوّل والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس، فقبل أن رفع السابع قال لي الخادم: تمنّ ما شئت، ورفع لي ستر عن حجرة كالشمس استقبلني منها رائحة العود والنَدّ ونفحات المسك، وإذا أنا بصبياني يتقلبون في الحرير والديباج وأنا قد حُمل إلي ألف ألف درهم مبدّرة وعشرة آلاف دينار وقَبالّتين بضيعتين، وتلك الصينية مع الدنانير والبنادق، فبقيت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم من بيت نار النوبهار أم رجل غريب اصطنعوني.

فلما جاء القومَ البلية ونزلت من الرشيد النازلة قصدني عمرو بن مسعدة الزمني من الخراج في هاتين الضيعتين ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل عليَّ الدهر كنت أنظر إلى خرابات القوم فأندبهم.

فقال المأمون: عليَّ بعمرو بن مسعدة، فلما أُتي به قال له: يا عمرو أتعرف الرجل؟ قال: نعم هو من بعض صنائع البرامكة، قال: كم ألزمته في ضيعته؟ قال: كذا وكذا، قال: ردّ عليه كل ما استأدَيته إياه في سنيه وأوغر ضيعتيه يكونان له ولعقبه من بعده، فعلا نحيب الرجل بالبكاء يرثي البرامكة، فلما طال بكاؤه قال له المأمون: فممّ بكاؤك وقد أحسنا إليك؟ قال: يا أمير المؤمنين هذا أيضاً من صنائع البرامكة، أرأيتك يا أمير المؤمنين لو لم آت خرابات القوم فأبكيهم وأندبهم حتّى أتصل خبري

بأمير المؤمنين ففعل بي ما فعل من أني كنتُ أصل إلى ما وصلتُ إليه. قال إبراهيم بن ميمون: فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عينه واشتد حزنه على القوم وقال: صدقت لعمري هذه أيضاً من صنائعهم فعليهم فابكِ وإيّاهم فاشكر.

وأرجح دليل يتمسك به الإنسان لمبتغاه، وأوضح سبيل يهدي سالكه إلى بلوغ مناه، كتاب الله الذي من تمسك به هداه، ومن استدلّ به أرشده إلى هداه.

وقد دلّ بمنطوقه أنّ الوفاء يجب على كل عاقل أن يرعاه، ويحرم عليه أن يخون عهده وينقض عراه، فقال عزّ وجلّ:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[1] وقال تقدس اسمه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً﴾[3].

فهذه الآيات مع اختلاف محالها وتعدد أسباب نزولها، متفقة على وجوب الوفاء بالعهود، والتمسك بحبالها، وتجنّب نقضها.

ولو لم يكن في الوفاء فضيلة إلاّ أنّ المتصف به يعدّ في زمرة الصادقين، وينزّه نفسه عن التحلّي بسمة المنافقين لكفى، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما سئل عن صفات المنافق، قال: «إذا عاهد غدر» فالوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة، والخلق الحميدة، يعظم صاحبه في العيون ويحلّ بين الناس في رتب الكرامة.

(١) المائدة: ١.

(٢) النحل: ٩١.

(٣) الإسراء: ٣٤.

[قصة العبّاس صاحب شرط المأمون]:

إستبصار فيه من حسن الوفاء ما يروق الأسماع ويحرّك الطباع، وذلك أنّ العبّاس صاحب شرطة المأمون قال: دخلت يوماً مجلس المأمون ببغداد، وإذا بين يديه رجل مكبّل بالحديد، فقال لي: يا عبّاس خذ هذا إليك واستوثق به واحفظه ولا يفتك وبكّر به إليّ، واحذر عليه كل الحذر.

قال العبّاس: فدعوت جماعة حملوه ولم يقدر أن يتحرّك، فتركته في مجلس أنا فيه، لما رأيت من تغليظ الوصية، فلما خلوت به سألته عن قصّته ومن أين هو؟ فقال: من دمشق، فقلت: جزى الله دمشق وأهلها خيراً، فمن أنت من أهلها؟ فقال: لا ينبغي أن تسألني، فقلت له: أتعرف فلاناً؟ فقال: ومن أين تعرف ذلك الرجل؟ فقلت: كانت لي معه قصّة، فقال: ما أنا ممن يعرّفك خبره حتّى تعرّفني قصّتك معه، فقلت:

كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبغى أهلها علينا، وخرجوا عن الطاعة، فهرب الوالي وهربت مع جملة أصحابه، فمررت بهذا الرجل وهو جالس على باب داره، وجماعة يعدون خلفي، فقلت له: أغثني أغاثك الله، فقال: ادخل الدار فدخلت، فقالت امرأته: ادخل الحجلة فدخلتها، فدخل القوم يفتّشون الدار حتّى جاؤا الحجلة فصاحت عليهم المرأة ونهرتهم، فلم ألبث أن جاء الرجل فقال: لا تخف وقد صرف الله شرّهم، ثمّ ما زال يعاشرني أحسن معاشرة ويطعمني معه، وأفرد لي مكاناً من داره، ولم يحوجني إلى شيء ولم يفتر عن تفقّد حالي.

فدمت عنده أربعة أشهر في أتمّ عيش لا أظهر إلى أن سكنت الفتنة، فقلت له: أتأذن لي في الخروج حتّى أتعرّف حال غلماني فعليّ أن أقف منهم

على خبر؟ فحلّفني لأرجعنّ إليه، فخرجت فلم أجدهم، فعرّفته وقلت له: أريد الشخوص إلى بغداد فإنّ القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج، وقد تفضّلت ولك عليّ عهد الله أن لا أنسى هذه اليد عليّ ولأكافينّك بها ما استطعت، وأسألك تتميمه بنفقة وكسوة إلى بغداد، فقال: خيراً، ثمّ قال لغلام له أسود: أنعل الفرس الفلاني، وتقدّم إليّ من في داره بإعداد الفرس، فقلت: لعله يريد ناحية من النواحي، فمكثوا يومهم إلى الغد في كدّ وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جاءني في السحر وقال: يا فلان! قم فإنّ القافلة تخرج الساعة، وأكرم انفِرادك عنها، فقلت في نفسي: كأنه ما وثق بي فلم يعطني شيئاً، ثمّ قمت فإذا هو وامرأته يحملان لي خفّين جديدين ورايات معمولة، وآلة السفر، ثمّ جاءني بسيف ومنطقة فشدّدها في وسطي، ثمّ قدّم بغلاً وحمل عليه صندوقين وفوقهما مفرش ودفع إليّ نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم، وقدّم إليّ الفرس الذي أنعله والغلام الأسود، وأقبل هو وامرأته يعتذران من التقصير في أمري، وأنا أتوقّع خبره لأكافيه ولم يقدّر لي ذلك لكثرة شغلي بالخليفة وبالتنقّل معه.

فلما سمع كلامي قال: قد أمكنك الله من مجازاته بلا كلفة، فقلت: كيف؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنّما غيّر حالي الذي تعرفه ما أصابني من المحنة، ولم يزل يذكر تفاصيل الأسباب حتّى تيقّنت معرفته، فلم أتمالك أن قبّلت رأسه، ثمّ قلت: فما الذي صيّرك إلى ما أرى؟ فقالت: هاجت بدمشق فتنة مثل تلك الفتنة، فنسبت إليّ، وبعث الخليفة بجيوش أصلحت البلد، فأخذت وضُربت إلى أن أشرفت على الموت، وبُعث بي إلى الخليفة وأمري عنده غليظ وهو قاتلي لا محالة، وقد أخرجت من أهلي بلا وصية، وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافاتك لي أن تبعث من

يحضره حتّى أوصيه بما أريده وأتقدّم إليه بما يكون وصية مني لأهلي، فإن فعلت ذلك فقد جاوزت حدّ المكافاة.

فقال العبّاس: يصنع الله خيراً، ثمّ أحضر حدّاداً فحلّ قيوده وأنكاله وأدخله الحمّام في داره وخلع عليه، وأحضر غلامه فلما رآه بكى وجعل يوصيه، ثمّ استدعى العبّاس نائبه وقال: عليَّ بالفرس الفلاني والبغلة الفلانية حتّى عدّ عشرة، ثمّ من الصناديق والكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا وعشرة آلاف دينار وخمسة آلاف درهم، ثمّ قال لنائبه في الشرطة: خذ هذا واعبر به في حدّ الأنبار.

فقال الرجل: أمري عظيم عند الخليفة وإن احججت بأني هربت بعث في طلبي كل من على بابه فأرادوا قتلي.

فقال: انج بنفسك ودعني أدبّر أمري.

فقلت: والله لا أبرح من بغداد حتّى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت، فقال لصاحبه: إن يكون الأمر كذا فليكن في موضع كذا فإن أنا سلمت إلى غداة غدٍ فأعلمه، وإن أنا قتلت كنت وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه، وأنشدك الله لا تذهب من ماله ما قيمته درهم، وتجتهد في إخراجه من بغداد، قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة وصيّرني في مكان أثق به.

وتفرّغ العبّاس لنفسه فاغتسل وتحنّط وتكفّن.

قال العبّاس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلاّ ورسول الخليفة يقول: هات الرجل، فقمت إليه، فقال: أين الرجل؟ فسكت، فقال: ويحك، الرجل؟ فقلت: لا والله ما هرب ولكن اسمع مني حديثه وقصصت عليه القصّة، وعرّفته أين أريد مكافاته، وقلت: أنا ومولاي أمير المؤمنين بين

أمرين: إمّا أن يصفح عني فأكون قد وفيت وكافيت ووقيته بنفسي كما وقاني بنفسه، وإمّا أن يقتلني وقد تحنطت وهذا كفني.

فلما سمع المأمون كلامي قال: لا جزاك الله خيراً، إنه أحسن إليك بلا معرفة وتكافيه بعد المعرفة بهذا لا غير، هلاّ كنت عرفتنا خبره فكنا نكافيه عنك، ولا نقصّر في وفائك له، فقلت: يا أمير المؤمنين! إنه ههنا وقد حلف أن لا يبرح حتّى يعرف بسلامتي، فإن احتيج إليه حضر.

فقال المأمون: هذه منّة أعظم من الأولى، اذهب إليه وطيّب نفسه وأت به إليّ لأتولّى مكافاته عنك، فصرت إليه وخبّرته بذلك، فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السرّاء والضرّاء سواه، ثمّ قام وصلّى ركعتين ثمّ ركب، فلّما مثل بين يدي المأمون أقبل عليه وأدناه من مجلسه وحدّثه حتّى حضر الغداء، فأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فأبى، فأمر له المأمون بعشرة أفراس مكمّلة وعشرة بغال بآلاتها وعشر بدَر وعشرة تخوت وعشرة مماليك بدوابهم، ووصّى به عامل دمشق وأطلق خراجه وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق، فكانت كتبه تصل إلى المأمون فيقول: يا عبّاس هذا كتاب صديقك.

[جعفر بن يحيى البرمكي والغلام الرومي] :

وحكي أن جعفر بن يحيى ابتاع غلاماً روميّاً، فاستخفّ خدمته وتأمّله فرأى فيه فضائل أعجبته، فخلا به يوماً فسأله عن كورته من الروم، وعن اسم أبيه وأمّه وما كان من قصتهم، فأخبره الغلام أنّ أمّه أخبرته أنها كانت للملك، فوهبها لبعض بطارقته، فلمّا همّ أن يواقعها أعلمته أنها حامل من الملك، فرفع إلى الملك ذلك، فقال له: ويحك إنّ ردّها عليّ

لهيّن لولا ما قالته الناس إنّ هذا الولد عنك، ولأن يكون عبدك منسوباً إليَّ أحب من أن يكون عبدي منسوباً إليك.

فوقف جعفر على صحة خبره وتوسّم فيه فراسة الملوك، فاتخذ له مؤدبين، فبرع حتّى جعله جعفر على خاصة أموره، وجعله أقرب الخلق من خدمته، فلم يزل عنده بهذا الرسم إلى أن حلَّ بهم ما حلّ.

وقد بلغ الرشيد خبر هذا الغلام ودعا به ورضيه واصطفاه لنفسه ووعده أن يجعله نديماً بدلاً من جعفر، وتمكّن منه الغلام تمكناً شديداً.

وبينا الغلام ذات يوم يسير في موكبه إذ بصر من بعيد بابن الفضل يحيى وعليه قميص ورداء خلقين ونعل رقيقة، فلما عاينه ابن الفضل حاد عن الطريق ليدخل سكّة ليتوارى فيها إلى أن يجوز الغلام، ورآه الغلام على تلك الحال متحيّراً، وفهم أمره، فرمى بنفسه عن دابته وعدا مسرعاً إليه وانكبّ عليه يقبّله ويقبّل رأسه وحمله بيده على دابته التي كان عليها، وأمر غلاماً من غلمائه أن يعدو خلفه فلا يرتجع الدابة ففعل ورجع إليه فأخبره أنه وجده في حجرة ضيّقه مع والدة له، وهما في خلّة وضرّ شديد وسوء حال، فبكى بكاءاً شديداً وأمر بحمل مال إليه مع ذلك الغلام.

فبلغ الخبر الرشيد فدعا الغلام وهو مغضب فقال: نزلت عن دابتك لبعض ولد أعدائي، وفعلت كيت وكيت؟ فقال: يا أمير المؤمنين أينفعني الصدق؟ قال: بلى، قال: فأقول؟ قال: قل ما شئت، قال: قد علم أمير المؤمنين بأنّ جعفر ملكني وأنا عبد جليب لا قدر لي إلاّ لمثلي من العبيد، وكان من نعمه عليَّ أن صيّرني من الفهم والمعرفة والآداب بحالة بلغت بها خدمتك وأحرزت جميل رأيك، فلا تلومني على الوفاء لرجل قد أحلّني هذا المحل منك أن أنزل له عن بعض دوّاب هو مخوّلنيها.

فقال له الرشيد: كلاّ، واغرورقت عيناه ثمّ قال: والله لولا أنّا جاوزنا الحد في عقاب هؤلاء القوم لرجعنا لهم إلى ما يحبيهم الله به، فسمّ لي من بقي منهم، فسمّى له، فأمر بحمل مال عظيم إلى كل واحد منهم ما بين العشرة آلاف إلى مائتي ألف، وقال له: أبلغ هؤلاء القوم أنهم آمنون على أنفسهم وإشعارهم وإبشارهم، فينتشروا في أرض الله ويسألوا من فضله...

وبلغ الرشيد أن يحيى بن معاذ وجه إلى منزل يحيى بن خالد بمال سراً وأنه كان يتعهد أمور منزله بعد النكبة، ويبعث إلى عياله بما احتاجوا إليه من الدقيق والنفقة والكسوة، فبعث إليه فأتاه فقال: يا يحيى كيف أنا لك؟ قال: كالماء البارد العذب للظمأن الموروود، وكالوالد المحدب على الولد المطيع، قال: فو الله ما شكرت ما أبديت على لسانك، قال: وما ذاك يا سيدي؟ قال: لِمَ وجهت إلى آل برمك بأموال ينفقونها وكسوة يتجمّلون بها، وقد قلّمت أظفارهم وحذفت أصولهم وأعريت جلودهم؟

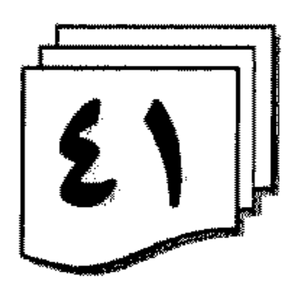
فقال: يا أمير المؤمنين إنّ هؤلاء قوم كانوا إليَّ محسنين ولي بارين ولي مكرمين، وإنما أعدّوني ليوم حاجتهم، فأحببت أن أشكر كثير ما كان منهم بقليل ما كان عندي، فوجّهت إلى عيالاتهم بثمن الدقيق وما أشبهه مما لو عدموا ماتوا، فقال: وكيف؟ شكرتُهم يا أمير المؤمنين وما من منزلي علق ولا دابة لا مملوك إلاّ وهم أوّله وهو لهم دوني، وحتّى والله إن إسحاق ابني من جارية أهداها إليَّ الفضل، وإنّ دابتي التي هي بباب أمير المؤمنين الساعة لمن دوّاب الفضل، والله يا أمير المؤمنين! لقد بلغ خوفك وإيثار طاعتك أني لم أوجّه إلى أحد من رجالهم بالسلاح، ولا بعرض حاجة ولا بغيرها، وما عدوت ببرّي إيّاهم نساءهم وأطفالهم ومن لا ذنب له ولا حجة عليه، رأيي والله يا أمير المؤمنين من الوفاء لعهدهم على هذا بحيث ما من شيء أصبحت أملكه إلاّ وبودّي أوثرهم به، وما

لا أفعله من ذلك لغضب أمير المؤمنين إيثار الغدر على الوفاء والفعل الخسيس على الفعل الجميل.

فقال الرشيد: جزاك الله عن الوفاء خيراً فقد فعلت ما سررتني به وما كنت أولى به، فكم صار إليهم من مالك في هذه المدّة؟ فقال: والله ما أحصيت ذلك، وما القوم عندي ممن أوجب الإحصاء عليهم وإنّ أكثر ما وجّهت إليهم لأموال استقلتها من التجار.

فقال الرشيد: هذا أعجب أمر بك، أحسن الله إليك وأمتع أمير المؤمنين بك.

* * *



قوله عليه السلام:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنَطُ وَمَعَهُ الاسْتِغْفَارُ.

(نهج البلاغة ٤: ١٩)

[أهمية الاستغفار في المنظار الإسلامي]

قال ابن أبي الحديد:

قالوا: الإستغفار حوارس الذنوب. وقال بعضهم: العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحهما إلاّ الشكر والإستغفار. وقال الربيع بن خيثم: لا يقولنّ أحدكم: أستغفر الله وأتوب إليه، فيكون ذنباً وكذباً إن لم يفعل، ولكن ليقل اللهم اغفر لي وتب عليَّ. وقال الفضيل: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين. وقيل: من قدّم الإستغفار على الندم كان مستهزئاً بالله وهو لا يعلم.(1)

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

القنوط اليأس من الرحمة، ولما كان الإستغفار بإخلاص مبدءاً للرحمة بشهادة القرآن الكريم، كان القنوط معه محلّ التعجّب، وحكى عنه أبو جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام أنه صلى الله عليه وآله قال: «كان في الأرض أمانان من عذاب الله تعالى، فرُفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسّكوا به، أمّا الأمان الذي رُفع فهو رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمّا الأمان الباقي فالإستغفار» قال جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.(2)

---

(1) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٣٩.

(2) الأنفال: ٣٣.

قال السيد: وهذا من محاسن الاستخراج ولطائف الإستنباط، كون وجود الرسول ﷺ بين الأمّة ورجوعه إلى الله في رحمة أمّته، وكون الإستغفار بإخلاص معدّين لنزول رحمة الله ورفع عذابه مما يشهد به البحث العقلي، وقد أكّد ذلك بصادق الشاهد السمعي كما استخرجه عليه السلام».(١)

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

المراد بالقنوط هنا اليأس من عفو الله ورحمته، وبالاستغفار التوبة، ويشير الإمام عليه السلام بهذا إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣).(٢)

* * *

وقال صاحب (منهاج البراعة):(٣)

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

والقنوط هو قطع الرجاء عن الله واليأس عن رحمته، وقد عدّ من الكبائر الموبقة؛ لأنه إذا وصل بؤس الإنسان إلى اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى فقد انسدّ عليه باب العمل والرجوع إلى الحق، واستسلم نفسه للشيطان ووقع في الهلاك والخسران.

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٥٢٣.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٦٧.

(٣) ج ٢١: ١٣٢.

[من سمات المؤمن عدم القنوط]:

أقول: جاء في كتاب روح الدين الإسلامي (ص ١٣٧):

المؤمن المراقب لله في كافة أعماله تقلّ أخطاؤه لا محالة، وقد تزلّ قدمه فيأتي بعمل لا ينبغي صدوره عنه، فيذكر الله فيرى مبلغ خطيئته فيقلع عنها وهو بادي الألم عميق الحسرة.

فالمؤمن قد يخطئ، وإن الله لم يكلّف أحداً بالعصمة، إنما كلف المؤمن إذا أخطأ أن يثوب إلى رشده، وإذا زلقت قدمه فكبا أن ينهض من كبوته، وأن يزيح ما علق به من إثم، ثمّ يستأنف طريقه إلى غايته المنشودة، لهذا يلتمس الله للمخطئ عذراً على خطيئته ويحرضه على طلب المغفرة المؤدي إلى لون من محاسبة النفس ومراقبة الله التي تحيي موات الضمير في الإنسان.

وكفارة الخطيئة في الإسلام لا تحتاج إلى اعتراف لرجال الدين، ولا تبقى معلقة على رأس الفرد لا مخلص منها ولا فرار.

فباستطاعة أيّ إنسان في نظر الإسلام أن يتوجه إلى ربه مباشرة نادماً طالباً المغفرة ليفتح الله بابه ويمنحه رحمته وعفوه.

قال الله سبحانه تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (النساء: ١٠٦).

ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (النساء: ١١٠).

ويذكر الله صفات المؤمنين الذين يستحقون مغفرته بقوله:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (آل عمران: ١٣٥ و١٣٦).

ويعمّم الله المغفرة والقبول في رحمته لكل من تاب وأناب إليه مهما سلف منه من الآثام بقوله:

﴿قُلْ يا عِبادِيَ الذينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُنُوبَ جَمِيعاً إِنَهُ هُوَ الغفورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣).

والإسلام يجعل فرصة التطهّر والتخلّص من الآثام ممزوجة بالتزود من الخير، فيجعل عمل الخير تكفيراً للإثم، وفي ذلك ما فيه من التحريض على الدنو من عمل الخير، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الحَسَناتِ يُذهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾ (هود: ١١٤).

ويقول الله تعالى عن فريق من عباده الناجين بمشيئته: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٢).

ويقول الرسول ﷺ بهذا المعنى: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها».

والقرآن يجعل الاستغفار من الذنب والاقلاع عنه وسيلة لنيل رحمة الله، ونيل الخيرات والعطايا في الحياة الدنيا، قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَ ذِي فَضلٍ فَضلَهُ﴾ (هود: ٣).

ويقول سبحانه فيما جاء علي لسان نبيّه هود: ﴿وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ﴾ (هود: ٥٢).

ويقول سبحانه فيما جاء على لسان نبيه نوح: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفاراً * يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنهَاراً﴾ (نوح: ١٠ ـ ١٢).

ويخاطب الله نبيّه محمّد ﷺ بقوله: ﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٣).

كان بعض صحابة الرسول ﷺ يقول بعد وفاته ﷺ: كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا، وبقي الإستغفار معنا فإن ذهب هلكنا.

* * *

[الاستغفار في المفهوم القرآني والروائي والأثر]:

ومما جاء في (المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء) المجلد الثاني (ص ٣١٤):

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ١٣٥).

قال علقمة بن الأسود: قال عبد الله بن مسعود: في كتاب الله جلّ وعزّ آيتان ما أذنب عبد ذنباً فقرأهما فاستغفر الله إلاّ غفر الله له، قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (النساء: ١١٠).

وقال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾.[1] وقال سبحانه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ (النصر: ٤).

وكان ﷺ يكثر أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي إنّك أنت التوّاب الرحيم».

وقال ﷺ: «من أكثر الإستغفار جعل الله له من كل همّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب».

وقال ﷺ: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرّة» هذا مع أنه قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر.

---

(١) آل عمران: ١٧.

وقال ﷺ: «إنّه لَيُغان على قلبي، وإنّي لأستغفر الله كل يوم مائة مرّة».

وقال ﷺ: «من قال حين يأوي إلى فراشه: استغفر الله الذي لا إله إلاّ هو الحي القيوم ثلاث مرّات غفر الله ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر، أو عدد رمل عالج، أو عدد ورد الشجر، أو عدد أيام الدنيا».

وفي حديث آخر: «من قال ذلك غفرت ذنوبه، وإن كان فاراً من الزحف».

وقال حذيفة ﷺ: كنت ذرب اللّسان على أهلي، فقلت: يا رسول الله لقد خشيت أن يدخلني لساني النار، فقال ﷺ: «فأين أنت من الاستغفار في اليوم مائة مرّة».

وقالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: «إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله، فإنّ التوبة من الذنب الندم والإستغفار».

وروت أنه ﷺ قال: «اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤوا استغفروا».

وقال ﷺ: «إذا أذنب العبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي، فيقول الله تعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أنّ له ربّاً يأخذ بالذنب ويغفر الذنب، عبدي اعمل ما شئت فقد غفرت لك».

وقال ﷺ: «ما أصرّ من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرّة».

وقال ﷺ: «إنّ رجلاً ممن كان قبلكم لم يعمل قطّ خيراً، نظر إلى السماء فقال: إنّ لي ربأ، يا ربّ اغفر لي، فقال الله سبحانه: قد غفرت لك».

وقال ﷺ: «من أذنب ذنباً فعلم أن الله قد اطلع عليه غفر له وإن لم يستغفره».

وقال ﷺ: «يقول الله تعالى: يا عبادي كلّكم مذنب إلاّ من عافيته،

فاستغفروني أغفر لكم، ومن علم أني ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي».

وقال صلى الله عليه وآله: «من قال: سبحانك ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت، غفرت ذنوبه ولو كان كمُدبِّ النمل».

* * *

أقول: ومن طريق الخاصّة ما رواه السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خير الدعاء الإستغفار».

وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ للقلوب صداءاً كصداء النحاس فاجلوها بالإستغفار».

وروى عبيد بن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا أكثر العبد من الإستغفار رفعت صحيفته وهي تتلألأ».

وروى ياسر عن الرضا عليه السلام قال: «مثل الإستغفار مثل ورق على شجرة تحرّك فيتناثر، والمستغفر من ذنب فيفعله كالمستهزيء بربّه».

وقال عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يقوم من مجلس وإن خفّ حتّى يستغفر الله خمساً وعشرين مرّة».

وعنه عليه السلام قال: «كان صلى الله عليه وآله يستغفر غداة كل يوم سبعين مرة، ويتوب إلى الله سبعين مرّة»، قال: قلت: وكيف كان يقول؟ قال: «كان يقول: أستغفر الله، أستغفر الله ـ سبعين مرّة ـ، ويقول: أتوب إلى الله، أتوب إلى الله ـ سبعين مرة ـ».

وعنه عليه السلام: «الإستغفار وقول: (لا إله إلاّ الله) خير العبادة، قال الله العزيز الجبّار: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾[1]».

---

(١) محمّد: ١٩.

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قال بعد العصر في كل يوم مرّة واحدة: أستغفر الله الذي لا إله إلاّ هو الحي القيوم، ذا الجلال والإكرام، وأسأله أن يتوب عليَّ توبة عبد ذليل خاضع فقير بائس مسكين مستجير، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا حياة ولا موتاً ولا نشوراً، أمر الله الملكين بتخريق صحيفة السيئات كائناً ما كانت».

وعنهم عليهم السلام: «ألا صلوات الله على المتسحّرين والمستغفرين بالأسحار».

رواها كلها في (عدّة الداعي)،[1] وأكثرها مروي في (الكافي).[2]

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «العجب ممن يهلك ومعه النجاة»، قيل: وما هو؟ قال: «الإستغفار».

وكان يقول: «ما ألهم الله عبداً الإستغفار وهو يريد أن يعذّبه» رواه أبو حامد في الآثار.

الآثار: قال خالد بن معدان قال الله تعالى: «إنّ أحبّ عبادي إليَّ المتحابون بحبّي، والمعلّقة قلوبهم بالمساجد، والمستغفرون بالأسحار، أولئك الذين إذا أردت أهل الأرض بعقوبة ذكرتهم فتركتهم وصرفت العقوبة عنهم».

وقال قتادة: القرآن يدّلكم على دائكم ودوائكم، فأمّا داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالإستغفار.

وقال الفضيل: قول العبد: أستغفر الله، تفسيرها أقلني.

وقال بعض العلماء: العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحهما إلاّ الحمد والاستغفار.

---

(١) أنظر: عدة الداعي: ٢٤٩.

(٢) أنظر: الكافي ٢: ٥٠٤/ باب الإستغفار.

وقال الربيع بن خيثم: لا يقولنّ أحدكم: أستغفر الله وأتوب إليه فيكون ذنباً وكذبة إن لم يفعل، ولكن ليقل: اللهم اغفر لي وتب عليّ.

وقال الفضيل: استغفار بلا إقلاع توبة الكذّابين.

وقالت رابعة العدوية: إستغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير.

وقال بعض الحكماء: من قدّم الإستغفار على الندم كان مستهزئاً على الله وهو لا يعلم.

وسمع أعرابيّ وهو متعلق بأستار الكعبة يقول: اللهم إنّ إستغفاري مع إصراري للؤم، وإنّ تركي إستغفارك مع علمي بسعة عفوك لعجز، فكم تتحبّب عليّ بالنعم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا من إذا وعد وفا وإذا توعّد عفا أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين.

وقال أبو عبد الله الورّاق: لو كان عليك مثل عدد القطر وزبد البحر ذنوب لمحيُتَ عنك إذا دعوت ربّك بهذا الدعاء مخلصاً إن شاء الله تعالى: اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثمّ عدُت فيه، واستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسي ثمّ لم أفِ لك به، وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علي فاستعنت بها على معصيتك، وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيته في ضياء النهار وسواد الليل في ملاء وخلاء وسرّ وعلانية يا حليم. ويقال: إنه استغفار آدم عليه السلام، وقيل: استغفار الخضرً عليه السلام.

وفي كتاب (المستطرف) زيادة على هذا وهي: يقول الله عز وجل لملائكته: ويح ابن آدم يذنب الذنب ثمّ يستغفرني فأغفر له، ثمّ يذنب

الذنب فيستغفرني فأغفر له، لا هو يترك الذنب من مخافتي ولا ييأس من مغفرتي، أشهدكم يا ملائكتي إني قد غفرت له.

وفي (المستطرف) أيضاً قال بشر الحافي: بلغني أنّ العبد إذا عمل الخطيئة أوحى الله تعالى إلى الملائكة الموكلين (به) ترفقوا عليه سبع ساعات، فإن استغفرني فلا تكتبوها، وإن لم يستغفرني فاكتبوها.

نكتة: [قصة استسقاء موسى عليه السلام]:

قيل: انقطع الغيث عن بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام حتّى احترق النبات وهلك الحيوان، فخرج موسى عليه السلام في بني إسرائيل وكانوا سبعين رجلاً من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله تعالى، قد بسطوا أيدي صدقهم وخضوعهم، وقرّبوا قربان تذللهم وخشوعهم ودموعهم تجري على خدودهم ثلاثة أيام فلم تُمطَر لهم، فقال موسى عليه السلام: «اللهم أنت القائل: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وقد دعوتك وعبادك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل»، فأوحى الله تعالى إليه: «يا موسى إنّ فيهم من غذاؤه حرام، وفيهم من يبسط لسانه بالغيبة والنميمة، وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبي، وأنت تطلب لهم الرحمة، كيف يجتمع موضع الرحمة وموضع العذاب».

فقال موسى: «ومن هم يا رب حتّى نخرجهم من بيننا؟» فقال الله عليه السلام: «يا موسى لستُ بهتّاك ولا نمّام، ولكن يا موسى توبوا كلكم بقلوب خالصة فعساهم يتوبوا معكم فأجود بإنعامي عليكم»، فنادى منادي موسى في بني إسرائيل أن اجتمعوا فاجتمعوا فأعلمهم موسى عليه السلام بما أوحي إليه، والعصاة يسمعون، فذرفت أعينهم ورفعوا مع بني

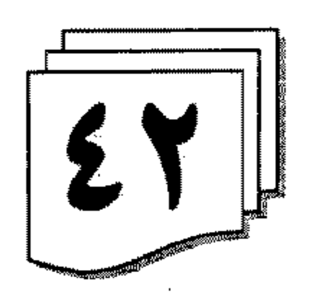
إسرائل أيديهم إلى الله عَجَلَّ وقال: «إلهنا جئناك من أوزارنا هاربين، ورجعنا إلى بابك طالبين فارحمنا يا أرحم الراحمين»، فما زالوا كذلك حتّى سقوا بتوبتهم إلى الله تعالى.

أوحى الله إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا داود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليَّ، وتقطّعت أوصالهم من محبتي، يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي بالمقبلين عليّ».

ولقد أحسن من قال:

أسيء فيجزي بالإساءة إفضالا وأعصي فيوليني براً وإمهالا
فحتّى متى أجفوه وهو يُبرّني وأبعد عنه وهو يبدل إيصالا
وكم مرّةٍ قد زغت عن نهج طاعة ولا حال عن ستر القبيح ولا زالا

* * *



قوله عليه السلام:

إِذَا اسْتَوْلَى الصَّلَاحُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ ثُمَّ أَسَاءَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ حَوْبَةٌ فَقَدْ ظَلَمَ وَإِذَا اسْتَوْلَى الْفَسَادُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ فَأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ.

(نهج البلاغة ٤: ٢٧)

[مدخلية الزمان في التعامل مع الآخرين]

قال ابن أبي الحديد:

يريد عليه السلام أن يتعين على العاقل سوء الظن حيث الزمان فاسد، ولا ينبغي له سوء الظن حيث الزمان صالح، وقد جاء في الخبر المرفوع النهي عن أن يظنّ المسلم بالمسلم ظن السوء، وذلك محمول على المسلم الذي لم يظهر منه حَوبة كما أشار إليه عليّ عليه السلام، والحوبة المعصية، والخبر هو ما رواه جابر، قال: نظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الكعبة فقال: «مرحباً بك من بيت ما أعظمك وأعظم حرمتك، والله إن المؤمن أعظم حرمة منك عند الله عز وجل؛ لأن الله حرّم منك واحدة ومن المؤمن ثلاثة: دمه وماله، وأن يُظن به ظنّ السوء».

ومن كلام عمر _ هذه الكلمة مشهورة لعليّ عليه السلام وقد نسبها الشارح إلى عمر _: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتّى يجيئ ما يغلبك منه، ولا تظنّن بكلمة خرجت من في أخيك المسلم سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً، ومن عرّض نفسه للتهم فلا يلومنّ من أساء به الظن».

قال الشاعر:

أسأت إذ أحسنتُ ظني بكم   والحزم سوء الظن بالناس

قيل لعالم: من أسوأ الناس حالاً؟ قال: من لا يثق بأحد لسوء ظنه، ولا يثق به أحد لسوء فعله.

قال الشاعر:

وقد كان حسن الظن بعض مذاهبي فأدّبني هذا الزمان وأهله

قيل لصوفي: ما صناعتك؟ قال: حسن الظن بالله، وسوء الظن بالناس، وكان يقال: ما أحسن حسن الظن إلاّ أنّ فيه العجز، وما أقبح سوء الظن إلاّ أنّ فيه الحزم.

قال ابن المعتز:

تفقّد مساقِط لحظّ المريب فإنّ العيون وجوه القلوب

وطالع بوادره في الكلام فإنكّ تجني ثمار العيوب(١)

* * *

وقال ابن ميثم البحراني:

قد مرّ أنّ الزمان من جملة الأسباب المعدّة لتوافق أسباب صلاح الخلق في معاشم ومعادهم، فيسمّى زمان الصلاح، والخير كذلك هو من جملة الأسباب المعدّة لعدم ذلك، فيقال: فسد الزمان، وزمان فاسد.

والأوّل: هو الزمان الذي استولى الصلاح عليه وعلى أهله، وبحسب ذلك يكون مظنّة فعل الخير وأن يحسن الظن بأهله، فمن أساء الظن حينئذٍ في أحد منهم لم يظهر منه ما يجري به عند الناس من فعل رذيلة، فقد وضع إساءة ظنّة في غير موضعها، وهو خروج عن العدل وظلم، وروى حوبة أي إثم.

والثاني: هو الزمان الذي استولى الفساد عليه وعلى أهله، وبحسب

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٧٨.

ذلك يكون مظنّة فعل الشر وسوء الظن بأهله، فمن أحسن الظن في أحدهم حينئذٍ فقد غرّر أي أوقع نفسه في الغرّة به والغفلة عن حاله.(١)

* * *

وقال الشيخ ابن مغنية:

المراد بحسن الظن هنا الثقة بالشخص والإعتماد على صدقه في أقواله وعهوده، والمراد بسوء الظن مجرد التحفظ منه والكف عن معاملته، ولا يجوز بحال الإساءة إليه بقول أو فعل حتّى مع التهمة، والخزية: فعل ما يخزي ويُفضح، وغرّر بنفسه عرّضها للخطر، والمعنى إذا جهلت أخلاق واحد من الناس، وشككت: هل يفي بالعهود أو يغدر؟ فمعيار الثقة به أن يكون فرداً من مجتمع صالح صادق فيما يقول ويفعل، ومعيار التهمة وعدم الركون إليه أن يكون من مجتمع فاسد يسوده الغدر والنفاق.

الأنبياء وتطوّر المجتمع:

وقد أثبت علم الإجتماع ودراسة التاريخ، أنّ الإنسان ابن المجتمع الذي يعيش فيه، والظروف التي تحيط به، وإنه يتغيّر بتغيّرها شاء أم أبى.. حتّى الجماد يتأثر ويتبدّل بتبدّل البيئة، وأن الفولاذ يتحول إلى بخار إذا كانت البيئة ملائمة. وقد أدرك الأنبياء والرسل هذه الحقيقة بوحي من الله سبحانه، فأرسلهم بشريعة تغيّر الأوضاع من جذورها، وتنتقل بهم إلى الوضع الأفضل والأكمل.

---

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن ميثم ٢: ٥٣٥.

وحول هذا التغير والتطور كان يدور النقاش والجدال بين الأنبياء المجدّدين، وبين المترفين المحافظين، وآيات القرآن صريحة في ذلك، منها قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الزخرف: ٢٣).[١]

* * *

وقال صاحب (منهاج البراعة):[٢]

الزمان في قول الحكماء مقدار حركة الفلك، وهو بذاته لا صالح ولا طالح، ولا حسن ولا سيء، ويبحث عنه أنه موجود أو موهوم، ولكن باعتبار ما يمّر عليه من الأوضاع، وباعتبار أهله يعدّ أحد عوامل الإحسان والإساءة، فيذمّه قوم ويمدحه آخرون، ويكون صالحاً مرّة وسيّئاً أخرى، ويؤخذ منه ظاهر الحال والظاهر أحد الأدلة عند علماء وفقهاء الملّة يستند إليه حيث لا دليل أدلّ، ولا إمارة أبين وأكمل.

وقد اعتمد عليه في كلامه هذا عليه السلام فقال: إذا كان ظاهر حال الزمان وأهله الصلاح والعدل والأمانة والصدق، فسوء الظن من دون دليل ظلم، ولكن إذا كان ظاهر حال الزمان وأهله الفساد والخيانة والغدر والخداعة، فحسن الظن من دون دليل غرر وخطر. وروي مكان خزية (حَوبة) أي إثم.

* * *

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٨٩.

(٢) ج ٢١: ١٧٥.

[معاني الظنّ] :

أقول: جاء في (مجمع البحرين):[١]

عن بعضهم أنه قال: يقع الظن لمعانٍ أربعة:

منها معنيان متضادان، أحدهما الشك، والآخر اليقين الذي لا شك فيه، فأما معنى الشك فأكثر من أن يحصى شواهد. وأما معنى اليقين فمنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾[٢] ومعناه علمنا. وقال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾.[٣] ومعناه فعلموا بغير شك، قال الشاعر:

رب أمر فرّجتُه بغريم وغيوب كشفتها بظنون

ومعناه كشفتها بيقين وعلم ومعرفة.

وفي حديث وصف المتقين: «وإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها، وظنّوا أنها نصب أعينهم» يعني أيقنوا أن الجنّة معدّة لهم بين أيديهم.

والمعنيان اللذان ليسا بمتضادين، أحدهما الكذب، والآخر التهمة، فإذا كان بمعنى الكذب قلتَ ظنّ فلان أي كذب، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[٤] ومعناه إن هم إلاّ يكذبون، ولو كان بمعنى الشك لاستوفى (أو استوى) منصوبيه أو ما يقوم مقامهما.

وأما بمعنى التهمة فهو أن تقول: ظننت فلاناً، فيستغني عن الخبر لأنك تريد التهمة.

---

(١) ج ٣: ٩٦ – ٩٨.

(٢) الجن: ١٢.

(٣) الكهف: ٥٣.

(٤) البقرة: ٧٨.

وفي الحديث: «اتقوا ظنون المؤمنين فإن الله جعل الحق على ألسنتهم» قال الشارح: وذلك لصفاء سرايرهم وتلقيهم السوانح الإلهية بأفكارهم الصافية وحدوسهم الصائبة، فلا تنطق ألسنتهم إلاّ بالحق، وعن إمارات صادقة. وفيه: «إنّ الله عند ظن عبده» ومثله: «أنا عند ظن عبدي المؤمن» أي عند يقينه في الاعتماد على الإستيثاق بوعدي، والرهبة من وعيدي، والرغبة فيما عندي والإستغناء بي «أعطيه إذا سألني وأستجيب له إذا دعاني» كل ذلك على حسب ظنه وقوة يقينه.

وبالجملة ما تقدّم ناظر إلى العمل، وما تأخر ناظر إلى الإعتقاد على أن كرمه تعالى ورحمته أزيد من تقصيرات العبد بمراتب.

وعن بعض الأفاضل: سوء الظن بالله ينشأ عن عدم معرفته تعالى بما هو أهله، فالجاهل به لا يعرفه من جهة ما هو جواد فيّاض بالخيرات لمن استعد لذلك فيسوء ظنه، ولا يثق بأنه مخلوع عليه عوض ما يبذله فيمنعه ذلك عن البذل.

* * *

سوء الظن بالخالق والمخلوق:

يتحدّث النراقي في (جامع السعادات) تحت هذا العنوان (سوء الظن بالخالق والمخلوق)[1] قائلاً:

وهو من نتائج الجبن وضعف النفس، إذ كل جبان ضعيف النفس تذعن نفسه لكل فكر فاسد يدخل في وهمه ويتبعه، وقد يترتب عليه الخوف والغم، وهو من المهلكات العظيمة، وقد قال الله سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا

(١) جامع السعادات ١: ٢٥١.

مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾،(١) وقال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾(٢) وقال: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.(٣)

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتّى يأتيك مايغلبك منه، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً».

ولا ريب في أنّ من حكم بظنه على غيره بالشر بعثه الشيطان على أن يغتابه أو يتوانى في تعظيمه واكرامه، أو يقصر في ما يلزمه من القيام بحقوقه، أو ينظر إليه بعين الإحتقار ويرى نفسه خيراً منه، وكل ذلك من المهلكات، على أنّ سوء الظن بالناس من لوازم خبث الباطن وقذارته، كما أنّ حسن الظن من علائم سلامة القلب وطهارته، فكل من يسيء الظن بالناس ويطلب عيوبهم وعثراتهم فهو خبيث النفس سقيم الفؤاد، وكل من يحسن الظن بهم فهو سليم الصدر طيب الباطن، فالمؤمن يظهر محاسن أخيه، والمنافق يطلب مساويه، وكل إناء يترشح بما فيه.

والسر في خباثة سوء الظن وتحريمه وصدوره عن خبث الضمير وإغواء الشيطان، إنّ أسرار القلوب لا يعلمها إلاّ علاّم الغيوب، فليس لأحد أن يعتقد في حق غيره سوءاً إلاّ إذا انكشف له بعيان لا يقبل التأويل، إذ حينئذٍ لا يمكنه ألاّ يعتقد ما شاهده وعلمه، وأما ما لم يشاهده ولم يعلمه ولم يسمعه وإنما وقع في قلبه فالشيطان ألقاه إليه، فينبغي أن يكذّبه؛ لأنه أفسق الفسقة، وقد قال الله: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ (الحجر: ٦).

---

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) فصلت: ٢٣.

(٣) الفتح: ١٢.

فلا يجوز تصديق اللعين في نبأه، وإن حُفَّ بقرائن الفساد، وما احتمل التأويل والخلاف، فلو رأيت عالماً في بيت أمير ظالم لا تظنن أن الباعث طلب الحطام المحرّم، لاحتمال كون الباعث إغاثة مظلوم، ولو وجدت رائحة الخمر في فم مسلم فلا تجزمنّ بشرب الخمر ووجوب الحدّ، إذ يمكن أنه تمضمض بالخمر ومجّه وما شربه، أو شربه إكراهاً وقهراً، فلا يستباح سوء الظن إلاّ بما يستباح به المال، وهو صريح المشاهدة أو قيام بيّنة فاضلة.

ولو أخبرك عدل واحد بسوء من مسلم وجب عليك أن تتوقف في إخباره من غير تصديق ولا تكذيب، إذ لو كذّبته لكنت خائناً على هذا العدل، إذ ظننت به الكذب، وذلك أيضاً من سوء الظن، وكذا إن ظننت به العداوة أو الحسد أو المقت لتتطرق لأجله التهمة، فتردّ شهادته، ولو صدقته لكنت خائناً على المسلم المخبر عنه إذ ظننت به السوء، مع احتمال كون العدل المخبر ساعياً أو التباس الأمر عليه بحيث لا يكون في إخباره بخلاف الواقع آثماً وفاسقاً.

وبالجملة لا ينبغي أن تحسن الظن بالواحد وتسيء بالآخر، فتذر المذكور حاله على ما كان في الستر والحجاب، إذ لم ينكشف لك حاله بأحد القواطع، ولا بحجة شرعية يجب قبولها، وتحمل خبر العدل على إمكان تطرق شبهة مجوّزة للإخبار وإن لم يكن مطابقاً للواقع.

ثمّ المراد بسوء الظن هو عقد القلب وميل النفس دون مجرّد الخواطر وحديث النفس، بل الشك أيضاً، إذ المنهي عنه في الآيات والأخبار إنما هو أن يظن، والظن هو الطرف الراجح الموجب لميل النفس إليه، والإمارات التي بها يمتاز العقد عن مجرّد الخواطر وحديث

النفس، هو أن يتغير القلب منه عما كان من الإلفة والمحبة إلى الكراهة والنفرة، والجوارح عما كانت عليه من الأفعال اللازمة في المعاشرات إلى خلافها، والدليل على أن المراد هو ما ذكر قوله صلى الله عليه وآله: «ثلاث في المؤمن لا تستحسن وله منهنّ مخرج، فمخرجه من سوء الظن ألاّ يحققه» أي لا يحقق في نفسه بعقد ولا فعل، لا في القلب ولا في الجوارح.

ثمّ لكون سوء الظن من المهلكات منع الشرع من التعرض للتهمه صيانة لنفوس الناس عنه، فقال صلى الله عليه وآله: «اتقوا مواقع التهم» وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «من عرّض نفسه للتهمة فلا يلومنّ من أساء به الظن»، وأنه صلى الله عليه وآله كان يكلّم زوجته صفية بنت حيي بن أخطب، فمرّ به رجل من الأنصار فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: «يا فلان هذه زوجتي صفية»، فقال: يا رسول الله أفنظن بك إلاّ خيراً؟ قال صلى الله عليه وآله: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فخشيت أن يدخل عليك».

فانظر كيف أشفق رسول الله صلى الله عليه وآله على دينه فحرسه، وكيف علّم الأمّة طريق الإحتراز عن التهمة، حتّى لا يظن العالم الورع المعروف بالتقوى والدين أنّ الناس لا يظنون به إلاّ خيراً إعجاباً منه بنفسه، فإنّ ما لا جزم بتحققه في حق سيد الرسل وأشرفهم، فكيف يجزم بتحققه في حق غيره، وإن بلغ من العلم والورع ما بلغ، والسر في ذلك أن أورع الناس وأفضلهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة، بل إن نظر إليه بعضهم بعين الرضا ينظر إليه بعض آخر بعين السخط.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكنّ عين السخط تبدي المساويا

وكل عدو وحاسد لا ينظر إلاّ بعين السّخْط، فيكتم المحاسن ويطلب المساوئ، وكلّ شرّير لا يظن بالناس كلهم إلاّ شراً، وكل

معيوب مفتضح عند الناس يحب أن يفتضح غيره وتظهر عيوبه عندهم؛ لأنّ البليّة إذا عمّت هانت، ولأن يشتغل الناس به فلا تطول ألسنتهم فيه، فاللازم لكل مؤمن الأ يتعرض لموضع التهمة حتّى يوقع الناس في المعصية بسوء الظن، فيكون شريكاً في معصيتهم، إذ كل من كان سبباً لمعصية غيره يكون شريكاً له في هذه المعصية، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(١).

وقال رسول الله ﷺ: «كيف ترون من يسبّ أبويه»، فقالوا: هل من أحد يسبّ أبويه! فقال: «نعم يسبّ أبويَ غيره فيسبون أبويه».

[معالجة سوء الظنّ]:

ثمّ طريق المعالجة في إزالته بعد تذكّر ما تقدم من فساده، وما يأتي من فضيلة ضده، أنه إذا خطر لك خاطر سوء على مسلم لا تتبعه ولا تحققه ولا تغير قلبك عما كان عليه بالنسبة إليه من المراعاة والتفقّد والإكرام والإعتماد بسببه؛ بل ينبغي أن تزيد في مراعاته وإعظامه وتدعو له بالخير، فإنّ ذلك يقنط الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك خاطر السوء خوفاً من اشتغالك بالدعاء وزيادة الإكرام.

ومهما عرفت عثرة من مسلم فانصحه في السرّ ولا تبادر إلى اغتيابه، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على عيبه، لتنظر إليه بعين الحقارة، مع أنه ينظر إليك بعين التعظيم؛ بل ينبغي أن يكون قصدك إستخلاصه من الإثم، وتكون محزوناً كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان، وينبغي أن يكون تركه ذلك العيب من غير نصيحتك

---

(١) الأنعام: ١٠٨.

أحبّ إليك من تركه بنصيحتك، وإذا فعلت ذلك جمعت بين أجر نصيحته وأجر الحزن بمصيبته وأجر الإعانة على آخرته.

حسن الظن:

قد عرفت أنّ ضدّ سوء الظن بالخالق والمخلوق هو (حسن الظن بهما)، ولمّا كان الأوّل من لوازم ضعف النفس وصغرها، فالثاني من نتائج قوّتها وثباتها، وفوائده أكثر من أن تحصى، وقد تقدّمت الظواهر الواردة في مدحه، فينبغي لكل مؤمن ألاّ ييأس من روح الله، ولا يظن أنه لا يرحمه ويعذبه البتة ولا يخلصه من العقاب، وأنّ ما يرد عليه في الدنيا من البلايا والمصائب هو شرّ له وعقوبة؛ بل ينبغي أن يعلم أنه أرحم وأرأف به من والديه، وإنما خلقه لأجل الفيض والجود، فلا بدّ أن يرحمه في دار الآخرة، ويخلصّه من عذاب الأبد، ويوصله إلى نعيم السرمد، وما يرد عليه من المصائب والبلايا في دار الدنيا خير له وصلاح، وذخيرة له في يوم المعاد.

وكذا لا يظنن السوء والشر بالمسلمين، ولا يحمل ما له وجه صحيح من أعمالهم وأقوالهم على وجه فاسد؛ بل يجب أن يحمل كل ما يشاهده من أفعالهم وحركاتهم على أحسن الوجوه وأصحها ما لم يجزم بفساده، ويكذّب وهمه وسائر حواسه، فيما يذهب إليه من المحامل الفاسدة والإحتمالات القبيحة المحرّمة، ويكلّف نفسه على ذلك حتّى يصير ذلك ملكة له، فترتفع عنه ملكة سوء الظن بالكلية.

نعم، الحمل على الوجه الصحيح على تقدير عدم مطابقته للواقع لو كان باعثاً لضرر مالي أو فساد ديني أو عرضي لزم فيه الحزم

والاحتياط وعدم تعليق أموره الدينيّة والدنيوية عليه، لئلا يترتب عليه الخسران والاضرار، وتلزمه الفضيحة والعار.

* * *

ومما ورد في (الرياض الخزعلية) بهذا الشأن قوله:

إذا عرفت ما أوردناه في هذه الفصول: إنّ الظواهر لا تكشف السرائر، والآثار لا تدلّ على الواقعيات، والأقوال لا تطابق الأفعال، ومقتضى ذلك تجويز خلاف الظاهر، وحينئذٍ فالجائز أن يكون مساوياً للظاهر فيكون شكاً، أو أقل فيكون ظناً، وكلاهما مقتضى الحزم بطلانهما، وحينئذٍ فهل الأولى سوء الظن أو حسن الظن بالناس.

[مذاهب الناس في الظنّ]:

أقول: ذهب الناس في ذلك مذاهب ثلاثة: حسن الظن، وسوء الظن، والتوقف إن أمكن تحصيل الإختبار والعلم بالحقائق وإلاّ فالاحتياط بالتغافل ظاهراً والتيقّظ باطناً، ولا ينكشف حقيقة الحق منها إلاّ بعد تفصيلها، وذكر ما استند أهل كل مذهب إليه.

المذهب الأوّل: [حسن الظنّ]:

حسن الظن بكل من ظاهره الإسلام وهو المعبر عن بأصالة الصحة في فعل الغير عند الشك في حاله، ويستدل عليها بآيات من الكتاب المبين، واخبار من الأئمّة المعصومين عليهم السلام

أما الآيات فمنها:

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾[١] بناءاً على تفسيره بما عن الكافي من قوله عليه السلام: «لا تقولوا إلاّ خيراً حتّى تعلموا ما هو» ولعلّ مبناها على إرادة الظن والإعتقاد من القول.

ومنها: قوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[٢] بناءاً على أنّ مطلق ظن السوء إثم، وإلاّ لم يكن شيء من الظن إثماً، وأما الأخبار فمنها ما في الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتّى يأتيك ما يقلبك عنه، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير سبيلاً».[٣]

ومنها: قول الصادق عليه السلام لمحمّد بن الفضل: «يا محمّد كذّب سمعك وبصرك عن أخيك، فإن شهد عندك خمسون قسامة أنه قال، وقال: لم أقل، فصدّقه وكذّبهم».[٤]

هذا ولكن الإنصاف عدم دلالة الآيات والأخبار على المطلوب، أمّا الآية الأولى فليس فيها دلالة إلاّ على إرادة المعاملة على حسن الظواهر لا إرادة الإعتقاد الباطني، وأمّا الثانية: فالظاهر منها أن سوء الظن إثم في خصوص بعض موارد سوء الظن، كالظن السوء فيمن ظاهره الصلاح لا كل أحد، وأما المرسل عن أمير المؤمنين فهو مخصوص بسوء الظن بالأخ المختبر حاله بالصحبة، وذلك بقرينة لفظة أخيك لا

---

(١) البقرة: ٨٣.

(٢) الحجرات: ١٢.

(٣) الكافي ٢: ٣٦٢ / ح ٣، وفيه بدلاً من (سبيلاً): (محملاً).

(٤) الكافي ٨: ١٤٧/ ح ١٢٥، وفيه بدلاً من (أنه قال، وقال: لم أقل): (وقال لك قولاً فصدقه وكذبهم).

حسن الظن بكل أحد، والمراد يحمل كلامه وما يصدر عنه على الوجه الحسن عنده في اعتقاده ـ أي الأخ ـ، ولا يحمل على الوجه القبيح عنده وفي معتقده لا مطلق الوجه الحسن، ومثله أيضاً في المعنى قول الصادق عليه السلام وليس فيه أيضاً دلالة إلاّ على إرادة المعاملة على حسن الظواهر لا إرادة الإعتقاد الباطني وحسن الظن بأفعاله وترتيب آثار الصحة، ألا ترى أنه لو أخبرك عدل عن آخر بما يوجب سوء الظن فيه.

وحملنا الأخبار على إرادة الآثار فإنه يلزم من تصديقه سوء الظن بالآخر أيضاً، ومن تكذيبه سوء الظن فيه، فلا مناص عن سوء الظن بأحدهما. قال بعض الحكماء: ومما يؤيد ما ذكر جمع الإمام في رواية محمّد بن الفضل وبين تكذيب الخمسين قسامه ـ أي البيّنة العادلة ـ، وتصديق الأخ المؤمن فإنه مما لا يمكن إلاّ بحمل تصديق المؤمن على الحكم بمطابقة الواقع المستلزم لتكذيب القسامة مع الحكم بصدقهم في اعتقادهم؛ لأنهم أولى بحسن الظن بهم من المؤمن الواحد، فالمراد من تكذيب السمع والبصر تكذيبهما فيما يفهمان من ظواهر بعض الأفعال من القبح، كما إذا رأى شخصاً ظاهره الصلاح يشرب الخمر في مجلس يظن أنّه مجلس الشرب. انتهى.

وعلى أيّ حال فليس المراد من الآيات والأخبار إلاّ إرادة حسن المعاملة مع الناس بحسن ظواهرهم والتعامي عن سوء أفعالهم، لا إرادة حسن الظن والإعتقاد الباطني هذا ولعلّ المراد من قول الإمام: «فإن شهد عندك خمسون قسامة بأنه قال، وقال: لم أقل فصدّقه وكذّبهم» من أن النميمة معصية كبيرة مخرجة للعدل عن ساحة العدالة، فلا يلزم حينئذٍ محذور من تكذيبهم على ما عرفت، وهذا من قبيل ما حكي أنه غضب

رجل على رجل فقال له: ما أغضبك؟ قال: شيء نقله إليَّ الثقة عنك، فقال: لو كان ثقة ما نمّ، أو قال: إنّ الثقة لا ينمّ، ومثل ذلك ما نقل عن أبي العيناء إنه قال له بعض العلوية: أتبغضني ولا تصح صلاتك إلاّ بالصلاة عليَّ إذا قلت: اللهم صل على محمّد وآل محمّد، فقال أبو العيناء: إذا قلت الطيبين الطاهرين خرجت منهم.[1]

ومثل ذلك ما نقله القطب الراوندي أن قدامة بن مظعون شرب خمراً فأراد عمر أن يحده، فقال: لا يجب عليَّ الحد لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا ...﴾[2] الآية، فدرأ عنه الحد، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فقال: ليس قدامة من أهل هذه الآية ولا من سلك سبيله في ارتكاب ما حرّم الله، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يستحلون حراماً، فاردد قدامة واستتبه فإن تاب فأقم الحد عليه، وان لم يتب فاقتله فقد خرج من الملة، فعرف قدامة الخبر فأظهر التوبة فحده عمر ثمانين.[3]

المذهب الثاني: [سوء الظنّ]:

سوء الظن وهو المعبّر عنه بأصالة الفساد في أفعال الغير لتجويز السوء من كثير من الناس، وإن ترشح ظاهرهم بالصلاح، فكثير ما يجتمع الفسق الباطن مع حسن الظاهر، والحزم يبعث على اتقان الأمر ومن لم ينظر العواقب فليس الدهر له بصاحب، وقال بعضهم:

لا يكن ظنّك إلاّ سيئاً ... إنّ سوء الظن من حسن الفطن

---

(١) مواقف الشيعة ٣: ٢٣٧.

(٢) المائدة: ٩٣.

(٣) فقه القرآن ٢: ٢٨٣.

واستدلوا بما يعزى لأمير المؤمنين عليه السلام: «ما أحسن حسن الظن إلاّ أنّ فيه العجز، وما أقبح سوء الظن إلاّ أنّ فيه الحزم»[١] ومنه قول بعض الحكماء: حسن الظن حسن إلاّ أن معه الندم، وسوء الظن قبيح إلاّ أنّ معه الحزم، وفي مثل ذلك يقول بعض الأدباء:

وحسن الظن يحسن في أمور ... ولكن في عواقبه الندامه

وسوء الظن يسمج في وجوه ... وفيه مع سماجته السلامه

ويعزى إليه عليه السلام أيضاً: «عليك بسوء الظن فإن أصاب فالحزم وإلاّ فالسلامة».[٢] وقال بعضهم: كن ملازماً للإعتصام بالحذر، متمسكاً بالتحفظ وذلك بسوء الظن من الناس، بجواز الضرر منهم فإنّ سوء الظن من أعلى الفطن.

وإنك ترى الكثير من الناس من أهلكه حسن ظنه بهم فوقع في بلاء لا خلاص له منه، ولا يقعدك حسن الظن بهم. قال الصعدي في شرح لامية العجم: قد قيل:

من أحسن الظن بأعدائه ... تجرع الهمّ بلا كأس

ولو كنت ناظم هذا البيت لقلت: من أحسن الظن بأحبابه، ولا أقول بأعدائه. ولله درّ القائل بهذا المعنى:

جزى الله خيراً كل من ليس بيننا ... ولا بينه ودٌّ ولا متعرَّف

فما نالني ضيم ولا مسني أذى ... من الناس إلاّ من فتى كنت أعرف

وقال آخر:

لا تثق من آدميّ ... بوداد وصفاء

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٩٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٣٠٥.

كيف ترجو منه صفواً   وهو من طين وماء

* * *

وقال البحتري:

إياك تغتر أو تخدعك بارقة   من ذي خداع يُري بشراً وألطافا
فلو قلبت جميع الأرض قاطبة   وسرت في الأرض أوساطاً وأطرافا
لم تلق فيها صديقاً صادقاً أبداً   ولا أخاً يبذل الإنصاف إنصافا

* * *

وقال الصفدي:

ولا يغرك من تبدو بشاشته   منه إليك فإنّ السم في العسل

* * *

تنبيه:

ومقتضى سوء الظن عدم التوثق بكل أحد، قالوا: الإنسان لا يختال به ما لم تكن به واحدة من اثنين: أحدهما سرعة الإعتماد، والأخرى الإحتياط للأمور. وقالوا: من علامات الجاهل الثقة بكل إنسان.

وإنما رجل الدنيا وواحدها   من لا يعوّل في الدنيا على رجل

ومن وصية لقمان لابنه: يا بني المغرور من وثق بثلاثة أشياء: الذي يصدّق ما لا يراه، ويركن إلى من لا يثق به، ويطمع فيما لا يناله. وقيل لبعض الملوك: ما بلغ من عقلك؟ قال: ما وثقت بأحد قط، ونعم الحزم سوء الظن.

ووجد في عضد شمس المعالي قابوس بن وشكمير رقعة بخطه مكتوب فيها كلمات منها: إن كان الغدر طباعاً فالثقة بكل أحد عجز.

المذهب الثالث: التفصيل بين ما يمكن فيه تحصيل العلم، وبين ما لا يمكن:

ففي الأوّل التوقف والتثبت، وفي الثاني: الإحتياط بالتغافل ظاهراً والتيقظ باطناً، وميزان سوء الظن كماً وكيفاً، فهذه ثلاث حالات:

الحالة الأولى: التثبت والتوقّف عن حسن الظن وعن سوء خبث يمكن الاختبار والكشف، ويدلّ عليه قول أمير المؤمنين عليه السلام: «الطمأنينة على كل أحد قبل الإختيار عجز في العقل والرأي، فإنّ الوثوق مع التجربة فيه ما فيه فكيف قبل التجربة»[1].

وقال بعض الأدباء: لا تثق قبل تمام الخبرة.

وقال بعضهم:

لا تحمدنّ امرءاً حتّى تُجرّبه ولا تذمنه من غير تجريب
فحمدك المرء ما لم تبله خطأ وذمّه بعد حمد شرّ تكذيب

ومثله للنجاشي:

لا تمدحنّ امرءاً حتّى تُجرّبه ولا تذمنّ من لم يبله الخبر

شهد عند بعض الأمراء شاهد، فقال: ائتني بمن يعرفك، فأتاه برجل فأثنى عليه خيراً، فقال له الأمير: أنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا، قال: كنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا، قال: فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع الرجل؟ قال: لا، قال: أظنك رأيته قائماً بالمسجد يهمهم بالقرآن يخفض رأسه طوراً

---

(١) أنظر: شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٢٥.

ويرفعه أخرى قال: نعم، قال: فاذهب فلست تعرفه، وقال للرجل: اذهب فائتني بمن يعرفك. وقال بعض الأدباء:

لا تحمدن قبل اختبار أحدا بلامع من برقه إذا بدى

فربّما أخلفك الطرير بخلّب أنت به غرير

وقيل: لا ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة حتّى تموت، ولا يثق بخليل حتّى يستقر منه. ومن أمثال العرب لا تحمد أمَةً عام شرائها، ولا حرة عام بنائها.

الحالة الثانية: التغافل في الظاهر، والحزم والحذر باطناً، فلقد كان رسول الله ﷺ مع أصحابه يخزن لسانه ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويحذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد بشره ولا خلقه، وإذا كان رسول الله ﷺ كذلك فينبغي للحازم أن يرشح ظاهره بحسن الظن؛ لأنه يوجب الالفة ويذهب البغضاء لأنه مدنّي بالطبع ولا بدّ له من الناس لينتظم حاله ويتمّ أمر معاشه، وسوء الظن الظاهر يخلّ بأمره.

قال بعض الفلاسفة: كن حذراً كأنك غير فطن وكن غافلاً ذاكراً كأنك ناسٍ.

وقال أبو حيان: ينبغي للعاقل أن يعامل كل أحد في الظاهر معاملة الصديق، وفي الباطن معاملة العدوّ في التحفّظ منه والتحرز، وليكن في التحرز من صديقه أشد في التحرز من عدوّه، وأن يعتقد أن إحسان شخص إلى آخر وتودّده إليه إنما هو لمعنى قام له فيه يتعلق به يبعثه لا لذات الشخص.

وكان بعضهم أخذ منه معنى قوله: ولا تظنن من أسدى إليك يده لأجل ذاتك بل أسداه للغرض.

وقال بعض الأدباء: اجعل الناس أصدقاءك ظاهراً، وأعداءك باطناً فإنهم أصدقاء أنفسهم لا أصدقاؤك بالحقيقة، وإنهم عبيد الرغبة والرهبة لا يخرجوا عنهما، فلذلك كانت الدين والدنيا الرغبة والرهبة، فعند الرغبة يلتجئون لنيل الخير، وعند الرهبة يطيعون للذبّ عن أنفسهم.

ومن هذا الباب قول بعض الأدباء: إذا اضطررت إلى كذّاب فلا تصدقه، ولا تعلمه أنك تكذّبه، فينتقل عن ودّه ولا ينتقل عن طبعه.

ومثله في الأمثال: اسمع ولا تصدق، أي اسمع في الظاهر وكذّب في الباطن.

ومن هذا الباب قولهم: إذا اتهمّت وكيلك فاخزن لسانك واستوثق بما في يديه.

ومنه ما يقال في الغيرة والتحفظ على العرض: إذا أحسست ببغض من وليّت أمره وعناك حلوه ومرّه منه بما يستراب، فعليك بيقظة الباطن وغفلة الظاهر حتّى يخفى خبره على الأحباب، وانهض لإزالته بعزيمة نافذة ويقظة غير راقدة، واطرد عنه الأسباب بنفي أهل الشأن من القرناء عنه والأصحاب ولو كانوا من ذوي الأحساب والأنساب، وأظهر فيهم الفضل والآداب، وأسبل عليه ستور الحجاب، واشغله بما يستغرق فكره من المهمات المحمودة عند ذوي الألباب.

وهذا أحد موارد هذه القاعدة وإلاّ فلا تختص بمورد خاص بل تطرّد مع عامة الناس، فالحازم ينبسط للزمان ويكون له من الأبطال والأقران، يجري في ميدانه مع أبنائه واخوانه، وقلبه قد احتوى أمره وقائم بذاته على إصلاحه ودفع شرّه، ومن معه لا يعلم وعلى ما اشتغل فيه ضميره لا يفهم، يريهم الهوينا والأمور تطير بحالها من فيها أنها جالسة وهي به تسير، واللبيب من تسكن حركته وتظهر

غفلته ولم ترقد بصيرته، وقد سترت غفلته فطنته حتّى يظن به من رآه أنه لم يعلم بما عراه ولم يدرِ أنه يدري فإذا عرفت هذا:

فاعلم أنّ لهذه الحال طريقان لا يقتصر الحازم على أحدهما دون الثاني؛ بل يكون متربعاً بين الأمرين ومحتوياً على الطرفين: وهما التغافل في الظاهر عن سوء الأفعال، والتيقظ في الباطن لها، فبالأول يعامل الثاني على حسن ظواهره لانتظام أمر معاشه، وبالثاني يتحرز منهم، وقد قال بعض الأولياء: احتفظ من الناس واحتفظ بهم تملك أزمة التدبير، أي احذر لئلا ينالك ضرر الناس وكن عن مظنة حصول الشر منهم متباعداً.

هذا معنى قوله: احتفظ من الناس، ومعنى قوله: احتفظ بالناس، أي إن الإنسان مدني الطبع لا بدّ له من الناس لحصول أمر معاشه ومعاده بهم، وكان صلاح أمره بهم ومعاشرتهم من دفاع من أمدّ منهم بضرر وقصده منهم بأذىً في نفسه أو ماله أو دينه، ولما كان في انفراده تعجز نفسه عن دفاع المؤذي منهم وجب أن يتألفهم ويتوددهم بحسن ألفاظه حتّى يألفونه ويحبونه، فحينئذٍ يحصل النصر منهم عليهم ويدفع شرهم بهم، فتحصل له لذة زمانه وينال صفو العيش بهم ويكون له من الناس جنود منهم عليهم. ويقال: إن رجلاً كان على عهد كسرى يقول: من يشتري ثلاث كلمات بألف دينار فيطنز منه، إلى أن اتصل بكسرى، فأحضره وسأله عنها، فقال: ليس من الناس كلهم خير، فقال: صدقت، ثمّ ماذا؟ قال: ولا بدّ منهم. قال: صدقت، ثمّ ماذا؟ قال: فالبسهم على قدر ذلك. فقال كسرى: قد استحويت المال فخذه، قال: لا حاجة لي فيه وإنما أردت أن أرى من يشتري الحكمة بالمال.

وإذا عرفت هذا أيضاً فلنورد بما يختص بكل واحد من الطرفين ليتم وضوح الأمرين مما اخترناه من غرر الحكم ودرر الكلم ومحاسن

النظم، ولنبتدئ من بما يختص بالمعاملة على الظواهر دون البواطن، ثمّ نثنيه بما يختص بالطرف الثاني، وهو التيقظ والتحرز من البواطن باطناً فنقول وبالله المستعان وعليه التكلان:

الطرف الأوّل: في المعاملة على الظواهر:

قيل: أوحى الله تعالى إلى عبده داود: «يا داود خالق الناس بأخلاقهم، واحتجز الإيمان بيني وبينك».[1]

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «خالطوا الناس بألسنتكم وأجسامكم، وزايلوهم بقلوبكم وأعمالكم».[2]

ومنه ما قيل: خالط الناس وزايلهم. ومنه ما قالت الحكماء: يجب على السلطان العدل في ظاهر أفعاله لإقامة أمر سلطانه، وفي باطن ضميره لإقامة أمر دينه.

ومن هذا الباب ما ورد في ذم المكاشفة والتجسس في الظاهر، فمن كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «من أشرف أفعال الكريم غفلته عما يعلم».[3] ومنه قول طاهر بن الحسين بن مصعب:

ويكفيك من قوم شواهد أمرهم	فخذ عفوهم قبل امتحان الضمائر
فإنّ امتحان القوم يوحش منهم	وما لك إلاّ ما ترى في الظواهر
وإنك إن كشفت لم ترَ مخلصاً	وأبدى لك التجريب خبث السرائر

---

(١) فيض القدير للمناوي ٥: ٤٦٣.

(٢) أمالي المفيد: ١٣١، وفيه: «خالطوا الناس بألسنتكم وأجسادكم...» وفي بعض المصادر: «وأبدانكم...».

(٣) نهج البلاغة ٤: ٥٠.

ثمّ أنظر إلى قول هذا الأحمق:

فإمّا أن تكون أخي بصدقٍ ... فأعرف منك غثّي من سميني

وإلاّ فاطرحني واتخذني ... عدوّاً أتقيك وتتقيني

للخير الذي أنا ابتغيه ... أم الشر الذي هو يبتغيني

* * *

أين هو من قول زهير بن أبي سلمى:

ولا تكثروا على ذي الضغن عتباً ... ولا ذكر التجرّم للذنوب

ولا تسأله عما سوف يبدي ... ولا عن عيبه لك بالمعيب

متى تكُ في صديق أو عدوّ ... تخبّرك الوجوه عن القلوب

وقول المتنبيء أبي الطيب:

ولمّا صار ودّ الناس خبّاً ... جزيت على ابتسام بابتسام

وصرت أشك فيمن أصطفيه ... لعلمي إنه بعض الأنام

وآنف من أخي لأبي وأمّي ... إذا ما لم أجده من الكرام

* * *

وكان يقال: التودد ظاهراً أحسن، والمعاملة بين الناس على الظاهر، فأمّا البواطن فإلى عالم الخفيات.

قال بعضهم:

وارض من المرء في تودده ... بما يؤدي إليك ظاهره

من يكشف الناس لم يجد أحداً ... تصح له منه سرائره

* * *

وقال آخر: من أظهر لك بلسانه ما تحبّ وتكره، فقس ما أضمره بما أظهره، فإنك لا تعرف ما يسّر في قلبه إلاّ بما يظهر بلسانه، ومن هذا أخذ بعض الأدباء معنى قوله:

ليس المسيء إذا تغيّب سرّه ... عندي بمنزلة المسيء المعلن

ما كان يظهر ما أحبّ فإنه ... عندي بمنزلة الأمين المحسن

وهذا إغراق في البناء على الظواهر.

[حكاية ابن مقلة مع ابن الفرات]:

ومثل ذلك ما ذكره بن الجوزي في الأذكياء: قال: حدّثنا أبو علي بن مقلة، قال: كنت أكتب لأبي الحسن ابن الفرات، أخدم بين يديه إلى أن تقلّد الوزارة الأولى، ثمّ أمر بقبض ما في دور المخالفين الذين بايعوا ابن المعتز، وكانت أمتعتهم تقبض وتحمل إليه فيراها وينفذها إلى خزائن المقتدر، فجاؤوه يوماً بصندوقين، فقالوا له: هذان وجدناهما في دار ابن المعتز. فقال: أفعلمتم ما فيها؟ قالوا: نعم جرائد من بايعه من الناس بأسمائهم وأنسابهم. فقال: لا تفتح، ثمّ قال: يا غلمان هاتوا ناراً، فجاء الفراشون بفحم، أمره فأججوا النار، وأقبل عليَّ وعلى من كان حاضراً، فقال: والله لو رأيت من هذين الصندوقين ورقة واحدة لظن كل من له اسم فيها إني قد عرفته، فتفسد نيات العالم كلهم عليَّ وعلى الخليفة، وما هذا رأي من حرّقوهما، قال: فطرحا بأقفالهما في النار فلما احترقا بحضرته أقبل عليَّ فقال: يا أبا عليّ قد أمّنت كل من جنى وبايع ابن المعتز، وأمرني الخليفة بأمانه، فاكتب للناس الأمان ولا يلتمس منك أحد أماناً كائناً من كان إلاّ كتبته له وجئني به لأوقّع فيه فقد أفردتك

لهذا العمل، ثمّ قال لمن حضر: أشيعوا ما قلته حتّى يأنس المستترون بابن عليّ ويكاتبوه في طلب الأمان. فشكرناه ودعت الجماعة له وشاع الخبر وكتبت الأمانات فكتب في ذلك مائة ألف ونحوها.

ومن هذا الباب قبول قول المعتذر، وردّ قول النمّام كائناً من كان.

أما الأوّل: فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «اقبل أعذار الناس تستمتع بإخائهم، وألقهم بالبشر تحت أضغانهم»[(١)]

وقال: «لا تبارز عدوك ولا تقرع صديقك، واقبل العذر وإن كان كذباً».[(٢)]

ومن هذا أخذ الشاعر معنى قوله:

اقبل معاذير من يأتيك معتذراً إن بَرّ عندك فيما قال أو فجرا

فقد أطاعك من يرضيك ظاهره وقد أجلّك من يعصيك مستترا

وقيل: أنه أتي برجل مذنب إلى موسى المهدي، فجعل يتقرّعه بذنوبه، فقال: يا أمير المؤمنين اعتذاري إليك بما تقرّ به عيني ردّ عليك، واقتراري بذنب لم أجنه ذنب ولكني أقول في المعنى:

فإن كنت ترجو في العقوبة راحة فلا تزهدن في العفو عني عن الأجر

فقال المهدي: سأصفح عن ذنبك لعذرك، وإن كنت من أحدهما على يقين، ومن الآخر على شك.

وأما الثاني وهو ردّ قول النمام فقد قال بعض الملوك لولده: ليكن أبغض رعيتك إليك أشدّهم كشفاً لمعائب الناس، فإنّ للناس معائب وأنت أحق بسترها، وأنت إنما تحكم بما ظهر لك والله يحكم فيما غاب عنك. وقال أردشير

---

(١) عيونه الحكم والمواعظ: ٧٧.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٥٢٩.

لأصحابه وقد سعي عنده بإنسان: إنما أملك الظواهر لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالرضا، وأمَحض عن الأعمال لا عن السرائر. قيل: الساب هو المبلّغ.

من جعل النمّام عيناً هلكا مبلغك الشر كباغيه لكا

قال رجل لفيلسوف: إنّ فلاناً قد قال فيك واغتابك أمس بكذا وكذا، قال الفيلسوف: إنك قد واجهتني بما استحى الرجل من مواجهتي فيه.

قال الشاعر:

يا ناقلاً قول الذي في العرض مني قد لغا
أقصر فما أسمعني سوءاً سوى من بلّغا

وقال صالح بن عبد القدوس:

من يخبرك بشتم عن أخ فهو الشاتم لا من شتمك
ذاك شيء لم يواجهك به إنما اللوم على من أعلمك

الطرف الثاني: التيقظ في الباطن:

للتحرّز من الغوائل، والتحرّز من الصديق بالخصوص، ليتنبه العاقل إنّ التحرز من غيره أشد بالأولية ومستنده قول أمير المؤمنين عليه السلام: «أبذل لصديقك كل المودة، ولا تبذل له كل الطمأنينة، واعطه من نفسك كل المواساة ولا تفض إليه بكل أسرارك».(١)

وقال الصادق عليه السلام: «لا تثقنّ بأخيك كل الثقة فإنّ سرعة الإسترسال لن تستقال».(٢)

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ١٦٥.

(٢) أمالي الصدوق: ٧٦٧/ ح ١٠٣٥/٩.

بيان: الصرع المطرح على الأرض، والإسترسال المبالغة في الانبساط، والإستيناس والإستقالة طلب إقالة العثرة، فإن ما يترتب على زيادة الإنبساط من الخلل والشر لا وراء له. وفي الكلام إستعارة، ومنه قيل: حسن الاسترسال منك حتّى تجد له مستحقاً له، واجعل أنسك آخر ما تبذله من ودّك. وقيل: قلّ من يؤذيك إلاّ من تعرفه. وقال بعضهم:

تحذّر من صديقك كل يوم   وبالأسرار لا تركن إليه
سلمتُ من العدوّ فما دهاني   سوى من كان معتمدي عليه

وقيل: من أحببت فلا تأمنه، ومن أبغضت فلا تهجره، وقال بعضهم:

كن من صديقك لا من غيره حذراً   إن كان ينجيك منه شدة الحذر

قال محمّد بن زكريا: لا يكمل عقل الرجل حتّى يحذر من صديقه. وقال أعرابي: اللهم اكفني بوائق الثقاة، والاغترار بظاهر المودّات. وقيل: احذر من تأمنه، فودائع الناس لم تذهب إلاّ عند الثقاة.

ومنه لبعض البلغاء:

أعدى عدوّك أدنى من وثقت به   فحاذر الناس واصحبهم على دخل

وكان بعضهم يقول في دعائه: اللهم احرسني من أصدقائي، فإذا قيل له في ذلك قال: أقدر على الاحتراس من أعدائي ولا أقدر على الإحتراس من أصدقائي.

أما العدو فيبدي   ما عنده ويكاشف
لكن توق وحاذر   من الصديق الملاطف

وفصل الخطاب في هذا الباب دعاء أمير المؤمنين عليه السلام: «اللهم

احفظني من عدوٍ يرعاني، إن رأى مني حسنة دسّها، وإن رأى سيئة أشهرها».[١] وإليه ناظر قول بعض الحكماء: اللهم احفظني من الصديق لأني أتحرز من العدو. وقال المبرّد: سمعت الجاحظ يقول: احذر ممن تأمن، فإنك على حذر ممن تخاف. وقال فيلسوف: كونوا من المسرّ المذغل أخوف من المكاشف المعلن، فإنّ مداواة العلل الظاهرة أهون من مداواة ما خفي وبطن.

ومن أمثال العرب: أرقب البيت من راقبه. أي احفظ بيتك من حافظه، وانظر من تخلّف فيه. وأصله أنّ رجلاً خلف عبده في بيته فرجع وقد ذهب العبد بجميع أمتعته. فإذا عرفت هذا في من تأمن من صديق ونحوه فالحذر من غيره أيضاً ينبغي أن لا ينقض؛ بل من عامة الناس إلاّ ما يأتي استثناؤه منهم.

وحيث تلوت ما حررناه من أوّل الروض إلى هنا فلا يبقى مجال إلاّ الحذر والإحتراس من سائر الناس فتنبه لهذه الدقيقة الآتية فإنها كافية.

قال (ابرويز) لابنه: يا بني الأصدقاء هم الأعداء؛ لأنك إذا احتجت إليهم منعوك، وإن احتاجوا إليك ومنعتهم سبّوك، فكن معهم كلاعب الشطرنج يحفظ ما معه ويحتال في أخذ ما مع غيره، ومنه أخذ صاحب الصادح والباغم:

يا أيها الإنسان كن في الدنيا ... كلاعب الشطرنج وانح المعنى
محترزاً من العدو محترس ... تنج وتسلم من أذاه ونكس
فالحين في الأهوان والتجوز ... والحزم كل الحزم في التحرّز

(١) انظر: من لا يحضره الفقيه ٣: ٥٥٨، وهو دعاء منسوب للنبي ﷺ، ونصه: «اللهم إني أعوذ بك... من خليل عينه تراني وقلبه يرعاني، إن رأى خيراً دفنه، وإن رأى شراً أذاعه...».

وقال بعض الألبّاء: اصحب الناس كما تصحب النار، خذ منها حاجتك واحذر أن تحرقك. إشارة لا بأس بذكرها، من الأمثال: أحذر من قرّلي واحزم أيضاً، وهو طائر من طير الماء، شديد الحزم والحذر، يطير في الهواء وينظر بإحدى عينيه إلى الأرض، وفي أسجاع ابنة الخسئ: كن حذراً كالقرّلي إن رأى خيراً تدلّى، وإن رأى شرّاً تولّى. وهذا الطائر صغير الجرم حديد الغوص سريع الإختطاف ولا يُرى إلاّ مرفوعاً على وجه الماء على جانب كطيران الحداة، يهوي بإحدى عينيه إلى قعر الماء طمعاً ويرفع الأخرى إلى الهواء حذراً، فإن أبصر في الماء ما يستقل بحمله من سمك أو غيره انقض عليه كالسهم المرسل، فأخرجه من قعر الماء، وإن أبصر في الهواء جارحاً مرّ في الأرض.

وقيل: إنّ القُرّلي اسم رجل من العرب كان لا يتخلف عن طعام أحد، ولا يترك موضع طمع إلاّ قصد إليه، وإن صادف في طريق يسلكها خصومه ترك ذلك الطريق ولم يمرّ به، فقالوا: فيه المثل.

دخل جحا على أمّه وهي في النزع، فقال لها: كيف حالك يا أماه جعلني الله فداك؟ قالت: في الموت. قال: إذاً لا، فقد كنت أظن أنّ في الأجل فسحة.

قيل لمجنون: أيسرّك أن تصلب لصلاح هذه الأمّة؟ قال: لا، بل يسرّني أن تصلب هذه الأمّة لصلاحي.

هذا وقد طغى القلم وخرجنا عن المقصود من بيان التيقظ والحزم والحذر وسوء الظن باطناً، فلنعد إلى بيان.

الحالة الثالثة: في ميزان سوء الظن وموارده:

أمّا ميزانه فالمعتبر في سوء الظن مراعاة الإعتدال، وذلك لأن العقل الحاكم به حاكم أيضاً بأنه يلزم من الإفراط فيه اختلال المعاش والمعاد،

والإختلال باطل والمستلزم للباطل باطل، فيتعين الإعتدال، ويدلّ على ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: «من غلب عليه سوء الظن لم يترك بينه وبين خليل صلحاً».[١]

وقوله عليه السلام: «سوء الظن يفسد بين الأمور، ويبعث على الشرور».[٢]

وقوله عليه السلام: «من لم يحسن ظنه استوحش من كل أحد».[٣]

وقوله عليه السلام: «أسوء الناس حالاً من لا يثق بأحد لسوء ظنه، ولا يثق به أحد لسوء أثره».[٤]

وينبهك أيضاً على ذم الافراط بسوء الظن قول بعض البلغاء: من أفرط في حسن الظن كان بالزلل خليق، ومن أفرط في سوء الظن لم يدع له صديق. وأمّا موارد سوء الظن فالزمان والإمارات المقتضية له من الإنسان، أمّا الأوّل فلقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله، ثمّ أساء رجل الظن برجل لم تظهر منه حَوبة فقد ظلم، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله فأحسن رجل الظن برجل فقد غرّر».[٥] والحَوبة: المعصية.

وفي معناه قول أبي الحسن الرضا عليه السلام: «إذا كان الجور أغلب من الحق لا يحلّ لأحد أن يظن بأحدٍ خيراً حتّى يعرف ذلك منه».[٦] إلى غير ذلك.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٣٣.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٢٨٣.

(٣) عيون الحكم والمواعظ: ٤٦٥.

(٤) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٣٠٨.

(٥) نهج البلاغة ٤: ٢٧.

(٦) الكافي ٥: ٢٩٨/ ح ٢.

وأمّا الثاني: فلقول أمير المؤمنين عليه السلام: «سوء الظن بالمحسن شرّ الإثم وأقبح الظلم».[١]

وقوله عليه السلام: «سوء الظن بمن لا يخون من اللؤم».[٢]

وهنا تعرف معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[٣] المستدل بها على أصالة الصحة في مطلق أفعال الغير، فالظن السوء إنما يكون إثماً فيما إذا وقع فيمن لا يستحقه كما عرفت لا في كل أحد، وأما من تظهر عليه إمارات المفسدة فلا محذور من سوء الظن به. وقد روي عن الحسين عليه السلام: أنه يجوز أن يظن السوء بمن علم السوء منه وبدت عليه أدلّته. وقد نظر بعض الأدباء إلى رجل ينظر إلى غلام وضيئ الوجه، فقال له الناظر: لا تظن إلاّ خيراً، قال: وكيف ذلك وأنت لا ترتدع وهو لا يمتنع؟ هذا ما ينبغي التنبيه عليه، وأنت خبير بأنّ حسن الظن بكل أحد لا معنى له، كما أنّ سوء الظن بكل أحد سوء لا معنى له، والحزم إيراد الظن موارده والإعتداد فيه كما وكيفاً ومراعاة حال الزمان والإنسان كما عرفت مما حررناه.

في ذم الظن والعمل به وعليه:

ويكفي في ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾.[٤] وقد وقع في أمثال العرب: ظنوا به الظنانات، والظنانة المرأة التي تحدث بما لا علم لها به. قال ذلك رجل: غاب له أخ وبقي له أخوة مقيمون

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٢٨٤.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الحجرات: ١٢.

(٤) النجم: ٢٨.

فاستبطؤوه لوعده الذي وعدهم، فقال أحدهم: ظنوا به الظنانات، فقال أحدهم: أظنه لقيه ذو النبالة الكثيرة فقتله، يعني القنفذ، وقال الآخر: أظنه لقيه الذي رمحه في أسته فقتله _ يعني اليربوع _، وقال الآخر: أظنه لقيته جحمة عينين فأكلته _ يعني الأرنب ويقال يعني الذئب _، وقال الآخر: أظنه اضطره السيل إلى جرثومة فمات من العطش، يضرب هذا المثل عند الحكم بالظنون. وقال ابن الجوزي: قال مروان بن الحكم لجيش ابن دجلة: أظنك أحمقاً، فقال: أحمق ما يكون الشيخ إذا عمل بظنه، ومما اتفق لأبي نواس وقد أمر الرشيد بقتله، فقال: يا أمير المؤمنين أتقتلني شهوة لقتلي أم استحقاقاً فإنّ الله يحاسب ثمّ يعفو ويعاقب فبما استحقيت القتل؟ قال: بقولك:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر
ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

قال: يا أمير المؤمنين أعلمت أنه سقاني وشربت؟ قال: أظن ذلك. قال: أتقتلني بالظن؟ قال: تستحق بقولك في التعطيل:

ما جاءنا أحد يخبّر أنه ... في جنّة مذ مات أو نار

قال: أفجاءنا أحد يا أمير المؤمنين؟ قال: تستحق بقولك:

يا أحمد المرتجى في كل نائبة ... قم سيدي نعص جبّار السماوات

قال: يا أمير المؤمنين أفعلت؟ قال: لا أعلم، قال: أفتقتلني على ما لم تعلم.

ورفع إلى كسرى أبرويز إنّ النصارى الذين يحضرون باب الملك يعرفون بالتجسس إلى ملك الروم، فقال: من لم يظهر له ذنب لم يظهر منّا عقوبة له.

ورفع مزيد زقاً فارغاً، فأمر الأمير بضربه، فقال له: لم تضربني؟ قال: لأن معك (آلة الخمر) قال: أنت أعزك الله معك آلة الزنا.

ومثل هذا ما حكي أنّه قدّم لبعض الحكام شيخ ومعه قنينة فارغة، فأمر أن يجلد الحد، فقال الشيخ: ولم تجلدني الحد؟ قال: لأن معك آلة الخمر، قال: فكشف الرجل عن ذكره وقال: هذا أيضاً آلة الزنا، قال: فضحك منه هو والحاضرون وأطلقه لشأنه.

وهذا الذي ذكرناه لك من باب التمثيل، وإلاّ فالعمل بالظن مذموم بالضرورة، وجميع ما في الروض الأوّل في ذم العمل على الظن، ولا يخرج منه ما كان مجعولاً بنظر الشارع، كالذي حررناه فيما تقدم من الأمور الكاشفة كالإستخارة والإستشارة، وهوى النفس وغير ذلك من الإمارات، فإنما يعتمد العمل عليها من جهة الشرع والعرف، وكذلك ما استثناه الأصوليون من أصالة حرمة العمل بالظن، كالعمل بخبر الواحد والشهرة والإجماع وغير ذلك من الظنون الخاصة فإنها استثنيت من جهة اعتبار الشارع لها والعقل أيضاً وما سوى ذلك فإنه مذموم شرعاً وعقلاً.

انتهى ما نقلناه عن (الرياض الخزعلية).

* * *

هذا هو المجلد الثاني من كتابنا (أنوار الحِكَم ومحاسن الكَلِم)، وقد تمّ ولله الحمد والفضل في يوم الخميس تاسع عشر جمادي الأوّل من سنة ألف وأربعمائة وستة هجرية بقلم مؤلفه حسن السيد عليّ القبانجي النجفي سامحه الله وغفر له، ويتلوه المجلد الثالث إن شاء الله تعالى، وأوّله قوله عليه السلام: «إِنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيماً فَتَحَلَّمْ فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إِلاَّ أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ».

* * *

فهرست الموضوعات

* * *

